دكتوراة
حول سيد قطب ومنهجه في العقيدة



اسم الكتاب: سيد قطب ومنهجه في العقيدة

المؤلف: ماجد بن محمد علي شبالة

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٨٨٢٢.

نوع الطباعة: لون واحد.

عدد الصفحات: ١٥٣٦.

القياس: ١٧×٢٤.

تجهيزات فنية:

مكتب دار الإيمان للتجهيزات الفنية

أعمال فنية وتصميم الغلاف الأستاذ / يسري حسن.

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤م

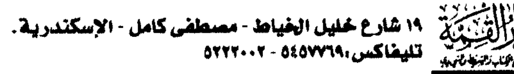
الادارة



١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٦٤٩٦

المبيعات





١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان فرع النزهة

أمام كوبري النزهة القديم - النزهة - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٣٨١٦٠٤٢

فرع القاهرة



درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر - القاهرة.
تليفون: ٢٥١٢٠٦٢١

E-mail dar_aleman@hotmail.com

دكتوراة حول سيد قطب ومنهجه في العقيدة

بين الموافقين والمخالفين
(دراسة نقدية)

أصل هذا الكتاب رسالة علمية نال بها المؤلف
درجة الدكتوراة في العقيدة

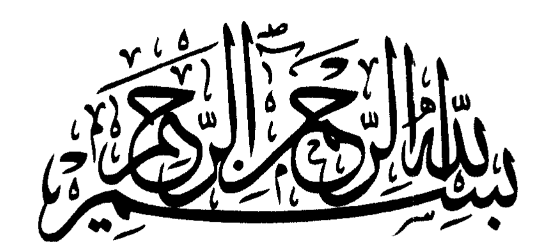
تأليف

الدكتور ماجد محمد علي أحمد شبالة
عضو هيئة التدريس بكلية الآداب

المجلد الثاني



دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩



الفصل الثالث

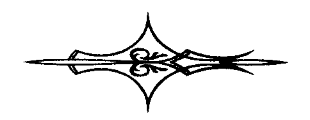
منهجه في توحيد الألوهية

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف توحيد الألوهية ومكانته في الدين .

المبحث الثاني : منهجه في تقرير توحيد الألوهية وإبطال الشرك .

المبحث الثالث : خصائص الألوهية ومجالاتها .





المبحث الأول
تعريف توحيد الألوهية ومكانته في الدين



سبق معنا عند الحديث عن أنواع التوحيد وموقف سيد قطب منها : بيان مفهوم توحيد الألوهية والربوبية والعلاقة بينهما عند جمهور السلف وعند سيد قطب ، وحقيقة الخلاف بينهما وسببه ، ويمكننا هنا أن نشير إلى مفهوم الألوهية عند سيد قطب - رحمه الله - كما يأتي :

ويمكننا هنا أن نشير إلى مفهوم الألوهية عند سيد قطب رحمه الله - كما يأتي :

أولًا: تعريف توحيد الألوهية عند جمهور السلف :

يقصد بتوحيد الألوهية عند جمهور أهل السُّنَّة والجماعة : توحيد الله -سبحانه وتعالى - بأفعال العباد ، بمعنى بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة دون سواه وهو معنى " لا إله إلا الله " ، أي لا معبود بحق إلا الله .

وهذا النوع من التوحيد - توحيد الألوهية - هو الذي كان ينكره المشركون مع إقرارهم بتوحيد الربوبية وأن الله هو الخالق ،والرب والمالك والمدبر كما حكى القرآن ذلك عنهم كثيرًا [(١)] .

ثانيًا: تعريف توحيد الألوهية عند سيد قطب :

يرى سيد - تبعًا للمودودي : أن الألوهية مصطلح عام وشامل يندرج تحته مجالان :

المجال الأول: تدبير الله للكون وما فيه ومن فيه، وتصريف الحياة فيه ، وضبط النواميس والسنن التي تسيره - وهذا ما يسميه أهل السُّنَّة بالربوبية -.

المجال الثاني: مجال الحكم والتشريع للناس وتدبير أمورهم وإخضاعهم وتعبيدهم لله سبحانه وتعالى - وهذا ما يسميه أهل السُّنَّة بالألوهية - ويطلق عليه

(١) ينظر في ذلك : شرح الطحاوية ١/ ٢٤ ، وفتح المنان للألوسي ص ٥٢١ ، وشرح الواسطية لابن عثيمين ص٢٠ .

سيد قطب اسم " الربوبية " ويجعله مظهرًا ومجالًا من مجالات الألوهية العامة .

ويرى سيد أن المشركين كانوا منكرين لهذا النوع من التوحيد وهو إفراد الله سبحانه وتعالى بالحاكمية والتشريع والطاعة ، ويظهر من خلال ما سبق :

١ -أن سيدًا - رحمه الله - يتفق مع جمهور أهل السُّنَّة والجماعة على حقيقة التوحيد، حيث يرى الجميع أن التوحيد مصطلح يشمل الإقرار بوجود الله ووحدانيته وأفعاله وصفاته ، والتوجه إلى إليه وحده بالعبادة والطاعة في كل أمور الحياة، وإن اختلف معهم في تسمية أقسام هذا التوحيد و أنواعه ، لكن النتيجة العامة عند الجميع واحدة في حقيقتها .

٢- أن الجميع يقررون تلازم أنواع التوحيد وترابطها ، وأنه لابد من وجودها جميعًا حتى يكون مقبولًا عند الله تعالى ، وأنه لا يقبل جزء دون أخر .

٣- أن الجميع متفقون على أن توحيد الألوهية هو الأساس والغاية ، والنتيجة والثمرة الذي لا يقبل الله إيمان أحد ولا عمله إلا أن يقرَّ به ، ويقصره على الله وحده لا شريك له سواء عند أهل السُّنَّة الذين يسمونه بتوحيد الألوهية ، أو عند سيد الذي يسميه بالربوبية ويجعله مظهرًا من مظاهر الألوهية العامة.

٤- أن سيد قطب - وقبله المودودي أيضا - في بيانهم لمفهوم الألوهية والربوبية اعتمدا على بعض ما ورد في اللغة العربية من استعمال لمصطلح الربوبية في الملك والحاكمية والطاعة والسلطان والتشريع ونحوها . واستعمال الألوهية في التدبير والحاكمية والسلطان ، والطاعة والعبادة [١]، وكذا اعتمدا على بعض الآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ الألوهية والربوبية بهذه المعاني [٢].

ثالثًا: مكانة توحيد الألوهية في الدين :

توحيد الألوهية عند أهل السُّنَّة والجماعة هو الغاية العظمى، والمقصد الأساسي

---

(١) انظر : لسان العرب (١/ ٢٢ ، (١٣/ ٤٦٨ ، وفي ظلال القرآن في الميزان، د/ صلاح الخالدي ص ١٦٨-١٧٠ .

(٢) المصطلحات الأربعة للمودودي ص ١٥ وما بعدها ، وفي ظلال القرآن ، سيد قطب : ١/ ٣٨٣ ، ٣٨٥، ٤٨٢ ، ٤٩٢ ، ٢/ ١٠٦٣ ، ٣/ ١٣٤٦ ، ١٣٥٣ ، ١٧٦٣ ، ٤/ ١٩١٠ ، ١٩١٢، وفي ظلال القرآن في الميزان، د/ صلاح الخالدي ص١٥٥ وما بعدها .

الذي من أجله خلق الله الخلق وأوجدهم في هذه الأرض ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١).

وهو أيضًا الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب ، فإن الله لم يبعث رسله وينزل كتبه إلا لتعريف خلقه به سبحانه وإخلاص توحيده وإفراده في العبادة قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (٢).

كما أن توحيد الألوهية من أعظم الأصول التي قررها القرآن الكريم ، وأكملها وأفضلها ، وألزمها لصلاح الإنسانية ، وجميع الآيات القرآنية إما أمر به ، أو بحق من حقوقه أو نهى عن ضده ، أو إقامة حجة عليه ، أو بيان جزاء أهله في الدنيا والآخرة ، أو الفرق بينهم وبين المشركين .

كما أنه أول واجب على المكلف وآخر ما يخرج به الإنسان من هذه الدنيا (٣).

أما مكانة توحيد الألوهية والعبادة وأثاره في حياة البشرية عند سيد قطب فيمكن بيانه فيما يأتي :

١ - **نزول القرآن الكريم لتقريره:** يقول سيد " إن القضية التي نزل الكتاب – القرآن الكريم – لتقريرها وتوكيدها ، هي قضية توحيد الله ، وإفراده بالعبادة ، وإخلاص الدين له ، وتنزيهه عن الشرك في كل صورة من صوره ، والاتجاه إليه مباشرة بلا وسيط ولا شفيع " (٤).

٢ - **كونه الغاية التي بعث من أجلها النبي ﷺ :** يقول سيد " إن منهج النبي ﷺ الذي يدعو إليه الناس كافة هو عبادة الله وحده وإخلاص الدين له ، وقيام الحياة على أساس هذا التوحيد . وتوحيد الله وإخلاص الدين له ليس كلمة تقال باللسان، وإنما هو منهاج حياة كاملة ، يبدأ من تصور واعتقاد في الضمير ، وينتهي إلى نظام

---

(١) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .
(٢) سورة النحل : الآية ٣٦ .
(٣) ينظر ذلك : شرح العقيدة الطحاوية ٢١ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ٤٣ ، والدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد للشوكاني دار الكتب العلمية ب٠ت ، ص ٣٠، ٣١ ، ومعارج القبول للحكمي دار ابن القيم – الدمام ط٣ عام ١٤١٥هـ ٢/ ٤٠٢ وما بعدها ،
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٣٦ .

يشمل حياة الفرد والجماعة "[١].

٣- كونه مفرق الطريق بين الإسلام وما سواه : يقول سيد : "وهذا التوحيد الخالص الناصع وهو مفرق الطريق بين عقيدة المسلم وسائر العقائد، سواء عقائد الملحدين والمشركين، أو عقائد أهل الكتاب المنحرفين، يهودًا أو نصارى على اختلاف مللهم ونحلهم جميعًا، كما أنه هو مفرق الطريق بين حياة المسلم وحياة سائر أهل العقائد في الأرض، فالعقيدة هنا تحدد منهج الحياة ونظامها تحديدًا كاملًا دقيقًا"[٢]، وبالتالي ركز عليها القرآن الكريم كثيرًا .

٤- كونه قاعدة الإيمان : يقول سيد : " إن وحدة الألوهية هي القاعدة الكبيرة التي يقوم عليها التصور الإيماني فلم يكن هناك جدل حول الاعتقاد بوجود إله - تختلف التصورات حول ذاته وصفاته وحول علاقاته بالخلق ولكنها لا تنفي وجوده، - ولم يقع أن نسيت الفطرة هذه الحقيقة، حقيقة وجود إله، إلا في هذه الأيام الأخيرة، حيث نبتت نابتة منقطعة عن أصل الحياة، منقطعة عن أصل الفطرة، تنكر وجود الله، وهي نابتة شاذة لا جذور لها في أصل هذا الوجود، ومن ثم فمصيرها حتمًا إلى الفناء والاندثار عن هذا الوجود، والذي لا يطيق تكوينه ولا فطرته بقاء هذا الصنف من الخلائق مقطوعة الجذور !.

ولذلك اتجه السياق القرآني دائمًا إلى الحديث عن وحدة الألوهية، بوصفها التصحيح الضروري للتصور، والقاعدة الأساسية لإقامة هذا التصور.. ثم لإقامة سائر القواعد الأخلاقية والنظم الاجتماعية المنبثقة من هذا التصور، تصور وحده الألوهية في هذا الوجود ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

ومن وحدانية الألوهية التي يؤكدها هذا التأكيد، بشتى أساليب التوكيد، يتوحد المعبود الذي يتجه إليه الخلق بالعبودية والطاعة، وتتوحد الجهة التي يتلقى منها الخلق قواعد الأخلاق والسلوك، ويتوحد المصدر الذي يتلقى منه الخلق أصول الشرائع والقوانين، ويتوحد المنهج الذي يصرف حياة الخلق في كل طريق "[٣].

---

(١) المصدر السابق ٥/ ٣٠٣٦ .
(٢) المصدر السابق ١/ ٣٦٥-٣٦٧، ٣٩٠ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ١٥١-١٥٢ بتصرف .

٥- كونه الأصل الذي ينبثق منه منهج الإسلام للحياة : يقول سيد : " فهذه الوحدانية الحاسمة التي لا مجال فيها لأي انحراف أو لبس مما طرأ على الديانات السابقة – بعد الرسل – كعقيدة التثليث عند النصارى .. والأساطير عند الوثنيين .. هذه الوحدانية الحاسمة الناصعة هي القاعدة التي يقوم عليه التصور الإسلامي، والتي ينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها ، فمن هذا التصور ينشأ الاتجاه إلى الله وحده بالعبودية والعبادة ، فلا يكون إنسانًا عبدًا إلا لله ، ولا يتجه بالعبادة إلا لله ولا يلتزم بطاعة إلا طاعة الله ، وما يأمره به من الطاعات ، وعن هذا التصور تنشأ قاعدة الحاكمية لله وحده ، فيكون الله وحده هو المشرع للعباد ، ويجيء تشريع البشر مستمدًا من شريعة الله ، وعن هذا التصور تنشأ قاعدة استمداد القيم كلها من الله، فلا اعتبار لقيمة من قيم الحياة كلها إذا لم تقبل في ميزان الله ، ولا شرعية لوضع أو تقليد أو تنظيم يخالف عن منهج الله ، هكذا إلى أخر ما ينبثق عن الوحدانية من مشاعر في الضمير أو مناهج لحياة الناس في الأرض على السواء " [(١)].

٦- كونه أساس صلاح واستقامة الحياة البشرية عمومًا وسبب للاستعلاء بالإيمان: يقول سيد : " إن توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية ، وتوحيد القوامة ، وتوحيد الحاكمية، وتوحيد مصدر الشريعة ، وتوحيد منهج الحياة ، وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة ، إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل ، وان تبذل في سبيله كل هذا الجهود ، وان تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار الزمان .. لا لأن الله سبحانه وتعالى في حاجة إليه ، فالله سبحانه وتعالى غني عن العالمين ، ولكن لأن حياة البشر لا تصلح و لا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح لائقة بالإنسان إلا بهذا التوحيد الذي لا حد له لتأثيره في الحياة البشرية في كل جوانبها على السواء " .

وقيمة حقيقة التوحيد في الحياة البشرية في كل جوانبها على السواء نبينها إجمالاً فيما يأتي :

– ننظر ابتداء إلى أثر حقيقة التوحيد – على هذا النحو الشامل – في كيان الكائن الإنساني نفسه من ناحية وجوده الذاتي، وحاجته الفطرية ، وتركيبة الإنساني، وأثرها في تصوره ، وأثر هذا التصور في كيانه ..إن هذا التصور إذ يتناول الأمور على هذا

(١) المصدر السابق ١/ ٢٨٦ بتصرف .

النحو الشامل – لكل معاني الشمول – يخاطب الكينونة البشرية بكل جوانبها ، وبكل أشواقها ، وبكل حاجاتها ، وبكل اتجاهاتها ، ويردها إلى جهة واحدة تتعامل معها ، جهة تطلب عندها كل شيء ، وتتوجه إليها بكل شيء ، جهة واحدة ترجوها وتخشاها ، وتتقي غضبها ، وتبتغي رضاها ، جهة واحدة تملك لها كل شيء ، لأنها خالقة كل شيء ، ومالكة كل شيء ، ومدبرة كل شيء .

كذلك يرد الكينونة الإنسانية إلى مصدر واحد، تتلقى منه تصوراتها ومفاهيمها، وقيمها وموازينها وشرائعها وقوانينها، وتجد عنده إجابة عن كل سؤال يجيش فيها وهي تواجه الكون والحياة والإنسان،بكل ما يثيره كل منها من علامات الاستفهام.

عندئذ تتجمع هذه الكينونة .. تتجمع شعورًا وسلوكًا ، وتصورًا واستجابة ، في شأن العقيدة والمنهج وشأن الاستمداد والتلقي ، وشأن الحياة والموت ، وشأن السعي والحركة ، وشأن الصحة والرزق ، وشأن الدنيا والآخرة ، فلا تتفرق مزقًا، ولا تتجه إلى شتى السبل والآفاق، ولا تسلك شتى الطرق على غير اتفاق.

والكينونة الإنسانية حين تتجمع على هذا النحو ، تصبح في خير حالاتها ، لأنها تكون حينئذ في حالة " الوحدة " التي هي طابع الحقيقة في كل مجالاتها .. فالوحدة هي حقيقة الخالق- سبحانه وتعالى- الوحدة هي حقيقة هذا الكون على تنوع المظاهر والأشكال والأحوال ، والوحدة هي حقيقة الحياة والأحياء على تنوع الأنواع والأجناس ، والوحدة هي حقيقة الإنسان على تنوع الأفراد والاستعدادات، والوحدة هي – غاية الوجود الإنساني- وهي العبادة – على تنوع مجالات العبادة وهيئاتها، وهكذا حيثما بحث الإنسان عن الحقيقة في هذا الوجود .

إن هذه الحقيقة ليست أهميتها فقط في تصحيح التصور الإيماني، وإن كان هذا التصحيح في ذاته غاية ضخمة يقوم عليها بناء الحياة كلها ، بل إن أهميتها كذلك في حسن تذوق الحياة ، وبلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق .

فقيمة الحياة الإنسانية ذاتها ترتفع حين تصبح كلها عبادة لله ، وحين يصبح كل نشاط فيها – صغر أم كبر- جزءًا من هذه العبادة ، أو كل العبادة ، متى نظرنا إلى المعنى الكبير الكامن فيه ، وهو إفراد الله – سبحانه – بالألوهية والإقرار له وحده

بالعبودية.. هذا المقام الذي لا يرتفع الإنسان إلى ما هو أعلى منه ، ولا يبلغ كماله الإنساني إلا في تحقيقه ، وهو المقام الذي بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى مقاماته التي ارتقى إليها، مقام تلقي الوحي من الله ، ومقام الإسراء.

وننتقل إلى قيمة أخرى من قيم توحيد العبادة ، بمعنى الدينونة لله وحده ، وآثارها في الحياة الإنسانية :- إن الدينونة لله تحرر البشر من الدينونة لغيره ، وتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وبذلك تحقق للإنسان كرامته الحقيقية وحريته الحقيقية ، اللتان يستحيل ضمانهما في ظل أي نظام آخر- غير النظام الإسلامي- يدين فيه الناس بعضهم لبعض بالعبودية ، في صورة من صورها الكثيرة.. سواءً عبودية الاعتقاد، أوعبودية الشعائر، أوعبودية الشرائع، فكلها عبودية، وبعضها مثل بعض، تُخضع الرقاب لغير الله، بإخضاعها للتلقي في أي شأن من شؤون الحياة لغير الله.

والناس لا يملكون أن يعيشوا غير متدينين! لا بد للناس من دينونة ، والذين لا يدينون لله وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير الله ، في كل جانب من جوانب الحياة! إنهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حد ولا ضابط ومن ثم يفقدون خاصتهم الآدمية ويندرجون في عالم البهيمة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[1].

ولا يخسر الإنسان شيئًا كأن يخسر آدميته ، ويندرج في عالم البهيمة ، وهذا هو الذي يقع حتماً بمجرد التملص من الدينونة لله وحده ، والوقوع في الدينونة للهوى والشهوة ... وهذا يقودنا إلى قيمة توحيد العبادة والدينونة في صيانة أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم ، التي تصبح كلها ولا عاصم لها عندما يدين العباد للعباد ، في صورة من صور الدينونة . سواء في صورة حاكمية التشريع ، أو في صورة حاكمية الأعراف والتقاليد ، أو في صورة حاكمية الاعتقاد والتصور .

إن الدينونة لغير الله في الاعتقاد والتصور معناها الوقوع في براثن الأوهام والأساطير والخرافات التي لا تنتهي ، والتي تمثل الجاهليات الوثنية المختلفة صورًا منها ، وتمثل أوهام العوام المختلفة صورًا منها ، وتقدم فيها النذور والأضاحي من

(١) سورة محمد، الآية ١٢.

الأموال - وأحيانا من الأولاد- تحت وطأة العقيدة الفاسدة والتصور المنحرف! ويعيش الناس معها في رعب من الأرباب الوهمية المختلفة ، ومن السدنة والكهنة المتصلين بهذه الأرباب ، ومن السحرة المتصلين بالجن والعفاريت ، ومن المشايخ والقديسين أصحاب الأسرار، ومن . . ومن . . من الأوهام التي ما يزال الناس في رعب منها ، وفي خوف و تقرب و رجاء ، حتى تتقطع أعناقهم وتتوزع جهودهم ، وتتبدد طاقاتهم في مثل هذا الهراء...

وأخيرًا تجيء تكاليف العبودية لحاكمية البشرية ، وما من أضحية يقدمها عابدُ الله لله إلا ويقدم الذين يدينون لغير الله أضعافها للأرباب الحاكمة ، من الأموال والأنفس والأعراض ...

وأخيرًا فإن توحيد العبادة والدينونة لله وحده ، ورفض العبادة والدينونة لغيره من خلقه ذو قيمة كبيرة في صيانة الجهد البشري من أن ينفق في تأليه الأرباب الزائفة، كي يوجه بجملته إلى عمارة الأرض ، وترقيتها ، وترقية الحياة فيها "(١)

" فالقلب الذي يوحد الله ، يدين لله وحده ، ولا يحني هامته لأحد سواه ، ولا يطلب شيئًا من غيره ولا يعتمد على أحد من خلقه ، فالله وحده هو القوي عنده، وهو القاهر فوق عباده ، والعباد كلهم ضعاف مهازيل ، لا يملكون له نفعًا ولا ضرًا ، فلا حاجة به إلى أن يحني هامته لواحد منهم ، وهم مثله لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا .. فلا حاجة به إلى أن يتوجه لأحد غيره وهو الغني والخلق كلهم فقراء ... وكذلك تبدو آثار التوحيد في التصورات والمشاعر ، كما تبدو في السلوك والتصرفات ، وترسم للحياة كلها منهاجًا كاملًا واضحًا متميزًا ، ولا يعود التوحيد كلمة تقال باللسان ، من ثم كانت تلك العناية بتقرير عقيدة التوحيد وتكرار الحديث عنها في الكتاب الذي أنزله الله ، وهو حديث يحتاج إلى تدبره كل أحد ، في كل عصر، وفي كل بيئة ، فالتوحيد بمعناه ذلك عنى ضخم شامل يحتاج إلى فهم وإدراك . " (٢)

ومن خلال ما سبق نجد أن سيد قطب – رحمه الله – يبين أهمية توحيد الألوهية

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٣٨ -١٩٤٣ بتصرف ، وينظر أيضًا : ١/ ٣٩٢، ٤/ ١٩٠١، ٥/ ٣٠٣٦ .
(٢) المصدر السابق ٥/ ٣٠٣٦ بتصرف يسير .

- العبادة - في أمور عديدة منها :

١- تجميع الكينونة الإنسانية شعورًا وسلوكًا ، وتصورًا واستجابة ، واستمدادًا وتلقينًا ، في كل شؤون الحياة ، فلا تتفرق بها السبل .

٢- حسن تذوق الحياة ، وبلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق.

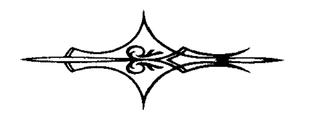
٣- تحرير البشر من الدينونة لغير الله في أي صورة من صور الدينونة ، وبذلك يتحقق للإنسان كرامته وحريته الحقيقية التي لا يمكن أن توجد في غير صورة التوحيد الناصعة.

٤- صيانة أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم ، والتي تذهب كلها في ظل الدينونة لغير الله.

٥- حماية الإنسان من الوقوع في براثن الأوهام والأساطير والخرافات التي لا تنتهي .

٧- صيانة الجهد البشري من أن ينفق في تألية الأرباب الزائفة ، كي يوجه بجملته إلى عمارة الأرض وترقيتها .

٨- تحقيق العزة والغنى للبشر ، فلا يذل الموحد ولا يحني هامته لغير الله سبحانه وتعالى.



المبحث الثاني
منهجه في تقرير توحيد الألوهية وإبطال الشرك



سلك سيد قطب – رحمه الله – في تقريره لتوحيد الألوهية – العبادة – وإبطال الشرك، مسلك أهل السُّنَّة والجماعة المتلقى من القرآن الكريم.[1]

وباستقراء كلامه حول هذا الموضوع نجد أنه ركز كثيرًا على بيان طريقة القرآن الكريم في تقرير توحيد الألوهية – العبادة – وإبطال الشرك بكل صورة و أشكاله، ويمكن بيان طرق وأساليب القرآن الكريم في تقرير توحيد الألوهية التي أشار إليها سيد – رحمه الله – فيما يأتي:

أولا :- الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك :

وهذا الأسلوب أحد أساليب القرآن الكريم في تقرير توحيد الألوهية – العبادة – والدعوة إليه وإبطال ما سواه، وقد جاء في كثير من الآيات القرآنية.

وقد أشار سيد – رحمه الله – إلى هذا الأسلوب القرآني في ظلال عدد من الآيات ومن ذلك :

١ – قوله – رحمه الله – : " إن الحقيقة الأولى البارزة التي تعرض في القرآن الكريم هي التركيز على الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة غيره، وتقرير أن هذا هو الدين كله...

ويبقى هنا أن نجلي طريقة المنهج القرآني في تقرير هذه الحقيقة، وقيمة هذه الطريقة :

إن حقيقة توحيد العبادة لله ترد في صيغتين هكذا :-

– ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾[2].

---

(١) ينظر : كلام أهل السُّنَّة في تقرير توحيد الألوهية في : دعوة التوحيد لهراس ص ٣٩-٤٥ ، والإرشاد للفوزان ص ٢٧-٣٠، وفقه التوحيد للشيخ خالد العك ص ٥٥ .

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٢٣.

- ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴾ (١) .

وواضح اختلاف الصيغتين بين الأمر والنهي ، فهل مدلولها واحد؟ .

إن مدلول الصيغة الأولى: الأمر بعبادة الله ، وتقرير أن ليس هناك إله يعبد سواه، ومدلول الصيغة الثانية : النهي عن عبادة غير الله ...وهو مقتضى المدلول الأول ومفهومه ، ولكن الأول " منطوق " والأخر " مفهوم " ولقد اقتضت حكمة الله في بيان هذه الحقيقة الكبيرة ، عدم الاكتفاء بالمفهوم في النهي عن عبادة غير الله ، وتقرير هذا النهي عن طريق منطوق مستقل ، وإن كان مفهومًا ومتضمنًا في الأمر الأول.

إن هذا يعطينا إيحاءً عميقًا بقيمة تلك الحقيقة الكبيرة ، ووزنها في ميزان الله سبحانه ، بحيث تستحق ألاّ توكل إلى المفهوم المتضمن في الأمر بعبادة الله وتقرير أن لا إله يعبد سواه، وأن يرد النهي عن عبادة سواه في منطوق مستقل يتضمن النهي بالنص المباشر لا بالمفهوم المتضمن! ولا بالمقتضى اللازم!.

- كذلك تعطينا طريقة المنهج القرآني في تقرير تلك الحقيقة بشطريها ، عبادة الله وعدم عبادة سواه أن النفس البشرية في حاجة إلى النص القاطع على شطري هذه الحقيقة سواء، وعدم الاكتفاء معها بالأمر بعبادة الله وحده ، ذلك أن الناس يجيء عليهم زمان لا يجحدون الله ولا يتركون عبادته ، ولكنهم - مع هذا - يعبدون معه غيره ، فيقعون في الشرك وهم يحسبون أنهم مسلمون! ومن ثم جاء التعبير القرآني عن حقيقة التوحيد بالأمر وبالنهي معًا ، بحيث يؤكد أحدهما الأخر ، التوكيد الذي لا تبقى معه ثغرة ينفذ منها الشرك في صورة من صوره الكثيرة .

وقد تكرر مثل هذا التعبير القرآني في مواضع شتى، هذه نماذج منها من هذه السورة ومن سواها:

- ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴾ (٢).

---

(١) سورة هود: الآية ٢.

(٢) سورة هود: الآية ١ - ٢.

- ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾[1].

- ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾[2].

- ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾[3].

- ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[4].

- ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[5].

وهو منهج مطرد في التعبير القرآني عن حقيقة التوحيد، له دلالته من غير شك، سواء في تجلية قيمة هذه الحقيقة وضخامتها التي تستدعي ألا توكل في أي جانب من جوانبها إلى المفهومات الضمنية والمقتضيات اللازمة، وإنما يُنص نصًا منطوقًا على كل جانب فيها.

أو في دلالة هذه الطريقة على علم الله - سبحانه - بطبيعة الكائن الإنساني، وحاجته في تقرير هذه الحقيقة الكبيرة وصيانتها في حسه وتصوره من أية شبهة أو غبش إلى التعبير الدقيق عنها على ذلك النحو، الذي يتجلى فيه القصد والعمد. ولله الحكمة البالغة، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير ".[6]

في ظلال قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[7]، يقول سيد: "إنه النهي عن الشرك والتحذير من

---

(١) سورة هود: الآية ٢٥- ٢٦.
(٢) سورة هود: الآية ٥٠.
(٣) سورة النحل: الآية ٥١.
(٤) سورة آل عمران: الآية ٦٧.
(٥) سورة الأنعام: الآية ٧٩.
(٦) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٣٥ -١٩٣٦.
(٧) سورة الإسراء: الآية ٢٢-٢٣.

عاقبته ، والأمر عام ، ولكنه وجه إلى المفرد ليحس كل أحد أنه أمر خاص به.. ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ أمر بتوحيد المعبود بعد النهي عن الشرك ، أمرٌ في صورة قضاء ، فهو أمرٌ حتمي حتمية القضاء ، ولفظة ﴿ وَقَضَىٰ ﴾ تخلع على الأمر معنى التوكيد إلى جانب القصر الذي يفيده النفي والاستثناء ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ فتبدو في جو التعبير ظلال التوكيد والتشديد "[١]

في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[٢] ، يقول سيد : " الأمر الأول بعبادة الله ، والنهي الثاني لتحريم عبادة أحد - معه - سواه ، نهيًا باتًا شاملًا، لكل أنواع المعبودات التي عرفتها البشرية :) وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا (شيئًا كائنًا ما كان، من مادة أو حيوان أو إنسان أو ملك أو شيطان، فكلها مما يدخل في مدلول كلمة شيء، عند إطلاق التعبير على هذا المنوال "[٣].

في ظلال قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[٤]،

يقول سيد : " زيادة في توكيد المعنى - عن طريق النهي المباشر عن الشرك بعد الأمر المباشر بالإيمان "[٥].

والآيات في هذا الباب كثيرة يصعب استقصاء كلام سيد حولها، نكتفي بالنماذج السابقة[٦].

ثانيًا : الاستدلال بآيات الربوبية في الخلق والتدبير والملك والرعاية وغيرها :

حيث يقرر القرآن الكريم توحيد الربوبية ، ويبين أنه لا خالق إلا الله ، ولا متصرف في الكون إلا هو سبحانه وتعالى ويجعل ذلك دليلًا على وجوب إفراده سبحانه بالعبادة ، فيجعل الأول دليلًا على الثاني ، ويلزم المقرين بالربوبية الإقرار

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٢٠-٢٢٢١ .
(٢) سورة النساء : الآية ٣٦.
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٦٥٩-٦٦٠ .
(٤) سورة يونس : الآية ١٠٥.
(٥) في ظلال القرآن ٣/ ١٨٢٥ .
(٦) ينظر: في ظلال القرآن ٢/ ١١٠٩ ، ٤/ ٢٢٠٠، ٢٤٢١ .

بالألوهية .[١]

ويقف سيد – رحمه الله – كثيرًا في ظلال الآيات التي تتحدث عن الخلق والتدبير، ويعرض منهج القرآن الكريم في مواجهة المشركين باعترافهم لله بالخلق والتدبير ليجعل من ذلك دليلًا ملزمًا لوجوب إفراده سبحانه وتعالى بالعبادة والتوجه، ويمكن عرض بعض النصوص ومنها :

١- في ظلال قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[٢] ، يقول سيد : " إنه النداء إلى الناس كلهم لعبادة ربهم الذي خلقهم والذين من قبلهم ، ربهم الذي تفرد بالخلق، فوجب أن يتفرد بالعبادة ، والقرآن يقررأن من حق الربوبية الخالصة عبادة الخالق وحده ، ويذكرهم بجعل الأرض فراشًا والسماء بناءً ، وإنزال الماء وإخراج الثمرات ... في معرض الدعوة إلى عبادة الخالق وحده، وينبههم إلى إنهم يعلمون هذا جيدًا، بالتالي فالشرك بعد هذا العلم تصرف لا يليق "[٣].

ويقول أيضًا : " إن تفرد الله -- سبحانه وتعالى - بالخالق يفرده سبحانه بالملك، والمتفرد بالخلق والملك يتفرد كذلك بالرزق ، فهو خالق خلقه ومالكهم ، وهو كذلك يرزقهم من ملكه الذي ليس لأحد شرك فيه ، فإذا تقررت هذه الحقائق .. الخلق والملك والرزق ، تقرر معها – ضرورةً وحتمًا – أن تكون الربوبية له سبحانه، فتكون له وحده خصائص الربوبية – وهي القوامة والتوجيه والسلطان الذي يُخضع له ويطاع ، والنظام الذي يتجمع عليه العباد – وتكون له وحده العبادة بكل مدلولاتها ، ومنها الطاعة والخضوع والاستسلام "[٤].

"و المنهج القرآني يكثر من عرض حقيقة الرزق الذي يختص الله بمنحه للناس

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٦-٣٧ .
(٢) سورة البقرة: الآية ٢١-٢٢.
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٤٦-٤٧ بتصرف .
(٤) المصدر السابق ٢/ ١١٦٣-١١٦٤ ، وينظر أيضًا : ٣/ ١٧٦٢ .

ليتخذ منها برهانا على ضرورة إفراد الله سبحانه بالحاكمية في حياة الناس.." (١).

وفي مقدمته لسورة الأنعام يقول : " تبدأ السورة بمواجهة المشركين الذين يتخذون مع الله آلهةً أخرى، بينما دلائل التوحيد تجبههم وتواجههم وتحيط بهم وتطالعهم في الآفاق وفي أنفسهم، تبدأ بمواجهتهم بحقيقة الألوهية متجلية في لمسات عريضة تشمل الوجود كله، وتشمل وجودهم كله ، تبدأ في لمسات ثلاث ترسم مجالي الوجود الكبيرة على أقصى عمق واتساع ،﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ (٢) .

ثلاث آيات تذرع الوجود الكوني كله في الآية الأولى ، وتذرع الوجود الإنساني كله في الآية الثانية ثم تحيط الألوهية بالوجودين كليهما في الآية الثالثة .أي إعجاز! وأي روعة ! وأي شمول ! وأي إحاطة ! ، وأمام هذا الوجود الكوني الشاهد بوحدة الخالق ، والوجود الإنساني الشاهد بتدبيره ، والألوهية الحاكمة في السماوات والأرض العالمة بالسر والجهر والكسب يبدو شرك المشركين وافتراء المفترين،عجبًا منكرًا لا مكان له في نظام الكون، ولا في فطرة النفس ولا سند له في القلب والعقل" (٣) .

" وعرض حقيقة الألوهية فيما سبق، ليس لمجرد التقرير اللاهوتي أو الفلسفي النظري السلبي، ولكن لتقرير مقتضيات هذه الحقائق في الحياة الإنسانية ، من إسلامها بجملتها لله وحده ، لا تعدل به أحدًا .. والاستسلام لحاكمية الله وحده في كل شؤونها .. والآيات من (١٢- ١٩) . تستهدف أيضًا إبراز حقيقة الألوهية، ممثلة في الملك والفاعلية ، وفي الرزق والكفالة ، وفي القدرة والقهر، وفي النفع والضر.. كل ذلك لتقرير مقتضيات هذه الحقائق من توحيد الولاية والتوجه، وتوحيد الاستسلام والعبودية " (٤) .

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٢٢٣ ، وينظر أيضًا :٣/ ١٢٢٩، ١٢٢٨، ١٢٩٧ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١ - ٣ .

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٢٢-١٠٢٣ ، بتصرف يسير و٢/ ١٠٣٠-١٠٣٢ .

(٤) المصدر السابق ٢/ ١٠٤٦-١٠٤٧ بتصرف و ٢/ ١٠٥٣ .

" وبما أن المشركين لم يكونوا ينكرون وجود الله ، ولا أنه الخالق ، والرازق ، والمدبر ، إنما كانوا يتخذون الشركاء للزلفى ، أو يعتقدون أن لهم قدرة مع قدرة الله ، فهو هنا يأخذهم بما يعتقدونه هم أنفسهم، ليصحح لهم عن طريق إيقاظ الوعي والفطرة، ذلك الخلط والضلال، فيخاطبهم بقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[١].

فهذه مقومات الحق والإيمان قائمة في اعتقادهم يعترفون بها ، ولكنهم ينكرون نتائجها اللازمة ، ولا يقومون بمقتضياتها الواجبة ، - أي عبادة الله وحده .. "[٢]

٣- يقول أيضًا : " وفي ختام سورة النمل... يقفهم السياق أمام مشاهد في صفحة الكون وفي أطواء النفس لا يملكون إنكار وجودها ، ولا يملكون تعليلها بغير التسليم بجود الخالق الواحد المدبر القدير ، ويتوالى عرض هذه المشاهدات في إيقاعات مؤثرة ، تأخذ عليهم أقطار الحجة ، وأقطار المشاعر ، وهو يسألهم أسئلة متلاحقة : من خلق السموات والأرض ، من أنزل من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة ؟ من جعل الأرض قرارًا ، وجعل خلالها أنهارًا ، وجعل له رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزًا ؟ من يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء؟ ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ ومن يهديكم في ظلمات البر والبحر ؟ ومن يرسل الرياح بشرًا بين يدي رحمته ؟ ومن يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ من يرزقكم من السماء والأرض ؟ وفي كل مرة يقرعهم : أإله مع الله ؟ .

وهم لا يملكون أن يدعوا هذه الدعوى ، لا يملكون أن يقولوا : أن إلهًا مع الله يفعل من هذا كله شيئًا وهم مع هذا يعبدون أربابا من دون الله !.... وهي جولة في الأفاق وفي أنفسهم لإثبات الوحدانية ونفي الشريك "[٣] .

---

(١) سورة يونس : الآية ٣١-٣٢ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٨١-١٧٨٣ بتصرف و ٥/ ٣٠٩٤ ، ٣١٧٧ ، ٣١٨٠ .

(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٦٥٤ – ٢٦٥٥.و ٢٦٦١ و ينظر : مقومات التصور الإسلامي ص ٤٢ ، ١٥٣ ، ١٩٢ ، ٢٠٩ وما بعدها

ثالثا : الاستدلال بشهادة الله لنفسه بهذا التوحيد وشهادة الملائكة وأولي العلم :

من الأدلة على توحيد الألوهية شهادة الله لنفسه بهذا التوحيد ، وشهادة ملائكته وأنبيائه ورسله له ، قال تعالى:﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(١)، حيث تضمنت هذه الآية إثبات حقيقة التوحيد ، والرد على جميع طوائف الضلال فتضمنت أجلّ شهادة وأعدلها وأصدقها، من أجل شاهد ، بأجل مشهود به ، كما تضمنت الأمر والإلزام بما دلت عليه من التوحيد ، ووجه استلزام شهادته سبحانه وتعالى بذلك - أي الأمر والإلزام - انه إذا شهد أنه لا إله إلا هو ، فقد أخبر وبين وأعلم وحكم وقضى أن ما سواه ليس بإله ، وان إلهية ما سواه باطله فلا يستحق العبادة ، وهذا يفهمه المخاطب من النفي والإثبات (٢) .

وقد أشار سيد إلى هذه الدليل على الألوهية في ظلال الآية السابقة حيث يقول: " هذه هي الحقيقة الأولى التي يقوم عليها التصور الاعتقادي في الإسلام ، حقيقة التوحيد: توحيد الألوهية ، وهي الحقيقة التي بدأت بها السورة: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ وهي تستهدف إقرار حقيقة العقيدة الإسلامية من جهة، وجلاء الشبهات.. من جهة أخرى .

وشهادة الله - سبحانه - أنه لا إله إلا هو .. هي حسب كل من يؤمن بالله .. وقد يقال : إنه لا يكتفي بشهادة الله إلا من يؤمن بالله وأن من يؤمن بالله ، ليس في حاجة إلى هذه الشهادة ،ولكن واقع الأمر أن أهل الكتاب كانوا يؤمنون بالله ولكنهم في نفس الوقت يجعلون له ابنًا وشريكا ، بل إن المشركين أنفسهم كانوا يؤمنون بالله، ولكن الضلال كان يجيئهم من ناحية الشركاء والأنداد والأبناء والبنات! فإذا قرر لهؤلاء وهؤلاء أن الله - سبحانه - شهد أنه لا إله إلا هو ، فهذا مؤثر قوي في تصحيح تصوراتهم .

على أن الأمر - كما يبدو من متابعة السياق - أعمق من هذا وأدق ، فإن شهادة الله - سبحانه - بأنه لا إله إلا هو ، مسوقة هنا ليساق بعدها ما هو من مستلزماتها،

(١) سورة آل عمران: الآية.١٨

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٤٣ -٤٨ بتصرف .

وهو أنه لا يقبل إذن من العباد إلا العبودية الخالصة له، الممثلة في الإسلام بمعنى الاستسلام - لا اعتقادًا وشعورًا فحسب - ولكن كذلك عملًا وطاعة وإتباعا للمنهج العملي الواقعي المتمثل في أحكام الكتاب، ومن هذه الناحية نجد كثيرين في كل زمانٍ يقولون: إنهم يؤمنون بالله، ولكنهم يشركون معه غيره في الألوهية، حين يتحاكمون إلى شريعة من صنع غيره، وحين يطيعون من لا يتبع رسوله وكتابه، وحين يتلقون التصورات والقيم والموازين والأخلاق والآداب من غيره، فهذه كلها تناقض القول بأنهم يؤمنون بالله، ولا تستقيم مع شهادة الله - سبحانه وتعالى - بأنه لا إله إلا هو.

وأما شهادة الملائكة وشهادة أولي العلم، فهي متمثلة في طاعتهم لأوامر الله وحدها، والتلقي عن الله وحده، والتسليم بكل ما يجيئهم من عنده بدون تشكك ولا جدال، متى ثبت لهم أنها من عنده، وقد سبق في السورة بيان حال أولي العلم هؤلاء في قوله: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [(١)]، فهذه شهادة أولي العلم وشهادة الملائكة: تصديق وطاعة، وإتباع، واستسلام ....ويرتب على هذه الحقيقة التي عاد لتوكيدها مرتين في الآية الواحدة، نتيجتها الطبيعية، ألوهية واحدة، فلا عبودية إلا لهذه الألوهية الواحدة"[(٢)]، "وشهادة الله تعالى أكبر شهادة، فهو الذي يقص الحق وهو خير الفاصلين.. هو الذي لا شهادة بعد شهادته، ولا قول بعد قوله، فإذا قال فقد انتهى القول، وقد قضي الأمر... وشهادة الله سبحانه تضمنها هذا القرآن، الذي أوحاه إلى نبيه ﷺ لينذرهم به، فهو حجة على من يبلغه، لأنه يتضمن شهادة الله في هذه القضية الأساسية، التي تقوم عليها الدنيا والآخرة، ويقوم عليها الوجود كله والوجود الإنساني ضمنًا "[(٣)].

رابعًا: الاستدلال بدليل التمانع والنظر العقلي:

المشهور عن المتكلمين أن دليل التمانع من أدلة تقرير توحيد الربوبية [(٤)]،

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٨-٣٧٩ بتصرف يسير.

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٠٥٦ بتصرف يسير.

(٤) ينظر: الإرشاد للجويني ص ٤٩، ونهاية الإقدام للشهرستاني ص ٩١-٩٧، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٢٨.

إلا أن بعض علماء أهل السُّنَّة يسوقون هذا الدليل لتقرير الألوهية أيضا ، وهو ظاهر الآية الكريمة لمن تدبرها ، فالله يقول: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١).

وقد أشار شارح الطحاوية إلى ظن بعض الطوائف أن دليل التمانع خاص بالربوبية ، وغفلوا عن مضمون الآية ، فإنه سبحانه وتعالى أخبر أنه لو كان فيهما إله غيره ولم يقل أرباب، وأن الآية تدل على أنه لا يجوز أن يكون فيهما آلهة متعددة ، بل لا يكون إلا إله واحد ، هو الله سبحانه وتعالى ، لأن وجود أكثر من إله يستلزم فسادهما.. فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان، كذلك يستحيل أن يكون لهم إلهان معبودان، فذلك تمانع في الفعل والإيجاد ، وهذا تمانع في العبادة والإلهية .(٢)

ويقف سيد - رحمه الله - عند هذه الآية وأمثالها ليقرر وجوب توحيد الله في العبادة والتوجه له بلا شريك :

١ - ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾(٣)، يقول سيد: يجيء الإنكار على المشركين واستنكار دعواهم في الإلهة، ويعرض السياق دليل الوحدانية من المشهود في نظام الكون وناموسه الواحد الدال على المدبر الواحد..

والسؤال عن اتخاذهم آلهة هو سؤال استنكار للواقع منهم ، وَوَصفُ هؤلاء الآلهة بأنهم ينشرون من الأرض أي يقيمون الأموات ويبعثونهم أحياء فيه تهكم بتلك الإلهة، لكونها فاقدة للصفة الأولى من صفات الإله ، خلق الحياة وإعادتها ...ذلك منطق الواقع المشهود في الأرض، وهنالك الدليل الكوني المستمد من واقع الوجود: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾، فالكون قائم على الناموس الواحد الذي يربط بين أجزائه جميعًا، وينسق بينها وبين حركاتها وحركة المجموع .

هذا الناموس الواحد من صنع إرادة واحدة لإله واحد ، فلو تعددت الذوات

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢١-٢٢.

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٩-٤٠ بتصرف.

(٣) سورة الأنبياء: الآيات ٢١ - ٢٢.

لتعددت الإرادات والنواميس تبعًا لها ، ولانعدمت الوحدة والتناسق الكوني كله، ولوقع الاضطراب والفساد ، والفطرة السليمة تشهد بوحدة الناموس والإرادة التي أوجدته ، ووحده الخالق المدبر لهذا الكون الذي لا فساد في تكوينه وفي سيره ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ، وهم يصفونه بأن له شركاء ، تنزه الله عما يقولون، والوجود كله بنظامه وسلامته من الخلل والفساد يكذبهم ...

فالتوحيد هو قاعدة العقيدة ، منذ أن بعث الله الرسل للناس،لا تبديل فيها ولا تحويل ، توحيد الإله وتوحيد المعبود، فلا انفصال بين الألوهية والربوبية، ولا مجال للشرك في الألوهية ولا في العبادة ، قاعدة ثابتة ثبوت النواميس الكونية.." [1] .

٢- في ظلال قوله تعالى ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [2] ، يقرر سيد : " أن مشركي العرب كانوا مضطربي العقيدة ، لا ينكرون الله ولا ينكرون أنه مالك السماوات والأرض ومدبرهما المسيطر عليهما ، ولكنهم مع ذلك يشركون معه آلهة مدعاة ، يقولون : إنهم يعبدونها لتقربهم من الله ، وينسبون له البنات سبحانه وتعالى عما يصفون .

فأخذهم بمسلماتهم التي يقرون بها ، ليصحح ذلك الاضطراب في العقيدة ، ويردهم إلى التوحيد الخالص الذي تقود إليه مسلماتهم ، لو كانوا يستقيمون على الفطرة ولا ينحرفون .

وفي اللحظة المناسبة لتقرير حقيقة ما جاءهم به الرسول ﷺ من التوحيد، وبطلان ما يدعونه من الولد والشريك، بعد ذلك الجدل ، يجيء هذا التقرير في أساليب شتى:

- بالإضراب عن الجدل معهم ، وتقرير كذبهم الأكيد : ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ .

- ثم يُفصِّل فيما هم كاذبون:﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ .

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧٣- ١٣٧٤ بتصرف .
(٢) سورة المؤمنون: الآية ٩١-٩٢.

- ثم يأتي بالدليل الذي ينفي دعواهم، ويصور ما في عقيدة الشرك من سخف واستحالة : ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ مستقلا بما خلقه ، يصرفه حسب ناموس خاص، فيصبح لكل جزء من الكون ، أو لكل فريق من المخلوقات ناموس خاص. ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ بغلبة سيطرته وتصريفه على الكون الذي لا يبقى ولا ينتظم إلا بناموس واحد، وتصريف وتدبير واحد.

وكل هذه الصور لا وجود لها في الكون، الذي تشهد وحده تكوينه بوحدة خالقه. ﴿ فَتَعَالَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ "[1] .

٣- في ظلال قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾[2]. يقرر سيد قطب- رحمه الله- أن القرآن الكريم جاء بالتوحيد ، وسلك إلى تقرير هذه العقيدة وإيضاحها طرقًا شتى ، وأساليب متنوعة ، ووسائل متعددة ﴿ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ .

فالتوحيد لا يحتاج إلى أكثر من التذكر والرجوع إلى الفطرة ومنطقها ، وإلى الآيات الكونية ودلائلها ولكنهم يزيدون نفورًا ، كلما سمعوا القرآن نفروا من العقيدة ، ومن القرآن ذاته خوفًا من أن يغلبهم على عقائدهم الباطلة ، عقائد الشرك والوهم.

وكما جاراهم في ادعاءاتهم في حكاية البنات ونسبتها إلى الله ليكشف عما فيها من تفكك وتهافت ، فهو يجاريهم في حكاية الآلهة المدعاة ، ليقرر أن هذه الآلهة لو وجدت فإنها ستحاول أن تتقرب إلى الله وأن تجد لها وسيلة إليه وسبيلا ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾[3].

ولو كما - يقول النحاة - حرف امتناع لامتناع ، فالقضية كلها ممتنعة ، وليس هنالك آلهة مع الله -كما يقولون- والآلهة التي يدعونها إن هي إلا خلق من خلق الله سواء كانت نجمًا أو كوكبًا ، إنسانًا أو حيوانًا ، نباتًا أو جمادًا ، وهذه كلها تتجه إلى الخالق حسب ناموس الفطرة الكونية ، وتخضع للإرادة التي تحكمها وتصرفها ، وتجد طريقها إلى الله عن طريق خضوعها لناموسه ﴿ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٧٨ - ٢٤٧٩ بتصرف .

(٢) سورة الإسراء: الآية ٤٢-٤٣.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٤٢.

وذكر العرش هنا يوحي بالارتفاع والتسامي على هذه الخلائق التي يدعون أنها آلهة – مع الله – ، وهي تحت عرشه وليست معه ، ويعقب على ذلك بتنزيه الله في علاه – سبحانه وتعالى عما يقولون علوًا كبيرا – "[1]

٤– ومن الأدلة العقلية أيضًا قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[2] ،

يقول سيد - رحمه الله- : " والاستفهام عن حقيقة وجودهم هم أنفسهم ، وهي حقيقة قائمة لا مفر لهم من مواجهتها، ولا سبيل لهم إلى تفسيرها بغير ما يقوله القرآن فيها، من أن لهم خالقًا أوجدهم... فوجودهم هكذا من غير شيء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداءً ، ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل . أما أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدّعوه ولا يدّعيه مخلوق ، وإذا كان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة ، فإنه لا يبقى إلا الحقيقة التي يقولها القرآن أنهم جميعًا من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد في الخلق والإنشاء ، فلا يجوز أن يشاركه أحد في الربوبية والعبادة ، وهو منطق واضح بسيط "[3].

خامسًا : بيان بطلان ألوهية غير الله :

أوضح القرآن الكريم بطلان ألوهية ما عبد من دون الله تعالى من المعبودات ، سواء عُبدت بدعوى أنها أبناء أو بنات الله ، أو أن بينها وبينه نسبًا وقرابة ، أو أنها تقربهم إلى الله زلفى ، مبينًا عجز ما سوى الله ، من خلال ضرب الأمثال ، وطلب الموازنة بين هذه المعبودات وبين الحق سبحانه وتعالى ، ومن ذلك:

١ – إبطال ألوهية ما عبد من دون الله تعالى ، وتشمل:

أ– إبطال ألوهية الملائكة بدعوى البنوة لله – سبحانه وتعالى علوًا كبيرًا – يقول سبحانه: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٣٠ بتصرف .

(٢) سورة الطور: الآية ٣٥.

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٩٩–٣٤٠٠ بتصرف يسير .

مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[(١)].

يقول سيد: " ودعوى البنوة لله- سبحانه- اتخذت لها عدة صور في الجاهليات المختلفة، فقد عرفت عند مشركي العرب في صورة بنوة الملائكة لله، وعند مشركي اليهود في صورة بنوة العزيز لله، وعند مشركي النصارى في صورة بنوة المسيح لله، وكلها من انحرافات الجاهلية في شتى الصور والعصور.

والمفهوم أن الذي يعنيه السياق هنا هو دعوى العرب في بنوة الملائكة، وهو يرد عليهم ببيان طبيعة الملائكة، فهم ليسوا بنات لله -كما يزعمون- بل عباد مكرمون عند الله، يعملون بأمره ولا يناقشون، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، خائفون مشفقون من خشيته، لا يدعون الألوهية، ولو ادعوها - جدلًا - لكان جزاؤهم جزاء من يدعي الألوهية كائنًا من كان وهو جهنم، وبهذا تبدو دعوى المشركين في صورتها هذه واهية مستنكرة "[(٢)].

وفي سورة الزخرف يستعرض منهج القرآن في معالجة أسطورة اتخاذ الملائكة آلهة بزعم أنها بنات الله، حيث يحاصرهم ويواجه هذه الأسطورة من كل جانب ولا يبقي ثغره مفتوحةإلا وأخذها عليهم"[(٣)].

وفي سورة النجم يستعرض- سيد- الآيات التي ترد على المشركين في دعواهم ألوهية الملائكة وأنها بنات الله وتبين تناقضهم، حيث كانوا يكرهون ولادة البنات، ومع ذلك لم يستحيوا أن يجعلوا الملائكة إناثًا وهم لا يعلمون عنهم شيئًا، وان ينسبوا هؤلاء الإناث إلى الله[(٤)].

ب- إبطال ألوهية المسيح -عليه السلام- :حيث قررالقرآن الكريم في آيات كثيرة عدم ألوهية المسيح وغيره من البشر، بأدلة عقلية يجابه بها المشركين منها :

- قوله تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٦- ٢٩.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧٤- ٢٣٧٥ بتصرف يسير.
(٣) المصدر السابق ٥/ ٣١٨٠- ٣١٨١.
(٤) المصدر السابق ٦/ ٣٤٠٨ - ٣٤٠٩، وانظر أيضًا: ٤/ ٢٤٧٨.

ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (١).

يقول سيد - رحمه الله-: " وأكل الطعام مسألة واقعية في حياة المسيح - عليه السلام - وأمه الصديقة وهي خصيصة من خصائص الأحياء الحادثين، ودليل على بشرية المسيح وأمه - أو على ناسوته بتعبيرهم اللاهوتي - فأكل الطعام تلبية لحاجة جسدية لا مراء فيها، ولا يكون إلهًا من يحتاج إلى الطعام ليعيش، فالله حي بذاته، قائم بذاته، باق بذاته، لا يحتاج، ولا يدخل إلى ذاته - سبحانه - أو يخرج منها شيء حادث كالطعام." (٢).

ج- إبطال ألوهية الكواكب والنجوم: وقد جاء ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ ﴾ (٣).

يقول سيد: " والمقصود بالنجم هنا نجم الشعرى، وهو أحد النجوم التي كان لها شأن عند الفرس والعرب وقدماء المصريين على السواء وكان بعضهم يعبدها، فأشار الله إلى بطلان ألوهيتها بقوله: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ ﴾، حيث يوحي بأن النجم مهما كان عظيما فانه يهوي ويتغير مقامه، فلا يليق أن يكون معبودًا، فللمعبود الثبات والارتفاع والدوام (٤).

ويصور القرآن بطلان ألوهية الكواكب أيضا في قصة إبراهيم- عليه السلام - ، ونظره إلى الكواكب وبيان زيف ألوهيتها لأنها تغيب وتأفل (٥).

ومن الآيات الجامعة في باب إبطال ألوهية غير الله سبحانه، قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ (٦).

يقول سيد " وينتهي هذا الدرس الذي بدأ بنفي فكرة الأبناء والشركاء، واستطرد

---

(١) سورة المائدة: الآية ٧٥.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٩٤٥ .

(٣) سورة النجم: الآية ١.

(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٠٦.

(٥) المصدر السابق ٢/ ١١٤٠- ١١٤١ .

(٦) سورة الإسراء: الآية ٥٦-٥٧.

إلى تفرد الله سبحانه بالاتجاه إليه ، وتفرده بالعلم والتصرف في مصائر العباد ، ينتهي بتحدي الذين يزعمون الشركاء ، يكشفوا عنهم الضر أو يحولوا عنهم العذاب .

ويقرر لهم أن من يدعونهم آلهة من الملائكة أو الجن أو الأنس، إن هم إلا خلق من خلق الله، يحاولون أن يجدوا طريقهم إلى الله ويتسابقون إلى رضاه، ويخافون عذابه.

وقد كان بعضهم يدعو عزيرًا ابن الله ويعبده، وبعضهم يدعو عيسى ابن الله ويعبده ، وبعضهم يدعو الملائكة بنات الله ويعبدهم ، وبعضهم يدعو غير هؤلاء ، فبين الله لهم أن هؤلاء جميعًا يتقربون إلى الله بالعبادة ويخشون عذابه ، فما أجدركم أن تتوجهوا إلى الله ، كما يتوجهون . وهكذا يختم ببيان تهافت عقائد الشرك في كل صورها، وتفرد الله سبحانه بالألوهية والعبادة والاتجاه .[١]

٢- بيان عبودية الكون وما فيه ومن فيه لله وحده :

يقرر القرآن الكريم في كثير من الآيات : " أن الدينونة لله وحده هي شأن الكون كله كما هي شأن الناس ، وأن الانحراف عن هذه القاعدة شذوذ وسفه وانحراف! "[٢].

" والمنهج القرآني يكثر من الربط بين عبودية هذا الكون لله ، ودعوة البشر إلى الاتساق مع الكون الذي يعيشون فيه ، والإسلام لله الذي أسلم له الكون كله ، والإيقاع بهذه الحقيقة الكونية كفيل بأن يهز القلب البشري هزًا، وأن يستحثه من داخله على أن ينخرط في سلك العبادة المستسلمة، فلا يكون هو وحده نشازًا في نظام الوجود كله! - عليه السلام - [٣].

وفي "مقومات التصور الإسلامي" يقرر سيد - رحمه الله - حقيقة وحده الألوهية، ويبين منهج القرآن الكريم في عرض التوحيد و إبطال الشرك في عقائد مشركي العرب والوثنيات كلها وعقائد أهل الكتاب المحرفة [٤] . ثم يعرض منهج القرآن الكريم في بيان عبودية الكون وما فيه ومن فيه لله سبحانه

(١) في ظلال القرآن ، ٤/ ٢٢٣٥ بتصرف يسير

(٢) المصدر السابق ، ١/ ٣٨٤ .

(٣) المصدر السابق ،٣/ ١٣٠٧ وينظر : ٥/ ٢٥٤٨ .

(٤) مقومات التصور الإسلامي ص ١٠٨ وما بعدها .

وتعالى ، وان العبودية لله تشمل كل شيء وكل حي ، فلا يخرج عن العبودية لله سبحانه وتعالى شيء ولا حي في هذا الوجود .إنما يتجرد كل حي وكل شيء من خصائص الألوهية الواحدة ، ويقف الكل من الألوهية الواحدة المتفردة موقف العبيد :

- إنها عبودية الكون المادي ممثلًا في أجرامه الفلكية الكبيرة : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾[(١)].

- وهي عبودية النجوم والكواكب والأشياء والأحياء في هذا الوجود المغيب منه والمشهود : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[(٢)].

- وهي عبودية الخلائق العاقلة المكلفة بالكون: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾[(٣)].

- عبودية الملائكة: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾[(٤)]، وعبودية الجن والأنس عامة: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[(٥)]، وعبودية الرسل والأنبياء خاصة ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[(٦)]، عبودية الطائعين: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾[(٧)]، عبودية العصاة : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[(٨)].

---

(١) سورة فصلت: الآية ١١ .
(٢) سورة النحل : الآية ٤٨-٤٩.
(٣) سورة مريم : الآية ٩٣ .
(٤) سورة الأنبياء : الآية ٢٦.
(٥) سورة الذاريات : الآية ٥٦.
(٦) سورة ص : الآية ٤٥.
(٧) سورة الزمر: الآية ١٧ - ١٨ .
(٨) سورة الزمر: الآية ٥٣.

- كما أنها عبودية هذه الآلهة المدعاة، فكل ما يزعمون أنه إله فهو عبد لله، وهو يرجو لنفسه من الله النجاة، وهو يبرأ من إدعاء الألوهية، ويتبرأ من تعبيد الناس له ومن عبادتهم إياه: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[1]. ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾[2].

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾[3].

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾[4].

إنها العبودية الشاملة أمام الألوهية المتفردة، مفرق الطريق، ومن ثم تنال هذه العناية الكبرى.. وفي مواجهة هذا البيان الشامل، الكاشف، المنير تبدو عبادة الشركاء مع الله سبحانه وتعالى، وتقديم القرابين لها، وإشراكها في الأموال والأبناء - أيًا كان هؤلاء الشركاء من البشر أو من الجن، أو من الأحياء والأشياء - سخفًا لا يملك الدفاع عنه اشد المتحمسين له "[5] .

٣- بيان عجز ما يُعبد من دون الله :

من أساليب القرآن الكريم في تقرير توحيد الألوهية وإبطال الشرك بيان عجز ما يتخذه الناس من آلهة سواء كانت ملائكة أو أنبياء أو جمادًا، فالكل عاجزون لأنهم مخلوقون مربوبون، والآيات في هذا كثيرة جدًا، وقد وقف سيد -رحمه الله- عند هذا الأسلوب كثيرًا من خلال أربعة محاور وهي :

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٥٧

(٢) سورة سبأ : الآية ٤٠-٤١.

(٣) سورة المائدة : الآية ١١٦ .

(٤) سورة إبراهيم : الآية ٢٢.

(٥) مقومات التصور الإسلامي ص (١٢-١٣٠ بتصرف، ص ٣١٧ .

الأول : بيان عجز ما سوى الله سبحانه وتعالى ؛ ومن ذلك

- قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [١] يقول سيد - رحمه الله - : " ويختار التعبير بكلمة " ما " بدل كلمة " من " في هذا الموضع قصدًا ، ليدرج " المخلوقات " التي تُعبد كلها -- بما فيها من العقلاء - في سلك واحد لأنه يشير إلى ماهيتها المخلوقة الحادثة ،البعيدة عن حقيقة الألوهية ، فيدخل عيسى ، ويدخل روح القدس ، وتدخل مريم ، كلهم في " ما " لأنهم بماهيتهم من خلق الله، ويلقي هذا التعبير ظله كذلك في هذا المقام فيبعد أن يكون أحدًا مستحق للعبادة وهو لا يملك ضرًا ولا نفعًا " [٢].

- وقوله تعالى ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [٣]، يقول سيد : " فهذه " الواو " و" النون " تشير إلى أن من بين هذه الآلهة على الأقل بشرًا من " العقلاء " الذين يُعبر عنهم بضمير "العاقل"، والعرب في وثنيتهم لم يكونوا يشركون بآلهة من البشر في تقديم الشعائر التعبدية لهم ، إنما كان شركهم بتلقي الشعائر والأحكام ، وهذا شركٌ يسوي القران الكريم بينه وبين شركهم الآخر بالأوثان والأصنام سواء ... والمقصود تنبيه أولئك الذين كانوا يخاطبون بهذا القران أول مرة إلى سخف ما هم عليه من الشرك واتخاذ تلك الآلهة التي لا تخلق شيئًا بل تخلق ، ولا تنصر عبادها بل لا تملك نصرًا ، سواء كانت من البشر أو من غيرهم فهي كلها لا تخلق ولا تنصر ..

ثم يواجههم ويبين سخف وثنيتهم في ميزان العقل ويبين سخف ما يزاولون من الشرك بالآلهة التي ليس لها أرجل تمشي بها ولا أيدي تبطش بها ولا أعين تبصر بها ولا آذان تسمع بها ، فهذه جوارح تتوافر لهم فكيف يعبدون ما هو دونهم من هذه الأحجار الهامدة ؟ .

فأما ما يرمزون إليه بهذه الأصنام من الملائكة حينًا ، ومن الآباء والأجداد حينًا، فهم عباد أمثالهم من خلق الله مثلهم لا يخلقون شيء وهم يخلقون، ولا يملكون لهم

---

(١) سورة المائدة: الآية ٧٦.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٩٤٦ .

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٩١-١٩٢.

نصرًا ولا أنفسهم ينصرون" [١].

" وكما أن ما يعبد من دون الله عاجز عن الخلق والضر والنفع فإنهم عاجزون أيضًا عن إجابة دعاء من يدعونهم من دون الله " [٢]، " وهو عاجزون عن رزقهم أيضًا " [٣].

- وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [٤]، يقول سيد : " وهكذا يجرد آلهتهم المدعاة من كل خصائص الألوهية ، فهم لا يخلقون شيئًا ، والله خالق كل شيء .. ولا يملكون لأنفسهم فضلًا عن أن يملكوا لعبادهم ضرًا ولا نفعًا ، والذي لا يملك لنفسه النفع قد يسهل عليه الضر ، ولكن حتى هذا لا يملكونه .

ثم يرتقي إلى الخصائص التي لا يقدر عليها إلا الله ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾ ، فلا إماتة حي ولا إنشاء حياة ولا إعادتها داخل مقدورهم ، فماذا لهم بعد ذلك من خصائص الألوهية وما شبهة أولئك المشركين في اتخاذهم آلهة "[٥].

" ولم ينفِ عن آلهتهم المدعاة أن تكون قادرة على عزهم ونصرهم ونفعهم وضرهم في هذه الحياة الدنيا وحدها ، ولكن عرض لهم حياة الآخرة ، وجريرة هذه الآلهة عليهم فيها، فضلًا على أنها لن تقدم لهم عونًا ! سواء كانت هذه الآلهة مما اتخذوه للعبادة والتأله ، أو ممن اتخذوهم أربابا من البشر يتلقون منهم الشرائع والأحكام والتقاليد والأوضاع من الأحياء منهم ومن الموتى الذين يتبعون ما سنوه لهم.

وكذلك يتكرر في القران الكريم الأمر بتحدي المشركين عن نصيب آلهتهم المدعاة في الخلق أو في الرزق أو في التأثير في نواميس الكون وفي حياة البشر في أيـَّة صورة من الصور ، ذلك أنه إذا انتفى أن يكون لأحد من هذه العباد دور في

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٤١٤-١٤١٥ بتصرف ، وينظر أيضًا ٣/ ١٨٢٥ .
(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٠٥١، ٥/ ٣٢٥٥.
(٣) المصدر السابق ٣/ ٢١٨٣، ٢٣٨٠، ٥/ ٢٧٢٨، ٢٧٧٢.
(٤) سورة الفرقان: الآية ٣.
(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٥٠ بتصرف يسير .

الخلق أو في الرزق أو التأثير في نواميس الكون أو حياة البشر على الإطلاق ، بعد ما انتفى أن يكون لها عند الله شفاعة أو قبول في الدنيا أو في الآخرة فقد ظهر السخف وتجلت الحماقة في اتخاذهم أربابا سواء بتقديم الشعائر والقرابين ، أو في الشرائع والقوانين " (١) .

الثاني :انتفاء صفات الكمال عن ما سوى الله :

فمن الأدلة التي ساقها القران الكريم لتقرير توحيد الألوهية وإبطال الشرك بالله تعالى ، الاستدلال بانفراده - عز وجل - بصفات الكمال التي مدح بها نفسه وتعرف بها إلى عباده ليعرفوا كماله وعظمته ، وكثيرًا ما يذكرها عند ذكر آلهة المشركين ، التي عبدوها من دون الله ، وجعلوها شركاء له فيذكر سبحانه وتعالى من صفات كماله وعلوه على عرشه، وتكلمه وتكليمه ، وإحاطة علمه ، ونفوذ مشيئته ، وقدرته المطلقة ، وتدبيره ، ما هو منتفٍ عن آلهتهم فيكون ذلك من أول الدليل على بطلان إلاهتها ، وفساد عبادتها من دون الله ، والآيات في هذا الباب كثيرة جدًا .

يقول سيد : " ثم لما عـرَّف الناس بصفات الله الحق الذي يستحق أن يكون ربًا للعالمين وكشف لهم عن تجرد آلهتهم كلها من هذه الصفات - في عالم الواقع والحقيقة - أصبح مفهومًا أن الله سبحانه هو المتفرد بخصائص الألوهية ، وأن كل شيء وكل حي داخل في نطاق العبودية له سبحانه بلا شريك ونطاق الدينونة له سبحانه بلا منازع ، وقد جعل القران ينص على هذا نصًا : فعن وحدانية الله سبحانه وتعالى ذاته وصفاته وخصائصه وسلطانه، وتجرد الشركاء منها جميعا ، ترد أمثال هذه النصوص الصريحة:

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ (٢).

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص١٢٢- ١٢٤ بتصرف ، وينظر أيضًا :في ظلال القرآن ٤/ ١٩٨٩، ٥/ ٢٩٣٥، ٣٠٥٣، ٢٣٧٣ .

(٢) سورة الإخلاص.

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[1].

﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾[2]"[3].

والقران كثيرًا ما يقرر تفرد الله سبحانه وتعالى بالخلق[4]، وتفرده بالعلم والتصرف في مصائر العباد[5]، وتفرده بالسلطان والقهر[6]، وتفرده بالحياة والوحدانية[7]، ونحوها من صفات الكمال.

ومن أجمع الآيات في هذا الباب قوله سبحانه وتعالى: ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾[8]، يقول سيد: " فلا ربوبية لغيره، ولا شريك معه في هذا الكون الكبير، فهو الواحد الذي يعبد في هذا الوجود والذي تتجه إليه الفطرة والقلوب هل تعلم له سميًا؟ هل تعرف له نظيرًا؟ تعالى الله عن السمي والنظير"[9].

الثالث: طلب الموازنة بين الله عز وجل وبين ما يعبد من دونه:

ومن الأساليب التي جاءت أيضًا في القران الكريم لتقرير توحيد الألوهية، وإبطال الشرك وبيان قبحه، وضلال وسفه من يقع فيه، ما ذكره الله تعالى من التشنيع بحال المشركين ورميهم بالضلال والسفه حيث رضوا لأنفسهم عبادة مالا يسمع ولا يبصر ولا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا، ولفت انتباه المشركين إلى ما وصلوا إليه من السفه والضلال من خلال طلب الموازنة بينه سبحانه وبين ما يعبدون من

---

(١) سورة القصص: الآية ٨٨.
(٢) سورة غافر: الآية ١٤-١٦.
(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ٢٦ بتصرف يسير
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٥٢، ٥/ ٢٥٥٠، ٣٠٩٤.
(٥) المصدر السابق ٤/ ٢٢٣٥.
(٦) المصدر السابق ٤/ ١٩٨٩.
(٧) المصدر السابق ٥/ ٣٠٩٤.
(٨) سورة مريم: الآية ٦٥.
(٩) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣١٥.

دونه، في آيات كثيرة منها:

- قوله سبحانه و تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[1].

يقول سيد: " يبتدئ سبحانه بسؤال لا يحتمل إلا إجابة واحدة، يستنكر به أن يشركوا بالله هذه الآلهة المدعاة ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾، وما يشركون أصنام وأوثان، أو ملائكة وجن، أو خلق من خلق الله على أية حال لا يرتقي أن يكون شبيها بالله -سبحانه - فضلًا على أن يكون خيرًا منه، ولا يخطر على قلب عاقل أن يعقد مقارنه أو موازنة. ومن ثم يبدو هذا السؤال بهذه الصيغة وكأنه تهكم محض، وتوبيخ صرف، لأنه غير قابل أن يوجه على سبيل الجد، أو أن يطلب عنه جواب، ومن ثم يعدل عنه إلى سؤال أخر، مستمد من واقع هذا الكون حولهم ومن مشاهده التي يرونها بأعينهم:

* ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[2] "[3].

* قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[4].

يقول سيد: " وهذه الأمور المسئول عنها من إعادة الخلق وهدايتهم إلى الحق، ليست من مسلمات اعتقادهم كالأولى- يقصد بذلك ما جاء في سياق الآيات التي قبلها من سؤال الله للمشركين عمّن يرزقهم ويحيي ويدبر الأمر وإجابتهم بأنه الله- لكنه يوجه إليهم فيها السؤال ارتكانا على مسلماتهم فهي من مقتضياتها بشيء

(١) سورة النمل: الآية ٥٩.

(٢) سورة النمل: الآية ٦٠.

(٣) في ظلال القران ٥/ ٢٦٥٥.

(٤) سورة يونس: الآية ٣٤-٣٥.

من التفكر والتدبر، ثم لا يطلب إليهم الجواب، إنما يقرره لهم اعتمادًا على وضوح النتائج بعد تسليمهم بالمقدمات....

﴿ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي ﴾ ؟ والجواب مقرر فالذي يهدي الناس إلى الحق أولى بالإتباع ، ممن لا يهتدي هو بنفسه إلا إن يهديه غيره ، وهذا ينطبق على الكل ، سواء كان المعبودون حجارة أو أشجارا أو كواكب ، أو كانوا من البشر، بما في ذلك عيسى -عليه السلام ، ومن عدا عيسى -عليه السلام- أولى بانطباق هذه الحقيقة عليه: ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ، ثم يقرر أن شركهم بالله إنما يقوم على الظن، وأنه لا يستند إلى يقين أبدا "[١] .

الرابع : ضرب الأمثال :

وأسلوب ضرب الأمثال من الأساليب التي جاءت في القران الكريم لبيان الحقائق والمعاني الخفية وإيضاحها ، وكذا لتقريب المراد وتفهيم المعنى وإيصاله إلى ذهن السامع، واستثارة العقل نحو التفكير الصحيح والقياس السليم ، وقد ذكر علماء البلاغة للأمثال فوائد كثيرة [٢] .

وقد أشادت آيات القران الكريم بهذا الأسلوب وبينت الحكمة منه، قال سبحانه : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[٤].

وجاءت أمثله كثيرة في القران الكريم لتقرير توحيد الألوهية وبطلان الشرك بالله ، والرد على المشركين في تسويتهم للمخلوق بالخالق بالعبادة والطاعة ، وبيان ضعف وعجز ما سواه سبحانه ، وبالتالي بطلان ألوهيتة ما سواه سبحانه ، وقد وقف سيد - رحمه الله - عند كثير من الأمثلة القرآنية في هذا الباب منها :

- قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٣٨ -١٧٨٤ .بتصرف ،وينظر : مقومات التصور الإسلامي ص١٢٣، ١٤٢.
(٢) ينظر: أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني، مطبعة الاستقامة ،القاهرة، ب.ت،ص ١٢٨-١٣٠.
(٣) سورة إبراهيم : الآية ٢٥ .
(٤) سورة العنكبوت : الآية ٤٣.

مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ (١).

يقول سيد - رحمه الله -: " إعلانًا مدويًا عامًا للناس جميعًا، يعلن عن ضعف الآلهة المدعاة ، الآلهة كلها التي يتخذها الناس من دون الله ، ومن بينها تلك الآلهة التي يستنصر بها أولئك الظالمون ، ويركن إليها أولئك الغاشمون ، يعلن عن هذا الضعف في صورة مثل معروض للأسماع والأبصار ، مصور في مشهد شاخص متحرك ، تتأمله العيونُ والقلوب ، مشهد يرسم الضعف المزري ويمثله أبرع تمثيل، إنه النداء العام ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ فإذا تجمع الناس على النداء أعلن لهم أنهم أمام مثل عام يضرب ، لا حالة خاصة ، ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ . . هذا المثل يضع قاعدة ، ويقرر حقيقة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ كل من تدعون من دون الله من آلهة مدعاة ، من أصنام وأوثان ، ومن أشخاص وقيم وأوضاع، تستنصرون بها من دون الله ، وتستعينون بقوتها وتطلبون منها النصر والجاه .. ﴿ كلهم لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ .. والذباب صغير حقير، ولكن هؤلاء الذين يدعونهم آلهة لا يقدرون ولو اجتمعوا وتساندوا على خلق هذا الذباب الصغير الحقير! ، وخلق الذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل ، لأن الذباب يحتوي على ذلك السر المعجز سر الحياة . فيستوي في استحالة خلقه مع الجمل والفيل ، ولكن الأسلوب القرآني المعجز يختار الذباب الصغير الحقير لأن العجز عن خلقه يلقي في الحس ظل الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل! دون أن يخل هذا بالحقيقة في التعبير، وهذا من بدائع الأسلوب القرآني العجيب!.

ثم يخطو خطوة أوسع في إبراز الضعف المزري ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾، والآلهة المدعاة لا تملك استنقاذ شيء من الذباب حين يسلبها إياه ، سواء كانت أصنامًا أو أوثانًا أو أشخاصًا! وكم من عزيز يسلبه الذباب من الناس فلا يملكون رده ، وقد اختير الذباب بالذات وهو ضعيف حقير ، وهو في الوقت ذاته يحمل أخطر الأمراض ويسلب

(١) سورة الحج : الآية ٧٣-٧٤ .

أغلى النفائس: يسلب العيون والجوارح ، وقد يسلب الحياة والأرواح .. إنه يحمل ميكروب السل والتيفود والدوسنتاريا والرمد .. ويسلب ما لا سبيل إلى استنقاذه وهو الضعيف الحقير! ، ويختم ذلك المثل المصور الموحي بهذا التعقيب ﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ ليقرر ما ألقاه المثل من ظلال ، وما أوحى به إلى المشاعر والقلوب وفي أنسب الظروف ، والمشاعر تفيض بالزراية والاحتقار لضعف الآلهة المدعاة يندد بسوء تقديرهم لله ، ويعرض قوة الله الحق الحقيق بأنه إله ﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ ما قدروا الله حق قدره ، وهم يشركون به تلك الآلهة الكليلة العاجزة التي لا تخلق ذبابًا ولو تجمعت له ، بل لا تستنقذ ما يسلبها الذباب إياه ! ، ما قدروا الله حق قدره وهم يرون آثار قدرته وبدائع مخلوقاته، ثم يشركون به من لا يستطيعون خلق الذباب الحقير! ، ﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ ، وهم يستعينون بتلك الآلهة العاجزة الكليلة عن استنقاذ ما يسلبها إياه الذباب ، ويَدَعُون الله القوي العزيز "[1] .

- قوله تعالى :﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[2].

يقول سيد - رحمه الله - : "ضرب هذا المثل لمن كانوا يتخذون من دون الله شركاء خلقًا من خلقه، جنًا أو ملائكة أو أصنامًا وأشجارًا ، وهم لا يرتضون أن يشاركهم مواليهم في شيء مما تحت أيديهم من مال ، ولا يسوون عبيدهم بأنفسهم في شيء من الإعتبار ، فيبدو أمرهم عجبًا ، يجعلون لله شركاء من عبيده وهو الخالق الرازق وحده ، ويأنفون أن يجعلوا لأنفسهم من عبيدهم شركاء في مالهم . وما لهم ليس من خلقهم إنما هو من رزق الله ، وهو تناقض عجيب في التصور والتقدير، وإذا لم يكن شيء من هذا يقع فكيف ترضونه في حق الله وله المثل الأعلى؟ "[3].

- قوله تعالى: ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٤٣-٢٤٤٤ بتصرف يسير .

(٢) سورة الروم : الآية ٢٨ .

(٣) في ظلال القران ٥/ ٢٧٦٦ بتصرف يسير

فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ﴾ [١] ، يقول سيد : " إنما يريد الله من الناس أن يميلوا عن الشرك كله ، وأن يجتنبوا الزور كله ، وأن يستقيموا على التوحيد الصادق الخالص : ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ ﴾، ثم يرسم النص مشهدًا عنيفًا يصور حال من تزل قدماه عن أفق التوحيد ، فيهوي إلى درك الشرك ، فإذا هو ضائع ذاهب بددًا كأن لم يكن من قبل أبدًا ، إنه مشهد الهوي من شاهق ﴿ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، وفي مثل لمح البصر يتمزق ﴿ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ ﴾ ، أو تقذف به الريح بعيدًا عن الأنظار ﴿ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴾ في هوة ليس لها قرار! وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله ، فيهوي من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء ، إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها ، قاعدة التوحيد " [٢].

– قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾ ﴾ [٣].

يقول سيد - : " وإنه لعجيب أن تنحرف الفطرة إلى هذا الحد ، فيتجه الناس بالعبادة إلى ما لا يملك لهم رزقًا وما هو بقادر في يوم من الأيام ، ولا في حال من الأحوال . ويدعون الله الخالق الرازق، وآلاؤه بين أيديهم لا يملكون إنكارها، ثم يجعلون لله الأشباه والأمثال ! ثم يضرب لهم مثلين للسيد المالك الرازق ،وللمملوك العاجز الذي لا يملك ولا يكسب . لتقريب الحقيقة الكبرى التي غفلوا عنها حقيقة أن ليس لله مثال ، وما يجوز أن يسووا في العبادة بين الله وأحد من خلقه وكلهم لهم عبيد .

– والمثل الأول مأخوذ من واقعهم ، فقد كان لهم عبيد مملوكون، لا يملكون شيئًا ولا يقدرون على شيء ، وهم لا يسوون بين العبد المملوك العاجز والسيد المالك المتصرف ، فكيف يسوون بين سيد العباد ومالكهم وبين أحد أو شيء مما خلق ، وكل مخلوقاته له عبيد؟.

(١) سورة الحج : الآية ٣١ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٢١ بتصرف يسير .
(٣) سورة النحل : الآية ٧٥-٧٦ .

- والمثل الثاني يصور الرجل الأبكم الضعيف البليد الذي لا يدري ولا يعود بخير، والرجل القوي المتكلم الآمر بالعدل، العامل المستقيم على طريق الخير. ولا يسوي عاقل بين هذا وذاك، فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر، وبين الله سبحانه وهو القادر العليم الآمر بالمعروف، الهادي إلى الصراط المستقيم؟ "[1].

- قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[2]، يقول سيد - رحمه الله -: "يضرب الله المثل للعبد الموحد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضًا فيه وهو بينهم موزع، ولكل منهم فيه توجيه، ولكل منهم عليه تكليف، وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق، ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه! وعبد يملكه سيد واحد، وهو يعلم ما يطلبه منه ويكلفه به، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح، إنهما لا يستويان. وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال "[3].

- قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[4].

يقول سيد : " هذا الإيقاع القوي بحقيقة الألوهية وخصائصها، وباستنكار الشرك والعودة إليه بعد الهدى، وبمشهد الذي يرجع القهقرى مرتدًا عن دين الله، وحيرته في التيه بلا اتجاه، وبتقرير أن هدى الله وحده هو الهدى... وأنها عليه المشركون من دعوة غير الله والاستعانة به وإسلام مقادهم لهؤلاء الذين يدعونهم من دونه، وهم لا يملكون نفعًا ولا ضرًا، سواء كان ما يدعونه وثنًا أو صنمًا، حجرًا أو شجرًا، روحًا أم ملكًا، شيطانًا أم إنسانًا ...هو سخف يرفضه العقل البشري ذاته متى عرض عليه في النور، ذلك لأنهم كلهم سواء في أنهم لا ينفعون شيئًا ولا يضرون، فهم أعجز من النفع والضر، فدعوتهم من دون الله، وعبادتهم والاستعانة بهم،

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٨٣- ٢١٨٤ بتصرف يسير.
(٢) سورة الزمر: الآية ٢٩.
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٤٩بتصرف يسير.
(٤) سورة الأنعام: الآية ٧١.

والخضوع لهم سخف يرفضه العقل البشري ، ولكن القرآن الكريم يعرضه في مشهد شاخص متحرك يرسم الضلالة والحيرة التي تنتاب من يشرك بعد التوحيد ، ومن يتوزع قلبه بين الإله الواحد ، والآلهة المتعددة من العبيد! "[(١)]

قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[(٢)].

يقول سيد : " إن هنالك قوة واحدة هي قوة الله ، وما عداها من قوة الخلق فهو هزيل واهن ، من تعلق به أو احتمى فهو كالعنكبوت الضعيفة تحتمي ببيت من خيوط واهية فهي وما تحتمي به سواء إنه تصوير عجيب صادق لحقيقة القوى في هذا الوجود ، الحقيقة التي يغفل عنها الناس أحيانًا ، فيسوء تقديرهم لجميع القيم ، ويفسد تصورهم لجميع الارتباطات ، وتختل في أيديهم جميع الموازين ، ولا يعرفون إلى أين يتوجهون ، ماذا يأخذون وماذا يدعون؟ "[(٣)] .

فهذه الأمثلة وغيرها جاءت في معرض تقرير أُلوهية الله وإبطال إشراك غيره معه ، وتصوير ضعف وعجز ما سواه ، وحال من يشرك به سبحانه ، وكل ذلك في معرض إبطال ألوهية ما سوى الله سبحانه وتعالى .

سادسًا : الاستدلال بالفطرة :

إن التوحيد هو الأصل في البشر فطرة وتاريخًا ، فكل مولود يولد مفطورًا على الإيمان بالله والاستعداد لقبول العقائد الصحيحة ، ولو ترك من غير مؤثر خارجي لما كان إلا موحدا مستسلمًا لله ، وهذا من لوازم الفطرة ، بحيث أصبح قبح الشرك معلوما في الفطرة السليمة ، ولو لم يرد به شرع ، فكيف وقد جاء الشرع لتقرير الفطرة ، وبهذا تكون الفطرة من أهم الحجج التي أقامها الله على المشركين لإبطال ما هم عليه من الشرك ، من خلال محاجتهم بما هو مستقر في فطرهم كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١١٣١-١٣٣٢ بتصرف .
(٢) سورة العنكبوت : الآية ٤١-٤٣ .
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٣٦- ٢٧٣٧ بتصرف وينظر : أيضًا ٤/ ٢٠٥١.

لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[(١)] .

يقول سيد- رحمه الله - : " لما كان الذي يدعوهم إليه رسلهم هو الاعتقاد بألوهية الله وحده وربوبيته للبشر بلا شريك من عباده، فإن الشك في هذه الحقيقة الناطقة التي تدركها الفطرة وتدل عليها آيات الله المبثوثة في ظاهر الكون المتجلية في صفحاته ، يبدو مستنكرًا قبيحًا ، وقد استنكر الرسل هذا الشك ، والسماوات والأرض شاهدان " [(٢)].

ولما كانت الفطرة الإنسانية تشعر بحاجتها وفقرها إلى ربها سبحانه ، وذلك نابع من إقرارها بوجوده ووحدانيته وقدرته دون سواه ، فإنا نرى العنصر البشري عامة، مؤمنا بالله كان أو جاحدًا إذا ألمّ به خطبٌ عظيم ، واجتمعت عليه الأحداث وشعر بالعجز سرعان ما يتوجه إلى الله وحده ، وان كان يشرك معه غيرة ، وهذا دليل على بطلان الشرك بالخالق سبحانه وتعالى .

لهذا نجد الله– سبحانه – يستدل به على المشركين في أكثر من أيه في القرآن الكريم من ذلك: – قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[(٣)] .

يقول سيد – رحمه الله –: " يحاكمهم إلى فطرتهم التي تعرف حقيقة الألوهية، وتلتجئ إلى إلهها الحق في ساعة الشدة ، ويرسم لهم هذه الفطرة أمام الهول والكرب، وكيف يخالفون عنها في السر والرخاء ، إنها تجربة يعرفها كل من وقع في ضيقة ، أو رأى المكروبين في لحظة الضيق ، وظلمات البر والبحر كثيرة .. فالمتاهة ظلام ، والخطر ظلام ، والغيب الذي ينتظر الخلق في البر والبحر حجاب ، وحيثما وقع الناس في ظلمة من ظلمات البر والبحر لم يجدوا في أنفسهم إلا الله يدعونه متضرعين أو يناجونه صامتين ، إن الفطرة تتعرى حينئذ من الركام ، فتواجه الحقيقة الكامنة في أعماقها ، حقيقة الألوهية الواحدة ، وتتجه إلى الله الحق بلا شريك، لأنها تدرك حينئذ سخافة

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ١٠.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٩٠ وينظر : ٣/ ١٣٠٧، ١٤٩٩، ١٧٦٦ ، ٤/ ١٩٨٩ ، ٥/ ٣٠٣٧ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٦٣-٦٤ .

فكرة الشرك ، وتدرك انعدام الشريك ! ويبذل المكذبون الوعود ، ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ والله سبحانه يقول لرسوله ﷺ ليذكرهم بحقيقة الأمر: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ﴾ ، فليس هنالك غيره يستجيب ويقدر على دفع الكروب ، ثم ليذكرهم بتصرفهم المنكر العجيب : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ "[1].

- قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[2].

يقول سيد : " لقد أمر الله إلا يتخذ الناس إلهين اثنين ، إنما هو إله واحد لا ثاني له ، ويأخذ التعبير أسلوب التقرير والتكرير فيتبع كلمة إلهين بكلمة اثنين ، ويتبع النهي بالقصر إنما هو إله واحد . ويعقب على النهي والقصر بقصر أخر ﴿ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ دون سواي بلا شبيه أو نظير . ويذكر الرهبة زيادة في التحذير ، ذلك أنها القضية الأساسية في العقيدة كلها ، لا تقوم إلا بها ، ولا توجد إلا بوجودها في النفس واضحة كاملة دقيقة لا لبس فيها ولا غموض ، إنما هو إله واحد ، وإنما هو كذلك مالك واحد ﴿ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، ودائن واحد ﴿ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾ أي : وأصلاً منذ ما وجد الدين، فلا دين إلا دينه، ومنعم واحد: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ وفطرتكم تلجأ إليه وحده ساعة العسرة والضيق ، وتنتفي عنها أوهام الشرك والوثنية فلا تتوجه إلا إليه دون شريك ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ وتصرخون لينجيكم مما أنتم فيه ، وهكذا يتفرد سبحانه وتعالى بالألوهية والملك والدين والنعمة والتوجه، وتشهد فطرة البشر بهذا كله حين يصهرها الضر وينفض عنها أوشاب الشرك ومع هذا فإن فريقا من البشر يشركون بالله بعد توحيده حالما ينجيهم من الضر المحيق! فينتهوا إلى الكفر بنعمة الله عليهم ، وبالهدى الذي آتاهم ﴿ فَتَمَتَّعُواْ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ هذا النموذج ، نموذج متكرر في البشرية ، ففي الضيق تتوجه القلوب إلى الله ، لأنها تشعر بالفطرة ألا عاصم لها سواه ، وفي الفرج

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٣-١١٢٤ بتصرف يسير.

(٢) سورة النحل : الآية ٥١-٥٥ .

تتلهى بالنعمة والمتاع ، فتضعف صلتها بالله ، وتزيغ عنه ألوانا من الزيغ تبدو في الشرك به، وتبدو في صور شتى من تأليه قيم وأوضاع ولو لم تدع باسم الإله". [١]

" إن فطرة الإنسان تبرز عارية حين يمسه الضر، ويسقط عنها الركام، وتزول عنها الحجب ، وتتكشف عنها الأوهام، فتتجه إلى ربها ، وتنيب إليه وحده، وهي تدرك أنه لا يكشف الضر غيره . وتعلم كذب ما تدعي من شركاء أو شفعاء ، أما حين يذهب الضر ويأتي الرخاء ، ويخوله الله نعمة منه ، ويرفع عنه البلاء ، فإن هذا الإنسان الذي تعرت فطرته عند مس الضر يعود فيضع عليها الركام وينسى تضرعه وتوحيده لربه وتطلعه إليه في محنته وحده حين لم يكن غيره يملك أن يدفع عنه محنته، ينسي هذا كله ويذهب يجعل لله أندادًا ، إما آلهة يعبدها كما كان في جاهليته الأولى، وإما قيما وأشخاصًا وأوضاعًا يجعل لها في نفسه شركة مع الله ، كما يفعل في جاهلياته الكثيرة! فإذا هو يعبد شهواته وميوله ومطامعه ومخاوفه وماله وأولاده وحكامه وكبراءه كما يعبد الله أو أخلص عبادة ، ويحبها كما يحب الله أو أشد حبًا! والشرك ألوان، فيها الخفي الذي لا يحسبه الناس شركًا ، لأنه لا يأخذ شكل الشرك المعروف وإنما هو من الشرك في الصميم" [٢].

سابعًا : بيان نهاية الشرك وخاتمة أهله وما عبد من دون الله سبحانه وتعالى :

من الأدلة أيضًا التي جاءت في القرآن الكريم لتقرير توحيد الألوهية "العبادة" وبطلان الشرك بالله سبحانه، الاستدلال ببيان عاقبة الشرك والواقعين فيه في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فقد ذكر الله تعالى قصة الصراع بين التوحيد والشرك ممثلًا بالصراع بين الرسل وأقوامهم ، واخبر في نهاية كل قصة عن نهاية المشركين والمعاندين وسوء مصيرهم بسبب إشراكهم بالله ، جاعلًا من ذلك دليلًا على بطلان الشرك وقبحه [٣].

وأما في الآخرة فقد ذكر الله في كثير من الآيات عاقبة المشركين الذين يعبدون غير الله وصَّور ما يكون يوم القيامة بين العابدين والمعبودين ، وبين الأتباع والمتبوعين،

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٧٦-٢١٧٧ بتصرف يسير .
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٤١ ، وينظر أيضا : ٣/ ١٧٦٦، ١٧٧٣ ، ٤/ ٢٢٤٠ .
(٣) المصدر السابق (٤/ ٢٤٢٩ وما بعدها .

وتنصل المعبودين من جناية العابدين ومن ذلك :

- قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[1].

يقول سيد : " وكأنما هم اللحظة في ساحة العرض، يردون جهنم هم وآلهتهم المدعاة ، وكأنما هم يُقذفون فيها قذفًا بلا رفق ولا أناة ، وكأنما تحصب بهم حصبًا كما تحصب بالنواة! وعندئذ يوجه إليهم البرهان على كذب ما يدعون لها من كونها آلهة ..من هذا الواقع المشهود : ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾[2].

- قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[3].

يقول سيد : " ثم يقطع هذا الصمت رؤية الذين أشركوا لشركائهم في ساحة الحشر ممن كانوا يزعمون أنهم شركاء لله ، وأنهم آلهة يعبدونهم مع الله أو من دون الله، فإذا هم يشيرون إليهم ويقولون!﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ﴾، ويفزع الشركاء ويرتجفون من هذا الاتهام الثقيل، فإذا هم يجبهون عبادهم بالكذب في تقرير وتوكيد ﴿ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾وإذا المشركون لا يجدون من مفترياتهم شيئًا يعتمدون عليه في موقفهم العصيب [4]

ويذكر القرآن مواقف متعددة تظهر حال المشركين يوم القيامة مع شركائهم تبدأ من تنصلهم من عبادتهم إياهم وتنتهي بتنصل الشيطان منهم في النار .[5]

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٩٨-٩٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٩ .

(٣) سورة النحل : الآية ٨٦-٨٧ .

(٤) في ظلال القرآن (٤/ ٢١٧٨- ٢١٨٨ بتصرف .

(٥) ينظر :في ظلال القرآن ١/ ١٥٤ و ٢/ ١٠٠٠ - ١٠٠٢ و٣/ ١٢٨٩، ١٧٨٠ و٤/ ٢٠٩٥-٢٠٩٨ و٥/ ٢٩٠٨-٢٩١١ .

المبحث الثالث
خصائص الألوهية ومجالاتها



يرى سيد قطب- رحمه الله - أن الألوهية تتضمن ثلاثة مجالات يطلق عليها اسم خصائص الألوهية - غالبًا - وهي تشكل بمجموعها حقيقة الدين الإسلامي ، ومعنى شهادة " لا إله إلا الله محمد رسول الله " ، وهذه المجالات أو الخصائص مترابطة ينشأ بعضها عن بعض ، ولا يقبل واحد منها إلا منضماً إليه غير في وحده غير قابلة للفصل أو التجزئة ، وهذه المجالات أو الركائز هي : -

الأول :مجال الاعتقاد : ويعني الاعتراف والإقرار لله بأنه وحده لا شريك له في ربوبيته ، ولا في ألوهيته على حد سواء ، وعدم الإشراك به أحدًا لا في الربوبية ولا في الألوهية .

يقول سيد : " القاعدة التي يقوم عليها بناء العقيدة، وترجع إليها التكاليف والفرائض، وتستمد منها الحقوق والواجبات . . التي يجب أن تقوم أولًا .. هي أنه يجب ابتداءً أن يعترف الناس بربوبية الله وحده لهم في حياتهم كما يعترفون بألوهيته وحده في عقيدتهم ، لا يشركون معه أحدًا في ألوهيته ، ولا يشركون معه أحدًا في ربوبيته كذلك ، يعترفون له وحده بأنه المتصرف في شؤون هذا الكون في عالم الأسباب والأقدار، ويعترفون له وحده بأنه المتصرف في حسابهم وجزائهم يوم الدين، ويعترفون له وحده بأنه هو المتصرف في شؤون العباد في عالم الحكم والشريعة كلها سواء " [١].

ويقول أيضًا : " - الله لا إله إلا هو - هذه الوحدانية الحاسمة التي لا مجال فيها لأي انحراف أو لبس مما طرأ على الديانات السابقة - بعد الرسل - ولا لأي غبش مما كان يرينً على العَقائد الوثنية التي تميل إلى التوحيد ولكنها تُلبسه بالأساطيرً ، هذه الوحدانية الحاسمة الناصعة هي القاعدة التي يقوم عليها التصور الإسلامي، والتي ينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها ، ينشأ عنه الاتجاه إلى الله وحده بالعبودية

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٢٩ بتصرف يسير.

والعبادة ، و الحاكمية لله وحده ... فتوحيد الله هو إفراده – سبحانه – بالألوهية ، وبخصائصها بحيث لا يكون له فيها شريك "[١].

الثاني: مجال العبادة : والتوجه إلى الله وحده بالعبودية، فلا يكون الإنسان عبدًا إلا لله، ولا يتجه بالعبادة إلا لله، ولا يلتزم إلا طاعة الله وما يأمره الله به من الطاعات، وهذه الخاصية من خصائص الألوهية ناشئة عن الخاصية السابقة وهي الاعتقاد بوحدانية الله دون شريك له في ربوبيته وألوهيته[٢].

الثالث : مجال الحاكمية والتشريع : ويعني اعتقاد تفرد الله وحده بالحاكمية والتشريع ، فيكون الله وحده هو المشرع للعباد، ويجيء تشريع البشر مستمدًا من شريعة الله ، وعن هذا التصور تنشأ قاعدة استمداد القيم كلها من الله، فلا اعتبار لقيمة من قيم الحياة كلها إذا لم تقبل في ميزان الله ، ولا شرعية لوضع أو تقليد أو تنظيم يخالف عن منهج الله ، وهكذا إلى أخر ما ينبثق عن معنى الوحدانية من مشاعر في الضمير أو مناهج لحياة الناس في الأرض على السواء[٣].

" فأخص خصائص الألوهية، هو الحاكمية والتشريع للبشر ، ووضع الأسس التي تقوم عليها حياتهم وارتباطهم "[٤].

وقد ركز سيد قطب كثيرًا على بيان هذه الثلاث الخصائص وإيضاح مدى الارتباط بينها، وأنها مجتمعه تمثل حقيقة الدين والتوحيد والألوهية، فلا يكون الدين صحيحًا إلا بوجودها مجتمعة .

ومن ذلك قوله -رحمه الله- : " وهكذا يتبين أن الاعتراف بالربوبية[٥] لله وحده، والعبادة لله وحده و الدينونة لله وحده ، تعني في مجموعها إفراد الله بالألوهية ، أو تعني بالمدلول الاصطلاحي " شهادة أن لا إله إلا الله " ، وأن الاعتقاد بألوهيته– سبحانه– وربوبيته هي كالتوجه إليه وحده بالشعائر التعبدية ، كالاعتراف بحاكميته وحده والتحاكم إلى شريعته وحدها ، كلها سواء في تكوين مدلول " لا إله إلا الله" فالذي يعترف بحاكمية غير الله وشرعه ونظامه ، إنما يعترف لهذا الغير بالربوبية

(١) المصدر السابق ١/ ٢٨٦ ، ٢/ ٨٣٢ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ١/ ٢٨٦ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٢٨٦ .
(٤) المصدر السابق ٢/ ٦١٩ .
(٥) يستخدم سيد لفظ الربوبية بمعنى: السلطان والحاكمية والدينونة ، وينظر :التمهيد في أول هذا الباب .

وبالعبادة والدين ، وهذا هو الأصل العام - المعلوم من الدين بالضرورة - الذي يقوم عليه الحكم بكفر من لا يفرد الله سبحانه وتعالى بخصائص الألوهية مجتمعة - لا ببعضها دون بعض - وهي : الاعتقاد القلبي بإلوهية الله وحده ، والتوجه إليه بالشعائر التعبدية وحده ،و الدينونة له بالحاكمية وحده ممثلة في التحاكم إلى شريعته وحدها " [1]

ويقول: " إن "الألوهية " و" الربوبية " و " العبادة " و " الدين " تذكر في القرآن في معرض " الاعتقاد " وفي معرض " الشعائر " وفي معرض " الحاكمية "على السواء.

وتوحيد الله - وبالتعبير الاصطلاحي الفقهي -" شهادة أن لا إله إلا الله " وهي التي يدخل به الإنسان في الإسلام ، ويكسب بها هذه الصفة ، و يعصم بها دمه وماله في الإسلام ، تعني هذه المعاني والمدلولات كلها مجتمعه ، ولا توجد شرعًا إلا بعد توافر هذه المعاني والمدلولات مجتمعه تعني إفراد الله - سبحانه- بالألوهية ، وذلك بالاعتقاد في ألوهيته وحده ، وبالتوجه إليه بالشعائر التعبدية وحده ، وبالاعتراف له بحق الحاكمية في تنظيم الحياة البشرية بشريعته وحده " [2].

وقد قرر سيد - رحمه الله - هذا الأمر في مواضع كثيرة [3] ، وبين أن هذا ليس " رأيًا " له أو " رأيًا " لغيره من البشر ، بل أنه ليس موضعًا لرأي عالم أو مفسر أو مجتهدٍ من الفقهاء ، إنما هو النص الذي لا مجال فيه للتأويل ، والحكم المعلومَ من الدينِ بالضرورة ، الذي لا مجال فيه للرأي والاجتهاد ، فلا رأي مع النص وإنما هو بيان لأصل هذا الحكم في العقيدة الإسلامية والمنهج القرآني ، وموضعه في النصوص التي وردت به [4].

وفي هذا المبحث بيان لخصائص ومجالات الألوهية عند سيد - رحمه الله - وذلك في المطالب الثلاثة الآتية : -

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٥١ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ١٤٧-١٤٨ .

(٣) ينظر: في ظلال القرآن ١/ ٢٦٨ ، ٤٨١ ، ٤٩٠ - ٢/ ٦١٠ ،٦١٩ ، ٦٢٣ ، ٦٩٦ ، ٧٣٢ ، ٨٣٢ ، ٨٩٠، ٩٧٠ ، ١١٧٥ - ٣/ ١٤٤٣ ، ١٧٦٣ -٤/ ١٨٥٢ ، ١٨٦٦ ، ١٩٤٤ ، ١٩٦٣ ، ١٩٩٠ ، ومقومات التصور الإسلامي ، ص ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٥١، ١٨١- ١٨٤ ، ومعالم في الطريق ص ١٣٥ ، وهذا الدين ص ١٧ وما بعدها .

(٤) مقومات التصور الإسلامي ص (١٤٧) بتصرف .

المطلب الأول
" لا إله إلا الله " معناها ، ومقتضياتها



ذهب كثير من المتكلمين إلى أن كلمة " إله " تعني: القادر على الاختراع والخلق[١]، وذلك لأنهم فهموا من معنى " إله " إنها بمعنى " آلِهٌ " - أي خالق - ، وليست بمعنى " مألوه " أي معبود[٢] .

أما جمهور أهل السُّنَّة والجماعة فيقولون أن كلمة " لا إله إلا الله " تدل على توحيد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته ، وأنه من الخطأ قصرها على توحيد الربوبية ، وإخراج توحيد الألوهية من مدلولها فمن جعل غاية معناها " لا خالق إلا الله " فقد جهل كثيرًا من معناها، واخطأ في فهم مدلولها .

فالألوهية أمر زائد على الربوبية ، فغالب الأمم كانت مقرة بالربوبية كما أخبر القرآن عنهم ، وإنما كانت دعوة الرسل إلى توحيد الألوهية والعبادة وعدم الشرك بالله سبحانه وتعالى ، وكلام جمهور أهل السُّنَّة والجماعة في بيان معنى " لا إله إلا الله " قائم على أنها تعني : " لا معبود بحق إلا الله" وهذا الإقرار يتضمن الاعتراف بالربوبية كما تقدم ، خلافًا للمتكلمين[٣] .

ولا يفهم من هذا الكلام أن المتكلمين مشركون في الألوهية ، بل كثير منهم يوجب عبادة الله وحده لا شريك له ويمنع عبادة غير الله لاسيما المتقدمون منهم، ولكنهم لا يجعلون ذلك من معاني التوحيد المدلول عليه بكلمة " لا إله إلا الله " وإنما يوجبونه بأدلة أخرى من الكتاب والسُّنَّة .

معنى " لا إله إلا الله " ومقتضياتها عند سيد قطب :

وقف سيد - رحمه الله - في الظلال وفي كتبه الأخيرة خاصةً في المعالم والمقومات

---

(١) انظر : أصول الدين، للبغدادي ص ١٢٣ ، وشرح أسماء الله الحسنى ، للرازي ص ١٢٤ ، واللمع ، للجويني ص٨٦ .

(٢) انظر : منهاج السُّنَّة لابن تيمية ٢/ ٦٥ ، ومجموع الفتاوى ٨/ ١٠١ .

(٣) ينظر: تفسير الطبري ١/ ٢٢٦ ، ومجموع الفتاوى ٨/ ١٠١ ، وشرح العقيدة الطحاوية ٢٨-٣٦ ، ٧٢، ٧٢، وتيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص ٧٥ - ٧٦ .

كثيرًا عند كلمة التوحيد " لا إله إلا الله " وراءه ما وصل إليه حال كثير من المسلمين في الأرض من فهم لمعنى " لا إله إلا الله " على أنها كلمة تقال باللسان وأداء لبعض الشعائر التعبدية ، وليست منهجًا للحياة في كل مجالاتها .

ومن ثم كان كلامه - خاصة في المعالم والمقومات - مركزًا حول بيان المدلول الحقيقي لهذه الكلمة الذي نزلت به من عند الله ، والذي صنع الله به ما صنع في الأرض من إخراج الأمة المثالية ، التي انطلقت تحطم الطواغيت في الأرض ، وتقيم مكانتها حكم الله وشريعته ومنهجه ، وتجعل الدين كله لله ، وبيان أن " لا إله إلا الله" التي يدخل بها الناس الجنة في الآخرة ، وتزول بها الجاهلية من الأرض وتقام بها دولة الحق في الدنيا ، ليست هي كلمة التي تنطق باللسان دون أن يكون لها رصيد من يقين القلب وواقع السلوك ، إنما هي تلك التي تُنْطَق باللسان، ويملأ اليقين بها القلب وتتمثل في سلوك واقعي يقيم المنهج الرباني والشريعة الربانية ، ويجاهد الأنظمة الجاهلية ولا يرضى بها ولا يرضى عنها ، وإلا فهي كلمة بلا رصيد، لا يقبلها الله في الآخرة ، ولا تغير شيئًا في واقع الأرض ، لأنها لم تبرأ من الشرك المتمثل في إقرار حاكمية البشر بدلًا من حاكمية الله ، والبراءة من الشرك وهي شرط لقبول " لا إله إلا الله " في الآخرة ، وشرط للتمكين في الأرض في الدنيا .

وكان أعداء الإسلام حين جاسوا خلال الديار الإسلامية ، قد نحَّوا شريعة الله عن الحكم وحكموا بدلًا منها شرائع البشر ، ثم قالوا للناس لا بأس عليكم فأنتم مسلمون ما دمتم تُصَلّون وتصومون وتقدمون بشرائع العبادة ! ثم سلطوا عليهم من الأفكار والمعتقدات والأنظمة وأنماط الحياة الواقعية ما يصرفهم عن الصلاة والصوم والعبادة ، ثم قالوا لهم : لا بأس عليكم ! فأنتم مسلمون ما دمتم تقولون " لا إله إلا الله "! فجاءت كتابات سيد - رحمه الله - تقول للناس : إنها ليست هذه هي " لا إله إلا الله " التي تعطي الناس صفة الإسلام ، إنما هي تلك التي ينطقها الناس بلسانهم ، وتستيقن بها قلوبهم ، ويعملون بمقتضياتها في واقع حياتهم ..

عند ذلك لم يطق أعداء الإسلام من سيد - رحمه الله- أن يفسد عليهم بكتاباته جهد قرن كامل من الزمان ظلوا فيه يبعدون الناس عن حقيقة " لا إله إلا الله "

ويوهمونهم أنهم ما زالوا مسلمين ، فكان ما كان [١] .

ويمكن بيان معنى " لا إله إلا الله " ومدلولها ومقتضياتها عند سيد قطب ـ رحمه الله ـ فيما يأتي :ـ

أولا : معنى " لا إله إلا الله " ومدلولها :

يرى سيد – رحمه الله – أن معنى الشهادة ومدلولها هو توحيد الله تعالى حيث يقول: " والقاعدة النظرية التي يقوم عليها الإسلام على مدار التاريخ البشري هي قاعدة " لا إله إلا الله " أي إفراد الله – سبحانه- بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية .

إفراد الله بها اعتقاد في الضمير، وعبادة في الشعائر، وشريعة في واقع الحياة ، فشهادة " أن لا إله إلا الله " لا توجد فعلاً، ولا تعتبر موجودة شرعًا ، إلا في هذه الصورة المتكاملة ، التي تعطيها وجودًا جديًا حقيقيًا يقوم عليه اعتبار قائلها مسلماً أو غير مسلم .

ومعنى تقرير هذه القاعدة من الناحية النظرية. أن تعود حياة البشر بجملتها إلى الله ، ولا يقضون هم في أي شأن من شؤونها ، ولا في أي جانب من جوانبها ، من عند أنفسهم ، بل لابد لهم أن يرجعوا إلى حكم الله فيها ليتبعوه ، وحكم الله هذا يجب أن يعرفوه من مصدر واحد يبلغهم إياه وهو رسول الله ﷺ ، وهذا يتمثل في شطر الشهادة الثاني من ركن الإسلام " شهادة أن محمدًا رسول الله " .

هذه هي القاعدة النظرية التي يتمثل فيها الإسلام ويقوم عليها ، وهي تنشئ منهجًا كاملا للحياة حين تطبق في شؤون الحياة كلها ، يواجه به المسلم كل فرع من فروع الحياة الفردية والجماعية في داخل دار الإسلام وخارجها ، وفي علاقاته بالمجتمع المسلم وفي علاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى " [٢].

ويقول أيضًا تحت عنوان - " لا إله إلا الله " منهج حياة - : العبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية المتمثل في شهادة : أن لا إله إلا الله ، والتلقي

(١) ينظر : مقومات التصور الإسلامي ص ٥- ٦ بتصرف .
(٢) معالم في الطريق – سيد قطب ص ٥٤-٥٥

عن رسول الله ﷺ في كيفية هذه العبودية - هو شطرها الثاني - المتمثل في شهادة أن محمدًا رسول الله .

والقلب المؤمن المسلم الذي تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها ، لأن كل ما بعدها من مقومات الإيمان وأركان الإسلام إنما هو مقتضى لها... ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها .. فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة ، كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة أو قامت على قاعدة أخرى معها ، أو عدة قواعد أجنبية عنها ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) "(٢).

" إن السِّمة الأولى المميزة لطبيعة" المجتمع المسلم " هي أنه يقوم على قاعدة العبودية لله وحده في أمره كله ، هذه العبودية التي تمثلها وتكيفها شهادة " أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله " ، وتتمثل هذه العبودية في التصور الإعتقادي ، كما تتمثل في الشعائر التعبدية ، كما تتمثل في الشرائع القانونية سواء .

- فليس عبدًا لله وحده من لا يعتقد بوحدانية الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٣) .

- وليس عبدًا لله من يتقدم بالشعائر التعبدية لأحد غير الله - معه أو دونه - : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (٤) .

- وليس عبدًا لله وحده من يتلقى الشرائع القانونية من أحد سوى الله ،عن الطريق الذي بلّغنا الله به وهو رسول الله ﷺ: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ (٥) ، ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ

(١) سورة يوسف : الآية ٤٠ .
(٢) معالم في الطريق ص ٩٢-٩٣ .
(٣) سورة النحل : الآية ٥١-٥٢ .
(٤) سورة الأنعام : الآية ١٦٢-١٦٣
(٥) سورة الشورى : الآية ٢١

فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ (١).

- هذا هو المجتمع المسلم ، المجتمع الذي تتمثل العبودية لله وحده في معتقدات أفراده و شعائرهم وعبادتهم ، و نظامهم الجماعي وتشريعاتهم .. وأيُّها جانب من هذه الجوانب تخلف عن الوجود فقد تخلف الإسلام نفسه عن الوجود ، لتخلف ركنه الأول وهو " شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله " (٢).

ويقول أيضًا : " وما كانت الجاهلية العربية التي واجهها الإسلام أول مرة في الجزيرة العربية تنكر الله البتة ، وما كانت تجهل أن الله هو الخالق ، الرازق ، القوي ، الذي يجير لا يجار عليه ..، ولم يدعها النبي صلى الله عليه وسلم إلى الاعتقاد بوجود الله ، ولكنه دعاها إلى توحيد الله ، دعاها إلى الاعتقاد بأن الله هو الإله والرب والقيم، ودعاها إلى عبادة الله وحده والتقدم إليه بالشعائر، ودعاها إلى التحاكم إلى شريعة الله وحده و الدينونة له بالعبودية ، وكانت هذه الدعوة بمضموناتها هذه كاملة ، هي معنى : " شهادة أن لا إله إلا الله " التي هي الإسلام " (٣).

والنصوص في بيان معنى " لا إله إلا الله " ومدلولها كثيرة جدًا فيما كتبه سيد -رحمه الله - وكلها تقرر أن " لا إله إلا الله " تعني توحيد الله سبحانه وتعالى ، وإفراده بإلوهيته ، وبالاعتقاد بأنه هو الإله والرب والقيم الحق ، والتقرب إليه بالعبادات والشعائر دون شريك، وتحكيم شرعه الذي جاء به رسوله محمد ﷺ في كل شؤون الحياة ومجالاتها .

وتقرر أن هذا هو المعنى الحقيقي لهذه الكلمة ، وأن قصره على بعض الجوانب السابقة دون بعض يفرغها من معناها ، ويجعلها غير ذي فائدة في الدنيا والآخرة .

وأن هذا المعنى هو الذي آمن من آمن به عن علم ، وكفر به ورفضه من رفضه من المشركين عن علم أيضًا ، فالذي قبلها قبلها على أنها منهج حياة متكامل اعتقادا وسلوكًا وانقيادًا ، والذي رفضها ، رفضها لأنها منهج حياة أيضا يتعارض مع مصالحه وأهدافه في الحياة .

(١) سورة الحشر : الآية ٧.
(٢) معالم في الطريق : ص ٩٤-٩٥ بتصرف يسير .
(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ١٠٧ .

ويلاحظ أن سيدًا - رحمه الله - ركز كثيرًا عند حديثه عن معنى ومدلول " لا إله إلا الله " على ربطها بقضية الحاكمية والتشريع والطاعة ، حتى جعل في بعض النصوص معنى " لا إله إلا الله " أي لا حاكمية ولا سلطان إلا الله ، وذلك لأن الناس لم يكن انحرافهم في الاعتقاد بوجود الله وفي التقرب إليه بالشعائر والعبادات هو الغالب، إنما كان انحرافهم ولا يزال في مسألة التحاكم إلى غير شريعة الله والحكم بغير ما أنزل الله ، وطاعة المشركين فيما يخالف شرع الله ، لهذا السبب كان تركيزه كثيرًا على بيان دلالة " لا إله إلا الله " على هذا المعنى ، وأنها بدونه تكون قد فقدت ركنًا ومقومًا من مقوماتها التي لا تنفع بدونها مجتمعه كما سبق .[1]

فشهادة " أن لا إله إلا الله " ليست عبارة ولكنها منهج ، فإذا ظلت مجرد عبارة فليس هي " ركن " الإسلام المطلوب المعدود في أركان الإسلام .

ومن ثم ندرك القيمة الحقيقة لمثل هذه الشهادة التي ينطق بها الملايين اليوم ، ولكنها لا تتعدى شفاههم ، ولا يترتب عليها أثر في حياتهم وهم يحيون على منهج جاهلي شبه وثني ، بينما شفاههم تنطق بمثل هذه العبارة ...

إن " لا إله إلا الله " أو " ربنا الله " منهج حياة .. هذا ما ينبغي أن يستقر في الضمائر والأخلاد ، كيما تبحث عن المنهج الكامل الذي تشير إليه مثل هذه العبارة وتتحراه "[2] .

ثانيًا : مكانة " لا إله إلا الله " في الدين :

من خلال كلام سيد - رحمه الله - حول توحيد الألوهية الذي هو معنى " لا إله إلا الله " تظهر لنا المكانة الرفيعة لهذا التوحيد ولهذه الشهادة ، ويمكن أن نوجز ذلك في النقاط التالية : -

---

(١) ينظر في بيان معنى " لا إله إلا الله " عند سيد - رحمه الله - :
- في ظلال القرآن ٢/ ٨٣٢ ، ١٠٠٥ ، ١٠٥٧ ، ١٠٦ ، ٣/ ١٢٣٠ ، ١٥٠٢-١٥٠٣ ، ٤/ ٢١١٤ ، ٦/ ٣٢٦٠ .
- معالم في الطريق ٥٢-٦١ .
- مقومات التصور الإسلامي ١٨ وما بعدها ،الصفحات: ١٠٧-١١٠ ، ١٣٢-١٣٤ ، ١٤٧ - ١٥٧ .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٦٠ .

١ - أنها التي يدخل الإنسان بها في الإسلام ، ويعصم بها دمه وماله :

يقول سيد -رحمه الله -: " وتوحيد الله ، وبالتعبير الاصطلاحي الفقهي" شهادة أن لا إله إلا الله" وهي التي يدخل بها الإنسان في الإسلام ، ويكتسب بها هذه الصفة، ويعصم بها دمه وماله في الإسلام تعني هذه المعاني والمدلولات كلها مجتمعه، إفراد الله سبحانه بالألوهية باعتقاد ألوهيته وحده ، والتوجه إليه بالشعائر التعبدية، والاعتراف له بحق الحاكمية في تنظيم الحياة البشرية بشريعته وحده "[١].

٢ - أنها قاعدة التصور الإسلامي الذي ينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها:

في ظلال قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾[٢]، يقول سيد -رحمه الله-: " فهذه الوحدانية الحاسمة التي لا مجال فيها لأي انحراف أو لبس مما طرأ على الديانات السابقة بعد الرسل ، ولا لأي غبش مما كان يرين على العقائد الوثنية ... هذه الوحدانية الحاسمة الناصعة هي القاعدة التي يقوم عليها التصور الإسلامي، والتي ينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها ، فعن هذا التصور ينشأ الاتجاه إلى الله وحده بالعبودية والعبادة ، فلا يكون الإنسان عبدًا إلا لله ، ولا يتجه بالعبادة إلا لله ، ولا يلتزم بطاعة إلا طاعة الله وما يأمره الله به من الطاعات ، وعن هذا التصور تنشأ قاعدة : الحاكمية لله وحده .، فيكون الله وحده هو المشرع للعباد، ويجيء تشريع البشر مستمدًا من شريعة الله ، وعن هذا التصور تنشأ قاعدة استمداد القيم كلها من الله ، فلا اعتبار لقيمة من قيم الحياة كلها إذا لم تقبل في ميزان الله ، ولا شرعية لوضع أو تقليد أو تنظيم يخالف عن منهج الله "[٣].

٣ - أنها مفرق الطريق في التصور والاعتقاد ، ومفرق الطريق في الحياة والسلوك :

يقول سيد -رحمه الله- : " الله لا إله إلا هُوَ، هذا التوحيد الخالص الناصع هو مفرق الطريق بين عقيدة المسلم وسائر العقائد ، سواء منها عقائد الملحدين والمشركين ، وعقائد أهل الكتاب المنحرفين : يهودًا أو نصارى على اختلاف مللهم ونحلهم جميعًا ، كما أنه هو مفرق الطريق بين حياة المسلم وحياة أهل العقائد في

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٤٨، ١٦٩ .
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٥ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٢٨٦ بتصرف يسير.

الأرض ، فالعقيدة هنا تحدد منهج الحياة ونظامها تحديدًا كاملًا دقيقًا " [١].

٤- أنها أساس الدعوة إلى الله ومنطلقها :

يقول سيد : " فالمنهج الإسلامي لم يبدأ من علاج رذائل الجاهلية وانحرافاتها، إنما بدأ من العقيدة بدأ من شهادة أن لا إله إلا الله ،وطالت فترة إنشاء "لا إله إلا الله" هذه في الزمن حتى بلغت نحو ثلاثة عشر عامًا ، لم يكن فيها غاية إلا هذه الغاية ! تعريف الناس بإلههم الحق وتعبيدهم له وتطويعهم لسلطانه ، حتى إذا خلصت نفوسهم لله، وأصبحوا لا يجدون لأنفسهم خيرة إلا ما يختاره الله ،عندئذ بدأت التكاليف - بما فيها الشعائر التعبدية - وعندئذٍ بدأت عملية تنقية رواسبَ الجاهلية" [٢] .

٥- أنها أول ما يجب معرفته والعلم به قبل العمل :

يقول سيد في ظلال قوله تعالى﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾[٣]: هذا توجيه إلى تذكر الحقيقة الأولى التي يقوم عليها أمر النبي ﷺ ومن معه ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ، وعلى أساس العلم بهذه الحقيقة واستحضارها في الضمير تبدأ التوجيهات الأخرى " [٤].

٦- أنها أصل دين الله الثابت وحقيقته في كل زمان :

ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾[٥]، يقول سيد-رحمه الله -: " وهذه حقيقة لها وزنها ، إن الرسول ليس مجرد " واعظ " يلقي كلمته ويمضي ، كما يقول المخادعون عن طبيعة الدين ، أو كما يفهم الذين لا يفهمون مدلول " الدين " .

إن الدين منهج حياة، منهج حياة واقعية ، بتشكيلاتها وتنظيماتها ، وأوضاعها وقيمها ، وأخلاقها وآدابها ، وعباداتها وشعائرها كذلك ، وهذا كله يقضي أن يكون

(١) المصدر السابق ١/ ٣٦٥، ٣٦٧ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٩٧٣- ٩٧٤ بتصرف يسير .
(٣) سورة محمد : الآية ١٩ .
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٥ .
(٥) سورة النساء : الآية ٦٤ .

للرسالة سلطان يحقق المنهج ، ومن هنا كان تاريخ الإسلام كما كان دعوة وبلاغًا، ونظامًا وحكمًا ، وخلافة بعد ذلك عن رسول الله - ﷺ - تقوم بقوة الشريعة والنظام، على تنفيذ الشريعة والنظام لتحقيق الطاعة الدائمة للرسول ، وتحقيق إرادة الله من إرسال الرسول .. وهذه هي صورة الإسلام أو الدين ... ويبقى أصل الدين الثابت وحقيقته التي لا يوجد بغيرها ..إفراد لله - سبحانه - بالألوهية "شهادة أن لا إله إلا الله" ومن ثم إفراده بالحاكمية والرجوع إلى الله والرسول " .[1]

" ومن أجل هذا جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة ... جاء شريعة وعقيدة وشعائر تعبدية ، وكانت هذه الثلاث هي قوام دين الله وهي مقومات "لا إله إلا الله كما سبق " [2].

"إن الدعوة الواحدة الخالدة على لسان كل رسول وفي كل رسالة ،هي دعوة التوحيد والعبادة والعبودية لله ، المتمثلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول : ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [3].

ثالثًا : مقتضيات شهادة " أن لا إله إلا الله " :

ركز سيد - رحمه الله - كثيرًا عند حديثه عن كلمة التوحيد " لا إله إلا الله "على بيان مقتضياتها ومستلزماتها ، فهي تعني عنده - كما سبق - منهج حياة ، وبالتالي فلا يكفي أن تكون اعتقادًا ، أو نطقًا باللسان بل لابد أن يتبعها عمل وطاعة في الواقع، ومقتضياتها عند سيد قطب هي :-

١ - الاستسلام الكامل لله - تعالى - اعتقادًا وشعورًا وعملًا واتباعًا في كل شؤون الحياة:

يقول سيد -رحمه الله-: " فشهادة الله -سبحانه- بأنه لا إله إلا هو، مسوقة لبيان ما هو من مستلزماتها، وهو أنه لا يقبل إذن من العباد إلا العبودية الخالصة له ، المتمثلة في الإسلام بمعنى الاستسلام - لا اعتقادًا وشعورًا فحسب - ولكن كذلك عملًا وطاعة وإتباعا للمنهج العملي الواقعي المتمثل في أحكام الكتاب . ومن هذه الناحية نجد كثيرين في كل زمان يقولون : إنهم يؤمنون بالله ، ولكنهم يشركون

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٦٩٥، ٦٩٦ بتصرف .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٦٩ بتصرف يسر وينظر أيضا : ٢/ ٨٢٦-٨٢٨ .
(٣) سورة المؤمنون : الآية ٢٣ .

معه غيره في الألوهية حين يتحاكمون إلى شريعة من صنع غيره ، وحين يطيعون من لا يتبع رسوله وكتابه، وحين يتلقون التصورات والقيم والموازين والأخلاق والآداب من غيره . فهذه كلها تناقض القول بأنهم يؤمنون بالله ولا تستقيم مع شهادة الله- سبحانه- بأنه لا إله إلا هو " (١)

إنها " ألوهية واحدة ،وإذن فدينونة واحدة ، واستسلام لهذه الألوهية لا يبقى معه شيء في نفوس العباد ولا في حياتهم خارجًا عن سلطان الله " . (٢)

٢- التوجه إليه - سبحانه - وحده بالعبادة والعمل :-

يقول سيد : " فالوحدانية التي هي قاعدة التصور الإسلامي ينشأ عنها الاتجاه إلى الله وحده بالعبودية ، والعبادة ، فلا يكون الإنسان عبدًا إلا لله ،ولا يتجه بالعبادة إلا لله ، ولا يلتزم بطاعة إلا لله وما يأمره الله به من الطاعات " (٣).

ويقول : " إن شهادة لا إله إلا الله محمدًا رسول الله هي قاعدة العبودية الحقة وما بعدها من مقومات الإيمان وأركان الإسلام إنما هو مقتضى لها ، فالإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وكذلك الصلاة والزكاة والصيام والحج ، ثم الحدود والتعازير والحل والحرمة والمعاملات والتشريعات والتوجيهات الإسلامية ... إنما تقوم كلها على قاعدة العبودية لله وحده ، كما أن المرجع فيها كلها هو ما بلَّغه لنا رسول الله ﷺ عن ربه ... ومن ثم تصبح شهادة "أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله " قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها " (٤).

٣- التلقي عن الله وحده في كل شؤون الحياة ومجالاتها :

يقول سيد- رحمه الله-: " وكل من ينطق بالشهادتين : " شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله " لا يقال له إنه شهد إلا أن يؤدي مدلول هذه الشهادة ومقتضاها، ومدلولها هو ألا يتخذ إلا الله إلهًا ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من الله،

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٨ ، وينظر : ١/ ٣٦٤ .
(٢) المصدر السابق ١/ ٣٧٩ ،وينظر أيضا ١/ ٣٨٠-٣٨١، ٣٨٣ ، ٣٨٧ ، ٥٦٢ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٢٦٨ بتصرف يسير .
(٤) معالم في الطريق ص ٩٢ بتصرف يسير .

فأخص خصائص الألوهية التشريع للعباد; وأخص خصائص العبودية التلقي من الله ، ومدلولها كذلك ألا يتلقى من الله إلا عن محمد ﷺ بما أنه رسول الله ﷺ ، ولا يعتمد مصدرًا أخر للتلقي إلا هذا المصدر "[١].

ويقول أيضا : " ولا يُقبل من الفرد المسلم ولا من المجتمع المسلم ، أقل من أن تكون حياته بجملتها من صنع هذا المنهج ، وتحت تصرفه وتوجيهه،... لا يقبل من الفرد المسلم ، ولا من المجتمع المسلم أن يجعل لحياته مناهج متعددة المصادر: منهجًا للحياة الشخصية وللشعائر والعبادات والأخلاق والآداب مستمدًا من كتاب الله ، ومنهجًا للمعاملات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدولية مستمدًا من كتاب أحدٍ أخر، أو من تفكيرٍ بشريٍ على الإطلاق!.

إن مهمة التفكير البشري أن تستنبط من كتاب الله ومنهجه أحكامًا تفصيلية تطبيقية لأحداث الحياة المتجددة ، وقضيتها المتطورة - بالطريقة التي رسمها - ولا شيء وراء ذلك ، وإلا فلا إيمان أصلًا ولا إسلام ، لا إيمان ابتداءً ولا إسلام ، لأن الذين يفعلون ذلك لم يدخلوا بعد في الإيمان ، ولم يعترفوا بعد بأركان الإسلام ، وفي أولها : "شهادة أن لا إله إلا الله " التي ينشأ منها أن لا حاكم إلا الله ، وأن لا مشرع إلا الله "[٢].

٤ - الحكم بما أنزل الله وتحكيم شريعته والتحاكم إليها دون ما سواها :

يقول سيد - رحمه الله - : " إن الحكم بما أنزل الله دون سواه هو مظهر سلطان الله، وحاكميته ومظهر " أن لا إله إلا الله "[٣] ، وأن " شهادة لا إله إلا الله" ينشأ منها أن لا حاكم إلا الله وأن لا مشرع إلا الله "[٤] ، " ومن الشهادة لله بالوحدانية تنشأ قاعدة : الحاكمية لله وحده ، فيكون هو وحده المشِّرع للعباد ، ومنه تستمد القيم في الحياة كلها "[٥] .

" فالإسلام هو قبل كل شيء " نظام " . نظام للحياة البشرية ذو خصائص

(١) في ظلال القرآن ١/ ٤٨١-٤٨٢ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٧٠٥ بتصرف .
(٣) المصدر السابق ٢/ ٨٢٨ .
(٤) المصدر السابق ٢/ ٧٠٥ .
(٥) المصدر السابق ١/ ٢٨٦ بتصرف وينظر أيضا : ٣/ ١٤٩٢ .

حميدة ، يقوم على أساس تحكيم شريعة الله وحدها – كما هي مبينه في كتابه وفي سنة رسوله – ﷺ – في أوضاع الحياة كلها وهذا التحكيم هو المقتضى الأول لشهادة : " أن لا إله إلا الله " بل هو المدلول الأول لهذه الشهادة ، والمدلول الذي لا يتحقق لهذه الشهادة بدون وجود في ضمير الإنسان ولا في حياته سواء ..

إن أولى خصائص الألوهية هي حق تعبيد الناس وتطويعهم للشرائع والأوامر، وحق أقامة النظم والأوضاع والمناهج والشرائع ،والقوانين والموازين ، وحمل الناس على إتباعها ... فالإقرار بإلوهية الله –سبحانه– وربوبيته لا يقوم إلا حين تقر النفوس بألوهيته وربوبيته في السماء والأرض في الحياة الآخرة، وفي ضمائر الناس وشعائرهم وفي حياتهم وواقعهم سواء ، بحيث لا تخرج جزئية واحدة من جزئيات الحياة البشرية –في الدنيا والآخرة – عن سلطان الله إلى سلطان سواه– وهذا هو مدلول قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[1] .

إن هناك في جميع أنحاء الأرض في جميع الأزمنة والعصور قاعدتين اثنتين لتصور الحياة ونظامها :

أ – قاعدة تفرد الله – سبحانه– بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان، وعليها يقوم نظام للحياة بتجرد فيه البشر من خصائص الألوهية.. ويعترفون بالله وحده، فيتلقون منه التصور الاعتقادي، والقيم الإنسانية والاجتماعية والأخلاقية، والمناهج الأساسية للحياة الواقعية ، والشرائع والقوانين التي تحكم هذه الحياة ، ولا يتلقونها من أحد سواه وبذلك : يشهدون " أن لا إله إلا الله " .

ب– وقاعدة ترفض ألوهية الله – سبحانه– وربوبيته وقوامته وسلطانه ، إما في الوجود كله – بإنكار وجوده – وإما في شؤون الأرض وحياة الناس ونظام المجتمع وشرائعه وقوانينه ، فتدعى لأحد من البشر : فرادًا أو جماعةً أو هيئةً أو طبقةً – أن يزاول من دون الله أو مع الله – خصائص الألوهية في حياة الناس، وبذلك لا يكون الناس الذين تقوم حياتهم على هذه القاعدة قد شهدوا " أن لا إله إلا الله " . "[2] .

---

(١) سورة الزخرف : الآية ٨٤.

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ١٨-٢١ بتصرف يسير .

" فمن مقتضيات " لا إله إلا الله " رد السلطان كله إلى الله ، السلطان على الضمائر ، وعلى الشعائر، وعلى واقع الحياة ،وعلى المال والقضاء ، والأرواح والأبدان ، والثورة على السلطان الأرضي الذي يغتصب خصائص الألوهية ، لأن الحاكمية العليا لله وحده "[(١)].

" ألوهية واحدة ، وإذن فجهة واحدة هي صاحبة الحق في تعبيد الناس لها وفي تطويعهم لأمرها، وفي إنفاذ شريعتها فيهم وحكمها، وفي وضع القيم والموازين لهم وأمرهم بإتباعها، وفي إقامة حياتهم كلها وفق التعليمات التي ترضاها . . وهذه هي مقتضيات التوحيد "[(٢)]

٥ - التجمع عليها والتميز عن الجاهلية :

يقول سيد -رحمه الله- : " إنما يعتبر الناس مسلمين حين يضمون إلى الاعتقاد والشعائر ، إفراد الله سبحانه بالحاكمية ، ورفضهم الاعتراف بشرعية كل ما لم يصدر عن الله ، وهذا وحده هو الإسلام لأنه مدلول شهادة : "أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله" كما عرف هذا المدلول في الاعتقاد الإسلامي وفي الواقع الإسلامي سواء! ، ثم يتجمع هؤلاء الذين يشهدون" أن لا إله إلا الله " على هذا النحو وبهذا المدلول في تجمع حركي بقيادةٍ مسلمةٍ، وينسلخوا من التجمع الجاهلي وقيادته الجاهلية" [(٣)].

٦ - الجهاد في سبيل تحقيق ألوهية الله في الأرض :

يقول سيد -رحمه الله- : " ومقتضى هذه الشهادة- لا إله إلا الله ، محمد رسول الله – أن يجاهد إذن لتصبح الألوهية لله وحده في الأرض كما بلغها محمد ﷺ فيصبح المنهج الذي أراده الله للناس والذي بلغه عنه محمد ﷺ هو المنهج السائد والغالب والمطاع ، وهو النظام الذي يصرِّف حياة الناس كلها بلا استثناء .. فإذا اقتضى هذا الأمر أن يموت في سبيله فهو إذن شهيد ، أي شاهد طلب الله إليه أداء هذه الشهادة

---

(١) معالم في الطريق ص٢٦ .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٩ ، وينظر أيضا : ١/ ٣٨٢ ، ٢/ ٦٩٤- ٦٩٦ ، ٤/ ٢١١٥ ، وهذا الدين ص ١٧ وما بعدها ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٠٩ .

(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٩٢ بتصرف يسير ، معالم في الطريق ص ٩٦-٩٧ ، ١٦٠ .

فأداها ، واتخذه الله شهيدًا ، ورزقه هذا المقام ، وهذا فقه قوله تعالى : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]، وهو مدلول شهادة" أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله" ومقتضاها لا ما انتهى إليه مدلول هذه الشهادة من الرخص والتفاهة والضياع ! " [2] . وهذا من أهم أهداف الجهاد في سبيل الله كما فهمة الرعيل الأول : والذي عبروا عنه بقولهم : " ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد، إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام " [3].

فهذه جمله من مقتضياتها ومستلزمات كلمة التوحيد ، عند سيد قطب - رحمه الله - والتي لابد من توافرها حتى تكون الشهادة صحيحة مقبولة نافعة في الدنيا والآخرة .

رابعًا : الانحراف عن مفهوم " لا إله إلا الله " وواجب الدعاة اليوم نحو ذلك :

ركز سيد-رحمه الله- كثيرًا على مسألة الغبش والغموض الذي أحاط بمفهوم " لا إله إلا الله " في الواقع الإسلامي المعاصر ، وبيّن واجب الدعاة والحركات الإسلامية نحو ذلك.

ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[4]، تحدث - سيد - عن منهج القرآن في العقيدة والحركة بها ، وأنه يقوم على بيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين، وبيان الباطل وكشفه أيضًا حتى تستبين سبيل المجرمين ، وأن ذلك ضروري لإنشاء اليقين الاعتقادي بالحق ، وتقوية الاندفاع به ، وبيَّن أن هذا التحديد كان قائما وواضحا في حياة الرعيل الأول الذين واجهوا الشرك والجاهلية في أول الإسلام ..

ثم قال : " ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا - أي عدم وضوح الشرك والوثنية والإلحاد وديانات أهل الكتاب المحرفة - إنها تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين ،

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٤٠.
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٨٢ .
(٣) المصدر السابق ٢/ ١٠٥٧ ، وينظر أيضا : فصل" الجهاد في سبيل الله "من كتاب معالم في الطريق ص ٦٢ وما بعدها .
(٤) سورة الأنعام : الآية ٥٥ .

في أوطان كانت في يوم من الأيام دارًا للإسلام ، يسيطر عليها دين الله ، وتحكم بشريعته، ثم إذا هذه الأرض، وإذا هذه الأقوام ، تهجر الإسلام حقيقة وتعلنه اسمًا، وإذا هي تتنكر لمقومات الإسلام اعتقادًا وواقعًا، وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقادًا! فالإسلام شهادة "أن لا إله إلا الله ". وشهادة " أن لا إله إلا الله" تتمثل في الاعتقاد بأن الله - وحده - هو خالق هذا الكون المتصرف فيه ، وأن الله - وحده- هو الذي يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله، وأن الله - وحده- هو الذي يتلقى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله ، وأيما فرد لم يشهد" أن لا إله إلا الله " - بهذا المدلول - فإنه لم يشهد ولم يدخل في الإسلام بعد، كائنًا ما كان اسمه ولقبه ونسبه ، وأيُّما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا الله- بهذا المدلول- فهي أرض لم تدن بدين الله ولم تدخل في الإسلام بعد .

وفي الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين، وهم من سلالات المسلمين ، وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام دارًا للإسلام ، ولكن لا الأقوام اليوم تشهد "أن لا إله إلا الله "- بذلك المدلول - ولا الأوطان اليوم تدين لله بمقتضى هذا المدلول .

وهذا أشق ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام ! أشق ما تعانيه هذه الحركات هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول " لا إله إلا الله "، ومدلول الإسلام في جانب ، وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية في الجانب الأخر .

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين ، وطريق المشركين المجرمين، واختلاط الشعارات والعناوين، والتباس الأسماء والصفات ، والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق!.

ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة فيعكفون عليها توسيعًا وتمييعًا وتلبيسًا وتخليطًا . حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام! تهمة تكفير " المسلمين " !!! ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم ، لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله ﷺ!.

هذه هي المشقة الكبرى و العقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل! يجب أن تبدأ الدعوة إلى الله باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل في كلمة الحق والفصل هوادة ولا مداهنة ، وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف، وألا تقعدهم عنها لومه لائم ، ولا صيحة صائح : انظروا! إنهم يكفرون المسلمين!.

إن الإسلام ليس بهذا التميع الذي يظنه المخدوعون! إن الإسلام بَيِّنٌ والكفر بَيِّنٌ ، الإسلام شهادة " أن لا إله إلا الله " - بذلك المدلول - فمن لم يشهدها على هذا النحو ومن لم يقمها في الحياة على هذا النحو ، فحكم الله ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين المجرمين "[(١)] .

ومن كلام - سيد - في هذا النص وغيره أيضًا - نلمح أنه - رحمه الله - هاله وضع كلمة التوحيد في واقع المسلمين اليوم ، واللبس والغبش والغموض والتميع الذي أصاب مدلولها وقصرها على جوانب من مدلولها ، ولذلك نجده ينبه كثيرًا على جهود الأعداء في صرف الناس عن المدلول الحقيقي لشهادة التوحيد بأساليب متنوعة ، وينبه الدعاة والحركات الإسلامية إلى أن تعي واقع المسلمين المعاصر وتنطلق لإحياء المفهوم الصحيح لكلمة التوحيد " لا إله إلا الله " مهتدية بمنهج القرآن ، وبفعل النبي ﷺ حيث بدأ بالتوحيد وبغرس مفهوم كلمة التوحيد الحقيقي في نفوس الناس فترة طويلة من الزمن ، وكان بإمكانه أن يسلك طريقًا آخرًا قد يبدو أنه أيسر من هذا الطريق ، وكان بإمكانه - ﷺ - أن يعلنها دعوة قومية عربية أو ثورة اقتصادية ، أو راية للإصلاح الاجتماعي والخلقي أو غير ذلك ، وكان سيجد من يعينه ويناصره ، لكنه أعلنها عقيدة تقوم على تقرير " لا إله إلا الله " بمفهومها الشامل وهذا ما يجب على الدعاة الانتباه إليه اليوم "[(٢)] .

خامسًا : وقفات مع دعوى " شذوذ سيد قطب في تفسير لا إله إلا الله " :

ذكر الدكتور/ ربيع المدخلي تحت عنوان " شذوذ سيد في تفسير" لا إله إلا الله

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١١٠٥- ١١٠٧ بتصرف ، وينظر أيضا ٢/ ١٠٥٧ ، ١٠٨٣ .

(٢) ينظر : " طبيعة المنهج القرآني" من معالم في الطريق ٢٤-٥٢ ، و في ظلال القرآن مقدمة سورة الأنعام ٢/ ١٠٠٤ - ١٠١٥ .

" عن أهل العلم "[١] أن سيدًا خالف علماء التوحيد والفقه واللغة المعتبرين ، وتابع المودودي في تفسيره لمعناها، ثم ذكر نصوصًا من كلام سيد وهي:

١ - قول سيد- رحمه الله- في كتاب " العدالة الاجتماعية " : " إن الأمر المستيقن في الدين : أنه لا يمكن أن يقوم في الضمير عقيدة ، ولا في واقع الحياة دينًا ، إلا أن يشهد الناس أن " لا إله إلا الله " أي لا حاكمية إلا لله ، تتمثل في قضائه وقدره ، كما تتمثل في شرعه وأمره "[٢] .

وعلَّق الدكتور/ المدخلي على النص بقوله :" فقد فسر " لا إله إلا الله " بالحاكمية، وفسر الحاكمية بالقدر و الشرع ، فأين توحيد العبادة الذي جاء به جميع الأنبياء ، الذي هو المعنى الحقيق الخاص بـ" لا إله إلا الله " ؟! لقد أضاعه سيد قطب" [٣].

قول سيد : " لقد كان العرب يعرفون من لغتهم معنى إله ، ومعنى " لا إله إلا الله"، كانوا يعرفون أن الألوهية تعني الحاكمية العليا .. فلا حاكمية إلا لله ، ولا شريعة إلا من الله ولا سلطان لأحد على أحد لأن السلطان كله لله "[٤] .

ولنا مع كلام الدكتور: المدخلي السابق وقفات :

الوقفة الأولى: النص الأول الذي ذكره د/ المدخلي عن سيد في العدالة الاجتماعية هو من كلام طويل لسيد يتحدث في سياقه عن الدعوة إلى استئناف حياة إسلامية في مجتمع مسلم ، تحكمه العقيدة الإسلامية كما تحكمه الشريعة الإسلامية والنظام الإسلامي ، ويبين فيه أن المجتمع بهذا الوصف السابق قد توقف وجوده منذ فترة، وبالتالي فلابد من الدعوة إلى استئنافه ، والجهر بهذه الدعوة على الرغم مما قد يحدث من صدمة وذعر للكثيرين ممن لا يزالون يحبون أن يكونوا " مسلمين " ، ويقرر أن ذلك ضرورة من ضرورات الدعوة إلى الإسلام اليوم .

ثم يقول سيد - رحمه الله - بعد ذلك " إن الأمر المستيقن في هذا الدين أنه لا يمكن أن تقوم في الضمير" عقيدة " ولا في واقع الحياة " دينًا " إلا أن يشهد الناس

---

(١) انظر : أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب - د. ربيع المدخلي ص ٦٣ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق ص ٦٣ ، والعدالة الاجتماعية لسيد قطب ص ١٨٢ .
(٣) أضواء إسلامية للمدخلي ص ٦٤ .
(٤) المصدر السابق ص ٦٦ و في ظلال القرآن ٢/ ١٠٠٥- ١٠٠٦ بتصرف .

أن " لا إله إلا الله " ، أي لا حاكمية إلا لله ، حاكمية تتمثل في قضائه وقدره كما تتمثل في شرعة وأمره ، وهذه كلها سواء في كونها أساسًا للعقيدة لا تقوم ابتداءً في الضمير إلا به ، كذلك لا يمكن أن يقوم في واقع الحياة دينًا إلا أن تتمثل العقيدة في نظام واقعي للحياة ... فتفرد فيه شريعة الله بالهيمنة على حياة الناس جملة وتفصيلا ، ويبرأ الحاكم والمحكوم من ادعاء حق " الألوهية " عن طريق ادعاء حق " الحاكمية " ومزاولة التشريع فعلا بما لم يأذن به الله ..

ونحن لا نحدد مدلول " الدين " ولا مفهوم " الإسلام " على هذا النحو من عند أنفسنا...إنما الذي يحدد مدلول " الدين " ومفهوم " الإسلام " هو الله –سبحانه– إله هذا الدين، ورب هذا الإسلام ، وذلك في نصوص قاطعة لا سبيل إلى تأويلها.

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [2] .

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [3] .

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [4] .

وكلها تقرر حقيقة واحدة : أنه لا إسلام ولا إيمان بغير الإقرار بالحاكمية لله وحده ، والرجوع إليه فيما يقع عليه التنازع – مما لم يرد فيه نص – والحكم بما أنزل الله – دون سواه – في كل شؤون الحياة ، والرضى بهذا الحكم قلبيًا بعد الاستسلام له عمليًا ، هذا هو " الدين القيم " ، و" الإسلام الذي أراده الله من الناس " . [5]

أما النص الثاني فقد جاء في سياق كلام سيد –رحمه الله– عن اهتمام القرآن

---

(١) سورة يوسف: الآية ٤٠ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٤٩ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٤٥ .

(٤) سورة النساء : الآية ٦٥ .

(٥) العدالة الاجتماعية : ص (١٨٢–١٨٣ بتصرف يسير .

والنبي ﷺ في بداية الدعوة بالعقيدة والتربية عليها ، وبيان أن سبب رفض العرب لهذه الكلمة هو أنهم عرفوا أن توحيد الألوهية وإفراد الله سبحانه وتعالى بها معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان والحكام ورده إلى الله ، والسلطان على الضمائر والشعائر والواقع في جميع جوانب الحياة ، والثورة على من يغتصب أولى خصائص الألوهية وبسبب معرفتهم بأثر هذه الكلمة على أوضاعهم وسلطانهم استقبلوها بذلك العنف والحرب "[(١)].

والملاحظ في النص الأول أن سيدًا فسر " لا إله إلا الله " بإحدى خصائصها وهي الحاكمية العامة قضاءً وقدرًا وشرعًا وأمرًا ، ومن أمر الله ألا يعبد إلا إياه ، كما يفهم من سياق الآيات المتعلقة بهذا الأمر، وكذلك في النص الثاني بيَّن سبب رفض قريش لهذه الكلمة لأنهم يعرفون أنها منهج حياة تقوم على حاكمية الله في كل شؤون الحياة ، ففسرها بإحدى خصائصها وهي الحاكمية .

٢- قول سيد - رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[(٢)]، "أي فلا شريك له في الخلق والاختيار"[(٣)]، يقول د/ المدخلي : " فهذا معنى من معاني الربوبية ضيع به المعنى الحقيقي لهذه الكلمة، ثم ذكر معنى هذه الكلمة عن ابن جرير وابن كثير ، وأن المقصود بها المعبود المتفرد بالألوهية"[(٤)] .

الوقفة الثانية: بالرجوع إلى كلام سيد في الظلال نجد أنه جاء في سياق كلامه عن قصة الشرك والشركاء ، وما يكون بينهم يوم القيامة من خصام وتبرؤ، مستدلاً بذلك على بطلان الشرك بالله سبحانه وتعالى ، بعد حكاية الله لقول المشركين للنبي ﷺ : ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾[(٥)] حيث جاء التقرير من الله في الآية بأنهم لا يملكون الاختيار لأنفسهم ، فالله وحده الذي له الخلق والاختيار.

وقد كان المشركون يشركون مع الله آلهة مدعاة ، والله وحده هو الخالق المختار ولا شريك له في خلقه ولا في اختياره ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٠٤ - ١٠٠٥ .
(٢) سورة القصص : الآية ٧٠ .
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٠٧ .
(٤) أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب ، للمدخلي ص ٦٤ .
(٥) سورة القصص: الآية ٥٧.

ثم جاء قوله تعالى بعد ذلك ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ على اختياره ونعمائه وحكمه وتدبيره وهو وحده المختص بالحمد والثناء ﴿ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيقضي بينكم بحكمه .. هكذا يطوقهم بالشعور بقدرة الله وتفرد إرادته في الوجود واطلاعه عليهم ورجعتهم إليه فكيف يشركون بعد هذا وهم في قبضته.. [١] .

فحديث سيد – رحمه الله – عن رد الله على المشركين في امتناعهم عن التوحيد وإتباع النبي ﷺ بسبب خوفهم من أن يتخطفهم الناس، فرد الله عليهم بأنه هو صاحب الخلق والاختيار سبحانه ، وبالتالي فلا يصح أن يشرك معه أحد ، فسياق الحديث عن تبرير المشركين لشركهم ورد الله عليهم .

٣- قول سيد -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ [٢]، "والإله هو المستعلي المستولي المتسلط " [٣] ، ويعلق الدكتور المدخلي قائلا : " من قال بهذا التفسير من الصحابة ومن علماء الأمة المعتبرين ؟! ثم يبين معنى الربوبية والألوهية عند السلف، ويخلص إلى أن سيد يخلط بين معاني الألوهية والربوبية فيضيع بذلك توحيد الألوهية [٤].

الوقفة الثالثة: وبالرجوع إلى النص في تفسير سورة الناس نجد سيدًا – رحمه الله – يبين أن " الاستعاذة بالرب، الملك، الإله، تستحضر من صفات الله سبحانه ما به يدفع الشر عامة ، وشر الوسواس الخناس خاصة .

فالرب هو المربي والموجه والراعي والحامي ، والملك هو المالك الحاكم المتصرف، والإله هو المستعلي المستولي المتسلط . . وهذه الصفات فيها حماية من الشر الذي يتدسس إلى الصدور ، والله رب كل شيء ، وملك كل شيء ، وإله كل شيء، ولكن تخصيص ذكر الناس هنا يجعلهم يحسون بالقربى في موقف العياذ والاحتماء ". [٥]

وكلام سيد – رحمه الله – هنا بناء على مفهوم الألوهية عنده وأنها مصطلح شامل للدين كله يدخل فيها الربوبية والأسماء والصفات والعبادة عند السلف ، وقد سبق

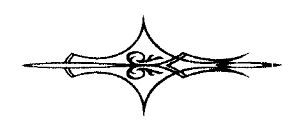
(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٠٧ بتصرف يسير .
(٢)سورة الناس : الآية ٣ .
(٣) أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب د. المدخلي ص ٦٥ .
(٤) المصدر السابق ص ٦٥-٦٦ .
(٥) في ظلال القرآن (٦/ ٤٠١٠ بتصرف يسير .

بيان ذلك في أول هذا الفصل ، فليس خلطًا بين الألوهية والربوبية وإنما استنادًا إلى مفهوم الألوهية الشامل عنده كما سبق .

والخلاصة : أن سيدًا -رحمه الله - يرى أن الألوهية التي هي معنى " لا إله إلا الله " مصطلح شامل عام يقوم على ثلاث خصائص - كما سبق - هي (الاعتقاد، والعبادة ، والحاكمية) ، وقد ركز على بيان هذه الثلاث المقومات لمعنى " لا إله إلا الله " وأنها لا تكون صحيحة ولا مقبولة إلا بوجودها مجتمعه ، وهناك نصوص أخرى غير ما ذكره الدكتور / ربيع ، أشار فيها سيد - رحمه الله- إلى أن معنى " لا إله إلا الله "يعنى لا حاكمية إلا لله بالمعنى العام للحاكمية- كما سيأتي- وربما فسرها أحيانا ببعض خصائص الربوبية بناء على مفهوم الألوهية الشامل للجميع .

وأخيرًا : إذا كان سيد - رحمه الله -قد فسر الألوهية في النصوص التي ذكرها المدخلي بالحاكمية أو بعض صفات الربوبية ، فإنه قد فسرها أيضا بالعبادة والعبودية والإتباع في نصوص أخرى كثيرة سبق ذكرها عند الحديث عن معنى " لا اله إلا الله" عند سيد قطب .

فالعبادة عنده تعني : " الدينونة الشاملة لله وحده في كل شؤون الحياة والإتباع، وما الشعائر التعبدية إلا صورة من صور الدينونة لله التي يعنيها توحيد " العبادة "[1].



(١) في ظلال القرآن (٤/ ١٩٠٢ بتصرف يسير .

المطلب الثاني
العبادة

الفرع الأول : مفهوم العبادة لغة واصطلاحًا :

العبادة في اللغة : الخضوع والتذلل[1].

أما في الاصطلاح : فقد تنوعت أقوال السلف في تعريف العبادة ، وأشملها قول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: " العبادة اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، كالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم ، والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة ، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك هي من العبادة "[2] .

الفرع الثاني : مفهوم العبادة عند سيد قطب :

تعرض سيد – رحمه الله – كثيرًا لبيان معنى العبادة في اللغة والاصطلاح وأهميتها في حياة البشر، وعلاقتها بالعقيدة والحاكمية ونحوها ما يتعلق بمفهوم العبادة في الإسلام، وبيان ذلك فيما يأتي :

أولًا : العبادة في اللغة :

يوضح سيد -رحمه الله- معنى العبادة في اللغة فيقول : " إن معنى " عَبَدَ " في اللغة : دان ، وخضع، وذل[3]، وطريق معبَّد : طريق مذلل ممهد، وعبَّده : جعله

---

(١) المفردات للراغب ص ٥٤٢ ومختار الصحاح للرازي ص١٧٢ .

(٢) العبودية لابن تيمية ص ٣٨ وينظر أيضًا : تجريد التوحيد للمقريزي ص ٢٢ وفتح المجيد ص ١٤ .

(٣) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٠٢ .

عبدًا، أي : خاضعًا مذللًا [١] .

وبالتالي فالعبادة تعني : " الدينونة الشاملة " لله وحده في كل شؤون الدنيا والآخرة، ذلك أن هذا المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي ... ولم يكن معناه في الاصطلاح الإسلامي في أول الأمر أداء الشعائر، إنما كان هو معناه اللغوي نفسه، لأنه لم يكن شيء من الشعائر قد فرض حتى ينطلق اللفظ إليه، إنما كان المقصود هو معناه اللغوي الذي صار هو معناه الاصطلاحي، كان المقصود به هو الدينونة لله وحده ، والخضوع له وحده ، وإتباع أمره وحده، سواء تعلق هذا الأمر بشعيرة تعبدية ، أو تعلق بتوجيه أخلاقي ، أو تعلق بشريعة قانونية، فالدينونة لله وحده في هذا كله هي مدلول العبادة التي خص الله سبحانه بها نفسه، ولم يجعلها لأحد من خلقه ..." . [٢]

ثانيًا : العبادة في الاصطلاح :

إذا كان معنى العبادة في اللغة هو: " الخضوع والتذلل " ، فإنها في الشرع يضاف إليها عنصرًا أخر هو " الدينونة والإتباع " الناشئ من التعظيم لله سبحانه وتعالى والشعور بأنه وحده صاحب السلطان والحكم .

ولهذا نجد سيدًا – رحمه الله – يقرر أن مصطلح العبادة في الإسلام يقوم على إفراد الله سبحانه وتعالى بالطاعة والخضوع والاستسلام والدينونة والإتباع في كل شؤون الحياة ، وما الشعائر التعبدية إلا مظهر من مظاهر الدينونة والعبادة لله وحده لا شريك له .

حيث تشتمل العبادة في الإسلام على كل نشاط يتوجه به الفرد إلى ربه سبحانه وتعالى أيًا كان هذا النشاط وفيما يلي بعض النصوص لسيد – رحمه الله – في بيان مفهوم العبادة :

١ – يقول سيد :" إن العبادة :هي الإتباع في الشرائع بنص القرآن وتفسير رسول الله ﷺ فاليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أربابًا بمعنى الاعتقاد

---

(١) المصدر السابق ٤/ ١٩٩١ ، وينظر : ٣/ ١٧٦٣ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٩١ بتصرف يسير ، وينظر : ٣/ ١٧٦٣ .

بألوهيتهم أو تقديم الشعائر التعبدية إليهم...وإنما حكم الله عليهم بالكفر لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوها واتبعوها" [١].

٢- ويقول أيضًا: " وإذا كان الله هو وحده المتفرد بالخلق والملك والرزق تقرر ضرورة وحتما أن تكون له وحده العبادة بكل مدلولاتها ومنها الطاعة والخضوع والاستسلام" [٢] ، " ذلك أن العبادة هي العبودية وهي الدينونة وهي الإتباع والطاعة مع إفراد الله سبحانه وتعالى بهذه الخصائص كلها لأنها من مقتضيات الاعتراف بالألوهية" [٣].

٣- ويقول أيضًا: " إن قضية " العبادة " ليست قضية شعائر، وإنما هي قضية دينونة وإتباع ونظام وشريعة وفقه وأحكام وأوضاع في واقع الحياة.. ولذلك استحقت كل هذه العناية في المنهج الرباني واستحقت كل هذه الرسل والرسالات، واستحقت كل هذه العذابات والآلام والتضحيات .[٤]، "ومدلول العبادة : هو الدينونة لله وحده، لا في لحظات الصلاة، ولكن في كل شأن من شؤون الحياة"[٥].

٤- ويقول: " والعبادة في الإسلام ليست مجرد الشعائر، إنما هي كل نشاط ، كل حركة ، كل خالجة كل نية، كل اتجاه، وإنها لمشقة أن يتجه الإنسان في هذا كله إلى الله وحده دون سواه ، مشقة تحتاج إلى الاصطبار، ليتوجه القلب في كل نشاط من نشاط الأرض إلى السماء ، خالصًا من أوشاب الأرض وأوهاق الضرورات ، وشهوات النفس، ومواضعات الحياة ، إنه منهج حياة كامل، يعيش الإنسان وفقه، وهو يستشعر في كل صغيرة وكبيرة طوال الحياة أنه يتعبد الله ، فيرتفع في نشاطه كله إلى أفق العبادة الطاهر الوضيء " [٦].

٥- ويقول: " والعبادة : أشمل من الصلاة ، فعبادة الله تشمل الفرائض كلها وتزيد عليها كذلك كل عمل وكل حركة وكل خالجة يتوجه بها الفرد إلى الله ، فكل

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٦٤٢ وينظر أيضا: مقومات التصور الإسلامي ص ١٤١ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق ٢/ ١١٦٣ بتصرف .
(٣) ٣/ ١٧٦٣ .وينظر ٤/ ١٨٥٣ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٤٧-١٥١
(٤) المصدر السابق ٤/ ١٩٤٣ وينظر : ١٩٦٠-١٩٦٣ .
(٥) في ظلال القرآن ٤/ ٢١١٤ . بتصرف.
(٦) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣١٥ .

نشاط الإنسان في الحياة يمكن أن يتحول إلى عبادة متى توجه القلب به إلى الله ، حتى لذائذه التي ينالها من طيبات الحياة بلفتة صغيرة تصبح عبادات تكتب له بها حسنات ، وما عليه إلا أن يذكر الله الذي أنعم بها ، وينوي بها أن يتقوى على طاعته وعبادته فإذا هي عبادات وحسنات" [(١)] ، "ولم يتحول في طبيعتها شيء ، ولكن تحول القصد منها والاتجاه! " [(٢)] ، " فالعبادة يدخل في نطاقها كل نشاط خير يتجه به صاحبه إلى الله " [(٣)].

و"البشر يملكون أن تكون حياتهم كلها عبادة دون أن ينقطعوا للتسبيح والتعبد كالملائكة، فالإسلام يعد كل حركة وكل نفس عبادة إذا توجه بها صاحبها إلى الله ، ولو كانت متاعًا ذاتيًا بطيبات الحياة! " . [(٤)]

ثالثًا : خصائص العبادة في الإسلام :

أشار سيد - رحمه الله - إلى بعض خصائص العبادة في الإسلام ومنها:

١- **ارتباطها بالعقيدة :** وذلك لأن الدين الإسلامي ليس هو مجرد عقيدة تستكن في الضمير، ولا مجرد شعائر تقام وعبادات، ولا مجرد تنظيم دنيوي منقطع الصلة بالعقيدة وبالشعائر التعبدية ، إنما هو منهج يشمل هذا النشاط كله ، ويربط بين جوانبه ، ويشدها جميعًا إلى الأصل الأصيل ، وهو توحيد الله ، والتلقي منه وحده - في هذا النشاط كله - دون سواه ، توحيده إلهًا معبودًا، وتوحيده مصدرًا للتوجيه والتشريع لكل النشاط الإنساني أيضا ، لا ينفك هذا التوحيد عن ذاك - في الإسلام - وفي دين الله الصحيح على الإطلاق .

إن التشريعات والتوجيهات - في منهج الله - إنما تنبثق كلها من أصل واحد، وترتكز على ركيزة واحدة ، إنها تنبثق من العقيدة في الله ، وترتكز على التوحيد المطلق سمة هذه العقيدة ، ومن ثم يتصل بعضها ببعض، ويتناسق بعضها مع بعض، ويصعب فصل جزئية منها عن جزئية، وتصبح دراسة أي منها ناقصة بدون

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٣١٥ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٤٤٥ .
(٣) المصدر السابق ١/ ١٨٩ .
(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٣٧٣ .

الرجوع إلى أصلها الكبير، ويصبح العمل ببعضها دون البعض الآخر غير وافٍ بتحقيق صفة الإسلام ، وثمار المنهج الإسلامي في الحياة " [١].

"فقضية العبادة : قضية عقيدة وإيمان وإسلام ، وليست فقه أو سياسة أو نظام .. ثم هي بعد ذلك قضية منهج للحياة الواقعية يتمثل في شريعة ونظام وأحكام "[٢]، " إن العبادة تعبير عن العقيدة فإذا لم تصح العقيدة لم تصح العبادة " [٣].

٢-الشمول: من خصائص العبادة في السلام الشمول: وله مظاهر عديدة منها:

أ- شمولها لكل ما سوى الله : فكل ماسوى الله هو عبد الله سبحانه وتعالى ، وذلك أنه ليس في الوجود إلا ألوهية وعبودية ، ألوهية الله سبحانه ، وعبودية ما سواه له سبحانه ، وقد ركز المنهج القرآني كثيرًا على تقرير هذه الحقيقة بأساليب متنوعة ، باعتبار أن العبودية والدينونة شاملتان للجود كله ، غير مقصورتين على الكائن الإنساني " [٤].

" فالعبودية لله تشمل كل شيءٍ وكل حي، فلا يخرج عنها شيءٌ ولا حيٌ في هذا الوجود ، إنما يتجرد كل حي وكل شيء من خصائص الألوهية ، ويقف موقف العبيد ، إنها عبودية الكون المادي ممثلا في أجرامه الفلكية الكبيرة، عبودية النجوم والكواكب والأشياء والأحياء في عالم الغيب والشهادة، عبودية الخلائق العاقلة المكلفة ،عبودية الملائكة والجن والأنس عبودية الأنبياء والرسل خاصة ، عبودية الطائعين والعصاة أيضًا ، إنها العبودية الشاملة أمام الألوهية المتفردة .. " . [٥]

ب- شمولها لكل شأن من شؤون الحياة :[٦]

في ظلال قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٧] .

يقول سيد -رحمه الله- : " وهذا النص الصغير يحتوي حقيقة ضخمة هائلة ،

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٦٥٩ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٤/ ١٩٤٣ وينظر : ١/ ٤٠٠، ٢/ ٦٦٠ ، ٦/ ٣٧١١، ٣٩٥٢.
(٣) المصدر السابق ٣/ ١٦١٤ .
(٤) مقومات التصور الإسلامي ص ٨١-٨٢ بتصرف .
(٥) المصدر السابق ص ١٢٦ -١٣٠ بتصرف ، وفي ظلال القرآن ٤/ ٢٢١١ ، ٦/ ٣٣٨٧ .
(٦) في ظلال القرآن ٤/ ٢١١٤ ، وينظر أيضا : ٣/ ١٧٦٣ ، ٤/ ٢٣٧٣، ٢٣١٥، ٢٤٤٥ .
(٧) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

لا تستقيم حياة البشر بدونها ... أول جانب هذه الحقيقة أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والأنس ، تتمثل في وظيفة هي العبادة أو العبودية لله ، أن يكون هناك عبد ورب ، عبد يَعبد ، ورب يُعبد ، وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار .

والجانب الأخر لتلك الحقيقة : أن مدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر. فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر، والله لا يكلفهم هذا . وهو يكلفهم ألوانًا أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم ، وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن، ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان، نعرفها من القرآن من قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[1]، فهي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني ، وهي تقتضي ألوانًا من النشاط الحيوي في عمارة الأرض ، والتعرف إلى قواها وطاقاتها ، وذخائرها ومكنوناتها ، وتحقق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها، كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي ...

ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني- أو وظيفة الإنسان الأولى - أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعًا ، وأن حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين :

الأول : استقرار معنى العبودية لله في النفس، أي استقرار الشعور على أن هناك عبدًا وربًا ، عبدًا يَعبد، وربًا يُعبد ، وأن ليس وراء ذلك شيء...

الثاني : التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح ، وكل حركة في الحياة، التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله، وبذلك يتحقق معنى العبادة، ويصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله ، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقدر الله ، كلها عبادة ، وكلها تحقيق للوظيفة

(١) سورة البقرة : الآية ٣٠ .

الأولى... العبودية .. ". [1]

ج- شمولها لأوجه نشاط الإنسان جميعًا :

يقول- سيد- : " عبادة الله وحده منهج كامل للحياة ، يشمل تصور الإنسان لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، ولحقيقة الصلة بين الخلق والخالق ، ولحقيقة القوى والقيم في الكون وفي حياة الناس ، ومن ثم ينبثق نظام للحياة البشرية قائم على ذلك التصور " [2] .

" فالعبادة غاية الوجود الإنساني ، يدخل في نطاقها كل نشاط خير يتجه به صاحبه إلى الله تعالى " [3]، " فالإنسان عندما يتجر ويعمل ويطلبً الرزقَ ... هو في حالة عبادة " [4].

" إنها العبادة ،عبادة الله في الزواج ، وعبادته في المباشرة والإنسال ، وعبادته في الطلاق والانفصال ، وعبادته في العدة والرجعة ،وعبادته في النفقة والمتعة، وعبادته في الإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان ، وعبادته في الافتداء والتعويض، وعبادته في الرضاع والفصال ،عبادة الله في كل حركة وفي كل خطرة – ومن أجل ذلك يجيء الحديث عن الصلاة بين هذه الأحكام - تندمج عبادة الصلاة في عبادات الحياة ، الاندماج الذي ينبثق من طبيعة الإسلام ، ومن غاية الوجود الإنساني في التصور الإسلامي ، ويبدو السياق موحيًا هذا الإيحاء اللطيف، إن هذه عبادات ، وطاعة الله فيها من جنس طاعته في الصلاة ، والحياة وحدة والطاعات فيها جملة ، والأمر كله من الله ، وهو منهج الله للحياة ..." [5].

ويبين سيد: " أن إطلاق مصطلح " العبادات " على الشعائر وعلى ما يكون بين العبد والرب من تعامل ، في مقابل إطلاق مصطلح " المعاملات " على ما يكون بين الناس بعضهم وبعض من تعامل جاء متأخرًا عن عصر نزول القرآن الكريم، ولم

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٢٢٦٨-٣٣٨٧ بتصرف، وينظر ٣٧١١ ومقومات التصور الإسلامي ص ١٣٦ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٢٢٦٨-٣٣٨٧ بتصرف ، وينظر ٣٧١١ ومقومات التصور الإسلامي ص ١٣٦ . ٦/ ٣٧١١ .

(٣) في ظلال القرآن ١/ ١٨٩ .

(٤) المصدر السابق ١/ ١٨٩ .

(٥) المصدر السابق ١/ ٢٣٨، وينظر أيضا : ١/ ٢٨٣ ، ٢/ ٦٥٨، ٤/ ١٩٠٢، ١٩٤٣ .

يكن هذا التقسيم معروفًا في العهد الأول.

إن تقسيم النشاط الإنساني إلى " عبادات " و " معاملات " مسألة جاءت متأخرة عند التأليف في مادة " الفقه " ، ومع أنه كان المقصود به في- أول الأمر- مجرد التقسيم " الفني " الذي هو طابع التأليف العلمي ، إلا أنه - مع الأسف - أنشأ فيما بعد آثارًا سيئة في التصور ، تبعها - بعد فترة - آثار سيئة في الحياة الإسلامية كلها، إذ جعل يترسب في تصورات الناس أن صفة " العبادة " إنما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط ، الذي يتناوله " فقه العبادات "، بينما أخذت هذه الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثاني من النشاط الذي يتناوله فقه " المعاملات " وهو انحراف بالتصور الإسلامي لا شك فيه ، فلا جرم يتبعه انحراف في الحياة كلها في المجتمع الإسلامي .

ليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى " العبادة " أو لا يطلب فيه تحقيق هذا الوصف ، والمنهج الإسلامي كله غايته تحقيق معنى العبادة ، أولًا وأخيرًا .

وليس هناك من هدف في المنهج الإسلامي لنظام الحكم ، ونظام الاقتصاد ، والتشريعات الجنائية ، والتشريعات المدنية ، وتشريعات الأسرة . وسائر التشريعات التي يتضمنها هذا المنهج ، ليس هناك من هدف إلا تحقيق معنى " العبادة " في حياة الإنسان، والنشاط الإنساني لا يكون متصفًا بهذا الوصف، محققًا لهذه الغاية - التي يحدد القرآن أنها هي غاية الوجود الإنساني - إلا حين يتم هذا النشاط وفق المنهج الرباني، فيتم بذلك إفراد الله - سبحانه - بالألوهية، والاعتراف له وحده بالعبودية، وإلا فهو خروج عن العبادة لأنه خروج عن العبودية ، أي خروج عن غاية الوجود الإنساني كما أرادها الله ، أي خروج عن دين الله! .

وأنواع النشاط التي أطلق عليها الفقهاء اسم "العبادات" حين تراجع في مواضعها في القرآن ، يتبين أنها لم تجيء مفردة ولا معزولة عن أنواع النشاط الأخرى التي أطلق عليها الفقهاء اسم " المعاملات " إنما جاءت هذه وتلك مرتبطة في السياق القرآني ، باعتبار هذه كتلك شطرًا من منهج " العبادة " التي هي غاية الوجود الإنساني ، وتحقيقًا لمعنى العبودية ، ومعنى إفراد الله سبحانه بالألوهية .

إن ذلك التقسيم – مع مرور الزمن – جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا " مسلمين " إذا هم أدوا نشاط " العبادات " وفق أحكام الإسلام بينما يزاولون كل نشاط " المعاملات " وفق منهج آخر لا يتلقونه من الله ولكن من إله آخر! هو الذي يشرع لهم في شؤون الحياة ما لم يأذن به الله! .

وهذا وهمٌ كبيرٌ ، فالإسلام وحدةً لا تنفصم، وكل من يفصمه إلى شطرين– على هذا النحو– فإنما يخرج من هذه الوحدة ،و يخرج من هذا الدين ، وهذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يلقي باله إليها كل مسلم يريد أن يحقق إسلامه، وغاية وجوده الإنساني "[1].

٣- قيامها على الإخلاص لله والمتابعة لرسوله ﷺ:

فالعبادة في الإسلام تقوم على ركيزتين أساسيتين هما : الإخلاص والتجرد الكامل لله سبحانه وتعالى والانقياد له وحده ، بحيث لا يكون لحياتهم قانون إلا ما أنزله الله تعالى ، وجاء به الرسول ﷺ[2].

٤- غنى الله عن عبادة الخلق له ، وإنما أوجبها عليهم لحكمة :

" فالله سبحانه وتعالى غنى عن عبادة الخلق، وعباداتهم لا تزيد في ملكة شيئًا، كما أن تركهم عبادته لا تنقص من ملكه شيئًا فالله هو الغني الحميد". [3]

وإنما اوجب الله العبادة على الخلق لحكم ومعانٍ جليلة فيها سعادتهم في الدنيا والآخرة ، والناس لا يملكون أن يعيشوا غير متديِّنين! لاَ بد للناس من دينونة ، والذين لا يدينون لله وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير الله ، في كل جانب من جوانب الحياة! .

ففي العبودية لله وحده تحريرًا للعباد من عبودية العباد ، وتحقيقًا لكرامتهم عندما لا يذلون لأحد من الخلق "[4].

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٣٦ - ١٩٣٧ بتصرف و خصائص التصور الإسلامي ص ١٢٩ -١٣٠ ومقومات التصور الإسلامي ص ١٣٦ وما بعدها .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٤٠ ، ١٣٢٠ ، ١٦٤٢ ، ٦/ ٣٣٨٧ ، ٣٩٥٢ .

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٣٧ وينظر : ٢/ ٨٢٠ ، ٤/ ١٨٥٢ .

(٤) المصدر السابق ٤/ ١٩٤٠-١٩٤٣ بتصرف ، وينظر ٢/ ٨٢١ .

" وبذلك استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات، والجهود المضنية التي بذلها الرسل- صلوات الله وسلامه عليهم- و استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان ... لا لأن الله في حاجه إليها ، فهو الغني - سبحانه وتعالى - عن العالمين ولكن لأن حياة البشرية لا تصلح ولا تستقيم إلا بها " [١].

٥ - واقعيتها ومراعاتها للفطرة والطاقة الإنسانية :

يقول سيد : " فهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته ، ملحوظ فيه تلبيته تلك الفطرة ، وإطلاق هذه الطاقة ، والاتجاه بها إلى البناء والاستعلاء.. " [٢].

رابعًا : أهمية العبادة ومكانتها في الدين والحياة :

بين - سيد- في مواضع متفرقة مكانة العبادة في الإسلام وأهمتها في حياة البشرية ومن ذلك :

١ـ أنها غاية الوجود الإنساني :

يقول سيد - رحمه الله - " فغاية الوجود الإنساني هي العبادة ، ويدخل في نطاقها كل نشاط خير يتجه به صاحبه إلى الله " [٣] ، " إن غاية الحياة الإنسانية كما يقررها الله - سبحانه-هي عبادة الله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٤]، هذه العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني تتمثل في وظيفته التي خلق لها وهي الخلافة عن الله في هذه الأرض بهدى الله " [٥].

٢ـ أنها مقتضى الألوهية :

يقول سيد : " إن مقتضى الاعتراف بألوهية الله وحده ، الدينونة له وحده

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٠٣ ، ١٩٣٦ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٤٤٦ .
(٣) المصدر السابق ١/ ١٨٩ .
(٤) سورة الذاريات : الآية ٥٦.
(٥) مقومات التصور الإسلامي ص ٣٧٩ ، في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٨٧ .

والاستسلام لهذه الألوهية بحيث لا يبقى معه شيء في نفوس العباد ولا في حياتهم خارجا عن سلطان الله " [(١)]. " فالعبادة لله ناشئه عن الاعتقاد بألوهيته سبحانه ، فلا عبادة إلا لله ولا استعانة إلا بالله" [(٢)].

٣ـ أنها ترفع قيمة الحياة الإنسانية وتحقق الصلاح والخير للبشرية :

يقول سيد : " إن توحيد العبادة لله - سبحانه- يجمع الكينونة الإنسانية ويردها إلى مصدر واحد ، يجمعها شعورًا وسلوكًا ، وتصورًا واستجابة ، في كل شؤون الحياة ، فلا تتفرق ولا تتمزق ، بل تعيش في تناسق مع الكون والوجود ، وتكمن أهمية هذه الحقيقة في : تصحيح التصور الإيماني، وفي حسن تذوق الحياة ، وبلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق، فقيمة الحياة الإنسانية ذاتها ترتفع حين تصبح كلها عبادة لله ، وحين يصبح كل نشاط فيها صغر أم كبر جزءًا من هذه العبادة، أو كل العبادة، وفي هذا المقام يتحقق الكمال الإنساني المنشود "[(٣)].

"وحين يرتفع الإنسان إلى هذه الأفق ،أفق العبادة أو أفق العبودية ويستقر عليه، فان نفسه تأنف حتما من اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيق غاية كريمة ..لأن الوسيلة الخسيسة تحطم معنى العبادة النظيف الكريم... ومن ثم يستمتع العبد العابد براحه الضمير، وطمأنينة النفس، وصلاح البال في جميع الأحوال" . [(٤)]

" ومتى استقامت الأمة المسلمة على العبادة ، استقام ضميرها ، واستقامت حياتها ، ونهضت بالتبعة الشاقة " [(٥)].

٤ـ أنها مفرق الطريق بين تحرير البشرية وعبوديتها لغير الله :

" أن تضرع العباد وإعلان عبوديتهم لله إنما يصلحهم ، ويصلح حياتهم ومعاشهم كذلك ، فمتى أعلن الناس عبوديتهم لله تحرروا من العبودية لسواه ، تحرروا من العبودية للشيطان الذي يريد ليغويهم ، وتحرروا من شهواتهم وأهوائهم ، وتحرروا

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٩ بتصرف .
(٢) المصدر السابق ١/ ٢٥ بتصرف.
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٣٨ -١٩٣٩ بتصرف .
(٤) المصدر السابق ٦/ ٣٣٨٨-٣٣٨٩ بتصرف.
(٥) المصدر السابق ٣/ ٢٤٤٥ .

من العبودية للعبيد..." . [١]

" فالحياة البشرية لا تبلغ مستوى الكرامة الذي يريده الله للإنسان إلا بأن يعزم البشر أن يدينوا لله وحده ، وأن يخلعوا من رقابهم نير الدينونة لغير الله ، ذلك النير المذل لكرامة الإنسان في أية صورة قد كان! " . [٢]

" إن العبودية لله وحده تطلق الناس أحرارًا كرامًا شرفاء أعلياء ، والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم ، ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية " . [٣]

٥ـ أنها تحفظ الإنسان من الشيطان :

" فمتى اتصل القلب بالله ، واتجه إليه بالعبادة ، متى ارتبط بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، متى أيقظ في روحه النفخة العلوية فأشرقت وأنارت ، فلا سلطان حينئذ للشيطان على ذلك القلب الموصول بالله ... فالشيطان يستذل عبيده ، لكنه لا يجرؤ على عباد الرحمن ، فما له عليهم من سلطان " [٤].

خامسًا : أضرار العبودية لغير الله :

تحدث سيد – رحمه الله – كثيرًا عن أضرار وأثار العبودية لغير الله في أي صورة من صور العبودية ، وأوضح: " أنه لابد من عبودية ! فإن لم تكن لله وحده تكن لغير الله ، والعبودية لله وحده تطلق الناس أحرارا، كرما ، شرفاء ، والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم، ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية " [٥].

" والذين لا يدينون لله وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير الله، في كل جانب من جوانب الحياة! ، إنهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حد ولا ضابط ، ومن ثم يفقدون خاصيتهم الآدمية ويندرجون في عالم البهيمة : ﴿ إِنَّ

(١) المصدر السابق ٣/ ١٣٣٧ بتصرف .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٥٣ .
(٣) المصدر السابق ٤/ ١٩٤٣ وينظر : ٢/ ٨٢٠ ، ٤/ ١٩٣٩ – ١٩٤٠ .
(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٢٣٩ .
(٥) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٣ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (١) ولا يخسر الإنسان شيئًا كأن يخسر آدميته، ويندرج في عالم البهيمة، ثم هم يقعون فرائس لألوانٍ من العبودية للعبيد، يقعون في شر ألوان العبودية للحكام والرؤساء الذين يصرفونهم وفق شرائع من عند أنفسهم لا ضابط لها ولا هدف إلا حماية مصالح المشرعين أنفسهم، سواء تمثل هؤلاء المشرعون في فرد حاكم، أو في طبقة حاكمة، أو في جنس حاكم ...

إن الدينونة لغير الله توقع الإنسان في براثن الأوهام والأساطير والخرافات التي لا تنتهي والتي تقدم فيها النذور والأموال وأحيانا الأولاد أضاحي لغير الله ... ويعيش معها الناس في رعب من الأرباب الوهمية والسحرة والمشايخ والقديسين والجن .. حتى تتقطع أعناقهم وتتوزع جهودهم، وتتبدد طاقاتهم في مثل هذا الهراء!، وتجيء أخيرًا تكاليف العبودية لحاكمية التشريع البشرية، وما من أضحية يقدمها عابدُ الله لله، إلا ويقدم الذين يدينون لغير الله أضعافها للأرباب الحاكمة! من الأموال والأنفس والأعراض، وتقام أصنام من " الوطن " ومن " القوم " ومن " الجنس " ومن " الطبقة " ومن " الإنتاج "... ومن غيرها من شتى الأصنام والأرباب.

وتدق عليها الطبول، وتنصب لها الرايات، ويُدعى عباد الأصنام إلى بذل النفوس والأموال لها بغير تردد، وإلا فالتردد هو الخيانة، وهو العار، وحتى حين يتعارض العِرض، مع متطلبات هذه الأصنام يضحى بالعرض والشرف ...

والذين يخشون العذاب والألم والاستشهاد في سبيل الله وعبادته وحده عليهم أن يتأملوا ماذا تكلفهم الدينونة لغير الله في الأنفس والأموال والأولاد، وفوقها الأخلاق والأعراض وفوق ذلك كله الذل والدنس والعار!.." (٢).

" إن عبودية الناس لغير الله سبحانه تنشئ في نفوسهم الذلة وقد أراد الله أن يقيمها على الكرامة، وتنشئ في الحياة الظلم والبغي وقد أراد الله أن يقيمها على القسط والعدل، وتحول جهود الناس إلى عبث في تأليه الأرباب الأرضية والطبل

(١) سورة محمد: الآية ١٢.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٠ - ١٩٤٣ بتصرف.

حولها والزمر والنفخ فيها دائمًا لتكبر حتى تملأ مكان الرب الحقيقي ... فيظل عبَّادها المساكين في نصبٍ دائم "[١].

" إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده - مهما عظمت وشقت - أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت ! إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة - مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق ! - إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة! تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته فهذه " الإنسانية " لا توجد والإنسان عبد للإنسان، وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان؟! .. وأي عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان أخر به، ورضاه أو غضبه عليه ؟!.. وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما يشاء إنسان ؟!.

على أن الأمر لا يقف عند هذا ، بل إنه يهبط حتى يكلف الناس - في حكم الطواغيت - أموالهم التي لا يحميها شرع ، كما يكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من تصورات وأفكار وأخلاق وعادات... ويكلفهم في النهاية أعراضهم ، حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التي يريدها بها الطواغيت ، سواء في صورة غصب مباشر، أو في صورة تنشئتهن على مفاهيم تجعلهن نهبًا مباحًا.. أو غير ذلك ، والذي يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياة أبنائه وبناته في حكم الطواغيت، إنما يعيش في وهمٍ أو يفقد الإحساس بالواقع !

إن عبادة الطاغوت عظيمة التكاليف في النفس والعرض والمال..ومهما تكن تكاليف العبودية لله ، فهي أربح وأقوم حتى بميزان هذه الحياة ، فضلًا على وزنها في ميزان الله " . [٢]

سادسًا : انحراف مفهوم العبادة اليوم :

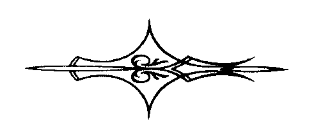
مدلول العبادة عند سيد قطب - رحمه الله- يعني : الدينونة الكاملة لله في كل شأن ، ورفض الدينونة لغير الله في كل شأن ، وهو المدلول الذي تفيده اللفظة

(١) المصدر السابق ٤/ ١٨٦٧ .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٣١٩-١٣٢٠ بتصرف يسير ، وينظر : ٣/ ١٥٢١ .

في أصل اللغة ، والذي نص عليه رسول الله ﷺ نصًا، وهو يفسر قولـه تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[1]، و"الشعائر التعبدية" أطلق عليها لفظ " العبادة " باعتبارها صورة من صور الدينونة لله في شأن من شؤون الحياة ، صورة لا تستغرق مدلول " العبادة " بل إنها تجيء بالتبعية لا بالأصالة! .

ولكن الناس اليوم بهت مدلول " الدين " ومدلول " العبادة " في أنفسهم فصاروا يفهمون أن عبادة غير الله التي يخرج بها الناس من الإسلام إلى الجاهلية هي فقط تقديم الشعائر التعبدية لغير الله ، كتقديمها للأصنام والأوثان مثلاً! وأنه متى تجنب الإنسان هذه الصورة فقد بعد عن الشرك والجاهلية وأصبح " مسلماً " لا يجوز تكفيره ! وتمتع بكل ما يتمتع به المسلم في المجتمع المسلم من صيانة دمه وعرضه وماله ... إلى أخر حقوق المسلم على المسلم! .

وهذا وهمٌ باطل ، وانحسار وانكماش ، بل تبديل وتغيير في مدلول لفظ " العبادة " التي يدخل بها المسلم في الإسلام أو يخرج منه ، وهذا المدلول كما سبق - هو الدينونة الكاملة لله في كل شأن ورفض الدينونة لغير الله في كل شأن "[2].



(١) سورة التوبة : الآية ٣١ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٠٢-١٩٠٣ بتصرف يسير ، مقومات التصور الإسلامي ص ١٣٤ وما بعدها.

المطلب الثالث
الحاكمية

تعتبر قضية " الحاكمية " من القضايا التي شغلت حيزًا كبيرًا في الفكر الإسلامي المعاصر، نظرًا لكونها أخطر القضايا التي تواجه الأمة المسلمة منذ سقوط الخلافة الإسلامية ، وقد أثارت هذه القضية جدلًا معرفيًا وفكريًا واسعًا ، بين الإسلاميين الذين ينادون بتبني الإسلام عقيدة وشريعة والعودة إلى تعاليمه وتحكيمها في كل جوانب الحياة البشرية ، وبين خصومهم العلمانيين والملاحدة وغيرهم ممن يتبنى فكرة فصل الدين عن الحياة ، واتباع ما عليه غير المسلمين من نظم وقوانين لتسيير حياة الشعوب ، كما أثارت جدلًا بين اتجاهات الحركة الإسلامية المعاصرة ذاتها من جهة أخرى أيضًا .

ولكون سيد قطب - رحمه الله - من أبرز الدعاة الذين تكلموا عن " الحاكمية " كثيرا ، حيث شكلت هذه القضية منعطفًا حاسمًا في فكره وآراءه وأحكامه ، وركز كثيرا في كتابته على تحديد أبعاد هذا المصطلح ، وبلورة مفهومه في إطار المفاهيم العقدية الخالصة المرتبطة بقضايا التوحيد والإيمان والكفر ، بحيث يلاحظ القارئ لكتب سيد - رحمه الله - شيئا اسمه " توحيد الحاكمية " .

وبناءً على ذلك فقد وُجهَ إلى سيد قطب - رحمه الله - كثيرٌ من النقد في موضوع - الحاكمية - سواءً من خصوم الإسلام - العلمانيين - وغيرهم ، أو من بعض المنتمين إلى الحركات الإسلامية المعاصرة .

وفيما يأتي بيان لقضية الحاكمية وموقف سيد قطب منها ، وذلك من خلال الفروع الآتية:

الفرع الأول : تعريف الحاكمية لغة واصطلاحًا :

أولًا :الحاكمية في اللغة :

الحاكمية لغة : على وزن فاعلية ، وهو من المصادر الصناعية ، ويقصد بالمصادر

الصناعية : كل لفظ زيد في آخره ياء النسب المشددة ، ثم تاء التأنيث المربوطة ، وتسمى تاء النقل، لأن الاسم قبل اتصالها به كان له حكم المشتق من أجل ياء النسب، ثم لما اتصلت به نقلته إلى الاسمية المحضة ، فصار يدل على معنى مجرد لم يكن يدل عليه من قبل الزيادة ، وهذا المعنى المجرد هو : مجموعة الصفات أو الأحكام أو القواعد الخاصة بذلك اللفظ [1]، ويعد المصدر الصناعي من المولد المقيس على كلام العرب .

ولفهم دلالة هذا المصطلح في اللغة واصطلاح الشرع : يرجع إلى جذره (ح . ك . م) .

حيث جاء في اللغة بعدة معان هي :

١- القضاء ، يقال : حكم بينهم : إذا قضى .

٢- المنع ، يقال : حكمت عليه بكذا : إذا منعته من خلافه .

٣- الفصل ، يقال : حكمت بين القوم : أي فصلت بينهم .

٤- الرد والرجوع : يقال حكم فلأن عن الأمر : إذا رجع .

٥- الإتقان ، يقال : أحكمه ، إذا أتقنه .

٦- التفويض ، يقال : حكَّمتُ الرجل بالتشديد ، إذا فوضت الحكم إليه .

٧- المحاكمة ، أي المخاصمة إلى الحاكم .

٨- الفعل حسب المراد : يقال تحكم فلأن في كذا ، إذا فعل ما رآه .

٩- الحِكْمَة ، وتأتي لعدة معان منها: العلم، والنبوة ، والفقه ، والقرآن، والفهم ، وغيرها [2] .

(١) مثل كلمة " إنسان " فان معناها الأصلي للحيوان الناطق ، فان زيدت في آخره ياء مشدده وتاء التأنيث المربوطة " إنسانية " تغيرت دلالة اللفظ فأصبحت تشمل مجموعة من الصفات المختلفة التي يختص بها الإنسان،انظر:النحو الوافي،لعباس حسن: دار المعارف- مصر - ط ٤ ب.ت ،٣/ ١٨١ وما بعدها

(٢) ينظر المصادر الآتية : - القاموس المحيط للفيروز آبادي ٤/ ٩٨ وما بعدها .
- لسان العرب لابن منظور ١٢/ ١٤٠، ١٤٥ .
- المفردات للراغب الأصفهاني ص١٢٦ .
- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير مطبعة أنصار السُّنَّة باكستان ب.ت ١/ ٤١٩

ومما سبق تظهر غزارة مادة الجذر اللغوي للحاكمية (ح .ك . م) في لغة العرب ، حيث يستعمل لعدة معان، وهذه المعاني لها أهمية في التأصيل لمفهوم الحاكمية باعتبار أن هناك علاقة ومناسبة بين المصطلح وبين المعنى اللغوي ، فالمعاني اللغوية تتأسس عليه الدلالات الشرعية في الأصول " القرآن والسُّنَّة " وتقوم عليه اصطلاحات أصحاب العلوم والفنون المختلفة [١].

ثانيًا : الحاكمية في الأصول الشرعية " القرآن والسُّنَّة " :

أما القرآن الكريم : فقد ورد جذر الحاكمية (ح . ك . م) فيه دالًا على عدة معاني هي :

١ - القضاء والفصل في الخصومات والاختلاف بين الناس ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [٢].

٢- الإحكام والإتقان ومنه قوله تعالى: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ [٣].

٣- الفهم والفقه والعقل والعلم : ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [٤]، وقوله تعالى :﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ [٥].

٤- الوضوح والإبانة : ومنه قوله تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [٦].

٥-النبوة والرسالة:ومنه قوله تعالى:﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [٧]، وقوله تعالى﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [٨].

---

(١) انظر : الحاكمية في الفكر الإسلامي ،د. حسن لحساسنه ، كتاب الأمة ، قطر ، العدد ١٢٨، سنة ١٤٢٨هـ، ص ٣١ وما بعدها .

(٢) سورة غافر: الآية ٤٨، وينظر: سورة البقرة: الآية ١١٣ والمائدة: الآية ٥٠ والنور: ٤٨ والزمر: الآية ٣٠، ٤٦.

(٣) سورة هود: الآية ١ .

(٤) سورة القصص: الآية ١٤.

(٥) سورة الأنعام : الآية ٨٩ ، وينظر:سورة البقرة : الآية ٢٦٩ وسورة مريم : الآية ١٢١ .

(٦) سورة آل عمران: الآية ٧ وينظر: سورة محمد: الآية ٢٠.

(٧) سورة الشعراء: الآية ٨٣.

(٨) سورة البقرة: الآية ٢٥١.

٦- القرآن الكريم : ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾[١].

٧- السُّنَّة النبوية : ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾[٢].

٨- العظة والعبرة: ومنه قوله تعالى:﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾[٣].

٩- القضاء والقدر: ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾[٤].

١٠- التحليل والتحريم: ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[٥].

١١- الحكم بالمفهوم السياسي : ومن ذلك :

أ- التحاكم إلى غير شرع الله كقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾[٦] وقوله تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[٧]، والحكم بما أنزل الله والتحاكم إليه يقتضي وجود سلطه بيدها الأمر والإلزام .

ب- ولاة الأمور: ومنه قوله تعالى﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ ﴾[٨] ويقصد بالحكام من بيدهم السلطة السياسية أو القضائية وهي سلطات سياسية .

ج- الشريعة : ومنه قوله تعالى:﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ

---

(١) سورة الرعد: الآية ٣٧.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٤.
(٣) سورة القمر: الآية ٥.
(٤) سورة الرعد: الآية ٤١.
(٥) سورة يوسف: الآية ٤٠ .
(٦) سورة النساء: الآية ٦٠ .
(٧) سورة المائدة : الآية ٤٤ .
(٨) سورة البقرة : الآية ١٨٨ .

ﷲِ ﴾ [١]، أي : شريعته [٢].

أما في السُّنَّة الشريفة: فقد ورد لفظ الحكم ومشتقاته في عدد من الأحاديث منها:

١- قوله ﷺ : " إن الله هو الحكم وإليه الحكم " [٣].

٢- قوله ﷺ : " ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها " [٤].

٣- قوله ﷺ في دعائه من الليل : " وبك خاصمت ، واليك حاكمت " [٥].

٤- قوله ﷺ لسعد رضي الله عنه : " لقد حكمت فيهم بحكم الله -عز وجل- من فوق سبع سماوات " [٦]، وغيرها من الأحاديث وهي في الجملة لا تخرج عن المعاني التي جاءت في القران الكريم.

أما في اصطلاحات أصحاب الفنون والعلوم: فان للفظ دلالاته الخاصة :

عند الفقهاء : يستعمل الحكم على عدة أوجه :

١- الحكم : بمعنى الأثر :الذي يقتضيه خطاب الشرع كالوجوب والحرمة والإباحة.

٢- الحكم : بمعنى الوصف المترتب على الأثر كالصحة والفساد واللزوم ونحوها [٧].

---

(١) سورة المائدة : الآية ٤٣ .

(٢) ينظر في معاني الحكم في القران :
- إصلاح الوجوه والنظائر للدامغاني ، دار العلم ، بيروت ، ط١٩٨٥م ، ص ١٤٢ .
- المفردات للراغب ص ١٢٦ وما بعدها .
- معجم ألفاظ القران – مجمع اللغة العربية – القاهرة طبعة ١٤٠٩ ،١/ ٣١١ وما بعدها .
- الحاكمية في الفكر الإسلامي د. حسن لحساسنه ص (٣٧ وما بعدها .

(٣) رواة : أبو داود ٤/ ٢٨٩ برقم ٤٩٥٥ والنسائي ٨/ ٢٢٦ والبيهقي ١/ ١٤٥ وصححه الألباني في الجامع برقم ١٨٤١ وأوراد الغليل ٨/ ٢٣٧

(٤) رواة : البخاري ، في العلم باب الإغتباط في العلم ١/ ٤٠ برقم ٧٣ ، ومسلم في صلاة المسافرين ١/ ٤٦٨ برقم ٨١٦

(٥) رواة : البخاري في التهجد ١/ ٣٧٧ برقم ١٠٦٩ ، ومسلم ١/ ٤٤٨ برقم ٧٦٩

(٦) رواة : البخاري في الجهاد باب إذا نزل العدو على حكم رجل ٣/ ١١٠٧برقم ٢٨٧٨ ،ومسلم في الجهاد باب جواز قتل من نقض العهد ٣/ ١١١٣ برقم ١٧٦٨ .

(٧) نظرية الإباحة عند الأصوليين لمحمد سلام مدكور، ص ٣٦ .

عند الأصوليين : يقسم الأصوليون الحكم إلى أربعة أقسام :

١ – الحكم:وهو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير أو الوضع.

٢ – المحكوم فيه : وهو فعل المكلف .

٣– المحكوم عليه : وهو المكلف .

٤ – الحاكم : وهو الله تعالى أو الشرع بعد البعثة وبلوغ الدعوة .[(١)]

ج- عند المناطقه : يطلق الحكم على شيئين :

١ – إدراك أن النسبة واقعة أو ليست واقعة ،وهذا ما يرادف التصديق .

٢ – إثبات شيءٍ بشيءٍ أو نفيه عنه [(٢)] .

د- عند السياسيين :

يقصد بالحكم والحكومة : الهيئة الحاكمة التي تتولى تنظيم شؤون الدولة وتمثل السلطة المهيمنة فيها [(٣)] .

ومما سبق عرضه يظهر لنا: أنه بالنظر إلى جذر مصطلح الحاكمية (ح .ك .م) في اللغة والشرع والاصطلاح ، نجد أن لهذا اللفظ دلالاته الكثيرة في اللغة وهي الأصل في معرفة معناه ، وان استخدام الشرع لهذا المصطلح أضاف إليها معاني جديدة مؤسسة على المعنى اللغوي ، وكذلك اصطلاح أصحاب الفنون المختلفة لم يخرج في جملته عن المعنى اللغوي والشرعي مما يدل على غزارة معاني هذا اللفظ وتنوع استعمالاته حسب ما يضاف إليه

والبحث في مصطلح : " الحاكمية " في الفكر الإسلامي اليوم ينطلق من ثلاثة مداخل هي :

---

(١) انظر : إرشاد الفحول للشوكاني : دار الفكر – بيروت – ب ت ص ٦ ، ومذكرة أصول الفقه للشنقيطي ص ٧ ،والحاكمية في الفكر الإسلامي د. حسن لحساسنه ص ٥٧– ٥٨ .

(٢) الحاكمية في الفكر الإسلامي د . حسن لحساسنه ص ٦٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٠ .

١ - المدخل العقدي : " فالحاكم في الإسلام هو الله" [١] وبحث مفهوم الحاكمية في هذا المدخل ينبغي أن يكون عقديًا من خلال النصوص الشرعية باعتبار أن الحاكمية من خصائص الألوهية .

٢- المدخل السياسي : من خلال بحث نظرية السيادة والتي تتعلق بالقوانين واللوائح والسلطات التي لها السيادة والحاكمية على غيرها والتي تضبط وتنظم العلاقات في الدولة .

٣- المدخل الفكري : وذلك من خلال النظر إلى دور العقل ووظيفته وعلاقته بالنقل ومجالات استعمال العقل، بمعنى هل الحاكمية للنقل أم للعقل ؟ " . [٢]

وبناء على ما سبق : يمكن أن نحدد المقصود بمصطلح الحاكمية في بحثنا هذا بأنه :" قضية الحكم والتشريع وما يتعلق بها من مسائل وأبحاث" .

ثالثًا : الحاكمية في الفكر الإسلامي : بين الخوارج والمرجئة وأهل السُّنَّة :

١ـ الخوارج وفكرة الحاكمية :

يرى بعض الباحثين أن مصطلح " الحاكمية " ظهر في عهد الخوارج وأنهم أول من تكلم به ، وذلك أنه لما قَبلَ علي - رضي الله عنه - بتحكيم الحكمين في "صفين" قال الخوارج : " أتحكمون في دينَ الله الرجال ؟ لا حكم إلا لله ، فسموا " المحكمية "، وما ترتب على ذلك عندهم من تكفير لعلي ومعاوية - رضي الله عنهما - ولمن معهما [٣] . وكان مستندهم في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾[٤].

ومع أن هذه الآية إحدى النصوص الشرعية التي تقوم عليها فكرة الحاكمية في الفكر الإسلامي، إلا أن تفسير الخوارج وتأويلهم لها كان خاطئًا ، حيث قصدوا منها نفي سلطان البشر في تسيير الأمور الدنيوية ونفي أن يكون للناس أمير ،

---

(١) أصول الفقه الإسلامي : محمد أبو زهرة - دار الفكر العربي - القاهرة - ب. ت - ص ٦٣ .
(٢) الحاكمية في الفكر الإسلامي د . حسن لحساسنه ص ٧٠-٧٢ بتصرف .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير دار المؤيد - الرياض ، ط٢ ،عام ١٤١٧ هـ ، ٧/ ٢٩٤ وما بعدها ، والملل والنحل للشهرستاني ص ١١٤ - ١١٥، والفرق بين الفرق للبغدادي ص ٤٥- ٤٦ .
(٤) سورة يوسف : الآية ٤٠ .

ولهذا قال علي – رضي الله عنه – :" كلمة حق أريد بها باطل " [١]، وبالتالي أساء الخوارج فهم مصطلح " الحاكمية " وأساؤا أيضا توظيفه في الواقع مما نتج عنها كثير من المخالفات التي شوهت حقيقة هذا المصطلح [٢] .

٢ـ المرجئة وفكرة الحاكمية :

المرجئة اسم أطلق على من يرجئ – يؤخر – العمل عن الإيمان، حيث يرون أن الإيمان هو تصديق القلب وقول اللسان ، وأما العمل فلا يدخل في مسمى الإيمان، لذا فإنه لا يكفر عندهم من نطق بالشهادتين مهما عمل وبالتالي فلا يرون كفر من حكم بغير ما أنزل الله ، بل يجعلونه من الكفر الأصغر على اعتبار أن الكفر العملي هو كفر اصغر [٣]، وقولهم هذا يقود إلى الاستخفاف بالأمر والنهي والتحلل من الشرع ، وقد رد عليهم أهل السُّنَّة والجماعة بردود مفصلة ، ليس هذا مجال سردها [٤].

٣ـ أهل السُّنَّة والجماعة وفكرة الحاكمية :

إن مصطلح " الحاكمية " أو " توحيد الحاكمية " وان كان من المصطلحات الحادثة ، إلا أنه لا محذور من استعماله إذا لم يتضمن معنى فاسدًا ، فإذا تضمن ذلك كان اللفظ صحيحًا والقصد فاسدًا وذلك لأن العبرة بالمعاني لا بالمباني ، و الأمور بمقاصدها ، والسلف لم يذموا المصطلحات الحادثة عند أهل الكلام وغيرهم لأنها حادثة ، بل لما اشتملت من الباطل ، أما ما كان معناه موافقًا لما في الكتاب والسُّنَّة فلا محذور في استخدامه وإن كان حادثًا [٥] .

ولذلك فإن أمير المؤمنين علي– رضي الله عنه – لما قال له الخوارج: " لا حكم إلا لله" وكان قصدهم فاسدًا ، قال مقولته المشهورة : " كلمة حق أريد بها باطل " . ومعنى ذلك : أن الكلمة أصلها صدق ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾، لكنهم أرادوا بها الإنكار

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزكاة ، باب التحريض على قتل الخوارج ٢/ ٧٤٩ برقم ١٠٦٦ .
(٢) الحاكمية في الفقه الإسلامي د. حسن لحساسنه ص٩٩ وما بعدها .
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٥٤٣ ، ودرء تعارض العقل والنقل ١/ ٧ ، والشرك بالله تعالى أنواعه وأحكامه – ماجد شبالة ص ٨٨٦ .
(٤) ينظر : درء تعارض العقل والنقل ، لابن تيمية ،١ / ٤٣ –٤٥ .
(٥) درء تعارض العقل والنقل ، لابن تيمية ،١ / ٤٣ –٤٥ . ١/ ٤٣ ، ٤٥ .

عليه- رضي الله عنه - في تحكيمه[١] .

وبناء على ما سبق : فإذا كان المراد بمصطلح الحاكمية هو إفراد الله - سبحانه وتعالى - بالحكم القدري والشرعي ، بأن يعتقد العبد أن الحكم لله وحده لا شريك له بقسميه الحكم الكوني المتمثل بالخلق والإيجاد والتدبير ، والحكم الشرعي المتمثل بانفراده - سبحانه - بحق الأمر والنهي والتشريع والتحليل والتحريم ووضع التشريعات ، وما يترتب على ذلك من وجوب الانقياد لحكم الله وشرعه وطاعته، والتحاكم إليه والكفر بما سواه مما يخالفه ، واعتبار شريعة الله هي المرجعية العليا، ولها السيادة المطلقة في كل شؤون الحياة البشرية ، والاستمداد منها ، والتحاكم إليها والرد عند التنازع إليها ، والرضى والتسليم بها . فلا شك ولا ريب أنه عين ما جاءت به النصوص الشرعية في الكتاب والسُّنَّة وقام عليه إجماع الأمة .

وذلك : لأن أهل السُّنَّة والجماعة :

- يرون أن الحكم بما أنزل الله والتحاكم إليه فرضٌ أوجبه الله على العباد وجعله الغاية من تنزيل الكتاب، قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾[٢] .

- ويرون اختصاصه - سبحانه- وتفرده بالحكم لقوله تعالى: ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ﴾[٣] ، وقوله: ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ﴾[٤] ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾[٥] ، وغيرها .

- ويرون أن الحكم بما أنزل الله و التحاكم إليه من صفات المؤمنين ، وأن التحاكم إلى غير ما أنزل الله والحكم به من صفات المنافقين وهو حكم الطاغوت والجاهلية لقوله تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن

---

(١) شرح صحيح مسلم للإمام النووي دار المعرفة - بيروت ، ط٣ عام ١٤١٧ هـ ٧/ ١٧٣ .
(٢) سورة النساء : الآية ١٠٥ .
(٣) سورة الأنعام : الآية ٥٧ .
(٤) سورة يوسف : الآية ٤٠ .
(٥) سورة الشورى : الآية ١٠ .

قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ (٦) .

- ويرون أن " توحيد الحاكمية " له تعلق بأقسام التوحيد وبأصل الإيمان وحقيقة الإسلام .

- ويرون وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه ..

- ويحذرون من مفاسد الحكم بغير ما أنزل الله وضرره على الأمة في الدنيا والآخرة ، وهم كما رأينا يستندون في كل ما سبق على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثالثًا : الحاكمية في فكر سيد قطب- رحمه الله - :

يعتبر سيد- رحمه الله- أبرز من تكلم عن مفهوم الحاكمية في العصر الحديث هو وأبو الأعلى المودودي-رحمه الله- حيث طرح المودودي فكرة الحاكمية في إطار مشروع تأسيس دولة باكستان الإسلامية وصياغة دستورها وإعطاء البدائل السياسية والقانونية والدستورية للنظريات الغربية التي كانت سائدة في البلاد ومهيمنة على الحكومات ، بينما طرح سيد قطب - رحمه الله - فكرة الحاكمية في إطار ما سماه بمواجهة " الجاهلية المعاصرة " .

حيث يرى أن قضية الحكم من أهم قضايا العقيدة والإيمان ، فإما إسلام وإما جاهلية لا وسط في هذا الأمر، وعلى هذا الأساس اعتبر سيد - رحمه الله - أن الحاكمية صفة ملازمة لمبدأ الألوهية ، فمن ادعاها فقد نازع الله في ألوهيته ، واغتصب سلطانه ، وبناءً على هذا فقد دعا بقوة إلى رد الحاكمية لله والتمرد على حاكمية الطواغيت المختلفة .

- وفكرة الحاكمية عند سيد قطب-رحمة الله-من القضايا التي أُسيء فهمها كثيرًا وأثيرت حواها الشبهات ، وحُمِّلت أكثر مما أراد منها -سيد- فهما وتطبيقًا ،

---

(٦) سورة النساء : ٦٠-٦١ .

- لهذا كان لابد من عرض قضية الحاكمية في فكر سيد قطب من خلال فهمه وكتاباته، والنظر بعد ذلك في مدى صحة أو خطاء ما أثير حولها ، وذلك فيا يأتي :

١ - مفهوم الحاكمية عند سيد قطب :

أكثر سيد قطب من إيراد مصطلح "الحاكمية" في كتبه الإسلامية ، حيث تناولها في كتاب " السلام العالمي والإسلام" [(١)] و"الإسلام ومشكلات الحضارة"[(٢)] و"ودراسات إسلاميه" [(٣)] و"هذا الدين" [(٤)]. و "المستقبل لهذا الدين"[(٥)] و"خصائص التصور الإسلامي ومقوماته"[(٦)]و" نحو مجتمع إسلامي " [(٧)] ، وكذا في كتاب "الظلال" أثناء حديثه عن الألوهية والربوبية ، والعقيدة الإسلامية ، والحكم والسلطة والأنظمة والمناهج ، وأثناء تفسيره للآيات التي تتحدث عن تلك الموضوعات .

وهو في حديثه عن الحاكمية لا يعالجها من فراغ ، ولا من جهل بالإسلام أو حتى بالتيارات المخالفة ، أو عن رأي له، فالأمر كما يقول: " أكبر من أن يُفتى فيه بالرأي " [(٨)] . ويشير أيضا إلى معرفته بالجاهلية على حقيقتها وانحرافها من خلال اطلاعه على معظم حقول المعرفة الإنسانية خلال ٤٠ عامًا من حياته .[(٩)]

ومن خلال جمع كلامه عن الحاكمية من مواطنه المتعددة نستطيع القول بأن مصطلح الحاكمية عند سيد قطب يعني : إفراد الله وحده بالحكم والتشريع والقوامة والسلطان ، واستمداد كل التشريعات والمناهج والنظم منه – سبحانه- وحده ، وتطبيق شريعته على كافة مناحي الحياة.

---

(١) انظر : السلام العالمي والإسلام سيد. قطب ،ص١٣ـ٣٨ومواضع أخرى من الكتاب .
(٢) انظر : الإسلام ومشكلات الحضارة ،سيد قطب ، ص٢٥ـ٣٤و١٨٧ـ١٩٩ .
(٣) انظر : دراسات إسلامية، سيد قطب، ص١٦ـ١٨ و٣٩ـ٤٣و٨١ـ٩٢.
(٤) انظر : هذا الدين ، سيد قطب، ص١٧ـ ٢٨ و٣٤ -٣٥ .
(٥) المستقبل لهذا الدين، سيد قطب ، ص٧ـ٢٣و٧٦ وما بعدها.
(٦) خصائص التصور الإسلامي، ص ٧٩و١٩٠، ١١٤، ٨٨، ٢٠٧، ومقومات التصور الإسلامي ، ص١٥ - ٤٠ ، ١٠٩ - ١٨٨ ، ٢٨٢ - ٢٩٤ .
(٧) نحو مجتمع إسلامي، ص١٥٠ ومابعدها.
(٨) مقومات التصور الإسلامي ، ص١٤٧ ، ومعالم في الطريق ، ص١٤٤ .
(٩) معالم في الطريق ص١٤٣ .

٢ - جوانب الحاكمية عند سيد قطب : للحاكمية عند سيد قطب جانبان هما :

الأول: **الحاكمية التكوينية** : وتتمثل في دينونة العباد لربهم في الجانب القدري القهري من حياتهم ، فالله وحده له الحكم القدري الكوني خلقا وتقديرا .

الثاني: **الحاكمية التشريعية** : وتمثل في دينونة العباد لربهم في الجانب الإرادي من حياتهم ، فالله وحده صاحب الحق التشريعي، فهو الحاكم المشرع المنفرد بإنشاء الأمر والنهي والأحكام ، المختص بالتحليل والتحريم ووضع القيم و التصورات عن الإله والكون والحياة والإنسان ، وما يتبع ذلك من وجوب الانقياد لله تعالى والطاعة لشرعه وأحكامه في كل جوانب الحياة [١] .

وفيما يأتي بعض النصوص من كلام - سيد -عن جوانب الحاكمية في الإسلام :

أ – **يقول** -**رحمه الله** -: " وفي السورة -أي سورة يوسف ـ تعريف بخصائص الألوهية ، وفي مقدمتها "الحكم" ، وهو يرد مرة على لسان يوسف -عليه السلام ـ بمعنى الحاكمية في العباد من ناحية دينونتهم وطاعتهم الإرادية ، ويأتي مرة على لسان يعقوب -عليه السلام - بمعنى الحاكمية في العباد من ناحية دينونتهم لله في صورتها القهرية القدرية ، فيتكامل المعنيان في تقرير مدلول الحكم وحقيقة الألوهية على هذا النحو الذي لا يجيء عفوًا ولا مصادفةً أبدًا.

يقول يوسف- عليه السلام - في معرض تفنيد ربوبية الحكام في مصر وبيان مخالفتها لوحدانية الألوهية ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾ [٢].

ويقـول يعقوب في معرض تقرير أن قدر الله نافذ وأن قضـاءه ماض : ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [٣] .

---

(١) في ظلال القران في الميزان ، د/ صلاح ألخالدي ، ص ١٧٣ والحاكمية في الفكر الإسلامي د/ حسن لحساسنه ص٧٤ وما بعدها.

(٢) سورة يوسف : الآية ٣٩-٤٠ .

(٣) سورة يوسف الآية ٦٧ .

وهذا التكامل في مدلول الحكم يشير إلى أن الدين لا يستقيم إلا أن تكون الدينونة الإرادية لله في الحكم ، كالدينونة القهرية له – سبحانه– في القدر ، فكلاهما من العقيدة ، وليست الدينونة في القدر القاهر وحدها الداخلة في نطاق الاعتقاد ، بل الدينونة الإرادية في الشريعة هي كذلك في نطاق الاعتقاد " (١) .

ب- يقول أيضا : " إن الحكم إلا لله ، فهو مقصور عليه– سبحانه – بحكم ألوهيته، إذ الحاكمية من أخص خصائص الألوهية ومن ادعاها فقد نازع الله أولى خصائص ألوهيته.. ويكون ذلك بتنحية شريعة الله عن الحاكمية واستمداد القوانين من مصدر أخر، وتقرير أن الجهة التي تملك الحكم – أي التي تكون هي مصدر السلطات – جهة أخرى غير الله سبحانه ، فالعبادة – أي الدنيوية – لا تقوم إذا كان الحكم لغير الله سبحانه ، وسواء في هذا حكمه القدري القهري في حياه الناس وفي نظام الوجود ، وحكمه الشرعي الإرادي في حياه الناس خاصة ، فكله حكم تتحقق به الدينونة " (٢) .

ج –ويقول أيضا : " إن الألوهية تعني : الحاكمية العليا وتوحيد الألوهية وإفراد الله – سبحانه – بها وهذا معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والأمراء والحكام ورده إلى الله ، السلطان في المال والسلطان في القضاء ، والسلطان في الأرواح والأبدان، إن " لا إله إلا الله" ثورة على السلطان الأرضي الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية ، وثورة على الأوضاع التي تقوم على قاعدة هذا الاغتصاب، وخروج على السلطات التي تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله ... " (٣) .

٣- علاقة الحاكمية بالعقيدة عند سيد قطب :

يرى سيد – رحمه الله– أن قضية الحاكمية من أخص خصائص الألوهية والربوبية ، ومن أهم قضايا التوحيد والإيمان، ولذا نجده كثيرًا ما يربط بين العقيدة

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٦٧-١٩٦٨ .

(٢) المصدر السابق ٤/ ١٩٩٠-١٩٩١بتصرف

(٣) معالم في الطريق ص ٢٦ بتصرف .وينظر : في ظلال القران :١/ ٣١٩، ٣٧٩ و ٢/ ٦٨٨ ، ٦٩٠، ٦٩٦، ٧٧١، ٨٢٦، ٨٢٨ و ٣/ ١١٧٩، ١٢٢٩ و٤/ ٢١١٤ ومقومات التصور الإسلامي ص١٤٧ .

والحاكمية ، بحيث شغلت عملية إعادة الربط بين العقيدة والحاكمية جانبًا كبيرًا من اهتماماته وتفكيره وكتاباته ، وخاصة في الأجزاء المنقحة من الظلال وكتبه الأخيرة ومن ذلك :

قوله - رحمه الله-: " إن الاعتقاد بالألوهية الواحدة قاعدة لمنهج حياة متكامل .. وحدود العقيدة أبعد كثيرًا من مجرد الاعتقاد الساكن . . إن حدود العقيدة تتسع وتترامى حتى تتناول كل جانب من جوانب الحياة . . وقضية الحاكمية بكل فروعها في الإسلام هي قضية عقيدة . كما أن قضية الأخلاق بجملتها هي قضية عقيدة . فمن العقيدة ينبثق منهج الحياة الذي يشتمل الأخلاق والقيم، كما يشتمل الأوضاع والشرائع سواءً بسواء . . "[1] .

ويقول في تعليقه على آيات سورة المائدة :" يتناول هذا الدرس أخطر قضية من قضايا العقيدة الإسلامية ، والمنهج الإسلامي ، ونظام الحكم والحياة في الإسلام.. وهي القضية التي عولجت في سورتي آل عمران والنساء من قبل.. ولكنها هنا في هذه السورة تتخذ شكلًا محددًا مؤكدًا، يدل عليها النص بألفاظه وعباراته ، لا بمفهومه وإيحائه ، إنها قضية الحكم والشريعة والتقاضي – ومِنْ ورائها قضية الألوهية والتوحيد والإيمان – ، والقضية في جوهرها تتلخص في الإجابة على هذا السؤال : أيكون الحكم والشريعة والتقاضي حسب مواثيق الله وعقوده وشرائعه التي استحفظ عليها أصحاب الديانات السماوية واحدة بعد الأخرى، وكتبها على الرسل، وعلى من يتولون الأمر بعدهم ليسيروا على هداهم؟ أم يكون ذلك كله للأهواء... ؟ .

وبتعبير آخر: أتكون الألوهية والربوبية والقوامة لله في الأرض وفي حياة الناس؟ أم تكون كلها أو بعضها لأحد من خلقه يشرع للناس ما لم يأذن به الله؟..

والله –سبحانه– يقول : إنه لا هوادة في هذا الأمر ولا ترخص في شيء منه .. لأن المسألة – في هذا كله – مسألة إيمان وكفر، أو إسلام وجاهلية، وشرع أوهوى ..وهي مفرق الطريق بين ذلك كله ، وأنه لا وسط في هذا الأمر ولا هدنة ولا صلح ! فالمؤمنون هم الذين يحكمون بما أنزل الله – لا يخرمون منه حرفًا ولا يبدلون

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١١٤ .

منه شيئًا ، والكافرون الظالمون الفاسقون هم الذين لا يحكمون بما أنزل الله" . [١]

ويقول أيضًا: " والعبودية المطلقة لله وحده هي الشطر الأول لركن الإسلام الأول، فهي المدلول المطابق لشهادة " أن لا إله إلا الله " ، والتلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله ﷺ هو الشطر الثاني لهذا الركن ، فهو المدلول المطابق لشهادة " أن محمدًا رسول الله " ، والعبودية المطلقة لله وحده تتمثل في اتخاذ الله وحده إلهًا، عقيدة وعبادة وشريعة ، فلا يعتقد المسلم أن الألوهية تكون لأحد غير الله – سبحانه – ولا يعتقد أن العبادة تكون لغيره من خلقه ، ولا يعتقد أن الحاكمية تكون لأحد من عباده "[٢].وهناك نصوص كثيرة في مواضع متفرقة. [٣].

وقد بين سيد – رحمه الله – السبب الذي جعله يتعرض كثيرًا لمسالة الحاكمية وربطها بالعقيدة بقوله: " ونحن نحتاج إلى هذا التذكير المستمر، لأن جهود الشياطين في زحزحة هذا الدين عن مفهوماته الأساسية ، قد آتت ثمارها – مع الأسف– فجعلت مسألة الحاكمية تتزحزح عن مكان العقيدة ، وتنفصل في الحس عن أصلها الاعتقادي ! ومن ثم نجد حتى الغيورين على الإسلام ، يتحدثون لتصحيح شعيرة تعبدية ، أو لاستنكار انحلال أخلاقي، أو لمخالفة من المخالفات القانونية ، ولكنهم لا يتحدثون عن أصل الحاكمية ، وموقعها من العقيدة الإسلامية! يستنكرون المنكرات الجانبية الفرعية، ولا يستنكرون المنكر الأكبر، وهو قيام الحياة في غير التوحيد، أي على غير إفراد الله – سبحانه – بالحاكمية .. إن الله قبل أن يوصي الناس أي وصية ، أوصاهم ألا يشركوا به شيئًا.." . [٤]

" إن هذا الدين شريعته كعقيدته ، إذ هي الترجمة الواقعية لها ، كما يتجلى ذلك من خلال النصوص القرآنية ..وهذه هي الحقيقة التي زُحزح مفهوم " الدين " في نفوس أهل هذا الدين عنها زحزحة مطردة خلال قرون طويلة ، بشتى الأساليب

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٨٧-٨٨٩ بتصرف .

(٢) معالم في الطريق : فصل " لا اله إلا الله " منهج حياة ص ٩٢ وما بعدها بتصرف .

(٣) ينظر كلام سيد حول الربط بين الحاكمية والعقيدة في ظلال القرآن : ١/ ٢١٧ ، ٢/ ٢٨٣ ، ٢٩٧ ، ٣٣١، ٦١٩/٢ ، ١٠٣٣ ، ١١٠٦ ، ٣/ ١١٨٤ ، ١٢١٦ ، ١٢٣٠ ، ٤/ ٢١١٤ ، ٢١٤٥، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٤٧ ، ١٨٨، معالم في الطريق ص ٢٦-٥١ .

(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٣٠ وينظر أيضًا : ٤/ ١٩٤٥ ، ٢١١٤-٢١١٦ .

الجهنمية الخبيثة ، حتى انتهى الأمر بأكثر المتحمسين لهذا الدين - ودعك من أعدائه والمستهترين الذين لا يحفلون به - أن تصبح قضية الحاكمية في نفوسهم قضية منفصلة عن قضية العقيدة ! لا تجيش لها نفوسهم كما تجيش للعقيدة ! ولا يعدون المروق منها مروقًا من الدين ، كالذي يمرق من عقيدة أو عبادة ! وهذا الدين لا يعرف الفصل بين العقيدة والعبادة والشريعة ، إنما هي الزحزحة التي زاولتها أجهزة مدربة ، قرونًا طويلة ، حتى انتهت مسألة الحاكمية إلى هذه الصورة الباهتة، حتى في حس أشد المتحمسين لهذا الدين : -

إن الذين يحكمون على عابد الوثن بالشرك ، ولا يحكمون على المتحاكم إلى الطاغوت بالشرك ، ويتحرجون من هذه ولا يتحرجون من تلك، إن هؤلاء لا يقرأون القرآن، ولا يعرفون طبيعة هذا الدين فليقرأوا القرآن كما أنزله الله، وليأخذوا قول الله بجد: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾[1] .

هؤلاء...يؤذون هذا الدين من حيث لا يشعرون، بل يطعنونه بمثل هذه الاهتمامات الجانبية ، إنهم يفرغون الطاقة العقيدية الباقية في نفوس الناس في هذه الاهتمامات الجانبية ، و يؤدون شهادة بأن هذا الدين قائم فيها ، لا ينقصه ليكمل إلا أن تصحح هذه المخالفات، بينما الدين كله متوقف عن الوجود أصلا ، ما دام لا يتمثل في نظام وأوضاع ، الحاكمية فيها لله وحده من دون العباد .

إن وجود هذا الدين هو وجود حاكمية الله ، فإذا انتفى هذا الأصل انتفى وجود هذا الدين، وإن مشكلة هذا الدين في الأرض اليوم لهي قيام الطواغيت التي تعتدي على ألوهية الله، وتغتصب سلطانه ، وتجعل لأنفسها حق التشريع بالإباحة والمنع في الأنفس والأموال والأولاد ... وهي القضية التي كان يواجهها القرآن الكريم ويربطها بقضية الألوهية والعبودية ، ويجعلها مناط الإيمان أو الكفر ، وميزان الجاهلية أو الإسلام.." .[2]

" وما يزال أهل الكتاب يحاربون هذا الدين حربًا لا تهدأ ، وأشد هذه الحرب وأنكأها، هو تحويل الحاكمية عن شريعة هذا الكتاب، إلى شرائع كتب أخرى من

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢١ .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٢١٦-١٢١٧ بتصرف .

صنع البشر وجعل غير الله حكماً " [١]. ويوضح - سيد- العلاقة بين الحاكمية وبين أنواع التوحيد والإيمان، فيقرر ارتباطها الوثيق بأنواع التوحيد وبقضية الإيمان والدين، ويعتبرها القضية التي يُبني عليها معقد التفرقة بين الإيمان والكفر وبين التوحيد والشرك .

فلا يتحقق توحيد الربوبية إلا بإفراد الله - عز وجل - بالخلق والأمر بقسيمة الكوني والشرعي ، وإفراده بالأمر الشرعي يقتضي الإقرار له وحده بالسيادة العليا والتشريع المطلق ، فلا حلال إلا ما أحله ، ولا حرام إلا ما حرمه ، ولا دين إلا ما شرعه ، فالمنازعة في الأمر الشرعي كالمنازعة في الأمر الكوني ولا فرق ، فأدنى درجات الرضى بالله ربا ، والتي ينجو بها المرء من الشرك تشمل الإقرار لله تعالى بالتفرد بالخلق والأمر، واعتقاد تفرد الله بالحاكمية والتحليل والتحريم والتشريع المطلق كما قال - سبحانه - : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [٢] .

وللحاكمية صلتها أيضا بتوحيد الألوهية - العبادة - فإن إفراد الله بالعبادة يقتضي الطاعة والخضوع له - سبحانه - فيما أمر به وما نهى عنه ، ومعلوم أن التحاكم إلى ما أنزل الله والتزام ما فصل لعبادة من الحلال والحرام وسائر الشرائع صورة من صور العبادة ، لا يجوز أن تصرف إلى غير الله - سبحانه - لقوله تعالى : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [٣].

فتوحيد الحاكمية شعبه من شعب توحيد الألوهية .

وللحاكمية صلتها بالأسماء والصفات فان من أسماء الله - عز وجل - التي ذكرها في القرآن الكريم " الحكم ، والحاكم ، والحكيم " فلا يتم الإيمان بها إلا بإثباتها له وإفراده بها وذلك بالإيمان أن له وحده الحكم الشرعي والقدري والجزائي في الدنيا والآخرة دون سواه .

وللحاكمية صلة بتوحيد المتابعة للنبي ﷺ ، فتحكيم شرع الله من مقتضى الشهادة للنبي ﷺ بالرسالة، فلا يتم الإيمان إلا بتحكيم الشرع الذي جاء به النبي ﷺ في كل

(١) المصدر السابق ٣/ ١١٩٤ .
(٢) سورة الأعراف : الآية ٥٤ .
(٣) سورة يوسف : الآية ٤٠ .

شؤون الحياة ، مع الرضا والتسليم .

وللحاكمية صلتها بالإيمان ، فمن لم يسلم لله بحق الحاكمية فهو مناقض لأصل الإيمان، ومن أعطاها لغيره – سبحانه– فقد وقع في الشرك والكفر والنفاق .

وفيما يلي بعض النصوص لبيان علاقة الحاكمية بالتوحيد والإيمان عند سيد – رحمه الله - :-

١– يقول– رحمه الله– : " إن قضية التشريع بجملتها مرتبطة بقضية الألوهية ، والحق الذي ترتكن إليه الألوهية في الاختصاص بتنظيم حياة البشر، هو أن الله هو خالق هؤلاء البشر ورازقهم ، فهو وحده صاحب الحق إذن في أن يحل لهم ما يشاء من رزقه وأن يحرم عليهم ما يشاء ، وهو منطق يعترف به البشر أنفسهم ، فصاحب الملك هو صاحب الحق في التصرف فيه ، والخارج على هذا المبدأ البديهي معتدٍ لا شك ! " . [١]

٢– يقول– رحمه الله – : " إن أخص خصائص الألوهية هي الحاكمية ، والذي يشرع لمجموعة من الناس يأخذ فيهم مكان الألوهية ويستخدم خصائصها ، فهم عبيده لا عبيد الله ، وهم في دينه لا في دين الله ...". [٢] " فالألوهية من خصائصها ومقتضاها الحاكمية التشريعية، ومن يحكم بغير ما أنزل الله يرفض ألوهية الله وخصائصها في جانب، ويدعي لنفسه هو حق الألوهية وخصائصها في جانب أخر.. وماذا يكون الكفر إن لم يكن هو هذا وذاك؟ " [٣] ، " فالحاكمية في الأرض -كما هي في الكون كله – لله وحده ، والناس– حاكمهم ومحكومهم– إنما يستمدون سلطاتهم من تنفيذهم لشريعة الله ومنهجه ، وليس لهم – في جملتهم – أن يخرجوا عنها " [٤].

٣– ويقول : " فحقيقة التوحيد تستلزم مصداقًا لها في واقع الحياة البشرية ، ومن ثم يقرر القرآن الحقيقة الأولى-التوحيد- ليرتب عليها آثارها الملازمة لها ، فيبدأ

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٧٠.
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٩٠ .
(٣) المصدر السابق ٢/ ٨٩٨، وينظر : مقومات التصور الإسلامي ص ١٣٢ وما بعدها .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٣١٩.

بشهادة الله -سبحانه - ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وشهادة الملائكة وأولي العلم بهذه الحقيقة ، ويقرر معها صفة الله المتعلقة بالقوامة وهي قيامه بالقسط في أمر الناس وفي أمر الكون .

وما دام الله متفردًا بالألوهية وبالقوامة فإن أول مستلزمات الإقرار بهذه الحقيقة هو الإقرار بالعبودية لله وحده وتحكيمه في شأن العبيد كله، واستسلام العبيد لإلههم، وطاعتهم للقيوم عليهم ، وإتباعهم لكتابه ولرسوله ﷺ ويُضِّمن هذه الحقيقة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[1]. فهو لا يقبل دينًا سواه من أحد ، والإسلام الذي هو الاستسلام والطاعة والإتباع ليس مجرد تصور في العقل، ولا تصديق في القلب ، إنما هو القيام بحق هذا التصديق وذلك التصور، هو تحكيم منهج الله في أمر العباد كله ، وطاعتهم لما يحكم به ، وإتباعهم لرسوله ﷺ في منهجه" [2].

٤- ويقول : " إن ردَّ الربوبية كلها لله - سبحانه- معناه رد الحاكمية كلها له ، فالحا كمية هي مظهر ربوبية الله للناس ، وهي تتجلى في العالمين كذلك بخضوعهم لله وحده ، فلا يكون الناس معترفين بربوبية الله لهم إلا إذا خضعوا له وحده ، وإلا إذا خلصت عبوديتهم لهذه الربوبية ، أو بتعبير أخر لهذه الحاكمية ، وإلا فقد أنكروا ربوبية الله لهم متى خضعوا لحاكمية أحد غيره لا يحكمهم بشرعة .." . [3]

٥- ويقول: " وشهادة " أن لا إله إلا الله " ليس لها مدلول إلا أن تكون الحاكمية العُليا لله في حياة البشر، كما أن له الحاكمية العليا في نظام الكون سواء، فهو المتحكم في الكون والعباد بقضائه وقدره ، وهو المتحكم في حياة العباد بمنهجه وشريعته، وبناء على هذه القاعدة لا يعتقد المسلم أن لله شريكا في خلق الكون وتدبيره وتصريفه، ولا يتقدم المسلم بالشعائر التعبدية إلاّ لله وحده ، ولا يتلقى الشرائع والقوانين، والقيم والموازين ، والعقائد والتصورات إلا من الله ، ولا يسمح لطاغوت من العبيد أن يدعي حق الحاكمية في شيء من هذا كله مع الله "[4].

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٩ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٦-٣٧٧ بتصرف .
(٣) المصدر السابق ٣/ ١٣٣٠ .
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٥٥-١٢٥٦ .

" ويحفل المنهج القرآن بالواقعيات العملية ، وبالجزيئات التطبيقية في الحياة البشرية، وانطباقها على شريعة الله، وعلى تقرير الأصل الذي يجب أن تستند إليه، وهو حاكمية الله .. أو بتعبير أخر ربوبية الله ، فلماذا يحفل المنهج القرآني هكذا بهذه القضية ؟ يحفل بها لأنها من ناحية المبدأ تلخص قضية " العقيدة " في الإسلام، كما تلخص قضية " الدين " فالعقيدة في الإسلام تقوم على أساس شهادة : " أن لا إله إلا الله " ، وبهذه الشهادة يخلع المسلم من قلبه ألوهية كل أحد من العباد ويجعل الألوهية لله ، ومن ثم يخلع الحاكمية عن كل أحد ويجعل الحاكمية كلها لله ، والتشريع للصغيرة هو مزاولة لحق الحاكمية كالتشريع للكبيرة ، فهو من ثَمَّ مزاولة لحق الألوهية يأباه المسلم إلا لله ، والدين في الإسلام هو دينونة العباد في واقعهم العملي - كما هو الأمر في العقيدة القلبية - لألوهية واحدة هي ألوهية الله ، ونفض كل دينونة في هذا الواقع لغير الله من العباد المتألهين، والتشريع هو مزاولة للألوهية، والخضوع للتشريع هو الدينونة لهذه الألوهية ، ومن ثم يجعل المسلم دينونته في هذا لله وحده، ويخلع ويرفض الدينونة لغير الله من العباد المتألهين!، من هنا ذلك الاحتفال كله في القرآن كله بتقرير هذه الأصول ألاعتقاديه ومنها الحاكمية "[1] .

ومنهج القران الكريم يقرر: " أنه لا يقبل من الفرد المسلم ولا من المجتمع المسلم، أقل من أن تكون حياته بجملتها من صنع هذا المنهج وتحت تصرفه وتوجيهه ، وعلى وجه التحديد لا يقبل من الفرد المسلم ولا من المجتمع المسلم أن يجعل لحياته مناهج متعددة المصادر .. مستمدةً من غيره ، وإلا فلا إيمان ولا إسلام ، لأن ذلك يعارض شهادة "لا إله إلا الله " التي ينشأ منها "أن لا حاكم إلا الله ، وان لا مشرع إلا الله "[2].

" والسياق القرآني يستند في تقرير أن الحكم بما أنزل الله هو " الإسلام " وأن ما شرعه الله للناس من حلال أو حرام هو " الدين " إلى أن الله هو " الإله الواحد " لا شريك له في ألوهيته ، والى أن الله هو " الخالق الواحد" لا شريك له في خلقة ، وإلى أن الله هو " المالك الواحد " لا شريك له في ملكه ، ومن ثم يبدو حتميًا ومنطقيًا إلا يقضي بشيء إلا بشرعه وإذنه ، فالخالق لكل شيء المالك لكل شيء هو صاحب

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢١١-١٢١٢ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٧٠٥ بتصرف .

الحق وصاحب السلطان في تقدير المنهج الذي يرتضيه لملكه وخلقة ، وهو الذي يشرع فيما يملك، وهو الذي يطاع شرعه، وينفذ حكمه، إلا فهو الخروج والمعصية والكفر .

إنه هو الذي يقرر الاعتقاد الصحيح للقلب ، كما يقرر النظام الصحيح للحياة سواءً بسواء ، والمؤمنون به هم الذين يؤمنون بالعقيدة التي يقررها ، ويتبعون النظام الذي يرضيه ، هذه كتلك سواءً بسواء ، وهم يعبدونه بإقامة الشعائر ويعبدونه بإتباع الشرائع بلا تفرقه بين الشعيرة والشريعة فكلتاهما من عند الله الذي لا سلطان لأحد في ملكه وعباده معه ، بما أنه هو الإله الواحد ، المالك الواحد ... ومن ثم فإن الحكم بشريعة الله هو دين كل نبي ، لأنه هو دين الله لا دين سواه "[1].

" وهكذا تتبين القضية : إله واحد ، وخالق واحد ، ومالك واحد ، وحاكم واحد، ومشرع واحد ومتصرف واحد ، وإذن فشريعة واحدة ، ومنهج واحد ، وقانون واحد ، وإذن فطاعة وإتباع وحكم بما أنزل الله فهو إيمان وإسلام ، أو معصية وخروج وحكم بغير ما أنزل الله فهو كفر وظلم وفسوق وهذا هو الدين كما أخذ الله ميثاق العباد جميعا عليه ، وكما جاءت به كل الرسل من عند ه ..، ولم يكن بد أن يكون " دين الله " هو الحكم بما أنزل الله دون سواه ، فهذا هو مظهر سلطان الله، مظهر حاكمية الله ، مظهر" أن لا إله إلا الله "، وهذه الحتمية : حتمية التلازم بين "دين الله " و " الحكم بما أنزل الله" لا تنشأ فحسب من أن ما أنزل الله خير مما يصنع البشر لأنفسهم من مناهج وشرائع وأنظمة وأوضاع، فهذا سبب واحد من أسباب هذه الحتمية ، وليس الأول ولا الرئيسي ،إنما السبب الأول والرئيسي والقاعدة الأولى والأساس في حتمية هذا التلازم هي : أن الحكم بما أنزل الله إقرار بألوهية الله ، ونفي لهذه الألوهية وخصائصها عمن سواه ، وهذا هو " الإسلام " بمعناه اللغوي " الاستسلام " ، وبمعناه الاصطلاحي كما جاءت به الأديان .

الإسلام لله ، والتجرد عن ادعاء الألوهية معه ، وادعاء اخص خصائص الألوهية وهي السلطان والحاكمية ، وحق تطويع العباد وتعبيدهم بالشريعة و القانون ...

ومن هذه الحتمية ينشأ الحكم الذي تقرره الآيات ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٢٦ وينظر : ٢/ ٦٩٦ ، ٧٧١ ، ٨٢٨ ، ٩٧٢ ، ١١٧٩ ، ١١٩٣ ، ١٢٢٩ ، ١٣٠٧ .

ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ -ٱلظَّٰلِمُونَ -ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [١]. فالذين لا يحكمون بما أنزل الله يعلنون رفضهم لألوهية الله بعملهم وواقعهم ، وان لم يعلنوه بأفواههم وألسنتهم ، فلغة العمل أقوى من لغة الفم " [٢].

"إن قبول شريعة الله و الرضى بحكمها هو مظهر الإقرار بألوهيته وربوبيته وقوامته ، ورفضها والتولي عنها ، هو مظهر رفض هذا الإقرار " [٣].

و" إن المقتضى البديهي للإيمان ، أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به ، وإلى من آمن به ، فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل، وبالرسول وما أنزل إليه ، ثم دعي إلى هذا الذي آمن به ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه كانت التلبية الكاملة هي البديهية الفطرية ، فأما حين يصد ويأبى فهو يخالف البديهية الفطرية ويكشف عن النفاق وينبئ عن كذب الزعم الذي زعمه من الإيمان! ، وإلى هذه البديهية الفطرية يحاكم الله – سبحانه – أولئك الذين يزعمون الإيمان بالله ورسوله ، ثم لا يتحاكمون إلى منهج الله ورسوله ، بل يصدون عن ذلك المنهج حين يدعون إليه صدودًا! " [٤].

" فما يمكن أن يجتمع الإيمان وعدم تحكيم شريعة الله ، أوعدم الرضى بحكم هذه الشريعة ، والذين يزعمون لأنفسهم أو لغيرهم أنهم " مؤمنون " ثم هم لا يحكمون شريعة الله في حياتهم ، أولا يرضون حكمها إذا طبق عليهم ، إنما يدعون دعوى كاذبة ويصطدمون بهذا النص القاطع ﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٥].

" فالله – سبحانه– يقسم بذاته العلية أنه لا يؤمن مؤمن حتى يحكم رسول الله – ﷺ– في أمره كله . ثم يمضي راضيًا بحكمه مسلمًا بقضائه ، ليس في صدره حرج منه ، ولا في نفسه تلجلج في قبوله : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[٦] " فهذا شرط الإيمان وحدّ الإسلام ، يقرره الله سبحانه بنفسه ويقسم عليه بذاته فلا

---

(١) الآيات ٤٤ و٤٥ و٤٧ من سورة المائدة . .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٢٨-٨٢٩ بتصرف يسير .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٨٩٥ .
(٤) المصدر السابق ٢/ ٦٩٤ وينظر: ٢/ ٦٨٧ .
(٥) في ظلال القرآن ٢/ ٨٩٥ وينظر : ٢/ ٨٩٨-٩٠١ ، ٩٧٠ ، ١١٨٤.
(٦) سورة النساء : الآية ٦٥ .

يبقى بعد ذلك قول لقائل في تحديد شرط الإيمان وحد الإسلام، ولا تأويل لمؤول، اللهم إلا مماحكة لا تستحق الاحترام، و تحكيم رسول الله - ﷺ- هو تحكيم شريعته ومنهجه ... فالتحاكم إلى شريعة الله وحكم رسوله و الرضى والقبول والتسليم هو الإسلام والإيمان . فلتنظر نفسه أين هي ، قبل ادعاء الإسلام والإيمان .." [١] ، ذلك أن " من لم يحكم بما أنزل الله كافر، ومن لم يرضى حكم الله لم يدخل في الإيمان، لأن حكم الله هو دينه ، وهو منهجه الذي ارتضاه للحياة ، وهو " الإسلام " الذي لا يقبل الله من الناس دينا سواه .." [٢] .

رابعًا: وقفات مع الانتقادات الموجهة لسيد قطب حول قضية الحاكمية:

وجهت إلى سيد كثير من الانتقادات حول مسالة الحاكمية سواء من العلمانيين أو من بعض الإسلاميين ويمكن استعراض هذه الانتقادات وبيانها فيما يأتي :

١ -أن مصطلح الحاكمية مصطلح مخترع لم يرد في الشرع :

يردد البعض أن " الحاكمية " مصطلح حادث لم يرد في القرآن الكريم ولا في السُّنَّة النبوية، فضلا عن إضافة هذا اللفظ إلى المولى-عزَّ وجلَّ- وأن أول من نادى بها واخترعها هو المودودي وتابعه سيد قطب " [٣] .

والواقع أنه من خلال استعراضنا فيما سبق لمعنى الحاكمية في اللغة و الشرع واصطلاح أهل الفنون ، ومن بيان حقيقة الحاكمية التي نادى بها المودودي وسيد قطب ، ظهر لنا أنهم يقصدون الحاكمية التشريعية بان يكون الله وحده هو المشرع لخلقه الذي يأمرهم وينهاهم ، ويحل لهم ويحرم عليهم ، وهذا المعنى ليس من ابتكار المودودي ولا سيد قطب ، بل أمر مقرر عند المسلمين جميعًا ومعلوم من الدين بالضرورة [٤]، ولهذا حين قال الخوارج لعلي- رضي الله عنه - " لا حكم إلا لله" لم يعترض - رضي الله عنه - على المبدأ ، وإنما اعترض على الباعث والهدف المقصود وراء الكلمة فقال" كلمة حق أريد بها باطل " .

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٦٩٦-٦٩٧ بتصرف ، وينظر ٢/ ٦٨٧.
(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ٣٤.
(٣) ينظر في ذلك : دعاة لا قضاة، للهضيبي ، ص ٩١ وما بعدها .
(٤) ينظر : بداية هذا المطلب ،النقاط :أولا وثانيا وثالثا .

والباحث في كتب الأصول والتفسير وغيرها يجد علماء الإسلام يتحدثون عن الحكم الشرعي والحاكم والمحكوم عليه ، ويقررون في بحثهم " أن لا حكم إلا لله، وأنه لا حكم للرسول ولا للسيد على العبد ولا لمخلوق على مخلوق ، بل كل ذلك حكم الله - تعالى - ووضعه لا حكم لغيره .. وان استحقاق نفوذ الحكم ليس إلا لمن له الخلق والأمر، أما غيره - سبحانه- فإنما تجب طاعته بإيجاب الله "[١] .

وقد مر معنا أن الحاكمية التي نادى بها سيد هي : ما تدل عليه النصوص الشرعية وكلام أهل السُّنَّة من وجوب إفراد الله بالحكم القدري والشرعي والطاعة المطلقة لله ولرسوله، وبالتالي لا مشاحّة في الاصطلاح مادام مضمون هذا المصطلح موافق لما جاء به الشرع وما عليه أهل العلم في هذا الباب .

والقول بان فكرة " الحاكمية " من اختراع المودودي وسيد قول جانبه الصواب كما سبق .

٢-أن سيد في مناداته بالحاكمية متابع للخوارج :

فالخوارج أول من رفع شعار " لا حكم إلا لله "[٢] ، ومن خلال النظر في معنى هذه الكلمة " لا حكم إلا لله " عند الخوارج ثم عند سيد قطب ، يتبين لنا مدى الاختلاف الجذري بينهما :

فالخوارج رفعوا شعار "لا حكم إلا لله" عند واقعة التحكيم بين علي ومعاوية - رضي الله عنهما - وكان أهل الشام عندما رأوا أنهم سيهزمون قد رفعوا المصاحف على الرماح ، فأشار الخوارج على علي- رضي الله عنه - بقبول التحكيم وضغطوا عليه حتى قبل، ثم لما تم التحكيم أعلنوا شعار " لا حكم إلا لله " وطلبوا التراجع عن التحكيم والقتال ، فلما أبى جعلوا من ذلك سببًا لتكفيره هو ومعاوية والحكمين- رضي الله عنهم - ومن معهم جميعًا[٣] ، وكان مقصدهم من رفع هذا الشعار، نفي أن يكون للناس

(١) المستصفى من علم الأصول، للإمام أبي حامد الغزالي ص ٢٨٥ وما بعدها بتصرف .
(٢) انظر : الأبعاد السياسية لمفهوم الحاكمية لهشام احمد عوض ص ٧٧ .
(٣) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ٧/ ٣٠٤ وفتح الباري ١٥/ ٣١٠ والفرق بين الفرق للبغدادي ص ٤٦-٤٨ .

أمير[١].

أما سيد – رحمه الله – فعندما نادى " بالحاكمية " ورفع شعار "لا حكم إلا لله" كان مقصده من ذلك إفراد الله – سبحانه – بالحكم القدري المتمثل بالخلق والإيجاد والتدبير، وبالحكم الشرعي المتمثل بإفراده – سبحانه – بحق الأمر والنهي والتحليل والتحريم والتشريع للبشر والانقياد لحكم الله وشرعه والتحاكم إليه في كل شؤون الحياة والرد إليه عند التنازع مع الرضى والتسليم ، وهذا يقتضي أن يكون للناس أمراء وحكامًا ، لكن مهمتهم ليست التشريع والتحليل والتحريم، إنما سلطانهم مستمد من طاعتهم الله وتنفيذهم لشرع الله "[٢] .

وبهذا ندرك الفرق بين شعار الخوارج " لا حكم إلا لله " وبين الشعار الذي رفعه سيد – رحمه الله– "لا حكم إلا لله " .

٣- أن فكرة الحاكمية عند سيد قطب هي نفس فكرة الدولة الثيوقراطية[٣] :

زعم بعض خصوم الحكم الإسلامي من العلمانيين أن مفهوم الحاكمية عند سيد – رحمه الله – يعني الدعوة إلى شريعة كونية ، وهي تماثل الحكومة الدينية في أوربا المعروفة بالثيوقراطية ،والتي تعني الحكم القائم على أساس التفويض الإلهي، فالحاكم لا يختاره الناس بل يختاره الله ويحكم باسم الله " .

والرد على هذا الادعاء يتلخص في الآتي :

أ- أن " الحاكمية " التي قال بها سيد وجعلها لله وحده ، لا تعني أن الله تعالى هو الذي يولي العلماء والأمراء يحكمون باسمه ، بل المقصود بها الحاكمية التشريعية التي تفرد الله بالأمر والنهي والتشريع وتستمد طاعتها من قيامها بشريعة الله ، أما تعيين الأمراء والولاة فهو حق للأمة المسلمة في ظل الضوابط الشرعية ، فالأمة هي التي تختار حكامها وهي التي تحاسبهم أو تعزلهم ، وبهذا يظهر الفرق الكبير بين المفهوم الثيوقراطي للحكم وبين " الحاكمية " التي نادى بها سيد قطب.

---

(١) الأبعاد السياسية لمفهوم الحاكمية لهشام عوض ص ٧٧ .

(٢) ينظر : معالم في الطريق ص ٢٦ ،٣٠، ٥٢ ، ٦٧ .

(٣) الثيوقراطية : مصطلح يوناني مكون من كلمتين هما " ثيو " ومعناه: إلهي و " كراتيس " ومعناه : حكم ، وهي تعني : " الحكم الديني والإلهي " أو " الحكم المقدس " .

ب- أن سيد نفسه يحارب فكرة الحكم الثيوقراطي في كتابة " معالم في الطريق " حيث قرر أن : " الحاكمية " حق لله وحده باعتباره الذي يخلق ويرزق ، وأن دين الله منهج حياة محدد بشهادة " أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله " ، وهو الأصل الذي يجب أن ترجع إليه الحياة البشرية وتقوم عليه .

وبالتالي ليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه : هذا شرع الله ، إلا أن تكون "الحاكمية" العليا لله معلنة ، وان يكون مصدر السلطات هو الله - سبحانه- ، لا "الشعب" ولا " الحزب " ولا أي من البشر ، وأن يرجع إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لمعرفة ما يريده الله .

ولا يكون هذه لكل من يريد أن يدعي سلطانا باسم الله ، كالذي عرفته أوربا ذات يوم باسم " الثيوقراطية " أو " الحكم المقدس " فليس شيء من هذا في الإسلام، وما يملك أحد أن ينطق باسم الله إلا رسوله ﷺ ، وإنما هنالك نصوص معينة هي التي تحدد ما شرع الله " (١).

ويقول أيضًا :" ومملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجالٌ بأعيانهم - هم رجال الدين - كما كان الأمر في سلطان الكنيسة ، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة ، كما كان الحال فيما يعرف باسم " الثيوقراطية " أو " الحكم الإلهي المقدس "!!! ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة .. وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة " (٢) .

وبهذا يظهر لنا أن " الحاكمية " التي دعا إليها سيد - رحمه الله - لا تعني "الحكم الثيوقراطي " كما زعم العلمانيون ، لأن الحكم الثيوقراطي المقدس الذي ساد أوربا خلال فترة سيطرة الكنيسة، يقوم على أن البابا وهو يحكم في أمور الدنيا ينطق باسم الله ، فما يحله البابا في الأرض يحله الله في السماء وما يحرمه الباباوات في الأرض يحرمه الله في السماء ، فالحكم الثيوقراطي قائم على أساس التفويض الإلهي ، فالحاكم لا يختاره الناس بل يختاره الله ، وبالتالي يحكم باسم الله ، وما يقوله أو يصدر عنه إنما يصدر عن الله الذي فوضه ، ولذلك كان الحاكم الديني في أوربا يملك صكوك

---

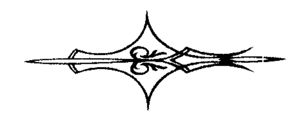
(١)معالم في الطريق ص ١٠٤-١٠٥ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ص ٦٨ .

الغفران والحرمان بتفويض من الله .

بينما الحاكمية التي دعا إليها سيد قطب- رحمه الله - تعنى حاكمية الشريعة، فالحكم في الإسلام محدد فيما بلغه الرسول ﷺ عن ربه من قرآن وسنة ، وأنه لا اجتهاد مع النص ،وأنه يرجع فيما لا نص فيه إلى الأصول المقررة والقواعد العامة ليستنبط منها الحكم .

كما أن الحاكم في الإسلام لا يختاره الله ، بل يختاره الناس طبقا لشروط القران الكريم والسُّنَّة ، وبالتالي ليس مفوضًا من الله أن يحكم باسمه ويحلل ويحرم ويشرع من عنده ، بل يستمد سلطانه وطاعته من طاعته هو لله وتنفيذ لأوامر الله وأحكامه [١].

والفرق جلي وواضح بين مفهوم الحاكمية التي دعا إليها سيد - رحمه الله - وبين مفهوم الحكم " الثيوقراطي" .



(١) معالم في الطريق ص ١٠٥ ، وأضواء على معالم في الطريق، للمستشار سالم البهنساوي ص ١٦٣- ١٦٤ .

الفصل الرابع

منهجه في نواقض التوحيد والإيمان

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث :

التمهيد : تعريف النواقض وأقسامها .

المبحث الأول : الشرك .

المبحث الثاني : الكفر .

المبحث الثالث : النفاق .





التمهيد
تعريف النواقض وأقسامها



أولًا : معنى النواقض في اللغة :

النواقض لغة : جمع ناقض، والناقض : اسم فاعل من النقض ، ويطلق على : إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء ، فهو بمعنى نكث الشيء ، وانتثار العقد ، وحل وإبطال المبرم ، وهدم وإزالة الشيء [١] .

ثانيًا : معنى النواقض في الاصطلاح :

من خلال ما سبق عرضه من معاني النقض في اللغة نستطيع أن نقول أن النواقض هي :

" الأمور التي تزيل الشيء وتقطعه وترفع حكمه وتبطله " .

ونواقض الإيمان هي : " اعتقادات أو أقوال أو أفعال تزيل الإيمان وتقطعه"[٢] بناء على أن الإيمان حقيقة مركبة من اعتقاد وقول وعمل .

ويطلق على نواقض الإيمان عدة أسماء منها:

١- نواقض الإيمان .
٢- نواقض الإسلام .
٣- نواقض التوحيد .
٤- الردة .
٥- المكفرات .

فهذه الأسماء تطلق على الأمور التي تنقض أصل الإيمان والتوحيد ويرتد بها صاحبها إلى الكفر والشرك ، ويخرج بها من الملة .

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٥/ ٤٧٠- ٤٧١ ، ولسان العرب لابن منظور ٧/ ٢٤٢ وتاج العروس للزبيدي ٥/ ٩٣ والمصباح المنير للفيومي ص ٧٦٢ .

(٢) انظر نواقض الإيمان القولية والعملية ،د.عبد العزيز العبد اللطيف- دار الوطن - الرياض ط ٣عام ١٤٢٧هـ ص ٤٩ .

أما المعاصي التي لا تنقض أصل الإيمان وإنما تنقصه فلا تسمى نواقض وإنما تسمى "نواقص" .

ثالثًا : أقسام النواقض :

اختلفت عبارات العلماء في تقسيم النواقض في الظاهر ، ولكنها ترجع في حقيقة الأمر إلى حقيقة واحدة متفق عليها عند الجميع ، وهي كل ما يناقض أصل الإيمان والتوحيد ويبطله .

وأشهر التقسيمات هي :

١- يقسمها البعض إلى : نواقض اعتقادية و نواقض قولية و نواقض عملية .

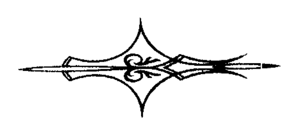
٢- ويقسمها آخرون إلى : الشرك - الكفر - النفاق .

٣- ويطلق عليها بعضهم اسمًا واحدًا هو : الردة.

وعند التحقيق في حقيقة الأقوال السابقة نجد أنها ترجع إلى شيء واحد هو : ما يخرج صاحبه من الإسلام سواء كان اعتقادًا أو قولًا أو عملًا ، شركًا كان أو كفرًا أو نفاقًا ، فالخلاف بينها لفظي فقط .

وبناءً على ما سبق سوف نعرض لمنهج سيد - رحمه الله - في باب نواقض التوحيد والإيمان معتمدين التقسيم الثاني للنواقض وهو : الشرك ، والكفر ، و النفاق .

وذلك من خلال المباحث الآتية :



المبحث الأول

الشـــرك

المطلب الأول

تعريف الشرك وبيان حقيقته



أولا: معنى الشرك في اللغة: يطلق الشرك في اللغة على عدة معانٍ منها:

الاقتران وعدم الإنفراد ، والاشتراك في الشيء بين اثنين وصاعدًا، وتسوية الشيء بغيره ، والحصة والنصيب ، والكفر وغيرها .[(١)]

ثانيا :معنى الشرك في الاصطلاح: تنوعت عبارات العلماء في تعريفهم للشرك إلى أكثر من عشرين تعريفاً، بعضها متقارب وبعضها متداخل وبعضها يكمل بعضًا ، ومن خلال استقرائها يمكن أن نعرف الشرك بأنه :

" أن يجعل لله - تعالى- ندًا أو شريكًا في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته، بحيث يصرف ما هو من خصوصياته - سبحانه- لغيره على وجه الاشتراك أو التفرد "[(٢)]

إذا : فحقيقة الشرك تتمثل في تشبيه المخلوق بالخالق - تعالى وتقدس - في خصائصه ، أو العكس ، أو إثبات شيء من خصائص الله - تعالى- لغيره ، أو التقرب إلى غيره - سبحانه - بشيء مما لا يتقرب به إلا إليه .

ولا يشترط في كون ذلك شركًا المساواة المطلقة بين الله وبين غيره ، بل المقصود مطلق الشراكة سواء كان الله - تعالى- مماثلًا فيها لغيره ، أو زائدًا عليه ، فالكل يتحقق به معنى الشرك على السواء [(٣)].

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/ ٢٦٥ ، لسان العرب لابن منظور ٧/ ٩٩ ، والمفردات للراغب، ص ٢٥٩ ، والشرك بالله أنواعه وأحكامه ، ماجد شبالة، ص ٣١-٣٥ .

(٢) الشرك بالله تعالى أنواعه وأحكامه ، ماجد شبالة ، ص ٣٨.

(٣) المصدر السابق ، نفسه .

المطلب الثاني
منهج سيد قطب في بيان الشرك وأنواعه

يمكن بيان منهج سيد – رحمه الله– فيما يتعلق بمسألة الشرك بالله فيما يأتي :

الفرع الأول : معنى الشرك وحقيقته :

يرى سيد – رحمه الله– أن حقيقة الشرك ومعناه يتمثل في اتخاذ آلهة مع الله -سبحانه- أو تقديم الشعائر لغير الله ، أو صرف شيء من خصائص الألوهية لغيره - سبحانه- وعدم إفراده بالتوجه والتلقي والطاعة و الخضوع والعبادة والحاكمية والتشريع والشعائر والشرائع ، ومن أقوال – سيد – في بيان حقيقة الشرك ما يلي :

١- يقول- رحمه الله- : " يقوم الشرك ابتداءً على إعطاء غير الله – سبحانه- شيئًا ما من خصائص الألوهية ومظاهرها ، وفي مقدمتها حق التشريع للعباد في شؤون حياتهم كلها ، وحق وضع القيم التي يتحاكم إليها العباد في سلوكهم وفي مجتمعاتهم ، وحق الاستعلاء على العباد وإلزامهم بالطاعة لتلك التشريعات والاعتبار لهذه القيم ، ثم تأتي مسألة العبادة الشعائرية ضمن إعطاء هذه الخصائص لغير الله سبحانه وواحدة منها " .[١]

٢- ويقول أيضًا : " والشرك بالله... يتحقق بعدم إفراد الله بخصائص الألوهية، والاعتراف لبعض البشر بهذه الخصائص ، كإشراك اليهود والنصارى الذي حكاه القرآن من أنهم:﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[٢]، ولم يكونوا عبدوهم مع الله ، ولكن كانوا فقط اعترفوا لهم بحق التشريع لهم من دون الله ، فحرموا عليهم وأحلوا لهم ، فاتبعوهم في هذا ... فحق عليهم وصف الشرك "[٣] . " إن الشرك بالله يتحقق بمجرد إعطاء حق التشريع لغير الله من عباده، ولو لم يصحبه شرك في الاعتقاد بألوهيته ، ولا تقديم الشعائر التعبدية له .. " .[٤]

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٤٩٢ .
(٢) سورة التوبة : الآية ٣١ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٧٥٩-٧٦٠ ، وينظر أيضًا ٢/ ٦٧٨ .
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٦٤٢ .

٣- ويقول : " فاتخاذ غير الله وليًا - بأي معنى - هو الشرك، قضية واحدة محددة، لا تقبل لينًا ولا تميعًا ، إما إفراد الله سبحانه بالتوجه والتلقي والطاعة والخضوع والعبادة والاستعانة، والإقرار له وحده بالحاكمية في كل أمر من هذه الأمور، ورفض إشراك غيره معه فيها، وولاء القلب والعمل ، في الشَّعيرة والشريعة له وحده بلا شريك ، إما هذا كله فهو الإسلام ، وإما إشراك أحدٍ من عباده معه في شيءٍ من هذا كله فهو الشرك ، الذي لا يجتمع في قلبٍ واحد معً الإسلام " .[١]

٤- ويقول أيضًا : " ولا نزال في حاجة إلى تقرير من هم المشركون؟ إنهم الذين يشركون بالله أحدًا في خصائص الألوهية ، سواء في الاعتقاد بألوهية أحد مع الله، أو بتقديم الشعائر التعبدية لأحد مع الله ، أو بقبول الحاكمية والشريعة من أحد مع الله ، ومن باب أولى من يدعون لأنفسهم واحدة من هذه مهما تسمَّوا بأسماء المسلمين ! ، فلنكن من أمر ديننا على يقين "[٢] .

٥- ويقول أيضًا: " إن الشرك بالله المخالف لشهادة "أن لا إله إلا الله " يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحدهً، ويكفي أن يدين العبد لله في جوانب من حياته ، بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير الله ، حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور الدينونة الكثيرة ، والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعي للشرك في أعماق طبيعته ، إن العبد الذي يتوجه لله بالاعتقاد في ألوهيته وحده ، ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر ، بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله ، ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات من صنع غير الله ، ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء مخالفة لشرع الله وأمره ، إن هذا العبد يزاول الشرك في أخص حقيقته ، ويخالف عن شهادة " أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله" في أخص حقيقتها، وهذا ما يغفل

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٥٤ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٩ ، وينظر أيضًا ٤/ ١٩٤٤.

عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخص وتميع ، وهم لا يحسبونه الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان "[١]

الفرع الثاني : نشأة الشرك وأسبابه :

أولاً: نشأة الشرك في البشرية :

إن المتتبع لتاريخ العقيدة كما يذكره القرآن الكريم والسُّنَّة الصحيحة يجد أن الأصل في بني آدم فطرة وتاريخًا هو التوحيد ، وأن الشرك إنما هو انحراف وشذوذ عن الأصل ، أما كونه الأصل فطرة : فقد دلت الأدلة على أن الله – سبحانه وتعالى – خلق الإنسان مفطورًا على التوحيد قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾[٢] ، وقوله –وتعالى– : ﴿ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[٣].

ويقول ﷺ : " كل مولود يُولد على الفطرة .... الحديث " .[٤]

وفي الحديث القدسي " إني خلقت عبادي حنفاء كلهم .... الحديث " .[٥]

وأما كون التوحيد هو الأصل تاريخيًا فيتضح ذلك من خلال النصوص الشرعية التي تثبت أن الناس في تاريخهم الطويل من آدم إلى نوح –عليهما السلام – كانوا على التوحيد الخالص ، حتى حدث ما حدث في قوم نوح . قال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[٦] أي : على التوحيد والدين الحق[٧] فاختلفوا ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ . فآدم –عليه السلام– كان أول الموحدين باعتباره نبيًا مكلمًا كما

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٢١١٤–٢١١٥ .

(٢) سورة الروم : الآية : ٣٠ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٧٢ .

(٤) رواه البخاري ، كتاب الجنائز ،باب إذا أسلم الصبي فمات ، ١/ ٤٥٦ برقم ١٢٩٢ ومسلم، في كتاب القدر، ٤/ ١٦٢٤ برقم ٢٦٥٨ .

(٥) رواه مسلم ، في كتاب الجنة ، ٤/ ١٧٤١، برقم ٢٨٦٥ .

(٦) سورة البقرة :الآية ٢١٣.

(٧) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٢٩

جاء في الحديث عن النبي ﷺ[١].

وبهذا يظهر خطأ القول بتطور العقيدة وعدم صحة نسبة الشرك إلى آدم وحواء عليهما السلام [٢].

أما سيد - رحمه الله - فيقرر أن التوحيد هو الأصل في البشرية فطرة ، وأن الشرك انحراف طارئ عن الفطرة وشذوذ عن الأصل ، ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ﴾ [٣]، يقول: " تعرض هنا قضية التوحيد من زاوية الفطرة التي فطر الله عليها البشر، وأخذ بها عليهم الميثاق في ذات أنفسهم وهم في عالم الذر، إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري ، فطرة أودعها الخالق في هذه الكينونة وشهدت بها على نفسها، أما الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى، إن التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى، فلا حجة لهم في نقض الميثاق -حتى لو لم يبعث إليهم بالرسل- ولكن رحمته وحدها اقتضت ألا يكلهم إلى فطرتهم هذه فقد تنحرف، ولا إلى عقولهم فقد تضل وأن يبعث إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل" [٤].

وبعد أن استعرض سيد -رحمه الله- أقوال العلماء في معنى الميثاق المأخوذ على بني آدم نقل مجموعة من الأحاديث الصحيحة التي أوردها الإمام إبن كثير في تقرير أن التوحيد هو الأصل في فطرة بني آدم ، وأن الشرك انحراف عن الفطرة [٥].

أما كون التوحيد هو الأصل في تاريخ البشرية فيقول سيد - رحمه الله- :" إن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية على يد آدم -عليه السلام- -أبي البشر الأول، ثم على يد نوح - عليه السلام- أبي البشر الثاني ، ثم بعد ذلك على يدي كل رسول..

(١) رواه أحمد ، ٥/ ٢٦٥ ، وابن حبان في صحيحة ، انظر : الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ، للفارسي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١- ١٩٩١م ، ١٤/ ٦٩ ، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٦٢ ، وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني ، انظر مشكاة المصابيح للتبريزي - تحقيق الشيخ الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ،ط ٣، ١٤٠٥ ، ٣/ ١٥٩٩.

(٢) انظر تفاصيل أوفى لما سبق في : الشرك بالله تعالى أنواعه وأحكامه ، ماجد شبالة ص ٤٦-٥٩ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ٢١٣ .

(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٩١ بتصرف يسير .

(٥) المصدر السابق ٣/ ١٣٩٢- ١٣٩٦ .

وأن الجاهلية.. كانت تطرأ على البشرية بعد معرفة الإسلام على أيدي الرسل- عليهم الصلاة والسلام - "[١] ، " فالإسلام هو الأصل الذي بدأت به حياة البشر على الأرض ، فهو الذي نزل به آدم من الجنة واستخلف في هذه الأرض وهو الذي نزل به نوح من السفينة واستخلف في هذه الأرض ، إنما كان الناس يخرجون من الإسلام إلى الجاهلية ، فتأتيهم الدعوة فتردهم إلى الإسلام ، وهكذا إلى يومنا هذا"[٢] ، " وإذن فقد هبط آدم إلى الأرض مسلماً لله متبعًا هداه ، وما من شك أنه علَّم بنيه الإسلام جيلًا بعد جيل، وأن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض، حيث لم تكن معها عقيدة أخرى! فإذا نحن رأينا قوم نوح وهم من ذرية آدم بعد أجيال قد صاروا إلى هذه الجاهلية فلنا أن نجزم أن هذه الجاهلية طارئة على البشرية بوثنيتها وأساطيرها وخرافاتها وأصنامها وتصوراتها وتقاليدها جميعًا وأنها انحرفت عن الإسلام إليها "[٣].

ولسيد نصوص كثيرة في تقرير هذه الحقيقة نخلص منها إلى الآتي :

١- أن سيد - رحمه الله- يقرر ما قررته النصوص الشرعية الواردة في الكتاب والسُّنَّة من أن التوحيد هو الأصل في بني آدم فطرةً وتاريخًا،وأن الشرك انحراف وشذوذ عن ذلك الأصل

٢- أنه يرفض ما قرره علماء الأديان من الغربيين من القول بتطور العقيدة وقد سبق معنا بيان موقفة من هذه القضية بالتفصيل في الباب الثاني[٤].

٣- أنه يرفض ما جاء في بعض الآثار من نسبة الشرك إلى آدم وحواء[٥] ، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفًا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٣-١٩٤٤ .

(٢) المصدر السابق ٤/ ١٩٠٣ وينظر أيضا ١/ ٣٨٤ .

(٣) المصدر السابق ٤/ ١٨٨٢ ، وينظر ٦/ ٣٧١٠ .

(٤) ينظر: المبحث الرابع - الفصل الأول - الباب الثاني ، و أيضا : في ظلال القرآن ٤/ ١٨٨٢-١٨٨٥ ، ١٩٦٣ .

(٥) انظر في ذلك : تفسير الطبري ٦/ ١٤١ - ١٤٢ ، وتفسير البغوي المسمى معالم التنزيل ، دار طيبة - الرياض ط٣ ١٩٩٥م . ٣/ ٣١٣ ، وتفسير ابن كثير ٤/ ١٥٢٨ .

ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [(١)]، حيث يقول : " إن بعض الروايات في التفسير تذكر هذه القصة على أنها قصة حقيقية وقعت لآدم وحواء ، إذ كان أبناؤهما يولدون مشوهين ، فجاء إليهما الشيطان فأغرى حواء أن تسمي ما في بطنها " عبد الحارث " ، والحارث اسم لإبليس ، ليولد صحيحًا ويعيش، ففعلت وأغرت آدم معها! وظاهرٌ ما في هذه الرواية من طابع إسرائيلي ، ذلك أن التصور الإسرائيلي المسيحي - المحرف - هو الذي يلقي عبء الغواية على حواء ، وهو مخالف تمامًا للتصور الإسلامي الصحيح .

ولا حاجة بنا إلى هذه الإسرائيليات لتفسير هذا النص القرآني ، فهو يصور مدارج الانحراف في النفس البشرية ، ولقد كان المشركون على عهد رسول الله - ﷺ - وقبله ، ينذرون بعض أبنائهم للآلهة ، أو لخدمة معابد الآلهة ! تقربًا و زلفى إلى الله ! ، ومع توجههم في أول الأمر إلى الله فإنهم بعد دحرجة من قمة التوحيد إلى درك الوثنية كانوا ينذرون لهذه الآلهة أبناءهم لتعيش وتصح وتوقى المخاطر! كما يجعل الناس اليوم نصيبًا في أبدان أبنائهم للأولياء والقديسين ، كأن يستبقوا شعر الغلام لا يحلق أول مرة إلا على ضريح ولي أو قديس ، أو أن يستبقوه بلا ختان حتى يختن هناك ، مع أن هؤلاء الناس اليوم يعترفون بالله الواحد ، ثم يتبعون هذا الاعتراف بهذه الاتجاهات المشركة ، والناس هم الناس ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [(٢)] .

" فالحديث في الآية عن قصة الانحراف في النفس - متمثلًا في قصة الزوجين - هو حديث كل شرك ! والمقصود به هو تنبيه المشركين إلى سخف ما هم عليه ، ولذلك ينتقل السياق من أسلوب القصة والحكاية إلى مواجهة المشركين بالخطاب المباشر كأنه امتداد للحديث السابق . [(٣)]

وهذا ما قرره كثير من المحققين وأهل العلم ، وهو ما يتفق مع النصوص

(١) سورة الأعراف : الآية ١٨٩- ١٩٠ .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٤١٢ - ١٤١٣.
(٣) المصدر السابق ٣/ ١٤١٥ بتصرف يسير .

الشرعية. [١]

ثانيًا: أسباب الشرك ودوافعه:

إذا كان التوحيد هو الأصل في البشرية فطرة وتاريخًا، والشرك انحراف وشذوذ عن هذا الأصل، فما هي الأسباب والدوافع التي تكمن وراء هذا الانحراف عن خط التوحيد والوقوع في الشرك؟

أشار سيد ـ رحمه الله ـ إلى بعض أسباب ودوافع الشرك منها:

١ ـ الشيطان ومكائده:

أشار سيد - رحمه الله- إلى أن آدم - عليه السلام -هبط إلى الأرض مسلمًا لله متبعًا لهداه، وأنه علم بنيه الإسلام جيلًا بعد جيل، وأن الجاهلية التي حدثت في قوم نوح طارئة على البشرية، وأن البشرية انحرفت عن الإسلام إليها بفعل الشيطان المسلط على بني آدم، وبفعل الثغرات الطبيعية في النفس البشرية، التي ينفذ منها الشيطان، كلما تراخوا عن الاستمساك بهدى الله وإتباعه وحده، فإذا انحرف الإنسان عن هدي الله اجتاله الشيطان حتى يقذف به -بعد أشواط - إلى مثل تلك الجاهلية الكالحة التي انتهت إليها ذراري آدم - النبي المسلم - بعد تلك الأجيال التي لا يعلمها إلا الله. [٢] " فالشيطان يستغل الضعف البشري وطبيعة التكوين المزدوج للإنسان، فيجتالهم عن الإسلام إلى الجاهلية " [٣]

" والشيطان وراء العدول عن شرع الله ودينه، إلى شرع الشركاء ودينهم، و هو العدو المبين الذي يقود خطى المشركين إلى الخسران والتدمير. [٤]

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا

---

(١) ينظر: تفسير الرازي ١٥/ ٧٢ الكشاف للزمخشري ٢/ ١٠٩ وتفسير ابن كثير ٤/ ١٥٢٨ وروضة المحبين لابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت ط١، ١٤١٤هـ، ص ٢٩٦، والشرك أنواعه وأحكامه للباحث ص ٥١- ٥٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٨٢ بتصرف يسير.

(٣) المصدر السابق ٤/ ١٩٤٥ بتصرف يسير.

(٤) المصدر السابق ٣/ ١١٨٤ .

وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾[1]، بين سيد – رحمه الله- تلاعب الشيطان بالمشركين فيقول:" لقد كان العرب – في جاهليتهم – يزعمون أن الملائكة بنات الله ، ثم يتخذون لها تماثيل يسمونها أسماء الإناث : " اللات والعزى ومناه " يعبدونها بوصفها تماثيل لبنات الله في أول الأمر، ثم ينسون أصل الأسطورة ويعبدون الأصنام ذاتها ، بل يعبدون جنس الحجر.. وبعضهم كان يعبد الشيطان نصًا ، فقد كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن .

ويوضح سيد – رحمه الله- أن النص هنا أوسع مدلولًا ، فالمشركون في شركهم كله إنما يدعون الشيطان، ويستمدون منه، هذا الشيطان صاحب القصة مع أبيهم آدم، الذي لعنه الله بسبب معصيته وعدائه للبشر، والذي بلغ من حقده بعد طرده ولعنته أن يأخذ من الله – سبحانه – إذنًا بأن يغوي من البشر كل من لا يلجأ إلى حمى الله ...

فالمشركون يدعون الشيطان- عدوهم القديم- ويستوحونه ويستمدون منه هذا الضلال ، وشعور الإنسان بأن الشيطان -عدوه القديم- هو الذي يأمر بهذا الشرك وتوابعه من الشعائر الوثنية يثير في النفس الحذر منه ومن استهوائه الذي يصرف الفطرة من التوحيد إلى الشرك "[2].

لذلك جاء التحذير الإلهي في القرآن الكريم من الشيطان ومكائده ، حتى لا يوقع البشر في الشرك والضلال بعد أن هداهم الله إلى التوحيد .

٢- اتخاذ الرمز " الميل إلى الإيمان بالمحسوس " :

بيَّن سيد – رحمه الله- أن حدوث أول شرك في البشرية في قوم نوح كان بإغواء الشيطان لهم من خلال اتخاذهم الأصنام في بادئ الأمر أنصابا ترمز إلى قوى قدسوها غيبية أو مشهودة ، ثم نسوا الرمز وعبدوا الأصنام، وأشهرها تلك الخمسة

(١) سورة النساء : الآية ١١٦ -١١٩ .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٧٦٠- ٧٦١ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٧١ .

التي ورد ذكرها في – سورة نوح – ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرا "[١]

وكذلك كان حال المشركين في الجاهلية أيضًا ، من اتخاذ الأصنام رمزًا للملائكة حينًا ، وللآباء والأجداد حينا آخر، فالازدواج في عقائد المشركين بين الأصنام الظاهرة ، والرموز الباطنة هو – فيما نحسب – سبب مخاطبتهم هكذا عن هذه الآلهة : مرة بضمير العاقل ملحوظًا فيها ما وراء الأصنام من الرمز ، ومرة بالإشارة المباشرة إلى الأصنام ذاتها "[٢].

٣ـ التقليد :

وهو من الأسباب والعوامل التي أدت إلى انتشار المظاهر الشركية في تاريخ البشر واستمرارها أيضًا، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تبين ذلك منها قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾[٤] وغيرها .

وقد أشار سيد – رحمه الله– في ظلال هذه الآيات وغيرها إلى أنها أنهاتندد بالتقليد في العقيدة وتلقي شيء من أمر العقيدة من غير الله ، وتصور المشركين في تقليدهم لآبائهم في الشرك بالبهائم[٥]، وأن مقولتهم تلك تدعو إلى السخرية فوق أنها متهافتة لا تستند إلى قوة ،إنها مجرد المحاكاة ومحض التقليد بلا تدبر ولا تفكر ولا حجة ولا دليل، وهي صورة مزرية تشبه صورة القطيع يمضي حيث هو منساق ولا يسأل : إلى أين نمضي ؟ ولا يعرف معالم الطريق .

٤ـ الغلو في الصالحين وتقديسهم :

فالمبالغة في الإعجاب قد يصل إلى الغلو والتقديس ، ثم إلى الشرك ومن هذا اللون من الانحراف نشأت كثير من صور الشرك في البشرية ، كشرك قوم نوح وشرك أهل الكتاب بسبب تعظيمهم لـ " عُزير" و " للمسيح " ، حتى غلوا فيهما

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧١٠ .
(٢) المصدر السابق ٣/ ١٤١١٥ بتصرف يسير.
(٣) سورة الزخرف : الآية ٢٣ .
(٤) سورة البقرة : الآية ١٧٠ .
(٥) في ظلال القرآن ١/ ١٥٥ بتصرف .

ونسبوهما أبناء لله- تعالى وتقدس - وكذا تقديسهم لأحبارهم ورهبانهم حتى أطاعوهم فيما أحلوا وحرموا خلافا لأمر الله ، وكشرك الجاهلين في تعظيمهم للملائكة والجن وتقديسهم على اعتبار أنهم أبناءٌ لله وبنات ، وكشرك الوثنيين الذين قدسوا الكواكب والأجرام السماوية باعتبارها رموزًا لقوى غيبيه وكان تحريف مله إبراهيم -عليه السلام- - في نهاية الأمر بسبب تعظيم العرب لعمر بن لحي الخزاعي وإعجابهم به وطاعته في ما أبتدعه لهم من مظاهر الشرك [(١)].

وقد أشار سيد إلى هذا السبب كثيرًا ومن ذلك قوله : " ولعل أول خطوة في الانحراف عن التوحيد كانت هي تعظيم ذكرى الفئة المؤمنة القليلة التي حملت في السفينة مع نوح ، ثم تطور هذا التعظيم جيلا بعد جيل ، فإذا أرواحهم مقدسة تتمثل في أشجار وأحجار نافعة ثم تتطور هذه الأشياء فإذا هي معبودات، وإذا وراءها كهنه وسدنه يُعبِّدون الناس للعباد منهم باسم هذه المعبودات المدعاة في صورة من صور الجاهلية الكثيرة ، ذلك أن الانحراف خطوة واحدة عن نهج التوحيد المطلق الذي لا يتجه بشعور التقديس لغير الله ، ولا يدين بالعبودية إلا لله وحده الانحراف خطوة واحدة لابد أن تتبعه مع الزمن خطوات وانحرافات لا يعلم مداها إلا الله " [(٢)].

٥ـ الأوهام والظنون والحكايات والأساطير التي لا تستند إلى العقل:

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم يلاحظ أن الله -تعالى- يخبر في كثير منها أن من أسباب وجود الشرك في البشرية هو انحرافهم عن منهج التفكير السليم، واعتمادهم على الأوهام والظنون والأساطير ، والتي تتحول إلى حقائق وعقائد عند المشركين وليس لها من الحقيقة نصيب ..[(٣)] ومن أوهامهم في تبرير الشرك إحالتهم ما يفعلونه من الشرك على المشيئة الإلهية خبطًا ، واعتمادًا على الأوهام والظنون . [(٤)]

(١) ينظر: الشرك بالله تعالى أنواعه وأحكامه . للباحث ص٧٦ وما بعدها .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٨٩٦ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٧٦٠ ، ٣/ ١٨٠٤ ، ٥/ ٣٠٣٧ .
(٤) المصدر السابق ٣/ ١١٨٤ ، ٥/ ٣١٨٢ ،٦/ ٣٢٥٥ ،ومقومات التصور الإسلامي ص١٦٤ -١٦٥ ..

٦ـ الكبر والطغيان والخوف على المصالح والشهوات :

من أسباب وجود الشرك واستمراره ووجود الطغاة الذين يتكبرون على الحق ويُعبدون الناس لشهواتهم من خلال وضع التشريعات والنظم التي تخالف أمر الله، ويأمرون بالشرك فيطاعون خوفًا من البطش ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾[١] ، فالكبر والخوف على المصالح حمل المشركين على الاستمرار بالشرك وعدم الدخول في الإسلام[٢] ، والشهوات والأهواء والتظليل والخداع هو الذي يوقع البشر في الشرك .[٣]

٧ـ انحسار مفهوم التوحيد والعبادة :

" إن انحسار معنى الألوهية و العبادة ، يؤدي بالناس إلى الشرك وهم يحسبون أنهم في دين الله، كما هو الحال اليوم في كل بلاد الأرض ، بما فيها البلاد التي يتسمى أهلها بأسماء المسلمين، ويؤدون الشعائر لله ، بينما أربابهم غير الله لأن ربهم هو الذي يحكمهم بسلطانه وشريعته وهو الذي يدينون له ويخضعون لأمره ونهيه ، ويتبعون ما يشرعه لهم .[٤]

" ولما بهت مدلول "الدين" ومدلول "العبادة" في نفوس الناس صاروا يفهمون أن عباده غيرا لله التي يخرج بها الناس من الإسلام إلى الجاهلية هي فقط تقديم الشعائر التعبدية لغير الله ، كتقديمها للأصنام والأوثان ، ومتى تجنب الإنسان هذه الصورة فقد بعد عن الشرك والجاهلية وأصبح "مسلما" لا يجوز تكفيره ... وهذا وهم باطل، وانحسار وانكماش ، بل تبديل وتغيير في مدلول لفظ (العبادة) .[٥]

الفرع الثالث : أقسام الشرك وصوره بين القديم والحديث :

" القاعدة التي يقوم عليها بناء العقيدة .. تقوم قبل كل شيء على أنه يجب أن

---

(١) سورة سبأ : الآية ٣٣ .

(٢) ينظر في ظلال القرآن ٤/ ١٤١٤، ١٨١٤ ، ٥/ ٢٩٧٦ ، ٦/ ٣٧١٦- ٣٧١٧ .

(٣) المصدر السابق ١٤١٤ .

(٤) المصدر السابق ٣/ ١٧٦٣- ١٧٦٤ .

(٥) المصدر السابق ٣/ ١٩٠٢- ١٩٠٣ بتصرف يسير، وينظر أيضا ٣/ ١٩٤٥ ، ٥/ ٢٩٧٦، ٣٠٢٧.

يعترف الناس ابتداء بربوبية الله وحده لهم في حياتهم كما يعترفون بألوهيته وحده في عقيدتهم فلا يشركون معه أحدا في ألوهيته وربوبيته ،ويعترفون له وحده بأنه المتصرف في شؤون الكون في عالم الأسباب والأقدار ،والمتصرف في حسابهم وجزائهم يوم الدين ،والمتصرف في شؤون العباد في عالم الحكم والشريعة كلها سواء، وتنقية المجتمع من تقاليد الجاهلية ، وتنقية الحياة من عبودية العباد للعباد[1].

وهذا الاعتراف يقوم على مدلول الإسلام الأساسي وهو يشمل ثلاثة أمور :

- الاعتقاد بألوهية الله وحده ، وتقديم الشعائر التعبدية لله وحده ، والدينونة والإتباع والطاعة والخضوع في أمور الحياة كلها لله وحده ، فبدونها لا يكون إسلامًا، وتخلف أحدها كتخلفها جميعا يخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية ويصفهم بالكفر أو الشرك قطعا[2] .

وهذا الأمر أصل من الأصول المعلومة من الدين بالضرورة ،[3] ومن هذا المنطلق كان حديث سيد- رحمه الله- عن صور الشرك وأقسامه في القديم و الحديث في أكثر من موضع ومناسبة ، ويمكن بيان ذلك فيما يأتي :

أولًا : أقسام الشرك وصوره :

تحدث سيد ـ رحمه الله ـ عن أقسام الشرك وصوره من عدة نواحي :

أ- **من حيث ظهوره وخفائه :** حيث يقسم الشرك من هذه الناحية إلى شرك ظاهر وخفي . فالشرك الظاهر :هو اتخاذ آلهة غير الله سبحانه وتعالى بتقرب إليها بذاتها أو جعلها وسائط تقرب إلى الله كما كان الحال في شرك الجاهلية وكذا الدنيوية لغير الله والتلقي من غير الله سبحانه وتعالى أما الشرك الخفي : فهو ما يلحظ فيه غير الله ، وقد لا يتنبه إليه كثير من الناس وفي بيان هاتين الصورتين من صور الشرك يقول- سيد -: "..بعضهم يشرك الشرك الظاهر الغليظ الساذج ، كشرك الجاهلية الأولى ، وبعضهم يشرك الشرك الخفي المستتر المعقد ، فيثقل في حسه سلطان العبيد على سلطان الله ، ويخشى الناس على حياته ورزقه ومكانته ومصالحه ، والله

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٢٩ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٤/ ١٩٤٦ بتصرف يسير .
(٣) مقومات التصور الإسلامي ص١٥١ .

أحق أن يخشاه " .[١]

ويقول : "والقرآن يندد بما كان عليه الجاهليون الذين يتخذون الأصنام آلهة ، إما لذاتها وإما باعتبارها تماثيل للملائكة ، وبعضهم يتخذ الأشجار، وبعضهم يتخذ الملائكة مباشرة أو الشيطان ... ويصفهم بالضلال ، ومع ذلك فالشرك ليس مقصورًا على صوره الساذجة التي عرفها المشركون القدامى ، فكم من مشركين يشركون مع الله ذوي سلطان، أو ذوي جاه، أو ذوي مال ويرجون فيهم ويتوجهون إليهم بالدعاء ، وكلهم أعجز من أن يستجيبوا لدعائهم استجابة حقيقية وكلهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ، ودعاؤهم شرك ، والرجاء فيهم شرك ، والخوف منهم شرك ، ولكنه شرك خفي يزاوله الكثيرون وهم لا يشعرون " .[٢]

وفي ظلال قوله تعالى:﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[٣]

يقول:"مشركون قيمة من قيم الأرض في تقديرهم للأحداث والأشياء والأشخاص .

- مشركون سببًا من الأسباب مع قدرة الله في النفع أو الضر سواء .
- مشركون في الدينونة لقوة غير قوة الله من حاكم أو موجه لا يستمد من شرع الله دون سواه .
- مشركون في رجاء يتعلق بغير الله من عباده على الإطلاق .
- مشركون تضحية يشوبها التطلع إلى تقدير الناس .
- مشركون في جهاد لتحقيق نفع أو دفع ضر ولكن لغير الله .
- مشركون عبادة يلحظ فيها وجه مع وجه الله .

لذلك يقول رسول الله -ﷺ -"الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل"[٤] .

---

(١) الإسلامي التصور مقومات ص٣١١.
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٥٥- ٣٢٥٦ بتصرف .
(٣) سورة يوسف : الآية١٠٦ .
(٤) رواه الحاكم ٢/ ٢٩٠ وأبو نعيم في الحلية ٨/ ٣٦٨ ،وصححه الألباني بشواهده في السلسلة الصحيحة ٨/ ٢٣١ برقم ٣٧٥٥ .

وفي الأحاديث نماذج من هذا الشرك الخفي :

١- قال - ﷺ -: "من حلف بغير الله فقد أشرك "[١] .

٢- وقال- ﷺ- : " إن الرقى والتمائم شرك "[٢] .

٣- وقال- ﷺ - : " من علق تميمة فقد أشرك "[٣] .

٤- وقال- ﷺ - : " يقول الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه "[٤] .

٥- وقال- ﷺ-: " إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، ينادي مناد : من أشرك في عمل عمله لله ، فليطلب ثوابه من عند غير الله فان الله أغنى الشركاء عن الشرك "[٥] .

٦- قال-ﷺ-: **"إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر "** قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال : **"الرياء" يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء "**[٦].

فهذا هو الشرك الخفي الذي يحتاج إلى اليقظة الدائمة للتحرز منه ليخلص الإيمان، وهناك الشرك الواضح الظاهر، وهو الدينونة لغير الله في شأن من شؤون الحياة، الدينونة في شرع يتحاكم إليه -وهو نص في الشرك لا يجادل عليه -.."[٧].

ب- من حيث ماهيته وتعلقه بالتوحيد :

حقيقة وماهية التوحيد عند سيد - رحمه الله- تقوم على إفراد الله -سبحانه-

---

(١) رواه الترمذي ٤/ ٢٩ برقم ١٥٣٥ وقال حديث حسن ، وصححه الألباني ، في السلسلة الصحيحة ، ٥/ ٦٩ برقم ٢٠٤٢ .

(٢) رواه أحمد ١/ ٩٨١ وأبو داود في الطب ٤/ ١٢١ برقم ٣٨٨٣ وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٢/ ٤٦٧ رقم ٣٣١.

(٣) رواه أحمد٤/ ١٥٦ والحاكم ٤/ ٢١٩ وحسنه الأرناؤط في تحقيق مسند أحمد ٢٨/ ٦٣٧ .

(٤) رواه مسلم في الزهد باب من أشرك في عمله غير الله ٤/ ١٨١٠ برقم ٢٩٨٥ .

(٥) رواه الترمذي في التفسير . ٥/ ٢٩٤ برقم ٣١٥٤ وابن ماجه ٤/ ٦٩٨ برقم ٤٢٠٣ وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/ ١٢٠ برقم ٣٣ ، مكتبة المعارف - الرياض ط١ عام ١٤٢١ هـ .

(٦) رواه أحمد٥/ ٤٢٨ وحسنه الأرناؤط ٣٩/ ٣٩ .

(٧) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٣٢-٢٠٣٣ بتصرف يسير ، وينظر : ٣/ ١٢٢٨ .

بالاعتقاد، والتقدم إليه وحده بالشعائر التعبدية ، والتلقي منه وتحكيم وطاعة شريعته وحده ، والشرك نقيض ذلك [١] .

فالشرك إذًا من حيث ماهيته وتعلقه بالتوحيد ينقسم إلى :

١- شرك في الاعتقاد بغير الله .

٢- شرك في التقرب إلى غير الله بالشعائر التعبدية .

٣- وشرك في الحاكمية وتلقي الشرائع من غيره - سبحانه- وهذه الصور والأنواع الموجودة في البشر قديمًا وحديثًا .

" ولم يكن الناس فيما عدا أفراد معدودة في فترات قصيرة ينكرون مبدأ الألوهية ويجحدون وجود الله البتة ، إنما كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق ، أو يشركون مع الله آلهة أخرى . -"إما في صورة الاعتقاد والعبادة، وإما في صورة الحاكمية والإتباع، وكلاهما شرك كالآخر يخرج به الناس من دين الله الذي كانوا يعرفونه على يد كل رسول ثم ينكرونه إذا طال عليهم الأمد ، ويرتدون إلى الجاهلية التي أخرجهم منها ويعودون إلى الشرك بالله مرة أخرى ، إما في الاعتقاد والعبادة ، وإما في الإتباع والحاكمية ، وإما فيهما جميعًا " [٢] .، " إن جاهلية العرب لم تكن تجحد الله البتة، ولم تكن تجعل معه إلهًا آخر يساويه، ولكنها كانت تجعل معه آلهة -من دونه - شفعاء يقربونهم إلى الله.. وكان من شركهم أن يبتدعوا من عند أنفسهم -بواسطة كهانهم ومشايخهم - شرائع وتقاليد في حياتهم ، ثم يزعمون أن الله شرعها لهم وأمرهم بها ، ولم يكونوا من التبجح في الشرك بحيث ينسبون هذه الشرائع لأنفسهم ، ويدعون أن لهم سلطة الحاكمية العليا التي يصدرون بها الشرائع مستقلين عن سلطان الله ! كما يتبجح به مشركو هذا الزمان ... " [٣] .

" لذلك لم يكن الإسلام يواجه في الجاهلية العربية إلا الانحراف في التوجه بالشعائر التعبدية لآلهة -مع الله- على سبيل الزلفى والقربى من الله ! - وإلا الانحراف في تلقي الشرائع والتقاليد التي تحكم حياة الناس ... وهذا هو الشرك

(١) المصدر السابق ٣/ ١٤٩٢ .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥٥ ومعالم في الطريق ص٥٢ ، مقومات التصور الإسلامي ص ١٦٧ .
(٣) المصدر السابق ٣/ ١١٨٣ بتصرف يسير ، ٦/ ٣٩٩٠ .

التقليدي الأساسي الذي قامت عليه الجاهلية العربية ، وكل الجاهليات أيضًا!" [(١)] .

ويلخص سيد – رحمه الله- أقسام الشرك وصورة المندرجة تحتها فيقول: "وسواءٌ أن يعتقد الإنسان في ضميره أن ليس هناك إله ، أو أن هناك آلهة مع الله ، أن لله أبناءً وأصهارًا ، أو أن الإله هو هذا الحجر أو هذا القمر ... سواءٌ أن يعتقد الإنسان في ضميره شيئًا من هذا كله ، وأن يتوجه بالشعائر التعبدية إلى غير الله – معه أو من دونه – وأن يحكم بغير شريعة الله ، وأن يتقبل الحكم والشرائع من غير الله – معه أو من دونه – وأن يتحاكم إلى غير شرع الله – إلا هو منكر لا يملك غير إنكار القلب واللسان- فكل هذه سواء في أنها تنفي عن صاحبها صفة الإيمان ، وتخرجه من الإسلام وبالنصوص المحكمة والأحكام المعروفة بالضرورة من هذا الدين " [(٢)] . وعمومًا فسيد – رحمه الله- يقرر أن الشرك ألوان وأنماط كثيرة، والمشركون منهم من يشركون الجن ، ومنهم من يشركون الملائكة ، ومنهم من يشركون الأجداد والآباء ، ومنهم من يشركون الملوك والسلاطين ، ومنهم من يشركون الكهان والأحبار، ومنهم من يشركون الأشجار والأحجار، ومنهم من يشركون الكواكب والنجوم ، ومنهم من يشركون النار، ومنهم من يشركون الليل والنهار، ومنهم من يشركون القيم الزائفة والرغبات والأطماع ، ... لا تنتهي أنماط الشرك وأشكاله "[(٣)].

ثانيًا: صور الشرك بين القديم والحديث:-

وعن وجود هذه الصور والأنواع من الشرك في هذا العصر يقرر سيد – رحمه الله- أن هناك تشابهًا كبيرًا بين ما كان يزاوله المشركون في الجاهلية وبين ما يزاوله بعض الناس اليوم من صور الشرك ، بل توسعت صور الشرك ومظاهره في هذا العصر كثيرًا .

– فأهل الجاهلية كانوا يعترفون – بمقتضى الفطرة – أن الله هو الخالق الرازق وحده ، لكنهم كانوا يخالفون منطق الفطرة في إفراد الخالق بالعبادة وفي إخلاص

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١١٦٣ وينظر ٣/ ١٤١٤ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ١١٧.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٦٨ .

الدين لله بلا شريك ، و يبتدعون أسطورة بنوة الملائكة لله سبحانه ، ثم يصوغون لها تماثيل يعبدونها مثل : اللات والعزى ومناة ، بزعم أنها تقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم عنده ، ...

وإن البشرية لتنحرف عن منطق الفطرة كلما انحرفت عن التوحيد الخالص البسيط الذي جاء به الإسلام ، وإنا لنرى اليوم في كل مكان عبادة للقديسين والأولياء تشبه عبادة العرب الأولين للملائكة أو تماثيل الملائكة تقربًا إلى الله بزعمهم وطلبًا لشفاعتهم عنده "[1]. " فيقعون في الشرك - بعبادتهم مع الله-غيره- وهم يحسبون أنهم مسلمون! ماداموا لم يجحدوا وجوده ولم يتركوا عبادته "[2].

" ومن ذلك أيضا : أن الجاهليين مع اعترافهم بوجود الله - سبحانه- وأنه الخالق الرازق ، كانوا مع هذا الاعتراف يزاولون التحريم والتحليل لأنفسهم فيما رزقهم الله - كما يزاول ذلك اليوم ناس يسمون أنفسهم " المسلمين! " - وهذا القرآن يواجههم بهذا التناقض بين ما يعترفون به من وجود الله ومن أنه الخالق الرازق، وما يزاولونه في حياتهم من ربوبية لغير الله تتمثل في التشريع الذي يزاوله نفر منهم! وهو تناقض صارخ يدمغهم بالشرك، كما يدمغ كل من يزاول هذا التناقض اليوم وغدًا وإلى آخر الزمان مهما اختلفت الأسماء واللافتات ، فالإسلام حقيقة واقعة لا مجرد عنوان! "[3].

" و يوجد من الناس من يتخذ مع الله أو من دونه آلهة أخرى ، كانت في الماضي أصنامًا و أوثانًا أو شجرًا أو نجومًا أو ملائكةً أو جنًا،والوثنية ما تزال حتى اليوم في بعض بقاع الأرض .

ولكن الذين لا يعبدون هذه الآلهة لم يخلصوا للتوحيد ، وقد يتمثل شركهم اليوم في الإيمان بقوى زائفة غير قوة الله ، وفي اعتمادهم على إسناد أخرى غير الله ، والشرك ألوانٌ ، تختلف باختلاف الزمان والمكان .

لقد كانوا يتخذون تلك الآلهة يبتغون أن ينالوا بها النصر، بينما كانوا هم الذين

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٠٣٧ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٤/ ١٩٣٥.
(٣) المصدر السابق ٣/ ١٨٠٢.

يقومون بحماية تلك الآلهة وكان هذا غاية في سخف التصور والتفكير .

غير أن غالبية الناس اليوم لم ترتق عن هذا السخف إلا من حيث الشكل، فالذين يؤلهون الطغاة والجبارين اليوم لا يبعدون كثيرًا عن عُبَّاد تلك الأصنام والأوثان ، فهم جند محضرون للطغاة . وهم الذين يدفعون عنهم ويحمون طغيانهم ، ثم هم في الوقت ذاته يخرون للطغيان راكعين! .

إن الوثنية هي الوثنية في شتى صورها ، وحيثما اضطربت عقيدة التوحيد الخالص أيَّ اضطراب جاءت الوثنية ، وكان الشرك ، وكانت الجاهلية! " [(١)] .

ويشير -سيد - رحمه الله- إلى قضية الأصنام وحقيقتها قديما وحديثا كصورة من صور الشرك فيقرر : أن عبادة الأصنام التي دعا إبراهيم -عليه السلام- ربه أن يجنبه هو وبنيه إياها ، لا تتمثل فقط في تلك الصورة الساذجة التي كان يزاولها العرب في جاهليتهم ، أو التي كانت تزاولها شتى الوثنيات في صور شتى، مجسمة في أحجار أو أشجار، أو حيوان أو طير، أو نجم أو نار، أو أرواح أو أشباح . .

إن هذه الصور الساذجة كلها لا تستغرق كل صور العبادة للأصنام من دون الله، والوقوف بمدلول الشرك عند هذه الصور الساذجة يمنعنا من رؤية صور الشرك الأخرى التي لا نهاية لها، ويمنعنا من الرؤية الصحيحة لحقيقة ما يعتور البشرية من صور الشرك والجاهلية الجديدة!.

ولا بد من التعمق في إدراك طبيعة الشرك وعلاقة الأصنام بها، كما أنه لا بد من التعمق في معنى الأصنام، وتَمَثُّل صورها المتجددة مع الجاهليات المستحدثة !.

إن الشرك بالله المخالف لشهادة "أن لا إله إلا الله" يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحده ، ويكفي أن يدين العبد لله في جوانب من حياته بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير الله حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته. وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور الدينونة الكثيرة .

والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعي للشرك في أعماق

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٧٦ بتصرف يسير .

طبيعته .

- إن العبد الذي يتوجه لله بالاعتقاد في ألوهيته وحده، ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر، بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله، ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات ، من صنع غير الله ، ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء مخالفة لشرع الله وأمره.

إن هذا العبد يزاول الشرك في أخص حقيقته، ويخالف عن شهادة" أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله " في أخص حقيقتها.. وهذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخص وتميع، وهم لا يحسبونه الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان!.

- والأصنام.. ليس من الضروري أن تتمثل في تلك الصور الأولية الساذجة.. فالأصنام ليست سوى شعارات للطاغوت ، يتخفى وراءها لتعبيد الناس باسمها، وضمان دينونتهم له من خلالها.

- إن الصنم لم يكن ينطق أو يسمع أو يبصر.. إنما كان السادن أو الكاهن أو الحاكم يقوم من ورائها، يتمتم حولها بالتعاويذ والرقى. . ثم ينطق باسمها بما يريد هو أن ينطق لتعبيد الجماهير وتذليلها! .

- فإذا رفعت في أي أرض وفي أي وقت شعارات ينطق باسمها الحكام والكهان، ويقررون باسمها ما لم يأذن به الله من الشرائع والقوانين والقيم والموازين والتصرفات والأعمال ، فهذه هي الأصنام في طبيعتها وحقيقتها ووظيفتها ! .

-إذا رفعت " القومية " شعارًا، أو رفع " الوطن " شعارًا، أو رفع " الشعب " شعارًا، أو رفعت " الطبقة " شعارًا.. ثم أريد الناس على عبادة هذه الشعارات من دون الله، وعلى التضحية لها بالنفوس والأموال والأخلاق والأعراض، بحيث كلما تعارضت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعليماته مع مطالب تلك الشعارات ومقتضياتها ، نحيت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعاليمه ، ونفذت إرادة تلك

الشعارات- أو بالتعبير الصحيح الدقيق : إرادة الطواغيت الواقفة وراء هذه الشعارات- كانت هذه هي عبادة الأصنام من دون الله .

- فالصنم ليس من الضروري أن يتمثل في حجر أو خشبة، ولقد يكون الصنم مذهبًا أو شعارًا! .

إن الإسلام لم يجيء لمجرد تحطيم الأصنام الحجرية والخشبية ! ولم تبذل فيه تلك الجهود الموصولة ، من موكب الرسل الموصول، ولم تقدم من أجله تلك التضحيات الجسام وتلك العذابات والآلام ، لمجرد تحطيم الأصنام من الأحجار والأخشاب!.

إنما جاء الإسلام ليقيم مفرق الطريق بين الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن، وبين الدينونة لغيره في كل هيئة وفي كل صورة ، ولا بد من تتبع الهيئات والصور في كل وضع وفي كل وقت لإدراك طبيعة الأنظمة والمناهج القائمة ، وتقرير ما إذا كانت توحيدًا أم شركًا؟ دينونة لله وحده أم دينونة لشتى الطواغيت والأرباب والأصنام! .

والذين يظنون أنفسهم في " دين الله " لأنهم يقولون بأفواههم " نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله " ويدينون لله فعلًا في شؤون الطهارة والشعائر والزواج والطلاق والميراث.. بينما هم يدينون فيما وراء هذا الركن الضيق لغير الله، ويخضعون لشرائع لم يأذن بها الله - وكثرتها مما يخالف مخالفة صريحة شريعة الله- ثم هم يبذلون أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وأخلاقهم - أرادوا أم لم يريدوا - ليحققوا ما تتطلبه منهم الأصنام الجديدة .

فإذا تعارض دين أو خلق أو عرض مع مطالب هذه الأصنام، نبذت أوامر الله فيها ونفذت مطالب هذه الأصنام. .

الذين يظنون أنفسهم " مسلمين " وفي " دين الله " وهذا حالهم ،عليهم أن يستفيقوا لما هم فيه من الشرك العظيم!!!.

إن دين الله ليس بهذا الهزال إنه منهج شامل للحياة ،ودينونة لله وحده في كل جزئيات الحياة .

وإن الشرك بالله لا يتمثل فحسب في الاعتقاد بألوهية غيره معه، ولكنه يتمثل ابتداءً في تحكيم أرباب غيره معه ، وعبادة الأصنام لا تتمثل في إقامة أحجار وأخشاب، بقدر ما تتمثل في إقامة شعارات لها كل ما لتلك الأصنام من نفوذ ومقتضيات! .

ولينظر الناس في كل بلد لمن المقام الأعلى في حياتهم ؟ ولمن الدينونة الكاملة ؟ ولمن الطاعة والإتباع والامتثال ؟ فإن كان هذا كله لله فهم في دين الله ، وإن كان لغير الله- معه أو من دونه - فهم في دين الطواغيت والأصنام..والعياذ بالله .! ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [١] [٢].

ثالثاً : آثار الشرك ومفاسده وأضراره :

يرى سيد قطب- رحمه الله- " أن الشر كله في الأرض وأن الفساد كله في حياة الناس ، إنما ينبثقان من الانحراف - في شتى الصور- عن إفراد الله -سبحانه- بالألوهية بكل خصائصها ، وعن السماح لأي من العبيد - في شتى الصور - بادعاء شيءٍ منها " [٣].

وقد أشار سيد قطب - رحمه الله- إلى بعض مفاسد الشرك وأضراره ومنها إجمالاً :

١ - إفساد الفطرة الإنسانية.[٤]

٢- تمزيق وحدة النفس البشرية. [٥]

٣- إحباط العمل. [٦]

٤- تسويغ الخرافات والأوهام . [٧]

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٥٢.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢١١٤-٢١١٦ بتصرف يسير.
(٣) مقومات التصور الإسلامي ص١٨٤ وينظر في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٧٣.
(٤) في ظلال القرآن ٢/ ٦٧٨،٧٦٠.
(٥) المصدر السابق ٥/ ٢٧٧٠، ٣٠٤٩.
(٦) المصدر السابق ٦/ ٢٩٥٣ وينظر أيضا ٥/ ٣٠٦١ .
(٧) المصدر السابق ٤/ ١٩٤١ .

٥- الذلة والمهانة لغير الله .[١]

٦- إغلاق أبواب الرحمة ومنع الغفران .[٢]

٧- الخوف والضلال.[٣]

٨- تحريم دخول الجنة، وإيجاب دخول النار والعذاب فيها.[٤]

رابعًا : حكم الشرك وموقف الإسلام منه :

وقف سيد - رحمه الله- كثيرًا عند الآيات التي تتحدث عن حكم الشرك ، وبين - رحمه الله- أن الشرك بالله تعالى هو أصل المحرمات ،كما قال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[٥] .

فالاعتراف بألوهية الله وحده، وعدم إشراك أحد معه يعتبر القاعدة التي يقوم عليها بناء العقيدة ، ولا يغني غناءها شيء أخر .

إن الشرك - في كل صوره - هو المحرم الأول لأنه يجر إلى كل محرم، وهو المنكر الأول الذي يجب حشد الإنكار كله له ، حتى يعترف الناس أن لا إله لهم إلا الله، ولا رب لهم إلا الله، ولا حاكم لهم إلا الله، ولا مشرع لهم إلا الله ، كماأنهم لا يتوجهون بالشعائر لغير الله ، من أجل ذلك تبدأ الوصايا كلها بهذه القاعدة "[٦].

فالشرك أعظم ما نهى الله عنه ، كما أن التوحيد أعظم ما أمر الله به ، ولهذا كانت دعوة الرسل - عليهم السلام - كلهم إلى توحيد الله ونفي الشرك عنه ، يقول - سيد -: " والظلم كثيرًا ما يذكر في القرآن ويراد به الشرك ، بوصفه أظلم الظلم وأقبحه، ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[٧] ، وفي الصحيحين " عن ابن

---

(١) المصدر السابق ٤/ ١٩٤٠، ١٩٤٣، ٢٢٢٠.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٦٧٨، ٧٦٠.
(٣) المصدر السابق ٢/ ١١٤٢.
(٤) المصدر السابق ١/ ١٤٦، ٢/ ٧٦٠، ٥/ ٢٨٨٥ .
(٥) سورة الأنعام: الآية ١٥١.
(٦) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٢٩-١٢٣٠ بتصرف .
(٧) سورة لقمان : الآية ١٣.

مسعود[١]- رضي الله عنه -أنه قال : قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال : " **أن تجعل لله ندًا وهو خلقك** "[٢] . "[٣] .

" إنه – أي الشرك – الانحراف المطلق .. وهل أقبح من ادعاء إنسان على الله وهو خالقه وخالق كل شيء، ومدبر أمره ومقدر كل شيء، هل أقبح من ادعاء إنسان إن لله شركاء "[٤] .

" ولذلك حكم الله بأنه لا غفران لذنب الشرك – متى مات صاحبه عليه – بينما الغفران مفتوح لكل ذنب سواه ، عندما يشاء الله ، والسبب في تعظيم جريمة الشرك وخروجها من دائرة الغفران ، أن من يشرك بالله يخرج عن حدود الخير والصلاح تمامًا ، وتفسد كل فطرته بحيث لا تصلح أبدًا ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا** ﴾[٥]. ولو بقي خيط واحد من خيوط الفطرة لشده الشعور بوحدانية ربه ، ولو قبل الموت بساعة ، فأما وقد غرغر – وهو مشرك – فقد انتهى أمره وحق عليه القول "[٦].

" وفي مجيء الآيات القرآنية الكثيرة في تقرير حقيقة التوحيد والنهي عن الشرك في صور شتى، والتي يؤكد بعضها بعضًا بحيث لا يبقى مع ذلك ثغرة ينفذ منها الشرك في صورة من صوره الكثيرة "[٧] ، " ما يشي بعناية هذا الدين بتخليص الحياة كلها من عقابيل الشرك وآثاره ، ومن ثم فهو يتتبع الشرك في كل مظاهره، وفي كل مكامنه ، ويطارده مطاردة عنيفة دقيقة ، سواء استكن في الضمير، أم ظهر في العبادة ، أم تسرب إلى مقاليد الحياة ، فالحياة وحدةٌ ما ظهر منها وما بطن،

---

(١) هو :عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي ، أبو عبد الرحمن الكوفي ، أحد السابقين إلى الإسلام وصاحب النعلين شهد المشاهد كلها مع الرسول ﷺ ، وكان يشبهه في هديه وسمته ، تلقن من النبي ﷺ سبعين سورة ، مات بالمدينة سنة ٣٢هـ ، انظر الخلاصة للخزرجي ص٢٤.

(٢) رواة: البخاري في التفسير ٤/ ٦٢٦ برقم ٤٢٠٧ ، ومسلم في الإيمان ، باب كون الشرك أقبح الذنوب، ١/ ٨٧ برقم ٨٦ .

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٤٨٢ ، ٥/ ٢٧٨٨ .

(٤) المصدر السابق ٥/ ٢٥٥٠ .

(٥) سورة النساء : الآية ١١٦.

(٦) في ظلال القرآن ٢/ ٧٦٠ .

(٧) المصدر السابق ٤/ ١٩٣٦ بتصرف.

والإسلام يأخذها كلًا لا يتجزأ ، ويخلصها من شوائب الشرك جميعا ، ويتجه بها إلى الله خالصةً واضحةً ناصعة " . [١]

وقد عالج القرآن الكريم قضية الشرك بأساليب ومؤثرات شتى ، سبق الحديث عنها في منهج الإسلام في تقرير توحيد الألوهية وإبطال الشرك[٢]، ونزيد هنا نصًا واحدًا فقط لسيد – رحمه الله– يشير فيه إلى منهج القرآن في معالجة الشرك في النفوس البشرية وبيان بطلانه حيث يقول : " وعالج القرآن الكريم هذا كله بشتى الأساليب وشتى المؤثرات منها :

– قص عليهم قصص الرسل من قبلهم، وما أرسلهم الله به من التوحيد الخالص، وموقف الجاهليات من هذه الرسالات ، وسنة الله في أخذ المكذبين .

– وعالج ظنهم أن هذه الآلهة تقربهم من الله زلفى وتشفع لهم عنده وتملك لهم – عن هذا الطريق – العز والنصر والنفع والضر ، بنفي هذا الظن وبيان صفة الله الحق وطبيعة الألوهية المتفردة التي يستحيل معها أن تكون هذه آلهة .

– وبتوجيه القلب والعقل إلى كتاب الله المفتوح –وهو شاهد بصفة الله الواحد.

– وبلمس الفطرة وتذكيرها بموقفها في ساعة الشدة ودعوة الله وحده عندها .

– وبالتحذير من النار والإطماع في النجاة ..[٣] .

خامسًا : أنواع الشرك التي تحدث عنها سيد قطب :-

تناول سيد– رحمه الله– أنواعًا ومظاهر من الشرك في القديم والحديث وقارن بينها ، ودعا إلى نبذها والعودة إلى التوحيد الخالص باعتباره أساس صلاح الحياة البشرية ، وإن كان –رحمه الله– قد ركز كثيرًا في كتبه الأخيرة وفي الأجزاء المحققة من الظلال على بيان شرك الحاكمية وصوره ، وجعله الشرك الذي تتفرع عنه أنواع كثيرة من الشرك والكفر في المجتمع إلا أنه لم تخل كتاباته من الإشارة إلى أنواع الشرك الأخرى المتمثلة في شرك الاعتقاد والعمل عمومًا حيث يرى أن تحقق

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٩٨٨ .

(٢) ينظر : المبحث الثاني من هذا الفصل .

(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ١١٨ وما بعدها.

النصر للمؤمنين لا يتم إلا عندما توجد حقيقة الإيمان في قلوبهم ، وحقيقة الإيمان لا توجد إلا حين يخلو القلب من الشرك في كل صوره وأشكاله ، بما فيه أشكال الشرك الخفية [١]. " وأن القضية الأساسية في القرآن الكريم هي قضية توحيد الله وإفراده بالعبادة وإخلاص الدين له وتنزيهه عن الشرك في كل صورة من صوره ، وقيام الحياة كلها على هذا الأساس". [٢]

وفيما يلي استعراض لأنواع من الشرك التي تحدث عنها سيد ـ رحمه الله ـ :

النوع الأول : **الشرك المتعلق بالاعتقاد** :

وهذا النوع من الشرك له مظاهر وصور عديدة منها :

١ - اعتقاد ألوهية غير الله معه أو من دونه : ومن ذلك تأليه اليهود لعزير، وتأليه النصارى للمسيح -عليه السلام- أو لروح القدس ، وتاليه المشركين للكواكب والنجوم والأصنام ، إما لذاتها أو لأنها ترمز لغيرها ، ومن ذلك أيضا تأليه المجوس للنور والظلمة [٣]. " فإذا اعتقد الإنسان في ضميره أنه ليس هناك إله ، أو أن الله الإله هو هذا الحجر، أو هذا القمر .. كل ذلك ينفي عن صاحبه الإيمان ويخرجه من الإسلام " [٤] .

٢ - نسبة الولد لله واعتقاد أن له أصهارًا أو قرابة : وهذا الاعتقاد كسابقه من أنواع الشرك بنص القرآن الكريم والسُّنَّة ، فإن الله- سبحانه- أخبر أن من نسب إليه الولد كالنصارى القائلين ببنوة عيسى-عليه السلام- أو كاليهود القائلين ببنوة عزير ، أو كالمشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله - سبحانه- تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا أو اعتقادهم أن بينه - سبحانه - وبين الجِنة نسبًا ، كل ذلك مما حكم الله على أصحابه بالشرك والكفر" [٥] .

" فالنص القرآني يلهم أن قول اليهود "عزيرابن الله "هو كقول النصارى "

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٨٦ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٥/ ٣٠٣٦ بتصرف يسير .
(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ١٤١، ١٦٦، ١٦٨، ٢٨٢ - ٢٨٣ .
(٤) المصدر السابق ص ١١٧ بتصرف يسير .
(٥) مقومات التصور الإسلامي ص ١١٧، ١٤٢، ١٦٨ وفي ظلال القرآن ٦/ ٣٩٩٠ .

المسيح ابن الله " كلاهما مقصود به ما يضاهي قول الذين كفروا من قبل فهو من إسناد البنوة التي تخرج قائلها من دين الحق ، وتلحقه بالكافرين المشركين "[١].

٣- اعتقاد الحلول والاتحاد ووحدة الوجود: سبق الحديث عن موقف سيد – رحمه الله– من قضية الحلول والاتحاد ووحدة الوجود عند الحديث عن الربوبية ، وبيّنا عدم صحة نسبة القول بها لسيد – رحمه الله– بناءً على كلام له في دواوينه قبل التزامه بالإسلام أو بناءً على كلامه الأدبي الموهم في الظلال ، ونقلنا موقفه الصريح من هذه القضية في الأجزاء المحققة من الظلال حيث ذكر أن هذه العقيدة لا يقول بها مسلم ، وأكتفي هنا بنقل كلامه من تفسيره لسورة البقرة في ظلال قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [٢]. يقول سيد: " وهنا نصل إلى فكرة الإسلام التجريدية الكاملة عن الله سبحانه، وعن نوع العلاقة بين الخالق وخلقه ، عن طريقة صدور الخلق عن الخالق ، وهي أرفع وأوضح تصور عن هذه الحقائق جميعها ...

والنظرية الإسلامية : أن الخلق غير الخالق ، وأن الخالق ليس كمثله شيء ، ومن هنا تنتفي من التصور الإسلامي فكرة " وحدة الوجود " على ما يفهمه غير المسلم من هذا الاصطلاح : أي بمعنى – أن الوجود وخالقه وحدة واحدة .

– أو أن الوجود إشعاع ذاتي للخالق .

– أو أن الوجود هو الصورة المرئية لموجده .

أو على أي نحو من أنحاء التصور على هذا الأساس ، فالوجود وحدة في نظر المسلم على معنى أخر : وحدة صدوره عن الإرادة الواحدة الخالقة ، ووحدة ناموسه الذي يسير به ، ووحدة تكوينه وتناسقه واتجاهه إلى ربه في عبادة وخشوع "[٣].

٤- شرك الواسطة والشفاعة : " إن ميزة الإسلام أنه ليس هناك كاهن يتقاضى ثمن كهانته ، ولا وسيط يقبض ثمن وساطته ، ليس هناك " رسم دخول " ولا

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٣٧ هامش رقم ٢ . و ١٦٤٧ وما بعدها. و٢/ ٨١٨ .
(٢) سورة البقرة : الآيات ١١٦– ١١٧ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ١٠٦.

ثمن لـ " تناول سر ولا بركة ولا استقبال "[١]، " وإنما يقوم على توحيد الله وإفراده بالعبادة وإخلاص الدين لله ، وتنزيه عن الشرك في كل صورة من صوره ، والاتجاه إليه – سبحانه– مباشرة بلا وسيط ولا شفيع "[٢] ، " فالأمر كله له ، والحكم كله إليه، وما من شفعاء يقربون إلى الله زلفى ، وما من شفيع من خلقه إلا حيث يأذن له بالشفاعة، وفقًا لتدبيره وتقديره ، واستحقاق الشفاعة بالإيمان والعمل الصالح، لا بمجرد التوسل بالشفعاء، كما كان يعتقد المشركون "[٣].

" ولهذا أبطل الله اعتقاد المشركين الذين اتخذوا آلهة من دونه لتقربهم بزعمهم إليه ، وأخبر أن شرك المشركين في الجاهلية العربية أنهم يستشفعون عند الله ببعض خلقه ، يتخذونهم أولياء ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[٤] فهذا هو الشرك "[٥] .

ويقارن سيد – رحمه الله– بين المشركين الذين كانوا يتخذون من دونه أولياء في الجاهلية ليقربوهم إليه زلفى وبين الذين يستشفعون لأنفسهم عند الله بأولياء من عبيده فيقول: " فما الوصف الذي يطلق إذن على الذين لا يستشفعون لأنفسهم عند الله بأولياء من عبيده ، ولكنهم – ويا للنكر والشناعة ! – يستشفعون لله – سبحانه – عند العبيد بمذهب أو منهج من مذاهب العبيد ومناهجهم!!

فالذين يحاولون أن يضعوا على الإسلام أقنعة أخرى ، ويصفونه بصفات من التي تروج عند الناس في فترة من الفترات كالاشتراكية.. والديمقراطية.. وما إليها.. ظانين أنهم بهذه التقدمة الذليلة يخدمون الإسلام! . .

هؤلاء يستشفعون لمنهج الله – سبحانه– عند البشر بوصفه بصفةٍ من أعمال البشر؟ فلينظروا أين يقفوا من الإسلام "[٦] .

ويقول سيد- رحمه الله- : " إن الوسيلة المأمور بها في قوله تعالى :﴿ وَٱبْتَغُوٓاْ

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٧٥ .
(٢) المصدر السابق ٥/ ٣٠٣٦ .
(٣) المصدر السابق ٣/ ١٧٦٣ ، وينظر أيضا : ٢/ ٨١٩ .
(٤) سورة الزمر: الآية ٣.
(٥) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٨٣، ٦/ ٣٩٩٠، ومقومات التصور الإسلامي ص ١١٧.
(٦) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٨٣ بتصرف.

﴿إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[1]. ليست ما يفهمه البعض ممن انحرفت عقيدته بأنها الأولياء الذين يتقرب بهم إلى الله ويستشفع بهم عنده ، وإنما المقصود به " أن يلتمس الناس ما يصلهم بالله من الأسباب ، قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : ابتغوا إليه الوسيلة، أي ابتغوا إليه الحاجة . والبشر حين يشعرون بحاجتهم إلى الله وحين يطلبون عنده حاجتهم يكونون في الوضع الصحيح للعبودية أمام الربوبية ، وكلا التفسيرين يصلح للعبارة ، ويؤدي إلى صلاح القلب، وحياة الضمير " [2].

٥- التطير والتشاؤم : يقول – سيد – : " والتطير والتشاؤم، مأخوذ من عادة الأقوام الجاهلية التي تجري وراء الخرافات والأوهام ، لأنها لا تخرج منها إلى نصاعة الإيمان، فقد كان الواحد منهم إذا همّ بأمر لجأ إلى طائر فزجره أي أشار إليه مطاردًا، فإن مرَّ سانحًا عن يمينه إلى يساره استبشر ومضى في الأمر ، وإن مرَّ بارحًا عن يساره إلى يمينه تشاءم وتوقع الضر! وما تدري الطير الغيب ، وما تنبئ حركاتها التلقائية عن شيء من المجهول ، ولكن النفس البشرية لا تستطيع أن تعيش بلا مجهول مغيب تكل إليه ما لا تعرفه وما لا تقدر عليه ، فإذا لم تكل المجهول المغيب إلى الإيمان بعلام الغيوب ، وكلته إلى مثل هذه الأوهام والخرافات...وحتى هذه اللحظة ترى اللذين يهربون من الإيمان بالله ، ويستنكفون أن يكلوا الغيب إليه، تراهم يعلقون أهمية ضخمة على رقم (١٣)، وعلى مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم... إلى آخر هذه الخرافات الساذجة " . [3]

" إن الإسلام قد أبطل ما كان عليه الجاهليين من وثنيتهم وشركهم وبعدهم عن إدراك سنن الله وقدره ، وما كانوا عليه من التفكير الخرافي، وأحل محله التفكير العلمي الصحيح ، القائم على معرفة السنن الإلهية الثابتة في الوجود ومن ورائها قدره النافذ المحيط " [4]

النوع الثاني : الشرك المتعلق بأعمال القلوب :

يقصد بأعمال القلوب : ما يقوم بالقلب من العبادات والطاعات كالإخلاص

(١) سورة المائدة: الآية ٣٥.
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨١٩ ، ٨٨١ .
(٣) المصدر السابق ٥ / ٢٦٤٤-٢٦٤٥ .
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٣٥٧ بتصرف يسير .

والحب والخوف والرجاء والتوكل والولاية ونحوها[(١)]. وهي تابعة لتصديق القلب ومعرفته وملازمة له ، بل هي أصل أعمال الجوارح [(٢)].

وبناء على ذلك فان إيمان العبد لا يقوم أصلا إلا بمعرفة الله وإخلاص الأعمال له وحده لا شريك له انقيادًا وتعظيما ، " فلا توجد حقيقة الإيمان في القلب إلا حين يخلو من الشرك في كل صوره وأشكاله...وحين يتجه لله وحده، ويتوكل عليه ، ويطمئن إلى قضاء الله فيه وقدرة عليه ، ويتلقى تصريف الله له بالطمأنينة والرضى والقبول " [(٣)].

وقصد غير وجه الله ، أو توجه القلب لغير الله معه – أو من دونه – من الشرك الذي حرمه الله ونهى عنه ، ومن مظاهر الشرك المتعلقة بأعمال القلوب التي أشار إليها سيد قطب ما يأتي:

١ - شرك المحبة :

أصل الحب قوة في القلب تحرك إرادة الإنسان لتحصيل المحبوبات أصلًا ودفع المكروهات تبعًا فتميل النفس إلى الشيء إذا كان محبوبا وتنفر عنه إن كان مكروها[(٤)]. ومحبه الله تعالى تعني: ميل القلب إلى ربه -جل وعلا- ميلا ينجلي منه إيثاره على كل ما سواه ، ويتجه لتحصيل ما يحبه الله من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، فهي أصل كل عمل من أعمال الدين ، فأصل الإيمان الحب في الله والبغض في الله ، والعبادة تتضمن غاية الحب مع غاية الذل ، وجمع القرآن الأمر بمحبه الله ولوازمها والنهي عما بضادها [(٥)]. وإذا كان الأمر كذلك فان الإشراك في المحبة مع الله غيره أصل كل شرك عملي ،فأصل شرك المشركين هو اتخاذهم أندادا يحبونهم كحب الله.[(٦)]

ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ

---

(١) الإيمان لابن منده ٢/ ٣٦٢، ومجموع فتاوى ابن تيميه ٧/ ١٨٦.
(٢) بدائع الفوائد لابن القيم ٣/ ٢٢٤.
(٣) في ظلال القران ٥/ ٣٠٨٦ بتصرف يسير .
(٤) مجموع فتاوى ابن تيميه ١٠/ ١٩٢ .
(٥) قاعدة في المحبة، لشيخ الإسلام ابن تيميه ص٧_١١ بتصرف . ومد ارج السالكين لابن القيم ٣/ ٢٧
(٦) قاعدة في المحبة، لشيخ الإسلام ابن تيميه ص٦٩، ومد ارج السالكين لابن القيم ١/ ٣٦٨.

كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾[1].

يقول سيد - رحمه الله - : " من الناس من يتخذ من دون الله أندادًا ، كانوا على عهد المخاطبين بهذا القرآن أحجارًا أو أشجارًا ، أو نجومًا وكواكب ، أو ملائكة وشياطينًا ، وهم في كل عهد من عهود الجاهلية أشياء أو أشخاص ، أو إشارات واعتبارات .. وكلها شرك خفي أو ظاهر إذا ذكرت إلى جانب اسم الله ، وإذا أشركها المرء في قلبه مع حب الله ، فكيف إذا نزع حب الله من قلبه وأفرد هذه الأنداد بالحب الذي لا يكون إلا لله ؟ ، إن المؤمنين لا يحبون شيئا حبهم لله ، لا أنفسهم ولا سواهم ، لا أشخاصًا ولا اعتبارات ولا إشارات ، ولا قيماً من قيم هذه الأرض التي يجري وراءها الناس ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ أشد حبًا لله، حبًا مطلقًا من كل موازنة ، ومن كل قيد، أشد حبًا لله من كل حب يتجهون به إلى سواه ، والتعبير هنا بالحب تعبير جميل ، فوق أنه تعبير صادق ، فالصلة بين المؤمن الحق وبين الله -سبحانه وتعالى- هي صلة الحب ، صلة الوشيجة القلبية، والتجاذب الروحي صله المودة والقربى، صله الوجدان المشدود بعاطفة الحب المشرق الودود " [2].

٢- شرك الخوف والرجاء:

يقصد بالخوف : توقع حلول مكروهٍ ، أو فوات محبوبٍ عن أمارة مظنونة أو معلومة.[3] وهو أنواع منها :

* الخوف الذي ليس له سبب: ويسمى "الجبن" ، وهو ما أدى إلى ترك القيام ببعض الواجبات كالجهاد ونحوه ، وهذا مذموم .

* والخوف الطبيعي : كالخوف من أسدٍ أوعدوٍ، وهذا جبلي في البشر.

* وخوف التأله : وهو الخوف من الله – سبحانه ـ أن يصيبه بما يشاء متى شاء ، وهذا النوع أحد العبادات القلبية التي يجب إخلاصها لله كما قال سبحانه وتعالى:

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٦٥ .

(٢) في ظلال القرآن١/ ١٥٣ـ١٥٤ .وينظر أيضا ٢/ ٩١٨.

(٣) التعريفات للجرجاني ص١٣٧ ، والإرشاد للفوزان ص٥٣.

﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [(١)] وهو الذي مدح الله أصحابه ووعدهم بالجزاء في الجنة فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [(٢)].

* **والخوف الشركي :** هو خوف التأله لغير الله- سبحانه وتعالى ـ بحيث يخاف الإنسان من أن يصيبه غير الله بما شاء ومتى شاء من موتٍ أو مرض أو فقر أو نحوه ، وهذا من أعظم الشرك لأنه يقوم على اعتقاد أن غير الله -جلَّ وعلا- كائنًا من كان يملك الضر والنفع وخصائص الألوهية [(٣)]. "فلا بد من التجرد لله ولابد من التخلص من كل ظل للشرك في الشعور أو السلوك ، وخشية أحد غير الله لونٌ من الشرك الخفي ، ينبه إليه القرآن ليتمحض الاعتقاد والعمل كله لله" [(٤)].

أما الرجاء : فيأتي بمعنى: الأمل، والتوقع، وطلب الشيء، ويأتي بمعنى الخوف إذا كان معه حرف نفي كما في قوله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [(٥)]. أي : لا تخافون الله عظمة[(٦)]. وهو مرادف للرغبة وقد جمع -سبحانه- في الأمر لعباده بين عبادتي الخوف والرجاء بقوله: ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [(٧)].

وإذا تبين ما سبق كان صرف الرجاء ومثله الخوف لغير الله شركًا، نهى الإسلام عنه . يقول سيد : " ولو خافوا الله ما خافوا أحدًا من عباده ، فإنما هو خوفٌ واحدٌ ورهبةٌ واحدةٌ ، ولا يجتمع في قلب خوفٌ من الله وخوفٌ من شي سواه ، فالعزة لله جميعًا، وكل قوى الكون خاضعةٌ لأمره ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ ﴾ فمم يخاف إذن الذي يخاف الله ؟ولكن الذين لا يفقهون هذه الحقيقة يخافون عباد الله أشد مما يخافون الله ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[(٨)] ويقول "والقرآن يندد بضلال من يدعون من دون الله آلهة لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة ..والنص

(١) سوره أل عمران: الآية ١٧٥.
(٢) سوره الرحمن :الآية ٤٦.
(٣) ينظر: الإرشاد للفوزان ص٥٨ وتيسير العزيز الحميد ص٤٨٥ والقول السديد للسعدي ص١١٦.
(٤) في ظلا القران ٣/ ١٦١٤ بتصرف يسير .
(٥) سوره نوح : الآية ١٣.
(٦) فتح القدير للشوكاني ٣/ ٣١٨.
(٧) سوره الأعراف : الآية ٥٦.
(٨) في ظلال القران ٦/ ٣٥٢٨.

أوسع مدلولا وأطول أمدًا ..والشرك ليس مقصورا على صوره التي كان عليها المشركون القدامى، فكم من مشركين يشركون مع الله ذوي سلطان أو جاه أو مال ويرجون فيهم ...وكلهم أعجز من أن يستجيبوا لدعائهم استجابةً حقيقيةً وكلهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ودعاؤهم شرك والرجاء فيهم شرك ، والخوف منهم شرك، ولكنه شرك خفي يزاوله الكثيرون وهم لا يشعرون .

ويقول: " والأنداد التي يشدد القرآن في النهي عنها لتخلص عقيدة التوحيد نقية واضحة ، قد لا تكون آلهة تعبد مع الله على النحو الساذج الذي كان يزاوله المشركون ، فقد تكون الأنداد في صورة أخرى خفية ، قد تكون في تعليق الرجاء بغير الله في أي صورة ، وفي الخوف من غير الله في أي صورة ، وفي الاعتقاد بنفعٍ أو ضرٍ في غير الله في أي صورة "(١) .

"والقلب البشري حين يلجأ إلى غير الله طمعًا في نفع ، أو دفعًا لضر ، لا يناله إلا القلق والحيرة وقلة الاستقرار والطمأنينة ، وهذا هو الرَّهق في أسوأ صوره ، فكل شيء سوى الله وكل أحد متقلب غير ثابت، ذاهب غير دائم ، فإذا تعلق به قلب بقي يتأرجح ويتقلب ويتوقع ويتوجس وعـاد يغير اتجاهه كلما ذهب هذا الذي عقد به رجاءه ، والله وحده هو الباقي الذي لا يـزول الحي الذي لا يموت"(٢) .

٣ـ شرك التوكل:

التوكل يعني: اعتماد القلب على الله سبحانه وحده ، وتفويض الأمر إليه والثقة به، والتوكل عبادة من العبادات القلبية المأمور بها ، قال تعالى:﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(٣) ، وغيرها من الآيات (٤). وهو شروط في الإيمان ينتفي الإيمان بانتفائه، ويضعف بضعفه "(٥). والتوكل لا يتم إلا بالأخذ بالأسباب المشروعة ،

---

(١) المصدر السابق ١/ ٤٨ وينظر أيضا ١/ ٥٢١ .

(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٧٢٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٢٢ .

(٤) ينظر:سورة المائدةالآية ٢٣، وسورة الفرقان الآية٥٨ ، وسورة آل عمران الآية ١٧٣، وسورة الأنفال الآية٢.

(٥) طريق الهجرتين لابن القيم ص٢٦٤.

فالأخذ بها لا ينافي التوكل على الله لمن اعتقد أنها بإذن الله وتقديره.[١] وبناء على ذلك فان التوكل الشركي هو : الاعتماد بالقلب على غير الله -جل وعلا- في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله من جلب نفع أو دفع ضر ، كالتوكل على الأموات والغائبين والطواغيت ونحوهم .

يقول سيد رحمه الله : "ولتقرير حقيقة التوكل على الله وإقامتها على أصولها الثابتة، يقرر القرآن أن القوة الفاعلة ..هي قوة الله ، إليها يكون التوجه وعليها يكون التوكل ، بعد اتخاذ العدة ونفض الأيدي من العواقب ، وتعليقها بقدر الله ...حيث لا قوة إلا قوة الله ، ولا قدرة إلا قدرته ، ولا مشيئة إلا مشيئته، وعنها تصدر الأشياء والأحداث ، وهذا لا يعفي المسلمين من إتباع المنهج وطاعة التوجيه والنهوض بالتكاليف، وبذل الجهد والتوكل بعد هذا كله على الله ، بذلك يخلص تصور المسلم من التماس شيء من عند غير لله ، ويتصل قلبه مباشرة بالقوة الفاعلة في هذا الوجود ، فينفض يده من كل الأشباح الزائفة ، والأسباب الباطلة للنصرة والحماية والالتجاء ، ويتوكل على الله وحده ، ويقبل ما يجيء به قدر الله في اطمئنانٍ أيًا كان "[٢].

فالتوكل يقوم على " الاعتماد على الله وحده دون سواه" [٣] و"على وجه القصر والحصر "[٤].

"وأصحاب الدعوة إلى الله لهم أسوة حسنة في رسل الله ، وإنه لينبغي لهم أن تمتلئ قلوبهم بالثقة حتى تفيض ، وأن يتوكلوا على الله وحده في وجه الطاغوت أيا كان " [٥]. " فالمؤمنون لا يتوكلون إلا على الله فليس وراء ذلك توكل، وليس من دون الله من يتوكل عليه المؤمنون"[٦] .

---

(١) ينظر: نيل الأوطار للشوكاني ، دار الجيل ، طبعه عام ١٩٧٣، ١٠/ ٩٢.
(٢) في ظلال القران ١/ ٥٠٣ـ٥٠٤ بتصرف .وينظر أيضا: ١/ ٥٢٠ .
(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٨٢٢، ٢٨٢٣ بتصرف .وينظر: ٣/ ١٧٤٣، ٦ / ٣٦٠١.
(٤) المصدر السابق ١/ ٤٦٨.
(٥) في ظلال القران ٣/ ١٨١١ .
(٦) المصدر السابق ٦/ ٣٥١٠.

٤ـ شرك الولاية :

المقصود بالولاء: المحبة والمودة والقرب، وضده البراء[١] ،والولاء لا يكون إلا لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾[٢].

فهو من العبادات القلبية التي تظهر مقتضياتها على الجوارح .

والولاء الشركي : هو أن يحب الإنسان ويوادَّ الذين يحادون الله ورسوله المحبة والمودة التامة ، لقوله تعالى ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾[٣].

وقد أشار سيد – رحمه الله إلى أن الولاية تكون لله وحده ولرسوله بالتبعية ، وذلك يستلزم المفاصلة الكاملة بين المؤمن وبين من يحاد الله تعالى ، وأن قاعدة الإيمان في ذاتها تقوم على الولاية لله ولرسوله والمؤمنين ، وولاء غيرهم خروجًا وارتدادًا عن الإسلام [٤]جاء التحذير منه كثيرًا في القرآن الكريم .

ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ﴾[٥]. يقول سيد – رحمه الله- : " إن هذه العقيدة لا تحتمل لها في القلب شريكا، فإما تجرد لها ، وإما انسلاخ منها ، وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عما حوله ولا أن يترهبن ، إنما المطلوب أن يخلص لها القلب، ويخلص لها الحب، وأن تكون هي المسيطرة والحاكمة، وهي المحركة والدافعة...

فإذا انقطعت آصرة العقيدة تقطعت أواصر الدم والنسب، وبطلت ولاية القرابة، فلله الولاية الأولى، وفيها ترتبط البشرية جميعًا، فإذا لم تكن فلا ولاية بعد ذلك ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ ويعني بالظالمين هنا : المشركين .

فولاية الأهل والقوم – إن استحبوا الكفر على الإيمان – شرك لا يتفق مع

(١) لسان العرب ١٥/ ٤٠١ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٥٥.

(٣) سورة المائدة : الآية ٥١.

(٤) في ظلال القرآن ٢/ ٩٢١ بتصرف ، ١/ ٣٧٧ ، ٢/ ٩١٧ .

(٥) سورة التوبة: الآية ٢٣.

الإيمان"(١).

" فالولاء لغير الله هو الشرك الذي لا يجتمع مع الإسلام ، باعتباره مناقضًا لحقيقة الإسلام "(٢).

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾(٣).

يقول سيد - رحمه الله- : " ما دام أن الأمر كله لله ، والقوة كلها لله ، والتدبير كله لله ، والرزق كله بيد الله. . فما ولاء المؤمن إذن لأعداء الله ؟أنه لا يجتمع في قلب واحد حقيقة الإيمان بالله وموالاة أعدائه.. ومن ثم جاء هذا التحذير الشديد ، وهذا التقرير الحاسم بخروج المسلم من إسلامه إذا هو والى من لا يرتضي أن يحكم كتاب الله في الحياة ، سواء كانت الموالاة بمودة القلب ، أو بنصره أو باستنصاره سواء ، فمن يفعل ذلك فليس من الله في شيء، هكذا ، ليس من الله في شيء لا في صلة ولا نسبة ، ولا دين ولا عقيدة ، ولا رابطة ولا ولاية ، فهو بعيد عن الله ، منقطع عنه ...

ويرخص فقط بالتقية لمن خاف في بعض البلدان والأوقات، ولكنها تقية اللسان لا ولاء القلب ولا ولاء العمل، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: " ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان ". فليس من التقية المرخص فيها أن تقوم المودة بين المؤمن وبين الكافر، كما أنه ليس من التقية المرخص بها أن يعاون المؤمن الكافر بالعمل في صورة من الصور باسم التقية، فما يجوز هذا الخداع على الله! "(٤).

ويشير سيد - رحمه الله- " إلى وجوب التفرقة بين الولاء للكفار والمشركين والذي هو بمعني المحبة والمودة والنصرة ، فهذا كفر وشرك مخرج من الملة ، وبين

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٦١٥ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٢/ ١٠٥٣ بتصرف يسير .
(٣) سورة آل عمران : الآية ٢٨.
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٣٨٥-٣٨٦ بتصرف .

التسامح مع غير المسلمين في المجتمع المسلم ، فهذا شيء وهذا شيء آخر ". [١]

النوع الثالث : **الشرك المتعلق بعمل اللسان " شرك الأقوال "** :

ويندرج تحت هذا النوع من الشرك مظاهر كثيرة يجمعها نوعان :

الأول: شرك الدعاء.

الثاني : شرك التسوية في الألفاظ بين الله -سبحانه-وبين غيره. وبيان ذلك فيما يأتي:

١ - شرك الدعاء :

الدعاء من أجَّل العبادات وأعظمها، فقد ذكره الله في القرآن الكريم في نحو ثلاثمائة موضع [٢] ، وقد سماه الله عبادة ، وتوعد من تركه استكبارا بالنار، وأخبر النبي ﷺ أن: " الدعاء هو العبادة " . [٣]

والدعاء يجمع أنواعًا كثيرة من العبادات منها : إسلام الوجه لمن يدعوه ، والرغبة إليه ، والاعتماد عليه ، والخضوع له ، والتذلل بين يديه وقصد طلب الحوائج منه وحده، فمن أسلم وجهه لغير الله فهو مشرك شاء أم أبى .

كما أن الدعاء يطلق على معاني عديدة منها: السؤال، والطلب، والاستغاثة، والاستعانة، والاستعاذة، وغيرها.[٤]

فإذا تقرر ذلك فانه يجب إفراد الله – سبحانه وتعالى – بالدعاء بكل أنواعه ، من سؤال واستغاثة واستعانة واستعاذة ، فمن دعا غير الله ، أو استغاث أو استعان أو استعاذ بغيره أيًا كان فقد وقع في الشرك .

يقول سيد – رحمه الله– في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [٥] : " ودعاء غير الله قد يكون بعبادة غيره، وقد يكون بالالتجاء إلى سواه،

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٤٨ وينظر أيضا: موقف سيد قطب من أهل الكتاب في الباب الثاني – فصل الثاني– المبحث الثالث– من هذا البحث.

(٢) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ٩/ ٤١٨.

(٣) رواة احمد ٤/ ٢٦٧ ، وأبو داود ٢/ ١٦١ برقم ١٤٧٩ ، والترمذي ٥/ ٤٢٦ برقم ٣٣٧٢ ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ٣٨٤ ، وصحيح أبي داود ١/ ٤٠٧ .

(٤) الشرك بالله أنواعه وأحكامه . ماجد شبالة ص ٥٤٣ وما بعدها .

(٥) سورة الجن : الآية ١٨

وقد يكون باستحضار القلب لأحد غير الله ".[١]

و في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾[٢]. يقول: " والقرآن يندد بضلال من يدعون من دون الله آلهة لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة، والنص أوسع مدلولاً وأطول أمدًا ، فمن أضل ممن يدعو من دون الله أحدًا في أي زمان وفي أي مكان؟ وكل أحد - كائنا من كان - لا يستجيب بشيء لمن يدعوه، ولا يملك أن يستجيب، وليس هناك إلا الله فعال لما يريد ، إن الشرك ليس مقصورًا على صوره الساذجة التي عرفها المشركون القدامى ، فكم من مشركين يشركون مع الله ذوي سلطان، أو ذوي جاه أو مال، ويرجون فيهم، ويتوجهون إليهم بالدعاء، وكلهم أعجز من أن يستجيبوا لدعاتهم استجابة حقيقية، وكلهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، ودعاؤهم شرك ، والرجاء فيهم شرك ، والخوف منهم شرك ، ولكنه شرك خفي يزاوله الكثيرون، وهم لا يشعرون " .[٣]

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٤]، يقول سيد - رحمه الله- : " لا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك من هؤلاء الشركاء والشفعاء الذين يدعوهم المشركون لجلب النفع ودفع الضر ، فإن فعلت فإنك إذن من هؤلاء المشركين! فميزان الله لا يحابي وعدله لا يلين "[٥].

" وإذا كان رسول ﷺ متوعدًا بالعذاب مع المعذبين لو دعا مع الله إلهًا آخر ، وهذا محال ولكنه فرض للتقريب ، فكيف يكون غيره؟ وكيف ينجو من العذاب من يدعو هذه الدعوة من الآخرين؟! .. "[٦] .

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٥ .
(٢) سورة الأحقاف : الآية ٥ .
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٥٦ بتصرف يسير .
(٤) سورة يونس: الآية ١٠٦.
(٥)في ظلال القرآن ٣/ ١٨٢٥ .
(٦) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦١٩، ٢٧١٦ .

٢- شرك التسوية في الألفاظ بين الله سبحانه وبين غيره :

يقصد بهذا النوع من الشرك التسوية بين الله وبين أحد من مخلوقاته في الألفاظ ، كان يقول :ما شاء الله وشئت ، أو لولا الله وفلان ، أو الحلف بغير الله ونحوهما .

وقد ذكر سيد - رحمه الله- في تفسيره لمعنى الأنداد التي شدد القرآن الكريم في النهي عنها لتخلص عقيدة التوحيد،أنها قد تكون في صور متعددة ، ظاهرة كالذي كان يتخذه المشركون ، أو خفية ثم أورد قول ابن عباس- رضي الله عنهما- : " الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل ، وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي ، ويقول : لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ! وقول الرجل : لولا الله وفلان . . هذا كله به شرك "[١] . وفي الحديث " أن رجلًا قال لرسول الله - ﷺ - ما شاء الله وشئت . فقال : أجعلتني لله ندًا ؟! " [٢] . ثم يعقب سيد - رحمه الله- على كلام ابن عباس - رضي الله عنهما - بقوله: " هكذا كان سلف هذه الأمة ينظر إلى الشرك الخفي والأنداد مع الله ، فلننظر نحن أين نحن من هذه الحساسية المرهفة، وأين نحن من حقيقة التوحيد الكبيرة !!!" [٣]

النوع الرابع : الشرك المتعلق بعمل الجوارح :

ويقصد به شرك التقرب والنسك ، وهو على نوعين :

الأول : شرك التقرب إلى غير الله بالصلاة وما هو من جنسها كالسجود والطواف ونحوه.

الثاني : شرك التقرب إلى غير الله بالنسك، كالذبح والنذر والحلف ونحوها. وبيان ذلك كما يلي :

١- شرك التقرب إلى الله بالصلاة وما هو من جنسها :

صرف الصلاة لغير الله من الأمور النادرة ، ولكن صرف أجزاء منها كالركوع

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢١٠ .

(٢) رواه أحمد ١/ ٢١٤ ، والنسائي في الكبرى ٦/ ١٤٥ برقم ١٠٨٢٤ ، وصححه الألباني في الصحيحة ١/ ٢٦٦ برقم ١٣٩ .

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٤٨ .

والسجود والطواف بغير البيت الحرام ـ باعتباره صلاه هي من الأمور التي يصرفها البعض لغير الله .

أما السجود والركوع: فهما عبادتان لا يجوز صرفهما لغير الله ، ومن صرفهما لغيره فقد أشرك ، وقد وجه الله المشركين الذين كانوا يتقربون إلى الشمس والقمر بالسجود بقوله : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[١] ،أي إن كنتم تعبدون الله حقًا فلا تسجدوا للشمس ولا للقمر،واسجدوا لله الذي خلقهن ، فالخالق هو الواحد الذي يستحق أن يعبدوه" [٢].

ويبين سيد -رحمه الله -أيضًا" أن السجود ومواضعه لا ينبغي أن تكون إلا لله وحده ، فقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾[٣] ، يوحي بأن السجود ـ أو مواضع السجود وهي المساجد ـ لا تكون إلا لله فهناك يكون التوحيد الخالص ، ويتوارى كل ظل لكل أحد ولكل اعتبار، وينفرد الجو ويتمحض للعبودية الخالصة لله " [٤] .

ومن مظاهر السجود لغير الله التي أشار إليها -سيد- أيضًا: التمرغ ووضع الخدود على الأعتاب والمقامات ، حيث يقول : " ويخطر بالبال صور العازفين المصفقين الصاخبين المرغين خدودهم على الأعتاب والمقامات في كثير من البلاد التي يسمونها "بلاد المسلمين"أنها الجاهلية تبرز في صورة من صورها الكثيرة "[٥].

" والله يوجه رسوله - ﷺ - إلى الإخلاص والتجرد لله في العبادة وفي الاتجاه في الصلاة وفي ذبح النسك خالصا لله ،بقوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾[٦] غير ملقٍ بالًا إلى شرك المشركين ، وغير مشارك لهم في عبادتهم" [٧].

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٧.
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٢٤.
(٣) سورة الجن الآية ١٨.
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٥.
(٥) المصدر السابق ٣/ ١٥٠٦.
(٦) سورة الكوثر : ٢ .
(٧) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٨٨ .

٢ - شرك التقرب لغير الله بالنسك وما يلحق به :

النسك هو العبادة والقربة [١] ، ويطلق لفظ النسك على الذبح والنحر الذي يقصد به التوجه والتقرب لله - سبحانه وتعالى - ، وقد فرض الله على المؤمنين إخلاص التوجه لله بهذه العبادات فقال: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [٢].

يقول - سيد -: " فهو التجرد الكامل لله ، بكل خالجة في القلب ، وبكل حركة في الحياة بالصلاة والاعتكاف وبالمحيا والممات ، والشعائر التعبدية وبالحياة الواقعية ، وبالممات وما وراءه " [٣]. " التجرد لله في العبادة والاتجاه في الصلاة وفي ذبح النسك خالصا لله " [٤].

ومن مظاهر وصور هذا الشرك ما يلي :

أ- الذبح والنحر لغير الله :

والذبح لغير الله على نوعين :

الأول : ما ذبح تقربًا لغير الله ، كالذبح تقربًا للجن أو الملائكة أو الأموات وغيرهم، مع ذكر اسم غير الله على المذبوح، وهذا من أعظم أنواع الكفر والشرك بالله- سبحانه وتعالى - لما يحمله من تعظيم غير الله ، ولأنه ينشأ غالبًا من الاعتقاد في المتقرب إليه غير الله بأنه يملك الضر والنفع

يقول سيد - رحمه الله- : " وأما ما أُهل لغير الله به ، فهو محرم لمناقضته ابتداءً للإيمان، فالإيمان يوحد الله ويفرده - سبحانه - بالألوهية ويرتب على هذا التوحيد مقتضياته ، وأول هذه المقتضيات أن يكون التوجه إلى الله وحده بكل نية وكل عمل، وأن يهل باسمه - وحده - في كل عمل وكل حركة ، وأن تصدر باسمه -وحده- كل حركة وكل عمل ، فما أهل لغير الله به، وما يسمى عليه بغير اسم الله - وكذلك ما لا يذكر اسم الله عليه ولا اسم أحد - حرام ، لأنه ينقض الإيمان

(١) المفردات للراغب ص ٧٤٧ ، ولسان العرب ١/ ٤٩٨ .
(٢) سورة الأنعام : الآية ١٦٢-١٦٣ .
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٤٠ .
(٤) المصدر السابق ٦/ ٣٩٨٨ .

من أساسه ، ولا يصدر ابتداءً عن إيمان ، فهو خبيث من هذه الناحية "[١].

ويقول أيضًا: " أما ما أهل به لغير الله ، أي ما توجه به صاحبه لغير الله ، فهو محرم ، لا لعلة فيه ولكن للتوجه به لغير الله ، محرم لعلة روحية تنافي صحة التصور، وسلامة القلب ، وطهارة الروح ، وخلوص الضمير ، ووحدة المتجه ، فهو ملحق بالنجاسة المادية والقذارة الحقيقية على هذا المعنى المشترك للنجاسة ، وهو ألصق بالعقيدة من سائر المحرمات قبله، وقد حرص الإسلام على أن يكون التوجه لله وحده بلا شريك "[٢].

فلابد إذ أن يكون التوجه بالذبح والنحر والنسك لله وحده وأن يذكر اسمه وحده عليه : " فالقرآن الكريم يقدم ذكر اسم الله المصاحب لنحر الذبائح ، لأن المقصود في النحر هو التقرب إلى الله، ومن ثم فان أظهر ما يبرز في عملية النحر هو ذكر اسم الله على الذبيحة ، وكأنما هو الهدف المقصود من النحر ذاته "[٣]. وذلك : " لأن الإسلام يوحد المشاعر والاتجاهات ، ويتوجه بها كلها إلى الله ، ومن ثم يعنى بتوجيه الشعور والعمل، والنشاط والعبادة ، والحركة والعادة ، إلى تلك الوجهة الواحدة ، وبذلك تصبغ الحياة كلها بصبغة العقيدة .

وعلى هذا الأساس حرم من الذبائح ما أُهل لغير الله به ، وحتّم ذكر اسم الله عليها، حتى ليجعل ذكر اسم الله هو الغرض البارز، وكأنما تذبح الذبيحة بقصد ذكر اسم الله. ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾[٤] ، وهكذا يربط بين العقيدة والشعائر، فالشعائر منبثقة عن العقيدة وقائمة عليها ومعبرة عنها "[٥].

الثاني: ما ذبح عند الأنصاب والأوثان وإن ذكر اسم الله عليه:

فما ذبح عند الأوثان والنصب والمقامات فهو من الشرك الذي حرمه الله تعالى

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٨٤٠ .
(٢) في ظلال القرآن ١ / ١٥٧ .
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٤٢٠ .
(٤) سورة الحج : الآية ٣٤.
(٥) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٢٣ .

بقوله : ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [(١)]. [(٢)].

يقول سيد - رحمه الله- : " وأما ما ذبح على النصب - وهي أصنام كانت في الكعبة وكان المشركون يذبحون عندها وينضحونها بدماء الذبيحة في الجاهلية ، ومثلها غيرها في أي مكان - فهو محرم بسبب ذبحه على الأصنام - حتى لو ذكر اسم الله عليه ، لما فيه من معنى الشرك بالله " . [(٣)]

ب- النذر وتقديم القرابين لغير الله:

يقصد بالنذر شرعًا: ما أوجبه المكلف على نفسه مما يظهر فيه وجه القربة تعظيمًا لله تعالى" [(٤)].

وهو نوعان:

الأول: نذر مجازاة : بأن يلتزم الشخص قربة في مقابل حدوث نعمة أو اندفاع بلية، كان يقول: إن شفاني الله أو رزقني ولدًا فله عليَّ صوم كذا أو صدقة أو نحو ذلك، وهذا يجب الوفاء به إذا حصل ما علق به .

والثاني : نذر ابتداء : وهو ما يلتزمه الإنسان من غير تعليق على شرط تقربًا لله ، وهذا أيضًا يجب الوفاء به[(٥)].

والنذر من العبادات التي أمر الله بالوفاء بها ، ومدح الله الموفين بها ، وبالتالي فلا يجوز التقرب به إلا لله – سبحانه – شأنه شأن بقية العبادات .

ويكون النذر لغير الله – جل وعلا – شركًا به في العبادة ، وذلك كالنذور الواقعة من عُبَّاد القبور للأموات تقربًا إليهم ليقضوا حاجاتهم وليشفعوا لهم ، لأنها تقوم

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣

(٢) ينظر كلام أهل العلم في: تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٩٩ ، الدرر المضيئة للشوكاني ص ٢٠، تطهير الاعتقاد للصنعاني تحقيق حلاق ،دار الصحوة – صنعاء ، طبعة عام ١٤١١هـ ص ٣٣ .

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٨٤٠ .

(٤) التعريفات للجرجاني ص ٣٠٨ ، وفتح القدير للشوكاني ص ٣٤٧ .

(٥) الفقه الميسر لأحمد عاشور : دار اليوسف – بيروت – ب.ت – ص٣١٥ ، وتيسير العزيز الحميد ص٢٠٣ .

على اعتقاد في المنذور له أنه يملك الضر والنفع مع الله أو من دونه "[١] .

يقول سيد - رحمه الله- : " والنذر نوع من أنواع النفقة يوجبه المنفق على نفسه مقدّرًا بقدر معلوم والنذر لا يكون لغير الله ولوجهه وفي سبيله ، فالنذر لفلانٍ من عباده نوع من الشرك ، كالذبائح التي كان يقدمها المشركون لآلهتهم وأوثانهم في شتى عصور الجاهلية "[٢] .

ويبين سيد - رحمه الله- أن السدنة والكهنة والرؤساء قديمًا وحديثا ومعهم شياطين الجن يزينون للناس التقرب إلى الأوثان ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم من جهة ، وليحصلوا هم على المصالح المادية التي تأتيهم من النذور والقرابين من جهة أخرى ، فيقول : " فأما مصلحة شياطين الإنس - من الكهنة والسدنة والرؤساء - فهي متمثلة أولًا : في الاستيلاء على قلوب الأتباع والأولياء ، وتحريكهم على هواهم وفق ما يزينونه لهم من تصورات باطلة وعقائد فاسدة! ومتمثلة ثانيًا : في المصالح المادية التي تتحقق لهم من وراء هذا التزيين والاستهواء لجماهير الناس ، وهو ما يعود عليهم مما يقسمه هؤلاء الأغرار المغفلون للآلهة! وأما مصلحة شياطين الجن فتتمثل في نجاح الإغواء والوسوسة لبني آدم حتى يفسدوا عليهم حياتهم ، ويفسدوا عليهم دينهم ، ويقودوهم ذللًا إلى الدمار في الدنيا والنار في الآخرة! .

وهذه الصورة التي كانت تقع في جاهلية العرب، وكانت تقع نظائرها في الجاهليات الأخرى، للإغريق والفرس والرومان، والتي ما تزال تقع في الهند وإفريقية وآسيا..

" وكما زين الشركاء والشياطين لهم ذلك التصرف في أموالهم كذلك زينوا لهم قتل أولادهم بالوأد ، أو قتل بعض الأبناء في النذر للآلهة كالذي روي عن عبد المطلب من نذره ذبح أحد ولده إن رزقه الله بعشرة منهم يحمونه ويمنعونه! "[٣].

" ومن ذلك أيضا ما كان عليه المشركون على عهد رسول الله - ﷺ - وقبله ،

---

(١) تطهير الاعتقاد للصنعاني ص ٣٣ ، وأدب الطلب للشوكاني ص ٢٠٣ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣١٣.
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٢١٨ بتصرف يسير .

ينذرون بعض أبنائهم للآلهة ، أو لخدمة معابد الآلهة ! تقربًا وزلفى إلى الله ! ومع توجههم في أول الأمر لله، فإنهم بعد دحرجة من قمة التوحيد إلى درك الوثنية كانوا ينذرون لهذه الآلهة أبناءهم لتعيش وتصح وتوقى المخاطر! كما يجعل الناس اليوم نصيبًا في أبدان أبنائهم للأولياء والقديسين، كأن يستبقوا شعر الغلام لا يحلق أول مرة إلا على ضريح ولي أو قديس ، أو أن يستبقوه بلا ختان حتى يختن هناك ، مع أن هؤلاء الناس اليوم يعترفون بالله الواحد ، ثم يتبعون هذا الاعتراف بهذه الاتجاهات المشركة ، والناس هم الناس ! ، على أننا نرى في زماننا هذا صنوفًا وألوانًا من الشرك، ممن يزعمون أنهم يوحدون الله ويسلمون له ، ترسم لنا صورة من مدارج الشرك التي ترسمها نصوص القرآن الكريم .

إن الناس يقيمون لهم اليوم آلهة يسمونها " القوم " ويسمونها " الوطن "، ويسمونها " الشعب".. إلى آخر ما يسمون ، وهي لا تعدو أن تكون أصنامًا غير مجسدة كالأصنام الساذجة التي كان يقيمها الوثنيون، ولا تعدو أن تكون آلهة تشارك الله – سبحانه – في خلقه ، وينذر لها الأبناء كما كانوا ينذرون للآلهة القديمة! ويضحون لها كالذبائح التي كانت تقدم في المعابد على نطاقٍ واسع ! "[1].

" وإننا لنشهد اليوم – بعد أربعة عشر قرنًا من نزول هذا القرآن بهذا البيان –أنه حيثما انفك رباط القلب البشري بالإله الواحد تاه في منحنيات ودروب لا عداد لها، وخضع لربوبيات شتى، وفقد حريته وكرامته ومقاومته، ولقد شهدت في هذا الجانب الخرافي وحده في صعيد مصر وريفها عشرات من الأوهام تطلق لها بعض صنوف الحيوان ، للأولياء والقديسين ، في ذات الصورة التي كانت تطلق بها للآلهة في الزمان القديم! " .[2]

ج- الحلق لغير الله : حلق الرأس ثلاثة أنواع:

الأول: نسك وقربة ، كالحلق في الحج والعمرة .

الثاني : حاجة ودواء وعادة ، يمارسه الإنسان كلما زاد شعره أو احتاج إلى إزالته .

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٤١٢-١٤١٣ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٩٩٠ .

الثالث: بدعة وشرك، وهو حلق الرأس لغير الله ، كما يفعله المريدون لشيوخهم [(١)]

وقد أشار سيد – رحمه الله– أن حلق الرأس تقربا لغير الله من الشرك ، ومن صور ذلك استبقاء شعر الغلام حتى يحلق على ضريح ولي أو قديس ، حيث يقول "... كما يجعل الناس اليوم نصيبًا في أبدان أبنائهم للأولياء والقديسين ، كأن يستبقوا شعر الغلام لا يحلق أول مرة إلا على ضريح ولي أو قديس..." . [(٢)]

النوع الخامس : شرك الحاكمية والتشريع والطاعة :

الحاكمية -كما سبق – مصطلح يدل على قضية " الحكم بما أنزل الله " وما يستلزمه ذلك من التشريع والطاعة والإتباع ، وهي قضية عقدية يبنى عليها معقد التفرقة بين الإيمان والكفر ، وبين التوحيد الخالص والشرك ، باعتبار صلتها الأصيلة بتوحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ، حيث لا يتحقق التوحيد إلا بإفراد الله بالخلق والأمر بقسمة الكوني والشرعي ، وما يتبع ذلك من الإقرار له وحده بالسيادة العليا والتشريع المطلق والطاعة له وحده فيما يأمر به وينهى عنه .

وفيما يأتي بيان لما يتعلق بالشرك في الحاكمية عند سيد ـ رحمه الله ـ :

أولا : مظاهر شرك الحاكمية :

لشرك الحاكمية والتشريع والطاعة مظاهر عديدة أشار إليها سيد - رحمه الله- ومنها :

١ - تشريع ما لم يأذن به الله :

بين القرآن الكريم في أكثر من موضع قضية إنفراد الله – سبحانه – بالأمر والحكم والتحليل والتحريم غاية البيان ، وإلى جانب الآيات التي تثبت تفرد الله – سبحانه – بالحكم شرعًا وقدرًا ، هناك آيات أخرى تبين الأسباب التي من أجلها استحق الله – سبحانه – هذا التفرد ، والصفات التي من أجلها كانت الحاكمية من خصائص الألوهية .

وقد وقف سيد – رحمه الله– كثيرًا في ظلال الآيات المتعلقة بقضية التشريع ،

---

(١) زاد المعاد لابن القيم ٤/ ١٤٦ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٤١٢ .

وبين انفراد الله وحده بهذا الحق وتوافي الديانات على إقرار هذا الحق لله -سبحانه - دون شريك [١] .

كما بيّن الأسباب التي من أجلها استحق الله وحده حق التشريع ، ويمكن استعراض نماذج من كلام - سيد - حول ذلك فيما يأتي :

أ- من يملك حق التشريع للبشر :

يقرر سيد - رحمه الله- في مواضع كثيرة أن الذي يملك حق الحاكمية والتشريع والتحليل والتحريم ، هو الله -سبحانه - وليس لأي جهة غير الله شيئا من ذلك الحق فيقول : " والإقرار بوحدة الألوهية وقصر العبودية عليها يتضمن وحدة الجهة التي تصرِّف حياة العباد بالتشريع والتوجيه والقيم والموازين ، فمن جعل لغير الله شيئًا من هذا ابتداءً فهو مشرك به أو كافر بألوهيته ..."[٢]. " وقد كانت المعركة على مدار التاريخ بين الجاهلية والإسلام، على من يكون هو رب الناس ، الذي يحكمهم بشرعه ، ويصرفهم بأمره ، ويدينهم بطاعته ؟ وكانت الرسالات والرسل والدعوات الإسلامية تجاهد دائما لانتزاع هذا الحق من الطواغيت لترده إلى صاحبه الشرعي.. الله سبحانه.."[٣] ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٤] " فالحكم لا يكون إلا لله ، فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته إذ الحاكمية من خصائص الألوهية " [٥].

" وواضح من سياق القول أنه يعني هنا حكم الله القدري القهري الذي لا مفر منه ولا فكاك، وقضاءه الإلهي الذي يجري به قدره فلا يملك الناس فيه لأنفسهم شيئًا. حيث يمضي في الناس على غير إرادة منهم ولا اختيار ، وهذا هو الإيمان بالقدر خيره وشره ، وإلى جانبه حكم الله الذي ينفذه الناس عن رضي منهم واختيار. وهو الحكم الشرعي المتمثل في الأوامر والنواهي ، وهذا كذلك لا يكون إلا لله ، شأنه شأن حكمه القدري باختلاف واحد : هو أن الناس ينفذونه مختارين أو لا ينفذونه،

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٨٨٨ وما بعدها .

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٨٨ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ٤/ ١٨٥٢ بتصرف ، وينظر أيضا ٤/ ٢٠٢١ .

(٤) سورة يوسف : الآية ٤٠

(٥) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٩٠ .

ولكنهم لا يكونون مسلمين حتى يختاروا حكم الله هذا وينفذوه فعلًا راضين "[1].

" إن هذا الدين يقرر أن التحليل والتحريم هو من شأن الله وحده لأنهما أخص خصائص الألوهية فلا تحريم ولا تحليل بغير سلطان من الله ، فالله - وحده- هو الذي يحل للناس ما يحل، ويحرم عليهم ما يحرم ، وليس لأحد أن يدعي هذا الحق، لأن هذا مرادف تمامًا لدعوى الألوهية ! ومن ثم فأي تحليل أو تحريم ، يصدر عن غير الله - سبحانه - فهو باطل بطلانًا أصليًا ، غير قابل للتصحيح ، لأنه لا وجود له منذ الابتداء ، والأمور التي أحلها الإسلام وكانت في الجاهلية حلالًا أو حرمها الإسلام وكانت في الجاهلية حرامًا ، فليس ذلك اعتمادًا على أحكام الجاهلية، لأنها باطلة أصلًا بصدورها عن جهة لا تملك حق الحاكمية ، وإنما هو ينشئ هذه الأحكام ابتداءً ، وهذه النظرية الإسلامية في الحل والحرمة تشمل كل شيء في الحياة الإنسانية ولا يخرج عن نطاقها شيء في هذه الحياة ،إنه ليس لأحد غير الله أن يحل أو يحرم في نكاح ولا في طعام ولا في شراب ولا في لباس ولا في حركة ولا في عمل ولا في عقد ولا في تعامل ولا في ارتباط ولا في عرف ولا في وضع ، إلا أن يستمد سلطانه من الله حسب شريعة الله .

وكل جهة أخرى تحرم أو تحلل شيئًا في حياة البشر - كبر أم صغر - تصدر أحكامها باطلة بطلانًا أصليًا غير قابل للتصحيح المستأنف، فالإسلام أنشأ أحكامه في الحل والحرمة مستندًا إلى المصدر الذي يملك إنشاء الأحكام " سلطانه الخاص" ولهذا عني القرآن بتقرير هذه النظرية وكرر الجدل مع الجاهليين حولها ، مقررًا المبدأ الأساسي ، وهو أن الذي يملك حق التحريم والتحليل هو الله وحده ، وليس ذلك لأحد من البشر، لا فرد ولا طبقة ولا أمة ولا الناس أجمعين إلا بسلطان من الله وفق شريعة الله ، والتحليل والتحريم - أي الحظر والإباحة - هو الشريعة وهو الدين، فالذي يحلل ويحرم هو صاحب الدين ، فإذا كان هو الله فالناس في دينه وإذا كان غير الله فالناس في دين غير الله لا في دين الله ، والمسألة على هذا الوضع هي مسألة الألوهية وخصائصها ، وهي مسألة الدين ومفهومه ، وهي مسألة الإيمان وحدوده، فلينظر المسلمون في أنحاء الأرض أين هم من هذا الأمر؟ أين هم من

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٠١٨ بتصرف ، وينظر أيضا ٤/ ٢١١٤ .

الدين وأين هم من الإسلام "(١) .

" إن النصوص القرآنية تجعل التحريم والتحليل - والتشريع كله - حقًا خالصًا لله ، وتجعل مزاولته من البشر - بغير ما أذن الله - كفرًا ، بل زيادة في الكفر ، وتعتبر قصر التشريع على الله وحده أصلًا من أصول العقيدة الإسلامية ، وتربط ذلك بالحق الأصيل في بناء الكون .. فتشريع الله للناس إنما هو فرع عن تشريعه للكون ".(٢)

ب ـ أسباب انفراد الله ـ سبحانه- بحق التشريع والحاكمية :

يعلل سيد قطب - رحمه الله- وجوب إفراد الله وحده بحق الحاكمية والتشريع والتحليل والتحريم بأمور منها :

١ - كون الله - سبحانه - هو صاحب الربوبية والتصرف المطلق في الخلق :

يقول سيد : " فالله هو الخالق ، وهو الرازق ، وهو المالك ، وهو صاحب القدرة والقهر والسلطان وهو العليم بالغيوب والأسرار، وهو الذي يقلب القلوب والأبصار كما يقلب الليل والنهار ، وكذلك يجب أن يكون الله هو الحاكم في حياة العباد ، وألا يكون لغيره نهي ولا أمر ، ولا شرع ولا حكم ولا تحليل ولا تحريم ، فهذا كله من خصائص الألوهية ولا يجوز أن يزاوله في حياة الناس أحد من دون الله لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت، ولا يضر ولا ينفع ، ولا يمنح ولا يمنع، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا في الدنيا ولا في الآخرة " (٣) .

" فالكون بجملته لا يستقيم أمره ولا يصلح حاله إلا أن يكون هناك إلهٌ واحدٌ يدبر أمره ، و﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ وأظهر خصائص الألوهية بالقياس إلى البشرية ، تعبيد العبيد، والتشريع لهم في حياتهم ، وإقامة الموازين لهم، فمن ادعى لنفسه شيئًا من هذا ، فقد ادعى لنفسه الألوهية ، وأقام نفسه إلها من دون الله ، وبذلك يقع الفساد في الأرض بتعدد الآلهة التي تدعي حق التشريع

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٦١٠-٦١١ بتصرف ، وينظر: ١/ ٢٨٦، ٣١٦، ٢/ ٦٢٣، ٨٣٢، ٩٩٠، ٤/ ١٩١٩، ١٩٦٣ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٦٥١ بتصرف .

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ١٠١٧ بتصرف يسير، وينظر: ٢/ ١١٦٣ ومقومات التصور الإسلامي ص ١٦٣ .

وإقامة الموازين" [١].

٢- أن حكم الله أحسن من حكم غيره:

فالله - سبحانه- يستنكر على الذين يريدون حكم الجاهلية ويسألهم قائلًا: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [٢].

يقول سيد - رحمه الله- : "ومعنى الجاهلية في هذا النص هي حكم البشر للبشر، وهي أمرٌ وجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غدًا، فمن لا يبتغي حكم الله يبتغي حكم الجاهلية، ومن يرفض شريعته الله يقبل بشريعة الجاهلية، وهذا مفرق الطريق.

والسؤال هنا لتقرير أفضلية حكم الله، فمن أحس من الله حكمًا ؟.

ومن ذا الذي يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس ويحكم فيهم، خيرًا مما يشرع الله لهم ويحكم فيهم ؟ وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدي هذا الادعاء العريض ؟ .

أيستطيع أن يقول:إنه أعلم بالناس من خالق الناس؟.

أيستطيع أن يقول : إنه أرحم بالناس من رب الناس؟ .

أيستطيع أن يقول : إنه أعرف بمصالح الناس من إله الناس؟.

أيستطيع أن يقول : إن الله - سبحانه- وهو يشرع شريعته الأخيرة، ويرسل رسوله الأخير، ويجعل رسوله خاتم النبيين، ويجعل رسالته خاتمة الرسالات، ويجعل شريعته شريعة الأبد، كان - سبحانه - يجهل أن أحوالًا ستطرأ، وأن حاجات ستستجد، وأن ملابسات ستقع، فلم يحسب حسابها في شريعته لأنها كانت خافية عليه حتى انكشفت للناس في آخر الزمان؟!.

ما الذي يستطيع أن يقوله من ينحي شريعة الله عن حكم الحياة، ويستبدل بها شريعة الجاهلية وحكم الجاهلية، ويجعل هواه هو أو هوى شعبٍ من الشعوب،

---

(١) المصدر السابق ١/ ٤٠٦-٤٠٧ و٢/ ٨٨٩ بتصرف ومقومات التصور الإسلامي ص ١٤٦-١٤٧، ١٦٣ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٥٠ .

أو هوى جيل من أجيال البشر ، فوق حكم الله ، وفوق شريعة الله ؟!! " [(١)].

" واعتبار الأفضلية الحتمية المقطوع بها لشريعة الله على شرائع الناس ،أشار الله إليه بقوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ، فالاعتراف المطلق بهذه الأفضلية لشريعة الله ، في كل طور من أطوار الجماعة ، وفي كل حالة من حالاتها، داخل في قضية الكفر والإيمان ، فما يملك إنسان أن يدعي أن شريعة أحد من البشر، تفضل أو تماثل شريعة الله ، في أي حالة أو طور.. ثم يدعي - بعد ذلك -أنه مؤمن بالله ، وأنه من المسلمين...

أما مظاهر هذه الأفضلية فيصعب إدراكها كلها ، فإن حكمة شرائع الله لا تنكشف كلها للناس في جيل من الأجيال ، ويمكن الإشارة هنا إلى بعض منها :

* أن شريعة الله تمثل منهجًا شاملًا متكاملًا للحياة البشرية ، يتناول بالتنظيم والتوجيه والتطوير كل جوانب الحياة الإنسانية ، في جميع حالاتها، وفي كل صورها وأشكالها .

* أن هذا المنهج قائم على العلم المطلق بحقيقة الإنسان وحاجاته ، وحقيقة الكون وطبيعة النواميس التي تحكمه وتحكم الإنسان وبالتالي يحصل التوازن والتوافق وينتفي التصادم وهذا ما لا يتوفر في أي منهج من صنع البشر .

* أن هذا المنهج قائم على العدل المطلق ، لأن الله وحده يعلم بما يتحقق العدل، ولأنه - سبحانه - رب الناس جميعًا، فمنهجه مبرأ من الهوى والميل والضعف ، ومن الجهل والقصور والغلو والتفريط ، الأمر الذي لا يمكن توفره في أي منهج من صنع البشر .

* أنه المنهج الوحيد الذي يتحرر فيه الإنسان من العبودية للإنسان - المتمثل في طاعة مناهج البشر والدينونة لها " [(٢)].

وبناء على ذلك يقرر سيد - رحمه الله- أن قضية التشريع هي قضية إسلام أو جاهلية ، فالجاهلية حالة توجد كلما وجدت مقوماتها في وضع أو نظام ، وهي في

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٠٤-٩٠٥ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٨٨٩-٨٩٠ بتصرف يسير وينظر ١/ ٢٩٥ .

صميمها الرجوع بالحكم والتشريع إلى أهواء البشر، لا إلى منهج الله وشريعته ، ويستوي أن تكون هذه الأهواء - أهواء فردٍ أو طبقة ، أوأمةٍ أو جيل - فكلها مادامت لا ترجع إلى شريعة الله ... أهواء .

- يشرع فرد لجماعة فإذا هي الجاهلية، لأن هواه ورأيه هو القانون- لا فرق إلا في العبارات.

- وتشرع طبقة لسائر الطبقات فإذا هي جاهلية، لأن مصالح تلك الطبقة هي القانون - أو رأي الأغلبية هو القانون - فلا فرق إلا في العبارات!.

- ويشرع ممثلو جميع الطبقات وجميع القطاعات في الأمة لأنفسهم فإذا هي جاهلية ، لأن أهواء الناس الذين لا يتجردون أبدًا منها وجهلهم هو القانون- فلا فرق إلا في العبارات!.

- وتشرع مجموعة من الأمم للبشرية فإذا هي جاهلية، لأن أهدافها القومية ، أو رأي المجامع الدولية هو القانون - فلا فرق إلا في العبارات!.

- ويشرع خالق الأفراد ، وخالق الجماعات ، وخالق الأمم والأجيال ، للجميع فإذا هي شريعة الله التي لا محاباة فيها لأحد على حساب أحد ، لا لفرد ولا لجماعة ولا لدولةٍ ، ولا لجيل ، لأن الله رب الجميعً ، ويعلم حقيقة ومصلحة الجميع ، فلاً يفوته - سبحانه - شيء من ذلك ...

ومن هنا خطورة هذه القضية في حياة بني الإنسان ، وفي نظام الكون كله : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ فالحكم بغير ما أنزل الله معناه الشر والفساد والخروج في النهاية عن نطاق الإيمان ، بنص القرآن الكريم " [١].

" إن حكم الله هو الحكم الوحيد المبرأ من مظنة الحيف ، لأن الله هو العادل الذي لا يظلم أحدًا ، وكل خلقه أمامه سواء، فلا يظلم أحدًا منهم لمصلحة أحد، وكل حكم غير حكمه هو مظنة الحيف فالبشر لا يملكون أنفسهم وهم يشرعون

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٩١ بتصرف يسير .

ويحكمون أن يميلوا إلى مصالحهم ، أفرادًا كانوا أم طبقة أم دولة "[١].

ج - حكم من ادعى حق التشريع لنفسه أو غيره :

يقول سيد - رحمه الله- : " إن الحكم لا يكون إلا لله ، فهو مقصور عليه- سبحانه- بحكم إلوهيته إذ الحاكمية من خصائص الألوهية من ادعى الحق فيها فقد نازع الله- سبحانه - أولى خصائص إلوهيته، سواء ادعى هذا الحق فرد ، أو طبقة ، أو حزب، أو هيئة ، أو أمة ، أو الناس جميعًا في صورة منظمة عالمية ، ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله كفرًا بواحًا يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة ...

وادعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هي التي تخرج المدعي من دائرة الدين القيم وتجعله منازعًا لله في أولى خصائص إلوهيته سبحانه ، فليس من الضروري أن يقول : ما علمت لكم من إله غيري، أو يقول : أنا ربكم الأعلى ، كما قالها فرعون جهرة.

ولكنه يدعي هذا الحق وينازع الله فيه بمجرد أن ينحي شريعة الله عن الحاكمية، ويستمد القوانين من مصدر آخر ، وبمجرد أن يقرر أن الجهة التي تملك الحاكمية، أي التي تكون هي مصدر السلطات جهة أخرى غير الله سبحانه ، ولو كان هو مجموع الأمة أو مجموع البشرية..." .[٢]

ويقول أيضا : " والمشركون هم : الذين يشركون بالله أحدًا في خصائص الألوهية، سواء في الاعتقاد بألوهية أحد مع الله ، أو بتقديم الشعائر التعبدية لأحد مع الله ، أو بقبول الحاكمية والشريعة من أحد مع الله ، ومن باب أولى من يدعون لأنفسهم واحدة من هذه "[٣].

" فأيما إنسان زعم لنفسه أنه أعلم من الله بمصلحة عباده ، أو زعم أن هذا المنهج الرباني لم يِعد يصلح للحياة المتجددة النامية في الأرض ، أو زعم أنه يملك ابتداع منهجٍ أمثلَ من المنهج الذي أراده الله ، أيما إنسان زعم واحدة من هذه الدعاوى أو

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٥٢٦ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ١٩٩٠ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٩ .

زعمها جميعًا فقد كفر كفرًا صراحًا لا مراء فيه "(١).

وبعد أن استعرض سيد - رحمه الله- كلام بعض السلف في أهل البدع قال: " فهذا كله في صاحب البدعة وهو على دين الله ، وكله لا يبلغ مدى من يدعي خصائص الألوهية بمزاولته للحاكمية ومن يقره على هذا الادعاء ، فليس هذا بدعة مبتدع ، ولكنه كفر كافر، أو شرك مشرك مما لم يتعرض له السلف لأنه لم يكن في زمانهم ، فمنذ أن قام الإسلام في الأرض لم يبلغ من أحد أن يدعي هذه الدعوى، وهو يزعم الإسلام ، ولم يقع شيء من ذلك إلا بعد الحملة الفرنسية التي خرج بعدها الناس من إطار الإسلام - إلا من عصم الله - ، وكذلك لم يعد في قول هؤلاء السلف ما ينطبق على هذا الذي كان ! فقد تجاوز كل ما تحدثوا عنه بمثل هذه الأحكام "(٢).

" وبالرجوع إلى أصل القضية ، وهي أن الحاكمية وحق تعبيد الناس وتشريع الشرائع لهم هي أولى خصائص الألوهية التي لا يدعيها لنفسه مؤمن بالله ولا يقره عليها مؤمن بالله كذلك ، وأن الذي يدعي حق الحاكمية وحق تعبيد الناس لما يشرعه لهم من عند نفسه إنما يدعي حق الألوهية ، وأن الذي يقره على هذا الادعاء أو يحتكم إلى ما يشرعه للناس من عند نفسه - إلا مكرهًا كارهًا منكرًا باليد أو باللسان أو القلب - إنما يقره على ادعاء صفة الألوهية "(٣).

٢- الحكم بغير ما أنزل الله وتحكيم غير شريعته في الناس والتحاكم إليها :

"الحكم بما أنزل الله وتحكيم شرعه والتحاكم إليه، هو مقتضى شهادة " أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله" حيث لا يقبل من العباد إلا العبودية الخالصة لله ، متمثلة في الاستسلام اعتقادًا وشعورًا وعملًا وطاعةً وإتباعًا للمنهج العملي المتمثل في أحكام الشرع ، ومن هذه الناحية نجد كثيرين في كل زمان يشركون معه غيره ، حيث يتحاكمون إلى غير شريعته ، ويطيعون غير أمره ويتلقون من غيره- سبحانه-

(١) المصدر السابق ١/ ٢٨٣ وينظر مقومات التصور الإسلامي ص ١١٧- ١١٨، ١٥١
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١١٣٠ .
(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ١٧٩ .

وهذه كلها تناقض الإيمان ولا تستقيم مع شهادة الحق "[١].

وقد حسم القرآن الكريم قضية الحكم بغير ما أنزل الله في كثر من الآيات ، ودمغ من يحكم بغير ما أنزل الله بالكفر والظلم والفسوق ، فقال سبحانه: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[٢] بهذا الحسم الصارم الجازم ، وبهذا التعميم الذي تحمله "من " الشرطية وجملة الجواب ، بحيث يخرج من حدود الملابسة والزمان والمكان ، وينطبق حكماً عامًا ، على كل من لم يحكم بما أنزل الله ، في أي جيل ، ومن أي قبيل .

والعلة هي: أن الذي لا يحكم بما أنزل الله ، إنما يرفض ألوهية الله ، فالألوهية من خصائصها ومقتضياتها الحاكمية التشريعية ، ومن يحكم بغير ما أنزل الله ، يرفض ألوهية الله وخصائصها في جانب ، ويدعي لنفسه هو حق الألوهية وخصائصها في جانب آخر ، وماذا يكون الكفر إن لم يكن هو هذا وذاك ؟ وما قيمة دعوى الإيمان أو الإسلام باللسان، والعمل - وهو أقوى تعبيرًا من الكلام - ينطق بالكفر أفصح من اللسان؟!.

إن المماحكة في هذا الحكم الصارم الجازم العام الشامل ، لا تعني إلا محاولة التهرب من مواجهة الحقيقة ، والتأويل والتأول في مثل هذا الحكم لا يعني إلا محاولة تحريف الكلم عن مواضعه ، وليس لهذه المماحكة من قيمة ولا أثر في صرف حكم الله عمن ينطبق عليهم بالنص الصريح الواضح الأكيد "[٣].

" وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[٤]، وصف جديد عام لمن لم يحكم بما أنزل الله وهو " الظلم " ولا يعني هذا الوصف الجديد أنها حالة أخرى غير التي سبق الوصف فيها بالكفر، وإنما يعني إضافة صفة أخرى لمن لم يحكم بما أنزل الله ، فهو " كافر" باعتباره رافضًا لألوهية الله -سبحانه- واختصاصه بالتشريع لعباده، وبادعائه هو حق الألوهية بادعائه حق التشريع للناس، وهو" ظالم" بحمل الناس على شريعة غير شريعة ربهم الصالحة المصلحة

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٨ بتصرف .
(٢) سورة المائدة : الآية ٤٤ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٨٩٨ .
(٤) سورة المائدة : الآية ٤٥ .

لأحوالهم ، فوق ظلمه لنفسه بإيرادها موارد التهلكة ، وتعريضها لعقاب الكفر، وبتعريض حياة الناس - وهو معهم - للفساد .

وهذا ما يقتضيه اتحاد المسند إليه وفعل الشرط : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ فجواب الشرط الثاني يضاف إلى جواب الشرط الأول، ويعود كلاهما على المسند إليه في فعل الشرط وهو " من " المطلق العام ؟!!

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ ، نص على عمومه وإطلاقه وصفة الفسق تضاف إلى صفتي الكفر والظلم من قبل ، وليست تعني قومًا جددًا ولا حالة جديدة منفصلة عن الحالة الأولى ، إنما هي صفة زائدة على الصفتين قبلها ، لاصقة بمن لم يحكم بما أنزل الله من أي جيل ، ومن أي قبيل .

" الكفر" برفض ألوهية الله ممثلًا هذا في رفض شريعته .

و" الظلم " بحمل الناس على غير شريعة الله وإشاعة الفساد في حياتهم .

و" الفسق " بالخروج عن منهج الله وإتباع غير طريقه ، فهي صفات يتضمنها الفعل الأول ، وتنطبق جميعها على الفاعل ، ويبوء بها جميعًا دون تفريق "[١].

ويمثل الوضوح والحسم في بيان كفر من حكم بغير ما أنزل الله ، جاء حكم من يتحاكم إلى غير ما أنزل الله حيث يقول سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[٢] .

فإرادة التحاكم إلى الطاغوت - وهو " كل ذي طغيان على الله ، فعبد من دونه ، إما بقهر منه لمن عبده ، وإما بطاعة ممن عبده له ، إنسانًا كان ذلك المعبود أو شيطانًا، أو وثنًا أو كائنًا ما كان من شيء "[٣] ، تناقض دعوى الإيمان ، فالطاغوت يقابل شرع الله ، فكل ما لم يشرعه الله فهو طاغوت يجب الكفر به وعدم التحاكم إليه ، فلا إيمان

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٠١ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٧٨ .
(٢) سورة النساء : الآية ٦٠ .
(٣) تفسير الطبري . ٤/ ١٣٦

مع الاتجاه إلى التحاكم إلى غير شريعة الله ، والبعد عن تحكيم شريعة الله "[١].

ويلخص سيد - رحمه الله- القضية بقوله : " على أنه بالرجوع إلى أصل القضية وهي أن الحاكمية وحق تعبيد الناس وتشريع الشرائع لهم هي أولى خصائص الألوهية، التي لا يدعيها لنفسه مؤمن بالله ولا يقره عليها مؤمن بالله كذلك ، وأن الذي يدعي حق الحاكمية وحق تعبيد الناس لما يشرعه لهم من عند نفسه - إلا مكروهًا كارهًا منكرًا باليد أو اللسان أو القلب - فإنما يقره على ادعاء صفة الألوهية ، وأن من يرفض تحكيم شريعة الله في كل شؤون الحياة ، إنما يرفض الاعتراف بألوهية الله - سبحانه- ولو في جانب من جوانب هذا الكون هو الحياة البشرية - وأنه من يقره على هذا الرفض فإنما يشترك معه في رفض ألوهية الله - سبحانه - في هذا الجانب وأن الذي يرفض ألوهية الله لا يمكن أن يقال عنه أنه مسلم لله - مهما زعم ذلك بلسانه - طالما أن هذا الزعم مصحوب بفعل يناقض مدلوله ، وهو إرادة التحاكم إلى الطاغوت ، وعدم التحاكم إلى شريعة الله ، ومن باب أولي الحكم بالطاغوت وعدم الحكم بما أنزل الله ، فالحكم بما أنزل الله لا يتحقق إلا بالحكم بنص شريعة الله والرجوع فيما يختلف فيه ، مما ليس فيه نص إلى الله ورسوله ، لا إلى مصدر سواه .

نقول بالرجوع إلى هذه الأصول التي تقررها نصوص القرآن الكريم الصريحة لا مفهوما ته المستنبطة ، لا تبقى حاجة إلى بيان جديد ، ولا يبقى مجال للجدل الجاد ، وإنما هو المراء الذي لا يستحق الاحترام ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾[٢].

والخلاصة : " أن الإيمان والإسلام ينتفيان عمن لا يحكم بما أنزل الله ، ولا عبرة بما يقوله اللسان إذا صاحب هذا القول عدم الحكم بما أنزل الله ، فهذا من الكفر البواح، الذي عند المسلمين فيه سلطان من الله "[٣].

٣- الإعراض عن حكم الشرع وعدم الرضى به :

يقول سيد: " الإعراض عن تحكيم كتاب الله علامة الكفر التي تنفي دعوى

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٦٨-١٧٢ بتصرف .
(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ١٧٩-١٨٠ .
(٣) المصدر السابق ص ١٧٥ . بتصرف يسير

الإيمان بالله على الإطلاق" [١]." فالتشريعات كلها منوطة بالإيمان، وتنفيذها كما هي هو الإيمان، أو هو دليل الإيمان فالذي يعدل عنها إنما يكفر بالإيمان ، ويستره ويغطيه ويجحده " [٢].

ويرى سيد - رحمه الله- أن قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[٣] "عامٌ في اليهود والنصارى والمسلمين ، فهو سؤال التعجب والتشهير من هذا الموقف المتناقض الغريب.. فهؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب ، ثم هم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم في خلافاتهم ، وليحكم بينهم في شؤون حياتهم ومعاشهم ، فلا يستجيبون جميعًا لهذه الدعوة ، إنما يتخلف فريق منهم ويعرض عن تحكيم كتاب الله وشريعته ، الأمر الذي يتناقض مع الإيمان بأي نصيب من كتاب الله ، فالله يعجب من أهل الكتاب حين يعرض بعضهم - لا كلهم - عن الاحتكام إلى كتاب الله في أمور الاعتقاد وأمور الحياة ، فكيف بمن يقولون :أنهم مسلمون ، ثم يُخْرِجُون شريعة الله من حياتهم كلها ، ثم يظلون يزعمون أنهم مسلمون ! أنه مَثَلٌ يضربه الله للمسلمين أيضًا كي يعلموا حقيقة الدين وطبيعة الإسلام ويحذروا أن يكونوا موضعًا لتعجب الله وتشهيره بهم ، فإذا كان هذا هو استنكار موقف أهل الكتاب الذين لم يدَّعوا الإسلام ، حين يعرض فريق منهم عن التحاكم إلى كتاب الله ، فكيف يكون الاستنكار إذا كان " المسلمون " هم الذين يعرضون هذا الإعراض ،إنه العجب الذي لا ينقضي ، والبلاء الذي لا يقدر ، والغضب الذي ينتهي إلى الشقوة والطرد من رحمة الله ! والعياذ بالله ! " . [٤].

ذلك أنه " لا يجتمع في قلب واحد الخوف من الآخرة والحياء من الله ، مع الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله ، وتحكيمه في كل شأن من شؤون الحياة .. ومثل أهل الكتاب هؤلاء مثل من يزعمون اليوم أنهم مسلمون ، ثم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون ، وفيهم من يتبجحون ويتوقحون ،

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٦٤ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٨٤٨ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ٢٣ .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٣٨٢ .

ويزعمون أن حياة الناس دنيا لا دين! "[١].

" إن عدم الرضى بحكم شريعة الله وقانونه ، والإعراض عنها من علامات النفاق ، فما يستقيم الإيمان وإباء حكم الله ورسوله "[٢].

ولهذا جاء النص واضحًا وحاسمًا حيث يقسم الله - سبحانه- بذاته العلية ،أنه لا يؤمنُ مؤمنٌ حتى يحكم رسول الله ﷺ في أمره كله ، ثم يمضي راضيًا بحكمه ، مسلمًا بقضائه ليس في صدره حرج منه ، ولا في نفسه تلجلج في قبوله : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[٣] " شرط الإيمان وحدّ الإسلام ، يقرره الله -سبحانه - بنفسه ، ويقسم عليه بذاته ، فلا يبقى بعد ذلك قول لقائل في تحديد شرط الإيمان وحد الإسلام ، ولا تأويلٌ لمؤول ، اللهم إلا مماحكة لا تستحق الاحترام ، وهي أن هذا القول مرهون بزمان ، وموقوف على طائفة من الناس! وهذا قول من لا يدرك من الإسلام شيئًا، ولا يفقه من التعبير القرآني قليلًا ولا كثيرًا ، فهذه حقيقة كلية من حقائق الإسلام ، جاءت في صورة قسم مؤكد ، مطلقة من كل قيد ، وليس هناك مجالٌ للوهم أو الإيهام بأن تحكيم رسول الله - ﷺ - هو تحكيم شخصه، إنما هو تحكيم شريعته ومنهجه ، وإلا لم يبق لشريعة الله وسنة رسوله مكان بعد وفاته - ﷺ - وذلك قول أشد المرتدين ارتدادًا على عهد أبي بكر - رضي الله عنه - وهو الذي قاتلهم عليه قتال المرتدين ، بل قاتلهم على ما هو دونه بكثير، وهو مجرد عدم الطاعة لله ورسوله في حكم الزكاة، وعدم قبول حكم رسول الله - ﷺ - فيها، بعد الوفاة ! ، وإذا كان يكفي لإثبات " الإسلام " أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله وحكم رسوله ، فإنه لا يكفي في " الإيمان " هذا ، ما لم يصحبه الرضى النفسي، والقبول القلبي ، وإسلام القلب والجنان ، في اطمئنان! هذا هو الإسلام، وهذا هو الإيمان . فلتنظر نفس أين هي من الإسلام ، وأين هي من الإيمان ! قبل ادعاء الإسلام وادعاء الإيمان! "[٤].

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٨٣

(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٥٢٦. بتصرف .

(٣) سورة النساء : الآية ٦٥ .

(٤) في ظلال القرآن ٢/ ٦٩٦ - ٦٧٠ وينظر : مقومات التصور الإسلامي ص ١٨٥ .

٤- إقصاء شريعة الله أو بعضها عن الحكم :

يقول سيد : " لقد كمل هذا الدين ، وتمت به نعمة الله على المسلمين ، ورضيه الله لهم منهج حياة للناس أجمعين، ولم يعد هنالك من سبيل لتعديل شيء فيه أو تبديله، ولا لترك شيء من حكمه إلى حكم آخر، ولا شيء من شريعته إلى شريعة أخرى، وقد علم الله حين رضيه للناس، أنه يسع الناس جميعًا، وعلم الله حين رضيه مرجعًا أخيرًا أنه يحقق الخير للناس جميعًا ، وأنه يسع حياة الناس جميعًا إلى يوم الدين ، وأي تعديل في هذا المنهج - ودعك من العدول عنه - هو إنكار لهذا المعلوم من الدين بالضرورة يخرج صاحبه من هذا الدين ، ولو قال باللسان ألف مرة :أنه من المسلمين! " [١].

"فالعدول أو التعديل في شريعة الله لا يعني شيئًا إلا الفساد في الأرض ، والانحراف عن المنهج الوحيد القويم ، والتساهل في شيء من شريعة الله لأي سبب أمرٌ لا يجوز أن يفكر فيه مسلم ، فالناس - في أي زمان وفي أي مكان - إما أن يحكمون بشريعة الله - دون فتنة عن بعض منها - ويقبلونها ويسلمون بها تسليماً ، فهم إذن في دين الله، وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر - في أي صورة من الصور - فليسوا بحال في دين الله ، والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية، ويعيش في الجاهلية ، وهذا مفرق الطريق " [٢]. " إن من يرفض تحكيم شريعة الله في كل شؤون الحياة ، إنما يرفض الاعتراف بألوهية الله ، وليس له من وصف غير الشرك والكفر" [٣] " لأنه بذلك ينازع الله في خصائص ألوهيته حين ينحي شريعة الله عن الحاكمية ، ويستمد القوانين من مصدر أخر ولو كان هو الأمة بمجموعها " [٤].

" إن الشرك بالله المخالف لشهادة أن لا إله إلا الله يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحده ، ويكفي أن يدين العبد لله في جوانب من حياته بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير الله ، حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته ، والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٠٢ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٩٠٣-٩٠٤بتصرف .
(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ١٨٠ ، وفي ظلال القرآن ٢/ ١٠٤٨ .
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٩٠ بتصرف .

المثال الواقعي للشرك في أعماق طبيعته ،إن العبد الذي يتوجه لله بالاعتقاد في ألوهيته وحده، ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله ، ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات من صنع غير الله ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء مخالفة لشرع الله وأمره ، إن هذا العبد يزاول الشرك في أخص حقيقته ، ويخالف عن شهادة " أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله " في أخص حقيقتها ، وهذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخص وتميع ، وهم لا يحسبونه الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان! "(١)

ويعقب سيد - رحمه الله- على قصة قوم شعيب واستنكارهم الربط بين العقيدة والشعائر ، وبين الشرائع والمعاملات بقوله: " وقبل أن نمضي طويلا في تسفيه هذا التصور السقيم لارتباط الشعائر بالعقيدة ، وارتباطهما معًا بالمعاملات عند أهل مدين قبل ألوف السنين ، يحسن أن نذكر أن الناس اليوم لا يفترقون في تصورهم ولا في إنكارهم لمثل هذه الدعوة عن قوم شعيب ، وأن الشرك الذي كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الشرك الذي تزاوله اليوم البشرية بجملتها بما فيها أولئك الذين يقولون :أنهم يهود أو نصارى أو مسلمون فكلهم يفصل بين العقيدة والشعائر ، والشريعة والتعامل ، فيجعل العقيدة والشعائر لله ووفق أمره ، ويجعل الشريعة والتعامل لغير الله ووفق أمره ، وهذا هو الشرك في حقيقته وأصله ، إن بيننا اليوم ممن يقولون :إنهم مسلمون! من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والأخلاق ، وبخاصة أخلاق المعاملات المادية . وحاصلون على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم ، يتساءلون أولًا في استنكار: وما للإسلام وسلوكنا الشخصي؟ ما للإسلام والعري في الشواطئ؟ ما للإسلام وزي المرأة في الطريق؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل؟ ما للإسلام وتناول كأس الخمر لإصلاح المزاج؟ ما للإسلام وهذا الذي يفعله " المتحضرون " ؟!.. فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين : ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ . .

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١١٤-٢١١٥ .

وهم يتساءلون ثانيًا . بل ينكرون بشدة وعنف أن يتدخل الدين في الاقتصاد، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد ، أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد ، فما للدين والمعاملات الربوية ؟ وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي؟ لا بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده ، وينكرون حتى على بعض أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية -النظرية الأخلاقية مثلًا- ويعدونها تخليطًا من أيام زمان! ، فلا يذهبن بنا الترفع كثيرًا على أهل مدين في تلك الجاهلية "[1].

" إذن فلا يتم الإسلام إلا بإتباع شريعة الله كلها وعدم إشراك أحد معه في الحاكمية ، وأخذ جانب من غير الشريعة هو الشرك "[2].

٥- شرك الطاعة والانقياد:

تبين -فيما سبق- أن الذين يشرعون شرعًا يخالف شرع الله - جل وعلا - ويحكمونه في الناس يجعلون من أنفسهم أندادًا وشركاء لله تعالى بتعديهم على حق الله - سبحانه - الذي لم يمنحه لأحد من خلقة لا فردًا ولا حزبًا ولا هيئةً من الهيئات ، وهنا نعرض لأمر مرتبط بقضية شرك التشريع وهو طاعة المشرعين من دون الله - سبحانه- فيما يخالف شرع الله ، وعلاقة ذلك بالشرك بالله تعالى .

فالطاعة : هي موافقة الأمر بفعل المأمورات ولو ندبًا ، وترك المنهيات ولو كراهةً[3].

فهي إذن تعني : الإتباع والانقياد للغير، بامتثال الأوامر واجتناب النواهي الصادرة عنه ، مع الرضى والموافقة ، وهي بهذا مرادفة للعبادة[4].

فإذا تقرر هذا فلا يمكن أن تكون إلا لله - سبحانه- كونه هو الذي يستحق الطاعة المطلقة والخضوع والذل دون غيره ، وقد جاءت آيات كثيرة بالأمر بطاعة الله والنهي عن معصيته ومخالفة أمره ، وتسمية الإعراض والتولي عن طاعته كفرًا،

---

(١) المصدر السابق / ١٩١٩-١٩٢٠ بتصرف وينظر أيضا ١/ ٣٨٢ .
(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ١٧٧ .
(٣) الكليات للكفوي ص ٥٨٣ ، والتعريفات للجرجاني ص ١٤٥ .
(٤) تعظيم قدر الصلاة ، لمحمد بن نصر المروزي ١/ ٣٤٦ ، وفتح القدير للشوكاني ٤/ ٤٣٣ .

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [١] ، وبناءً على ذلك فان شرك الطاعة والانقياد يقصد به طاعة غير الله فيما يشرعونه من أحكام مخالفة لشرع الله ، سواءً في باب التحليل أو التحريم ، أو الجزاء عليهما .

وقد تكلم سيد - رحمه الله- كثيرًا عن شرك الطاعة والانقياد ، موضحًا: " أن الإسلام منهج للحياة كلها ، من اتبعه كله فهو مؤمن وفي دين الله ، ومن اتبع غيره ولو في حكم واحد فقد رفض الإيمان واعتدى على ألوهية الله ، وخرج من دين الله مهما أعلن أنه يحترم العقيدة وأنه مسلم ، فإتباعه شريعة غير شريعة الله يكذب زعمه ويدمغه بالخروج من دين الله " [٢].

وعلل ذلك بقوله : " الإسلام هو طاعة الله والرسول ، والطريق إلى الله هو طريق الإتباع للرسول وليس مجرد اعتقاد القلب ، ولا شهادة اللسان:﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾[٣]، ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [٤]. فإما طاعة وإتباع يحبه الله ، وإما كفر يكرهه الله ، وهذا هو مفرق الطريق " [٥] .

"كما أن من مستلزمات شهادة " أن لا إله إلا الله" العبودية الخالصة له ، الممثلة في الاعتقاد والشعور والعمل والطاعة والإتباع للمنهج العملي المتمثل في أحكام الكتاب ، ومن هذه الناحية نجد كثيرين في كل زمان يقولون :أنهم يؤمنون بالله، ولكنهم يشركون معه غيره في الألوهية ، حين يتحاكمون إلى شريعة من صنع غيره ، وحين يطيعون من لا يتبع رسوله وكتابه، وحين يتلقون التصورات والقيم والموازين والأخلاق والآداب من غيره ، فهذه كلها تناقض القول بأنهم يؤمنون بالله ولا تستقيم مع شهادة الله - سبحانه - بأنه لا إله إلا الله " [٦].

ويزيد الأمر وضوحًا فيقول: " إن الأمر في هذا الدين - الإسلام - بل في دين الله

(١) سورة آل عمران : الآية ٣٢
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٩٧٢ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ٣١.
(٤) سورة آل عمران : الآية ٣٢ .
(٥) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٨ .
(٦) في ظلال القرآن ٣٧٨ .

كله منذ أن أرسل رسله للناس منذ فجر التاريخ هو لمن الألوهية في هذه الأرض؟ ولمن الربوبية على هؤلاء الناس؟ وعلى الإجابة عن هذا السؤال يترتب كل شيء : لمن الألوهية ؟ ولمن الربوبية ؟.

لله وحده - بلا شريك من خلقه - فهو الإيمان إذن وهو الإسلام وهو الدين .

لشركاء من خلقه معه أو لشركاء من خلقه دونه فهو الشرك إذن أو الكفر المبين.

فأما إن تكن الألوهية والربوبية لله وحده فهي الدينونة من العباد لله وحده ، وهي العبودية من الناس لله وحده ، وهي الطاعة من البشر لله وحده وهي الإتباع لمنهج الله وحده بلا شريك ، فهذا مقتضى الألوهية والربوبية ، وأما إن تكن الألوهية أو الربوبية لأحد من خلق الله - شركة مع الله أو أصالة من دونه ! - فهي الدينونة من العباد لغير الله ، وهي العبودية من الناس لغير الله وهي الطاعة من البشر لغير الله ، وذلك بالإتباع للمناهج والأنظمة والشرائع والقيم والموازين التي يضعها ناس من البشر لا يستندون في وضعها إلى كتاب الله وسلطانه، إنما يستندون إلى أسناد أخرى يستمدون منها السلطان ، ومن ثم فلا دين ولا إيمان ولا إسلام ، إنما هو الشرك والكفر والفسوق والعصيان . . ومن ثم يستوي أن يكون الخروج على حدود الله في أمر واحد أو في الشريعة كلها ، لأن الأمر الواحد هو الدين ، والشريعة كلها هي الدين ، فالعبرة بالقاعدة التي تستند إليها أوضاع الناس ، أهي إخلاص الألوهية والربوبية لله - بكل خصائصها - أو إشراك أحد من خلقه معه ، أو استقلال خلقه دونه بالألوهية والربوبية بعضهم على بعض "[٧].

أما من يطيعون من يشرع غير ما أنزل الله مما يخالف شرع الله ، فيرى سيد - رحمه الله -أن من أطاع غير الله في هذا الباب فهو مشرك فيقول في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾[٨]، بعد أن بين أن الله - سبحانه - هو وحده صاحب الحق في وضع الميزان الذي يحتكم إليه الناس ، وهو الذي تصدر عنه الأحكام والقيم والموازين : "

---

(٧) في ظلال القرآن ١ / ٥٩٥-٥٩٦ بتصرف يسير وينظر: ٢/ ٩٩٠-٩٩١ ، ١٠٥٤-١٠٥٧،٤/ ١٩٦٤، ٢٠٣٢ .

(٨) سورة الأنعام الآية ١٢١ .

وأمام هذا التقرير نقف لنتدبر هذا الحسم وهذه الصراحة في شأن الحاكمية والطاعة والإتباع في هذا الدين، إن النص القرآني لقاطع في أن طاعة المسلم لأحدٍ من البشر في جزئية من جزيئات التشريع التي لا تستمد من شريعة الله ، ولا تعتمد على الاعتراف له وحده بالحاكمية ، أن طاعة المسلم في هذه الجزئية تخرجه من الإسلام لله إلى الشرك بالله ، وفي هذا يقول ابن كثير : " وقوله تعالى: ﴿ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾. أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه ، إلى قوله غيره ، فقدم تم عليه غيره ، فهذا هو الشرك كقوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[1] وقد روي في تفسيرها عن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - أنه قال: يا رسول الله ما عبدوهم . فقال: "بلى" إنهم أحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم " .[2]

وعن السدي في قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، قال: "استنصحوا الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا ﴾[3] ، أي : الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وما شرعه اتبع وما حكم به نفذ" [4].

فهذا قول السدي وذاك قول ابن كثير، وكلاهما يقرر في حسم وصراحة ووضوح - مستمدة من حسم النص القرآني وصراحته ووضوحه، ومن حسم التفسير النبوي للقرآن وصرامته ووضوحه كذلك - أن من أطاع بشرًا في شريعة من عند نفسه ، ولو في جزئية صغيرة فهو مشرك ، وإن كان في الأصل مسلمًا ثم فعلها فإنما خرج بها من الإسلام إلى الشرك أيضًا ، مهما بقي بعد ذلك يقول : أشهد أن لا إله إلا الله بلسانه بينما هو يتلقى من غير الله ، ويطيع غير الله .

وحين ننظر إلى وجه الأرض اليوم - في ضوء هذه التقريرات الحاسمة - فإننا نرى الجاهلية والشرك - ولا شيء غير الجاهلية والشرك - إلا من عصم الله ، فأنكر على الأرباب الأرضية ما تدعيه من خصائص الألوهية، ولم يقبل منها شرعًا ولا

(١) سورة التوبة الآية ٣١ .
(٢) سبق تخريجه ص٣٢٣ .
(٣) سورة التوبة : الآية ٣١
(٤) تفسير ابن كثير ، ٤/ ١٦٤٥ .

حكمًا - إلا في حدود الإكراه - "[١].

" وحديث رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم فيه دلالة قاطعة في أن قبول التشريع من الأحبار والرهبان - ومثلهم كل أحد غير الله ورسوله متى كان يشرع من عند نفسه لا من شريعة الله - هو عبادة لهم وهو اتخاذهم أربابًا من دون الله "[٢].

" إن إرادة التحاكم إلى غير شريعة الله تناقض شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله -ﷺ- فحد الإيمان وشرطه أن لا يتخذ الناس تشريعًا جزئيًا واحدًا يخالف منهج الله للحياة البشرية ... والنهي عن التحاكم إلى ما لم يشرعه الله ، والتعبير عن هذا النهي بأنه أمر بالكفر بالطاغوت ،له دلالته في التعبير القرآني ، فالقضية قضية عقدية ، قضية كفر أو إيمان، بالله أو بالطاغوت، وهما لا يجتمعان في قلب إنسان "[٣].

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[٤] . يقول سيد : " والذين يتبعون ما شرعه غير الله هم كفار، كفار يفترون على الله الكذب ، مرة يشرعون من عند أنفسهم ثم يقولون : شريعة الله ، ومرة يقولون : إننا نشرع لأنفسنا ولا ندخل شريعة الله في أوضاعنا ، ونحن مع هذا لا نعصي الله ، وكله كذب على الله...

ومشركو العرب كانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم الذي جاء به من عند الله ، فهم لم يكونوا يجحدون الله ، بل كانوا يعترفون بوجوده وبقدرته وبتصريفه للكون كله ، ولكنهم مع ذلك كانوا يشرعون لأنفسهم من عند أنفسهم ثم يزعمون أن هذا شرع الله! وهم بهذا كانوا كفارًا ، ومثلهم كل أهل جاهلية في أي زمان وفي أي مكان....وما يعدل عن شرع الله إلى شرع الناس إلا ضال جهول! فوق أنه مفترٍ كفور! "[٥].

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١١٩٧-١١٩٨ .
(٢) مقومات التصور الإسلامي ص١٦٧ .
(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ١٦٩-١٧١ بتصرف .
(٤) سورة المائدة : الآية ١٠٣ .
(٥) في ظلال القرآن ٢/ ٩٩٠-٩٩١ بتصرف .

" أن قضية الطاعة والانقياد لغير الله تناقض الإيمان و تناقض العبودية لله ، وتوقع صاحبها في الشرك بالله تعالى" (١).

وخلاصة كلام سيد في شرك الحاكمية والتشريع والطاعة :

* بالنسبة للحاكمين بغير ما أنزل الله : فكلام سيد قطب - رحمه الله - صريح في تكفير من لم يحكم بما أنزل الله ، فهو يرى أنهم بعملهم هذا - لا يعتبرون مسلمين - مهما ادعوا بألسنتهم ، و يستند في حكمه عليهم بالكفر والشرك إلى الآيات القرآنية الصريحة في هذا الباب - كما سبق - ، والتي صرحت بكفر من لم يحكم بما أنزل الله ، باعتباره رافضا لألوهية الله التي من مقتضياتها إفراده - سبحانه وتعالى - بالحاكمية التشريعية (٢).

* أما بالنسبة للمحكومين بغير ما أنزل الله : فيعتبرهم سيد - رحمه الله- كفارًا أيضًا إذا توفرت فيهم شروط أشار إليها في معرض حديثة ومنها :

١- إرادة التحاكم إلى غير شريعة الله (٣).

٢- الرضى وقبول حكم غير الله ، وعدم الإكراه والإنكار(٤) .

٣- رفض حكم الله و عدم الرضى به إذا طبق عليهم والتولي عن قبوله (٥) .

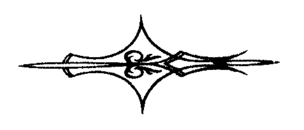
كما يظهر لنا أن سيد - رحمه الله- يرى: " أن قضية الحاكمية والشريعة في هذا الدين هي قضية عقيدة ودين قبل أن تكون مسالة حكم ونظام ، وهي قضية إيمان أو كفر ، قبل أن تكون مسالة صلاح أو فساد ، هي قضية دخول في دين الله ، أو خروج منه قبل أن تكون مسالة شكل من أشكال الحكم ، أو نظام من أنظمة المجتمع ،إنها قضية وجود هذا الدين في الأرض أصلًا ، أو محو هذا الدين !.

---

(١) ينظر: المصدر السابق ٢/ ١٠٥٤-١٠٥٧ ، ٤/ ١٩٦٤ ، ٢٠٣٢ ، ٢٠٣٣ .
(٢) ينظر: في ظلال القرآن ٢/ ٨٩٨ ، ٩٠١ - ٩٠٥، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٨٠ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٦٩٣ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٦٩ .
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١١٩٨ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٧٩ .
(٥) في ظلال القرآن ٢/ ٨٩٥ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ١٧٢ .

ولقد صدق رسول الله ﷺ: وهو يقول عارفًا بطبيعة هذا الدين، ومستشرفًا بروحه لما سيكون : " ينقض هذا الدين عروة عروة ، فأولها الحكم وأخرها الصلاة "[1].

ولقد نقض هذا الدين عروة عروة ، فلينظر الذين يدعون أنفسهم " مسلمين " أين هم من هذا الدين ، لتنظر العصبة المؤمنة في الأرض من أين تبدأ طريقها لإقامة هذا الدين ! "[2].



---

(١) رواة : الحاكم ١/ ٦ برقم ٨٧٥٧ ،وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ، مكتبة المعارف - الرياض ط١ عام ١٤٢١ هـ ، ١/ ٣٦٩ برقم ٥٧٢ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ١٨٠ .

المبحث الثاني
الكفر

أولًا : تعريف الكفر :

الكفر في اللغة : التغطية والستر، ووصف به الليل لستره الأشخاص، والمزارع لستره البذر[١]

أما في الاصطلاح : فقد تنوعت تعريفات الفرق والعلماء للكفر بناء على الاختلاف في مسمى الإيمان.

والذي عليه أهل السُّنَّة والجماعة : أن الكفر نقيض الإيمان، وما دام الإيمان : قول وعمل واعتقاد، فإن الكفر : هو كل اعتقاد أو قول أو عمل حكم الشارع بأنه يناقض الإيمان[٢]، وما دام الإيمان شعب ومراتب، فالكفر كذلك شعب ومراتب ، فهناك كفر أكبر يناقض أصل الإيمان، وهناك كفر أصغر يناقض كمال الإيمان[٣].

أما العلاقة بين الكفر والشرك : فيرى بعض العلماء : أن الكفر والشرك بمعنى واحد ، ويرى آخرون: أن هناك فرقًا بين الشرك والكفر ، فالكفر اسم يقع على ضروب من الذنوب منها الشرك بالله ، فالكفر خصال كثيرة ، كل خصلة منها تضاد خصلة من الإيمان ، والشرك خصلة واحدة وهو إيجاد ألوهية مع الله أو دونه، واشتقاقه ينبئ عن ذلك ، والراجح : أن الكفر أعم من الشرك ، وقد يرد احدهما بمعنى الآخر في بعض النصوص الشرعية [٤] .

أما سيد - رحمه الله - فقد أشار إلى أن معنى الكفر في الاصطلاح الشرعي

---

(١) لسان العرب ٥/ ١٤٤ ، والمفردات للراغب، ص ٤٣٣ .

(٢) نواقض الإيمان القولية والعملية ، د .عبد العزيز آل عبد اللطيف ،ص ٣٧ وما بعدها بتصرف .

(٣) المصدر السابق ص ٤٨ ، ونواقض الإيمان الاعتقادية د .محمد بن عبد الله الوهيبي ، دار المسلم - الرياض ط٢ عام ١٤٢٢هـ ، ص ٥٥-٥٦.

(٤) المفردات للراغب ص ٢٦٠ ، والفروق في اللغة لأبي هلال العسكري دار الآفاق - بيروت ط٥ عام ١٤٠٣هـ . ص ٢٢٣ ، وفتح الباري لابن حجر ١/ ٨٥ ، والشرك بالله أنواعه وأحكامه ، ماجد شبالة ص ٣٦-٤٤ .

مأخوذ من المعنى اللغوي حيث يقول " والتشريعات والأحكام كلها منوطة بالإيمان ، وتنفيذها كما هي هو الإيمان، أو هو دليل الإيمان ، فالذي يعدل عنها إنما يكفر بالإيمان ويستره ويغطيه ويجحده " [١] .

و يقول أيضًا : " والكفر هو التغطية والحجاب في أصل معناه اللغوي ، هو ملحوظ في مثل هذا التعبير ، أي التعبير الاصطلاحي " [٢] .

ثانيًا : أنواع الكفر :

ذكر سيد – رحمه الله- أنواعًا من الكفر الأكبر المخرج من الملة منها :

أولاً ـ السحر :

السحر في اللغة : كلما لطف مأخذه ودق ، وأصله صرف الشيء عن حقيقته إلى غيرها ، ويأتي بمعنى الخداع وبمعنى الاستمالة [٣].

أما في الاصطلاح : فقد تنوعت تعريفات العلماء للسحر بسبب كثرة أنواعه، وقد أشار الإمام الشافعي إلى ذلك بقوله " والسحر اسم جامع لمعانٍ مختلفة " [٤]. وأقتصر على تعريفين:

الأول : "أنه كل أمر خفي سببه وتخيل على غير حقيقته ، ويجري مجرى التمويه والخداع[٥].

والثاني: "أنه عقد ورقى وكلام يتكلم به أو يكتب أو يعمل شيء يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله " [٦] .

ويلاحظ أن سبب الاختلاف في تعريفه هو اختلاف العلماء في معناه ، هل هو حقيقة أم تخيل ؟ حيث يرى البعض أنه حقيقة ، ويرى آخرون أنه تخيل .

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٤٨ .
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٧٤٦ .
(٣) لسان العرب ٤/ ٣٤٨ ، القاموس المحيط ص ٥١٩ .
(٤) الأم للإمام الشافعي - دار الكتب العلمية - بيروت ط١ ١٤١٢هـ ١/ ٣٩١ .
(٥) أحكام القران للجصاص - دار الكتب العلمية - بيروت - طبعة ١٤١٥هـ ١/ ٥٠ .
(٦) المغني لابن قدامه تحقيق د . التركي - دار هجر - القاهرة- ط ٢ - ١٤١٢هـ - ١٢/ ٢٩٩ .

والصواب والله أعلم : أن من السحر ما هو حقيقة ، فيفرق بين المرء وزوجه ، ولذا أمر الله تعالى بالاستعاذة به - سبحانه- من السواحر ، فدل ذلك أن للسحر حقيقة، وبعض السحر لا حقيقة له بل هو تخيل [1].

وقد ذكر العلماء أن للسحر ثلاثة أقسام :

الأول: السحر الحقيقي : وهو ما له حقيقة في الخارج .

الثاني : السحر الخيالي: وهو ما يعتمد على قوى التخيل في الإنسان فيتصرف فيها بإلقاء أنواع من المحاكاة والصور التي يريد ، باستخدام قوة الساحر فينظرها الرائي كأنها موجودة وهي لا وجود لها في الواقع ، أو بأخذ عيون الرائين وإشغالهم، ويدخل في هذا النوع ما يلقيه الساحر في قلب الإنسان وفكره من صور قبيحة للزوجة والعكس ، فيحيلها بتلك الصور فيكرهها ، فيحصل التفريق بسبب إحداث تلك الصور [2] .

الثالث : السحر المجازي : وهو ما يقوم على الحيل العلمية ومعرفة خواص بعض المواد ، وخفة الحركة ونحوها، كمن يدخل يده في النار فلا تحترق، لأنه دهنها بدهان مقاوم للحرارة أو نحو ذلك ، ويدخل ضمن هذا النوع النميمة والاستمالة بالكلام ونحو ذلك [3] .

والسحر من الأمور المنافية لأصل التوحيد والإيمان ، وهو من الظواهر الموجودة في كل الأمم كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴾ [4] ، ويدخل السحر في أنواع الكفر وفي أنواع الشرك أيضا ، باعتباره يقوم على تعظيم غير الله واستخدام الشياطين وعمل الكفر أو اعتقاده ، وهذا هو السحر

(١) تراجع تفاصيل ذلك في : تفسير الطبري ١/ ٤٦٣ ، وتفسير ابن كثير ١/ ٣٥٣ ، ومقدمة ابن خلدون مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت ب.ت ٢/ ١٩٤-١٩٥ ، وفتح القدير للشوكاني ١/ ١١٩-١٢١، ونيل الأوطار للشوكاني ٩/ ٤٣ وعالم السحر د/ عمر الأشقر دار النقاش - عمان ط٢ عام ١٤١٨ هـ ص ٨٩ ، و السحر بين الحقيقة والخيال لأحمد الحمد ، مكتبة القرآن - مكة عام ١٤٠٨ هـ ص ٣٧- ٨٨ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ٢/ ١٩٤ - ١٩٥، وتفسير الطبري ١/ ٤٦٣، وتفسير ابن كثير ١/ ٣٥٣ ، وعالم السحر والشعوذة للأشقر ص ١٢٩ - ١٤٧ .

(٣) عالم السحر والشعوذة للأشقر ص ١٢٩ وما بعدها .

(٤) سورة الذاريات : الآية ٥٢ .

عند الإطلاق [١] .

موقف سيد قطب ـ رحمه الله ـ من السحر:

يمكن بيان موقفه فيما يأتي :

١ - السحر موجود في كل الأمم و يقترن دائما بالوثنية :

حيث يقول سيد : "وكانت أرض مصر تموج بالكهنة في شتى المعابد ، وكان الكهنة هم الذين يزاولون أعمال السحر ، ففي الوثنيات كلها تقريبًا يقترن الدين بالسحر، ويزاول السحر كهنة الديانات وسدنة الآلهة ! وهذه الظاهرة هي التي يلتقطها " علماء الأديان! " فيتحدث بعضهم عن السحر كمرحلة من مراحل تطور العقيدة ! و يقول الملحدون منهم : إن الدين سيبطل كما بطل السحر! وإن العلم سينهي عهد الدين كما أنهى عهد السحر!..إلى آخر هذا الخبط الذي يسمونه : "العلم " ! " . [٢]

٢ -أن السحر قائم على التخيل دون أن يغير من حقائق الأشياء :

حيث يرى أن السحر يقوم على التخييل واللعب بالعقول وخداع البصر والحواس باستخدام الحيل والشياطين ، لكنه لا يغير حقيقة ولا طبيعة الأشياء، ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ.... الآية ﴾ [٣] .

يقول سيد – رحمه الله– : " فلا بد من كلمة هنا عن السحر، وعما يفرق بين المرء وزوجه .. إنه ما يزال مشاهدًا في كل وقت أن بعض الناس يملكون خصائص لم يكشف العلم عن كنهها بعد لقد سمي بعضها بأسماء ولكنه لم يحدد كنهها ولا طرائقها ! هذا " التيليباثي " – التخاطر عن بعد – ما هو؟ وكيف يتم ؟ كيف يملك

(١) المغني لابن قدامه ١٢/ ٣٠١، والأم ، الإمام الشافعي ١/ ٣٩١ وتفسير القرطبي ٢/ ٤٣ وأحكام القران للجصاص ١/ ٥٣ ، وأضواء البيان للشنقيطي ٤/ ٤٤١ ، والإعلام بقواطع الإسلام للهيثمي دار المعرفة – بيروت طبعة عام ١٤٠٢ هـ ص ٣٩١ ، والقول السديد للسعدي طبعة الجامعة الإسلامية – المدينة عام ١٤٠٤ هـ.ص ٧٤– ٧٥

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٤٨٩ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٠٢ .

إنسان أن يدعو إنسانًا على أبعاد وفواصل لا يصل إليها صوت الإنسان في العادة ولا بصره ، فيتلقى عنه ، دون أن تقف بينهما الفواصل والأبعاد؟.

وهذا التنويم المغناطيسي ما هو وكيف يتم ؟ كيف يقع أن تسيطر إرادة على إرادة، وأن يتصل فكر بفكر ، فإذا أحدهما يوحي إلى الآخر، وإذا أحدهما يتلقى عن الآخر، كأنما يقرأ من كتاب مفتوح؟.

إن كل ما استطاع العلم أن يقوله إلى اليوم في هذه القوى التي اعترف بها ، هو أن أعطاها أسماء! ولكنه لم يقل قط : ما هي؟ ولم يقل قط كيف تتم ؟.

وثمة أمور كثيرة أخرى يماري فيها العلم ، إما لأنه لم يجمع منها مشاهدات كافية للاعتراف بها، وإما لأنه لم يهتد إلى وسيلة تدخلها في نطاق تجاربه ، هذه الأحلام التنبئة - وفرويد الذي يحاول إنكار كل قوة روحية لم يستطع إنكار وجودها - كيف أرى رؤيا عن مستقبل مجهول، ثم إذا هذه النبوءة تصدق في الواقع بعد حين؟ وهذه الأحاسيس الخفية التي ليس لها اسم بعد ، كيف أحس أن أمرًا ما سيحدث بعد قليل أو أن شخصًا ما قادم بعد قليل ، ثم يحدث ما توقعت على نحو من الأنحاء!.

إنه من المكابرة في الواقع أن يقف إنسان لينفي ببساطة مثل هذه القوى المجهولة في الكائن البشري لمجرد أن العلم لم يهتد بعد إلى وسيلة يجرب بها هذه القوى .

وليس معنى هذا هو التسليم بكل خرافة ، والجري وراء كل أسطورة ، إنما الأسلم والأحوط أن يقف العقل الإنساني أمام هذه المجاهيل موقفًا مرنًا.. لا ينفي على الإطلاق ولا يثبت على الإطلاق حتى يتمكن بوسائله المتاحة له بعد ارتقاء هذه الوسائل من إدراك ما يعجز الآن عن إدراكه، أو يسلم بأن في الأمر شيئًا فوق طاقته ، ويعرف حدوده ، ويحسب للمجهول في هذا الكون حسابه ...

والسحر من قبيل هذه الأمور، وتعليم الشياطين للناس من قبيل هذه الأمور، وقد تكون صورة من صوره : القدرة على الإيحاء والتأثير، إما في الحواس والأفكار، وإما في الأشياء والأجسام وإن كان السحر الذي ذكر القرآن وقوعه من سحرة فرعون كان مجرد تخييل لا حقيقة له : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا

تَسْعَىٰ ﴾[١]، ولا مانع أن يكون مثل هذا التأثير وسيلة للتفريق بين المرء وزوجه، وبين الصديق وصديقه ، فالانفعالات تنشأ من التأثرات ، وإن كانت الوسائل والآثار والأسباب والمسببات ، لا تقع كلها إلا بإذن الله ، على النحو الذي أسلفناه "[٢].

و يقول أيضا: " فالسحر ليس أكثر من تخييل وسحر للأنظار لا هدف له إلا اللعب بالعقول" [٣].

" وهو تخييل لا حقيقة ، وخداع للبصر والحواس، قد يصل إلى خداع الإحساس، فينشئ فيه آثارًا محسوسة كآثار الحقيقة ، كما يشاهد من رؤية الإنسان لأشياء لا وجود لها، أو في صورة غير صورتها ، وما يشاهد من تأثر المسحور أحيانًا تأثرات عصبية وجسدية كما لو كان الأثر الواقع عليه حقيقة ، وليس من هذا النوع آيتا موسى ، إنما هما من صنع القدرة المبدعة المحولة للأشياء حقًا ، تحويلًا وقتيًا أو دائما"[٤] ، ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾[٥] : فقوله : ﴿ فَإِذَا هِىَ ﴾ يدل على أن العصا تحولت فعلًا إلى ثعبان تدب فيه الحياة ، فلم يكن الأمر تخييلًا ، كما هو الحال في السحر الذي لا يغير طبائع الأشياء ، إنما يخيل للحواس بغير الحقيقة" [٦] .

" فعهد الناس بالسحر أن يكون تخييلًا ، ولكن هذه العصا تلقف حبالهم وعصيهم حقًا ، فلا تبقي لها أثرًا ، ولو كان ما جاء به موسى سحرًا ، لبقيت حبالهم وعصيهم بعد أن خيل لهم وللناس أن حية موسى ابتلعتها ، ولكنهم - أي السحرة - ينظرون فلا يجدونها فعلا! عندئذ لا يملكون أنفسهم من الإذعان للحق الواضح الذي لا يقبل جدلا ، وهم أعرف الناس بأنه الحق "[٧].

وفي ظلال قوله تعالى ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾[٨] .

(١) سورة طه : الآية ٦٦
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٩٦ - ٩٧ .
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٨١٤ .
(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٣٤٥ .
(٥) سورة الأعراف : الآية ١٠٧ .
(٦) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٩٣ ، وينظر ٣/ ١٣٤٩ .
(٧) المصدر السابق ٥/ ٢٥٩٥ .
(٨) سورة طه : الآية ٦٦ - ٦٧ .

يقول سيد-رحمه الله- : " والتعبير يشير بعظمة ذلك السحر وضخامته حتى ليوجس في نفسه خيفة موسى ، ومعه ربه يسمع ويرى ، وهو لا يوجس في نفسه خيفة إلا لأمر جلل ينسيه لحظة أنه الأقوى ، حتى يذكره ربه بأن معه القوة الكبرى: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [1] . ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ﴾ فهو سحر من تدبير ساحر وعمله ، والساحر لا يفلح أنى ذهب وفي أي طريق سار، لأنه يتبع تخييلا ويصنع تخييلًا ، ولا يعتمد على حقيقة ثابتة باقية ، شأنه شأن كل مبطل أمام القائم على الحق المعتمد على الصدق " [2] .

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ﴾ [3] .

يقول سيد - رحمه الله - : " والنفاثات في العقد : السواحر الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواس وخداع الأعصاب ، والإيحاء إلى النفوس والتأثير في المشاعر ، وهن يعقدن العقد في نحو خيط أو منديل وينفثن فيها كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء! ، والسحر لا يغير من طبيعة الأشياء ، ولا ينشئ حقيقة جديدة لها ، ولكنه يخيل للحواس والمشاعر بما يريده الساحر، وهذا هو السحر كما صوره القرآن الكريم في قصة موسى -عليه السلام- : سورة طه ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [4]، وهكذا لم تنقلب حبالهم وعصيهم حيات فعلا ، ولكن خيِّل إلى الناس وموسى معهم أنها تسعى إلى حد أن أوجس في نفسه خيفة ، حتى جاءه التثبيت ، ثم انكشفت الحقيقة حين انقلبت عصا موسى بالفعل حية فلقفت الحبال والعصي المزورة المسحورة .

وهذه هي طبيعة السحر كما ينبغي لنا أن نسلم بها ، وهو بهذه الطبيعة يؤثر في الناس ، وينشئ لهم مشاعر وفق إيحائه ، مشاعر تخيفهم وتؤذيهم وتوجههم الوجهة

(١) سورة طه : الآية ٦٨ - ٦٩ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٤٢ .
(٣) سورة الفلق : الآية ٤.
(٤) سورة طه : الآية ٦٥- ٦٩

التي يريدها الساحر، وعند هذا الحد نقف في فهم طبيعة السحر والنفث في العقد ، وهي شر يستعاذ منه بالله ، ويلجأ منه إلى حماه" .(١)

ويذكر سيد – رحمه الله- أن للأستاذ الشيخ / محمد عبده رأيًا آخرًا في تفسير النفاثات في العقد ، في تفسيره لجزء عم ، وان ذلك يقوم على ميل المدرسة العقلية لتضييف نطاق الغيبيات حيث رد سيد – رحمه الله- على هذه النزعة عند مدرسة الشيخ / محمد عبده في تفسيره لسورة الفيل (٢) .

٣- أن تأثير السحر في الإنسان لا يخرج عن المشيئة الإلهية ووفقها :

لقوله تعالى ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾(٣) ، " فبإذن الله تفعل الأسباب فعلها وتنشئ آثارها وتحقق نتائجها ، وهذه قاعدة كلية في التصور لا بد من وضوحها في ضمير المؤمن تمامًا ، وأقرب ما يمثل هذه القاعدة في مثل هذا المقام ، أنك إذا عرضت يدك للنار فإنها تحترق، ولكن هذا الاحتراق لا يكون إلا بإذن الله ، فالله هو الذي أودع النار خاصية الحرق وأودع يدك خاصية الاحتراق بها ، وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها، كما وقع لإبراهيم – عليه السلام – وكذلك هذا السحر الذي يفرقون به بين المرء وزوجه ، ينشئ هذا الأثر بإذن الله ، وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية فيه حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها ، وهكذا بقية ما نتعارف عليه بأنه مؤثرات وآثار ، كل مؤثر مودع خاصية التأثير بإذن الله ، فهو يعمل بهذا الإذن ويمكن أن يوقف مفعوله كما أعطاه هذا المفعول حين يشاء "(٤) .

٤- أن السحر كفر من عمل الشيطان ، والساحر كافر :

يقول سيد : " فالقرآن ينفي عن سليمان – عليه السلام – أنه كان ساحرًا ، فيقول : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ ﴾ فكأنه يعد السحر واستخدامه كفرًا ينفيه عن سليمان – عليه السلام – ويثبته للشياطين : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ ،

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٤٠٠٧ – ٤٠٠٨ .
(٢) المصدر السابق ٦/ ٤٠٠٨ الهامش ١ ، وينظر ٦/ ٣٩٧٦-٣٩٧٩ .
(٣) سورة البقرة : الآية ١٠٢ .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٩٦ .

﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾، فالقرآن يعتبر السحر وتعلمه واستخدامه كفرًا، ويذكر هذا على لسان الملكين "[١]، " وحسبنا أن تعرف أن السحر من عمل الشيطان، وأنه من ثم كفر يُدان به الإنسان ويفقد به في الآخرة كل نصيب وكل رصيد "[٢].

ثانيًا :الإعراض عن الدين وترك طاعة النبي - ﷺ -:

الأصل في الإيمان – كما سبق معنا– أن يتضمن التصديق والإتباع والقبول والاستجابة، فالإعراض وترك طاعة النبي – ﷺ – ينافي ذلك ويضاده، ومن هنا كان الإعراض عن دين الله بعدم التعلم والعمل، والتولي عن طاعة الرسول – ﷺ– والامتناع عن إتباع شرعه وهديه والصدود عن قبول حكم شريعته كفرًا مخرجا من الملة، بل هو حقيقة النفاق[٣].

وقد أشار سيد – رحمه الله– في أكثر من موضع في ظلال الآيات التي تتحدث عن إعراض الكفار بأنه الإعراض عن الدين والقرآن الكريم وتعاليمه وأن تلك صفة من صفات الكفار والمنافقين، كما قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[٤]. " فهم معرضون عن تدبر طبيعة الآيات وحقيقتها، و معرضون كذلك عن دلالتها وشهادتها، وكذبوا بالآيات وبشهادتها، إتباعًا لأهوائهم لا استنادًا إلى حجة، ولا ارتكانًا إلى دليل، ولا تدبرًا للحق الثابت المستقر في كل ما حولهم في هذا الوجود "[٥].

ويوضح أن الإعراض عن ما جاء به الرسول – ﷺ – علامة النفاق ودليل على عدم الإيمان، ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[٦].

يقول سيد - رحمه الله- : " إن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت

---

(١) المصدر السابق ١/ ٩٥ بتصرف يسير

(٢) المصدر السابق ١ /٩٦، ٩٨.

(٣) نواقض الإيمان القولية والعملية، د/ عبد العزيز آل عبد اللطيف ص ٣٤٤ وما بعدها بتصرف.

(٤) سورة القمر : الآية ٢.

(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٢٨ بتصرف، وينظر أيضا ٤/ ٢١٥١، ٢٢٧٦، ٥/ ٢٨١٤، ٢٩٠١، ٣١٠٨

(٦) سورة النور : الآية ٤٨.

آثاره في السلوك ، والذين يزعمون الإيمان بأفواههم ، ولكن لا يحققون مدلوله في سلوكهم يكذبون بأعمالهم ما قالوه بألسنتهم ، وهذا الصنف من الناس هم المنافقون الذين لا يجرؤون على الجهر بكلمة الكفر ، فيتظاهرون بالإسلام، ولكنهم لا يرضون أن تقضي بينهم شريعة الله ، ولا أن يحكم فيهم قانونه ، فإذا دعوا إلى حكم الله ورسوله أبوا وأعرضوا وانتحلوا المعاذير: ﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾" [(١)] .

" فالإسلام هو طاعة الله ورسوله ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [(٢)] ، " فإما طاعة وإتباع يحبه الله ، وإما كفر يكرهه الله " [(٣)] .

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية :﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي خالفوا عن أمره، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ، فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر ، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب الله ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول النبي الأمي " [(٤)] .

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [(٥)] .

يقول سيد - رحمه الله -: " والنص عام ، ينطبق على كل حالة ، ويواجه كل حالة من مشاقة الرسول - ﷺ - ومشاقته كفر وشرك وردة .

والمشاقة - لغةً - أن يأخذ المرء شقًا مقابلًا للشق الذي يأخذه الآخر، والذي يشاق الرسول - ﷺ - هو الذي يأخذ له شقًا وجانبًا وصفًا غير الصف والجانب والشق الذي يأخذه النبي - ﷺ - ومعنى هذا أن يتخذ له منهجًا للحياة كلها غير منهجه ، وأن يختار له طريقًا غير طريقه ، سواء أنكر منهجه ﷺ جملة ، أو آمن ببعض وكفر ببعض" [(٦)] .

" وقد قاتل أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - المرتدين على عدم الطاعة لله ورسوله

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٢٥- ٢٥٢٦ بتصرف .
(٢) سورة آل عمران : الآية ٣٢ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٨.
(٤) المصدر السابق ١/ ٣٨٧ ، وتفسير ابن كثير ٢/ ٧٠٠ .
(٥) سورة النساء : الآية ١١٥ .
(٦) في ظلال القرآن ٢/ ٧٥٩ .

في حكم الزكاة ، وعد قبول حكم الله ورسوله فيها ، فكيف بمن يترك شريعة الله كلها؟ "[١].

" وذلك أن الإعراض عن تحكيم كتاب الله علامة الكفر التي تنفي دعوى الإيمان "[٢].

ثالثًا : جحود وتكذيب ما جاءت به الرسل أو شيء منه :

" اجمع العلماء على أن من جحد أو كذب بشيء مما جاءت به الرسل من الآيات والأحكام فهو كافر بيّن الكفر" [٣] .

" الجحود يكون لما هو مستيقن أنه حق ، كما هو حال كفار قريش الذين جحدوا القرآن الكريم وجحدوا دعوة النبي ﷺ ، مع علمهم بأن ذلك حق ، ولكن خوفًا على ديانتهم وأوضاعهم ومغانمهم ، ومن قبلهم جحد فرعون وملائه ما جاءهم به موسى من الحق، وكذلك الحق دائما لا يجحده الجاحدون لأنهم لا يعرفونه بل لأنهم يعرفونه ! يجحدونه وقد استيقنته نفوسهم ، لأنهم يحسون الخطر فيه على وجودهم ، أو أوضاعهم أو مصالحهم ومغانمهم ، فيقفون في وجهه مكابرين" [٤] .

ومن ذلك ما ذكره الله – سبحانه – عن قوم هود من أن كفرهم وشركهم الذي استحقوا بسببه الهلاك واللعنة ، هو جحودهم بآيات ربهم وعصيانهم لرسله وأتباعهم أمر الجبارين من عبيده ، وجحودهم بآيات ربهم إنما يتجلى في عصيان الرسل ، وأتباع الجبارين ، فهو أمر واحد لا أمور متعددة ، ومتى عصى قوم أوامر الله المتمثلة في شرائعه المبلغة لهم من رسله بألا يدينوا لغير الله ودانوا للطواغيت بدلًا من الدينونة لله ، فقد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله، وخرجوا بذلك من الإسلام إلى الشرك "[٥]، " فأتباع الجبارين المتكبرين جريمة شرك وكفر" [٦] .

وقد ذكر سيد – رحمه الله– أثارًا كثيرة توضح هذا النوع من الكفر عند مشركي قريش وغيرهم حيث لم يكونوا يشكون في صدق نبوة النبي ﷺ وصدق رسالته،

(١) المصدر السابق ٢/ ٦٩٧ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ١/ ٣٦٤ .
(٣) الإبانة لابن بطة ٢/ ٧٦٤ ، والشفاء للقاضي عياض ٢/ ١٠٧٣ وما بعدها .
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٣ بتصرف ، ٦/ ٣٢٦٧ .
(٥) المصدر السابق ٤/١٩٠٣ .
(٦) المصدر السابق ٤/ ١٩٠١ .

وأن هذا القرآن الذي جاء به ليس كلام البشر، ولا يملك البشر أن يأتوا بمثله، ومع ذلك جحدوا كل ذلك، وكذبوا بما جاء به، كما قال سبحانه عنهم: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [(١)] "[(٢)].

ومن أنواع كفر الجحود والتكذيب :

١ - الكفر بنبوة الأنبياء أو بعضهم :

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[(٣)].

يقول سيد - رحمه الله-: " لقد كان اليهود يدعون الإيمان بأنبيائهم، وينكرون رسالة عيسى ورسالة محمد - عليهما السلام - كما كان النصارى يقفون بأيمانهم عند عيسى - عليه السلام - فضلاً عن تأليهه - وينكرون رسالة محمد ﷺ كذلك .

وكان القرآن ينكر على هؤلاء وهؤلاء، ويقرر التصور الإسلامي الشامل الكامل عن الإيمان بالله ورسوله، بدون تفريق بين الله ورسله، وبدون تفريق كذلك بين رسله جميعًا، إن التوحيد المطلق لله سبحانه يقتضي توحيد دينه الذي أرسل به الرسل للبشر، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس، وكل كفر بوحدة الرسل أو وحدة الرسالة هو كفر بوحدانية الله في الحقيقة، وسوء تصور لمقتضيات هذه الحقيقة .

لذلك عبر السياق القرآني عمن يريدون التفرقة بين الله ورسله - بأن يؤمنوا بالله ويكفروا بالرسل - وعمن يريدون التفرقة بين الرسل - بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا ببعضهم - عبر عن هؤلاء وهؤلاء بأنهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾، وعد تفرقتهم بين الله ورسله، وتفرقتهم بين بعض رسله وبعض، كفرًا بالله وبرسله .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٣٣ .

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٧٤ - ١٠٧٧ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٥٠-١٥١ .

إن الإيمان وحدة لا تتجزأ ، الإيمان بالله إيمان بوحدانيته - سبحانه - وهي تقتضي وحدة الدين الذي ارتضاه للناس ،ووحدة الرسل الذين جاءوا به ، ولا سبيل إلى تفكيك هذه الوحدة إلا بالكفر المطلق، وإن حسب أهله أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، فالله يقول : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ " (١) .

٢ - الكفر بالكتب أو بعضها وإنكار الملائكة واليوم الآخر :

الإيمان بالكتب التي أنزلها الله -سبحانه- على أنبيائه احد عناصر الإيمان ، باعتبار أن مصدر هذه الكتب واحد هو الله - سبحانه - وتحمل منهجًا واحدًا يقوم على الإسلام لله وتوحيده والدينونة له بما شرعه في كل كتاب ، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾(٢) . فالكفر بأحد عناصر الإيمان هذه كفر بالجميع ، حيث ذكر الله - سبحانه - في أول الآية الأمر بالإيمان بالله وكتبه ورسله ، ولم يذكر الملائكة واليوم الأخر ، وكتب الله تتضمن ذكر الملائكة وذكر اليوم الآخر ، ومن مقتضى الإيمان بهذه الكتب الإيمان بالملائكة وباليوم الآخر ، ولكنه أبرزه هنا لأنه موطن تهديد ووعيد ، والذي يكفر بالله ويكفر بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر تبعًا لكفره بالله، الذي يكفر هذا الكفر تكون فطرته قد بلغت من الفساد والتعطل والخراب ، ما لا يرجى معه هدى، ولا يرتقب بعده مآب " (٣) .

وفي قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (٤). دلالة على أن من عادى أحدًا من الرسل أو الملائكة فقد عاداهم جميعا ، وعادى الله سبحانه فهو من الكافرين " (٥). " أما الكفر بالآخرة فهو عين الكفر الذي يستحق الويل و الثبور"(٦) ،" أما الكفر بالقرآن الكريم فإن من يكفر بشيء من آيات الله القرآنية أو شيء من كتاب الله ، فقد كفر بالكتاب

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧٩٧- ٧٩٨ بتصرف يسير ، ١/ ٩٠- ٩١ ، ١٠١ .
(٢) سورة النساء : الآية ١٣٦ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٧٧٨ بتصرف يسير ، ١/ ٩٠- ٩١ .
(٤) سورة البقرة : الآية ٩٨ .
(٥) في ظلال القرآن ١/ ٩٣ .
(٦) المصدر السابق ١/ ٤٣٦ .

كله "[١]، .. واعتباره كافرًا، فالكفر بالقرآن الكريم من علامات الكفر التي لا شبهة فيها. [٢]

رابعًا : كفر الاستهزاء والسخرية :

فالاستهزاء أو السخرية بأي شيء من مسائل الدين وشرائعه ، سواء كان استهزاء بالله – سبحانه – أو برسوله محمد – ﷺ – ، أو أحد الرسل ، أو بالقرآن الكريم ، أو بشيء مما جاء به الإسلام ،كفر وردة ، قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾[٣].

حيث ورد في سبب نزولها أن بعض المنافقين الذين خرجوا في غزوة تبوك قال: ما أرى قراءنا هؤلاء، إلا أرغبنا بطونًا، و أكذبَنا ألسنةً، وأجبننا عند اللقاء – يقصدون قراء القرآن – فرفع ذلك إلى رسول الله – ﷺ – فجاءوا يعتذرون إليه فنزلت الآية [٤].

والنص عام في كل من يخوض في مسائل الدين والعقيدة ، حيث اعتبره القرآن الكريم كفرًا مهما كان دافعه وسببه [٥]، فما يستهزئ بدين الله وعباده المؤمنين به إنسان سوي العقل ، فالعقل السوي يستشعر حق الله – سبحانه – في التعظيم والعبادة " [٦] .

والاستهزاء بالله وآياته ورسله من صفات الكفار ، وعلامات الكفر كما ذكر الله ذلك في كثير من الآيات سواء كانوا مشركين أو أهل كتاب أو غيرهم ، فالحكم في الجميع سواء " [٧] .

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٤٣٦ .
(٢) المصدر السابق ١/ ٣٦٢ بتصرف يسير .
(٣) سورة التوبة : الآية ٦٥-٦٦ .
(٤) تفسير الطبري٩/ ٤٠٩
(٥) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٢ بتصرف .
(٦) المصدر السابق ٢/ ٩٢٢ .
(٧) ينظر: المصدر السابق١/ ٢٥٢ ، ٢/ ٩٢٢ ، ٣/ ١٠٤٥ ، ٤/ ٢١٢٩، ٥/ ٢٣٨٠، ٢٧٦٠، ٢٩٦، ٣١٧، ٦/ ٣٢٢٥ .

خامسًا: رفض شيء مما جاء به الرسول ﷺ أو إنكار صلاحية الدين أو بعضه في هذا الزمان :

وذلك لان الله أكمل لهذه الأمة دينها وأتم عليها نعمته ورضيه لها ، وهذا الدين منهج وشريعة لجميع جوانب الحياة البشرية إلى يوم القيامة ، وبالتالي فتعديل شيء فيه كإنكاره كله ، لأنه إنكار لما قرره الله - سبحانه - من تمامه وكماله ، وهذا الإنكار هو الكفر الذي لا جدال فيه ، والعدول عنه لمنهج أخر هو كفر كما وصفة الله تعالى "[1].

فالذي يتصور أن في هذا الدين الإسلامي نقصًا يستدعي الإكمال ، أو قصورًا يستدعي الإضافة، أو أنه دين محلي أو لزمن وبالتالي يستدعي التطوير والتحوير، فليس بمؤمن لأنه لم يصدق الله ولم يرتضي ما ارتضاه الله ...فشريعة الإسلام بشهادة الله ، هي شريعة الله للإنسان في كل زمان ومكان .[2] " ومجرد الاعتراف بشرعية منهج أو وضع أو حكم من صنع غير الله ، هو بذاته خروج من دائرة الإسلام لله - سبحانه- " [3].

" ولقد نزل هذا الكتاب ليحكم بالعدل بين الناس ، ولتتمثل فيه حاكمية الله وألوهيته ، نزل مفصلًا محتويًا المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الحياة جملة ، و أحكامًا تفصيلية في المسائل التي يريد الله تثبيتها في المجتمع الإنساني مهما اختلفت مستوياته الاقتصادية والعلمية ، وبهذا يكون في هذا الكتاب غناء عن تحكيم غير الله في شأن من شؤون الحياة ، هذا ما يقرره الله - سبحانه - عن كتابه ، فمن شاء أن يقول : إن البشرية في طور من أطوارها لا تجد في هذا الكتاب حاجتها فليقل ولكن ليقل معه إنه - والعياذ بالله - كافر بهذا الدين مكذب بقول رب العالمين! "[4].

" إن مصلحة البشر متضمنة في شرع الله ، كما أنزله الله ، وكما بَلَّغه عنه رسول الله .. فإذا بدا للبشر ذات يوم أن مصلحتهم في مخالفة ما شرع الله لهم ، فهم أولًا: "واهمون" فيما بدا لهم ، وهم ثانيًا : "كافرون" فما يدعي أحد أن المصلحة فيما يراه هو

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٨٣٣ بتصرف يسير .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٤٣ بتصرف يسير .
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٠٧٦ .
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١١٩٤ ، وينظر ٢/ ٦٩٧ .

مخالفًا لما شرع الله ، ثم يبقى لحظة واحدة على هذا الدين ، ومن أهل هذا الدين "[١].

" فأيما إنسان زعم أن هذا المنهج الرباني لم يعد يصلح للحياة المتجددة النامية في الأرض ، فقد كفر كفرًا صراحًا لا مراء فيه ، واختار لنفسه موقف العداء الصريح لله وللبشرية "[٢].

سادسًا : طاعة الكفار :

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٣]، يقول سيد: " فالله يحذر من طاعة أهل الكتاب فإنه الكفر، ولا يليق بالمسلمين الكفر وكتاب الله يتلى عليهم وفيهم رسوله يعلمهم"[٤].

" وذلك إن طاعتهم والتلقي عنهم ، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم ، تحمل ابتداءً معنى الهزيمة الداخلية ، والتخلي عن دور القيادة ، كما تحمل معنى الشك في كفاية منهج الله لقيادة الحياة وتنظيمها ، وهذا بذاته دبيب الكفر في النفس ، والمقصود طاعتهم فيما يخالف أمر الله – سبحانه– من العقائد والتشريعات والأحكام "[٥]

سابعًا :ترك الأعمال كلية أو إنكار ما علم من الدين بالضرورة:

وذلك لأن الإيمان لا يصح إلا بوجوده عمليًا في الواقع من خلال العمل قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[٦].

يقول سيد - رحمه الله- : " إن التعبير القرآني دقيق في بنائه اللفظي ليدل دلالة

(١) معالم في الطريق ص ١٠٦-١٠٧ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٢٨٣ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ١٠٠-١٠١ .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٤٣٢ ، ٤٩١
(٥) المصدر السابق ١/ ٤٣٨ ، ٤٤٠ .
(٦) سورة الأنفال: الآية ٢- ٤ .

دقيقة على مدلوله المعنوي ، وفي العبارة هنا قصر بلفظ : " إنما ". وليس هنالك مبرر لتأويله - وفيه هذا الجزم الدقيق - ليقال : إن المقصود هو " الإيمان الكامل"! فلو شاء الله - سبحانه - أن يقول هذا لقاله، إنما هو تعبير محدد دقيق الدلالة ، إن هؤلاء الذين هذه صفاتهم وأعمالهم ومشاعرهم هم المؤمنون فغيرهم ممن ليس له هذه الصفات بجملتها ليسوا بالمؤمنين ، والتوكيد في آخر الآيات : " أولئك هم المؤمنون حقًا " يقرر هذه الحقيقة ، فغير المؤمنين " حقًا " لا يكونون مؤمنين أصلاً ، والتعبيرات القرآنية يفسر بعضها بعضًا ، والله يقول : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[1] . فما لم يكن حقًا فهو الضلال ، وليس المقابل لوصف ﴿ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ هو المؤمنون إيمانًا غير كامل ! ولا يجوز أن يصبح التعبير القرآني الدقيق عرضة لمثل هذه التأويلات المميعة لكل تصور ولكل تعبير! .

لذلك كان السلف يعرفون من هذه الآيات أن من لم يجد في نفسه وعمله هذه الصفات لم يجد الإيمان ، ولم يكن مؤمنًا أصلاً ، جاء في تفسير ابن كثير : عن ابن عباس ، في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[2] . قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون ، ولا يصلون إذا غابوا - أي عن أعين الناس - ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين ... ، وطبيعة هذه الصفات أنه لا يمكن أن يقوم بدونها الإيمان أصلاً، وأن الأمر فيها ليس أمر كمال الإيمان أو نقصه ، إنما هو أمر وجود الإيمان أو عدمه "[3] .

- كما يرى سيد - رحمه الله- أن إنكار الصلاة كفر ، كونها من المعلوم من الدين بالضرورة ففي ظلال تعالى: ﴿ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾[4]. يقول سيد : " وهي كناية عن عدم الإيمان كله ، تشير إلى أهمية الصلاة في كيان هذه العقيدة ، وتجعلها رمز الإيمان ودليله ، يدل إنكارها على الكفر ، ويعزل صاحبها عن صف المؤمنين"[5].

---

(١) سورة يونس: الآية ٣٢ .
(٢) سورة الأنفال: الآية ٢ .
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٧٤- ١٤٧٥
(٤) سورة المدثر : الآية ٤٣ .
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٦١ .

وختامًا:

انقل نصًا من النصوص التي ذكر فيها سيد - رحمه الله- جمله من المكفرات الاعتقادية والقولية والعملية ،حيث يقول: "لقد اعتبر الإسلام قضية التوحيد هي قضيته الأولى والكبرى ... وناط بها قضية الإيمان والكفر... فجعل الإقرار العملي الايجابي بها- في كل الصور والمجالات جملة - هو الإسلام ، وجعل رفضها في أي صورة من صورها ومجالاتها هو الكفر الذي لا يتحقق معه إيمان ولا إسلام ، ولا يقبل معه عمل في دنيا ولا آخرة ، وجعل سواء :

* أن يعتقد الإنسان في ضميره أن ليس هناك إله.

* أو أن هناك آلهة مع الله – سبحانه وتعالى- .

* أو أن لله أبناء وأصهارًا .

* أو أن الإله هو هذا الحجر وهذا القمر .

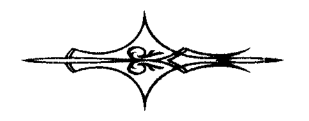
* جعل سواءً أن يعتقد الإنسان في ضميره شيئًا من هذا كله .

* أو أن يتوجه بالشعائر التعبدية إلى غير الله – سبحانه وتعالى – معه أو من دونه .

* أو أن يحكم بغير شريعة الله .

* أو أن يتقبل الحكم والشرائع من غير الله – سبحانه وتعالى – معه أو من دونه .

* أو أن يتحاكم إلى غير شرع الله – سبحانه – إلا وهو منكر، لا يملك غير إنكار القلب أو اللسان، فكل هذه سواء في أنها تنفي عن صاحبها صفة الإيمان وتخرجه من الإسلام وبالنصوص المحكمة و الأحكام المعروفة بالضرورة من هذا الدين ."[1]



(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١١٧ .

المبحث الثالث

النفاق

النفاق في اللغة : مأخوذ من نافقا اليربوع ، وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهرها ترك قشره رقيقه حتى لا يعرف مكان هذا المخرج ، فإذا رابه ريب دفع ذلك برأسه فخرج، فظاهر جحره تراب كالأرض ، وباطنه حفر ، فكذلك المنافق ظاهره إيمان وباطنه كفر.(١)

أما في الاصطلاح : فالنفاق إظهار الإيمان وإبطان الكفر ، أو إظهار القول باللسان أو الفعل بخلاف ما في القلب من القول والاعتقاد ، فهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به وإن كان أصله في اللغة معروفا.(٢)

والنفاق على نوعين : أكبر مخرج من الملة ، وأصغر غير مخرج من الملة .

فالنفاق الأكبر : قد يكون اعتقاديًا ، وقد يكون عمليًا ، وذلك لأن القرآن الكريم لما ذكر صفات المنافقين ذكر منها تنقصهم للرسول - ﷺ - ، والسخرية بالدين ، ومناصرة الكفار، ونحو ذلك من الأعمال.

أما النفاق الأصغر : فهو نوع من الاختلاف بين السرية والعلانية مما هو دون الكفر، كالرياء في غير أصل العمل ، وكالخصال الواردة في حديث شعب النفاق من الكذب ، وإخلاف الوعد ونحوها .(٣)

ـ وقد كثر الحديث عن النفاق والمنافقين في القرآن الكريم ، وبيان صفاتهم وأخلاقهم، وأنهم شر أنواع الكفار وأعظمهم ضررًا على المسلمين ، وأن مآلهم إلى الدرك الأسفل من النار ، وتحذير المسلمين منهم باعتبارهم أكثر الناس عداءً للإسلام ، وأشدهم ضررًا عليه حتى قال فيهم ربنا - سبحانه وتعالى- : ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾(٤) .

وقد وقف سيد -رحمه الله ـ عند ظاهرة النفاق كثيرًا ، في ظلال الآيات التي

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١/ ٣٥٨، ٣٥٩ المفردات للراغب ص٥٠٢.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ٥/ ٩٨ والإيمان لابن تيميه ص٢٨٤.

(٣) نواقض الإيمان الاعتقادية، د/ محمد الوهيبي ٢/ ١٥١ وما بعدها بتصرف .

(٤) سورة المنافقون : الآية ٤.

تتحدث عنهم ، وعن صفاتهم ، وأحوالهم ،مبينًا سبب نشأة النفاق وضرره، ومستعرضًا صفات المنافقين والتي بسببها حكم الله عليهم بالكفر وفيما يأتي استعراض موجز لما ذكره سيد - رحمه الله - عن النفاق الأكبر المخرج من الملة .

أولاً : ظهور النفاق وسببه :

يقول سيد : "حركة النفاق حركة مدنيه ، لم يكن لها وجود في مكة ، لأنه لم يكن هناك ما يدعوا إليها ، فالمسلمون في مكة كانوا في موقف المضطهد ، الذي لا يحتاج أحدٌ أن ينافقه، فلما أعز الله الإسلام والمسلمين بالأوس والخزرج في المدينة ، وانتشر في العشائر والبيوت بحيث لم يبق بيت إلا دخله الإسلام ، أضطر ناس ممن كرهوا لمحمد- ﷺ - وللإسلام أن يعز ويستعلى ، ولم يملكوا في الوقت ذاته أن يجهروا بالعداوة اضطروا إلى التظاهر بالإسلام وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول[١] رأس النفاق المعروف، الذي تظاهر بالإسلام بعد معركة بدر ، وكان وجود اليهود في المدينة وتمتعهم فيها بقوة عسكرية واقتصادية وتنظيمية في أول العهد المدني ، وكراهيتهم كذلك لظهور محمد - ﷺ - ودينه وأتباعه ، كان وجود اليهود بهذا الوضع مشجعًا للمنافقين ، وسرعان ما جمعتهم البغضاء والحقد فأخذوا في حبك المؤامرات ، ودس الدسائس في كل مناسبة تعرض ، فإن كان المسلمون في شدة ظهروا بعدائهم وجهروا ببغضائهم ، وإذا كانوا في رخاءٍ ظلت الدسائس سرية والمكائد في الظلام" [٢] .

"وقد تواتر ذكر المنافقين ، ووصف دسائسهم ، والتنديد بمؤامرتهم وأخلاقهم، واتصالهم باليهود واشتراكهم معهم في بعض المؤامرات في السور المدنية ، فلا تكاد تخلو سورة مدنية من ذكر المنافقين تلميحًا أو تصريحًا ، وجاءت سورة كاملة تتحدث عنهم ، هي سورة المنافقين ، وقد نقل سيد رحمه الله فقرات متعددة حول حركة النفاق من كتاب "سيرة الرسول " [٣] توضح سبب ظهورها ومواقفها من الإسلام ، والدور الخطير الذي قاموا به " [٤].

---

(١) هو : عبد الله بن أبي بن مالك الخزرجي ، ينسب إلى جدته سلول ، رأس النفاق ، أظهر الإسلام بعد بدر ، وله مواقف كثيرة في حرب الإسلام والكيد له ، مات سنة ٩هـ ، انظر: الأعلام ٣/ ٦٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٣ ـ ٣٢٩٤ و ٣/ ١٥٧٢ .

(٣) هو للأستاذ محمد عزة دروزة .

(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٤_٣٥٧٢ ، وينظر ١/ ٤٥

" وحركة النفاق التي بدأت بدخول الإسلام المدينة ، واستمرت إلى قرب وفاة الرسول ﷺ لم تنقطع في أي وقت تقريبًا ، وإن تغيرت مظاهرها ووسائلها بين الحين والآخر " [١]، "وهم يمثلون العدو الحقيقي للرسول ﷺ وللمسلمين ، العدو الكامن داخل المعسكر ، وهو أخطر من العدو الخارجي الصريح " [٢]" ويمثلون نموذجًا مكرورًا في أجيال البشرية جميعا " [٣].

ثانيًا: صفات المنافقين وأعمالهم الكفرية :

أشار سيد -رحمه الله -في ظلال القرآن إلى كثير من صفات المنافقين وأعمالهم الكفرية ومنها :

١ـ إيذاء النبي ﷺ والاستهزاء والسخرية منه :

الأصل في المسلم الحق تعظيم وتوقير النبي- ﷺ - وطاعته ومحبته فوق كل محبه ،وإيذاؤه والسخرية منه والاستهزاء به - ﷺ - يناقض دعوى الإيمان ، وهي أمور تدل على البغض والمعادة والمحادة له - ﷺ - ، وقد كَفَّـرَ الله -سبحانه - من يستهزئ بالله وآياته ورسوله - ﷺ - ، وأجمع أهل العلم على كفر المستهزئ بالرسول - ﷺ - وردته [٤].

وقد أشار- سيد رحمه الله- إلى: " أن أولى مراتب النفاق أن يجلس المؤمن مجلسًا يسمع فيه آيات الله يكفر ويستهزأ بها، فيسكت ويتغاضى ، يسمي ذلك تسامحًا أو يسميه دهاءً، أو يسميه سعة صدر وأفق ، وإيمانا بحرية الرأي !!! وهي الهزيمة الداخلية تدب في أوصاله ، وهو يموه على نفسه في أول الطريق ، حياءً منه أن تأخذه نفسه متلبسًا بالضعف والهوان! إن الحمية لله ، ولدين الله ، ولآيات الله ، هي آية الإيمان، وما تفتر هذه الحمية إلا وينهار بعدها كل سد ، وينزاح بعدها كل حاجز، وينجرف الحطام الواهي عند دفعة التيار، وإن الحمية لتكبت في أول الأمر عمدًا ، ثم تهمد ، ثم تخمد ثم تموت !.

فمن سمع الاستهزاء بدينه في مجلس ، فإما أن يدفع ، وإما أن يقاطع المجلس

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٥٧٢ .
(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٥٧٥ بتصرف يسير .
(٣) المصدر السابق ١/ ٤٢ .
(٤) ينظر كلام العلماء في : نواقض الإيمان القولية والعملية، د. عبد العزيز آل عبد اللطيف ص ١٥٧ وما بعدها .

وأهله ، فأما التغاضي والسكوت فهو أول مراحل الهزيمة ، وهو المعبر بين الإيمان والكفر على قنطرة النفاق! " [(١)] .

– أما أذية النبي ﷺ والاستهزاء به والسخرية منه ولمزه فهو النفاق والكفر الصراح كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ (٦٣) يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [(٢)] .

يقول سيد - رحمه الله - : "إنه سوء الأدب في حق الرسول - ﷺ - يبدو في صورة أخرى غير صورة اللمز في الصدقات ، حيث يصفونه ﷺ بغير حقيقته ، ويتهمونه بأنه لا يفطن إلى غش القول وزوره ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ ثم ذكر ما وقع من بعض المنافقين في غزوة تبوك من استهزاء بالرسول - ﷺ - وأصحابه ولمزهم ومحاولة بعضهم تنفير دابته لتطرحه على الأرض ، ووصم الله إياهم بالكفر، وأن النص عام في كل من يخوض ويلعب ويستهزئ بالله وآياته ورسوله " [(٣)].

" وكذلك إستهزاؤهم بالنبي - ﷺ - في سماعهم للقران عنده وخروجهم قائلين ﴿ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ على سبيل التهوين من شأن السورة النازلة ، والتشكيك في أثرها في القلوب ، والغمز الخفي اللئيم إذ يريدون أن يقولوا بسؤالهم هذا لأهل العلم : إن ما يقوله محمد - ﷺ - لا يفهم ، أو لا يعني شيئًا يفهم أو السخرية من احتفال أهل العلم بكل ما يقوله محمد - ﷺ - وحرص الصحابة - رضوان الله عليهم - على كل كلمة يتلفظ بها الرسول ﷺ ، وكلها أمور تدل على السخرية الظاهرة أو الخفية " [(٤)].

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧٨٠- ٧٨١ .

(٢) سورة التوبة : الآيات ٦١-٦٦ .

(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٠ - ١٦٧٢ بتصرف ٣/ ١٦٦٧ ، ١٦٧٨ ، ١٧٢٦ .

(٤) المصدر السابق ٣/ ١٧٤١ ، ٦/ ٣٢٩٤ بتصرف يسير .

٢- تولي الكافرين ومحبتهم ونصرتهم :

من صفات المنافقين الكفرية تولي أعداء الله – عز وجل – من اليهود والنصارى والمشركين والملاحدة ، وتآمرهم معهم ضد الإسلام وأهله ، حيث يقرر القرآن الكريم في أكثر من موضع الصلة الوثيقة بين المنافقين وبين الكفار عمومًا .

يقول سيد : " وهذه الحملة القوية في القرآن الكريم على المنافقين بسبب توليهم لليهود تدل على أنهم كانوا يمعنون في الكيد للمسلمين ، ويتآمرون مع ألد أعدائهم عليهم " [١] .

وفي قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ [٢] ، لفتة هي تقرير القرابة بين المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب، فأهل الكتاب هؤلاء كفروا . والمنافقون إخوانهم ولو أنهم يلبسون رداء الإسلام " [٣].

وقد أشار الله تعالى إلى أن أبرز صفات المنافقين توليهم للكفار من دون المؤمنين تحت أعذار واهية يتسترون وراءها ليخفوا حقيقة تفاهتهم فقال سبحانه: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [٤] .

يقول سيد - رحمه الله- : " والتهكم الواضح في استعمال كلمة " بَشِّر "مكان كلمة أنذر، وجعل العذاب الأليم الذي ينتظر المنافقين بشارة ! ثم ببيان سببَ هذا العذاب الأليم ، وهو ولايتهم للكافرين دون المؤمنين، وسوء ظنهم بالله،وسوء تصورهم لمصدر العزة والقوة ، وهذه اللمسة تكشف عن طبيعة المنافقين وصفتهم الأولى ، وهي ولاية الكافرين دون المؤمنين ، وما أحوج ناسًا ممن يدعون الإسلام ، ويتسمون بأسماء المسلمين، وهم يستعينون بأعدى أعداء الله في الأرض ، أن يتدبروا هذا القرآن، إن كانت بهم رغبة في أن يكونوا مسلمين ، وإلا فإن الله غني عن العالمين!" [٥].

٣- الإعراض عن حكم الله ورسوله ﷺ والتحاكم إلى الطاغوت :

يصف القرآن حال المنافقين حين يدعون إلى ما أنزل الله و إلى الرسول فيصدون

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٥٢٣ .
(٢) سورة الحشر : الآية ١١ .
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٢٨ ، ٣٥٣٠ وينظر ٦/ ٣٢٩٨ .
(٤) سورة النساء : الآية ١٣٨ – ١٣٩.
(٥) في ظلال القرآن ٢/ ٧٧٩ – ٧٨٠ بتصرف .

بأنه نفاق ، وأن إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت ، خروجًا عن الإيمان ، بل وعدم دخول فيه ابتداء ، كما يصف معاذيرهم الواهية الكاذبة، فيقول سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [١].

والراجح أن المقصود بالآية هي طائفة من المنافقين الذين يزعمون الإيمان.. ثم لا يتحاكمون إلى ما أنزل إليك ، إنما يريدون التحاكم إلى الطاغوت- وهو كل منهج لا يستمد مما أنزل الله – وهذا ينافي مقتضى الإيمان البدهي ، وهو تحاكم الإنسان إلى ما آمن به ، وإلى من آمن به . فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل ، وبالرسول وما أنزل إليه ، ثم دعي إلى هذا الذي آمن به ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه ، فأبى وصد فهو يخالف البديهة الفطرية ، ويكشف عن النفاق والزعم الكاذب للإيمان ثم يعرض النص مظهرًا من مظاهر النفاق في سلوكهم ، حين يقعون في ورطة أو كارثة بسبب تحاكمهم إلى الطاغوت وانكشاف أمرهم للمسلمين ، فيلجئون إلى الإيمان الكاذبة أنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى الطاغوت إلا الإحسان والتوفيق! وهي دائما دعوى كل من يحيدون عن الاحتكام إلى منهج الله وشريعته ، وحجة المنافقين الملتوين . . هي هي دائما في كل حين "[٢].

ويقرر في آية أخرى هذه الصفة في المنافقين فيقول سبحانه ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [٣].

هذا الفريق الذي كان يدعي الإيمان ، ثم يسلك هذا السلوك الملتوي ، إنما هو نموذج للمنافقين في كل زمان ومكان ، المنافقين الذين لا يجرؤون على الجهر بكلمة الكفر ، فيتظاهرون بالإسلام ، ولكنهم لا يرضون أن تقضي بينهم شريعة الله ، ولا

---

(١) سورة النساء : الآية ٦٠- ٦٢ .

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٦٩٣- ٦٩٥ بتصرف .

(٣) سورة النور : الآية ٤٧- ٥٠ .

أن يحكم فيهم قانونه ، فإذا دعوا إلى حكم الله ورسوله أبوا وأعرضوا وانتحلوا المعاذير ﴿ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾."[1].

٤- الفرح بمصاب المسلمين والتربص بهم الدوائر :

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾[2] .

يقول سيد : " فالآية تبين سمات المنافقين ، وترسم لهم صورة زرية منفرة ، وهم يلقون المسلمين بوجه ، ويلقون الكفار بوجه ، ويمسكون العصا من وسطها ، ويتلوون كالديدان والثعابين ، فتبدأ بتقرير ما يكنه المنافقون للجماعة المسلمة من الشر ، وما يتربصون بها من الدوائر ، وهم - مع ذلك - يتظاهرون بالمودة للمسلمين حين يكون لهم فتح من الله ونعمة ، في قلوبهم السم ، وعلى ألسنتهم الدهان" [3] . " فهم لا يريدون خيرًا بالمسلمين ، وإنهم ليسوؤهم أن يجدوا خيرًا ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾[4] ، وإنهم ليفرحون لما يحل بالمسلمين من مصائب ، وما ينزل بهم من مشقة ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ﴾[5] ، فينتظرون متى تدور الدائرة على المسلمين "[6] .

٥- الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف والإفساد في الأرض وزعم الصلاح :

قال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[7] .

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٢٦ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٤٠- ١٤١ .

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٧٨١ -٧٨٢ بتصرف يسير .

(٤) سورة التوبة : الآية ٥٠ .

(٥) سورة التوبة : الآية ٩٨ .

(٦) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٦٤ ، ١٧٠١ .

(٧) سورة التوبة : الآية ٦٧- ٦٨ .

يقول سيد : "المنافقون والمنافقات من طينة واحدة، وطبيعة واحدة، المنافقون في كل زمان وفي كل مكان تختلف أفعالهم وأقوالهم، ولكنها ترجع إلى طبع واحد، وتنبع من معين واحد، سوء الطوية ولؤم السريرة، والغمز والدس، والضعف عن المواجهة، والجبن عن المصارحة، تلك سماتهم الأصلية، أما سلوكهم فهو الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، والبخل بالمال إلا أن يبذلوه رئاء الناس، وهم حين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف يستخفون بهما، ويفعلون ذلك دسًا وهمسًا، وغمزًا ولمزًا، لأنهم لا يجرؤون على الجهر إلا حين يأمنون. إنهم - نَسُواْ ٱللَّهَ - فلا يحسبون إلا حساب الناس والمصلحة - فَنَسِيَهُمْ - فلا وزن لهم ولا اعتبار ... فهم خارجون عن الإيمان، منحرفون عن الطريق موعودون بالنار واللعنة والعذاب المقيم " .[1]

وفي الآية الأخرى يبين الله أن المنافقين يفسدون في الأرض أشنع الفساد، ويخادعون الناس ويتبجحون بأنهم مصلحون، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[2].

والذين يفسدون أشنع الفساد، ويقولون : أنهم مصلحون، كثيرون جدًا في كل زمان. يقولونها لأن الموازين مختلة في أيديهم تتأرجح مع الأهواء " [3].

٦- التخلف عن الجهاد والرغبة عنه :

وهذه صفة بارزة في المنافقين، لأنهم يحبون السلامة والدعة " فكثيرون هم أولئك الذين يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة، كثيرون أولئك الذين يجهدون لطول الطريق فيتخلفون عن الركب ويميلون إلى عرض تافه أو مطلب رخيص، كثيرون تعرفهم البشرية في كل زمان وفي كل مكان، يمثلون نموذجًا مكرورًا " [4].

" يفرحون بالتخلف عن الجهاد، وتدركهم ثقلة الأرض والحرص على الراحة، والشح بالنفقة، وضعف الهمة وهزال النخوة، وخواء القلب من الإيمان فيتركون

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٣ بتصرف .
(٢) سورة البقرة : الآية ١١- ١٢ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٤٤ بتصرف .
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٦٦١- ١٦٦٣ بتصرف

الجهاد ، وينفرون منه ، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز ، يتساقطون إعياءً خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات ، وتظل هذه الصفوف في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك ، لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان ، وأنه ألذّ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال " (١).

٧- المكر والخداع والإرجاف والوقيعة بين المسلمين :

يقول سيد : " إن المنافقين لا يقفون عند حد الكذب والخداع ، بل يضيفون إليهما السفه والادعاء ، فهم ينفون عن أنفسهم الإفساد ، ويتجاوزون إلى التبجح والتبرير بأنهم مصلحون ، و يضيفون إلى ذلك اللؤم والتآمر في الظلام ، ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾(٢).

وبعض الناس يحسب اللؤم قوة ، والمكر السيئ براعة ، وهو في حقيقته ضعف وخسة ، فالقوي ليس لئيماً ولا خبيثًا ، ولا خادعًا ولا متآمرًا ولا غمازًا في الخفاء لمازًا " (٣).

" وبالإضافة إلى المكر والخداع للذين آمنوا ، فإن المنافقين يسعون بالتخذيل في صفوف الجماعة المسلمة ، ويثبطون الناس عن الجهاد ويبثون الخور والضعف في الصفوف ، وإذا خرجوا مع المسلمين أسرعوا بينهم في الوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل ، وفي المسلمين من يسمع لهم وفي وقائع التاريخ الكثير من أفاعليهم "(٤).

٨- البخل والإنفاق رياءً والتضييق ماديًا على المسلمين :

وصف الله – سبحانه وتعالى – المنافقين وحالهم في البخل بقوله: ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾(٥) ، فهم أبخل الناس بالمال إلا أن يبذلوه رئاء الناس ، وبعضهم يعاهد الله لئن أنعم الله عليه ورزقه ، ليبذلن الصدقة ، وليصلحن العمل ، فلما استجاب الله له تنكر لوعده وتولى معرضًا عن الوفاء بما عاهد ، فيكون ذلك سببًا في النفاق في

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٨٢ بتصرف يسير ، وينظر أيضا ٣/ ١٦٨٤ ، ١٥٣٣ ، ١٧٢٣ .
(٢) سورة البقرة : الآية ١٤ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٤٤- ٤٥ بتصرف ، وينظر ٢/ ٧٨٣ .
(٤) ينظر في ذلك : في ظلال القرآن ٣/ ١١٦٣ ، ٥/ ٢٨٤٠ ، ٦/ ٣٥٧٥ - ٣٥٧٨ .
(٥) سورة التوبة الآية ٦٧ .

قلبه ، و إذا أنفق فإنما ينفق رياءً ، ويتخذ ما ينفق مغرمًا ، ولهذا أخبر -سبحانه - أنه لن يقبل منه إنفاقهم ، وعلل ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله، وأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون .

فقال وتعالى: ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾[١]" [٢].

ولم يقف الأمر بالمنافقين عند حد البخل والشح ، بل تجاوز عداؤهم للإسلام ، وخبث الطبع ولؤم النحيزة ، أن يرسموا خطة لتجويع المؤمنين ومحاربتهم في لقمة العيش وذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة ، كما هي في حسهم فيحاربون بها المؤمنين ، وخطة التجويع يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان في حرب العقيدة ومناهضة الأديان ، إنها خطة قريش وهي تقاطع بني هاشم في الشعب لينفضوا عن نصرة رسول الله ﷺ ويسلموه للمشركين ، وهي خطة المنافقين كما تحكيها الآية: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[٣].

٩- التثاقل وعدم الرغبة في العبادة :

يقول سيد : " فمن علامات النفاق أنهم لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ، فهم يأتونها مظهرًا بلا حقيقة ، لأن الباعث عليها لا ينبثق من أعماق الضمير ، إنما يدفعون إليها دفعا ، فلا يقومون إليها بحرارة الشوق إلى لقاء الله ، والوقوف بين يديه ، والاتصال به ، والاستمداد منه ، إنما هم يقومون يراءون الناس ، ومن ثم يقومون وهم كسالى ، كالذي يؤدي عملا ثقيلا ، أو يُسخَّر سخرة شاقة ، وكذلك هم لا يذكرون الله إلا قليلا ، فهم لا يتوجهون إلى الله إنما يراءون الناس ، وكذلك ينفقون ما ينفقون وهم كارهين مكرهين "[٤].

---

(١) سورة التوبة : الآية ٥٣-٥٤ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٦٥، ١٦٧٣، ١٦٧٩ .

(٣) سورة المنافقين الآية ٧ .

(٤) في ظلال القرآن ٢/ ٧٨٤، ٣/ ١٦٦٥ بتصرف .

١٠ - اللحن في القول والتظاهر بأعمال الخير :

أشار- سيد – إلى أن القرآن الكريم أوضح أن المنافقون الذين يعيشون بين المسلمين متخفين ، يتظاهرون بالإسلام وهم له كائدون ، ويعتمدون على إتقانهم فن النفاق ، وعلى خفاء أمرهم في الغالب على المسلمين ، يمكن معرفتهم من خلال ملامحهم ، ولهجتهم ونبرات أصواتهم ، وإمالتهم للقول عن استقامته ، وانحراف منطقهم ، ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾(١)" .(٢).

" وأنهم يتظاهرون بالصلاح ،ويستترون ببعض أعمال الخير تمويهًا وخداعًا للمسلمين، كما فعل أصحاب مسجد الضرار، الذين اتخذو مكيدة للإسلام والمسلمين، والإضرار بهم ، وستر الكفر، والتآمر على الجماعة المسلمة ، تحت شعار الدين . وهذا المسجد ما يزال يُتَخذ في صور شتى تلاءم ارتقاء الوسائل الخبيثة التي يتخذها أعداء هذا الدين ، يُتخذ في صورة نشاط ظاهره للإسلام وباطنه لسحق الإسلام ، أو تشويهه وتمويهه وتمييعه ، ويُتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتترس وراءها وهي ترمي هذا الدين ، ويُتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق ، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب إلى أن الإسلام بخير لا خوف عليه ولا قلق،ويُتخذ في صور شتى كثيرة :

ومن أجل أن مساجد الضرار هذه كثيرة ، يتحتم على الدعاة كشفها وإنزال اللافتات الخادعة عنها وبيان حقيقتها للناس وما تخفيه وراءها ، ولنا أسوه في كشف مسجد الضرار على عهد رسول الله- ﷺ - بذلك البيان القوي الصريح" (٣) .

" ويوجد اليوم من يتمسح بالدين أحيانا ممن آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ويتلمسون الفتوى للاحتيال على الدين لا لتنفيذ الدين ، أما إن قال الدين كلمة الحق ، وحُكْم الحق ، فلا حاجه بهم إليه"(٤) ، وكلها صور للتستر بالدين لحربه ، والله غالب على أمره .

---

(١) سورة محمد : الآية ٣٠ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٨ بتصرف يسير .

(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٧١٠، ١٧١١ .

(٤) المصدر السابق ٢/ ٨٩٢ بتصرف .



الباب الرابع

منهجه في النبوات والمعاد

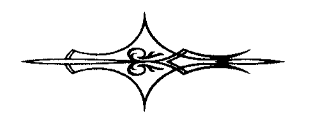
وفيه تمهيد وثلاثة فصول :

التمهيد : **مقدمة حول الغيب** .

الفصل الأول : **الإيمان بالملائكة والكتب وما يتعلق بها** .

الفصل الثاني : **الإيمان بالأنبياء والرسل** .

الفصل الثالث : **الإيمان بالمعاد واليوم الآخر** .



التمهيد

مقدمة حول الغيب

لما كانت قضايا هذا الباب متعلقة بمسائل النبوات والمعاد ، وهي من الأمور الغيبية، يحسن وقبل الدخول في تفاصيلها أن أنقل كلامًا نفيسًا لـسيد قطب -رحمه الله- حول قضية الإيمان بالغيب يقول فيه : " ليس من مستلزمات الخلافة - في الأرض- أن نطلع على هذا الغيب، وبقدر ما سخر الله للإنسان من النواميس الكونية وعرَّفه بأسرارها ، بقدر ما حجب عنه أسرار الغيب فيما لا جدوى له في معرفته ، وما يزال الإنسان مثلًا علي الرغم من كل ما فتح له من الأسرار الكونية يجهل ما وراء اللحظة الحاضرة جهلًا مطلقًا ، ولا يملك بأي أداة من أدوات المعرفة المتاحة له أن يعرف ماذا سيحدث له بعد لحظة ، وهل النَفَس الذي خرج من فمه عائد أم هو آخر أنفاسه ؟ ، وهذا مثل من الغيب المحجوب عن البشر، لأنه لا يدخل في مقتضيات الخلافة ، بل ربما كان معوِّقًا لها لو كشف للإنسان عنه ! وهنالك ألوان من مثل هذه الأسرار المحجوبة عن الإنسان في طي الغيب الذي لا يعلمه إلا الله .

ومن ثم لم يعد للعقل البشري أن يخوض فيه ، لأنه لا يملك الوسيلة للوصول إلى شيء من أمره، وكل جهد يبذل في هذه المحاولة هو جهد ضائع ، ذاهب سُدى، بلا ثمرة ولا جدوى .

وإذا كان العقل البشري لم يوهب الوسيلة للاطلاع على هذا الغيب المحجوب، فليس سبيله إذن أن يتبجح فينكر، فالإنكار حكم يحتاج إلى المعرفة، والمعرفة هنا ليست من طبيعة العقل، وليست في طوق وسائله ، ولا هي ضرورية له في وظيفته.

إن الاستسلام للوهم والخرافة شديد الضرر بالغ الخطورة، ولكن أضر منه وأخطر، التنكر للمجهول كله وإنكاره ، واستبعاد الغيب لمجرد عدم القدرة على الإحاطة به، إنها تكون نكسة إلى عالم الحيوان الذي يعيش في المحسوس وحده ، ولا ينفذ من أسواره إلى الوجود الطليق .

فلندع هذا الغيب إذن لصاحبه ، وحسبنا ما يقص لنا عنه ، بالقدر الذي يصلح لنا في حياتنا ، ويصلح سرائرنا ومعاشنا، فذلك وحده أنفع للبشرية وأهدى "[(١)].

ويقول أيضًا: " هذا الكتاب الذي أنزله الله على نبيه محمد - ﷺ - يتضمن حقائق التصور الإيماني ومنهاج الحياة الإسلامية ، ويتضمنً كذلك أمورًا غيبية لا سبيل للعقل البشري أن يدركها بوسائله الخاصة ، ولا مجال له لأن يدرك منها أكثر مما تعطيه النصوص بذاتها .

فأما الأصول الدقيقة للعقيدة والشريعة فهي مفهومة المدلولات، قاطعة الدلالة، مدركة المقاصد وهي أصل هذا الكتاب ، وأما السمعيات والغيبيات... فقد جاءت للوقوف عند مدلولاتها القريبة والتصديق بها لأنها صادرة من هذا المصدر " الحق" ويصعب إدراك ماهيتها وكيفيتها، لأنها بطبيعتها فوق وسائل الإدراك الإنساني المحدود "[(٢)].

" والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان ، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه ، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدود الذي تدركه الحواس، وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله،وحقيقته هو وما حوله من القوى، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون.. وعندئذ تصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والانشغال بما لم تخلق له ، و لم توهب القدرة للإحاطة به ،.. وعدم إدراك المجهول لا ينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون ، وعليه أن يكل الغيب إلى صاحبه، وأن يتلقى العلم في شأنه من العليم الخبير الذي يحيط بالغيب والشهادة، وبالتالي كان الغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة "[(٣)].

" إن العقيدة التي لا غيب فيها ولا مجهول، ولا حقيقة أكبر من الإدراك البشري المحدود، ليست عقيدة، ولا تجد فيها النفس ما يلبي فطرتها، وأشواقها الخفية إلى المجهول المستتر وراء الحجب المسدلة، كما أن العقيدة التي ليس فيها إلا المعميات

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٥٩ وينظر أيضًا ١/ ٥٢٥،٤ / ٢١٣٨ ، ٥/ ٢٦٦١ .

(٢) في ظلال القرآن : ١/ ٣٦٩ .

(٣) المصدر السابق : ١/ ٣٩- ٤٠ بتصرف ، وينظر : ١/ ٤٠٣ ، ٢/ ٩٨٦ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٤ ، ١١١٣- ١١١٤ ، ٣/ ١٣٥٧ ، ١٤٨٦ ، ١٦٩٦ ، ومقومات التصور الإسلامي : ص ٤٣ .

التي لا تدركها العقول ليست عقيدة ! فالكينونة البشرية تحتوي على عنصر الوعي، والفكر الإنساني لابد أن يتلقى شيئا مفهومًا له، له فيه عمل، يملك أن يتدبره ويطبقه، والعقيدة الشاملة هي التي تلبي هذا الجانب وذاك .. وهذه إحدى خواص العقيدة الإسلامية "[١].

وهذا الباب يشتمل على قضايا النبوات وما يتعلق بها ، واليوم الآخر وما يتعلق به :

فالإيمان بالنبوات يشمل: الإيمان بالملائكة، والكتب السماوية، والأنبياء والرسل .

أما الإيمان باليوم الآخر: فيشمل قضايا الآخرة، من الموت وحتى الاستقرار في الجنة أوفي النار. وهذه القضايا من أصول الإيمان التي وردت في الكتاب والسُّنَّة، قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾[٢] .

وقال ﷺ حين سأله جبريل - عليه السلام - عن الإيمان :" الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله ، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره "[٣].

فلا يكون العبد مؤمنًا إلا بأن يؤمن بهذه الأركان جميعًا، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[٤] .

وقد تكلم سيد - رحمه الله - على هذه الأركان الأربعة من أركان الإيمان، وتطرق إلى عدة مسائل مما له صله بها، كالإيمان بوجود الجن والشياطين، حيث رأيت أن أذكر ذلك في هذا الفصل لمناسبة سأشير إليها فيما بعد .

وعلى هذا فمنهج - سيد قطب - رحمه الله - في النبوات والمعاد يتضح من خلال الفصول الآتية:

---

(١) خصائص التصور الإسلامي : ص١٢٠.
(٢) سورة البقرة الآية:٢٨٥ .
(٣) جزء من حديث جبريل الطويل والحديث رواه البخاري ومسلم وقد سبق تخريجه ص ٣٠٥.
(٤) سورة النساء الآية:١٣٦ .

الفصل الأول

الإيمان بالملائكة والكتب وما يتعلق بها

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الإيمان بالملائكة.

المبحث الثاني : الإيمان بالكتب.

المبحث الثالث : الإيمان بوجود الجن والشياطين.



المبحث الأول

الإيمان بالملائكة



وجه تقديم مبحث الإيمان بالملائكة على ما يليه من المباحث هو :

ورود ذكر الإيمان بالملائكة في القرآن الكريم في عدة آيات بعد الإيمان بالله مقدمًا على بقية أركان الإيمان الأخرى، كما في سورة البقرة التي سبق ذكرها في توطئة الفصل .

قال الحافظ ابن حجر- رحمه الله -: " وقُدِّمَ الملائكة على الكتب والرسل نظرًا للترتيب الواقع، لأنه سبحانه وتعالى أرسل الملك بالكتاب إلى الرسول " [١]، فالملائكة "وسائط بين الله وبين الرسل في تبليغ الوحي والشرائع، فناسب أن يقدم الملائكة على الأنبياء"[٢].

وقد تناول سيد - رحمه الله- الحديث عن الملائكة من جوانب متعددة بيانها في المطالب الآتية :

المطلب الأول : تعريف الملائكة وحكم الإيمان بهم.

المطلب الثاني : طبيعة الملائكة وخصائصهم .

المطلب الثالث :المنحرفون في تصورهم للملائكة .

المطلب الرابع : التفضيل بين الملائكة وصالحي البشر .

---

(١) فتح الباري ١/ ١٦١ .
(٢) المصدر السابق ١/ ١٦٢ .

المطلب الأول

تعريف الملائكة وحكم الإيمان بهم أثره



وفيه ثلاثة فروع :

الفرع الأول : تعريف الملائكة :

الملائكة في اللغة: جمع "مَلَك" ، وقد اختلف العلماء في أصل اشتقاقها، ورجح ابن حجر - رحمه الله - بأنها مشتقه من "المَلَكْ" وهو الأخذ بقوه[١] .

أما في الاصطلاح : فللناس في تعريف الملائكة أقوال كثيرة :

" فجمهور أهل الكلام من المسلمين على أنها : أجسام لطيفة أعطيت قدرة على التشكل بأشكال مختلفة ومسكنها السموات، وآخرون يرون أنها : الكواكب، أو الأنفس الخيرة التي فارقت أجسادها، ويزعم الفلاسفة : أن الملائكة جواهر روحانية، وغير ذلك من الأقوال "[٢] .

أما أهل السُّنَّة والجماعة فإنهم يقفون في الحديث عن حقيقة الملائكة والتعريف بهم عند ما دلت عليه النصوص الشرعية من الكتاب والسُّنَّة ، باعتبار حقيقة الملائكة من الغيب الذي ليس للناس علم به إلا في حدود ما جاء في تلك النصوص الشرعية .

تعريف الملائكة عند سيد قطب: يقول - رحمه الله - : " لقد تضمن التصور الإسلامي عن عالم الغيب، أن هناك خلقًا من عباد الله اسمهم الملائكة، وأخبرنا القرآن الكريم عن قدر من صفاتهم يكفي لهذا التصور ويكفي للتعامل معهم في حدوده، فهم

---

(١) فتح الباري لابن حجر : ٦/ ٤٥٠ .
(٢) فتح الباري ١/ ٢١ ، ٦/ ٣٠٦ .

خلق من خلق الله، يدين لله بالعبودية، وبالطاعة المطلقة، وهم قريبون من الله "[١].

" والمأثور أن الملائكة خَلْقٌ من نور لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون"[٢] ويقول: " والملائكة خلق آخر من خلق الله لهم خصائصهم ووظائفهم،لا نعلم عنهم إلا ما أنبأنا الله من أمرهم"[٣] " فالملائكة خلق آخر غير الخلق الإنساني، خلق طبيعة خاصة، ونحن لا علم لنا بهم إلا مما يقوله عنهم الذي خلقهم "[٤].

الفرع الثاني : حكم الإيمان بالملائكة .

يقول سيد رحمه الله- : " ومن العوالم المغيبة عالم الملائكة ، وقد جعل الإسلام الإيمان بها مقومًا من مقومات الإيمان ، لا يتم الإيمان إلا به ، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره "[٥] .

ويقول أيضًا : " وهناك عوالم أخرى من الأحياء – غير دواب الأرض التي تشمل الإنسان- وهي عوالم أخبرنا الله بوجودها، وليس لنا مصدر آخر للعلم بها إلا ما أخبرنا عنها، هي عالم الملائكة والجن، وقد وصف الله هذين الخلقين، وأخبرنا عن طبيعتهما، وعن علاقتهما بالإنسان، بالقدر الذي يهدي الإنسان منهج التعامل القويم مع كليهما، وجعل الإيمان بالملائكة قاعدة من قواعد الإيمان، لما للملائكة من علاقة بالوحي والرسالة ، .. وإنكار وجودهم هو إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة وتكذيب للقرآن، معناه الكفر طبعًا، وهو أمر عجيب !! إذ أنه لا يستند إلى شيء "[٦].

الفرع الثالث : أثر الإيمان بالملائكة في حياة البشر :

ذكر سيد - رحمه الله - في أكثر من موضع بعض أثار الإيمان بالملائكة في حياة الإنسان ومن ذلك :

" أن الإيمان بحقيقة الملائكة شأنه شأن الإيمان بالحقائق الغيبية المستيقنة التي

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٤٢ .
(٢) المصدر السابق ٥/ ٣٠٢٨ .
(٣) المصدر السابق ٣/ ١٢٦٥.
(٤) المصدر السابق ٢/ ١٠٤٢ بتصرف.
(٥) في ظلال القرآن : ٢/ ١٠٤٢، ٥/ ٢٨٨٢ .
(٦) مقومات التصور الإسلامي : ص ٣٦٥ بتصرف يسير .

جاءت من عند الله، يوسع آفاق الشعور الإنساني بالوجود ، فلا تنكمش صورة الكون في تصور المؤمن حتى تقتصر على ما تدركه حواسه - وهو ضئيل - .

كما أنه يؤنس قلبه بهذه الأرواح المؤمنة من حوله ، تشاركه إيمانه بربه ، وتستغفر له ، وتكون في عونه على الخير - بإذن الله - وهو شعور لطيف ندي مؤنس ولا شك، ثم هنالك المعرفة : المعرفة بهذه الحقيقة وهي في ذاتها فضل يمنحه الله للمؤمنين به وبملائكته "[١].

" استشعار أن من الملائكة من يحفظ على الإنسان عمله ويحصيه عن يمينه وشماله، من شأنه أن يجعل الإنسان يعيش في حذر دائم ويقظة لا تغفل عن المحاسبة، ويستحضر رقابة الله ، وتسجيل الملائكة وهو يهم بأي حركة أو كلمة، وأنها ستسجل في سجل حسابه الذي سيراه بين يدي الله ، فيحسب حسابها ، ويتأدب مع ربه ومع الملائكة الكرام حوله ، وقد حكي عن الإمام أحمد أنه كان في سكرات الموت يئن، فسمع أن الأنين يكتب ، فسكت حتى فاضت روحه -رضوان الله عليه - هذا نموذج لأولئك الرجال يتلقون هذه الحقيقة ويعيشون بها "[٢].

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٤٢ .

(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٣٦٢ - ٣٣٦٣ بتصرف ، وينظر أيضًا : ٦/ ٣٨٥١ .

المطلب الثاني

طبيعة الملائكة وخصائصهم



أشار القرآن الكريم في عدة آيات إلى طبيعة الملائكة وخصائصهم وصفاتهم ، وقد ذكر سيد قطب في ظلال تلك الآيات هذه الخصائص والصفات ، وبيانها في الفروع الآتية

الفرع الأول : صفات الملائكة :

من صفات الملائكة التي أشار إليها سيد قطب ما يأتي:

١- " أنهم مخلوقون من نور "[(١)].

٢- " أنهم مجبولون على الطاعة والإيمان والتسليم المطلق لله سبحانه وتعالى "يدينون لله بالعبودية والطاعة المطلقة " و " لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون " وهم " أهل طاعة مطلقة، فقد كانوا أولى الخلق بالطمأنينة، ولكنهم دائبون في تسبيح ربهم، لما يحسون من علوه وعظمته، ولما يخشون من التقصير في حمده وطاعته، ويشفقون على أهل الأرض المقصرين والمنحرفين من غضب الله، فيروحون يستغفرون لأهل الأرض مما يقع في الأرض من معصية وتقصير .. حتى من الذين آمنوا .. يستغفرون ربهم ويسبحون بحمده استشعارًا لعلوه ولعظمته، واستهوالاً لأي معصية تقع في ملكه، واستدرارًا لمغفرته ورحمته .. "، " إنهم لا يعرفون إلا طريقًا واحدًا هو طريق الإيمان " .

" لا ينزغ في أنفسهم شيطان، فليس له من تركيب طبيعتهم مكان، ولا تستبد بهم نزوة، ولا تغلبهم شهوة " ، " وفطرتهم بريئة، لا تتصور إلا الخير المطلق، والسلام الشامل " ، " وهم عباد مكرمون، قريبون من الله "[(٢)] .

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٢٨ .

(٢) تنظر الفقرات في : في ظلال القرآن بالترتيب الآتي : ١/ ٣٧٨، ٢/ ١٠٤٢ ، ٣/ ١٢٦٥ ، ٥/ ٣٠٢٨، ٣٦٤١ ، ١٨٢١، ٣/ ١٤٢٨ ، ١/ ٥٦ ، ٢/ ١٠٤٢ .

أنهم ذو أجنحة من حيث تكوينهم الخلقي كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾[1].

يقول سيد :" وهو وصف لا يمثلهم للتصور، لأننا لا نعرف كيف هم، ولا كيف أجنحتهم هذه، ولا نملك إلا الوقوف عند هذا الوصف، دون تصور معين له، فكل تصور قد يخطئ ولم يرد إلينا وصف محدد للشكل والهيئة من طريق معتمد، والذي ورد في القرآن الكريم هو هذا، وهو قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[2] وهو كذلك لا يحدد شكلاً ولا هيئةً، والذي ورد في الأثر: " أن النبي -ﷺ- رأى جبريل في صورته مرتين " وفي رواية : " له ستمائة جناح "[3]، وهو كذلك لا يعين شكلاً ولا هيئةً، فالأمر إذن مطلق، والعلم لله وحده في هذه الغيبيات .

وبمناسبة ذكر الأجنحة مثنى وثلاث ورباع حيث لا يعرف الإنسان إلا شكل الجناحين للطائر، يذكر أن الله : ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ فيقرر طلاقة المشيئة، وعدم تقيدها بشكل من أشكال الخلق، وفيما نشهده نحن ونعلمه أشكال لا تحصى من الخلق، ووراء ما نعلم أكثر وأكثر، " إن الله على كل شيء قدير" وهذا التعقيب أوسع من سابقه وأشمل، فلا تبقى وراءه صورة لا يتناولها مدلوله من صور الخلق والإنشاء والتغيير والتبديل "[4].

أنهم لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله، ولا يملكون الشفاعة إلا بإذنه، ولهم مقام معلوم لا يتجاوزونه ، حيث ذكر الله في قصة آدم - عليه السلام - وحواره مع الملائكة وعرض الأسماء عليهم وإقرارهم بعجزهم وبحدود علمهم وهو ما علمهم: ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾[5] وهم يواجهون المشركين الذين عبدوهم في الدنيا أو يتخذونهم شفعاء، يواجهونهم يوم القيامة ويتبرؤون من

---

(١) سورة فاطر : الآية ١ .

(٢) سورة التحريم : الآية ٦ .

(٣) رواه : البخاري في التفسير باب قوله تعالى " فأوحى إلى عبده ما أوحى " ٤/ ١٨٤١ برقم ٤٥٧٦ .

(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٢١ .

(٥) سورة البقرة : الآية ٣٢ .

عبادة القوم لهم...فالملائكة لا يملكون للناس شيئًا، ولا يشفعون عند الله إلا لمن ارتضى"[١]. "ويقف كل منهم على درجة لا يتجاوز حده "[٢].

أن لهم القدرة على التمثل في صورة البشر ومخاطبتهم، كما جاء جبريل - عليه السلام - إلى مريم العذراء: ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾[٣]، وكما جاءت الملائكة إلى إبراهيم - عليه السلام - في صورة أضياف: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾[٤]، وكما جاءت إلى لوط - عليه السلام - في صورة فتية صباح ملاح[٥]، وكما جاء جبريل - عليه السلام - إلى محمد - ﷺ - في صورة رجل يسأله عن الإسلام، وغير ذلك كثير[٦].

"فالملائكة خلق آخر غير الخلق الإنساني، خلق ذو طبيعة يعلمها الله، وهم كما يقول الله عنهم، ونحن لا علم لنا بهم إلا مما يقوله عنهم الذي خلقهم، لا يستطيعون أن يمشوا في الأرض بهيئتهم التي خلقهم الله عليها، لأنهم ليسوا من سكان هذا الكوكب، ولكن لهم - مع ذلك - من الخصائص ما يجعلهم يتخذون هيئة البشر حين يؤدون وظيفة من وظائفهم في حياة البشر "[٧].

أما عدد الملائكة فلا يعلمه إلا الله، يقول- سيد رحمه الله- : " ولكن قد يقربه إلى التصور ما جاء في حديث رسول الله - ﷺ - أنه قال: " إني أرى مالا ترون، وأسمع مالا تسمعون، أطّت[٨] السماء وحق لها أن تئطّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته لله ساجدًا، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩١١ .

(٢) المصدر السابق ٥/ ٣٠٠١ .

(٣) سورة مريم: الآية ١٧ .

(٤) سورة الذاريات: الآية ٢٤-٢٧ .

(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٣٤ .

(٦) ينظر: المصدر السابق ٤/ ٢٣٠٥ - ٢٣٠٦، ٥/ ٢٧٣٤، ٢٨٨٢، ٦/ ٣٣٨٢ .

(٧) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٤٢ .

(٨) أطّت: الأطيط: صوت الاقتاب، وأطيط الإبل: أصواتها وحنينها، أي أن كثرة ما في السماء من الملائكة قد أثقلها حتى أطّت، انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٠٨ .

ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى، لوددت أني شجرة تعضد "[١].

والسماء التي ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك، هي هذا الاتساع الهائل الذي لا يعرف له البشر حدودًا، والذي تبدو فيه شمس كشمسنا ذرة كالهباء الطائرة في الفضاء، فهل هذا يقرب شيئا للتصور البشري عن عدد الملائكة ؟! "[٢].

الفرع الثاني :وظائف الملائكة وأعمالهم :

" أخبرنا القرآن الكريم أن الملائكة لهم وظائف يكلفون بها من ربهم، فلا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فهم خلق من خلق الله، يدين لله بالعبودية، وبالطاعة المطلقة، قريبون من الله، مكرمون عنده ،قال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾[٣]، وقال سبحانه:﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[٤]"[٥].

وقد أشار سيد - رحمه الله- إلى عدد من وظائف الملائكة وأعمالهم في ظلال الآيات التي تتحدث عنهم ومن ذلك :

١- أنهم يحملون عرش الرحمن، ويحفون به يوم القيامة كذلك : "ولا ندري كيف؟ فليس لنا من علم إلا بقدر ما كشف الله لنا من هذا الغيب بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾[٦] وقوله : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ

---

(١) رواه : الترمذي في الزهد باب قوله لو تعلمون ما أعلم ٤/ ٤٨٢ برقم ٢٣١٢، وأحمد ٥/ ١٧٣ وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢/ ٥٢٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٨٧- ٣٥٨٨ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٢٦-٢٨ .

(٤) سورة الأنبياء : الآية ١٩-٢٠ .

(٥) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٤٢ بتصرف يسير .

(٦) سورة غافر : الآية ٧ .

﴿ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾[(١)]، وقوله : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾[(٢)].

" فالملائكة على أرجاء السماء المنشقة أطرافها ، والعرش فوقهم يحمله ثمانية أملاك، أو ثمانية صفوف منهم، أو ثمانية طبقات من طبقاتهم، أو ثمانية مما يعلم الله، لا ندري نحن..."[(٣)] .

٢- عبادة الله بالصلاة والتسبيح والذكر والدعاء . وقد أشار القرآن الكريم إلى أن حياة الملائكة كلها عباده يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[(٤)].

يقول سيد : " فقوله ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾ المفهوم القريب أنهم الملائكة، وإن كان النص عام ، إلا أن المفهوم من التعبير أنهم هم الأقرب إلى الله، ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أي : لا يقصرون في العبادة، فحياتهم كلها عبادة وتسبيح بالليل والنهار دون انقطاع ولا فتور"[(٥)].

وجاءت نصوص أخرى تخبر أنهم يصفون للصلاة، ويتلون التسبيح والذكر، ويسجدون ويركعون، منها :

- قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[(٦)]، " فالآية تخبر أن الأشياء تخضع لله بالسجود، ومعها الملائكة، في مقام خشوع وخضوع وعبادة وسجود، لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يخالفون عن أمره"[(٧)] .

-وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ

---

(١) سورة الزمر : الآية ٧٥ .
(٢) سورة الحاقة : الآية ١٧ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٤٢ ، وينظر أيضا ٥/ ٣٠٦٣، ٣٠٧٠، ٦/ ٣٦٨٠ .
(٤) سورة الأنبياء : الآية ١٩- ٢٠ .
(٥) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧٢- ٢٣٧٣ بتصرف يسير .
(٦) سورة النحل : الآية ٤٩ - ٥٠ .
(٧) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٧٤ .

يَسْجُدُونَ ﴾[(١)] " يضرب الله مثلًا بالذين عنده من الملائكة المقربين ، فهم دائمون على تسبيح الله وذكره ، لا يستكبرون عن عبادته ولا يقصرون ، وللإنسان أحوج منهم إلى الذكر والعبادة والتسبيح "[(٢)] .

- وقوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾[(٣)] "وهي طوائف من الملائكة، ذكرها هنا بأعمالها التي يعلمها ، والتي يجوز أن تكون هي الصافات قوائمها في الصلاة ، أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله ، والتاليات للذكر : القرآن أو غيره من كتب الله أو المسبحات بذكر الله "[(٤)]. فالملائكة " عباد من خلق الله، لهم وظائف في طاعة الله، فهم يصفون للصلاة ، ويسبحون بحمد الله"[(٥)] .

٣ - وهم خزنة الجنة وخزنة النار: يستقبلون أهل الجنة بالسلام والدعاء، ويستقبلون أهل النار بالتأنيب والوعيد، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾[(٦)] .

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾[(٧)] .

" فالملائكة خزنة النار يستقبلون أهل النار يسجلون استحقاقهم لها ويذكرونهم بأسباب مجيئهم إليها ، وملائكة النار ذو طبيعة غليظة شديدة تناسب طبيعة العذاب

(١) سورة الأعراف : الآية ٢٠٦ .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٢٨ .
(٣) سورة الصافات : الآية ١ - ٣ .
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٨٢ .
(٥) المصدر السابق ٥/ ٣٠٠١ .
(٦) سورة الزمر : الآية ٧١-٧٣ .
(٧) سورة الرعد : الآية ٢٣ - ٢٤ .

الذي هم به موكلون: ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾[١]،[٢].

" وخزنة الجنة يستقبلون أهلها استقبالًا طيبًا، بالثناء وبيان السبب ﴿ طِبْتُمْ ﴾ وتطهرتم، كنتم طيبين، وجئتم طيبين، فما يكون فيها إلا الطيب، ولهم الخلود في ذلك النعيم "[٣].

ومن أعمال الملائكة أيضًا ما يتعلق بالتعامل مع أهل الأرض:

يقول سيد : " وهم يتعاملون مع أهل الأرض في صور شتى وذكر منها :

٤- حفظ العباد بأمر الله : "حيث جعل الله من الملائكة حفظةً على الإنسان "[٤] قال سبحانه :﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾[٥]، وقال: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾[٦].

وقال: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴾[٧]، " وهؤلاء الحافظون هم الأرواح الموكلة بالإنسان من الملائكة التي ترافقه ، وتراقبه ، وتحصي عليه كل ما يصدر عنه، ونحن لا ندري كيف يقع هذا كله ، ولسنا بمكلفين أن نعرف كيفيته ، ... فلا ضرورة للخوض فيما وراء النص، ويكفي أن يشعر القلب البشري أنه غير متروك سدى، وأن عليه حفظة كرامًا "[٨] .

٥- تسجيل ما يصدر عن العباد : "حيث جعل الله ملائكة يتابعون العباد ويسجلون عليهم كل ما يصدر عنهم قال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[٩]"[١٠]، " أي رقيب حاضر، لا كما يتبادر إلى الأذهان أن اسمي الملكين رقيب، وعتيد ! ونحن لا ندري كيف يسجلان، ولا داعي للتخيلات التي لا تقوم على أساس ،

---

(١) سورة التحريم : الآية ٦ .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦١٨، ٣٧٥٨ .
(٣) المصدر السابق ٢/ ١٠٤٣، ٥/ ٣٠٦٢، ٦/ ٣٦١٨ .
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٢٧٣.
(٥) سورة الأنعام :الآية ٦١ .
(٦) سورة الرعد: الآية ١١.
(٧) سورة الانفطار:الآية ١٠.
(٨) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٤٣، ١١٢٢، ٤/ ٢٠٤٨، ٦/ ٣٨٥١.
(٩) سورة ق: الآية ١٨.
(١٠) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٤٣.

فموقفنا بإزاء هذه الغيبيات أن نتلقاها كما هي، ونؤمن بمدلولها دون البحث في كيفيتها التي لا تفيدنا معرفتها في شيء ، فضلًا على أنها غير داخلة في حدود تجاربنا ولا معارفنا البشرية .

ولقد عرفنا نحن - في حدود علمنا البشري الظاهر - وسائل للتسجيل لم تكن تخطر لأجدادنا على بال، وهي تسجل الحركة والنبرة كالأشرطة الناطقة وأشرطة السينما والتليفزيون، وهذا كله في محيطنا نحن البشر، فلا داعي من باب أولى أن نقيد الملائكة بطريقة تسجيل معينة مستمدة من تصوراتنا البشرية المحدودة ، البعيدة نهائيًا عن ذلك العالم المجهول لنا ، والذي لا نعرف عنه إلا ما يخبرنا به الله، بلا زيادة ! .

وحسبنا أن نعيش في ظلال هذه الحقيقة المصورة ، وأن نستشعر ونحن نهم بأية حركة وبأية كلمة أن عن يميننا وعن شمالنا من يسجل علينا الكلمة والحركة ، لتكون في سجل حسابنا بين يدي الله الذي لا يضيع عنده فتيل ولا قطمير "[١].

ويشير سيد - رحمه الله - أيضًا في مواضع أخرى إلى أنه ربما يكون المقصود بالحفظة أيضًا هم الملائكة التي ترافق الإنسان وتراقبه ، وتحصي عليه كل ما يصدر عنه ، كما قال - سبحانه - ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[٢]، فوصف الحافظين بكونهم كرامًا ليستجيش في القلوب إحساس الخجل بحضرة هؤلاء الكرام ، فلا يليق أن يطلعوا منه إلا على كريم من الخصال والفعال ، عندما تشعر النفس أن عليها حفيظ ورقيب يحصي كل حركة وكل نأمة ، ويحفظ ما يصدر عنها لا يند عنه شيء "[٣].

٦- تبليغ الوحي إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم : وجعل الله من الملائكة أيضًا من يبلغ الرسل وحيه، وقد أعلمنا الله - سبحانه - أن جبريل - عليه السلام - هو الذي يقوم بهذه الوظيفة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٣٦٣ .

(٢) سورة الانفطار : الآية ١٠ - ١٢.

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٢، ٤/ ٢٠٤٩، ٦/ ٣٨٥١.

يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ (١) وقال سبحانه: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (٢)، ووصفه سبحانه بأنه ذو مرة "أي قوه"، وأن الرسول - ﷺ - رآه على هيئة الملائكة مرتين اثنتين، بينما جاءه في صور شتى في مرات الوحي التالية : قال سبحانه: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ (٣)، (٤) ووحي الله لرسله بواسطة الملك له عدة صور سيأتي بيانها -إن شاء الله -عند الحديث عن النبوة والوحي (٥).

٧- تثبيت المؤمنين، وإمدادهم في معركتهم مع الباطل، وقتال الكفار معهم :

فالملائكة " يتنزلون على المؤمنين بالتثبيت والمدد والتأييد في معركتهم الكبرى مع الباطل والطاغوت ، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٦) ، وقال سبحانه ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (٧) .

قال سبحانه: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي

---

(١) سورة النحل :الآية ٢.
(٢) سورة البقرة:الآية ٩٧.
(٣) سورة النجم:الآية ١-١٥.
(٤) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٤٣، ٣/ ١٢٧٣، ، ٥/ ٣١٧٠، ٦/ ٣٤٠٦-٣٤٠٧.
(٥) ينظر أيضًا : في ظلال القرآن ٥/ ٣١٧٠.
(٦) سورة فصلت : الآية ٣٠.
(٧) سورة آل عمران : الآية ١٢٣-١٢٦.

﴿فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[1]،[2] " فالله ينزل الملائكة على المجاهدين في سبيل الله ينصرونهم ويبشرونهم كذلك، ويسلطهم على الذين كفروا يقتلونهم "[3].

وذكر سيد -رحمه الله -أن هناك روايات كثيرة مفصلة عن الملائكة في يوم بدر، عددهم وطريقة مشاركتهم في المعركة، وما كانوا يقولونه للمؤمنين مثبتين،وما كانوا يقولونه للمشركين مخذلين ، وبيَّن أن طريقته في الظلال الاكتفاء في مثل هذا الشأن من عوالم الغيب بما يرد في النصوص المستيقنة من قرآن أو سنة – والنصوص القرآنية هنا فيها الكفاية: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[4]، فهذا عددهم ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[5]، فهذا عملهم، ولا حاجة إلى التفصيل وراء هذا .. وحسبنا أن نعلم أن الله لم يترك العصبة المسلمة وحدها في ذلك اليوم وهي قلة والأعداء كثرة، وأن أمر هذه العصبة وأمر هذا الدين قد شارك فيها الملأ الأعلى مشاركة فعلية على النحو الذي يصفه الله – سبحانه – في كلماته .

قال البخاري -رحمه الله -: باب شهود الملائكة بدرًا ، وفيه : جاء جبريل إلى النبي -ﷺ- فقال : " ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : " من أفضل المسلمين " – أو كلمة نحوها – قال : " وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة "[6]،[7].

كما ذكر سيد بعض الأحاديث والآثار في تبرؤ الشيطان من المشركين يوم بدرٍ لما رأى جبريل يزع الملائكة ، وقوله: " إني أرى ما لا ترون "[8].

(١) سورة الأنفال : الآية ١٢.
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٤٣.
(٣) المصدر السابق ٣/ ١٢٧٣.
(٤) سورة الأنفال :الآية ٩.
(٥)سورة الأنفال :الآية ١٢.
(٦) رواه : البخاري في المغازي باب شهود الملائكة بدرًا ٤/ ١٤٦٧ برقم ٣٧٧١ ، ٣٧٧٢.
(٧) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٨٣- ١٤٨٤ .
(٨) المصدر السابق ٣/ ١٥٣٠- ١٥٣١ .

ويشير سيد - رحمه الله- إلى أن أمر معية الله -سبحانه- للملائكة في المعركة، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة ، أمرٌ هائلٌ عظيمٌ ، لا يجوز أن يشغلنا عنه أن نبحث : كيف اشترك الملائكة ؟ ولا كم قتيلًا قتلت..؟ ولا كيف قتلت..؟ فنحن نؤمن بوجود خلق من خلق الله اسمهم الملائكة ، ولكنا لا ندرك من طبيعتهم إلا ما أخبرنا به خالقهم عنهم ، فلا نملك من إدراك الكيفية التي اشتركوا بها ، إلا بمقدار ما جاء في النص..وقد أوحى إليهم ربهم : أني معكم ، وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا، ففعلوا - لأنهم يفعلون ما يؤمرون - ولكننا لا ندري كيف فعلوا، وأمرهم أن يضربوا فوق أعناق المشركين وأن يضربوا منهم كل بنان ، ففعلوا كذلك بكيفية لا نعلمها ..

إن البحث التفصيلي في كيفيات هذه الأفعال كلها ليس من الجد الذي هو طابع العقيدة والحركة ، ولكنه صار من مباحث الفرق الإسلامية وعلم الكلام في العصور المتأخرة ، عندما فرغ الناس من الاهتمامات الإيجابية في هذا الدين ، وتسلط الترف العقلي على النفوس والعقول .

إن وقفة أمام الدلالة الهائلة لمعية الله -سبحانه- للملائكة في المعركة ، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة ، لهي أنفع وأجدى " [(١)].

ويبين سيد - رحمه الله- خطأ الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله - عندما قال: أنه ثبت أن الملائكة لم تشترك في المعركة يوم بدر إلا بمخالطة أرواح المؤمنين وتثبيتهم "[(٢)] فهذا مخالف لظاهر النص ، والنص أولى بالإتباع " [(٣)].

٨- الدعاء والاستغفار للمؤمنين والانشغال بأمرهم : والملائكة " مشغولون بأمر المؤمنين ، يسبحون ربهم ، ويستغفرون للذين آمنوا من ذنوبهم ، ويدعون ربهم لهم دعاء المحب المشفق المشغول بشأن من يحب قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٨٥- ١٤٨٦ بتصرف يسير .
(٢) تفسير المنار ٩/ ٥٢٥ وما بعدها .
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٣٤ هامش (١) .

كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [١]، [٢]. " فحملة العرش ومن حوله .. يذكرون المؤمنين من البشر عند ربهم ، ويستغفرون لهم ويستنجزون وعد الله إياهم ، بحكم رابطة الإيمان بينهم وبين المؤمنين ...

فهؤلاء المقربون يتوجهون بعد تسبيح الله ، إلى الدعاء للمؤمنين من الناس بخير ما يدعو به مؤمن لمؤمن.. الغفران والوقاية من العذاب ، إلى سؤال الجنة واستنجاز وعد الله لعباده الصالحين بدخول الجنة ، وصحبة من صلح من الآباء والأزواج والذريَّات في الجنة ، ووقايتهم من السيئات التي توبق أصحابها في الآخرة ، فإذا وقاهم منها فقد وقاهم نتائجها وعواقبها " [٣] .

٩- تبشير المؤمنين بما يسرهم : ولذلك عدة صور منها :

أ- تبشير المجاهدين بالنصر والغلبة .[٤]

ب- تبشير الأنبياء والصالحين بما يسرهم ومن ذلك :

١- بشارتهم لإبراهيم- عليه السلام -وزوجه، بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب [٥].

٢- بشارتهم لزكريا - عليه السلام - بيحيى - عليه السلام - [٦].

٣- بشارتهم لمريم بعيسى - عليه السلام - [٧] .

٤- تبشيرهم للمؤمنين بولايتهم لهم في الدنيا والآخرة وبالجنة، كما قال سبحانه

---

(١) سورة غافر : الآية ٧- ٩ .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٠٤٣ .
(٣) المصدر السابق ٥/ ٣٠٧٠-٣٠٧١ بتصرف يسير ، ٥/ ٣١٤١ .
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٧٣ .
(٥) المصدر السابق ٤/ ١٩١٢ .
(٦) المصدر السابق ١/ ٣٩٤ .
(٧) المصدر السابق ١/ ٣٩٦ - ٣٩٧ .

وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [١].

" فالله يكلف الملائكة بالمؤمنين ، يفيضون على قلوبهم الأمن والطمأنينة ، ويبشرونهم بالجنة ، ويتولونهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة " [٢].

١٠- قبض أرواح العباد : أوكل الله – سبحانه – قبض أرواح العباد إلى ملك الموت وأعوانه وسماهم رسلًا ، فقال سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [٣]، وأخبرنا القرآن الكريم أن من أعمال الملائكة قبض أرواح العباد ، المؤمنين وغير المؤمنين ، وصَوَّر طريقة التوفي وقبض الروح لكلا الفريقين :

أ- أما المؤمنون: فأخبر –سبحانه– أن الملائكة تبشرهم بالجنة عند قبض أرواحهم[٤]، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٥]

" ومشهد احتضار المؤمنين الطيبين ، مشهد هينٌ لينٌ كريمٌ ، نفوسهم طيبة بلقاء الله ، معافين من الكرب وعذاب الموت..، تسلم عليهم الملائكة طمأنة لقلوبهم ، وترحيبًا بقدومهم " ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون " تعجيلًا لهم بالبشرى، وهم على عتاب الآخرة، جزاء وفاقًا على ما كانوا يعملون " [٦].

أما الكافرون الظالمون: فإن الملائكة تقبض أرواحهم في مشهد مفزعٍ مرعبٍ

---

(١) سورة فصلت : الآية ٣٠ – ٣٢ .
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٢٠ – ٣١٢١ وينظر أيضًا : ٣/ ١٠٤٤ .
(٣) سورة الأنعام : الآية ٦١ .
(٤) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٤٤ .
(٥) سورة النحل : الآية ٣٢ .
(٦) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٦٩ .

مكروب مرهوب ، الظالمون في غمرات الموت وسكراته - ولفظ غمرات يلقي ظله المكروب - والملائكة يبسطون إليهم أيديهم بالعذاب، وهم يطلبون أرواحهم للخروج ، وهم يتابعونهم بالتأنيب : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١) ، عذابٌ مهينٌ، وتأنيبٌ فاضحٌ، يضفي على المشهد ظلالًا مكروبة " (٢).

وأعظم من ذلك ما صوره القرآن الكريم لمشهد احتضار الكفار في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ (٣) .

" فالملائكة تستل منهم أرواحهم في مشهد مهين ، يضيف المهانة والخزي ، إلى العذاب والموت، وهم يحتضرون وفي نهاية حياتهم على الأرض، ومستهل حياتهم الأخرى التي تفتتح بضرب الوجوه والأدبار لحظة الوفاة ، والضيق والكرب والمخافة " (٤).

ويختم سيد - رحمه الله- استعراضه لوظائف الملائكة وتعاملهم مع الخلق بقوله: " ولقد كان للملائكة شأن مع البشر منذ نشأة أبيهم آدم- عليه السلام - كما أن هذه الصلة امتدت في طول الحياة وعرضها ، حتى مجال الحياة الباقية على النحو الذي أشرنا إليه فيما سبق " (٥).

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٩٣ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١١٤٩ بتصرف يسير .
(٣) سورة الأنفال : الآية ٥٠.
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٣٤، وينظر أيضًا : ٢/ ٧٤٤، ٣/ ١٢٧٣، ٥/ ٢٩٨٢، ٦/ ٣٢٩٨ .
(٥) المصدر السابق ٢/ ١٠٤٤.

المطلب الثالث

المنحرفون في تصورهم للملائكة وموقف سيد قطب منهم



تبين لنا فيما سبق التصور الصحيح الذي جاءت به النصوص الشرعية لعالم الملائكة ، والذي يتضمن الإيمان بوجود هذا العالم الغيبي حقيقة ، وبصفاته وخصائصه وطبيعته التي تحدث عنها النصوص ، والإيمان بالأعمال والوظائف التي يقومون بها بأمر الله - سبحانه - وعلاقتهم بالله وبالكون وبالبشر ، على نحو ما سبق ذكره من الفروع السابقة .

ومع ذلك يوجد من انحرف تصوره لحقيقة الملائكة ، وهو انحراف قديم جديد تعرض له القرآن الكريم بالبيان والنقد والتصحيح ، وقد وقف سيد قطب - رحمه الله- عند هذه القضية وبين منهج القرآن الكريم في تصحيح التصور عن الملائكة ويمكن بيان ذلك فيما يأتي :

١ - تصور المشركين في الجاهلية القديمة للملائكة :

ذكر سيد - رحمه الله- في ظلال الآيات التي تتحدث عن تصور المشركين للملائكة ، بأن " العرب في جاهليتهم يعرفون الملائكة وكانوا يطلبون أن ينزل الله على رسوله ملكًا يدعو معه ويصدقه ولكنهم لم يكونوا يعرفون طبيعة هذا الخلق التي لا يعلمها إلا الله ، وكانوا يخبطون في التيه بلا دليل في تصور هذا الخلق، وفي نوع علاقته بربه ، ونوع علاقته بالأرض وأهلها.. وقد حكى القرآن الكريم كثيرًا من ضلالات العرب وأساطير الوثنية حول الملائكة ، وصححها كلها لهم ليستقيم تصور من يهتدي بهذا الدين منهم ، وتصح معرفتهم لهذا الكون وما يعمره من خلائق .

وكان الإسلام - من هذا الجانب - منهجًا لتقويم العقل والشعور، كما كان منهجًا لتقويم القلب والضمير، ومنهجًا لتقويم الأوضاع والأحوال سواء .

وحكى القرآن الكريم من أضاليل العرب ومن جهالتهم في جاهليتهم ، أنهم

كانوا يظنون أن الملائكة بنات الله ! سبحانه وتعالى عما يصفون ! وأنهم - من ثم - لهم شفاعة عند الله لا ترد !.

والراجح : أن بعض كبار الأصنام كانت رموزًا للملائكة ! كما حكى قولهم هذا في طلبهم أن ينزل الله على رسوله ملكًا ليصدقه في دعواه .

وقد صحح القرآن للمشركين ضلالتهم الأولى وهي قولهم: إن الملائكة بنات الله وأن لهم شفاعة عنده في مواضع شتى،من ذلك ماجاء في سورة النجم : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [١]، [٢] .

وفي سورة الصافات : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [٣] .

حيث يوجه القرآن الكريم الرسول -ﷺ- أن يناقش معهم تلك الأسطورة التي يزعمون فيها أن الملائكة بنات الله، والأسطورة الأخرى التي يزعمون فيها أن بينه- سبحانه- وبين الجنة نسبًا، إنه يحاصر أسطورتهم في كل مساربها ، ويحاجّهم بمنطقهم ومنطق بيئتهم التي يعيشون فيها ، وهم كانوا يؤثرون البنين على البنات،

(١) سورة النجم : الآية ١٩ - ٢٨ .

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٤١ .

(٣) سورة الصافات : الآية ١٤٩- ١٥٩ .

ويعدون ولادة الأنثى محنة ، ويعدون الأنثى مخلوقًا أقل رتبة من الذكر، ثم هم الذين يدَّعون أن الملائكة إناث ، وأنهم بنات الله .

فهو هنا يستطرد معهم وفق منطقهم ، ويأخذهم به ليروا مدى تهافت الأسطورة وسخفها حتى بمقاييسهم الشائعة...﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ أإذا كان الإناث أقل رتبة كما يدعون ،جعلوا لربهم البنات واستأثروا بالبنين؟! أو أختار الله البنات وترك لهم البنين ؟! إن هذا أو ذاك لا يستقيم ! فاسألهم عن هذا الزعم المتهافت السقيم و منشأ الأسطورة كلها ، من أين جاءهم علمٌ أن الملائكة إناث ؟ وهل هم شهدوا خلقهم فعرفوا جنسهم ؟ ... بل هم كاذبون حتى بحكم عُرْفِهم ومنطقهم .. وحكمهم لا يتفق مع منطقهم ، وليس لهم سند ولا دليل على هذا الحكم المزعوم،.. ولا على أسطورة أن بين الله وبين الجنة نسبًا وأن الملائكة ولدتهم له الجِنْة "[(١)].

وفي سورة سبأ يبطل القرآن الكريم ما كان عليه المشركون من عبادة الملائكة، من خلال الحديث عما سيكون يوم القيامة بين الملائكة وبين المشركين فيقول: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾[(٢)]، " فهاهم الملائكة الذين كانوا يعبدونهم..أو يتخذونهم عنده شفعاء، يواجهون بهم ، فيسبحون الله تنزيهًا له من هذا الادعاء ، ويتبرأون من عبادة القوم لهم ... وبالتالي فالملائكة لا يملكون للناس شيئا ، ولا الذين كفروا يملك بعضهم لبعض شيئا .. "[(٣)]

- كما صحح القرآن الكريم للمشركين ضلالتهم الثانية في تصورهم لطبيعة الملائكة : وهي طلبهم أن ينزل الله على رسول الله ﷺ ملكا يدعو معه ويصدقه،

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٠٠-٣٠٠١ بتصرف يسير .

(٢) سورة سبأ : الآية ٤٠- ٤٢ .

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩١١ بتصرف يسير .

فيقول- سبحانه - : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[١]، " فهو يخبر أن الملائكة حين ينزلون إلى الأرض على قوم كذبوا برسولهم ، إنما ينزلوا للتدمير عليهم وإهلاكهم ، ولو أن الله استجاب للمشركين فأنزل ملكا لقضي الأمر، وتم التدمير، ولم يُنظروا إلى مهلة بعد هذا التنزيل .. وهذا من رحمة الله بهم ..

ثم إن اقتراحهم إنزال ملك على الرسول -ﷺ- يصدقه في دعواه ، دليل على جهلهم بطبيعة الملائكة،.. فلو شاء الله أن يرسل ملكًا يصدق رسوله ، لتبدى للناس في صورة رجل - لا في صورته الملائكية ، لأنهم لا يستطيعون أن يمشوا في الأرض بهيئتهم الملائكية ، لأنهم ليسوا من سكان هذا الكوكب، وعندئذ يلتبس عليهم الأمر مرة أخرى، فإذا كانوا يُلبِّسون على أنفسهم الحقيقة ، وهم يعرفون محمد -ﷺ- فكيف يكون اللبس إذا جاءهم ملك - في صورة رجلٍ لا يعرفونه - يقول لهم: أنا ملك أرسلني الله لأصدق رسوله ، بينما هم يرونه رجلًا كأي منهم ؟! إنهم يُلبِّسون الحقيقة البسيطة، فلو أرسل الله ملكًا لجعله رجلًا وللبس عليهم الحقيقة التي يلبسونها ، ولما اهتدوا قط إلى يقين "[٢]. وقد صحح القرآن هذه الضلالة في مواضع أخرى[٣] .

٢- تصور الملاحدة للملائكة :

الإلحاد هو : إنكار وجود الله تعالى ، ويترتب على هذا الإنكار إنكار كل ما يتعلق بالإيمان بالله من الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر ، وما جاء عن الله تعالى .

ويمثل الفلاسفة نموذجًا للملاحدة قديمًا، فتصورهم للإله تصور منحرف، حيث يرون أن الإله هو قانون العالم وهيكله، فهو ليس الإله الحق الذي جاء به الإسلام ، وبالتالي فتصورهم لبقية أركان الإيمان تصور منحرف بما في ذلك

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٨- ٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٤١- ١٠٤٢ بتصرف يسير .

(٣) ينظر : المصدر السابق ٤/ ٢١٢٧ .

تصورهم للملائكة ، حيث يرونها تخييلات من الأنبياء ، للتأثير على الجماهير [١].

ويمثل الملاحدة اليوم من يسمون " أهل العلمية الحديثة "، يقول سيد -رحمه الله:
" والعرب في جاهليتهم -على كل ما في هذه الجاهلية من خطأ في التصور- كانوا " من هذا الجانب " أرقى من أهل الجاهلية " العلمية !" الحديثة ، الذين يسخرون من الغيب كله ! ويعدون الإيمان بمثل هذه العوالم الغيبية سذاجة غير علمية ! ويضعون "الغيبية " في كفة ، و " العلمية " في الكفة الأخرى !...

ونسال : ماذا عند أدعياء العقلية "العلمية " من علمهم ذاته ، يحتم عليهم نفي هذا الخلق المسمى بالملائكة ، وإبعاده عن دائرة التصور والتصديق ؟ ماذا لديهم من علم يوجب عليهم ذلك .

إن علمهم لا يملك أن ينفي وجود حياة من نوع آخر غير الحياة المعروفة في الأرض في أجرام أخرى ، يختلف تركيب جوها وتختلف طبيعتها وظروفها عن جو الأرض وظروفها، فلماذا يجزمون بنفي هذه العوالم ، وهم لا يملكون دليلًا واحدًا على نفي وجودها .

إننا لا نحاكمهم إلى عقيدتنا ، ولا إلى قول الله- سبحانه- ! إنما نحاكمهم إلى " علمهم " الذي يتخذونه إلهًا.. فلا نجد إلا أن المكابرة وحدها - من غير أي دليل من هذا العلم - هي التي تقودهم إلى هذا الإنكار " غير العلمي " ! ألمجرد أن هذه العوالم غيب ؟ لقد نرى حين نناقش هذه القضية أن الغيب الذي ينكرونه هو الحقيقة الوحيدة التي يجزم هذا " العلم " اليوم بوجودها، حتى في عالم الشهادة الذي تلمسه الأيدي وتراه العيون " [٢]

٣- مدرسة الامام محمد عبده وتأويلها لعالم الملائكة :

أشار سيد- رحمه الله- إلى" أن من أخطاء مدرسة الإمام محمد عبده - رحمه الله

---

(١) ينظر: موقف سيد قطب من الفلاسفة في الباب الثاني -الفصل الأول- المبحث الثالث - من هذا البحث، ومقومات التصور الإسلامي: ص٥٣.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٤٤-١٠٤٥.وينظر أيضًا : مناقشة سيد لمن ينكرون الغيبية، في ظلال القرآن ٢/ ١١١٣-١١٢١ ومقومات التصور الإسلامي : ص ٥١-٦١ حيث توسع- رحمه الله - في الرد عليهم .

- تأويلهم لعالم الملائكة والجن ، حيث يرون أنه لا يمكن أن يكون لهم وجود مجسم على هذا النحو، وأن تكون لهم حركات حسية وتأثيرات واقعية، ومن ثم يرون أن الملائكة تمثيل لقوة الخير والطاعة، والشياطين تمثيل لقوة الشر والمعصية، والرجوم تمثيل للحفظ والصيانة .. الخ "[١].

يقول سيد : " .. ولا نميل إلى المنهج الذي تتخذه مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير من محاولة تأويل كل أمر غيبي من هذا القبيل تأويلًا معينًا ينفي الحركة الحسية عن هذه العوالم ... ثم نقل سيد - رحمه الله- كلام رشيد رضا، في أن مشاركة الملائكة في بدر كانت بإلهامهم للمؤمنين من خلال ملابستهم لأرواحهم الطيبة ما يثبتون به قلوبهم ويزيدهم ثقة بوعد الله بنصرهم . .

وقال : وهذا الميل الظاهر إلى تفسير أفعال الملائكة بأنها مجرد ملابسة لأرواح المؤمنين، وقد جزم في موضع آخر بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر على الرغم من قول الله تعالى : ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾... كل هذا مبالغة في تأويل هذه النصوص المتعلقة بأمور غيبية لا ضرورة لهذا التأويل ، لأنه ليس هناك ما يمنع من الدلالة الصريحة للألفاظ فيها، وكل ما ينبغي هو الوقوف وراء النصوص بلا تفصيلات لا تدل عليها دلالة صريحة ، وهو المنهج الذي اتخذناه فعلًا "[٢].

ثم أوضح سيد - رحمه الله - أن سبب هذا الخطأ عند أصحاب هذه المدرسة هو تأثرها بالنزعة العقلية بسبب الجمود الفكري الذي عاصرته والنزعة الخرافية ، ومحاولة الدفاع عن الإسلام ضد تهجمات المستشرقين ، ولكن ذلك وغيره أدى بها إلى الجموح بالعقل وتأويل كثير من الغيبيات .[٣]

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٠ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٣١ - ١٥٣٢ ، ١٥٣٤ بتصرف يسير ، وينظر أيضًا : موقف سيد قطب من مدرسة الإمام محمد عبده ، في الباب الثاني من هذا البحث .

(٣) خصائص التصور الإسلامي : ص ١٨- ١٩ .

المطلب الرابع

التفضيل بين الملائكة وصالحي البشر



تعددت الأقوال حول تفضيل الملائكة على الأنبياء وصالحي البشر أو العكس :

١- فمنهم من يقول : " إن الملائكة أفضل من جميع البشر "[١].

٢- ومنهم من يقول : " إن الأنبياء وصالحي البشر أفضل "[٢].

٣- ومنهم من يقول : " بالتوقف "[٣].

٤- ومنهم من يقول: " بالتفصيل ، فشيخ الإسلام ابن تيمية : يرى أن الأنبياء والصالحين أفضل من الملائكة باعتبار كمال النهاية ، وذلك إنما يكون إذا دخلوا دار القرار، ونالوا الزلفى، وسكنوا الدرجات العلى، فلا يظهر فضلهم في ابتداء أحوالهم، وإنما يظهر فضلهم عند كمال أحوالهم ، بخلاف الملك الذي تشابه أول أمره وآخره"[٤]. ويرى آخرون : أن الأنبياء والرسل من البشر أفضل من رسل الملائكة ،ورسل الملائكة أفضل من صالحي البشر، وصالحوا البشر أفضل من عوام الملائكة.[٥]

ومن خلال استقراء كلام سيد قطب- رحمه الله- حول الموضوع نجد أنه يميل إلى تفضيل صالحي البشر على الملائكة ، ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ﴾[٦] يقول: " إنه التكريم في أعلى صوره لهذا المخلوق الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء ، ولكنه وهب من الأسرار ما يرفعه على الملائكة،

(١) وممن قال به: الزمخشري وجماعة ، وقد رد عليهم الحافظ ابن حجر في الفتح : ١٣/ ٣٨٦ - ٣٨٨ .

(٢) وهو قول بعض أهل السُّنَّة ، أما الشيعة فيرون أن الأئمة أفضل من جميع الملائكة ،ينظر: شرح العقيدة الطحاوية ص٤١٠، وفتح الباري : ١٣/ ٣٨٦ .

(٣) وهو مذهب أبي حنيفة ورجحه شارح الطحاوية ، انظر : شرح العقيدة الطحاوية : ص٤١١ ، وتفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٧/ ٤٢٨ - ٤٢٩ ، ٥٨٩ ، وفتح القدير للشوكاني ٢/ ١١٨ .

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية : ١٠/ ٣٠٠ ، ١١/ ٩٥، ٤/ ٣٥٠ - ٣٩٢ ، و لوامع الأنوار للسفاريني ٢/ ٣٩٩ .

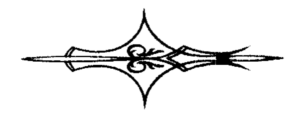
(٥) ذكره القرطبي وأشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى ١/ ٢٩٨ ،والرازي ٢/ ٣٤ .

(٦) سورة البقرة : الآية ٣٤ .

ومنها سر المعرفة ، و سر الإرادة المستقلة التي تختار الطريق ، فازدواج طبيعته ، وقدرته على تحكيم إرادته في شق طريقه ، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة ، بعض أسرار تكريمه " (١) .

" فالإنسان يملك أن يرتفع على مقام الملائكة بحفظ عهده مع ربه، عن طريق تحكيم إرادته ، وعدم الخضوع لشهواته ، والاستعلاء على الغواية التي توجه إليه ، وهذا مظهر من مظاهر التكريم ولا شك " (٢).

ويقول أيضًا : " إن الإنسان بازدواج طبيعته واستعداداته ، يتحرك في مجال بعيد الآماد مع نفسه ذاتها، إنه يعرج إلى السماوات العلى ويتجاوز مراتب الملائكة ، حين يخلص عبوديته لله ، ويترقى فيها إلى منتهاها، أو يهبط إلى مستوى البهيمة حين يتخلى عن خصائص إنسانيته، ويتمرغ في الوحل " (٣) .



(١) في ظلال القرآن ١/ ٥٧ .
(٢) المصدر السابق ١/ ٦١ .
(٣) المصدر السابق ٣/ ١٢٧٣، ٥/ ٢٥٨١، ٦/ ٣٩٣٧، ٣٩٥٢، ومقومات التصور الإسلامي ص ٣٦٨، ٣٧٤.

المبحث الثاني

الإيمان بالكتب



الإيمان بالكتب التي أنزلها الله -عز وجل -على أنبيائه ورسله ركن من أركان الإيمان الستة، وقد دلت آيات كثيرة على أن الله -سبحانه وتعالى - أنزل كتبًا على بعض الأنبياء والمرسلين وأنها اليوم على قسمين :

القسم الأول : كتب ذات أصل سماوي، لكنها حرفت وبدلت كالتوراة والإنجيل، أو فقدت كالزبور، وصحف إبراهيم وموسى، والإيمان بهذا القسم من الكتب السماوية يعني : التصديق بأنها كلام الله، وأن ما تضمنته حق، قبل أن يصيبها ما أصابها، وأن الموجود منها اليوم ليس هو الذي أنزله الله " [1].

والقسم الثاني : ما سلم من التحريف والتبديل، وهو القرآن الكريم فقط، وبالتالي فالحديث عن الإيمان بالكتب يشمل جانبين :

الأول : الإيمان المجمل، بأن أصولها نزلت من عند الله على الرسل هداية للناس .

الثاني : المفصل وهو الإيمان بما أنزل علينا منها وهو القرآن الكريم، والعمل به وتحكيمه دون سواه

وقد قرر سيد قطب - رحمه الله - هذين المعنيين في مواضع متفرقة، ويمكن بيان منهجه في باب الإيمان بالكتب فيما يلي :

---

(١) فتح الباري لابن حجر: ١/ ١٧٢، ١/ ١١٧ ، وتفسير المنار ٥/ ٤٥٩ .

المطلب الأول

الإيمان العام بالكتب إجمالا



يقرر - سيد قطب - رحمه الله - في هذا الباب ما يأتي:

أولا: أن الإيمان بجنس الكتب السماوية من مقتضيات الإيمان بالله تعالى، وعنصر من عناصر الإيمان الشامل ، قال سبحانه: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[٢].

وقد وقف سيد -رحمه الله- في ظلال هذه الآيات مقررًا حقيقة ترابط أركان الإيمان بما فيها الإيمان بالكتب فقال : " والإيمان بكتب الله ورسله بدون تفرقة بين أحد من رسله هو المقتضى الطبيعي الذي ينبثق من الإيمان بالله في الصورة التي يرسمها الإسلام ، فالإيمان بالله يقتضي الاعتقاد بصحة كل ما جاء من عند الله ، وصدق كل الرسل الذين يبعثهم الله ، ووحدة الأصل الذي تقوم عليه رسالتهم وتتضمنه الكتب التي نزلت عليهم "[٣].

" فالإيمان بالكتاب والنبيين هو الإيمان بالرسالات جميعًا ، وبالرسل أجمعين، وهو الإيمان بوحدة البشرية ، ووحدة إلهها ، ووحدة دينها، ووحدة منهجها الإلهي "[٤]، " وإنزال الكتب على الرسل من سنن الله "[٥]، والله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٥.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٧.
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٣٤٢.
(٤) المصدر السابق ١/ ١٥٩.
(٥) المصدر السابق ٢/ ١١٤٧ بتصرف يسير.

ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[1].

" حيث بيَّـن عناصر الإيمان الذي يجب أن يؤمن بها الذين آمنوا ، فهو إيمان بالله ورسوله، وهو إيمان بالكتاب الذي نزل على رسوله .. وهو إيمان بالكتاب الذي أنزل من قبل، بما أن مصدر الكتب كلها واحد هو الله، وأساسها واحد هو إسلام الوجه لله، وإفراده بالإلوهية - بكل خصائصها - وطاعة منهجه في الحياة، وهذه الوحدة هي المقتضى الطبيعي البديهي لكون هذه الكتب - قبل تحريفها - صادرة عن الله .. " فالإيمان بالكتاب كله - بوصف أنها كلها كتاب واحد في الحقيقة - هو السمة التي تنفرد بها هذه الأمة المسلمة عن غيرها "[2].

ثانيًا : أن الإيمان بالكتب يعني الإيمان بجهة صدورها، فالله وحده هو مصدرها، وهو من يملك حق تنزيل الشرائع، وفرض القوانين "[3]. " وبالتالي الإيمان بأن الكتب السماوية التي نزلت من الله- قبل تحريف ما حرف منها- متفقة في أصول العقيدة، أما الشرائع فقد جعل الله لكل أمة شرعةً ومنهاجًا "[4] خلافًا لما يقوله أصحاب مقارنة الأديان من الغربيين ومن تأثر بهم ممن تأثر بالثقافة الغربية التي تزعم أن أصول العقيدة - بما فيها العقائد السماوية- قد تطورت وترقت، بتطور الأقوام وترقيتها "[5].

ثالثًا : الإيمان بأن الله -تعالى-أنزل على بعض أنبيائه ورسله كتبًا ذكر الله بعضها في القرآن الكريم، يقول - سيد - : " فهؤلاء الرسل أنزل الله على بعضهم الكتاب كالتوراة مع موسى، والزبور مع داوود، والإنجيل مع عيسى .... والقرآن الكريم المنزل على - محمد ﷺ - "[6].

---

(١) سورة النساء :الآية ١٣٦.
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٧٧٧-٧٧٨ بتصرف .
(٣) المصدر السابق ٢/ ٩٠٢، ٥/ ٣١٥٠.
(٤) المصدر السابق ٢/ ١١٤٧، ٦/ ٣٤٩٤.
(٥) المصدر السابق ٢/ ١١٤٧-١١٤٨ بتصرف يسير .
(٦) المصدر السابق ٢/ ١١٤٧-١١٤٨ بتصرف يسير.

رابعًا : إن هذه الكتب نزلت على الرسل على قسمين :

أ- خاصة بالأقوام الذين نزلت عليهم ، كما هو الحال في التوراة التي أنزلت على بني إسرائيل، والإنجيل الذي جاء بعدها لبني إسرائيل أيضًا، وتبقى بعد موت الرسل في قومهم إلى حين، ككتب موسى وداود وعيسى – عليهم السلام – .

ب- عامة لقوم النبي الذي أنزلت عليه وتبقى إلى آخر الزمان كهذا القرآن "(١).

خامسًا : أن الأصل في الكتب التي أنزلها الله على رسله، أنها كتب هداية وإرشاد للأمم – قبل تحريفها – قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾(٢)، " فالله أنزل التوراة لتكون هدى ونورًا للضمائر والقلوب بما فيها من عقيدة وعبادات وشريعة تحكم الحياة الواقعية وفق منهج الله، يحكم بها النبيون، للذين هادوا، فهي شريعتهم الخاصة نزلت في حدودهم هذه وبصفتهم هذه " (٣).

وقوله تعالى أيضًا ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾(٤)" فقد آتى الله عيسى بن مريم الإنجيل، ليكون منهج حياة وشريعة حكم، ولم يتضمن الإنجيل في ذاته تشريعًا، إلا تعديلات طفيفة في شريعة التوراة وقد جاء مصدقا لها ، وجعل الله فيه هدى ونورًا، وموعظة للمتقين، وجعله خاصًا بأهل الإنجيل، فليس رسالة عامة للبشر، شأنه شأن التوراة وشأن كل كتاب وكل رسالة وكل رسول قبل هذا الدين الأخير"(٥).

سادسًا : الإيمان بما أخبر الله به في القرآن الكريم من أن الكتب السماوية قد حرفت وبدلت وغيرت بعد أنبيائها، ماعدا القرآن الكريم فهو محفوظ بحفظ الله –تعالى –

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١١٤٤، ١١٤٦.
(٢) سورة المائدة : الآية ٤٤.
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٨٩٦.
(٤) سورة المائدة :الآية ٤٦.
(٥) في ظلال القرآن ٢/ ٩٠٠ بتصرف يسير.

بحيث أصبح هذا الأمر معلوما من الدين بالضرورة، فقد أخبر الله -تعالى- في أكثر من آية أن أهل الكتاب حرفوا وغيروا وبدلوا كتبهم، وانحرفوا عنها إلى أهوائهم وشهواتهم، وما يمليه عليهم أحبارهم ورهبانهم، وندّد القرآن الكريم بفعلهم هذا والذي اتخذ عدة صور منها :

١ - **كتمان ما أنزل الله من الكتاب** قال سبحانه وتعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴾ (١) وآيات كثيرة جدا تندّد بكتمان أهل الكتاب للحق الذي جاءت به كتبهم (٢).

" والتنديد بكتمان ما أنزل الله من الكتاب كان المقصود به أولًا أهل الكتاب، ولكن مدلول النص عام ينطبق على أهل كل ملة يكتمون الحق الذي يعلمونه، ويشترون به ثمنًا قليلًا "(٣).

" ومظهر آخر من مظاهر الكتمان وهو نبذ كتاب الله وراء ظهورهم، وكتمان ما تضمنته من البشرى بهذا النبي " (٤)، " حيث جعلوا الكتاب قراطيس أي في صحائف يتلاعبون بها، فيبدون للناس ما يتفق مع خطتهم في التضليل والخداع، والتلاعب بالأحكام والفرائض، ويخفون مالا يتفق مع خططهم من صحائف التوراة " (٥) .

٢ - عدم الالتزام بما جاء به كتابهم والانحراف عنه إلى غيره مما يضعه لهم البشر :

" لقد كان أهل الكتاب أولى الناس بإتباع الكتاب، وتحكيمه في حياتهم، وعدم

(١) سورة البقرة : الآية ١٧٤ .
(٢) ينظر البقرة : الآيات ١٤٢ – ١٤٦ ، ١٥٩ ، آل عمران ٧١ ، ١٨٧ ، النساء ٣٧ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ١٥٧.
(٤) المصدر السابق ١/ ٩٤.
(٥) المصدر السابق ٢/ ١١٤٦.

اتباع الطاغوت - وهو كل شرع لم يأذن به الله - ولكنهم .. اتبعوا الباطل وما شرعه لهم الكهان والأحبار ولم يلتزموا بما أوتوه من كتاب "[١].

٣- تأويل نصوص الكتاب بما يوافق أهوائهم : وهذه هي الصورة الثالثة من صور تحريف أهل الكتاب لكتابهم ، ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٢].

يقول سيد - رحمه الله-: " والآية تعرض نموذجا للمضلين، الذين يتخذون من كتاب الله مادة للتضليل، يلوون ألسنتهم به عن مواضعه ، ويؤولون نصوصه لتوافق أهواء معينة ، ويشترون بهذا كله ثمنًا قليلًا ومن بين ما يلوون ألسنتهم به ويحرفونه ويؤولونه ما يختص بمعتقداتهم التي ابتدعوها عن المسيح عيسى بن مريم ، مما اقتضته أهواء الكنيسة وأهواء الحكام سواء ... وآفة رجال الدين حين يفسدون أن يصبحوا أداة طيعة لتزييف الحقائق باسم أنهم رجال الدين، وهذه الحال التي يذكرها القرآن الكريم عن هذا الفريق من أهل الكتاب ، نعرفها نحن جيدًا في زماننا هذا، فهم كانوا يؤولون نصوص كتابهم، ويلوونها ليًّا ليصلوا منها إلى مقررات معينة ، يزعمون أنها مدلول هذه النصوص ، وأنها تمثل ما أراده الله منها، بينما هذه المقررات تصادم حقيقة دين الله في أساسها، معتمدين على أن كثرة السامعين لا تستطيع التفرقة بين حقيقة الدين ومدلولات هذه النصوص الحقيقية، وبين تلك المقررات المفتعلة المكذوبة التي يُلجئون إليها النصوص إلجاءً ، وهي آفةٌ تبتلى بها كل أمة يرخص دين الله فيها على من ينتسبون إليه، فهذا النموذج من بني إسرائيل، كانوا يتلمسون الجمل ذات التعبير المجازي - في كتاب الله ويلوون بها ألسنتهم - أي في تأويلها واستخراج مدلولات منها هي لا تدل عليها، ليوهموا الدهماء أن هذه المدلولات المبتدعة هي من كتاب الله، ويقولون هذا ما قاله الله ، وهو -سبحانه- لم يقله "[٣].

(١) المصدر السابق ٢/ ٦٨١ .بتصرف يسير.
(٢) سورة آل عمران : الآية ٧٨.
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٤١٨-٤١٩ بتصرف يسير .

وعمومًا : " فقد أصبحت الديانات العظمى قبل الإسلام فريسة العابثين والمتلاعبين، ولعبة - المحرفين والمنافقين - حتى فقدت روحها وشكلها، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها " [(١)].

" وإذا كان الأمر كما سبق بيانه من أن الكتب السماوية السابقة للقرآن قد حرفت وبدلت ، فلا يجوز بالتالي أن يستمد منها، ولا أن يتلقى عنها شيء من أمور الدين، فما كان حقًا فيها فقد احتوى عليه القرآن الكريم أو نسخه، وما كان باطلًا فلا يجوز أخذه بل ولا الالتفات إليه، لأن التلقي عن هذه الكتب المحرفة يعنى الهزيمة الداخلية ابتداءً ، والتخلي عن دور القيادة المناط للأمة المسلمة، والشك في كفاية كتابها ومنهجها لقيادة الحياة، وهذا بذاته دبيب الكفر " [(٢)].

" ولذا كان رسول الله - ﷺ - يتشدد مع أصحابه - رضوان الله عليهم - في أمر التلقي في شأن العقيدة والمنهج عن أهل الكتاب، ومن ذلك ما جاء عن عمر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ، إني مررت بأخ يهودي من بني قريظة ، فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغير وجه رسول الله - ﷺ -... فقال عمر: رضيت بالله ربًا ، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا ، قال فسري عن النبي- ﷺ- وقال: "والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى- عليه السلام - ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم ،وأنا حظكم من النبيين "[(٣)]، وقال ﷺ : " لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل، وإما أن تكذبوا بحق، وإنه والله لو كان موسى حيًا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني "[(٤)]،هؤلاء هم أهل الكتاب، وهذا هو هدي رسول الله ﷺ في التلقي عنهم"[(٥)].

سابعًا : اعتقاد كفر من لم يؤمن بكتب الله جميعها أو بعضها: ففي ظلال قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى

(١) المصدر السابق ٦/ ٣١٤٩. والعبارة نقلها سيد عن أبي الحسن الندوي ، من كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : ص ٢٢.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٣٨.

(٣) رواه : أحمد ٣/ ٤٧١، قال الأرناؤوط في إسناده ضعف : انظر : المسند بتحقيق الأرناؤوط ٢٥/ ١٩٨.

(٤) رواه : ٣/ ٣٣٨ ، قال الأرناؤوط في إسناده ضعف ٢٢/ ٤٦٨ .

(٥) في ظلال القرآن ١/ ٤٣٩-٤٤٠ بتصرف .

﴿جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾[1]، يقول سيد -رحمه الله -: " كان المشركون في معرض العناد واللجاج يقولون : إن الله لم يرسل رسولاً من البشر، ولم ينزل كتابًا يوحي به إلى بشر، بينما كان إلى جوارهم في الجزيرة أهل الكتاب من اليهود، ولم يكونوا ينكرون عليهم أنهم أهل كتاب، ولا أن الله أنزل التوراة على موسى -عليه السلام- إنما كان قولهم ذلك عنادًا ، ليكذبوا برسالة محمد -ﷺ- وهذا القول الذي كان يقوله مشركوا مكة في جاهليتهم، يقوله أمثالهم في كل زمان، ومنهم :

١- الذين يزعمون أن الأديان من صنع البشر، وأنها تطورت وترقت بتطور البشر وترقيهم، دون تفريق منهم بين الديانات الوثنية التي من صنع البشر، وبين الديانات التي جاء بها الرسل من عند الله ، وهي ثابتة على أصولها الأولى، جاء بها كل رسول،فتقبلتها فئة وعتت عنها فئة، ثم وقع الانحراف عنها والتحريف فيها.

٢- بعض الفلاسفة في القديم والحديث، والذين يقولون : إن خالق هذا الكون الهائل لا يمكن أن يعني بالإنسان " الضئيل " في هذه الذرة الفلكية التي اسمها الأرض ! بحيث يرسل له الرسل ، أو ينزل على الرسل الكتب لهداية هذا المخلوق الصغير في هذا الكوكب الصغير.

٣- الماديون الملاحدة الذين يقولون : إنه ليس هناك من إله ولا من وحي ولا من رسل. . إنما هي أوهام الناس أو خداع بعضهم لبعض باسم الدين"[2].

٤- ومثلهم من كذب بكتاب واحد من كتب الله التي أنزلها على رسله في أي زمان ومكان، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[3]، وهم كذبوا كتابًا واحدًا، ورسولا واحدًا، ولكنهم إنما يكذبون بهذا بكل ما جاء به الرسل، فهي عقيدة واحدة .. ومن ثم فهم كذبوا بكل رسالة وكل رسول"[4].

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٩١.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١١٤٥ بتصرف يسير.

(٣) سورة غافر: الآية ٧٠.

(٤) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٠٩٦.

المطلب الثاني

الإيمان بالقرآن الكريم



الذي يقرأ ما كتبه سيد قطب -رحمه الله- وخاصة في الظلال والمعالم والمقومات، يجد أنه يولي عناية خاصة بالقرآن الكريم، وقد سبق معنا – عند الحديث عن مصادر التلقي – بيان كلامه عن القرآن الكريم وبيانه لأهمية العيش في ظلال هذا الكتاب العظيم، والاستمداد منه، وأهميته في حياة الأمة المسلمة، والحكمة من تنزيله، كما أوضحنا منهجه -رحمه الله – وطريقته في فهم القرآن والانتفاع والحركة به في الحياة الواقعية، واعتباره المصدر الوحيد للعقيدة الإسلامية، باعتبار أن حديث رسول الله – ﷺ – ليس إلا أثرًا من آثار القرآن الكريم .

وعرضنا أيضًا كلامه -رحمه الله – حول أهمية حصر مصدر التلقي في القرآن الكريم، وأثر ذلك في حياة البشرية، والذي يتمثل في صلاحها، ووحدتها فكرًا وسلوكًا، وبعدًا عن الهوى والخرافة .[١]

كما بينا عند الحديث عن الصفات الإلهية وموقف سيد منها : أنه يقرر أن القرآن الكريم كلام الله ووحيه إلى نبيه- ﷺ – وينكر على المعتزلة قولهم بخلق القرآن [٢].

ونضيف هنا ما يتعلق ببيان سيد – رحمه الله – لمكانة القرآن الكريم بين الكتب الإلهية، وما امتاز به عليها، وما اشتمل عليه من الخصائص ، وذلك كما يلي :

أولا : خصائص القرآن الكريم : أشار سيد إلى بعض خصائص القرآن الكريم ومنها :

١ - أنه ناسخ لما قبله ، ومهيمن عليه، ومصدق لما قبله من الحق :

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[٣]، يقول سيد :" إنها الرسالة التي جاءت تعرض

(١) ينظر: المطلب الأول من المبحث الأول – الفصل الثاني- الباب الثاني من هذا البحث .
(٢) ينظر: المرجع السابق .
(٣) سورة المائدة: الآية ٤٨.

"الإسلام" في صورته النهائية الأخيرة، ليكون دين البشرية كلها، ولتكون شريعته هي شريعة الناس جميعًا، ولتهيمن على كل ما كان قبلها وتكون هي المرجع النهائي، ولتقيم منهج الله الحياة البشرية حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فهذا الكتاب هو المرجع الأخير في منهج الحياة، وشرائع الناس ونظام حياتهم ومن ثم فكل اختلاف يجب أن يرد إلى هذا الكتاب ليفصل فيه، سواء كان هذا الاختلاف في التصور الاعتقادي بين أصحاب الديانات السماوية ، أو في الشريعة التي جاء هذا الكتاب بصورتها الأخيرة، أو كان هذا الاختلاف بين المسلمين أنفسهم "[١] .

" فهو يصدّق ما بين يديه من الكتب التي نزلت من عند الله - في صورتها التي لم تحرف لا فيما حرفته المجامع وقالت : إنه من عند الله - هو يصدقها لأنها جاءت بالحق الذي جاء به في أصول العقيدة، أما الشرائع فقد جُعل لكل أمة شرعةٌ ومنهاجً، في حدود العقيدة الكبرى في الله "[٢] .

* أما ما اختلف فيه أهل الكتب السابقة فإن القرآن يقص عليهم أكثر الذي هم فيه يختلفون كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[٣]، **ومما قصه الله عليهم وفصل الخطاب فيه :**

١- اختلافهم في ماهية المسيح - عليه السلام -هل هو إنسان ؟ أم الله ؟ أم ابن الله ؟ أم أحد الأقانيم الثلاثة التي يتركب منها الإله بزعمهم، إلى آخر ما ثار في المجامع النصرانية وبين الفرق، فجاء القرآن الكريم يقول كلمة الفصل بين هؤلاء جميعا : قال عن المسيح إنه : كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، وإنه بشر وليس إله ..

٢- اختلافهم في مسالة صلب المسيح - عليه السلام - فجاء القرآن بالخبر اليقين فقال سبحانه : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٠١-٩٠٢ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ١١٤٧.
(٣) سورة النمل: الآية ٧٦ .

ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[١].

٣- ومن قبل حرف اليهود التوراة، وعدلوا تشريعاتها الإلهية، فجاء القرآن الكريم يثبت الأصل الذي أنزله الله ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[٢].

٤- " وحدثهم القرآن الكريم حديث الصدق عن تاريخهم وأنبيائهم ، مجردًا من الأساطير الكثيرة التي اختلفت فيها رواياتهم ، مطهرًا من الأقذار التي ألصقتها هذه الروايات بالأنبياء ، والتي لم يكد نبي من أنبياء بني إسرائيل يخرج منها نظيفًا... فطهر القرآن صفحات هؤلاء الرسل مما لوثتهم به الأساطير الإسرائيلية التي أضافوها إلى التوراة المنزلة ، كما صحح الأساطير عن عيسى بن مريم -عليه السلام- فهذا القرآن المهيمن على الكتب قبله، الذي يفصل في خلافات القوم فيها ، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه.. هو الحكم الفصل "[٣].

٢- أنه محفوظ من التحريف والتبديل باقٍ إلى قيام الساعة :

فالقرآن الكريم يختلف عن الكتب السابقة، في أنها نزلت على أقوام معينين، وأسندت مهمة حفظها والقيام عليها على الأنبياء والأقوام التي نزلت عليهم، فبقت فتره من الزمن بعد أنبيائها، ثم دخلها التحريف والتبديل - كما سبق بيانه- أما القرآن الكريم، فإنه نزل للبشرية عامة إلى قيام الساعة، وتكفل الله بحفظه من التحريف والتبديل حتى آخر الزمان، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[٤] ، يقول سيد : " فهو باقٍ محفوظٌ لا يندثر ولا يتبدل،

(١) سورة النساء : الآية ١٥٦-١٥٧ .
(٢) سورة المائدة : الآية ٤٥ .
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٦٤-٢٦٦٥ بتصرف يسير.
(٤) سورة الحجر : الآية ٩ .

ولا يلتبس بالباطل ولا يمسه التحريف، وهو يقود البشرية إلى الحق برعاية الله وحفظه، ... وننظر اليوم من وراء القرون إلى وعد الله الحق بحفظ هذا الذكر، فنرى فيه المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب، رغم تقلبات الأحوال والظروف والملابسات والعوامل على هذا الكتاب في خلال القرون السابقة، والتي ما كان يمكن أن تتركه مصونًا محفوظًا لا تتبدل فيه كلمة ، ولا تحرف فيه جملة ، لولا أن هنالك قدرة خارجة عن إرادة البشر، أكبر من الأحوال والظروف والملابسات والعوامل ، تحفظ هذا الكتاب من التغيير والتبديل ، وتصونه من العبث والتحريف.

وقد حاولت الفرق الكثيرة أن تدس في حديث النبي ﷺ وأن تؤول معاني النصوص القرآنية لتوافق أهواءها.. لكنها عجزت جميعًا أن تحدث حدثًا واحدًا في نصوص هذا الكتاب المحفوظ، وبقيت نصوصه كما أنزلها الله ، حجة باقية على كل محرِّفٍ وكل مؤوِّلٍ، وحجة باقية كذلك على ربانية هذا الذكر المحفوظ .

وحتى في زمن الضعف الذين يعيشه المسلمون اليوم ، والذي ضعفوا فيه عن حماية أنفسهم ، وعن حماية عقيدتهم ، و أرضهم ، و أعراضهم وأموالهم وأخلاقهم وعقولهم ، وتسلط عليهم أعداؤهم في كل جوانب الحياة ، إلا أن أعداء هذا الدين مع هذا كله لم يستطيعوا تبديل نصوص هذا الكتاب ولا تحريفها، ولم يكونوا في هذا من الزاهدين ، فلقد كانوا أحرص الناس على بلوغ هذا الهدف لو كان يبلغ ، وعلى نيل هذه الأمنية لو كانت تنال،لكنهم لم يقدروا على إحداث شيء في هذا الكتاب الذي لا حماية له من أهله المنتسبين إليه ، فدل على ربانيته وإعجازه "[1] .

٣- أنه دستور شامل ومنهج كامل للحياة البشرية إلى قيام الساعة :

" أراد الله - تعالى- أن يكون هذا القرآن هو الرائد الحي للبشرية بعد وفاة الرسول ﷺ لقيادة أجيال هذه الأمة ، وتربيتها ، وإعدادها لدور القيادة الراشدة الذي وعدها به ، كلما اهتدت بهديه ... وهذا القرآن ليس مجرد كلام يتلى ، ولكنه دستور شامل ، دستور للتربية ، و للحياة العملية ، تضمن عرض تجارب البشرية من لدن آدم – عليه السلام – وقدمها زادًا للأمة المسلمة في جميع أجيالها "[2].

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٢٧- ٢١٢٩ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٢٦١ بتصرف .

" ولقد جاءت هذه الرسالة للبشرية حينما بلغت سن الرشد العقلي، جاءت كتابًا مفتوحًا للعقول في مقبل الأجيال ، شاملًا لأصول الحياة البشرية التي لا تتبدل ، مستعدًا لتلبية الحاجات المتجددة، التي يعلمها خالق البشر ، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير،لقد وضع هذا الكتاب أصول المنهج الدائم لحياة إنسانية متجددة، وترك للبشرية أن تستنبط الأحكام الجزئية التي تحتاج إليها ارتباطات حياتها النامية المتجددة، واستنباط وسائل تنفيذها كذلك بحسب الظروف، دون اصطدام بأصول المنهج الدائم.. وقيمة هذا المنهج أنه متوازن متناسق، في كل تشريعاته وتكاليفه .."[1] .

٤- أنه معجزة الإسلام الخالدة :

" إن معجزة الإسلام هي القرآن، وهو كتاب يرسم منهجًا كاملًا للحياة، ويخاطب الفكر والقلب، ويلبي الفطرة القويمة، ويبقى مفتوحًا للأجيال المتتابعة تقرؤه وتؤمن به إلى يوم القيامة، أما الخارقة المادية فهي تخاطب جيلًا من الناس، وتقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل" [2].

"ولقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة – ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوي الأعناق وتخضعها وتضطرها للتسليم- ذلك أن هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة للأمم كلها ، وللأجيال كلها، وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان ، فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب"[3]، وسيأتي بيان أوجه الإعجاز في القرآن الكريم عند الحديث عن المعجزات في الفصل القادم – أن شاء الله – .

ثانيًا : بعض صفات القرآن الكريم :

أشار سيد -رحمه الله – إلى بعض صفات القرآن الكريم في مواضع متعددة ، ومنها :

١- أنه كتاب مبارك :قال تعالى:﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾[4].

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٤٠١ بتصرف، وينظر ٤/ ٢٥٠٨ ، ٥/ ٢٥٨٤ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٢٣٧ .
(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٥٨٥ .
(٤) سورة الأنعام : الآية ٩٢ .

يقول سيد - رحمه الله- : " إنها سُنَّة من سنن الله أن يرسل الرسل ، وأن ينزل الله عليهم الكتب ، وهذا الكتاب الجديد الذي ينكرون تنزيله ، هو كتاب مبارك ، وصدق الله ، فإنه والله مبارك.. مبارك بكل معاني البركة :-

* إنه مبارك في أصله ، باركه الله وهو ينزله من عنده .

* ومبارك في محله الذي علم الله أنه له أهل ، قلب محمد ﷺ الطاهر الكريم الكبير.

* ومبارك في حجمه ومحتواه ، فإن هو إلا صفحات قلائل بالنسبة لضخام الكتب التي يكتبها البشر، ولكنه يحوي من المدلولات والإيحاءات والمؤثرات والتوجيهات في كل فقرة منه ما لا تحتويه عشرات من هذه الكتب الضخام ، في أضعاف أضعاف حيزه وحجمه ! وإن الذي مارس فن القول عند نفسه وعند غيره من بني البشر، وعالج قضية التعبير بالألفاظ عن المدلولات ، ليدرك أكثر مما يدرك الذين لا يزاولون فن القول ولا يعالجون قضايا التعبير، أن هذا النسق القرآني مبارك من هذه الناحية ، وأن هنالك استحالة في أن يعبر البشر في مثل هذا الحيز - ولا في أضعاف أضعافه- عن كل ما يحمله التعبير القرآني من مدلولات ومفهومات وموحيات ومؤثرات .

* وإنه لمباركٌ في أثره ، وهو يخاطب الفطرة والكينونة البشرية بجملتها خطابًا مباشرًا عجيبًا لطيف المدخل ، ويواجهها من كل منفذ وكل درب وكل ركن ، فيفعل فيها ما لا يفعله قول قائل، ذلك أن به من الله سلطانًا ، وليس في قول القائلين من سلطان ! .

ولا نملك أن نمضي أكثر من هذا في تصوير بركة هذا الكتاب ، وما نحن ببالغين لو مضينا شيئًا أكثر من شهادة الله له بأنه " مبارك " ففيها فصل الخطاب! " [(١)].

٢- أنه نـور : قال - سبحانه -﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [(٢)]، وقال: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾[(٣)] .

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١١٤٧ وينظر أيضًا : ٢/ ١٢٣٧ .
(٢) سورة النساء : الآية ١٧٤.
(٣) سورة المائدة : الآية ١٥.

يقول سيد - رحمه الله- : ﴿ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ وصفان للشيء الواحد، لهذا الذي جاء به الرسول الكريم ، وليس أدق ولا أصدق ولا أدل على طبيعة هذا الكتاب - القرآن - وعلى طبيعة هذا المنهج - الإسلام - من أنه ﴿ نُورٌ ﴾ ، إنها حقيقة يجدها المؤمن في قلبه وفي كيانه، وفي حياته، وفي رؤيته وتقديره للأشياء والأحداث والأشخاص، يجدها بمجرد أن يجد حقيقة الإيمان في قلبه .

﴿ نُورٌ ﴾ نـور تشرق به كينونته فتشف وتخف وترف، ويشرق به كل شيء أمامه فيتضح ويتكشف ويستقيم .

* ثقلة الطين في كيانه ، وظلمة التراب ، وكثافة اللحم والدم ، وعرامة الشهوة والنزوة، كل أولئك يشرق ويضيء ويتجلى، تخف الثقلة ، وتشرق الظلمة ، وترق الكثافة ، وترف العرامة .

* واللبس والغبش في الرؤية ، والتأرجح والتردد في الخطوة ، والحيرة والشرود في الاتجاه والطريق البهيم الذي لا معالم فيه، كل أولئك يشرق ويضيء ويتجلى، يتضح الهدف ويستقيم الطريق إليه، وتستقيم النفس على الطريق .."[1] .

﴿ نُورٌ ﴾ تتجلى تحت أشعته الكاشفة حقائق الأشياء واضحة، ويبدو مفرق الطريق بين الحق والباطل محددًا مرسومًا، في داخل النفس وفي واقع الحياة سواءً، حيث تجد النفس من هذا النور ما ينير جوانبها أولا، فترى كل شيء فيها ومن حولها واضحًا، حيث يتلاشى الغبش وينكشف، وحيث تبدو الحقيقة بسيطة كالبديهية ، وحيث يعجب الإنسان من نفسه كيف كان لا يرى هذا الحق وهو بهذا الوضوح وبهذه البساطة ؟!

وحين يعيش الإنسان بروحه في الجو القرآني فترة، ويتلقى منه تصوراته وقيمه وموازينه ، يحس يسرًا وبساطةً ووضوحًا في رؤية الأمور، ويشعر أن مقررات كثيرة كانت قلقة في حسه قد راحت تأخذ أماكنها في هدوءٍ، وتلتزم حقائقها في يسر، وتنفي ما علق بها من الزيادات المتطفلة، لتبدو في براءتها الفطرية ، ونصاعتها كما خرجت من يد الله .

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٦٢.

ومهما قلت في هذا التعبير " وأنزلنا إليكم نورًا مبينًا " فإنني لن أصور بألفاظي حقيقته ، لمن لم يذق طعمه ولم يجده في نفسه ! ولا بد من المكابدة في مثل هذه المعاني! ولا بد من التذوق الذاتي ! ولا بد من التجربة المباشرة ! "[١].

٣- أنه هدى : قال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[٢]، " فالهدى حقيقته ، والهدى طبيعته والهدى كيانه ، والهدى ماهيته"[٣].

ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[٤] ، " هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم ، فيشمل الهدى أقوامًا وأجيالًا بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق ، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان .

* يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور ، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض ، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء ، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق.

* ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه ، وبين مشاعره وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله ، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم...

* ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة ، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء، ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال .

* ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض، أفرادًا وأزواجًا ، وحكومات وشعوبًا، ودولًا وأجناسًا ، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٨٢٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢.

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٣٨، وينظر ٥/ ٢٦٢٦.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٩ .

الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى، ولا تميل مع المودة والشنآن، ولا تصرفها المصالح والأغراض ...

* يهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ، ونظام المال ، ونظام الاجتماع ، ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان "[١].

" فهو هدى يقي من الاختلاف والضلال، ويوحد المنهج، ويعين الطريق، ويصل بالسنن الكبرى التي لا تتخلف "[٢].

٤- أنه عليّ حكيم: قال سبحانه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[٤]، وقال سبحانه: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[٥]" .

فالله يُبيِّن القيمة الأصيلة الثابتة لهذا القرآن.. فهو " عليٌّ ".." حكيمٌ ".. وهما صفتان تخلعان عليه ظل الحياة العاقلة ، وإنه لكذلك ! وكأنما فيه روح ، روح ذات سمات وخصائص.. وهو في علوه وفي حكمته يشرف على البشرية ويهديها ويقودها وفق طبيعته وخصائصه ، وينشئ في مداركها وفي حياتها تلك القيم والتصورات والحقائق التي تنطبق عليها هاتان الصفتان : علي ، حكيم[٦] .

* فالقرآن ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يخاطب كل أحدٍ بما يدخل في طوقه ، ويضرب على الوتر الحساس في قلبه ، ويخاطبه بقدر، ويخاطبه بالحكمة التي تصلحه وتوجهه .

* والقرآن ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يربي بحكمة ، وفق منهج عقلي ونفسي مستقيم ، ويقرر للحياة نظامًا كذلك يسمح بكل نشاط بشري في حدود ذلك المنهج الحكيم "[٧].

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢١٥ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٦٦٥، وينظر ٥/ ٢٧٨٣، ٢٨٠٦، ، ٣/ ١٤٢١ .
(٣) سورة الزخرف : الآية ٣-٤ .
(٤) سورة لقمان : الآية ٢ .
(٥) سورة يس : الآية ١- ٢ .
(٦) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٧٦ ، وينظر أيضًا ٥/ ٢٧٨٣ .
(٧) المصدر السابق ٥/ ٣٩٥٨ .

* والقرآن ﴿ حَكِيمٌ ﴾ ينبه الغافلين إلى تدبر آيات الله في صفحة الكون وتضاعيفه ، في السماء والأرض .. وما فيهما .. "[١]

٥- أنه برهان : " فهو برهان على المصدر الذي جاء منه ، وبرهان على إعجازه وبلاغته "[٢].

٦- أنه بلاغ وكفاية : قال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾[٣].

يقول سيد - رحمه الله- : "إن في هذا القرآن وما يكشفه من سنن في الكون والحياة، ومن مصائر الناس في الدنيا والآخرة ، ومن قواعد العمل والجزاء ، إن في هذا لبلاغاً وكفاية للمستعدين لاستقبال هدى الله "[٤].

٧- أنه مجيد وكريم وعظيم : قال سبحانه: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾[٥] وقال سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾[٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾[٧].

* " والمجيد : الرفيع الكريم العريق بذاته، وهل أمجد وأعرق من قول الله العظيم" [٨].

* " والكريم : كريم بصدوره ، وكريم بذاته ، وكريم باتجاهاته، فليس كما يقولون قول كاهن ، ولا قول مجنون ، ولا مفترى على الله ، ولا تنزلت به الشياطين" [٩].

* " والعظيم : القائم على الحق ، المستمد من الحق الأكبر ، والمتصل بالحق الأكبر" [١٠] .

---

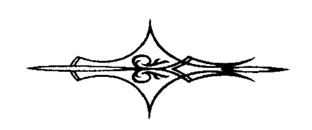
(١) المصدر السابق ٣/ ١٧٥٩ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٢٢ بتصرف يسير .
(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٠٦ .
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٠٠ .
(٥) سورة البروج : الآية ٢١ .
(٦) سورة الواقعة : الآية ٧٧ .
(٧) سورة الحجر : الآية ٨٧ .
(٨) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٧٦، ٣٣٥٧ .
(٩) المصدر السابق ٦/ ٣٤٧١ .
(١٠) المصدر السابق ٤/ ٢١٥٤ .

٨- أنه بشير ونذير : قال – سبحانه – ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾[1]، فهو " يبشر المؤمنين العاملين ، وينذر المسيئين ، ويبين أسباب البشرى ، أسباب الإنذار ، بأسلوبه العربي المبين " [2].

٩- أنه ميسر ومبين : قال- سبحانه وتعالى -: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [3].

" فالقرآن سهل التناول ، ميسر الإدراك ، فيه جاذبية لِيُقْرَأ ويُتَدبْر ، فيه جاذبية الصدق والبساطة ، وموافقة الفطرة ، واستجاشة الطبع ، لا تنفد عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ، وكلما تدبره القلب عاد منه بزاد جديد ، وكلما صحبته النفس زادت له ألفةً وبه أنسًا" [4].

وأما وصف المبين فقد جاء في كثير من الآيات القرآنية [5] ، ولا أدق من وصف الله لكتابه في كتابه .



(١) سورة فصلت : الآية ٣- ٤ .
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٠٨ .
(٣) سورة القمر : الآيات ١٧، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ .
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٢٤٣١ .
(٥) ينظر الآيات : سورة المائدة : الآية ١٥ ، سورة يوسف : الآية ١ ، سورة الحجر : الآية ١ ، سورة الشعراء: الآية ٢ ، سورة النمل : الآية١ سورة القصص : الآية ٢ ، سورة يس : الآية ٦٩ ، سورة الزخرف : الآية ٢ ، سورة الدخان : الآية ٢ .

المبحث الثالث

الإيمان بوجود الجن والشياطين

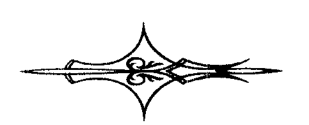


ومناسبة إدخال مبحث الإيمان بوجود الجن والشياطين، في مباحث الإيمان بالنبوات هي :

أن الجن والشياطين ممن جاء ذكرهم في الوحي المنزل من الله تعالى، وممن أخبر النبي ﷺ عن وجودهم وعن بعض أوصافهم، فكان الإيمان بذلك من جملة الإيمان بالنبوات .

" ولم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، ولا في أن الله أرسل محمدًا - ﷺ - إليهم وجمهور طوائف الكفار أيضًا من المشركين وأهل الكتاب مقرون بهم كإقرار المسلمين، ومع ذلك فقد وجد في الكفار وفي المسلمين من ينكر وجود الجن والشياطين، أو يجعل المراد بهم على خلاف ما دل عليه الوحي الإلهي، ومعلوم أن وجودهم مما تواترت به أخبار الأنبياء تواترًا معلوما بالاضطرار، وأنهم أحياء عقلاء، فاعلون بالإرادة، مأمورون منهيون، ليسوا صفات وأعراضًا قائمة بالإنسان أو غيره كما يزعم بعض الملاحدة " . (١)

وقد تكلم سيد قطب -رحمه الله- عن وجود الجن وبعض المسائل المتعلقة بهم، وردَّ على من ينكر وجودهم، وبيان ذلك في المطالب الآتية :



---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيميه ١٩/ ١٠ بتصرف يسير.

المطلب الأول

تعريف الجن والشياطين

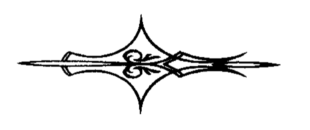


أ- تعريف الجن : يعرف سيد قطب - رحمه الله - الجن فيقول:- " الجن كل ما خفي، وقد قررت النصوص القرآنية أن هناك خلقًا يسمون الجن خافيين علينا " (١).

ويقول : " والجن كل مستور لا يراه البشر، وهناك خلق سماهم الله الجن، لا نعرف من أمرهم شيئًا إلا ما ذكره الله عنهم .." (٢)، "..والجنة الخافية .." (٣).

ب- تعريف الشياطين : يقول سيد قطب في تعريف الشيطان: ".. والشيطنة هي : التمرد والغواية والتمحض للشر، وهي صفه تلحق الإنس كما تلحق الجن، وكما أن الذي يتمرد من الجن ويتمحض للشر والغواية يسمى شيطانًا، فكذلك الذي يتمرد من الإنس ويتمحض للشر والغواية، وقد يوصف بهذه الصفة الحيوان أيضًا ، إذا شرس وتمرد واستشرى أذاه ! .

وقد ورد في الحديث : " الكلب الأسود شيطان " (٤) ... فالذي يتشيطن من الجن ويتمحض للشر والغواية - كإبليس وذريته - يسمى شيطانًا ، وكذلك الحال في الإنس " (٥).



---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩١.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٨٩٨.
(٣) المصدر السابق ٦/ ٤٠١١ .
(٤) رواه: مسلم في كتاب الصلاة باب قدر ما يستر المصلي ١/ ٣٠٥ برقم ٥١٠ .
(٥) في ظلال القرآن ٣/ ١١٨٩ بتصرف يسير، وينظر ٦/ ٣٧٢٢ .

المطلب الثاني

إثبات وجود الجن والرد على من ينكر ذلك



أ- إثبات وجود الجن والشياطين : يقرر سيد - رحمه الله - في مواضع كثيرة حقيقية وجود الجن كعالم من عوالم الغيب، استنادًا إلى النصوص الكثيرة من الكتاب والسُّنَّة والتي تقرر وجود عوالم أخرى من الأحياء - غير دواب الأرض التي تشمل الإنسان - وهي عوالم أخبرنا الله بوجودها، وليس لنا من مصدر آخر للعلم بها إلا ما أخبر الله عنها، ومنها عالم الجن والشياطين ، ... وإخبار الله عن وجود الجن والشياطين يجعل الاعتقاد بوجود هذا الخلق على النحو الذي وصفه الله به ضرورة اعتقاديه، وإنكار وجودهم هو إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة، وتكذيب للقرآن، معناه الكفر طبعا، والجن والشياطين وإبليس، من عالم الغيب الذي أخبرنا الله به، فالتصديق بها ينشأ ابتداء من هذا الإخبار.. كما قرر أيضًا في مواضع أخرى: "أن النصوص القرآنية تقرر أن هناك خلقًا يسمون الجن، خافيين علينا، ومنهم الشياطين، لا نعرف عنهم إلا ما قصه الله علينا من أمرهم في القرآن، وما أخبرنا من صفاتهم، ونقف عند ذلك ولا نزيد "(١).

ب- الرد على من ينكر وجود الجن والشياطين : أما موقف سيد- رحمه الله - من المنكرين لوجود الجن أو الذين يتصورونهم على غير حقيقتهم، فقد بين- رحمه الله - في مواضع مختلفة أن الإيمان بوجود الجن من الإيمان بالغيب الذي أمر الله تعالى بالإيمان به، وأن وجود الجن من الحقائق المقررة شرعًا وعقلًا، وبالتالي فإنكار الجِن مخالف للشرع، بل لما عليه أهل الملل الذين أجمعوا على وجودهم - إلا من شذَّ - وهو مخالف أيضًا للعقل الذي يقضي بأن إنكار الشيء لمجرد عدم رؤيته أو الإحساس به غير سديد، كما استعرض منهج القرآن في تصحيح التصور عنهم، وفيما يأتي بعض النصوص من كلام -سيد - في الرد على من ينكرون وجود الجن

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن ١/ ٥٩، ٣/ ١١٨٩، ٤/ ٢٣٩١، ٥/ ٢٦٣٥، ٢٨٩٨، ٦/ ٣٢٧٠، ٣٦٣٤، ٣٧٢١ .

والشياطين أو يؤولون حقيقتهم أو يتصورونها على غير ما أخبر بها القرآن ومنها :

١- يقول في تقديمه لسورة الجن " ثم إنها- أي السورة- تصحيح لأوهام كثيرة عن عالم الجن في نفوس الناس، ووضع حقيقة هذا الخلق المغيب في موضعها بلا غلو ولا اعتساف، فقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة يعتقدون أن للجن سلطانًا في الأرض ، فكان الواحد منهم إذا أمسى بواد أو قفر ، لجأ إلى الاستعاذة بعظيم الجن الحاكم لما نزل فيه من الأرض ، فقال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، ثم بات آمنًا! كذلك كانوا يعتقدون أن الجن تعلم الغيب وتخبر به الكهان فيتنبأون بها يتنبأون، وفيهم من عَبَد الجن، وجعل بينهم وبين الله نسبًا ، وزعم له -سبحانه وتعالى - زوجة منهم تلد له الملائكة ! .

والاعتقاد في الجن على هذا النحو أو شبهه كان فاشيًا في كل الجاهليات ، ولا تزال الأوهام والأساطير من هذا النوع تسود بيئات كثيرة إلى يومنا هذا !!!.

وبينما كانت الأوهام والأساطير تغمر قلوب الناس ومشاعرهم وتصوراتهم عن الجن في القديم ، وما تزال . . نجد في الصف الآخر اليوم منكرين لوجود الجن أصلًا ، يصفون أي حديث عن هذا الخلق المغيب بأنه حديث خرافة .

وبين الإغراق في الوهم ، والإغراق في الإنكار ، يقرر الإسلام حقيقة الجن ، ويصحح التصورات العامة عنهم ، ويحرر القلوب من خوفها وخضوعها لسلطانهم الموهوم .

* فالجن لهم حقيقة موجودة فعلًا، ولهم صفات جاء بعضها في سورة الجن بالإضافة إلى ما جاء عنهم في سورة الرحمن، ومواضع أخرى، بحيث تعطي صورة عن ذلك الخلق المغيب، تثبت وجوده، وتحدد الكثير من خصائصه، وفي الوقت ذاته تكشف الأوهام والأساطير العالقة بالأذهان عن ذلك الخلق، وتدع تصور المسلم عنه واضحًا دقيقًا متحررًا من الوهم ومن الخرافة، ومن التعسف في الإنكار الجامح كذلك !...

* أما الذين ينكرون وجود هذا الخلق إطلاقًا، فلا أدري علام يبنون هذا الإنكار، بصيغة الجزم والقطع، والسخرية من الاعتقاد بوجوده، وتسميته خرافة!.

* ألأنهم عرفوا كل ما في هذا الكون من خلائق فلم يجدوا الجن من بينها ؟! .

إن أحدًا من العلماء لا يزعم هذا حتى اليوم، وإن في هذه الأرض وحدها من الخلائق الحية لكثيرًا مما يكشف وجوده يومًا بعد يوم، ولم يقل أحد إن سلسلة الكشوف للأحياء في الأرض وقفت أو ستقف في يوم من الأيام ! .

* ألأنهم عرفوا كل القوى المكنونة في هذا الكون فلم يجدوا الجن من بينها ؟! .

إن أحدًا لا يدعي هذه الدعوى، فهناك قوى مكنونة تكشف كل يوم، وهي كانت مجهولة بالأمس، والعلماء جادون في التعرف إلى القوى الكونية، وهم يعلنون في تواضع قادتهم إليه كشوفهم العلمية ذاتها، أنهم يقفون على حافة المجهول في هذا الكون، وأنهم لم يكادوا يبدأون بعد !.

* ألأنهم رأوا كل القوى التي استخدموها، فلم يروا الجن من بينها ؟! .

ولا هذه فإنهم يتحدثون عن الكهرب بوصفه حقيقة علمية منذ توصلوا إلى تحطيم الذرة، ولكن أحدًا منهم لم ير الكهرب قط، وليس في معاملهم من الأجهزة ما يفرزون به كهربًا من هذه الكهارب التي يتحدثون عنها !.

ففيم إذن هذا الجزم بنفي وجود الجن ؟ ومعلومات البشر عن هذا الكون وقواه وسكانه من الضآلة بحيث لا تسمح لإنسان يحترم عقله أن يجزم بشيء ؟ .

* ألأن هذا الخلق المسمى الجن تعلقت به خرافات شتى وأساطير كثيرة ؟ .

إن طريقنا في هذه الحالة هو إبطال هذه الخرافات والأساطير كما صنع القرآن الكريم، لا التبجح بنفي وجود هذا الخلق من الأساس، بلا حجة ولا دليل ! .

ومثل هذا الغيب ينبغي تلقي نبأه من المصدر الوحيد الموثوق بصحته، وعدم معارضة هذا المصدر بتصورات سابقة لم تستمد منه، فما يقوله هو كلمة الفصل في

مثل هذا الموضوع "[١].

٢- في تعليقه في سورة الأحقاف على حادثة صرف نفر من الجن ليستمعوا القرآن من النبي - ﷺ - ، يقرر - رحمه الله- أن ذكر القرآن لهذا الحادث، وحكاية ما قالوا وما فعلوا ، هذا وحده كافٍ بذاته لتقرير وجود الجن ووقوع الحادث ...

كما حاول أيضًا إيضاح حقيقة وجود الجن في التصور الإنساني، وبيَّن أن الكون حافل بالأسرار والقوى والخلائق المجهولة لنا كنهًا وصفةً وأثرًا..ونحن نعيش معها ونعرف عنها القليل، ونجهل الكثير، وفي كل يوم نتعرف وندرك بعضها بذواتها، أو بصفاتها، أو آثارها في الوجود.

وما عرفناه اليوم يعد بالقياس إلى معارف البشرية قبل خمسه قرون فقط عجائب أضخم من عجيبة الجن.. ولو قال قائل للناس قبل خمسة قرون عن شيء من أسرار الذرة التي نتحدث عنها اليوم لظنوه مجنونًا، أو لظنوه يتحدث عما هو أشد غرابةً من الجن قطعًا.. وسنعرف كثيرًا مما قد تعتبر أسرار الذرة بالقياس إليه لعبة أطفال!ولكننا سنظل في حدود الدائرة المرسومة للبشر بقوله سبحانه وتعالى:﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٢] ...فليس لنا - والحالة هذه - أن نجزم بوجود شيء أو نفيه، وبتصوره أو عدم تصوره، من عالم الغيب المجهول ، ومن أسرار هذا الوجود وقواه، لمجرد أنه خارج عن مألوفنا العقلي أو تجاربنا المشهودة، ونحن لم ندرك بعد كل أسرار أجسامنا وأجهزتها وطاقاتها ، فضلًا على إدراك أسرار عقولنا وأرواحنا!.

فإذا كشف الله لنا عن القدر المقسوم لنا من هذه الأسرار والقوى ، عن طريق كلامه - لا عن طريق تجاربنا ومعارفنا الصادرة من طاقتنا الموهوبة لنا من لدنه أيضًا - فسبيلنا في هذه الحالة أن نتلقى هذه الهبة بالقبول والشكر والتسليم ، نتلقاها كما هي فلا نزيد عليها ولا ننقص منها، لأن المصدر الوحيد الذي نتلقى عنه مثل هذه المعرفة لم يمنحنا إلا هذا القدر بلا زيادة ، وليس هنالك مصدر آخر نتلقى عنه

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٢١ - ٣٧٢٣ بتصرف يسير ، وينظر أيضًا ٢/ ٧٦١ ، ٦/ ٣٧٢٨ .
(٢) سورة الإسراء : الآية ٨٥ .

مثل هذه الأسرار!"[١].

٣- ويقول أيضًا: " والجن كله غيب من غيب الله ، لا نعرف عنه إلا ما يخبرنا به مَنْ عنده مفاتح الغيب ،.. ومن ناحية مبدأ وجود خلائق أخرى في هذا الكون غير الإنسان وغير الأنواع والأجناس المعروفة في الأرض من الأحياء نقول: من ناحية المبدأ نحن نؤمن بقول الله عنها ، ونصدق بخبره في الحدود التي قررها .

- فأما أولئك الذين يتترسون " بالعلم " لينكروا ما يقرره الله في هذا الشأن ، فلا ندري علام يرتكنون ؟.

إن علمهم البشري لا يزعم أنه أحاط بكل أجناس الأحياء ، في هذا الكوكب الأرضي ! كما أن علمهم هذا لا " يعلم " ماذا في الأجرام الأخرى ! وكل ما يمكن أن " يفترضه " أن نوع الحياة الموجود في الأرض يمكن أولا يمكن أن يوجد في بعض الكواكب والنجوم.. وهذا لا يمكن أن ينفي - حتى لو تأكدت الفروض - أن أنواعًا أخرى من الحياة وأجناسًا أخرى من الأحياء يمكن أن تعمر جوانب أخرى في الكون لا يعلم هذا " العلم " عنها شيئًا ! فمن التحكم والتبجح أن ينفي أحد باسم " العلم " وجود هذه العوالم الحية الأخرى .."[٢].

- أما الذين يؤولون العوالم الغيبية تأويلًا ينفي عنها الحركة الحسيه فيقول سيد- رحمه الله - في تعليقه على قصة تزيين الشيطان للمشركين يوم بدر: " ولا نعلم الكيفية التي زين لهم بها أعمالهم، .. ذلك أن أمر الشيطان كله غيب، ولا سبيل لنا إلى الجزم بشيء في أمره إلا في حدود النص المسلم ، والنص هنا لا يذكر الكيفية إنما يثبت الحادث .

فإلى هنا ينتهي اجتهادنا، ولا نميل إلى المنهج الذي تتخذه مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير من محاولة تأويل كل أمر غيبي من هذا القبيل تأويلًا معينًا ينفي الحركة الحسية عن هذه العوالم، وذلك كقول الشيخ رشيد رضا في تفسير الآية " إن جند الشيطان الخبيث كانوا منبثين في المشركين يوسوسون لهم بملابستهم

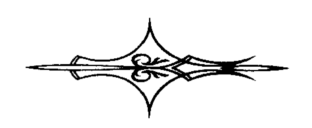
---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٧٠- ٣٢٧١ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ٣/ ١١٨٩ بتصرف يسير ، ومقومات التصور الإسلامي ص ٣٦٥ .

لأرواحهم الخبيثة ما يغريهم ويغرهم، كما كان الملائكة منبثين في المؤمنين يلهمونهم بملابستهم لأرواحهم الطيبة ما يثبتون به قلوبهم ، ويزيدهم ثقة بوعد الله بنصرهم " .[١]

وهذا الميل الظاهر إلى تفسير أفعال الملائكة بأنها مجرد ملابسة لأرواح المؤمنين، وتفسير فعل الشيطان بأنه مجرد ملابسة لأرواح المشركين، هو منهج تلك المدرسة بجملتها "[٢].



(١) تفسير المنار ٩/ ٥٢٩ وما بعدها .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٣١- ١٥٣٢ بتصرف .

المطلب الثالث

أصل الجن وبعض صفاتهم



تحدث سيد - رحمه الله- عن أصل الجن وطبيعتهم وأشار إلى بعض أوصافهم وخصائصهم ، أخذًا من الأدلة والنصوص الواردة في شأنهم ، ويمكن بيان ذلك كما يأتي :

أولًا : أصل الجن والشياطين :

يقول سيد : "الجن خلق من خلق الله الخافين علينا ، أخبرت النصوص الشرعية بأنهم خلقوا من مارجٍ من نار ، أي لهيب متموج من النار "(١).

كما جاء في القرآن الكريم حكاية عن إبليس في الحديث عن آدم عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ (٢) ، وإبليس من الجن لقوله – سبحانه – : ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾(٣) ، فأصله من الجن "(٤)، "والذي يتمرد من الجن يسمى شيطانًا كإبليس وذريته" (٥) .

ويقول : " و أما خلق الجان من مارج من نار، فمسألة خارجة عن حدود العلوم البشرية ، والمصدر الوحيد فيها هو هذا القرآن، خبر الله الصادق، الذي خلق وهو أعلم بمن خلق.. والمارج : المشتعل المتحرك كألسنة النار مع الرياح ! " (٦).

ويقول : " وما دام أن الجن ومنهم الشياطين خلقوا من نار، فإن إبليس إذًا ليس من الملائكة ، وإن جاء ذكره معهم في السياق كما في قوله –سبحانه –: ﴿ وَإِذْ

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١١٨٩ ، ٥/ ٢٦٣٥ .
(٢) سورة الأعراف : الآية ١٢ .
(٣) سورة الكهف : الآية ٥٠ .
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٧١؟
(٥) المصدر السابق ٣/ ١١٨٩ ، ٦/ ٣٧٢٢ .
(٦) المصدر السابق ٦/ ٣٤٥١

قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[١]، لأنه قد جاء في آية أخرى بيان أن إبليس من الجن وهي قوله – سبحانه- :﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴿٥٠﴾ ﴾[٢].

" ويوحي السياق أن إبليس لم يكن من جنس الملائكة ، إنما كان معهم ، فلو كان منهم ما عصى، وصفتهم الأولى أنهم ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ والاستثناء هنا لا يدل على أنه من جنسهم ، فكونه معهم يجيز هذا الاستثناء، كما تقول: جاء بنو فلان إلا أحمد ، وليس منهم إنما هو من عشيرهم ، وإبليس من الجن بنص القرآن ، والله خلق الجان من مارج من نار،وهذا يقطع بأنه ليس من الملائكة "[٣].

ومما سبق يتبين لنا أنه ليس هناك أي علاقة أو صلة نسب أو بنوة أو مصاهرة بين الجن وبين الله – سبحانه وتعالى -كما كان يزعم المشركون ، وذلك باعتراف الجن أنفسهم كما حكى الله عنهم بقولهم:﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾[٤]، وبتنزيه الله – سبحانه وتعالى – لنفسه ، ورده على المشركين بقوله: ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾[٥] ، فالجنة تعلم أنها محضرة يوم القيامة بأذن الله ، وما هكذا تكون معاملة النسب والصهر ،لو كان ما يزعمونه حقًا، -سبحانه وتعالى عما يصفون – "[٦].

ثانيا : بعض أوصاف الجن وخصائصهم :

تعرض سيد ـ رحمه الله ـ لبيان صفات الجن وخصائصهم في مواضع متعددة، ومنها :

١ - أن كيان الجن والشياطين غير مرئي للبشر : في حين أن كيان الإنس مرئي للجن، وبناءً على اختلاف أصل المادة التي خلق منها كيان الجن عن أصل المادة التي خلق

(١) سورة البقرة : الآية ٣٤ .
(٢) سورة الكهف : الآية ٥٠ .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٥٨ ، وينظر أيضًا ٣/ ١٢٦٥ ، ٥/ ٢٦٣٦،٢٠٢٨ .
(٤) سورة الجن : الآية ٣ .
(٥) سورة الصافات : الآية ١٥٨ .
(٦) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٠١ ، ٦/ ٣٧٨٢١ .

منها كيان الإنسان، قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴾ [١]، فالجن والشياطين يرون بني آدم، وبنو آدم لا يرونهم - في هيئتهم الأصلية - وكم من خلائق ترى الإنسان ولا يراها الإنسان.

قال- سبحانه وتعالى -عن إبليس - وهو من الجن - ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾[٢] " [٣].

٢- أنهم مزودون بالقدرة على الحياة في الأرض : وفي باطن الأرض وفي خارج الأرض أيضًا، وأنهم يملكون الحركة في هذه المجالات بأسرع مما يملك البشر.

- أما قدرتهم على الحياة في هذا الكوكب الأرضي - لا ندري أين - لقوله تعالى لآدم وإبليس ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [٤]، والجن الذين سخروا لسليمان - عليه السلام -كانوا يقومون له بأعمال في الأرض تقتضي أن يكونوا مزودين بالقدرة على الحياة فيها.

- وأما قدرتهم كذلك على الحياة خارج هذا الكوكب فلقوله تعالى حكاية عن الجن: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [٥]، [٦].

٣- أن لهم تجمعات تشبه تجمعات البشر في قبائل وأجناس: لقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [٧]، فقد أهبط آدم - عليه السلام - وزوجه إلى الأرض، مع إبليس وقبيلة، هبطوا ليصارع بعضهم بعضا إلى نهاية الحياة" [٨].

٤- أنهم يأكلون ويشربون ويتناسلون : وقد أورد سيد- رحمه الله- الروايات المتعلقة

(١) سورة الرحمن : الآية ١٥.
(٢) سورة الأعراف : الآية ٢٧.
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١١٨٩، ٥/ ٢٦٣٥، ٦/ ٣٢٧١، ٣٧٢٢.
(٤) سورة الأعراف : الآية ٢٤ .
(٥) سورة الجن : الآية ٨-٩ .
(٦) في ظلال القرآن ٣/ ١١٨٩، ٦/ ٣٢٧١ .
(٧) سورة الأعراف : الآية ٢٧ .
(٨) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٧١ .، وينظر ٣/ ١٢٧٠ .

بحادثة اجتماع النبي- ﷺ - بالجن، وفيها قوله ﷺ : " أتاني داعي الجن، فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن " ، قال : فانطلق بنا فأرانا أثارهم وأثار نيرانهم . وسألوه الزاد، فقال " كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم ، قال رسول الله ﷺ : " فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم " [(١)] .

أما تناسلهم فلقوله تعالى: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ﴾[(٢)].

٥- أنهم مكلفون في الدنيا، ومحشورون ومحاسبون ومجزيون بالجنة أو النار يوم القيامة:

- أما كونهم مكلفون فلقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [(٣)].

يقول سيد : " فالآية تقرر أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والإنس، تتمثل في وظيفة من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده، ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده وأصبح بلا وظيفة ، وهذه الوظيفة التي تربط الجن والإنس بناموس الوجود هي العبادة لله، والعبودية له وأن مدلول العبادة أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر، فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر، والله لا يكلفهم هذا، وهو يكلفهم ألوانًا أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم، وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن، ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنس، وهي الخلافة في الأرض، وعمارتها " [(٤)].

وإذا كانوا مكلفين فهم إذًا " قابلون بخلقتهم لتوقيع الجزاء عليهم، وتحقيق نتائج الإيمان والكفر فيهم:

﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾

(١) رواه : مسلم في الصلاة باب بالجهر بالقراءة في الصبح ١/ ٢٧٨ برقم ٤٥٠ ، والترمذي ٥/ ٣٥٧ برقم ٣٢٥٨.

(٢) سورة الكهف : الآية ٥٠ .

(٣) سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٨٦- ٣٣٨٧ .

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (١)، (٢).

"كما تدل النصوص أيضًا على أن عالم الجن يحشر مع عالم الإنس ويحاسب ويجازى بالجنة أو بالنار كالجنس الإنساني" (٣) ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ﴾ (٤) ، وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ (٥)، وقوله تعالى :﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (٦)، "وهذا يدل على أن الجن يعذبون بالنار، ومفهومه أنهم كذلك ينعمون بالجنة، هكذا يوحي النص القرآني ، وهو الذي نستمد منه تصورنا ، فليس لقائل بعد هذا أن يقول شيئًا يستند فيه إلى تصور غير قرآني، عن طبيعة الجن وطبيعة النار أو طبيعة الجنة ، فسيكون ما قاله الله حقًا بلا جدال! " (٧).

٦ - **أنهم لا يعلمون الغيب وأن صلتهم بالسماء قد انقطعت بعد بعثته ﷺ :** " فالغيب موكول لله وحده، لا تعرفه الجن:﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (٨). ولا تعرفه الرسل إلا ما يطلعهم الله عليه منه لحكمه يعلمها " (٩)،

(١) سورة الجن : الآية ١٣- ١٥
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٢١ .
(٣) المصدر السابق ٣/ ١١٨٦ .
(٤) سورة الأنعام : ١٢٨ -١٣٠ .
(٥) سورة مريم : الآية ٦٨ .
(٦) سورة الجن : الآية ١٥ .
(٧) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٤ وينظر أيضًا: ٣/ ١٢٠٦ - ١٢٠٨ ، ٤/ ٢٣١٧ .
(٨) سورة الجن : الآية ١٠ .
(٩) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٢٣ .

ومن النصوص في ذلك قوله تعالى في قصة موت سليمان - عليه السلام - : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [١] ، "فالآية تصور مشهد وفاة سليمان والجن ماضية تعمل بأمره فيما كلفها عمله، وهي لا تعلم نبأ موته ، حتى يدلهم على ذلك أكل الأرضة لعصاه التي كان مرتكزًا عليها وسقوطه.. وحينئذ فقط علمت الجن بموته، فدل هذا على أنهم لا يعلمون الغيب .. فهؤلاء هم الجن الذين يعبدهم بعض الناس، .. هم محجوبون عن الغيب القريب، وبعض الناس يطلب عندهم أسرار الغيب البعيد!" [٢].

- أما انقطاع صلة الشياطين بالسماء بعد بعثة النبي - ﷺ - فقد حكاها الله تعالى في سورة الجن بقوله عنهم: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [٣] " فهي توحي بأنهم قبل هذه الرسالة الأخيرة، ربما في الفترة بينها وبين الرسالة التي قبلها وهي رسالة عيسى - عليه السلام - كانوا يحاولون الاتصال بالملأ الأعلى ، واستراق شيء مما يدور فيه بين الملائكة عن شؤون الخلائق في الأرض ، مما يكلفون قضاءه تنفيذا لمشيئة الله وقدره، ثم يوحون بما التقطوه لأوليائهم من الكهان والعرافين ، ليقوم هؤلاء بفتنة الناس وفق خطة إبليس ! على أيدي هؤلاء الكهان والعرافين الذين يستغلون القليل من الحق فيمزجونه بالكثير من الباطل ، ويروجونه بين جماهير الناس في الفترة بين الرسالتين ، وخلو الأرض من رسول ...

وهذا النفر من الجن يقول : إن استراق السمع لم يعد ممكنًا ، وإنهم حين حاولوه الآن وهو ما يعبرون عنه بلمس السماء وجدوا الطريق إليه محروسًا بحرس شديد، يرجمهم بالشهب ، فتنقض عليهم وتقتل من توجه إليه منهم ، ويعلنون أنهم لا يدرون شيئًا عن الغيب المقدر للبشر: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ

---

(١) سورة سبأ : الآية ١٤ .
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٠٠ ، ٦/ ٣٧٢١ ، ٣٧٢٢ .
(٣) سورة الجن : الآية ٨- ٩ .

بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ ، فهذا الغيب موكول لعلم الله لا يعلمه سواه.. وإذا كان المصدر الذي يزعم الكهان أنهم يستقون منه معلوماتهم عن الغيب ، يقرر أنه هو لا يدري عن ذلك شيئًا ، فقد انقطع كل قول ، وبطل كل زعم ، وانتهى أمر الكهانة والعرافة ، وتمحض الغيب لله ، لا يجترئ أحد على القول بمعرفته ، ولا على التنبؤ به.

أما أين يقف ذلك الحرس ؟ ومن هو ؟ وكيف يرجم الشياطين بالشهب ؟ فهذا كله مما لم يفصله القرآن...ولا مجال للاعتراض أو الجدل حول الشهب ، فلا يمنع كونها تسير وفق نظام كوني ، قبل البعثة وبعدها من أن ترجم الشياطين بها ...

والقول بان هذا كله مجرد تمثيل وتصوير لحفظ الله للذكر من الالتباس بأي باطل، وأنه لا يؤخذ على ظاهره..ومن ثم يرون الشياطين تمثيلًا لقوة الشر والمعصية ، و الرجوم تمثيلًا للحفظ والصيانة...الخ، سببه محاكمة النصوص الشرعية إلى مقررات ذهنية سابقة مأخوذة من مصادر أخرى غير القرآن" [(١)].

والخلاصة: " أن السماء محفوظة من الشياطين، وهم مطرودون عنها، مردودون بالشهب كلما حاولوا استراق السمع، ولا داعي للخوض في قضايا الغيب بأكثر مما جاء في النصوص الشرعية " . [(٢)]

٧- أن طبيعتهم قابلة للإيمان والكفر ومستعدة للهدى والضلال ومنهم المؤمن والكافر :

يقول سيد : " فالجن خلق قابلون للإيمان وللكفر، مستعدون للهدى وللضلال، بدلالة قول النفر منهم في سورة الجن: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾[(٣)]، وبدليل ذهابهم إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الإيمان بعدما وجدوه في نفوسهم، وعلموا أن قومهم لم يجدوه بعد، وكذا حادثة صرف نفر من الجن ليستمعوا القرآن من النبي - ﷺ - وحكاية ما قالوا وما فعلوا -كما في سورة الأحقاف- مما يدل على أنهم قابلون للهداية من الضلال، مستعدون لإدراك القرآن سماعًا وفهمًا وتأثرا "[(٤)]، " وبناءً على قابليتهم للهدى والضلال، صاروا فريقين كالإنس، منهم الصالحون

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٢٩- ٣٧٣٠ بتصرف يسير ، وينظر ٦/ ٣٦٣٤ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢١٣٣ بتصرف يسير .
(٣) سورة الجن : الآية ١٤ .
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٧٠- ٣٢٧١ ، ٣٧٢١ بتصرف يسير .

المؤمنون، ومنهم الشياطين المتمردين "[١].

"وقد قرر القرآن أن للجن طبيعة مزدوجة كطبيعة الإنسان في الاستعداد للهدى والضلال حيث جاء في حديث النفر من الجن - في سورة الجن - عن عقيدتهم في ربهم وقد آمنوا به، وعن ظنهم بعاقبة من يهتدي ومن يضل : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾[٢]" وهذا التقرير من الجن بأن منهم صالحين وغير صالحين، مسلمين وقاسطين، يفيد ازدواج طبيعة الجن، واستعدادهم للخير والشر كالإنسان إلا من تمحض للشر منهم وهو إبليس وقبيله وهو تقرير ذو أهمية بالغة في تصحيح تصورنا العام عن هذا الخلق، فأغلبنا حتى الدارسين الفاقهين على اعتقاد أن الجن يمثلون الشر، وقد خلصت طبيعتهم له، وأن الإنسان وحده بين الخلائق هو ذو الطبيعة المزدوجة، وهذا ناشئ من مقررات سابقة في تصوراتنا عن حقائق هذا الوجود كما أسلفنا، وقد آن أن نراجعها على مقررات القرآن الصحيحة!."[٣].

وقد جاءت نصوص في الكتاب والسُّنَّة تبين أن موقف الجن من النبي ﷺ ومن القرآن الكريم والإيمان هو نفسه موقف الإنس، حيث انقسموا إلى فريقين : مؤمنين وكافرين، كالذي ذكره الله في سورة الجن[٤] وفي سورة الأحقاف[٥] وكذا الروايات الواردة في لقاء النبي ﷺ بالجن واستماعهم له وغير ذلك[٦].

٨- أنهم يستطيعون أن يسمعوا صوت الإنسان، ويفهموا لغته : بدلالة استماع نفر من الجن للقرآن بلفظه العربي المنطوق كما يلفظه رسول الله - ﷺ - وفهمهم له وتأثرهم

---

(١) المصدر السابق : ٣/ ١١٨٩، ٦/ ٣٧٢١.
(٢) سورة الجن : الآية ١١- ١٥.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٢.
(٤) سورة الجن : الآية ١- ١٥.
(٥) سورة الأحقاف : الآية ٢٩ - ٣٢.
(٦) ينظر في ذلك : في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٦٩- ٣٢٧٤، ٣٧٢١ - ٣٧٣٥.

به وذهابهم إلى قومهم منذرين، وقد جاءت روايات كثيرة في استماع الجن لقراءة النبي ﷺ ولقائهم به وحوارهم معه [(١)].

٩- أنهم يملكون التأثير في إدراك البشر: ومأذون لهم في توجيه الضالين منهم -غير عباد الله- وهناك نصوص كثيرة منها قوله تعالى في حكايته حوار إبليس اللعين: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [(٢)] وغيرها من النصوص التي تبين أن الشياطين مسلطون على بني الإنسان يغوونهم ويضلونهم ، وهم قادرون على الوسوسة لهم ، بالإيحاء بطريقة لا نعلمها ، لأننا لا ندري كنه الشيطان حتى ندرك كيفيات أفعاله ، وكذا اتصاله بالإنسان وكيفية إغوائه ، ولكننا نعلم - بالخبر الصادق وهو وحده المصدر المعتمد عندنا عن هذا الغيب - أن إغواءً على البشر يقع في صورة من الصور، وإيحاءً بارتكاب المحظور يتم في هيئة من الهيئات ، وأن هذا الإيحاء وذلك الإغواء يعتمدان على نقط الضعف الفطرية في الإنسان" [(٣)].

ومع ذلك فالشياطين لا سلطان لهم على المؤمنين الذاكرين ، وأن الشيطان مع المؤمن إذا ذكر الله خنس وتوارى ، وإذا غفل برز فوسوس له ، وأن المؤمن أقوى بالذكر من كيد الشيطان الضعيف، فضعف الإنسان يمكن إنقاذه بالإيمان والذكر حتى ما يكون للشيطان سلطان على المؤمن الذاكر، وما يكون لكيده الضعيف حينئذ من تأثير " [(٤)].

١٠- أن منهم من سخره الله لبعض البشر : فقد أخبر الله - سبحانه - عن تسخير طائفة من الجن فقط وليس كلهم لسليمان -عليه السلام- يغوصون له ويبنون له المحاريب والتماثيل والجفان الكبيرة للطعام ، ويعملون عملاً دون ذلك ، وحفظهم فلا يهربون ولا يفسدون ولا يخرجون على طاعة عبده ، ومنهم الذين كانوا يظهرون في موكبه كما قال - سبحانه وتعالى - ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ

---

(١) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٢٧٠- ٣٢٧٣ بتصرف يسير .

(٢) سورة ص : الآية ٨٢ - ٨٣ .

(٣) في ظلال القرآن : ٤/ ١٢٦٨ .

(٤) ينظر: المصدر السابق:٣/ ١١٨٩ ،٤/ ١٢٦٨، ٥/ ٢٦٣٥ ،٦/ ٣٢٧١ ، ومقومات التصور الإسلامي ص٣٦٥.

يُوزَعُونَ ﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ﴾ (٢)، " فهذه الآيات تدل على أن من الجن من سخروا لبعض الإنس بإذن الله " (٣).

١١- أن الله جعل منهم أعداء للرسل يوالون أعداء الرسل من البشر: وكل ذلك بمشيئة الله لحكمة ، قال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ (٤).

يقول سيد - رحمه الله- : " يخلص لنا ابتداءً : أن الذين يقفون بالعداوة لكل نبي، ويقفون بالأذى لأتباع الأنبياء هم " شياطين " من الإنس ومن الجن، وأنهم يؤدون جميعًا وظيفة واحدة ! وأن بعضهم يخدع بعضًا ويضله كذلك ، مع قيامهم جميعًا بوظيفة التمرد والغواية وعداء أولياء الله .

ويخلص لنا ثانيًا : أن هؤلاء الشياطين لا يفعلون شيئًا من هذا كله ، ولا يقدرون على شيء من عداء الأنبياء وإيذاء أتباعهم بقدرة ذاتية ، إنما هم في قبضة الله ، وهو يبتلي بهم أولياءه لأمر يريده ، من تمحيص وتطهير لأوليائه .

ويخلص لنا ثالثا : أن حكمة الله الخالصة هي التي اقتضت أن يترك لشياطين الإنس والجن أن يتشيطنوا ، وأن يدعهم يؤذون أولياءه فترة من الزمان – ليبتلي أولياءه وينظر هل يصبرون ؟ ويثبتون على الحق الذي معهم أمام انتفاش الباطل ويخلصون من حظوظ أنفسهم في السراء والضراء سواء .

ويخلص لنا رابعًا : هوان الشياطين من الإنس والجن ، وهوان كيدهم وأذاهم ، فما يستطيلون بقوة ذاتية لهم، وما يملكون أن يتجاوزوا ما أذن الله به على أيديهم،

---

(١) سورة النمل : الآية ١٧ .
(٢) سورة سبأ : الآية ١٢- ١٣ .
(٣) ينظر : في ظلال القرآن ٣/ ٢٣٩١ ، ٤/ ٢٦٣٥، ٢٨٩٨ ، ٦/ ٣٧٢٢ .
(٤) سورة الأنعام : الآية ١١٢ .

والمؤمن الذي يعلم أن ربه هو الذي يقدر، وهو الذي يأذن، خليق أن يستهين بأعدائه من الشياطين؛ مهما تبلغ قوتهم الظاهرة وسلطانهم المدَّعى "(١).

١٢ - كون إبليس من المنظرين: وهذا يعني أن المعركة بينه وبين المؤمنين دائمة إلى قيام الساعة فإبليس لما أمر بالسجود لآدم - عليه السلام - فأبى وأستكبر حقت عليه اللعنة ، وطرد من الجنة ومن رحمة الله تعالى، وكتب عليه الصغار، وعندئذٍ لم ينس الخبيث أن آدم هو سبب الطرد والغضب ، فطلب من الله -تعالى- أن ينظره إلى يوم الوقت المعلوم ، وهو يوم النفخة الأولى التي يصعق فيها الخلائق كما في الروايات، فاستجاب الله لطلبه لحكمة أرادها - سبحانه - وعند ذلك أعلن الخبيث انه سيقعد لآدم وذريته على صراط الله المستقيم فيصد عنه كل من يهم باجتيازه ، ويحول بينه وبين الطاعات من كل الجهات ، إلا القليل الذي يفلت منه وهم " عباد الله المخلصين "(٢).

ومن هنا بدأت المعركة الخالدة ، وأُهبط آدم - عليه السلام -وزوجه ، مع الشيطان وقبيله إلى الأرض لتنتقل المعركة الخالدة إلى ميدانها الأصيل، وانطلقت من عقالها ما تهدأ لحظة وما تفتر" (٣)،" والشيطان في معركته مع الإنسان يستعمل كل وسائل الخداع والمكر والإيحاء والوسوسة والتخويف والإرهاب والتزيين (٤).

وتصور المسلم لطبيعة المعركة مع الشيطان وأتباعه ، ودوامها يشعر المؤمن بأمور :

الأول : أنه يخوض معركة واحدة صارمة ضاربة وإن تعدد أطراف الصراع فيها " الهوى - الشهوة - أولياء الطاغوت من البشر - الفساد والشر والانحلال الذي ينشئونه في الأرض "(٥).

والثاني : أن يعرف المؤمن حقيقة الشيطان وحزبه وضعفهم وهوانهم أمام قدرة الله ، فلا يرهبهم فهم أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه ، ويستند إلى قوته،

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١١٩٠ بتصرف يسير .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٦٦ - ١٢٦٧ بتصرف
(٣) المصدر السابق ١/ ٥٨، ٦١ ، ٢/ ١٢٧٣ ، ٦/ ٤٠١١ .
(٤) المصدر السابق ١/ ٥٢١ ، ٣/ ١٢٧٤ - ١٢٧٥ ، ٥/ ٢٦٣٥ .
(٥) المصدر السابق ٣/ ١٢٧٥ بتصرف .

فإن الله هو المسيطر على الخلق كله وإن كان قد أذن لإبليس بالحرب ، فهو آخذ بناصيته ولم يسلطه إلا على من شرد عن ربه "[١].

والثالث : أن شعور الإنسان بأن الشيطان عدوه القديم وهو الذي ينصب له الشراك ، ويأمره بالموبقات يثير في نفسه -على الأقل- الحذر من الفخ الذي نصبه العدو ، فلا يغفل عن المعركة ولا يستسلم" [٢].

ثالثًا: هل كان في الجن رسل ؟

يقول سيد - رحمه الله- في ظلال قوله تعالى: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى ﴾ [٣] : " والخطاب موجه إلى الجن كما هو موجه إلى الإنس ، فهل أرسل الله إلى الجن رسلًا منهم كما أرسل إلى الإنس؟ الله وحده يعلم شأن هذا الخلق المغيب عن البشر، ولكن النص يمكن تأويله بأن الجن كانوا يسمعون ما أنزل على الرسل ، وينطلقون إلى قومهم منذرين به، كالذي رواه القرآن الكريم من أمر الجن في سورة الأحقاف: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ ﴾ [٤] فجائز أن يكون السؤال والجواب للجن مع الإنس قائمين على هذه القاعدة . . والأمر كله مما اختص الله سبحانه بعلمه والبحث فيها وراء هذا القدر لا طائل وراءه ! " . [٥]

رابعًا : المس والصرع " تلبس الجن بالإنس " :

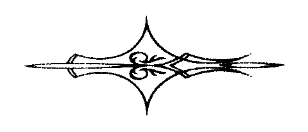
الذي يظهر أن سيدًا- رحمه الله- يثبت قضية تلبس الجن بالإنس وهو ما يسمى المس أو الصرع وذلك من خلال كلامه في ظلال قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ

---

(١) المصدر السابق ١/ ٥٢١ ، ٦/ ٤٠١٢ بتصرف .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٧٦١ بتصرف يسير .
(٣) سورة الأنعام : الآية ١٣٠ .
(٤) سورة الأحقاف : الآية ٢٩-٣١ .
(٥) في ظلال القرآن ٣/١٢٠٨- ١٢٠٩ .

﴿ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾[١]، حيث يقول: " وما كان أي تهديد معنوي ليبلغ إلى الحس ما تبلغه هذه الصورة المجسمة الحية المتحركة ، صورة الممسوس المصروع ، وهي صورة معروفة معهودة للناس "[٢].

وعند حديثة عن المنكرين للغيبيات ومنها عالم الجن والشياطين والرد عليهم يقول: " والملائكة والجن والشياطين وإبليس من عالم الغيب الذي أخبرنا الله به ، ويجب التصديق به ، وإنكار المنكرين له إلام يستند ؟ هل إلى أن علم الناس بوسائلهم وأدواتهم لا يتمكن من رؤيتهم ؟ .. أم يستند إلى عدم استطاعة الإدراك البشري أن يتصور كيف يتعالم الإنسان مع هذين الخلقين ، وكيف يؤثران فيه وهما ليس من جنسه ؟ ولكن هل وصل هذا الإدراك إلى معرفة كيف يؤثر إنسان على إنسان في التنويم المغناطيسي ؟ والتخاطب عن بعد وهي حقيقة واقعة ؟ فلماذا يستبعد تأثير ملك أو شيطان في إنسان ؟ ألا إنه قول الله ، وهم هاربون من الله ؟! "[٣].



(١)سورة البقرة : الآية ١٧٥ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٢٣- ٣٢٤ ، وخصائص التصور الإسلامي ص ٨٠ .
(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ٣٦٥ بتصرف يسير .

الفصل الثاني

منهجه في الإيمان بالرسل وما يتعلق به



وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : الإيمان بالرسل وما يتعلق به من مسائل .

المبحث الثاني : الإيمان بنبوة محمد ﷺ وما يتعلق بها .

المبحث الثالث : منهجه في الصحابة – رضوان الله عليهم – .

المبحث الرابع : منهجه في الإمامة والخلافة .



المبحث الأول

الإيمان بالرسل وما يتعلق به من مسائل



وفيه سبعة مطالب :

المطلب الأول : تعريف النبوة وحقيقتها .

المطلب الثاني: حاجة البشرية إلى الرسل وحكم الإيمان بهم .

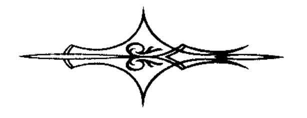
المطلب الثالث : صفات الرسل وخصائصهم .

المطلب الرابع : وظائف الرسل .

المطلب الخامس : دلائل النبوة وآيات الأنبياء .

المطلب السادس : التفاضل بين الأنبياء والرسل .

المطلب السابع : وقفة مع كلام سيد قطب عن موسى عليه السلام



المطلب الأول

تعريف النبوة وحقيقتها



الفرع الأول: تعريف النبي و الرسول والفرق بينهما :

تعددت أراء العلماء في تعريف النبي والرسول والفرق بينهما على أقوال:

الأول : أنهما مترادفان ، وهذا غير صحيح لما تقرر من أنهما متغايران لفظًا ومعنى [١] .

الثاني : أن النبي من أوحي إليه ولم يؤمر بالتبليغ والرسول من أوحي إليه وأمر بالتبليغ " [٢].

الثالث : " أن النبي هو الذي ينبئه الله ، وهو ينبئ عما أنبأ الله به ، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله فهو رسول ، وأما إن كان إنما يعمل بشريعة من قبله ، ولم يرسل إلى أحد فهو نبي لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾ [٣]، فذكر إرسالًا يعم النوعين ، وقد خص أحدهما بأنه رسول ، فهو الرسول المطلق الذي أمره الله بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كنوح – عليه السلام – " [٤].

أما سيد - رحمه الله -فيعرف النبي والرسول بقوله : ".. والرسول هو صاحب الدعوة من الأنبياء المأمور بإبلاغها للناس ، والنبي لا يكلف إبلاغ الناس دعوة إنما هو في ذاته صاحب عقيدة يتلقاها من الله ، وكان في بني إسرائيل أنبياء كثيرون وظيفتهم القيام على دعوة موسى والحكم بالتوراة التي جاء بها من عند الله ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا

---

(١) فتح الباري لابن حجر: ١١/ ١١٢ .
(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص١٥٥ .
(٣) سورة الحج : الآية ٥٢ .
(٤) النبوات لابن تيمية : ص ٢٥٥ .

﴿ ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ ﴾ [١] " [٢].

فالرسول أخص من النبي يقول- سيد- في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴾[٣]: " إن هذا القول إنما يقال للنبي ﷺ الرسول الذي أوحي إليه من ربه ، وكلف مخاطبه الناس بهذه العقيدة "[٤].

ويلاحظ أن تعريف سيد قطب يقترب من التعريفين الثاني والثالث نوعًا ما، ويتفق معهما في أن الرسول أخص من النبي ﷺ .

الفرع الثاني : طبيعة النبوة وحقيقتها :

النبوة عند جمهور المسلمين وأهل السُّنَّة والجماعة فضلٌ إلهي ، وهبةٌ ربانية ، يهبها الله لمن يشاء من عباده ، ويختص بها ويصطفي لها من يريد من خلقه ، فهي محض فضل إلهي ، واصطفاء واختيار ، لا تدرك بالنصب والجد ، ولا تنال بالذكاء والعبقرية كما هو مفهومها عند المنحرفين من الفلاسفة وغيرهم .

طبيعة النبوة وحقيقتها عند سيد قطب :

يمكننا بيان موقف سيد قطب - رحمه الله - ومنهجه فيما يتعلق بحقيقة النبوة فيما يأتي :

أولا: النبوة اصطفاء واختيار: يتفق سيد - رحمه الله- مع أهل السُّنَّة والجماعة حول طبيعة النبوة وحقيقتها ، من أنها هبة لدينه ، واختيار واصطفاء من الله - سبحانه- حيث يقول: " والرسل جماعة خاصة ، ذات طبيعة خاصة ... هذه الطبيعة الخاصة هي التي تتلقى الوحي ، فتطيق تلقيه ، لأنها مهيأة لاستقبالها "[٥].

" فالله ينتدب للنبوة المختار من عباد الله ، ثم يسلمها إلى المختار بعده ، وليس

---

(١) سورة المائدة : الآية ٤٤ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣١٣ .
(٣) سورة الرعد : الآية ٤٠ .
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٧١ .
(٥) في ظلال القرآن ١/ ٢٧٨ بتصرف .

للنبي في نفسه من شيء ،وما له في هذه المهمة من أرب شخصي ، ولا مجد ذاتي، إنما هو عبد مصطفى ، ومبلغ مختار، والله – سبحانه – هو الذي ينقل خطى هذه الدعوة بين أجيال البشر، ويقود هذا الموكب ويصرفه كيف يشاء "[١]. " فموكب الأنبياء يظم الصفوة المختارة من البشر "[٢]

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[٣] يقول: " يرد الله على قولتهم المنكرة الغبية أولا: بتقرير أن أمر اختيار الرسل للرسالة موكول إلى علمه المحيط بمن يليق بهذا الأمر الكوني الخطير...

إن الرسالة أمر هائل خطير ، أمر كوني تتصل فيه الإرادة الأزلية الأبدية بحركة عبد من العبيد ، ويتصل فيه الملأ الأعلى بعالم الإنسان المحدود ، وتتصل فيه السماء بالأرض ، والدنيا بالآخرة ، ويتمثل فيه الحق الكلي ، في قلب بشر، وفي واقع ناس، وفي حركة تأريخ ، وتتجرد فيها كينونة بشرية من حظ ذاتها ، لتخلص لله كاملة ، لا خلوص النية والعمل وحده ، ولكن كذلك خلوص المحل الذي يملؤه هذا الأمر الخطير .

فذات الرسول – ﷺ – تصبح موصولة بهذا الحق ومصدره صلة مباشرة كاملة، وهي لا تتصل هذه الصلة إلا أن تكون من ناحية عنصرها الذاتي صالحة للتلقي المباشر الكامل بلا عوائق ولا سدود والله وحده – سبحانه – هو الذي يعلم أين يضع رسالته ، ويختار لها الذات التي تنتدب من بين ألوف الملايين ، ويقال لصاحبها : أنت منتدب لهذا الأمر الهائل الخطير، والذين يتطلعون إلى مقام الرسالة ، أو يطلبون أن يؤتوا مثل ما أوتي الرسول ، هم أولًا من طبيعة لا تصلح أساسًا لهذا الأمر ، فهم يتخذون من ذواتهم محورًا للوجود الكوني، والرسل من طبيعة أخرى ، طبيعة من يتلقى الرسالة مستسلما ، ويهب لها نفسه ، وينسى فيها ذاته ، ويؤتاها من غير تطلع ولا ارتقاب : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ

(١) المصدر السابق ١/ ٤٢٠ بتصرف .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٨٠٥ ، وينظر : ٢/ ١١٤٤ .
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٢٤ .

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[١]، ثم هم بعد ذلك جُهَّال لا يدركون خطورة هذا الأمر الهائل ولا يعلمون أن الله وحده هو الذي يقدر بعلمه على اختيار الرجل الصالح، فـ ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾، وقد جعلها سبحانه حيث علم ، واختار لها أكرم خلقه وأخلصهم ، وجعل الرسل هم ذلك الرهط الكريم ، حتى انتهت إلى محمد - ﷺ - خير خلق الله وخاتم النبيين" [٢].

وقد بين سيد - رحمه الله- في نصوص كثيرة أن النبوة هبةُ من الله ، واصطفاء لبعض عباده واختيار لهم من بين البشر كما قال - سبحانه وتعالى -: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[٣]. وقال: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾[٤] وغيرها" [٥].

ثانيًا : أن موكب الأنبياء واحد في تاريخ البشرية كلها : بيَّن سيد - رحمه الله- أن الرابط بين موكب الأنبياء هو رابط الاصطفاء والاختيار الإلهي ، وأن الصلة بينهم هي عهد الله عليهم أن يسلم السابق منهم للاحق وينصره ، وأنهم يواجهون مواقف متشابهة ويمضون في طريق ثابت " [٦].

" فموكب الأنبياء موكب واحد يتراءى على طريق التاريخ البشري الموصول، ورسالة واحدة بهدي واحد ، للإنذار والتبشير، موكب واحد يضم هذه الصفوة المختارة من بين البشر: نوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وعيسى، وأيوب، ويونس، وهارون، وسليمان ، وداود ، وموسى.. وغيرهم ممن قصهم الله على نبيه - ﷺ - في القرآن، وممن لم يقصصهم عليه ،موكب من شتى الأقوام والأجناس، وشتى البقاع والأرضيين، في شتى الآونة والأزمان، لا يفرقهم نسب ولا جنس، ولا أرض ولا وطن ، ولا زمن ولا بيئة ، كلهم آت

---

(١) سورة القصص : الآية ٨٦ .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٠٢ - ١٢٠٣ .
(٣) سورة الحج : الآية ٧٥
(٤) سورة النمل : الآية ٥٩ ..
(٥) ينظر في ذلك : في ظلال القرآن ١/ ٣٩١ ، ٤/ ١٩٠٩ ، ٢٢١١ ، ٢٤٤٥ ، ٥/ ٢٦٥٤ ، ٢٩٦١ .
(٦) في ظلال القرآن ١/ ١٢ ، ٤١٠ ، ٤٢٠ بتصرف .

من ذلك المصدر الكريم ، وكلهم يحمل ذلك النور الهادي ، وكلهم يؤدي الإنذار والتبشير، وكلهم يحاول أن يأخذ بزمام القافلة البشرية إلى ذلك النور، سواء منهم من جاء لعشيرة ، ومن جاء لقوم ، ومن جاء لمدينة ومن جاء لقطر ، ثم من جاء للناس أجمعين ، محمد رسول الله - ﷺ - خاتم النبيين "[١].

الفرع الثالث : منهج القرآن الكريم في تصحيح التصورات الجاهلية عن الرسل والرسالات :

أشار سيد - رحمه الله- في ظلال كثير من الآيات إلى منهج القرآن الكريم في بيان حقيقة الرسل والرسالات ، وتصحيح التصورات الجاهلية والبشرية عمومًا عن الرسل والرد على التصورات الضالة حول طبيعة النبي ووظيفته سواءً عند المشركين أو عند أهل الكتاب على حد سواء، ومن ذلك :

١- في ظلال قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[٢] ، يقول سيد: " لقد كان هذا الدين يعد البشرية للرشد العقلي.. وكان هذا كله يقتضي الانتقال بالبشرية من عهد الخوارق الحسية، التي تلوي الأعناق.. إلى توجيه الإدراك البشري لملاحظة بدائع الصنعة الإلهية في الوجود كله، وهي في ذاتها خوارق معجزة ودائمة.. وقد اقتضى ذلك تربية طويلة على هذا الأمر.. بعيدة عن منهج التصورات الذهنية التجريدية، أو التصورات الحسية المادية التي سادت الفلسفات الإغريقية و الهندية والمصرية والبوذية والمجوسية والحسية الساذجة التي كانت سائدة في العقائد الجاهلية العربية ، وتتمثل جانب من هذه التربية في بيان وظيفة الرسول، وحقيقة دوره في الرسالة، فالرسول بشر، يرسله الله ليبشر وينذر، وهنا تنتهي وظيفته..، وبهذا ينفي القرآن الكريم كل الأساطير والتصورات الغامضة عن طبيعة الرسول وعمله، مما كان

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٠٥ ، ١١٣٧ ، ١١٤٣، ١١٤٤ ، ١١٤٧، ٣/ ١٥٥٥، ٤/ ٢١٠٠، ٢٣٩٥- ٢٣٩٦.
(٢) سورة الأنعام : الآية ٤٨ - ٥٠ .

سائدًا في الجاهليات.. بعدما عبثت وابتعدت بها عن حقيقة الرسالة وحقيقة النبوة، وحقيقة الوحي، وحقيقة الرسول، ودخلت بها في خرافات وأساطير وأوهام وأضاليل، حتى اختلطت النبوة بالسحر والكهانة، واختلط الوحي بالجن والجنون أيضًا! وأصبح يطلب من النبي أن يتنبأ بالغيب، وأن يأتي بالخوارق، وأن يصنع ما عهد الناس أن يصنعه صاحب الجن والساحر! .

- لقد جاءت العقيدة الإسلامية لتقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق، ولترد إلى التصور الإيماني وضوحه وبساطته وصدقه وواقعيته، ولتخلص صورة النبوة وصورة النبي من تلك الخرافات والأساطير والأوهام والأضاليل التي شاعت في الجاهليات كلها، وكان أقربها إلى مشركي العرب جاهليات أهل الكتاب من اليهود والنصارى على اختلاف الملل والنحل بينهم، وكلها تشترك في تشويه صورة النبوة وصورة النبي أقبح تشويه ! ...

وكانت مطالب المشركين للخوارق من النبي - ﷺ - تصوغها تلك الأوهام والأساطير التي أحاطت بصورة النبوة والنبي في الجاهليات حولها...

حيث شاعت في الجاهليات المتنوعة صور من " النبوءات " الزائفة، يدعيها " متنبئون " ويصدقها مخدوعون.. ومن بينها نبوءات السحر والكهانة والتنجيم والجنون ! حيث يدعي المتنبئون قدرتهم على العلم بالغيب، والاتصال بالجن والأرواح، وتسخير نواميس الطبيعة بالرقى والتعاويذ، أو بغيرها من الوسائل في مراسيم مختلفة ...

حيث حفلت الجاهليات كلها بتصورات منحرفة عن طبعة النبوة والنبي، فجاء القرآن الكريم ليصحح هذه الانحرافات ويقرر حقيقة النبوة وطبيعة النبي بعيدًا عن الأساطير والخرافات" [1].

- كما صحح للمشركين تصورهم عن النبي - ﷺ - واعتقادهم أنه لا يكون بشرًا، بل لابد أن يكون ملكًا، حيث ذكر اعتراض المشركين في كل الأمم على بشرية الرسل، وبين أن ذلك مرده إلى الجهل بوظيفة الرسول - ﷺ -، وحقيقة

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٩٣ - ١٠٩٧ بتصرف .

الرسالة "[١].

- كما رد القرآن الكريم على الذين ينكرون إرسال الرسل في مواضع كثيرة، وندد بمن يزعمون أن الله لم يرسل رسولاً ، ولم ينزل على بشر كتابًا ، بأنهم لم يقدروا الله حق قدره ، فما قدر الله حق قدره من يقول : إنه - سبحانه - تارك الناس لأنفسهم وعقولهم وما يتعاورها من الأهواء والشهوات والضعف والقصور، فما يليق هذا بألوهية الله وربوبيته ، وعلمه وحكمته وعدله ورحمته ، إنما اقتضت رحمة الله وعلمه ورحمته وعدله أن يرسل إلى عباده رسلًا ، وأن ينزل على بعض الرسل كتبًا ، ليحاولوا جميعًا هداية البشرية إلى بارئها ، واستنقاذ فطرتها "[٢] .

- كما رد على مقولات المشركين الذي جعلوا للنبوة مواصفات ، واعترضوا على نبوة النبي- ﷺ - بقولهم: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[٣]، وناقش مقولتهم هذه ، وما تنطوي عليه من خطأ في تقدير القيم الأصيلة التي أقام الله عليها الحياة... والقيم الزائفة التي تخايل لهم وتصدهم عن الحق... بقوله - سبحانه-: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾[٤].. فالله أعلم حيث يجعل رسالته ، ولقد اختار لها من يعلم أنه لها أهل ... فلا علاقة بين النبوة و بين عرض الحياة الدنيا ، ولا صلة لها بقيم هذه الحياة الدنيا الزائفة من المال و الزعامة ونحوها "[٥].

ومن ذلك ما روى أن الوليد بن المغيرة قال للنبي- ﷺ -: لو كانت النبوة حقًا لكنت أولى بها منك لأني أكبر منك سنًا ، وأكثر من مالًا "[٦] وهذا كله من انحراف تصورهم لحقيقة النبوة والنبي .

- كما صحح القرآن الكريم للمشركين تصورهم للنبوة وحقيقتها ، فقد صحح

(١) المصدر السابق ٣/ ١٧٥٩ ، ٥/ ٢٩٦١ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ١١٣٧ وينظر ٣/ ١٢٠٢ .
(٣) سورة الزخرف : الآية ٣١ .
(٤) سورة الزخرف : الآية ٣٢
(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٨٤ ، ٣١٨٦ ، ٣١٨٧ بتصرف ، وينظر ٤/ ١٨٧٢ .
(٦) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٠٢ .

لأهل الكتاب أيضًا تصورهم المنحرف للنبوة والأنبياء ، حيث انحرفت تصورات اليهود لأنبيائهم بعد تحريف لكتب ربهم ، أما النصارى فقد صحح القرآن الكريم لهم تصوراتهم عن عيسى - عليه السلام - وقص عليهم الخبر اليقين في أنه عبد الله ورسوله ، وروح منه وكلمته ألقاها جبريل -عليه السلام- على مريم العذراء ، فليس إلهًا، ولا ابن إله ، ولا ثالث ثلاثة ، ومما تعتقده النصارى فيه .

- أما اليهود فقد حدثهم القرآن الكريم حديث الصدق عن تاريخهم وأنبيائهم، مجردًا من الأساطير الكثيرة التي اختلفت فيها رواياتهم ، مطهرًا من الأقذار التي ألصقتها هذه الروايات بالأنبياء ، والتي لم يكد نبي من أنبياء بني إسرائيل يخرج منها نظيفًا .

- إبراهيم - عليه السلام - بزعمهم قدم امرأته لأبي مالك ملك الفلسطينيين ، وإلى فرعون ملك مصر باسم أنها أخته لعله ينال بسببها نعمة في أعينهما ! .

- ويعقوب - عليه السلام - الذي هو إسرائيل أخذ بركة جده إبراهيم من والده إسحاق بطريق السرقة والحيلة والكذب ، وكانت بزعمهم هذه البركة لأخيه الأكبر عيصو!.

- ولوط - عليه السلام - بزعمهم أسكرته بنتاه كل منهما ليلة ليضطجع معها لتنجب منه كي لا يذهب مال أبيها إذ لم يكن له وارث ذكر، وكان ما أرادتا ! .

- وداود - عليه السلام - رأى من سطوح قصره امرأة جميلة عرف أنها زوجة أحد جنده ، فأرسل هذا الجندي إلى المهالك ليفوز بزعمهم بامرأته !.

- وسليمان - عليه السلام - مال إلى عبادة " بغل " - بزعمهم - مجاراة لإحدى نسائه التي كان يعشقها ولا يملك معارضتها !.

وقد جاء القرآن فطهر صفحات هؤلاء الرسل الكرام مما لوثتهم به الأساطير الإسرائيلية التي أضافوها إلى التوراة المنزلة ، كما صحح تلك الأساطير عن عيسى ابن مريم -عليه السلام - "[1] .

---

(١) المصدر السابق ٥/ ٢٦٦٤ - ٢٦٦٥ بتصرف يسير .

المطلب الثاني

حاجة البشرية إلى الرسل وحكم الإيمان بهم



لا شك أن الحاجة إلى النبوة والوحي ضرورة للبشر لا غنى عنها بحال من الأحوال. يقول ابن القيم - رحمه الله- : " ومن هنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم .. فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير "[١].

وقد بين سيد - رحمه الله- حاجة البشر إلى الرسالة، ورد على الذين يقولون بأن الإنسان يمكن أن يستغني بعقله عن الوحي، كما بين حكم الإيمان بالرسل في مواطن كثيرة، نجملها في الفرعين الآتيين :

الفرع الأول :الحكمة من إرسال الرسل :

يقول سيد- رحمه الله- : "ولو علم الله أن العقل البشري يكفي الإنسان لبلوغ الهدى والمصلحة في دنياه وآخرته لوكله إليه، وجعله حجته على عباده، ولكن لما علم أن العقل الذي آتاه للإنسان أداة قاصرة بذاتها عن الوصول إلى الهدى - بغير توجيه من الرسالة وعون وضبط - وقاصرة عن رسم منهج للحياة الإنسانية يحقق المصلحة الصحيحة لهذه الحياة، وينجي صاحبه من سوء المآل في الدنيا والآخرة ... لما علم الله - سبحانه - هذا كان من رحمته وحكمته أن يبعث بالرسل، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل "[٢].

" وهذا يعني أن مصائر البشرية كلها في الدنيا وفي الآخرة سواء، منوطة بالرسل

---

(١) زاد المعاد لابن القيم مؤسسة الرسالة بيروت ط٣٠ عام ١٤١٧هـ ١/ ٦٨ وما بعدها .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٠٦ بتصرف .

وبأتباعهم من بعدهم فعلى أساس تبليغهم هذا الأمر للبشر، تقوم سعادة هؤلاء البشر أو شقوتهم ، ويترتب ثوابهم أو عقابهم ، في الدنيا والآخرة "[١].

ويقول أيضًا : " أما حكمة الله في إرسال الرسل فهي واضحة ، والإنسان مهيأ بطبعه للخير والشر وعقله هو أداته للتمييز، ولكن هذا العقل في حاجة إلى ميزان مضبوط يعود إليه دائمًا كلما غم عليه الأمر، وأحاطت به الشبهات، وجذبته التيارات والشهوات ، وأثرت فيه المؤثرات العارضة التي تصيب البدن والأعصاب والمزاج، فتتغير وتتبدل تقديرات العقل أحيانًا من النقيض إلى النقيض ، هو في حاجة إلى ميزان مضبوط لا يتأثر بهذه المؤثرات ليعود إليه ، وينزل على إرشاده ، ويرجع إلى الصواب على هداه، وهذا الميزان الثابت العادل هو هدى الله وشريعة الله "[٢].

" إن العقل حين يستقل بنفسه بعيدًا عن الوحي، يتعرض للضلال والانحراف، وسوء الرؤية ونقصها، وسوء التقدير و التدبير، بسبب طبيعة تركيبه ذاتها في رؤية الوجود أجزاء لا كلًا واحدًا ، فيتعذر عليه أن يقيم أحكامًا ونظامًا ملحوظًا فيه الشمول والتوازن، ومن ثم يضل ويضطرب ...

ويضل أيضًا بسبب ما ركب في الكيان البشري من شهوات وأهواء ونزعات ، إذا لم تضبط بميزان الوحي فإنها ستدمر الحياة "[٣].

" فالحاجة إلى الرسالة والوحي أمر ضروري لاستنقاذ الفطرة من الركام والانحراف، لتكشف للبشر عن القوانين الكونية الثابتة وما وراءها ، مما حجب عن الإنسان رؤيته ومعرفته ، ولتكون مصدرًا للمعرفة اليقينية لما وراء المادة "[٤].

" ومن العجب أن يأتي على هذا الإنسان زمان يزعم لنفسه أنه استغنى عن ربه ورعايته ورحمته وهدايته ودينه ورسله بالعقل ، فمثال ذلك كالطفل الذي يحس ببعض القوة في ساقيه فيروح يبعد عنه اليد التي تسنده ، ليتكافأ ويتعثر !...

(١) المصدر السابق ٨٠٩ .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٦٠-١٧٦١٦ ، وينظر : ١/ ٢٨١،٢/ ١١٤٥-١١٤٦، ٦/ ٣٩١٨.
(٣) المصدر السابق ٢/ ١٠٩٧- ١٠٩٨ بتصرف .
(٤) المصدر السابق / ٢٧٨، ٣/ ١٣٩٥- ١٣٩٦، ٥/ ١٧٦٠ .

فالعقول مهما كانت كبيرة لا تبلغ بدون الرسالة ما بلغته بالرسالة .. ولم يسجل التاريخ أن عقلًا واحدًا من العقول الكبيرة - أفلاطون وأرسطو كما يزعمون - اهتدى إلى مثل ما اهتدت إليه العقول العادية بالرسالة .. فعندما نقارن بين تصور أفلاطون لإلهه - كما وصفه - وبين تصور المسلم العادي لإلهه مهتديا بهدي الرسالة، نرى مسافة هائلة تفصل بينهما، وكذلك في مجال الأخلاق والمبادئ والنظم والتشريعات، لا يمكن أن نقارن بين ما جاء به الرسل وبين ما وصلت إليه العقول البشرية "[1].

الفرع الثاني : حكم الإيمان بالرسل وموقف الناس منهم :

تباينت مواقف الناس من رسل الله تعالى، بين مؤمن ومنكر .

- فقد كانت العرب تنكر الوحي والرسالة إلا قليلًا منهم، وكانت شبهتهم استبعاد أن يبعث الله بشرًا رسولًا - كما سبق - وقريبًا من موقف العرب يقف اليهود الذين أنكروا أن يختص الله بهذه الرحمة من يشاء من عباده، وأوجبوا أن يحصر النبوة في شعب إسرائيل وحده، على أنهم كفروا بأنبيائهم وقتلوا بعضهم، ونسبوا إليهم ما لا يليق، ووافقهم النصارى على حصر النبوة فيهم .

- ومن بين هذه المواقف جاء موقف الإسلام، حيث جعل من أركان الإيمان الحق الذي لا يتم إلا به، الإيمان بالرسل الذين أرسلهم الله جميعا لهداية الأمم، وعدم التفريق بينهم، ومحبتهم جميعا، واعتبار أن من كذب واحدًا منهم فهو مكذب للجميع، فالكفر ببعضهم كالكفر بهم كلهم[2] .

- وقد بين سيد - رحمه الله- حكم الإيمان بالرسل ومكانته في هذا الدين في أكثر من موضع يقول -رحمه الله-: " الإيمان بكتب الله ورسله، بدون تفرقة بين أحد من رسله هو المقتضى الطبيعي الذي ينبثق من الإيمان بالله في الصورة التي رسمها الإسلام، فالإيمان بالله يقتضي الاعتقاد بصحة كل ما جاء من عند الله ، وصدق

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٨١١-٨١٢ بتصرف .

(٢) ينظر :الوحي المحمدي، لمحمد رشيد رضا، المكتب الإسلامي ز بيروت، ط ٩ عام ١٣٩٩، ص١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٣.

كل الرسل الذين يبعثهم الله ، ووحدة الأصل الذي تقوم عليه رسالتهم، وتتضمنه الكتب التي نزلت عليهم، ومن ثم لا تقوم التفرقة بين الرسل في ضمير المسلم، فكلهم جاء من عند الله بالإسلام في صورة من صوره المناسبة لحال القوم الذين أرسل إليهم، وانتهى الأمر إلى خاتم النبيين محمد - ﷺ - فجاء بالصورة الأخيرة للدين الواحد "[(١)].

" والقران يدعو إلى الإيمان بعناصر الإيمان الشامل ، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ولكل عنصر من هذه العناصر قيمته في تكوين العقيدة الإيمانية، والتصور الإسلامي "[(٢)]، " ذلك التصور الذي يجعل دين الله واحدًا، ويجعل رسل الله موكبًا يحمل هذا الدين الواحد، ويجعل التفرقة بين الرسل، والتفرقة بين ما جاءوا به كفرًا صراحًا "[(٣)].

"وذلك أن التوحيد المطلق لله -سبحانه- يقتضي توحيد دينه الذي أرسل به الرسل للبشر، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس، وكل كفر بوحدة الرسل، أو وحدة الرسالة هو كفر بوحدانية الله في الحقيقة، وسوء تصور لمقتضيات هذه الوحدانية .. لذلك عبر عمن يريدون التفرقة بين الله ورسله - بأن يؤمنوا بالله ويكفروا بالرسل -وعمن يريد التفرقة بين الرسل-بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا ببعضهم -عبر عن هؤلاء وهؤلاء بأنهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾، وعد تفرقتهم بين الله ورسله وتفرقتهم بين بعض رسله وبعض ، كفرًا بالله وبرسله.

إن الإيمان وحدة لا تتجزأ، الإيمان بالله إيمان بوحدانيته - سبحانه - ووحدانيته تقتضي وحدة الدين الذي ارتضاه للناس لتقوم حياتهم كلها - كوحدة - على أساسه، ويقتضي وحدة الرسل الذين جاءوا بهذا الدين من عنده ووحدة الموقف تجاههم جميعًا، ولا سبيل إلى تفكيك هذه الوحدة، إلا بالكفر المطلق، وإن حسب أهله أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض! لكنهم الكافرون حقًا ..

أما " المسلمون " فهم الذين يشتمل تصورهم الاعتقادي على الإيمان بالله ورسله

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٤٢.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٧٧٤.
(٣) المصدر السابق ٢/ ٧٩٢.

جميعًا، بلا تفرقة . فكل الرسل عندهم موضع اعتقاد واحترام .. وفي ظل هذا البيان يبدو الذين يفرقون بين الله ورسله ، ويفرقون بين بعض الرسل وبعض ، منقطعين عن موكب الإيمان، مفرقين للوحدة التي جمعها الله ، منكرين للوحدانية التي يقوم عليها الإيمان بالله "[١].

" وقد ندد الله بكفر من أنكر النبوات، سواءً المشركين الذين قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، أو الذين يزعمون أن الأديان من صنع البشر وأنها تطورت وترقت بتطور البشر وترقيهم دون تفريق بين الأديان الوثنية التي هي من صنع البشر، وبين الأديان التي جاء بها الرسل من عند الله ، والتي هي ثابتة في أصولها، والتي ينحرف عنها الناس فترة حتى يبعث الله لهم رسولًا بذات الدين الواحد الموصول، أو الفلاسفة والملحدين من الماديين الذين يرون أن الإله لا يمكن أن يعنى بغير ذاته، وبالتالي فلا يمكن أن يلتفت إلى الخلق، فليس هناك وحي ولا رسل، إنما هي أوهام الناس وخداع بعضهم لبعض باسم الدين "[٢] .

" وقد جاءت آيات كثيرة تصرح بكفر من كذب رسولًا واحدًا، واعتباره مكذبًا لجميع الرسل منها قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٣] ، وقوم نوح لم يكذبوا إلا نوحًا، ولكنه يذكر أنهم كذبوا المرسلين، لأن الرسالة في أصلها واحد ، فمن كذب بها فقد كذب بالمرسلين جميعًا "[٤] .

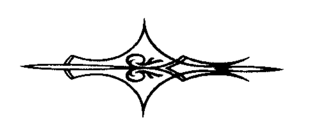
وقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٥] ، وقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٦]، وقوله تعالى﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٨] ، ومن ذلك أيضًا وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧٩٧-٧٩٨ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٢/ ١١٤٥ بتصرف.
(٣) سورة الشعراء :الآية ١٠٥ .
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٠٧ .
(٥) سورة الشعراء: الآية ١٢٣ .
(٦) سورة الشعراء : الآية ١٤١ .
(٧) سورة الشعراء : الآية ١٦٠ .
(٨) سورة الشعراء: الآية ١٧٦ .

﴿ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [(١)] وهم لم يكذبوا سوى رسولهم صالح - عليه السلام - ولكن ليس صالح إلا ممثلا للرسل أجمعين، فلما كذبه قومه قيل : إنهم كذبوا المرسلين، توحيدًا للرسالة وللرسل وللمكذبين، في كل أعصار التاريخ ، وفي كل جوانب الأرض ، على اختلاف الزمان والمكان والأشخاص والأقوام " [(٢)] .

وخلاصة موقف سيد قطب : أنه يرى وجوب الإيمان برسل الله كلهم، بدون تفرقة بينهم، فكلهم جاء من عند الله، وكلهم جاء بدين الله، وأن عدم الإيمان بواحد منهم كفر بهم جميعًا ، وكفر بالله الذي بعث بهم جميعًا " [(٣)] .



(١) سورة الحجر: الآية ٨٠.
(٢) في ظلال القرآن ٤ / ٢١٥١.
(٣) المصدر السابق ٢/ ٨٥٨.

المطلب الثالث

صفات الرسل وخصائصهم



النبوة -كما تقدم- منةٌ من الله- تعالى- يمن بها ويختص بها من يشاء من عباده، وهؤلاء المختارون خصهم الله بصفات كمال النوع الإنساني من العلوم والمعارف، والفضائل والآداب، مع التنزه عن النقائص .[١]

وقد جاء ذكر بعض أوصاف الأنبياء ومميزاتهم في القرآن الكريم، من كونهم بشرًا، يوحى إليهم وكونهم معصومون عن ما ينافي النبوة والبلاغ، واتصافهم بجميل الصفات والأخلاق، وقد تكلم سيد -رحمه الله - في مواضع كثيرة عن أهم صفات وخصائص الأنبياء -عليهم السلام -ومما ذكره- سيد- من صفات وخصائص الأنبياء ما يأتي :

أولًا : أنهم بشر : من صفات الرسل – عليهم السلام – أنهم رجال من البشر ، ليسوا ملائكة ، ولا أربابًا ، وليس لهم من خصائص الألوهية شيء .

وقد افترق الناس في مسألة بشرية الرسل إلى ثلاث طوائف :

الطائفة الأولى : الذين غلوا في الأنبياء – عليهم السلام – وأفرطوا في تصوير خصوصيتهم حتى رفعوهم فوق جنس البشر، وجعلوا لهم صفات وخصائص الألوهية والربوبية .

الطائفة الثانية : جعلوا صفة البشرية مانعًا من النبوة ، وبالتالي أنكروا نبوتهم لكونهم بشر .

الطائفة الثالثة : الذين توسطوا والوسط هو الحق ، فإن كون الأنبياء – عليهم السلام – بشرًا هو ما تقتضيه حكمة الله وصلاح البشرية [٢] .

---

(١) ينظر : فتح الباري لابن حجر ١٢/٣٦٨ بتصرف يسير .
(٢) ينظر : تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٨/ ٢٧٨ - ٢٧٩ بتصرف يسير .

وقد تعرض سيد - رحمه الله- كثيرًا في ظلال الآيات التي تتحدث عن طبيعة الأنبياء ، إلى مسألة بشريتهم ، وبين أنها من صفات الرسل - عليهم السلام - وكذا الحكمة من كونهم بشرًا ، وردَّ على اعتراضات المشركين في مسألة بشرية الرسل ، حيث قرر -رحمه الله -أن الرسل جميعًا هم بشر، اختارهم الله من بين البشر ، لحمل أمانة الوحي ، والبلاغ ، والإنذار ، وما داموا بشرًا فإنهم محكومون بالسُنن الجارية على البشر من الحياة والموت والفناء ، وخضوعهم لألوهية الله - سبحانه - فالنبي عبد يتوجه لله بالعبودية كغيرة من المخلوقات ، وليس لهم من خصائص الألوهية شيء .

كما أنهم لا يعلمون الغيب ، ولا يدعون أنهم ملائكة ، ولا يقدرون على فعل الخوارق والمعجزات بأنفسهم ،ولهذا كان جواب النبي ﷺ على المشركين لما طلبوا منه أمور من خوارق العادات" : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[1]، وقد قرر القرآن الكريم بشرية الرسل في آيات كثيرة منها :

- قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾[2] .

- قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾[3]، فالرسل والأنبياء - عليهم السلام- بشر يوحى إليهم،وتنحصر حقيقتهم في كونهم "بشرًا يتلقون الوحي"[4].

الحكمة من كون الرسل بشرًا ، والرد على المعترضين :

ذكر سيد - رحمه الله- أن بشرية الرسل كانت موضع اعتراض في كل الجاهليات بقوله " لقد كانت بشرية الرسل هي موضع الاعتراض من جميع الأقوام في جاهليتهم" [5]، " وبدلًا من أن يعتز البشر باختيار الله لواحد منهم ليحمل رسالته،

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٩٣ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ١١ .

(٣) سورة الكهف : الآية ١١١ ، وسورة فصلت : الآية ٦ .

(٤) ينظر كلام سيد حول بشرية الرسل في ظلال القرآن ١/ ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٨٥ ، ٢/ ٧١٩ ، ١٠٩٣ - ١٠٩٥ ، ١١٤٥ ، ٣/ ١٤٠٩ - ١٤١٠ ، ١٧٥٩ ، ٤/ ١٨٧١، ٢٠٧٨، ٢٣٦٨ ، ٥/ ٢٥٥٢، ٢٦١٥ ، ٢٩٦١، ٣٠٠٥، ٣٠٠٨ ، ٦/ ٣٤٣٢، ٣٥٨٦ .

(٥) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٧٨ وينظر : ٢/ ١١٤٥ .

فإنهم لجهالتهم ينكرون هذا الاختيار، ويجعلونه مثار ريبة في الرسل المختارين، ويعللون دعوة رسلهم لهم بأنها رغبة في تحويلهم عما كان يعبد آباؤهم "[١].

أسباب الاعتراض على بشرية الرسل:

بين سيد قطب أسباب الاعتراض على بشرية الرسل بقوله : " وهذا الاعتراض المتكرر على بشرية الرسل تبدو فيه سذاجة التصور والإدراك ، كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول ..والتوقع أن يكون هناك سر غامض في شخصية الرسول وحياته، تكمن وراءه الأوهام والأساطير.. أليس رسول السماء إلى الأرض فكيف لا تحيط به الأوهام والأساطير؟ كيف يكون شخصية مكشوفة بسيطة لا أسرار فيها ولا ألغاز حولها ؟! شخصية بشرية عادية من الشخصيات التي تمتلئ بها الأسواق والبيوت ؟![٢].

وهذا الاعتراض على بشرية الرسل هو اعتراض فج :

- ناشئ عن الجهل بطبيعة الرسالة ، وكونها منهجًا إلهيًا للبشر ، فلا بد أن تتمثل واقعيًا في بشر يحيا بها ، ويكون بشخصه ترجمانًا لها ، فيصوغ الآخرون أنفسهم على مثاله بقدر ما يستطيعون ، ولا ينعزل هو عنهم بجنسه ، فيتعذر أن يجدوا للرسالة صورة واقعية يحاولون تحقيقها في ذوات أنفسهم ، وفي حياتهم ومعاشهم .

- وناشئ كذلك من الجهل بطبيعة الإنسان ذاته ورفعة حقيقته بحيث يتلقى رسالة السماء ويبلغها بدون حاجة إلى أن يحملها إلى الناس ملك كما كانوا يقترحون، ففي الإنسان تلك النفخة من روح الله ! وهي تهيئة لاستقبال الرسالة من الله ، وأدائها كاملة كما تلقاها من الملأ الأعلى ، وهي كرامة للجنس البشري كله لا يرفضها إلا جاهل بقدر هذا الإنسان عند الله ، حين يحقق في ذاته حقيقة النفخة من روح الله ! .

- وناشئ في النهاية من التعنت والاستكبار الكاذب عن إتباع رسول من البشر، كأن في هذا غضًا من قيمة هؤلاء الجُهَّال المتكبرين ! فجائز في عرفهم أن يتبعوا

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٠٩١ وينظر : ٤/ ٢٦١٥ ، ٥/ ٢٥٠٢ ، ٣٤٣٢ ، ٦/ ٣٥٨٦ .
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٩٦١ وينظر : ٥/ ٣٠٠٨ .

رسولًا من خلق آخر غير جنسهم بلا غضاضة، أما أن يتبعوا واحدًا منهم فهي في نظرهم حطة وقلة قيمة ! "[١].

أما الحكمة من كون الرسل بشرًا : فقد تحدث عنها سيد - رحمه الله- كثيرًا ومن ذلك:

* في ظلال قوله تعالى ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ ﴾[٢]، يقول: " وأوجب شيء وأقرب شيء إلى الحكمة والمنطق أن يكون المنذر منهم ، بشرًا يدرك كيف يفكر البشر وكيف يشعرون ، ويحس ما يعتلج في نفوسهم ، وما يشتجر في كيانهم ، وما يعانون من نقص وضعف ، وما يجدون من ميول ونزعات ، وما يستطيعون أولا يستطيعون من جهد وعمل ، وما يعترضهم من عوائق وعقبات ، وما يعتريهم من مؤثرات واستجابات .

- بشرًا يعيش بين البشر وهو منهم فتكون حياته قدوة لهم ، وتكون لهم فيه أسوة ، وهم يحسون أنه واحد منهم ، وأن بينهم وبينه شبهًا وصلة، فهم مطالبون إذن بالمنهج الذي يأخذ به نفسه ، ويدعوهم لإتباعه، وهم قادرون على الأخذ بهذا المنهج فقد حققه أمامهم بشر منهم في واقع حياته .

- بشرًا منهم، من جيلهم، ومن لسانهم، يعرف مصطلحاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وتفصيلات حياتهم، ويعرفون لغته ، ويفهمون عنه ، ويتفاهمون معه، ويتجاوبون وإياه، ومن ثم لا تقوم بينه وبينهم جفوة من اختلاف جنسه، أو اختلاف لغته، أو اختلاف طبيعة حياته أو تفصيلات حياته .

- وأيضًا فقد أراد الله- للبشرية وبخاصة في الرسالة الأخيرة - أن تعيش بهذه الرسالة عيشة طبيعية واقعية ،عيشة طيبة ونظيفة وعالية ، ولكنها حقيقة في هذه الأرض ، لا وهمًا ولا خيالًا ولا مثلًا طائرًا في سماء الأساطير والأحلام ! يعز على التحقيق ويهرب في ضباب الخيالات والأوهام !"[٣].

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٨٦ وينظر أيضًا : ٤/ ١٨٧١ ، ٥/ ٢٩٦١ .

(٢) سورة ص : الآية ٤ .

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٠٨ بتصرف يسير .

* وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾[1]، يقول سيد : " فقد اقتضت حكمة الله أن يكون الرسل من البشر ، يتلقون الوحي فيدعون به الناس، وما كان الرسل من قبل إلا رجالاً ذوي أجساد، وما جعل الله لهم أجسادًا ثم جعلهم لا يأكلون الطعام، فأكل الطعام من مقتضيات الجسدية ، والجسدية من مقتضيات البشرية، وهم بحكم أنهم بشر مخلوقون لم يكونوا خالدين .

هذه هي سُنَّة الله المطردة فليسألوا أهل الكتاب الذين عرفوا الأنبياء من قبل، إن كانوا هم لا يعلمون .

لقد كان الرسل من البشر ليعيشوا حياة البشر ، فتكون حياتهم الواقعية مصداق شريعتهم، وسلوكهم العملي نموذجًا حيًا لما يدعون إليه الناس ، فالكلمة الحية هي التي تؤثر وتهدي ، لأن الناس يرونها ممثلة في شخص مترجمة إلى حياة .

ولو كان الرسل من غير البشر لا يأكلون الطعام ، ولا يمشون في الأسواق ، ولا يعاشرون النساء ولا تعتلج في صدورهم عواطف البشر وانفعالاتهم لما كانت هناك وشيجة بينهم وبين الناس، فلا هم يحسون دوافع البشر التي تحركهم ، ولا البشر يتأسون بهم ويقتدون .

وأيما داعيةٍ لا يحس مشاعر الذين يدعوهم ولا يحسون مشاعره ، فإنه يقف على هامش حياتهم ، لا يتجاوب معهم ولا يتجاوبون معه، ومهما سمعوا من قوله فلن يحركهم للعمل بما يقول، لما بينه وبينهم من قطعية في الحس والشعور .

وأيما داعية لا يصدق فعله قوله، فإن كلماته تقف على أبواب الآذان لا تتعداها إلى القلوب، مهما تكن كلماته بارعة وعباراته بليغة، فالكلمة البسيطة التي يصاحبها الانفعال ويؤيدها العمل، هي الكلمة المثمرة التي تحرك الآخرين للعمل .

- والذين كانوا يقترحون أن يكون الرسول من الملائكة ، كالذين يقترحون اليوم أن يكون الرسول منزهًا عن انفعالات البشر .. كلهم يتعنتون ويغفلون عن هذه الحقيقة، وهي أن الملائكة لا يحيون حياة البشر بحكم تكوينهم ولا يمكن أن

(١) سورة الأنبياء : الآية ٧ .

يحيوها.. لا يمكن أن يحسوا بدوافع الجسد ومقتضياته ، ولا بمشاعر هذا المخلوق الآدمي ذي التكوين الخاص، وأن الرسول يجب أن يحس بهذه الدوافع والمشاعر ، وأن يزاولها في حياته الواقعية ليرسم بحياته دستور الحياة العملي لمتبعيه من الناس.

- وهنالك اعتبار آخر، وهو أن شعور الناس بأن الرسول ملك لا يثير في نفوسهم الرغبة في تقليده في جزئيات حياته ، لأنه من جنس غير جنسهم ، وطبيعة غير طبيعتهم ، فلا مطمع لهم في تقليد منهجه في حياته اليومية ، وحياة الرسل أسوة دافعة لغيرهم من الناس .

وهذا وذلك فوق ما في ذلك الاقتراح من غفلة عن تكريم الله للجنس البشري كله، باختيار الرسل منه ، ليتصلوا بالملأ الأعلى ويتلقوا عنه .

لذلك كله اقتضت سنة الله الجارية اختيار الرسل من البشر، وأجرت عليهم كل ما يجري على البشر من ولادة وموت، ومن عواطف وانفعالات، ومن آلام وآمال، ومن أكل للطعام ومعاشرة للنساء . . وجعلت أكبر الرسل وأكملهم وخاتمهم وصاحب الرسالة الباقية فيهم أكمل نموذج لحياة الإنسان على الأرض، بكل ما فيها من دوافع وتجارب وعمل وحياة "[١].

* وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [٢] يستعرض سيد - رحمه الله - استغراب المشركين من كون الرسول بشرًا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، و يتصرف تصرفات البشر ، كيف يمكن أن يكون فلان ابن فلان ، المعروف لهم ، المألوف في حياتهم ، الذي يأكل ويعيش مثلهم ، كيف يمكن أن يكون رسولاً من عند الله يوحى إليه ؟ وكيف يتصل بالعالم الآخر ويتلقى عنه ؟...

والمسألة من هذا الجانب قد تبدو غريبة مستبعدة، ولكنها من الجانب الآخر تبدو طبيعية مقبولة ، لقد نفخ الله من روحه في هذا الإنسان ، وصار بها إنسانًا ، واستخلف في الأرض ، ومن رحمة الله بهذا الإنسان قاصرِ العلم محدودِ التجربة

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٦٨ - ٢٣٦٩ .
(٢) سورة الفرقان : الآية ٢٠ .

ضعيف الوسيلة أنه لا يدعه دون عون وهدي ، وقد أودعه الاستعداد للاتصال به عن طريق تلك النفخة العلوية التي ميزته ، فلا عجب أن يختار الله واحدًا من هذا الجنس ، صاحب استعداد روحي للتلقي الوحي وهداية إخوانه البشر وهنا يبدو التكريم الإلهي للجنس البشري ، ...

وتبدو الحكمة الإلهية في جعل الرسل بشرا ، ليحس بإحساسهم ، ويتذوق مواجدهم ، ويعاني تجاربهم ، ويدرك آلامهم وآمالهم ، ويعرف نوازعهم وأشواقهم، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم، ومن ثم يعطف على ضعفهم ونقصهم ، ويرجو في قوتهم واستعلائهم ، ويسير بهم خطوة خطوة ، وهو يفهم ويقدر بواعثهم وتأثراتهم واستجاباتهم ،لأنه في النهاية واحد منهم ، يرتاد بهم الطريق إلى الله ، بوحي من الله وعون منه على وعثاء الطريق !.

وهم من جانبهم يجدون فيه القدوة الممكنة التقليد ، لأنه بشر منهم ، يتسامى بهم رويدًا رويدًا ، ويعيش فيهم بالأخلاق والأعمال والتكاليف التي يبلغهم أن الله قد فرضها عليهم ، وأرادها منهم ، فيكون هو بشخصه ترجمة حية للعقيدة التي يحملها إليهم ، وتكون حياته وحركاته وأعماله صفحة معروضة لهم ينقلونها سطرًا سطرًا ، ويحققونها معنى معنى ، وهم يرونها بينهم ، فتهفو نفوسهم إلى تقليدها ، لأنها ممثلة في إنسان ، ولو كان ملكا ما فكروا في عمله ولا حاولوا أن يقلدوه ، لأنهم منذ البدء يشعرون أن طبيعته غير طبيعتهم ، فلا جرم يكون سلوكه غير سلوكهم على غير أمل في محاكاته ، ولا شوق إلى تحقيق صورته !.

فهي حكمة الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا، هي حكمة الله البالغة أن جعل الرسول بشرًا ليؤدي دوره في قيادة البشر ، والاعتراض على بشرية الرسول جهل بهذه الحكمة ، فوق ما فيه من جهل بتكريم الله للإنسان "[1].

" وبهذا تبدو حكمة الله واضحة في الإيحاء إلى رجل منهم ، رجل يعرفهم ويعرفونه ، يطمئنون إليه ويأخذون عنه ، بلا تكلف ولا جفوة ولا تحرج "[2].

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٥٢- ٢٥٥٣ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٣/ ١٧٦٠ .

ثانيًا : أنهم رجال : لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ ﴾[(١)] " لم يكونوا ملائكة، ولا خلقًا آخرًا ، إنما رجال من البشر " [(٢)].

ويعقب سيد - رحمه الله- على الآيات التي جاء فيها ذكر الأنبياء ، وختمت بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[(٣)] بقوله: " وأخيرًا يذكر مريم بمناسبة ذكر ابنها - عليه السلام - ولا يذكر اسمها هنا لأن المقصود في سلسلة الأنبياء هو ابنها - عليه السلام - وقد جاءت هي تبعًا له ، إنما يذكر صفتها المتعلقة بولدها " [(٤)]. وكلامه يدل على أن النبوة في الرجال فقط ، كما صرحت بها الآية السابقة .

ثالثًا : أن كل نبي أو رسول بعث بلسان قومه : قال سبحانه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[(٥)] " وهذه نعمة شاملة للبشر في كل رسالة ، فلكي يتمكن الرسول من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، لم يكن بد من أن يرسل بلغتهم ، ليبين لهم وليفهموا عنه ، فتتم الغاية من الرسالة " [(٦)] .

رابعًا : أنهم يوحى إليهم : وهذه الصفات التي تميز بها الأنبياء عن باقي البشر، وهي أنهم رجال ذو طبيعة خاصة ، آتاها الله الاستعداد اللدني، وجعلها مهيأة لاستقبال الوحي ، ولذلك تطيق تلقيه ويجد الأنبياء في نفوسهم بينة ، يستيقنون معها أن الله هو الذي يوحي إليهم" [(٧)].

أ- معني الوحي: يذكر سيد - رحمه الله- " أن من معاني الوحي : التأثير الداخلي الذي ينتقل به الأثر من كائن إلى كائن أخر " [(٨)].

---

(١) سورة يوسف : الآية ١٠٩ وسورة النحل : الآية ٤٣ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٣٥ ، ٢١٧٢ .
(٣) سورة الأنبياء : الآية ٩١ ، وينظر الآيات التي قبلها ٤٨- ٩٠ .
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٥ .
(٥) سورة إبراهيم : الآية ٤ .
(٦) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٧٨ ، ٢٠٨٧ .
(٧) المصدر السابق ١/ ٢٧٩ بتصرف يسير، ٣/ ١٨٦٤.
(٨) في ظلال القرآن ٣/ ١١٨٩.

ب- واسطة حمل الوحي بين الله ورسله : النزول بالوحي إلى الأنبياء من مهام الملائكة – كما سبق – وقد جعل الله تعالى الواسطة بينه وبين رسله جبريل – عليه السلام – وذكر من صفاته أنه ملك كريم عند ربه ، ذي قوة لأن الوحي يحتاج في حمله إلى قوة ، مكين عند ربه في مقامه ومكانته ، مطاع في الملأ الأعلى ، أمين على ما يحمل وما يبلغ ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [١] وهذه الصفات لجبريل – عليه السلام – في مجموعها توحي بكرامة هذا القول – الوحي- وضخامته، وسموه كذلك وارتفاعه" [٢].

– كما جاء تسميته أيضًا "بروح القدس" يقول سيد : " أما روح القدس فالقرآن يعني به جبريل – عليه السلام – فهو حامل الوحي إلى الرسل، وهو الذي ينقل الإشارة الإلهية إلى الرسل بانتدابهم لهذا الدور الفذ العظيم ، وهو الذي يثبتهم على المضي في الطريق الشاق الطويل، وهو الذي يتنزل عليهم بالسكينة والتثبيت والنصر في مواقع الهول والشدة في ثنايا الطريق " [٣].

" وقد أعلمنا الله – سبحانه- أن الذي يقوم بمهمة إبلاغ الوحي إلى الرسل – عليهم السلام – هو جبريل – عليه السلام- فقال سبحانه :﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾[٤]، وقال سبحانه :﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [٥]، وقد رآه رسول الله – ﷺ – على هيئته الملائكية مرتين اثنتين، بينما رآه في صور شتى في مرات الوحي التالية "[٦].

ج- صور الوحي إلى الرسل : أما صور الوحي إلى الرسل، فقد ذكرها الله تعالى في سورة الشورى بقوله:﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا

---

(١) سورة التكوير :الآيات ١٩-٢١.
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٤٢ بتصرف وينظر أيضًا :
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٢٨٢.
(٤) سورة النحل : الآية ٢.
(٥) سورة البقرة: الآية ٩٧.
(٦) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٤٣.

مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ (١) .

يقول سيد - رحمه الله - : " ويقطع هذا النص بأنه ليس من شأن إنسان أن يكلمه الله مواجهه، وقد روي عن عائشة - رضي الله عنها - :" من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية " (٢).

إنما يتم كلام الله للبشر بواحدة من ثلاث :

١ - ﴿ وَحْيًا ﴾ في النفس مباشرة فتعرف انه من الله .

٢ - ﴿ أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ كما كلم الله موسى - عليه السلام - وحين طلب الرؤية لم يجب إليها، ولم يطق تجلي الله على الجبل ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣).

٣- ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ وهو الملك ﴿ فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ ﴾ بالطرق التي وردت عن رسول الله ﷺ.

الأولى : ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال ﷺ :" إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب " (٤).

والثانية : أنه كان ﷺ يتمثل له الملك رجلًا فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول .

والثالثة : أنه كان يأتيه في مثل صلصله الجرس ، وكان أشده عليه ، حتى أن جبينه ليتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد ، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إن كان راكبها ، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها .

---

(١) سورة الشورى : الآية ٥١-٥٢.

(٢) سبق تخريجه ص ٥٣٤ .

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

(٤) رواه : ابن أبي شيبة ٨/ ١٢٩ وعبد الرزاق في المصنف ١١/ ١٢٥ والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٣٣٩ وصححه الألباني في الصحيحة ٦/ ٨٦٥ برقم ٢٨٦٦

والرابعة : أنه يرى الملك في صورته التي خُلق عليها ، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في سورة النجم ".

ثم ذكر سيد -رحمه الله-: " أن هذه هي صور الوحي وطرق الاتصال، وذكر كلامًا أدبيًا يصور فيه مشاعره كلما وقف أمام آية تذكر الوحي أو حديث، فما تأمل هذا الاتصال إلا وأحس له رجفة في فؤاده "[١].

د- شبهة المنكرين للوحي والرد عليها :

في ظلال قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾[٢] يقول سيد - رحمه الله- : " سؤال استنكاري، يستنكر هذا العجب الذي تلقى به الناس حقيقة الوحي منذ كانت الرسل، لقد كان السؤال الدائم الذي قوبل به كل رسول : ابعث الله بشرًا رسولًا ؟ومبعث هذا السؤال هو عدم إدراك قيمة الإنسان.. فهم يستكثرون على بشر أن يكون رسول الله، وأن يتصل به عن طريق الوحي ، هذه كانت شبهة الكفار المكذبين على عهد الرسول - ﷺ - وشبهة أمثالهم في القرون الأولى .

- أما في هذا العصر الحديث فيقيم بعض الناس من أنفسهم لأنفسهم شبهة أخرى لا تقل تهافتًا عن تلك !

إنهم يسألون : كيف يتم الاتصال بين بشر ذي طبيعة مادية وبين الله المخالف لطبيعة كل شيء مما خلق والذي ليس كمثله شيء ؟.

وهو سؤال لا يحق لأحد أن يسأله إلا أن يكون قد أحاط علمًا بحقيقة الله سبحانه، وطبيعة ذاته الإلهية كما أحاط علمًا بكل خصائص الإنسان التي أودعها الله إياه، وهو ما لا يدعيه أحد يحترم عقله ويعرف حدود هذا العقل، بل يعرف أن خصائص الإنسان القابلة للكشف ما يزال يكشف منها جديد بعد جديد، ولم يقف العلم بعد حتى يقال : إنه أدرك كل الخصائص الإنسانية القابلة للإدراك، فضلًا

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٦٩-٣١٧٠ وقد أشار سيد في الهامش انه نقل ذلك عن زاد المعاد لابن القيم - رحمه الله -.

(٢) سورة يونس: الآية ٢ .

على أنه ستبقى وراء إدراك العلم والعقل دائمًا آفاق من المجهول بعد آفاق.

ففي الإنسان إذن طاقات مجهولة لا يعلمها إلا الله، والله أعلم حيث يجعل رسالته في الإنسان ذي الطاقة التي تحمل هذه الرسالة، وقد تكون هذه الطاقة مجهولة للناس ، ومجهولة لصاحبها نفسه قبل الرسالة، ولكن الله الذي نفخ في هذا الإنسان من روحه عليم بما تنطوي عليه كل خلية ، وكل بنية ، وكل مخلوق ، وقادر على أن يطوع لإنسان هذا الاتصال الخاص بكيفية لا يدركها إلا من ذاقها وأوتيها .

ولقد جهد ناس من المفسرين المحدثين في إثبات الوحي عن طريق العلم للتقريب .

ونحن لا نقر هذا المنهج من أساسه، فللعلم ميدان هو الميدان الذي يملك أدواته، وللعلم أفاق هي الأفاق التي يملك أدوات كشفها ومراقبتها، والعلم لم يدع أنه يعرف شيئا حقيقيًا عن الروح، فهي ليست داخله في نطاق عمله، لأنها ليست شيئا قابلًا للاختبار المادي الذي يملك العلم وسائله، لذلك تجنب العلم الملتزم للأصول العلمية أن يدخل في ميدان الروح .

أما ما يسمى " بالعلوم الروحانية " فهي محاولات وراءها الريب والشكوك في حقيقتها، وفي أهدافها كذلك [1]، ولا سبيل إلى معرفة شيء يقيني في هذا الميدان، إلا ما جاءنا من مصدر يقيني كالقرآن والحديث، وفي الحدود التي جاء فيها بلا زيادة ولا تصرف ولا قياس، إذ أن الزيادة والتصرف والقياس عمليات عقلية، والعقل هنا في غير ميدانه ، وليس معه أدواته، لأنه لم يزود بأدوات العمل في هذا الميدان " [2].

خامسًا : العصمة :

١ - معنى العصمة والحكمة منها :

أ - العصمة في اللغة تعني: المنع والامتناع عن الشيء [3].

---

(١) أشار سيد هنا في الهامش إلى مراجعة الكراسة التي كتبها الدكتور محمد بن محمد حسين بعنوان: الروحية الحديثة حقيقتها وأهدافها .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٥٩-١٧٦٠ بتصرف يسير .

(٣) لسان العرب ٩/ ٢٤٤ .

وعصمة الرسل يقصد بها : أن يكون الرسل والأنبياء معصومين في تحمل الرسالة والتبليغ عن الله، فلا يكتمون شيئا، ولا ينسون شيئًا من الوحي أمروا ببلاغه، وهذا متفق عليه عند الأمة "(١) .

وأما العصمة في غير ما يتعلق بالتبليغ، فيقصد بها حفظ الله لأنبيائه ورسله من الوقوع في الذنوب والمحرمات والنقائص، وتخصيصهم بالكمالات النفسية .

والعصمة ثابتة للأنبياء والرسل دون غيرهم، وهي من صفاتهم التي أكرمهم الله بها وميزهم على سائر البشر (٢) .

ب- الحكمة من ذلك : أن الله -عز وجل- جعلهم قدوه للخلق، وأمر الخلق بإتباعهم والاقتداء بهم، وبالتالي لو وقعوا في المعاصي، لأصبحت المعصية مشروعه، ومن ناحية أخرى لابد عقلًا وشرعًا أن يكونوا معصومين، حتى يكون لهم تأثير في نفوس الناس، فلو كانت حياتهم ملوثة بالمعاصي فلن يكون لكلامهم ودعوتهم أثر "(٣) .

وقد اختلف العلماء في عصمة الأنبياء، هل هي قبل النبوة وبعدها، أم بعد النبوة؟ وهل تكون العصمة عن الكبائر فقط ؟ أم عن الكبائر والصغائر من الذنوب ؟ على أقوال (٤) .

رجح شيخ الإسلام ابن تيميه أن القول بعصمتهم بعد النبوة من الكبائر مما هو متفق عليه، وأما عصمة الأنبياء قبل النبوة فمن مواضع النزاع ، وكذا عصمتهم عن الصغائر، وأجاب عن القائلين بالعصمة المطلقة واحتجاجهم بأننا مأمورون بالتأسي بهم ووقوع الصغائر يقدح في التأسي، بأن التأسي إنما هو فيما اقروا عليه، كما أن النسخ جائز فيما يبلغون من الأمر والنهي، وليس تجويز ذلك مانعًا من وجوب الطاعة، لأن الطاعة تجب فيما لم ينسخ، فعدم النسخ يقرر الحكم، وعدم الإنكار

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية١/ ٢٨٩. والمواقف للإيجي ص٣٥٨.

(٢) ينظر : فتح الباري ٧/ ٢٦ و مجموع فتاوى ابن تيمية١٢٩٠ والنبوة والأنبياء . محمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي ، طبعة عام ١٤٠٠هـ، ص ٥٥-٥٦ .

(٣) النبوة والأنبياء . للصابوني ص٥٣-٥٥ .

(٤) تفسير القرطبي ١/ ٣٠٨ وفتح الباري لابن حجر ٧/ ١٤٤، ٨/ ٦٩، ١١/ ١٠١، ٤٤٠ ومجموع فتاوى ابن تيمية٤/ ٣١٩، ١٠/ ٣٠٩، ٢٩٢، ٢٩٣ والنبوة والأنبياء للصابوني ص٥٣-٥٥.

يقرر الفعل، والأصل عدم كل منهما "[١].

٢- موقف سيد قطب - رحمه الله - من مسالة عصمة الأنبياء :

يقرر سيد- رحمه الله-أن الأنبياء معصومون، وأن الاعتقاد بعصمة النبي أصل من أصول العقيدة[٢] ، وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٣].

يقول سيد : " والله الذي يحفظ دعوته من تكذيب المكذبين ، وتعطيل المعوقين، ومعاجزة المعاجزين، يحفظها كذلك من كيد الشيطان ، ومن محاولته أن ينفذ إليها من خلال أمنيات الرسل النابعة من طبيعتهم البشرية، وهم معصومون من الشيطان ولكنهم بشر تمتد نفوسهم إلى أمانيّ تتعلق بسرعة نشر دعوتهم وانتصارها وإزالة العقبات من طريقها ...

ثم ذكر روايات لقصة الغرانيق، وفيها أن قريش كانت تتمنى أن يذكر الرسول -ﷺ - آلهتها بخير، وكان رسول الله- ﷺ - قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذى وتكذيب ، وأحزنه ضلالهم ، فكان يتمنى هداهم، فلما أنزل الله في سورة النجم قوله: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ ألقى الشيطان عندها كلمات فقال : وأنهن لهن الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى، وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك.. فلما بلغ رسول الله - ﷺ - آخر النجم سجد ، وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك ...وانتشر خبر سجود المشركين حتى بلغ الحبشة وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا، فرجع المهاجرون من الحبشة بعدها ..وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم آياته وأنزل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ وساق كلام ابن كثير - رحمه الله- حول القصة ، وكيف وقع مثل

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية٤/ ٣١٩، ٣٢٠، ١٠/ ٢٩٣، ١٥/ ١٤٨-١٥٠ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٣١ -٢٤٣٢ .
(٣) سورة الحج : الآية ٥٢ .

هذا مع العصمة المضمونة من الله – سبحانه – لرسوله – ﷺ – وحكى أجوبة عن الناس من ألطفها أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك فتوهموا أنه صدر عن الرسول ﷺ ، وليس كذلك في الواقع .

ثم عقب سيد – رحمه الله– على ما أورده ابن كثير –رحمه الله – بقوله: " هذه خلاصة تلك الروايات في هذا الحديث الذي عرف بحديث الغرانيق، وهو من ناحية السند واهي الأصل، قال علماء الحديث: إنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه بسند سليم متصل يجوز ذكره ، وهو من ناحية موضوعه يصادم أصلًا من أصول العقيدة وهو عصمة النبي ﷺ من أن يدس عليه الشيطان شيئًا في تبليغ رسالته .

وقد أولع المستشرقون والطاعنون في هذا الدين بذلك الحديث ، وأذاعوا به ، وأثاروا حوله عجاجة[1] من القول، والأمر في هذا كله لا يثبت للمناقشة ، بل لا يصح أن يكون موضوعًا للمناقشة .

– وهناك من النص ذاته ما يستبعد معه أن يكون سبب نزول الآية شيئًا كهذا ، فالنص يقرر أن هذه القاعدة في الرسالات كلها مع الرسل كلهم : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ ، فلا بد أن يكون المقصود أمرًا عامًا يستند إلى صفة في الفطرة مشتركة بين الرسل جميعًا ، بوصفهم من البشر، مما لا يخالف العصمة المقررة للرسل .

وحاول سيد – رحمه الله– بيان ذلك بأن الرسل عندما كلفوا بحمل الدعوة ، يكون أحب شيء إلى نفوسهم أن يتبع الناس الدعوة ويدركوا الخير ، ولكن لكثرة العقبات في الطريق ، ولمحدودية عمر الرسل يتمنون لو يجذبون الناس بأسرع طريق ، ولو من خلال السكوت المؤقت على بعض عادات وموروثات الناس حتى يدخلوا في الدين ثم بعد ذلك تتم تربيتهم الصحيحة .

– وهذه الرغبات البشرية المتعلقة بنشر الدعوة في حين أن الله يريد أن تمضى

(١) العجاجة : الغبار والدخان ، انظر لسان العرب ٩/ ٥٤ .

الدعوة على أصولها الكاملة ، وفق موازينها ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولو خسرت الأشخاص في أول الطريق .

- والشيطان يجد في رغبات الرسل البشرية تلك فرصة للكيد للدعوة ، وتحويلها عن خطها ، ولكن الله يحول دون كيد الشيطان ، ويصحح ما وقع من خطأ في اجتهادات الرسل ... وفي حياة النبي ﷺ أمثلة من هذا ، تغنينا عن تأويل الكلام ومن ذلك :

- قصة ابن أم مكتوم رضي الله عنه [1] الأعمى الفقير الذي جاء إلى الرسول ﷺ يطلب منه أن يعلمه وهو - ﷺ - مشغول ببعض صناديد قريش، والأعمى لا يعلم ذلك، حتى كره - ﷺ - إلحاحه فعبس في وجهه وأعرض عنه، فأنزل الله قرآنًا يعاتب فيه الرسول - ﷺ -عتابًا شديدًا ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ [2] وبهذا صحح القرآن الكريم تصرف رسول الله - ﷺ - وأبطل كيد الشيطان من الدخول إلى العقيدة من هذه الثغرة

- وكذلك ما جاء في الصحيح " من أنه كان مع النبي - ﷺ - ستة نفر من الصحابة ، فجاءه المشركون فقالوا : أطرد هؤلاء لا يجترئون علينا ، فوقع في نفس رسول الله - ﷺ - ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[3]، وهكذا رد الله كيد الشيطان من أن يدخل من ثغرة الرغبة البشرية في استمالة كبراء قريش بطرد الفقراء من مجلس الرسول - ﷺ - .

- ومنها كذلك قصة زواج النبي- ﷺ - بزينب بنت جحش- رضي الله عنها -[4]، حيث خشي النبي - ﷺ - من زواجها حتى لا يقال تزوج مطلقة متبناه ، فنزل القرآن

(١) هو : عبد الله بن قيس بن زائدة القرشي ، كان ضريرًا مؤذنًا للرسول - ﷺ - هاجر بعد بدر واستخلفه الرسول - ﷺ - على المدينة مرتين ، مات بعد القادسية في المدينة ، انظر سير أعلام النبلاء ١/ ٣٦٠ .

(٢) سورة عبس : الآيات ١- ١٠ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٥٢ .

(٤) هي : زينب بنت جحش بن رئاب ، ابنة عمته ﷺ ، من المهاجرات الأوائل ، زوجها الله تعالى لنبيه ﷺ بنص كتابه بلا ولي ولا شاهد بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة ، كانت من سادة النساء دينًا وورعًا وجودًا ومعروفًا ، انظر : سير أعلام النبلاء ٢/ ٢١١-٢١٨

الكريم يكشف ما في خاطر رسول الله -ﷺ- ويقرر الحق وصدقت عائشة رضي عنها وهي تقول: " لو كتم محمد -ﷺ- شيئًا مما أوحي إليه من كتاب الله تعالى لكتم ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾[1]، وهذا هو ما نطمئن إليه في تفسير تلك الآيات ...

وإذا كان الله قد عصم أنبياءه ورسله فلم يكن للشيطان أن ينفذ من خلال رغباتهم الفطرية إلى دعوتهم، فغير المعصومين في حاجة إلى الحذر الشديد من هذه الناحية خيفة أن يدخل عليهم الشيطان من ثغرة " مصلحة الدعوة " وهي أمر يجب أن يرتفع من قاموس الدعوات باعتبارها مزلة ومدخل للشيطان،.. وقد تتحول إلى صنم يتعبده أصحاب الدعوة، وينسون معه منهج الدعوة الأصيل "[2].

- وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾[3].

يقول سيد - رحمه الله - : " وقد حاول المشركون في صور شتى، منها مساومتهم أن يعبدوا إلهه في مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وآبائهم، ومنها أن يجعل أرضهم كلها حرامًا كالبيت العتيق، ومنها طلب بعض كبرائهم مجلسًا غير مجلس الفقراء.

والنص يشير إلى هذه المحاولات دون تفصيل، ليذكر فضل الله على الرسول-ﷺ- في تثبيته على الحق، وعصمته من الفتنة، ولو تخلى عنه تثبيت الله وعصمته لركن إليهم فاتخذوه خليلاً، ويلقى عاقبة الركون إلى فتنة المشركين ..

وهذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله، هي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائمًا لإغرائهم لينحرفوا ولو قليلًا عن استقامة الدعوة وصلابتها، ويرضوا بالحلول الوسط مقابل مغانم كثيرة، ومن حملة الدعوة من

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٧ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٣١- ٢٤٣٦ بتصرف .
(٣) سورة الإسراء: الآية ٧٣ - ٧٤ .

يفتن بهذا عن دعوته .. "[١]

وعمومًا فسيد - رحمه الله - يرى أن الأنبياء معصومون فيما يتعلق بالبلاغ والدعوة والوحي كما سبق في تعليقه على قصة الغرانيق ، وأنه قد يصدر منهم خطأ بناء على طبيعة البشرية في اجتهاداتهم في قضايا الدعوة التي لم ينزل فيها وحي فيأتي الوحي فيصحح الخطأ ويقيم الميزان الحق ، ومن ذلك ما ذكره سيد - رحمه الله- حول قصة ابن أم مكتوم ، ومساومة المشركين للنبي - ﷺ - في طرد بعض فقراء المسلمين من المجلس ليجلسوا معه هم ، وكذلك ما أشار إليه في مواطن أخرى مثل عتاب الله لرسوله - ﷺ - في قضية أسرى بدر[٢] وإذنه للمنافقين في التخلف عن غزوة تبوك[٣] وغيرها .

٣- شبهات حول عصمة الأنبياء وموقف سيد قطب منها :

جاء في القرآن الكريم ما يشير إلى وقوع بعض المخالفات من بعض الأنبياء والرسل - عليهم السلام - فكيف يتفق ذلك مع القول بعصمتهم ؟ .

والجواب : أن العصمة ثابتة للأنبياء كما دلت على ذلك النصوص الشرعية ، وكما يقضي بذلك العقل السليم ، أما ما وقع من بعضهم من أمور ظاهرها أنها مخالفات ومعاصي فهي محمولة على بعض الوجوه الآتية :

١- إما أنها ليست معصية ، وإنما هي فعل خلاف الأولى .

٢- أو أنها خطأ في الاجتهاد .

٣- أو أنها كانت قبل النبوة على فرض أنها معصية .[٤]

وقد ذكر البعض أمثلة لذلك يمكن استعراضها مع بيان موقف سيد - رحمه الله- منها :

١- **عصمة آدم** - عليه السلام - **:** ترد في مسالة عصمة آدم - عليه السلام - قضيتان :

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٤٥ .

(٢) ينظر في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥٠ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٦٦٢ .

(٤) النبوة والأنبياء للصابوني : ص٦١.

الأولى : أكله من الشجرة وعصيان أمر الله : قال تعالى: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [١]، والمفسرون على أن هذه المعصية كانت قبل نبوته – عليه السلام – أو أنه أكل ناسيًا بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [٢]، ومادام الأمر وقع بدافع النسيان فإنه لا يؤاخذ عليها، ما لم تكن تعمدًا [٣].

وهو ما يقرره سيد– رحمه الله – حيث يرى أن المخالفة كانت من آدم قبل أن يعهد إليه بالخلافة في الأرض، وكانت منه نسيانا وليس تعمدًا [٤] .

الثانية : نسبة الشرك إلى آدم وحواء – عليهما السلام - :

أورد بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ۚ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٥] روايات تنسب الشرك إلى آدم وحواء -عليهما السلام- من خلال طاعتهما للشيطان في تسمية ولدهما بعبد الحارث حتى يعيش، نظرًا لأنه كان لا يعيش لهما ولد .

ويرى سيد– رحمه الله – " أن ظاهر ما في هذه الروايات طابع إسرائيلي، ولا حاجة بنا إلى هذه الإسرائيليات، فالنص إنما يصور مدارج الانحراف في النفس البشرية، والمثل هنا مضروب للفطرة"[٦] .

- عصمة إبراهيم – عليه السلام - :

مما يرد في قضية عصمة إبراهيم – عليه السلام – مسائل :

الأولى : نسبة الشرك إليه ، أورد بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا

(١) سورة طه : الآية ١٢١.
(٢) سورة طه: الآية ١١٥.
(٣) ينظر أحكام القرآن لابن العربي : ص١٢٤٩، وتفسير القرطبي١/ ٣٠٦٩، وتفسير المنار١/ ٣٨٠٠.
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٥٣ بتصرف .
(٥) سورة الأعراف : الآية ١٩٠.
(٦) في ظلال القرآن ٣/ ١٤١١ – ١٤١٢ .ويراجع ما سبق عن نشأة الشرك .

جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1]، روايات وآثارًا في أن إبراهيم - عليه السلام - اعتقد في طفولته أو بعد بلوغه أن الكواكب هي إلهه [2].

وجمهور المفسرين على أن القصة جاءت في سياق استدراج إبراهيم - عليه السلام - لقومه، ومناظرتهم والتنزل معهم لإبطال شركهم بالله، وفساد عقيدتهم فيها .[3]

أما سيد - رحمه الله- فيرى أن القصة الواردة في الآيات ترسم مشهدا للفطرة السليمة، وهي تبحث عن إلهها الحق، الذي تجده في أعماقها، بينما هي تصطدم في الخارج بانحرافات الجاهلية وتصوراتها، فالآيات تصور فطرة إبراهيم- عليه السلام - وهي تنكر تصورات الجاهلية في الأصنام وتستنكرها، وتنطلق بعد أن نفضت عنها الخرافة تبحث عن إلهها الحق الذي تجده في ضميرها... وتختبر ما أمامها فتجده زائفًا لا يطابق لما هو مكنون من حقيقة الإله وصفته، فهي تصور رحلة طويلة من نقطة الإيمان الفطري إلى نقطة الإيمان الواعي، الذي يقوم عليه التكليف بالفرائض والشرائع... وبعد اختبار ألوهية الكواكب وبطلانها بمنطق الفطرة، يجد إبراهيم إلهه الحق في قلبه وفطرته، وعندئذ تكون المفاصلة الحاسمة للآلهة الزائفة، وللمشركين بها " [4] .

الثانية : الشك في قدرة الله . أخبر الله تعالى أن إبراهيم - عليه السلام - سأل ربه أن يريه كيف يحي الموتى بقوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[5] حيث قد يفهم منه أن إبراهيم - عليه السلام -

(١) سورة الأنعام : الآيات ٧٦-٧٩.

(٢) تفسير الطبري :٥/ ٢٤٤-٢٤٦ .

(٣) ينظر في ذلك : تفسير ابن كثير ٣/ ١٣٢٦ والكشاف للزمخشري ٢/ ٤٠ واحتكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٣٢ . وأضواء البيان للشنقيطي ١/ ٣٦٣ .

(٤) ينظر: في ظلال القرآن ٢/ ١١٣٧ - ١١٤١ بتصرف .

(٥) سورة البقرة : الآية ٢٦٠ .

كان شاك في قدرة الله على إحياء الموتى ، وهذا الفهم غير سليم ، فإبراهيم - عليه السلام - إنما كان مستفهما عن الكيفية ، وليس عن الماهية ، فلم يقل : هل تقدر يا رب على أن تحيي الموتى ؟ "(١) .

- أما سيد قطب- رحمه الله- فيقول في ظلال هذه الآية : " إنه التشوف إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية، وحين يجيء هذا التشوف من إبراهيم الأواه الحليم ، المؤمن الراضي الخاشع العابد القريب الخليل ، حين يجيء هذا التشوف من إبراهيم فإنه يكشف عما يختلج أحيانًا من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية في قلوب أقرب المقربين !.

إنه تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره ، وليس طلبًا للبرهان أو تقوية الإيمان، إنما هو أمر آخر له مذاق آخر إنه الشوق الروحي، إلى ملابسة السر الإلهي في أثناء وقوعه العملي .

ومذاق هذه التجربة في الكيان البشري مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب ولو كان هو إيمان إبراهيم الخليل ، الذي يقول لربه ، ويقول له ربه ، وليس وراء هذا إيمان ولا برهان للإيمان ، ولكنه أراد أن يرى يد القدرة وهي تعمل ، ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها ، ويتنفس في جوها ، ويعيش معها، وهي أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان ....

وقد استجاب الله لهذا الشوق والتطلع في قلب إبراهيم ، ومنحه التجربة الذاتية المباشرة ،... لقد أمره أن يختار أربعة من الطير، ويقربهن إليه ، حتى يتأكد من مميزاتهن وأن يذبحهن ويفرق أجزاءهن على الجبال المحيطة ، ثم يدعوهن فتتجمع الأجزاء مرة أخرى ، وترتد إليها الحياة ، ويعدن إليه ساعيات .

رأى إبراهيم هذا السر يقع بين يديه.. وهو سر يعلو على التكوين البشري إدراكه، فهو قد يراه ،ويصدق به كما فعل إبراهيم ، لكنه لا يدرك طبيعته ولا يعرف طريقته" (٢).

---

(١) الكشاف للرازي ١/ ٣٠٨ .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٠١- ٣٠٢ بتصرف .

٣- عصمة يوسف -عليه السلام- :

في قصة يوسف -عليه السلام- صورة مشرقة عن النزاهة والبراءة و العصمة ، مع وجود الإغواء والإغراء والكيد ، ومع ذلك فقد جاء في بعض التفاسير روايات إسرائيلية حول قصة يوسف -عليه السلام- مع امرأة العزيز " حيث أورد بعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾[1].

يقول سيد : " لقد حصر جميع المفسرين القدامى والمحدثين نظرهم في تلك الواقعة الأخيرة ، فأما الذين ساروا وراء الإسرائيليات فقد رووا أساطير كثيرة يصورون فيها يوسف هائج الغريزة مندفعًا شبقًا ، والله يدافعه بالبراهين الكثيرة فلا يندفع ! صورت له هيئة أبيه يعقوب في سقف المخدع عاضًا على أصبعه بفمه ! وصورت له لوحات كتبت عليها آيات من القرآن - أي نعم من القرآن !!- تنهى عن مثل هذا المنكر، وهو لا يرعوي ! حتى أرسل الله- جبريل- يقول له : أدرك عبدي ، فجاء فضربه في صدره .. إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التي سار وراءها بعض الرواة وهي واضحة التلفيق والاختراع ! " .

- أما جمهور المفسرين فسار على أنها همت به هم الفعل ، وهم بها هم النفس ، ثم تجلى له برهان ربه فترك، وأنكر المرحوم الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار على الجمهور هذا الرأي، وقال : إنها إنها همت بضربه نتيجة إبائه وإهانته لها وهي السيدة الآمرة ، وهم هو برد الاعتداء ، ولكنه آثر الهرب ، وتفسير الهم بأنه هم الضرب ورد الضرب مسألة لا دليل عليها في العبارة ، فهي مجرد رأي لمحاولة البعد بيوسف عن هم الفعل أو هم الميل إليه في تلك الواقعة، وفيه تكلف وإبعاد عن مدلول النص .

أما الذي خطر لي وأنا أراجع النصوص هنا ، وأراجع الظروف التي عاش فيها يوسف - عليه السلام - ، في داخل القصر مع هذه المرأة الناضجة فترة من الزمن طويلة ، وقبل أن يؤتى الحكم والعلم وبعد ما أوتيهما . .

الذي خطر لي أن قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ

---

(١) سورة يوسف : الآية ٢٤ .

رَبِّهِۦ ﴾ هو نهاية موقف طويل من الإغراء ، بعدما أبى يوسف في أول الأمر واستعصم.. وهو تصوير واقعي صادق لحالة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضعف ، ثم الاعتصام بالله في النهاية والنجاة..ولكن السياق القرآني لم يفصل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة... بل ذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته ، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما ، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعًا .

هذا ما خطر لنا ونحن نواجه النصوص، ونتصور الظروف، وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية، وما كان يوسف سوى بشر، نعم إنه بشر مختار، ومن ثم لم يتجاوز همه الميل النفسي في لحظة من اللحظات، فلما أن رأى برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه ، بعد لحظة الضعف الطارئة ، عاد إلى الاعتصام والتأبي " [(١)].

وقد أيد سيد – رحمه الله– كلامه هذا بما ذكره الزمخشري [(٢)] في الكشاف : " فإن قلت : كيف جاز على نبيّ الله أن يكون منه همٌّ بالمعصية وقصدٌ إليها ؟ قلت المراد أنّ نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ، ميلًا يشبه الهم به والقصد إليه ، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم، وهو يكسر ما به ويردّه بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم ، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همًا لشدّته لما كان صاحبه ممدوحًا عند الله بالامتناع ، لأن استعظام الصبر على الابتلاء ، على حسب عظم الابتلاء وشدته . انتهى .. " [(٣)] ، ثم قال سيد – رحمه الله– معلقًا على النص :"وهو تعليل صحيح في جملته بغض النظر عن الإشارة الاعتزالية في قول الزمخشري : "ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم"فهو إشارة منه إلى مذهب المعتزلة في أن البرهان عقلي ، والبرهان الذي أخذه الله على

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٨١ – ١٩٨٢ بتصرف يسير .

(٢) هو : محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري ، أبو القاسم ، ولد بزمخشرى من خوارزم سنة ٤٦٧هـ كان محدثًا ومتكلمًا ومفسرًا معتزلي العقيدة له عدة مؤلفات توفى سنة ٥٣٨هـ ، انظر : سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٥١ ، شذرات الذهب ٤/ ١٠٨ .

(٣) ينظر : الكشاف للزمخشري دار إحياء التراث العربي بيروت ط١ عام ١٤١٧هـ ٢/ ٤٣٠ .

المكلفين هو ما قرره في شريعته ، ولكن هذا خلافٌ مذهبي تاريخي لا شأن لنا به ، فهو بجملته غريب على التصور الإسلامي " (١)

هذه نماذج خاصة بعصمة الأنبياء مما ورد في القرآن الكريم .

أما ما ينسب إلى بعض الأنبياء -عليهم السلام - زورًا وكذبًا وافتراءً من أهل الكتاب في كتبهم المحرفة ، فقد أشار سيد - رحمه الله- إلى ذلك " كما سبق في تصحيح القرآن الكريم لأهل الكتاب صورة الأنبياء التي شوهت في كتبهم المحرفة ".

سادسًا : الصدق والأمانة في التبليغ :

من صفات الأنبياء - عليهم السلام- الصدق والأمانة في التبليغ ، وهذه الصفات ملازمة للنبوة ، بل هي من الصفات الفطرية فيهم ، يقول سيد - رحمه الله- في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ (٢) : " وهذا تهديد رعيب ، لمن يفتري على الله في شأن العقيدة وهي الجد الذي لا هوادة فيه، يجيء لتقرير الاحتمال الواحد الذي لا احتمال غيره ، وهو صدق الرسول - ﷺ -وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه، بشهادة أن الله لم يأخذه أخذًا شديدًا، كما هو الشأن لو انحرف أقل انحراف عن أمانة التبليغ ...ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية أن محمدًا - ﷺ - صادق فيما أبلغهم به، وأنه لو تقول بعض الأقاويل التي لم يوح بها إليه ، لأخذه الله فقتله على هذا النحو الذي وصفته الآيات، ولما كان هذا لم يقع فهو لا بد صادق " (٣).

وقد أورد سيد - رحمه الله - روايات عن إقرار المشركين بصدق النبي ﷺ قبل بعثته وبعدها ، مع أنهم لم يؤمنوا به ، من ذلك قول النضر بن الحارث لقريش : " يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثًا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٨٢ هامش رقم ١ .
(٢) سورة الحاقة : ٤٤ -٤٦ .
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٨٩ .

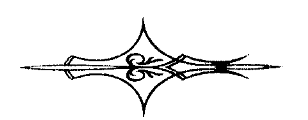
في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر ! لا والله ، ما هو بساحر... لا والله ما هو بكاهن ... لا والله ما هو بشاعر ... وما هو بمجنون ... فانظروا في شأنكم ، فإنه قد نزل بكم أمر عظيم " [١].

وأيضًا حديث :أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل فنادى : " يا صباحاه " فاجتمعت إليه قريش ، فقال : " أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ؟ أكنتم مصدقي؟ قالوا : نعم . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " . فقال أبو لهب . ألهذا جمعتنا ؟ تبًا لك، فأنزل الله: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[٢] " [٣].

فالمشركون كانوا يعرفون الرسول ﷺ في عمره الطويل معهم، لكنهم لما جاءهم بالحق قالوا فيه ما قالوا، وهو صاحبهم الذي لا يجهلون، وهو الأمين على الغيب الذي يحدثهم عنه عن يقين، لقد كانوا يعرفون رجاحة عقله ، وصدقه وأمانته وتثبته ، فراحوا يعللون ما جاءهم به أنه سحر وكهانة وجنون وشعر.. وتركوا التعليل الوحيد الصادق : وهو أنه وحي وتنزيل من الله، وأن محمدًا ﷺ مؤتمن على الغيب، لا تظن به الظنون فيما يقول فما عرفوا عنه إلا الصدق واليقين " [٤] .

" وهذه هي صفات الرسل جميعًا، فالبلاغ الكامل لما أنزل الله هو مقتضى العصمة "[٥].

" وكل رسول جاء إلى قوم قال لهم : ﴿ وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ في مودة الناصح وصدق الأمين " [٦] .



(١) المصدر السابق ٦/ ٣٦٨٨ .
(٢) سورة المسد : الآية ١ .
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٩٩ .
(٤) المصدر السابق ٦/ ٣٨٤٢ - ٣٨٤٣ بصرف .
(٥) المصدر السابق ٢/ ٩٣٨ .
(٦) المصدر السابق ٣/ ١٣٠٥ ، ١٣١١ بتصرف .

المطلب الرابع

وظائف الرسل

للرسل - صلوات الله وسلامة عليهم- وظائف جليلة ، ومهمات جسيمة في حياة البشرية ، يقول سيد - رحمه الله - : " إن مصائر البشرية كلها في الدنيا وفي الآخرة سواء ، منوطة بالرسل وبأتباعهم من بعدهم ، فعلى أساس تبليغهم هذا الأمر للبشر ، تقوم سعادة البشر أو شقوتهم ، ويترتب ثوابهم أو عقابهم في الدنيا والآخرة ، ...ومن ثم كان الرسل - صلوات الله عليهم - يحسون بجسامة ما يكلفون، وكان الله - سبحانه - يبصرهم بحقيقة العبء الذي ينوطه بهم ، ... إنه الأمر الهائل العظيم، أمر رقاب الناس، أمر حياتهم ومماتهم، أمر سعادتهم وشقائهم، أمر ثوابهم وعقابهم، أمر هذه البشرية سعادة وشقاء "[(١)] .

وقد أشار سيد - رحمه الله- إلى عدد من وظائف ومهام الرسل -عليهم السلام- في مواطن متفرقة يمكن إجمالها في الآتي :

أولا :تعريف العباد بربهم-سبحانه -ودعوتهم إلى توحيده وعبادته:

وهذه هي المهمة الكبرى الذي بعث الله من أجلها الرسل الكرام ، والمتمثلة بتعريف الخلق بالخالق - جل وعلا - وتخصيص العبادة له دون سواه قال -سبحانه- : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[(٢)]، وقال أيضا : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[(٣)].

يقول سيد -رحمه الله-:" إن الدعوة الإسلامية - على يد محمد رسول الله - ﷺ - إنما تمثل الحلقة الأخيرة في سلسلة الدعوة الطويلة إلى الإسلام بقيادة موكب الرسل

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٠٩ بتصرف يسير .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٢٥ .

(٣) سورة النحل : الآية ٣٦ .

الكرام، وهذه الدعوة على مدار التاريخ البشري كانت تستهدف أمرًا واحدًا :هو تعريف الناس بإلههم الواحد وربهم الحق ،وتعبيدهم لربهم وحده ونبذ ربوبية الخلق.

هذه طبيعة الدعوة إلى الله على مدار التاريخ البشري، إنها تستهدف" الإسلام " إسلام العباد لرب العباد وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، بإخراجهم من سلطان العباد وحاكميتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم ، إلى سلطان الله وحاكميته وشريعته وحده في كل شأن من شؤون الحياة"[١].

ويقرر سيد - رحمه الله- في مواطن كثيرة: " أن الإنسان أُهبط إلى الأرض مؤمنًا بربه ، مهتديًا تائبًا موحدًا ، وأنه تتقاذفه الأمواج بين الحين الآخر فيضل ويشرك ، وبالتالي فمن رحمة الله به أن أرسل إليه الرسل لإنقاذه وهدايته " ،" لقد جاءت الرسل - رسولًا بعد رسول - بالتوحيد الخالص وبربوبية رب العالمين : جاء كل رسول إلى قومه بعد انحرافهم عن التوحيد الذي تركهم عليه رسولهم السابق ليدعوهم إلى توحيد الله بقوله : ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ " فالتركيز في كل رسالة كان على أمر واحد : هو تعبيد الناس كلهم لربهم وحده - رب العالمين - باعتبارها القاعدة الأساسية المشتركة في الرسالات جميعًا " ، "والقران يقرر أن جميع الرسل - عليهم السلام - جاءوا بالتوحيد المطلق الخالص ، الذي لا ظل فيه للشرك ، في صورة من صوره " ،" وكلهم دعا إلى عبادة الله الواحد سبحانه وتعالى"، " ولقد كان هذا الجهد الموصول المكرر مع كل رسالة ومع كل رسول ، وكان الإصرار من الرسل صلوات الله عليهم على كلمة التوحيد بلا هوادة ، على اعتبار أن وظيفتهم الأساسية في الحياة هي إقرار وإقامة هذه الحقيقة في البشرية "[٢].

ثانيًا: تبليغ أوامر الله ونواهيه للعباد وإقامة الحياة على وفق منهج الله:

جعل الله سبحانه وتعالى من وظائف الرسل : تبليغ أوامره ونواهيه للبشر، وقد قام الرسل جميعا بهذه المهمة كما قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥٥ .

(٢) ينظر في ذلك : في ظلال القرآن ١/ ٢٧٩ ، ٢/ *١١١٠، ١١٣٧، ١١٤٧ ، ١٣٥، ١٣٠٤، ١٣٠٦ ، ١٥٥٥ ، ٤/ ١٨٥٣ ، ٢١٠٠ ، ٢١٧١ ، ٢٣٩٧ ، ٥/ ٣٠١١ .

وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾[(١)] وجعل علامة الرسول تبليغ الرسالة، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[(٢)] .

يقول سيد : " فوظيفة الرسول التلقي من الله، وأداء الرسالة المتمثلة في تبليغ ما يأتيه من ربه " [(٣)] " ومن ثم كان هنالك مصدر واحد يتلقى منه البشر التصور الصادق الكامل الشامل، لحقيقة الوجود كله، ولحقيقة الوجود الإنساني ، ولغاية الوجود كله، وغاية الوجود الإنساني ، ومن هذا التصور ينبثق المنهج الوحيد الصحيح القويم ، ..وهي أمور لا يمكن للعقول أو التجارب البشرية أن تصل إلى الحق فيها، .. فالذي يضع خطه الرحلة للطريق كله، هو الذي يدرك الطريق كله، والإنسان محجوب عن رؤية هذا الطريق، فأنى له أن يضع الخطة لقطع الطريق المجهول؟ إنه إما الخبط والضلال والشرود، وإما منهج الرسالات والرسل المستمد من خالق الوجود " [(٤)] .

ويقرر- سيد - أنه: " ليست وظيفة الرسل مجرد البلاغ، بل البلاغ هو قاعدة عمل الرسول والدعاة من بعده، وهذا البلاغ أول مراتب الجهاد، فمتى صح تبليغ حقائق الدين فلابد أن الجاهلية ستواجه الداعية إلى الله ، ومن ثم تجيء مرحلة الجهاد نتيجة طبيعة للتبليغ الصحيح لا محالة " [(٥)]. فلا بد من بلاغ ، ولا بد من أداء، بلاغ بالبيان، وبلاغ بالعمل حتى يكون المبلغون ترجمة حية واقعة مما يبلغون، وبلاغ بإزالة العقبات التي تعترض طريق الدعوة، وتفتن الناس بالباطل وبالقوة وإلا فلا بلاغ ...

فأما رسل الله -عليهم السلام- فقد أدوا الأمانة، وبلغوا الرسالة، ومضوا إلى ربهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل، وهم لم يبلغوها دعوة باللسان، ولكن بلغوها

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٩.
(٢) سورة المائدة: الآية:٦٧.
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٧١٩، ١٠٩٥، ٣/ ١٤٢٠ بتصرف وينظر أيضًا :٤/ ١٨٥٣، ٢٠٧٨ ٥/ ٢٩٦١، ٣١٧٢ .
(٤) المصدر السابق ١/ ٢٨١ بتصرف .
(٥) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٧١ .بتصرف يسير .

- مع هذا- قدوة ممثلة في العمل، وجهادًا مضيئا بالليل والنهار ، لإزالة العقبات والعوائق، سواء كانت هذه العقبات والعوائق شبهات تحاك وضلالات تزين ، أو كانت قوى طاغية تصد الناس عن الدعوة وتفتنهم في الدين، كما صنع رسول الله ﷺ خاتم النبيين، بما أنه المبلغ الأخير، وبما أن رسالته هي خاتمة الرسالات، فلم يكتف بإزالة العوائق باللسان، إنما أزالها كذلك بالسنان ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾[(١)]، وبقي الواجب الثقيل على من بعده، على المؤمنين برسالته في التبليغ، ولا فكاك لهم من التبعة الثقيلة - تبعة إقامة حجة الله على الناس ، وتبعة استنقاذ الناس من عذاب الآخرة وشقوة الدنيا - إلا بالتبليغ والأداء، على ذات المنهج الذي بلغ به رسول الله ﷺ وأدى، فالرسالة هي الرسالة، والناس هم الناس، والضلالات والأهواء، والشبهات والشهوات ،وقوى الطغيان والعقبات، هي هي "[(٢)].

ويقول أيضا في بيان أن مهمة الرسل إقامة منهج الله في حياة البشر : " وصورة الإسلام الواضحة الكاملة الدقيقة الشاملة - كما جاء به رسل الله جميعا - من ناحية أصول العقيدة تحتوي الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، وتوحيد الله وعدم الشرك به أصلًا، ومعرفة الله سبحانه وتعالى بصفاته .. والحكم بعدم وجود حقيقة ولا سلطان لغيره أصلًا، ومن ثم نفي الأرباب التي تتحكم في رقاب العباد، وإعلان السلطان والحكم لله وحده "[(٣)]، " فلا يتبعون إلا شرعه ونهجه، ولا يطيعون إلا أمره ونهيه"[(٤)].

ثالثًا : هداية البشر إلى الطريق المستقيم وتزكيتهم وتطهيرهم وتربيتهم وتعليمهم :

من وظائف الرسل الجليلة، هداية الناس إلى الطريق المستقيم ، يقول سيد : "فقد بعث الله الرسل للأقوام للهداية :﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[(٥)] "[(٦)]،

(١) سورة الأنفال : الآية :٣٩ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٠٩ بتصرف .
(٣) المصدر السابق ٤/ ١٩٦٠.
(٤) المصدر السابق ٤/ ١٨٦٦.
(٥) سورة الرعد : الآية :١٧ .
(٦) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٤٨.

"ولقد مضت الرسالات واحدة إثر واحدة تأخذ بيد البشرية وتمضي بها صعدًا في الطريق على هدى وعلى نور"(١).

" وآية أن ما يتم بالرسالة - عن طريق العقل نفسه - لا يمكن أن يتم بغيرها، فلا يغني العقل البشري عن الرسل، وتاريخ البشرية لم يسجل أن عقلًا مهما كبر قد اهتدى إلى مثل ما اهتدت إليه العقول بالرسالة ، لا في تصور اعتقادي، ولا في خلق نفسي ، ولا في نظام حياة ، ولا في تشريع واحد لهذا النظام"(٢). " فينابيع الهدى في الأرض، تتمثل في ما جاءت به الرسل"، " ولذلك لم يكل الله الناس إلى عقولهم وفطرتهم وحدها لأنها قد تضل وتفسد ، إنما يكلهم إلى وحيه ورسله وهداه وكتبه ، ليرد فطرتهم إلى استقامتها وصفائها ، ويرد عقولهم إلى صحتها وسلامتها ، وليجلو عنهم غاشية التضليل من داخل أنفسهم ومن خارجها"(٣).

" إن إرسال الرسل يوحي بعظمة التفضل الإلهي على الناس، فمن مهمات الرسول- ﷺ - أن يطهر أرواحهم من لوثة الشرك ودنس الجاهلية ، ورجس التصورات التي تثقل الروح الإنساني وتطمره، ويطهرهم من لوثة الشهوات والنزوات فلا ترتكس أرواحهم في الحمأة، ويطهر المجتمع والحياة من الربا والسحت والغش والسلب والنهب، وكلها دنس يلوث الأرواح والمشاعر، ويلطخ المجتمع والحياة ويطهر حياتهم من الظلم والبغي وينشر العدل النظيف الصريح ، .. ويطهرهم من سائر الملوثات التي تلطخ وجه الجاهلية في كل مكان وفي كل زمان " (٤).

رابعا : التبشير والإنذار وإقامة الحجة على الناس :

" من مقتضى عدالة الله ورحمته أن بعث رسلًا إلى عباده، يبشرونهم بما أعده الله للمؤمنين الطائعين من نعيم ورضوان، وينذرونهم ما أعده الله للكافرين العصاة من جحيم وغضب ، كل ذلك لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، قال

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٨١.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٨١١ بتصرف يسير .

(٣) المصدر السابق ٢/ ١١٤٤، ١١٤٦ وينظر ٣/ ١٢١٠، ٣/ ١٣٩٥-١٣٩٦.

(٤) المصدر السابق ١/ ١٣٨-١٣٩ بتصرف وينظر أيضًا ٤/ ٢٠٧٠، ٥/ ٢٨٢٩.

سبحانه: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [(١)]، ولله الحجة البالغة في الأنفس والآفاق، وقد أعطى الله البشر من العقل ما يتدبرون به دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، ولكنه - سبحانه- رحمة منه بعباده، وتقديرًا لغلبة الشهوات على تلك الأداة العظيمة التي أعطاها لهم - أداة العقل - اقتضت رحمته وحكمته أن يرسل إليهم الرسل ﴿ مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ يذكرونهم ويبصرونهم، ويحاولون استنقاذ فطرتهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات، التي تحجب عنها أو تحجبها عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق "[(٢)].

" فوظيفة الرسول أنه منذرٌ ومحذرٌ ومبصرٌ ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ [(٣)] ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[(٤)].

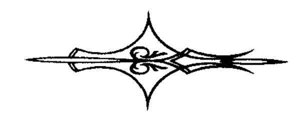
" فالرسول يرسله الله ليبشر وينذر، وعليها تكون استجابة البشر، ويمضي قدر الله ومشيئته من خلال هذه الاستجابة "[(٥)]. ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [(٦)] ولكن لا ينتفع بما جاء به الرسل من النذارة والبشارة إلا المؤمنون الذين يفهمون حقيقة ما جاء به، ويدركون ما وراء هذا الذي جاء به الرسول "[(٧)].

ولقد لخص الله هذه المهمة من مهمات الرسل بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [(٨)]، " فوظيفة النبي - ﷺ - أن يكون ﴿ شَـٰهِدًا ﴾

(١) سورة النساء :الآية: ١٦٥.
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٠٥.
(٣) سورة الرعد: الآية: ٧.
(٤) سورة الحج : الآية:٤٩.
(٥) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٩٣، ٤/ ٢٠٤٨، ٢٤٣١ بتصرف .
(٦) سورة الأعراف : الآية: ١٨٨.
(٧) في ظلال القرآن ٣/ ١٤١٠.
(٨) سورة الأحزاب : الآية: ٤٥-٤٨.

عليهم، وأن يكون ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ لهم بما ينتظر العاملين من رحمة وغفران وفضل وتكريم، وأن يكون ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للغافلين بما ينتظر المسيئين من عذاب ونكال ، فلا يؤخذوا على غرة ، ولا يعذبوا إلا بعد إنذار، ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾ لا إلى دنيا ، ولا إلى مجد ، ولا إلى عزة قومية ، ولا إلى عصبية جاهلية ، ولا إلى مغنم ، ولا إلى سلطان أو جاه ، ولكن داعيًا إلى الله في طريق واحد يصل إلى الله ، ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾ فما هو بمبتدع ، ولا بمقطوع ، ولا بقائل من عنده شيئًا، إنما هو إذن الله له وأمره لا يتعداه ، ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ يجلو الظلمات ، ويكشف الشبهات ، وينير الطريق ، نورًا هادئًا هاديًا كالسراج المنير في الظلمات " [(١)].

- ولقد كانت تربية الأمم وهدايتها من خلال القدوة أكثر نفعا، والرسالة منهج إلهي تعيشه البشرية، وحياة الرسول هي النموذج الواقعي للحياة وفق ذلك المنهج الإلهي، النموذج الذي يدعو قومه إلى الاقتداء به، ومن ثم كانت حياة الرسول -ﷺ- معروضة لأنظار أمته، بمعالمها الرئيسية في الحياة وبأصغر تفصيلاتها وأحداثها ... وحتى خطرات قلبه أحيانا لتطلع عليها الأجيال، وترى فيها قلب ذلك النبي الإنسان " [(٢)]، هذه هي أهم وظائف ومهام الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - إجمالًا .



(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٧٢ . وينظر أيضًا ٥/ ٢٩٥٩.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٦٦١ بتصرف يسير .

المطلب الخامس

دلائل النبوة وآيات الأنبياء



" الطريقة المشهورة عند أهل الكلام والنظر ، تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات ، وكثير منهم لا يعرف نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات ، وقرروا ذلك بطرق مضطربة ، والتزم كثير منهم إنكار خرق العادات لغير الأنبياء ، حتى أنكروا كرامات الأولياء والسحر ، ونحو ذلك ، ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح ، لكن الدليل غير محصور في المعجزات ، فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين ، ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما ، وتمييز بين الصادق والكاذب " [1].

فأهل السُّنَّة والجماعة يثبتون النبوة بدلائل كثيرة منها :

١ - القرائن والأحوال التي تدل على صدق النبي - ﷺ - .

٢ - نصر الله لأنبيائه وإهلاك أعدائهم في النهاية .

٣- المعجزات وخوارق العادات .

وقد أشار سيد رحمه الله إلى بعض دلائل النبوة، يمكن بيانها إيجازًا فيما يأتي :

أولًا : **قرائن الأحوال** :

" وذلك أن النبوة إنما يدعيها اصدق الصادقين، أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا إلا على أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما، وتفرق بهما، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة، فيما دون دعوى النبوة، فكيف بدعوى النبوة؟ .

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٤٠ وما بعدها .

وما أحسن ما قال الشاعر في وصفه - ﷺ - :

لو لم تكن فيه آيـات مبينة .'. كانت بديهته تأتيك بالخبر [١]

وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين، إلا وقد ظهر عليه من الكذب والفجور واستحواذ لشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز " [٢] .

وقد أشار سيد- رحمه الله - إلى أن أحوال الأنبياء من الصدق والزهد والصبر ونحوها من دلائل نبوتهم ، ففي ظلال قوله تعالى عن الرجل المؤمن وهو يخاطب قومه: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [٣]، يقول سيد:" فالذي يدعو مثل هذه الدعوة ، وهو لا يطلب أجرًا ، ولا يبتغي مغنماً إنه لصادق، وإلا فما الذي يحمله على هذا العناء إن لم يكن يلبي تكليفًا من الله ؟ ما الذي يدفعه إلى حمل هم الدعوة ؟ ومجابهة الناس بغير ما ألفوا من العقيدة ؟ والتعرض لأذاهم وشرهم واستهزائهم وتنكيلهم وهو لا يجني من ذلك كسبًا ، ولا يطلب منهم أجرًا " [٤] .

- وعند حديثه عن اقتراحات المشركين وطلبهم الآيات من النبي ﷺ يقول: "وبهذه الاقتراحات يتبين التعنت كما تتبين الجهالة، وإلا فقد كان لهم من خلق رسول الله - ﷺ - الذي يعرفونه جيدًا بالخبرة الطويلة، ما يدلهم على صدقة وأمانته، وهم كانوا يلقبونه الأمين، ويودعون أماناتهم لديه حتى وهم معه على أشد الخلاف.. وكذلك كان صدقه مستيقنًا كأمانته، فإنه لما دعاهم أول مرة دعوة جماعية جهرية على الصفا - حين أمره ربه بذلك -وسألهم: إن كانوا يصدقونه لو أنبأهم بنبأ ، أجابوه كلهم بأنه عندهم مصدق .. فلو كانوا يريدون أن يعلموا صدقه لقد كان لهم في ماضيه برهان ؟ ولقد كانوا يعلمون : أنه لصادق، كما قال الله

---

(١) أنشده المبرد في الكامل ص ٩ لحسان ، وهو في البيان والتبيين ١/ ١٥، والروض الأنف ١/ ١٨٧ وعيون الأخبار ١/ ٢٢٤ غير منسوب ، وفي الإصابة ص ٤٦٦٧ لعبد الله بن رواحه ، انظر شرح العقيدة الطحاوية ص١٤١ هامش رقم ١.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٤٠ - ١٥٠ بتصرف .

(٣) سورة يس : الآية ٢١

(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٦٣ .

عنهم: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[١]، فهي الرغبة في الإنكار والإعراض والعناد والاستكبار عن الحق وليس الشك في صدق النبي ﷺ "[٢].

- كما ذكر سيد - رحمه الله - في مقدمة سورة العلق حديث بدء الوحي، وفيه استدلال خديجة رضي الله عنها[٣]،على صدق النبي ﷺ بعد أن تخوف على نفسه بقولها: كلا ، أبشر فو الله لا يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق "[٤].

ثانيا : نصر الله للأنبياء وإهلاك أعدائهم :

من دلائل النبوة أيضًا: " أن الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله ويهلك أعداءهم في نهاية الصراع، كما أخبر -سبحانه- عن إهلاك قوم نوح وعاد وثمود وأهل مدين وقوم لوط وقوم فرعون وغيرهم، ولما ذكر الله قصص إهلاك أعداء الأنبياء في سورة الشعراء قال في آخر كل قصة: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٥]، [٦].

وقد أشار سيد رحمه الله إلى هذه الدلالة في مواطن متفرقة منها:

* في ظلال قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾[٧]. يقول سيد : "وهذه الشبهة يعللون بها موقفهم من الوحي، وهو قول مردود، فما كان الله ليدع أحدًا يدعي أن الله أوحى إليه وهو لم يوح إليه شيءٌ، وهو قادر على أن يختم على قلبه فلا ينطق بقرآن كهذا، وأن يكشف الباطل الذي جاء به ويمحوه، وأن يظهر الحق من

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٣٣ .

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٤٠ .

(٣) هي : خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى ، تجتمع مع النبي ﷺ في قصي ، تزوجها النبي ﷺ وعمرها ٤٠ سنة ولم يتزوج عليها حتى ماتت ورزق منها أبناءه كلهم إلا إبراهيم ، أول من آمن به من النساء ، توفيت في السَّنة العاشرة للبعثة ، انظر : الاستيعاب ٤/ ١٧٢ وأسد الغابة ٥/ ٤٣٤

(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٣٦ .والحديث في البخاري في كتاب - بدء الوحي ١/ ٤-٥ برقم ٣

(٥) سورة الشعراء : الآيات ٦٧ ، ١٠٣ ، ١٢١ ، ١٣٩ ، ١٥٨ ، ١٧٤ ، ١٩١٠ .

(٦) شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٥١ .

(٧) سورة الشعراء : الآية ٢٤

ورائه ويبينه.. فهي شبهة لا قوام لها ، ودعوى تخالف المعهود عن علم بالسرائر، وعن قدرته على ما يريد، وعن سننه في إقرار الحق وإزهاق الباطل، وإذن فهذا الوحي حق، وقول محمد - ﷺ- صدق"[١].

*وفي ظلال قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[٢]. يقول سيد - رحمه الله-: "وهذا تهديد رعيب لمن يفتري على الله في شأن العقيدة ، وهي الجد الذي لا هوادة فيه، يجيء لتقرير الاحتمال الواحد الذي لا احتمال غيره ، وهو صدق الرسول - ﷺ - وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه، بشهادة أن الله لم يأخذه أخذًا شديدًا ، كما هو الشأن لو انحرف أقل انحراف عن أمانة التبليغ ..

ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية أن محمدًا ﷺ صادق فيما أبلغهم ، وأنه لو تقول بعض الأقاويل التي لم يوح بها إليه ، لأخذه الله فقتله على هذا النحو الذي وصفته الآيات، ولما كان هذا لم يقع فهو لا بد صادق "[٣]، " فمن دلائل صدق الأنبياء نصر الله لهم، وإهلاك أعدائهم، حيث كانت العاقبة دائما للرسل وأتباعهم"[٤].

ثالثًا : المعجزات وخوارق العادات :

المعجزات : هي الأمور الخارقة للعادة ، المصحوبة بالتحدي[٥]، فهي أخص من مطلق الآيات وعلامات النبوة عند البعض .

وسميت معجزة : لعجز من تقع عندهم عن معارضتها، والهاء فيها للمبالغة[٦].

وقيل: أن المعجزة اسم يعم كل خارق للعادة في اللغة وفي عرف العلماء، وتسمى بالآيات أيضًا[٧].

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٥٤- ٣١٥٥ بتصرف يسير .
(٢) سورة الحاقة : الآية ٤٤ - ٤٧ .
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٨٩ .
(٤) ينظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٦٥٦ ، ٤/ ٢٠٣٦، ٢٠٣٧، ٥/ ٢٦٠٨ .
(٥) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي - المكتبة العصرية ط عام ١٤٠٧هـ ، ٤/ ٣ .
(٦) فتح الباري لابن حجر: ٦/ ٥٨١-٥٨٢.
(٧) مجموع فتاوى ابن تيمية: ١١/ ٣١١.

وقد وقف الناس من قضية المعجزات والخوارق مواقف متباينة، فمنهم من جعلها وحدها هي دليل النبوة وأنكر وقوع خوارق للعادات وكرامات لغير الأنبياء، كما هو الحال عند المعتزلة والظاهرية وبعض الأشاعرة [١] ومنهم من ضيق نطاق الخوارق وأولها أو انكرها، كما فعل بعض أصحاب الأهواء [٢] .

أما سيد -رحمه الله- فله حديث طويل عن المعجزات وخوارق العادات يمكن إجماله فيما يأتي :

١ ـ إثباته للمعجزات :

عبر القرآن الكريم عما أيد الله به الأنبياء – عليهم السلام – من أجل إيمان الناس بهم " بالآيات " واصطلح العلماء على تسميتها " بالمعجزات " .

وكلام -سيد - عن المعجزات يدل على أنه يرى أنها تشمل أمرين :

أ – ما كان مصحوبا بالتحدي، مما يطلبه الكفار من أنبيائهم للتدليل على صدقهم.

ب– وما كان خارقًا للعادة ، بدون تحدي ، وهو الآيات التي تأتي بها الأنبياء بإذن الله ، فتنة للناس ، أو عند الحاجة إليها .

حيث يقول: " كانت البشرية جيلًا بعد جيل تطلب خارقة معجزة من الرسول، تدل على أنه حقًا مرسل من الله ﴿ فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [٣] ، كما طلبت ثمود تلك الخارقة ، فاستجاب الله لعبده صالح وأعطاه هذه الخارقة في صورة ناقة " [٤].

" وقد كانت الخوارق تصاحب الرسالات ، لتصديق الرسل ، وتخويف الناس من عاقبة التكذيب ، وهي الهلاك لمن كذب بها " [٥].

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ص١٤٠.
(٢) ينظر : في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٧٧ .
(٣) سورة الشعراء : الآية ١٥٤.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦١٢.
(٥) المصدر السابق ٤/ ٢٢٣٧.

أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴾ (١) ، يقول سيد : " إنهم يطلبون خارقة، والخوارق ليست من عمل الرسول ولا اختصاصه، إنما يبعث بها الله معه ، حين يرى بحكمته أنها لازمة " (٢).

وفي تعليقه على تأويل يوسف - عليه السلام - لرؤيا الملك يقول: " والهبة اللدنية التي وهبها يوسف كانت من روح العصر وجوه ، على ما نعهد في معجزات الأنبياء"(٣).

ويأتي كثيرا في حديث سيد - رحمه الله- عن آيات الأنبياء التي أيدهم الله بها تصديقا لهم ، أو إجابة لطلب أو تحدي الناس ، تسميته لها بالمعجزات، وإثباتها للأنبياء - كما سيأتي ذلك مفصلًا بعد قليل - مما يدل على أنه - رحمه الله - يطلق لفظ المعجزة على ما كان خارقًا للعادة من آيات الرسل وبياناتهم التي أيدهم الله بها على سبيل التحدي أو بدونه .

كما يقرر سيد - رحمه الله- أن هذه المعجزات والخوارق التي يأتي بها الرسل ليست من عمل الرسل - عليهم السلام - ولا في مقدورهم ، إنما يبعث بها الله معهم حيث يرى بحكمته أنها لازمة فأمرها إلى مدبر الكون والعباد " (٤) .

" فالمعجزات تشهد بأن الله وراءها ، وأن قوة الله تؤيدها ، وتؤيد من جاءت على يده " (٥) ، " فكل خارقة جاء بها نبي إنما جاء بها من عند الله " (٦) .

" وقد بين الرسل لقومهم أن الإتيان بالخوارق من شأن الله ، ليفرقوا في مداركهم المبهمة المظلمة بين ذات الله الإلهية وذواتهم البشرية ، وليمحصوا صورة التوحيد المطلق الذي لا يلتبس بمشابهة في ذات ولا صفات، وهي المتاهة التي تاهت فيها الوثنيات كما تاهت فيها التصورات المسيحية عندما تلبست بالوثنيات المختلفة ، وكانت نقطة البدء في المتاهة هي نسبة الخوارق إلى عيسى- عليه السلام - " (٧).

(١) سورة الرعد : الآية ٧.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٤٨.
(٣) المصدر السابق ٤/ ١٩٩٣ .
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٤٨ .
(٥) المصدر السابق ١/ ٤٠١ .
(٦) في ظلال القرآن ١ / ٣٩٩ بتصرف يسير .
(٧) المصدر السابق ٤/ ٢٠٩١ بتصرف يسير .

٢ـ تفسير سيد قطب للمعجزات والخوارق :

يقرر سيد- رحمه الله - "أنه ليس هناك جدية آلية في الخلق والإنشاء، ولا في الحركة والحدث والنواميس التي يراها الناس مطردة في الكون - بوجه عام - ليست قوانين آلية أنشاها الله وسلطها، لتعمل بذاتها آليا وحتميا، ولكنها تطرد - على الجملة - لأن قدر الله في شانها يطرد في غير جبرية آلية فيها، وفي غير حتمية على الله سبحانه وتعالى في أطرادها، إنما هي مشيئته وحكمته تجريها هكذا كما أرادها، وقد يجري غيرها في تعلق مشيئته وحكمته به، فيجري قدره بما يشاء، وهكذا تقع المعجزات الخارقة لما يسمى بالقوانين الطبيعية، فالنار قد أودعها الله خاصية حرق الأجسام، كما أودع الأجسام خاصية الاحتراق بالنار، ولكن مشيئته جرت بقدر غير هذا في حادث إبراهيم - عليه السلام - ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[١] والناس يتعاملون مع النواميس الثابتة - في جملتها - وقد شاء الله أن يجعلهم قادرين على إدراك بعض هذه النواميس، والتعامل معها على ثبات نسبي بها، يسمح لهم باستخدام حصيلة تجاربهم في تعاملهم مع سنة ثابتة، وأن تكن لا آلية ولا حتمية ، لا بالقياس إلى الله - سبحانه- ولا بالقياس إلى ذاتها كذلك .

وفي تصور المسلم لا يقوم " السبب " ولا العادة، ولا المألوف من النواميس، حاجزًا بين العبد وإرادة الله به، وبالوجود كله من حوله، في كل حالة، وفي كل لحظة، فالمشيئة الإلهية في تصورها- كما هي في الحقيقة - طليقة من وراء تلك النواميس، ومع هذا فالمسلم يتعامل مع النواميس الثابتة، ويأخذ بالأسباب التي تتلاءم مع هذه النواميس لأنه مأمور أن يأخذ بها - وأخذه بها عبادة وطاعة - ويتعامل مع سنة الله وهو يعلم أن لا تبديل لسنة الله، لا بسبب حتميتها على الله، ولا بسبب جبرية آلية فيها هي ذاتها، ولكن الله أراد ألاَّ يبدلها، وجرى قدره باطرادها - إلا أن يشاء غير ذلك - مع تعلق كل حادث ينشأ بقدر خاص ينشئه، وفي هذا يختلف التصور الإسلامي تمامًا ويتميز عن كل تصور آخر"[٢].

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٦٩-٧٠.

(٢) مقومات التصور الإسلامي - سيد قطب - ص٦٣-٦٤ بتصرف يسير .

ويقول أيضًا: " فلا عجب من أمر الله، فالعادة حين تجري بأمر لا يكون معنى هذا أنها سنة لا تتبدل، فعندما يشاء الله لحكمة يريدها،يقع ما يخالف العادة ، مع وقوعه وفق السُّنَّة الإلهية التي لا نعلم حدودها ، ولا نحكم عليها..والذين يقيدون مشيئة الله بما يعرفونه هم من نواميسه لا يعرفون حقيقة الألوهية كما يقررها الله -سبحانه- في كتابه...

نعم إن الله – سبحانه – يجري هذا الوجود وفق النواميس التي قدرها له، ولكن هذا شيء والقول بتقييد إرادته بهذه النواميس بعد وجودها شيء آخر! إن الناموس يجري وينفذ بقدر من الله في كل مرة ينفذ فيها، فهو لا يجري ولا ينفذ آليًا، فإذا قدر الله في مرة أن يجري الناموس بصورة أخرى غير التي جرى بها في مرات سابقة كان ما قدره الله ولم يقف الناموس في وجه القدر الجديد، ذلك أن الناموس الذي تندرج تحته كل النواميس هو طلاقة المشيئة بلا قيد على الإطلاق ، وتحقق الناموس في كل مرة يتحقق فيها بقدر خاص طليق .."(١).

ويقرر سيد " أن عصر الخوارق لم يمض! فالخوارق تتم في كل لحظة – وفق مشيئة الله الطليقة – ولكن الله يستبدل بأنماط مَن الخوارق أنماطًا أخرى ، تلائم واقع كل فترة ومقتضياتها، وقد تدق بعض الخوارق على بعض العقول فلا تدركها، ولكن الموصولين بالله يرون يد الله دائماً ، و يلابسون آثارها المبدعة " (٢) .

" إننا لا نرى أن جريان الأمر على السُّنَّة المألوفة أقل وقعًا ولا دلالة من جريانه على ألسنة الخارقة للمألوف، فالسُّنَّة المألوفة هي في حقيقتها خارقة بالقياس إلى قدرة البشر، إن طلوع الشمس وغروبها خارقة – وهي معهودة كل يوم- وإن ولادة كل طفل خارقة -وهي تقع كل لحظة – وإلا فليجرب من شاء أن يجرب! " (٣) .

" ولنفرض أن انشقاق القمر جاء آية خارقة . . فإن القمر في ذاته آية أكبر! هذا الكوكب بحجمه ، ووضعه ، وشكله ، وطبيعته ، ومنازله ، ودورته ، وآثاره في حياة الأرض ، وقيامه هكذا في الفضاء بغير عمد ، آية كبرى قائمة دائمة توقع

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩١٢ بتصرف يسير، وينظر أيضًا ٣/ ١٣٨٣، ٤/ ٢١٥٠، ٢٢١١ .

(٢) المصدر السابق ٤/ ١٨٩٣.

(٣) المصدر السابق ٦/ ٣٩٧٧.

إيقاعها وتلقي ظلالها ، وتقوم أمام الحس شاهدًا على القدرة المبدعة التي يصعب إنكارها إلا عنادًا أو مراءً !"[١].

ويقول أيضًا : " إن الخوارق الحسية قد تدهش القلب البشري في طفولته ، قبل أن يتهيأ لإدراك الآيات الكونية القائمة الدائمة ، والتأثر بإيقاعها الثابت الهادئ، وكل الخوارق التي ظهرت على أيدي الرسل - صلوات الله عليهم - قبل أن تبلغ البشرية الرشد والنضوج يوجد في الكون ما هو أكبر منها وأضخم ، وإن كان لا يستثير الحس البدائي كما تستثيره تلك الخوارق.

٣ـ الرد على المنحرفين في تفسير الخوارق والمعجزات :

يقول سيد - رحمه الله- عند حديثه عن الطير الأبابيل في سورة الفيل : " وتختلف الروايات في تحديد نوع الطير، وأشكالها، وأحجامها، وأحجام هذه الحجارة ونوعها وكيفية فعلها، كما يروى أن الجدري والحصبة ظهرا في هذا العام في مكة ، ويرى الذين يميلون إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات ، وإلى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عليها ، أن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدري والحصبة أقرب وأولى، وأن الطير قد تكون هي الذباب والبعوض التي تحمل الميكروبات ، فالطير كل ما يطير .

ثم نقل عن الإمام محمد عبده تفسيره لحادثة الفيل بما سبق وقوله: " وهذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة ، وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل ، إن صحت روايته"، وعقب عليه سيد - رحمه الله- بقوله: " ونحن لا نرى أن هذه الصورة التي افترضها الأستاذ الإمام - صورة الجدري أو الحصبة من طين ملوث بالجراثيم - أو غيرها من الروايات التي تصف الحجارة بأنها كانت تخرق الرؤوس والأجسام ..لا نرى أن هذه الصورة أو تلك أدل على قدرة الله ، ولا أولى بتفسير الحادث ، فهذه كتلك في نظرنا من حيث إمكان الوقوع ، ومن حيث الدلالة على قدرة الله وتدبيره ، ويستوي عندنا أن تكون السُّنَّة المألوفة للناس المعهودة المكشوفة لعلمهم ، هي التي جرت فأهلكت قومًا أراد الله إهلاكهم ، أو أن تكون سنة الله قد جرت بغير المألوف للبشر، فسنة الله ليست فقط هي ما عهده

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٤٢٧ بتصرف يسير .

البشر وعرفوه ، فهذه الخوارق - كما يسمونها- هي من سنة الله ، ولكنها خوارق بالقياس إلى ما عهده وما عرفه البشر .

ومن ثم فنحن لا نقف أمام الخارقة مترددين ولا مؤولين لها - متى صحت الرواية - أو كان في النصوص وفي ملابسات الحادث ما يوحي بأنها جرت خارقة، ولم تجر على مألوف الناس و معهودهم " (١).

فأما في هذا الحادث بالذات ، فنحن أميل إلى اعتبار أن الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة ، وأن الله أرسل طيرًا أبابيل غير معهودة ، تحمل حجارة غير معهودة ، تفعل بالأجسام فعلًا غير معهود . .لأن جو الملابسات للحادث يتناسق مع كونه على غير المألوف والمعهود ، إننا ندرك ونقدر دوافع المدرسة العقلية من تضييق نطاق الخوارق والغيبيات في تفسير القرآن الكريم وأحداث التاريخ ، ومحاولة ردها إلى المألوف المكشوف من السنن الكونية ، حيث كانت تواجه النزعة الخرافية الشائعة ، وسيل الأساطير والإسرائيليات التي حشيت بها كتب التفسير، والفتنة بالعلم الحديث ، وموجة الشكّ في مقررات الدين ، فقامت هذه المدرسة بمحاولة ردَ الاعتبار للدين ، باعتباره موافق للعقل ، وتنقيته من الخرافات ، لكن ذلك أدى إلى المبالغة في الاحتياط ، والميل إلى جعل المألوف من السُنن الكونية هو القاعدة الكلية لسنة الله ولهذا شاع في تفسير الإمام و تلاميذه (٢) جميعًا الرغبة الواضحة في رد الكثير من الخوارق إلى مألوف السنن ، وإلى تأويل بعضها بحيث يلائم ما يسمونه " المعقول " ، وإلى الحذر والاحتراس الشديد في تقبل الغيبيات، ومع إدراكنا وتقديرنا للعوامل البيئية الدافعة لمثل هذا الاتجاه ، فإننا نلاحظ عنصر المبالغة فيه ، وإغفال الجانب الآخر من التصور القرآني الكامل ، وهو طلاقة مشيئة الله وقدرته من وراء السنن المألوفة منها وغير المألوفة " (٣).

" فأمام القدرة الإلهية تتساوى جميع الأعمال التي تبدو في نظر الإنسان وبالقياس

---

(١) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٩٧٦ - ٣٩٧٧ بتصرف .

(٢) منهم الشيخ محمد رشيد رضا والشيخ عبد القادر المغربي- رحمهما الله- كما أشار إلى ذلك سيد - رحمه الله - .

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٧٧ - ٣٩٧٨ بتصرف .

إلى تصوره متفاوتة السهولة والصعوبة حسب ما اعتاده ورآه ، ولكن المعتاد ليس هو الحكم "[١].

٤ـ موقف سيد قطب من آيات الأنبياء ومعجزاتهم :

آيات الأنبياء هي أدلتهم وبراهين صدقهم كما سماها الله آيات وبراهين[٢]، وقد بعث الله الأنبياء لهداية الناس ، وأيدهم بالبينات كدليل على صدقهم، قال سبحانه ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾[٣]. يقول سيد : " فالرسالة واحدة في جوهرها، جاء بها الرسل ومعهم البينات عليها ، ومعظمهم جاء بالمعجزات الخوارق ، وبعضهم أنزل عليه كتاب "[٤].

وتحدث سيد -رحمه الله - في مواضع كثيرة عن آيات الأنبياء ومعجزاتهم، وقارن بينهما وبين آيات نبينا محمد -ﷺ- ، ورجح أن آية نبينا محمد ﷺ باقية على مر الأيام والسنين، شاهدة شهادة صدق دائم لا يغيب - وسيأتي بيان ذلك في المبحث الخاص بنبوة نبينا محمد - ﷺ - قريبًا .

ويقسم سيد المعجزات إلى قسمين :

١- معجزات حسية : وهي الآيات المتعلقة بالكون والأفاق، وهي كما يقول : " تدهش القلب البشري في طفولته ، قبل أن يتهيأ لإدراك الآيات الكونية القائمة الدائمة ، والتأثر بإيقاعها الثابت الهادئ ، وكل الخوارق التي ظهرت على أيدي الرسل - صلوات الله عليهم - قبل أن تبلغ البشرية الرشد والنضوج يوجد في الكون ما هو أكبر منها وأضخم ، وإن كان لا يستثير الحس البدائي كما تستثيره تلك الخوارق" [٥].

التي كانت تصاحب الرسالات لتصديق الرسل، وتخويف الناس من عاقبة التكذيب، لم يكن يؤمن بها إلا المستعدة قلوبهم للإيمان، أما الجاحدون فقد كذبوا

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٢١١ .
(٢) النبوات : لابن تيمية ص٥.
(٣) سورة الحديد : الآية ٢٥.
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٩٤.
(٥) المصدر السابق ٦/ ٣٤٢٧.

بها في زمانهم "[١].

٢- معجزات غير مادية : يقول سيد : " اقتضت التجارب البشرية أن تجيء الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بالخوارق، لأنها رسالة الأجيال المقبلة جميعها ، لا رسالة جيل واحد يراها، ولأنها رسالة الرشد البشري تخاطب مدارك الإنسان جيلاً بعد جيل ، وتحترم إدراكه الذي تتميز به بشريته، وبناء على ذلك فقد كانت معجزة الإسلام هي القرآن، معجزة باقية للأجيال إلى يوم القيامة، يخاطب الفكر والقلب والفطرة، ويقيم منهجًا للحياة ، أما الخارقة المادية فهي تخاطب جيلاً واحدًا من الناس، وتقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل"[٢]، وهذا من الفروق بين آية خاتم النبيين وآيات من سبقه - كما سيأتي - .

أما تفاصيل آيات الأنبياء ومعجزاتهم، فقد وقف سيد - رحمه الله- في ظلال الآيات القرآنية التي تتحدث عن معجزات وآيات الأنبياء مثبتًا لها، ويمكن الإشارة إلى بعض معجزات الأنبياء التي تعرض لها سيد-رحمه الله - إجمالاً، حيث يقرر الآتي :

أ- أن الأنبياء بعثوا بما يدل على صدقهم من الآيات والبينات، وبعضهم جاء بالمعجزات والخوارق[٣].

ومن الأنبياء الذين تعرض سيد - رحمه الله- للحديث عن معجزاتهم وآياتهم وخوارقهم :

١- نوح -عليه السلام- وكانت آيته: في تحديه لقومه وهو وحيد، وفي الطوفان[٤] .

٢- صالح -عليه السلام- وكانت معجزته : " الناقة "[٥]

٣- إبراهيم -عليه السلام- وكانت معجزته : خروجه من النار سالما[٦]

---

(١) في ظلال القرآن
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٢٣٧ بتصرف .
(٣) المصدر السابق ٦/ ٣٤٩٤.
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٨٧٥ وما بعدها و٦/ ٣٧١٦.
(٥) المصدر السابق ٤/ ١٩٠٨، ٢١٥١، ٥/ ٢٦١٢ .
(٦) المصدر السابق ٤/ ٢٣٨٧.

٤- داود -عليه السلام- وكانت آياته : تسخير الجبال والطير يسبحن معه، وإلانة الحديد له .[١]

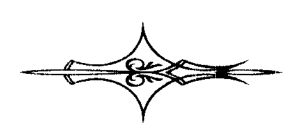
٥- سليمان- عليه السلام- وكانت آياته : تسخير الريح والجن، ومعرفة لغات الطير والحشرات والحيوانات .[٢]

٦- يوسف عليه السلام : وكانت آيته : تفسير الرؤيا .[٣]

٧- موسى عليه السلام : وكان أكثر الأنبياء آيات ومنها : العصا، واليد، والبحر، والجراد، والقمل والدم، والضفادع، والجبل، والماء، وغيرها .[٤]

٨- عيسى عليه السلام : ومن آياته : خلقه من غير أب، وكلامه في المهد، وإحياء الموتى، وإبراء المرضى، والإخبار عن بعض المغيبات .[٥]

ب - أن آيات ومعجزات الأنبياء كانت متناسقة مع العصر الذي جاءوا فيه، فآيات يوسف-عليه السلام- كانت متناسقة مع جو العصر الذي يعيشه من الاهتمام بالرؤيا وتأويلها[٦]، وآيات موسى -عليه السلام- كانت متناسقة مع جو السحر الذي كان منتشرًا في عصره[٧]، وآيات عيسى- عليه السلام- كانت متناسقة مع العصر الذي جاء فيه وطبيعة مولده[٨] .



(١) المصدر السابق ٤/ ٢٣٩٠، ٥/ ٢٨٩٧، ٣٠١٧ .
(٢) المصدر السابق ٤ / ٢٣٩١، ٥/ ٢٦٣٦، ٢٨٩٨ .
(٣) المصدر السابق ٤/ ١٩٩٣ .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٧٢-٧٣، ٢/ ٨٠٠، ٨٦٩، ٣/ ١٣٤٧، ١٣٥٦، ١٣٥٨، ٤/ ٢٢٥٢، ٢٣٣٢، ٢٣٤٠، ٥/ ٢٥٩٠.
(٥) المصدر السابق ١/ ٢٨٢، ٣٩٥، ٣٩٩، ٤/ ٢٣٠٤، ٢٣٠٧، ٢٣٠٨ .
(٦) المصدر السابق ٤/ ١٩٩٣.
(٧) المصدر السابق ٤/ ٢٣٤٠ .
(٨) المصدر السابق ١/ ٣٩٩ .

المطلب السادس

التفاضل بين الأنبياء والرسل



وفي هذا المطلب أجمل بعض القضايا المتعلقة بالأنبياء والرسل والتفاضل بين إفراد هذا الموكب الكريم - عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين- وذلك فيما يأتي :

أولًا : أول الأنبياء وأول الرسل :

دلت النصوص الصحيحة على أن آدم -عليه السلام - هبط إلى الأرض موحدًا، وأنه عاش مع بنيه على التوحيد " فهو نبيٌّ مكلمٌ " كما جاء في الحديث [(١)]، وهذا على اعتبار أن النبي من بعث في قوم موافقين، فآدم بعث بشريعة وعلمها أبناءه لأنه لم يكن قبله شرك ولا انحراف عن التوحيد .

أما أول الرسل فالراجح والصواب أنه نوح -عليه السلام - حيث دلت النصوص على أن الانحراف وقع بعد آدم بعشرة قرون[(٢)]، وأن الناس وقعوا في الشرك والوثنية، فبعث الله إليهم أول رسله نوحًا- عليه السلام - " باعتبار أن الرسول من بعث إلى قوم مخالفين " [(٣)].

- وقد ذكر البعض أن أول الرسل هو إدريس -عليه السلام - [(٤)]، لكن الراجح عند الجمهور هو أنه نوح -عليه السلام - [(٥)].

أما سيد - رحمه الله- فكان موافقًا للجمهور حيث يرى أن أول الرسل بعد -آدم عليه السلام - هو نوح - عليه السلام - حيث صرح بذلك في مواطن متعددة .

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد ٥/ ٢٦٥ وابن حبان في صحيحة ١٤/ ٦٩ والحاكم في المستدرك ٢٦٢ . وقال على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، لنظر : مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي، المكتب الإسلامي - بيروت - ط٣ عام ١٤٠٥ه، ٣/ ١٥٩٩.

(٢) تفسير الطبري ١/ ١٩٤، والأثر رواه الحاكم ٢/ ٥٤٦، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال صحح على شرط البخاري ووافقه الذهبي، وله شاهد حسن من حديث قتادة بسند صحيح .

(٣) فتح الباري ١١/ ٤٣٤ .

(٤) النبوات لابن تيمية ص ٢٥٥ ، وشرح الطحاوية ص ١٥٥

(٥) فتح الباري ١/ ١٥.

يقول سيد : "هبط آدم إلى الأرض مسلماً لله متبعًا هداه، وما من شك أنه علم بنيه الإسلام جيلًا بعد جيل، وأن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض، حيث لم تكن معها عقيدة أخرى"[١].

" فالإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية على يدي آدم -عليه السلام- أبي البشر الأول ، ثم على يدي نوح -عليه السلام- أبي البشر الثاني ، ثم بعد ذلك على يدي كل رسول"[٢].

ويقول: " ونوح -عليه السلام- كان أول هؤلاء الرسل بعد آدم -عليه السلام- وآدم لا يذكر القرآن له رسالة بعد مجيئه إلى هذه الأرض وممارسته لهذه الحياة، ولعله كان معلماً لأبنائه وحفدته حتى إذا طال عليهم الأمد بعد وفاته ضلوا عن عبادة الله الواحد .. واتخذوا لهم أصنامًا آلهة ... فأرسل الله إليهم نوحًا يردهم إلى التوحيد ، ويصحح لهم تصورهم عن الله وعن الحياة والوجود، والكتب المقدسة السابقة تجعل إدريس -عليه السلام- سابقًا لنوح، ولكن ما ورد في هذه الكتب لا يدخل في تكوين عقيدة المسلم ، لشبهة التحريف والتزيد والإضافة إلى تلك الكتب "[٣]، "ولا نملك نحن تحديد زمان إدريس -عليه السلام- ولكن الأرجح أنه سابق على إبراهيم -عليه السلام- وليس من أنبياء بني إسرائيل، فلم يرد ذكره في كتبهم، والقرآن الكريم يصفه بأنه كان صديقًا نبيًا ويسجل له أن الله رفعه مكانًا عليًا ، فأعلى قدره . .

وهناك رأي نذكره لمجرد الاستئناس به ولا نقرره أو ننفيه ، ويقول به بعض الباحثين في الآثار المصرية ، وهو أن إدريس تعريب لكلمة " أوزريس " المصرية القديمة، كما أن يحيى تعريب لكلمة "يوحنا" وكلمة اليسع تعريب لكلمة "إليشع" ، وأنه هو الذي صيغت حوله أساطير كثيرة، فهم يعتقدون أنه صعد إلى السماء وصار له فيها عرش عظيم ، وكل من وزنت أعماله بعد الموت فوجدت حسناته ترجح سيئاته فإنه يلحق " بأوزريس " الذي جعلوه إلها لهم، وقد علمهم العلوم والمعارف قبل صعوده إلى السماء .

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٨٢.
(٢) المصدر السابق ٤/ ١٩٤٣-١٩٤٤.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧١٠.

وعلى أية حال فنحن نكتفي بما جاء عنه في القرآن الكريم، ونرجح أنه سابق على أنبياء بني إسرائيل "[١].

وقد صرح سيد- رحمه الله – في مواضع كثيرة بأن أول موكب الرسل هو نوح -عليه السلام- وان آخرهم محمد – ﷺ – .[٢]

ثانيًا : أولو العزم من الرسل :

الأنبياء – كما سبق– هم صفوة الله من خلقه ، والرسل هم الصفوة من الأنبياء، ونص الكثير من أهل العلم على أن أفضل المرسلين هم : أولوا العزم منهم ، وهم الذين خصوا بالذكر مجتمعين في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾[٣] وفي قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[٤].

وأختص نبينا – ﷺ – عن غيره من الأنبياء والرسل، فنال بذلك التفضيل المطلق على العالمين من الجنة والناس والملائكة المقربين "[٥].

يقول سيد - رحمه الله- في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ﴾[٦] : " ومناسبة ما سطر في كتاب الله ، وما سبقت به مشيئته ، ليكون هو الناموس الباقي والمنهج المطرد ، يشير إلى ميثاق الله مع النبيين عامة ، والنبي– ﷺ – وأولي العزم من الرسل خاصة ، في حمل أمانة هذا المنهج ، والاستقامة عليه ، وتبليغه للناس ، والقيام عليه في الأمم التي أرسلوا إليها..إنه ميثاق واحد مطرد من لدن نوح –عليه السلام– إلى خاتم النبيين محمد–ﷺ، وقد

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٣١٣، وينظر أيضًا ٤/ ٢٣٩٢.
(٢) ينظر : في ظلال القرآن ٣/ ١٨٧٠، ١١٤٣ ، ٥/ ٢٨٢٩، ٣١٨٥، ٦/ ٣٧٠٩ .
(٣) سورة الأحزاب : الآية ٧ .
(٤) سورة الشورى: الآية ١٣ .
(٥) ينظر : لوامع الأنوار البهية للسفاريني ١/ ٤٩– ٥٠ ، ٢/ ٢٩٤ – ٢٩٥ ، والفرقان لابن تيمية ص ١٠ .
(٦) سورة الأحزاب : الآية ٧ .

عم النص أولًا ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ ﴾ ، ثم خصص صاحب القرآن الكريم ، وصاحب الدعوة العامة إلى العالمين ﴿ وَمِنكَ ﴾ ، ثم عاد إلى أولي العزم من الرسل ، وهم أصحاب أكبر الرسالات- قبل الرسالة الأخيرة -﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ﴾[1].

ويقول أيضًا: " وقد كان لإبراهيم - عليه السلام - أكبر قسط في إقرار هذه الكلمة في الأرض -كلمة التوحيد - وإبلاغها إلى الأجيال من بعده ، عن طريق ذريته وعقبه ، ولقد قام بها من بنيه رسل كان منهم ثلاثة من أولي العزم: موسى وعيسى ومحمد خاتم الرسل- عليهم صلوات الله وسلامه "[2].

ثالثًا : التفاضل بين الرسل :

لا يمنع اتفاق الأنبياء في الدعوة من كونهم متفاضلين في الدرجات ، فهناك نصوص صريحة في تفضيل بعض الأنبياء على بعض ، وبعض الرسل على بعض .

يقول سيد - رحمه الله- في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[3] : " فالعلم المطلق لله ... وبهذا العلم المطلق بحقائق الخلائق فضل الله بعض النبيين على بعض ، وهو تفضيل يعلم الله أسبابه "[4].

أما مظاهر التفضيل فقد تحدث عنها سيد - رحمه الله- في ظلال قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾[5]. بقوله: " هذه الآية تلخص قصة الرسل والرسالات - كما أنها أفردت جماعة الرسل وميزتها من بين الناس - فهي تقرر أن الله فضل بعض الرسل على بعض ، وتذكر بعض أمارات التفضيل

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٢٩ - ٢٨٣٠ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٥/ ٣١٨٤ .
(٣) سورة الإسراء : الآية ٥٥ .
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٣٤ .
(٥) سورة البقرة : الآية ٢٥٣ .

ومظاهره والتفضيل هنا قد يتعلق :

* بالمحيط المقدر للرسول والذي تشمله دعوته ونشاطه ، كأن يكون رسول قبيلة ، أو رسول أمة ، أو رسول جيل ، أو رسول الأمم كافة في جميع الأجيال .

* كذلك يتعلق بالمزايا التي يوهبها لشخصه أو لأمته .

* كما يتعلق بطبيعة الرسالة ذاتها ومدى شمولها لجوانب الحياة الإنسانية والكونية .

وقد ذكر النص هنا مثالين في موسى وعيسى - عليهما السلام - وأشار إشارة عامة إلى من سواهما : ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾، وحين يذكر تكليم الله لأحد من الرسل ينصرف الذهن إلى موسى - عليه السلام - ومن ثم لم يذكره باسمه ، وذكر عيسى بن مريم - عليه السلام - وهكذا يرد اسمه منسوبًا إلى أمه في أغلب المواضع القرآنية ، والحكمة في ذلك - الرد على الأساطير الشائعة حول عيسى- عليه السلام - وبنوته لله - سبحانه- وازدواج طبيعته من اللاهوت والناسوت... وغيرها من الأساطير ... ولم يذكر النص هنا محمدًا - ﷺ - لأن الخطاب موجه إليه ، كما جاء في الآية السابقة في السياق ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ ﴾...الخ ، فالسياق سياق إخبار له عن غيره .

وحين ننظر إلى مقامات الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - من أية ناحية نجد محمدًا - ﷺ - في القمة العليا ، وسواءً نظرنا إلى الأمر من ناحية شمول الرسالة وكليتها ، أو من ناحية محيطها وامتدادها ، فإن النتيجة لا تتغير " [١]، وسيأتي الحديث عن تفاصيل أفضلية الرسول- ﷺ - قريبا.

هذه ما يتعلق بالتفاضل بين الأنبياء ، أما وجه الجمع بين هذه النصوص ، وبين قوله - ﷺ -: "لا تفاضلوا بين أنبياء الله " [٢] ، وقوله -ﷺ - " لا تخيروني على موسى

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٨٢ - ٢٨٣ بتصرف يسير .

(٢) رواه : البخاري في كتاب الأنبياء ٣/ ١٢٥٤ برقم ٣٢٣٣ ، ومسلم : كتاب الفضائل برقم ٢٣٧٣ .

فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشًا بساق العرش، فلا أدري هل آفاق قبلي أو كان ممن استثني "[١]، وقوله ﷺ : " لا يقولن أحدكم أني خير من يونس بن متى " [٢] وفي لفظ " ما ينبغي - لا ينبغي - لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى " [٣].

فقد ذكر بعض العلماء خمسة من أجوبة عما ورد من النهي عن التفضيل بين الأنبياء مع ثبوته في الكتاب والسُّنَّة :

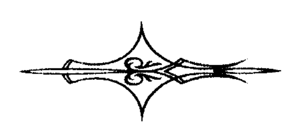
الأول : أنه- ﷺ - قاله قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم ، فلما علم أخبر به .

الثاني : أنه قال ذلك أدبًا وتواضعًا .

الثالث : أن النهي إنما هو عن تفضيل يؤدي إلى تنقيص المفضول .

الرابع : أن النهي عن تفضيل يؤدي إلى الخصومة والفتنة كما هو مشهور في سبب الحديث .

الخامس : أن النهي مختص بالتفضيل في نفس النبوة ، فلا تفاضل فيها ، وإنما التفاضل بخصائص وفضائل أخرى [٤] .



---

(١) رواه البخاري : كتاب الخصومات ٤/ ١٤٧٠برقم ٢٤١١ ، ومسلم : كتاب فضائل موسى ٤/ ١٤٧١برقم ٢٣٧٣ .

(٢) رواه البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء ٣/ ١٢٥٤برقم ٣٢٣١ .

(٣) رواه البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء برقم ٣٤١٦ ، ٣٦٣٠ ، ومسلم : كتاب الفضائل باب ذكر موسى برقم ٢٣٧٧ .

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ١٠٨-١٠٩ ، وفتح الباري لابن حجر ٦/ ٤٤٦، ٤٥٢ ، ٥٢٠- ٥٢١ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٨- ١٦٤ ، والوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا - المكتب الإسلامي - بيروت - ط٩، ١٣٩٩هـ ص ٢٠٤-٢٠٨.

المطلب السابع

وقفة مع كلام سيد قطب عن موسى ـ عليه السلام ـ



يكثر الكلام حول طعن سيد - رحمه الله- في نبي الله موسى - عليه السلام -، حيث أورد د/ ربيع المدخلي تحت عنوان" أدب سيد مع رسول الله وكليمه موسى -عليه السلام -" [1]، كلامًا لسيد - رحمه الله-في كتابه " التصوير الفني في القرآن الكريم " وعلق عليه بأن سيدًا - رحمه الله- نسى الآيات التي تبين إكرام الله لموسى أو تناساها لينسجم ذلك مع سخريته بهذا النبي الكريم ، والتشنيع والذم والتحقير له [2].

ولابد من إيضاح بعض القضايا حتى تستبين لنا حقيقة الأمر وذلك من خلال الوقفات الآتية :

الوقفة الأولى : لا شك أن الذي يقرأ ما كتبه سيد - رحمه الله- عن موسى -عليه السلام - في كتابه " التصوير الفني في القرآن الكريم " يرى أن سيدًا - رحمه الله- ، أخطأ في عبارات ولا شك .

ولكن الذين نقلوا كلام سيد - رحمه الله- في التصوير الفني ، وقيموه من خلاله غفلوا أو تغافلوا عن حقائق كان الواجب النظر فيها وهي كما يلي :

١ ـ الحقيقة الأولى :

أن كتاب " التصوير الفني " ألفه سيد عام (١٩٤٥م) في بداية تحوله نحو الإسلام، بعد مرحلة الضياع والانحراف الفكري، وكان ينطلق في هذه المرحلة " الإسلاميات الفنية " من منطلق أدبي نقدي فني، وليس من منطلق ديني في تعامله مع النصوص القرآنية، حيث صرح سيد - نفسه- بذلك في مقدمة كتابه " مشاهد

---

(١) أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب . د/ ربيع المدخلي ص١٩-٢٣، والحد الفاصل ص١٢٣-١٢٥، ونظرات في كتاب التصور الفني ص٢٧-٣٠.

(٢) ينظر كلامه في : أضواء إسلامية ص٢٥، نظرات من كتاب التصوير الفني، هوامش الصفحات ٢٧-٣٠، والحد الفاصل ص١٢٥.

القيامة " وهو الكتاب الثاني في مشروع سيد الذي أعلن عنه بعنوان : "مكتبة القرآن الجديدة " ويعتبر مكملًا لكتاب " التصوير الفني " حيث وضح سيد : أن هدفه من هذا المشروع هدف فني بياني أدبي جمالي، وأنه ينظر في أسلوب القرآن بعين الناقد الأدبي، ويتدبره بحاسته الأدبية النقدية الذوقية، ويختم كلامه بقوله : " وهدفي هنا فني خالص محض، لا أتأثر فيه إلا بحاسة الناقد الفني المستقل، فإذا التقت في النهاية قداسة الفن بقداسة الدين، فتلك نتيجة لم أقصد إليها ولم أتأثر بها "[1]، وفي خاتمة "مشاهد القيامة" يسوق كلامًا قريبًا من هذا يوضح فيه أن بحثه في القرآن في تلك الفترة بحثًا فنيًا محضًا بعيدًا عن قضية العقيدة .[2]

وعندما نسوق مثل هذا الكلام ليس القصد التبرير لخطأ سيد - رحمه الله- فهو خطأ بلا شك، لكننا نسوقه لنعرف طبيعة المرحلة التي ألف فيها الكتاب الذي جاء فيه هذا الكلام، فهي مرحلة كان كلامه فيها منطلق من الفن والأدب لا من البحث الديني .

٢- الحقيقة الثانية :

بما أن كتاب " التصور الفني " كان في بداية تحول سيد - رحمه الله- نحو الدراسات الإسلامية بهدف فني نقدي، وإن له كتبًا أخرى ألفها في مرحلته الإسلامية الأخيرة، فإنه ينشأ سؤال مهم وهو: ما موقف سيد قطب فيما يتعلق بنبي الله موسى -عليه السلام- في كتاباته التي كتبها في مرحلته الإسلامية ؟ .

والجواب : حتى يتبين لنا حقيقة موقف سيد - رحمه الله- النهائي في كتبه الإسلامية نستعرض كلامه حول الفقرات التي ذكرها في التصوير الفني، مع كلامه في الظلال، ونقارن بينهما لنعرف هل هما متفقان ؟ أم مختلفان ؟ وفيما يلي مقارنة بين كلامه في "التصوير الفني " وكلامه في " الظلال "حول ما يتعلق بموسى - عليه السلام - .

أولا: حادثة قتل موسى - عليه السلام - للقبطي :

أ- يقول سيد في " التصور الفني" : " .. لنأخذ موسى إنه نموذج للزعيم المندفع

(١) ينظر: مقدمة مشاهد القيامة ص ٧-١٢ . والتصور الفني ص١٩٣ .
(٢) ينظر: خاتمة " مشاهد القيامة " ص٢٦٦-٢٧٢.

العصبي المزاج، فها هو ذا قد ربى في قصر فرعون، وتحت سمعه وبصره، وأصبح فتىً قويًا ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾[١]، وهنا يبدو الانفعال العصبي واضحًا، وسرعان ما تذهب هذه الدفعة العصبية، فيثوب إلى نفسه شأن العصبيين ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾[٢]، وهو تعبير مصور لهيئة معروفة: هيئة المتفزع المتلفت المتوقع للشر في كل حركة، وتلك سمة العصبيين أيضًا ، ومع هذا، ومع أنه قد وعد بأنه لن يكون ظهيرًا للمجرمين، فلننظر ما يصنع، إنه ينظر، ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ﴾ مرة أخرى على رجل آخر ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ ولكنه يهم بالرجل الأخر كما هم بالأمس، وينسيه الاندفاع استغفاره وندمه وخوفه وترقبه، لولا أن يذكره من يهم به بفعلته، فيتذكر ويخشى ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾[٣]، وحينئذ ينصح له بالرحيل رجل جاء من أقصى المدينة يسعى، فيرحل عنها كما علمنا "[٤].

ب - كلام سيد - رحمه الله - حول الحادثة في ظلال القرآن الكريم :

استعرض سيد - رحمه الله - الآيات التي تتحدث عن قصة موسى - عليه السلام - في سورة القصص، وعندما وصل إلى الآيات التي تتحدث عن قتل موسى - عليه السلام - للقبطي، ذكر كلامًا طويلا ننقل هنا موضع الشاهد فقط .

ففي ظلال قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى

(١) سوره القصص : الآية: ١٥.
(٢) سورة القصص : الآية ١٥ - ١٨ .
(٣) سورة القصص : الآية: ١٨-١٩.
(٤) التصور الفني في القرآن، سيد قطب ص١٦٤-١٦٥.

ﵟٱلۡمُحۡسِنِينَﵞ[(١)]، يقول سيد : " وبلوغ الأشد اكتمال القوى الجسمية، والاستواء اكتمال النضوج العضوي والعقلي، وهو يكون عادة حوالي سن الثلاثين... وسياق الحوادث يلهم أن موسى - عليه السلام - اعتزل القصر ، ولم تسترح نفسه للحياة في ظل تلك الأوضاع الآسنة التي لا تستريح لها نفس مصفاة مجتباة كنفس -موسى عليه السلام - وخاصة وهو يرى كيف يسام قومه الخسف البشع والظلم الشنيع ،... والتعقيب على إتيانه الحكمة والعلم بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ يشير بأنه أحسن فأحسن الله إليه بالحكمة والعلم .

ولما دخل المدينة وجد رجلين يقتتلان، أحدهما قبطي .. والأخر إسرائيلي .. فاستغاث الإسرائيلي بموسى مستنجدًا، ولعله عرف أن موسى من بني إسرائيل وأنه ناقم على الملك ومنتصر لقومه المضطهدين، ولم يعد متصلاً بالقصر، وهذا هو الأنسب لمن في مقام موسى - عليه السلام - فإنه بعيد الاحتمال أن تطيق نفسه البقاء في مستنقع الشر والفساد .

فوكز موسى- عليه السلام - القبطي وكزة واحدة فقتله، مما يشير بقوة موسى وفتوته، ويصور كذلك انفعاله وغضبه، ويعبر عما كان يخالجه من الضيق بفرعون ومن يتصل به .

ويبدو من السياق أنه لم يكن يقصد قتل القبطي ، ولم يعمد لأنه ندم على فعلته، وعزاها للشيطان وغوايته، فقد كانت من الغضب ، والغضب شيطان ، أو نفخ من الشيطان ...

ثم يستطرد في فزع مما دفعه إليه الغضب ، ويعترف بظلمه لنفسه.. ويتوجه إلى ربه ، طالبًا مغفرته وعفوه ..واستجاب الله إلى ضراعته ، وحساسيته ، واستغفاره، ...وكأنما أحس موسى بقلبه المرهف وحسه المتوفز في حرارة توجهه إلى ربه ، أن ربه غفر له، والقلب المؤمن يحس بالاتصال والاستجابة للدعاء فور الدعاء ..وعند ذلك يقطع على نفسه عهدًا ، ألا يقف في صف المجرمين ظهيرًا ومعينًا، وهي براءة من الجريمة وأهلها في كل صورة من صورها، حتى ولو كانت اندفاعًا تحت تأثير

(١) سورة القصص : الآية ١٤.

الغيظ ، ومرارة الظلم والبغي، وهذه الإرتعاشة العنيفة ، وقبلها الاندفاع العنيف، تصور لنا شخصية موسى - عليه السلام - شخصية انفعالية ، حارة الوجدان ، قوية الاندفاع، وهي سمة بارزة فيه تظهر في مواضع أخرى كثيرة ...

ومر يوم وأصبح في المدينة خائفًا من انكشاف أمره ، يترقب الافتضاح والأذى، ولفظ " يترقب" يصور هيئة القلق الذي يتلفت ويتوجس ، ويتوقع الشر في كل لحظة .. . وهي سمة الشخصية الانفعالية تبدو في هذا الموقف كذلك، والتعبير يجسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ ،...

وإذا بصاحبه الإسرائيلي مشتبك مع قبطي آخر، وهو يستصرخ موسى لينصره، كما فعل بالأمس، ولكن صورة قتيل الأمس كانت ما تزال تخايل لموسى .. وإلى جوارها ندمه واستغفاره وعهده مع ربه، ثم توجسه من الأذى المتوقع، فإذا هو ينفعل على هذا الذي يستصرخه ، ويصفه بالغواية والضلال ...فاشتباكاته لا تثمر في هذا الوقت إلا الضرر لبني إسرائيل .

وانفعلت نفسه بالغيظ من القبطي ، فاندفع يريد أن يقضي عليه كما قضى على الأول بالأمس، ولهذا الاندفاع دلالته على تلك السمة الانفعالية التي أشرنا إليها، ولكن له دلالته من جانب آخر على مدى امتلاء نفس موسى - عليه السلام - بالغيظ من الظلم ، والنقمة على البغي ، والضيق بالأذى الواقع على بني إسرائيل، والتوفز لرد العدوان الطاغي ، الطويل الأمد ، الذي يحتفر في القلب البشري مسارب من الغيظ وأخاديد ...

ولقد طال الظلم ببني إسرائيل ، فضاقت به نفس موسى -عليه السلام -حتى رأيناه يندفع في المرة الأولى ويندم ، ثم يندفع في المرة الثانية لما ندم عليه حتى ليكاد يفعله ، ولذلك لم يتخل الله عنه ، فالله يعلم أن للطاقة البشرية حدًا للاحتمال، فلم يهول في وصف الفعلة التي فعلها موسى ، كما أنه لا يبررها، ولعل وصفها بأنها ظلم للنفس إنما نشأ من اندفاع موسى بدافع العصبية القومية، وهو المختار ليكون رسول الله ، المصنوع على عين الله، أو لأنه استعجل الاشتباك بصنائع الطغيان، والله يريد أن يكون الخلاص الشامل بالطريقة التي قضاها .. كما كف الله المسلمين في مكة عن

الاشتباك حتى جاء الأوان ... وبعد أن نصحه الرجل المؤمن بالخروج ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ومرة أخرى نلمح السمة الواضحة في الشخصية الانفعالية، التو فز والتلفت، ونلمح معها التوجه المباشر بالطلب إلى الله والتطلع إلى حمايته ورعايته، والالتجاء إلى حماه في المخافة، وترقب الأمن .

وانتهى به السفر إلى ماء مدين .. وإذا به يطلع على مشهد لا تستريح إليه النفس ذات المروءة ، السليمة الفطرة ، كنفس موسى - عليه السلام - رجال يسقون دون النساء، فتقدم وسأل المرأتين فأطلعتاه على السبب، فثارت نخوة موسى - عليه السلام - وفطرته السليمة فسقى لهما ، مما يشهد بنبل هذه النفس التي صنعت على عين الله وبقوته أيضًا، ولعلها قوة نفسية، فإنما يتأثر الناس أكثر بقوة الأرواح والقلوب ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [(١)]، ونسمع من خلال التعبير رفرفة هذا القلب والتجاءه إلى الحمى الآمن ، والركن الركين، والظل الظليل " [(٢)].

* وفي ظلال قوله تعالى لموسى﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾[(٣)]، يقول -سيد - : " وذلك حين كبر وشب في قصر فرعون ، ثم نزل المدينة يومًا فوجد فيها رجلين يقتتلان أحدهما إسرائيلي والآخر مصري ، فاستغاثه الإسرائيلي فوكز المصري بيده فخر صريعًا، ولم يكن ينوي قتله إنما كان ينوي دفعه، فامتلأت نفسه بالغم على هذه الفعلة وهو المصنوع على عين الله منذ نشأته، وتحرج ضميره وتأثم من اندفاعه . . فربه يذكره هنا بنعمته عليه " [(٤)].

ثانيًا : موقف النداء في الصحراء والتكليف بالنبوة :

أ- كلام - سيد- في "التصوير الفني "يقول : " فلندعه هنا لنلتقي به في فترة ثانية من حياته بعد عشر سنوات، فلعله قد هدأ وصار رجلًا هادئ الطبع حليم النفس، كلا ! فها هو ينادى من جانب الطور الأيمن، أن ألقِ عصاك، فألقاها فإذا هي حية

(١) سورة القصص : الآية ٢٤.
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٨١-٢٦٨٦ بتصرف .
(٣) سورة طه : الآية ٤٠.
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٣٥ .

تسعى، وما يكاد يراها حتى يثب جريًا ولا يعقب ولا يلوي، إنه الفتى العصبي نفسه ولو أنه قد صار رجلا، فغيره كان يخاف نعم، ولكن لعله كان يبتعد منها، ويقف ليتأمل هذه العجيبة " [١].

ب- كلام سيد - رحمه الله- في الظلال : تحدث سيد قبل ذكر الحادثة عن تدبير الله لموسى - عليه السلام - وعنايته به رضيعًا، وطفلاً، وفي القصر، وبعد قتله القبطي، وفي خروجه من مصر إلى مدين، وفي عمله عند الشيخ وزواجه، وكل ذلك إعدادًا له لتحمل تكاليف المهمة المنتدب لها، فلما استكملت نفس موسى - عليه السلام - تجاربها قادت يد القدرة خطاه مرة أخرى عائدةً به إلى مسقط رأسه .

وهكذا ندرك كيف صنع موسى على عين الله،وكيف أعدته القدرة لتلقي التكليف، فلنتبع خطى موسى تنقلها يد القدرة الكبرى ، في طريقه إلى هذا التكليف، في طريقه، وهو يبحث لأهله عن جذوة من نار يصطلون بها، إذا به يتلقى النداء المباشر من الله، .. ووقف موسى في أكرم موقف يلقاه إنسان﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾[٢] ،.. وألقى موسى عصاه إطاعة لأمر مولاه، ولكن ماذا ؟ إنها لم تعد عصاه التي صاحبها طويلاً ، ويعرفها يقينًا، إنها حية تدب في سرعة، وتتحرك في خفة ، وتتلوى كصغار الحيات وهي حية كبرى ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾، " إنها المفاجأة التي لم يستعد لها ، مع الطبيعة الانفعالية ، التي تأخذها الوهلة الأولى ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ ولم يفكر في العودة إليها ليتبين ماذا بها، وليتأمل هذه العجيبة الضخمة ، وهذه هي سمة الانفعاليين البارزة تتجلى في موعدها، ثم يستمع إلى ربه الأعلى﴿ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾، وكيف لا يأمن من تنقل يد القدرة خطاه ، ومن ترعاه عين الله؟ .

إن الخوف والأمن يتعاقبان سريعًا على هذه النفس ، ويتعاورانها في جميع مراحل حياتها، إنه جو هذه الحياة من بدئها إلى نهايتها، وإن هذا الانفعال الدائم المقصود في

---

(١) التصور الفني في القرآن : ص١٦٥ .
(٢) سورة القصص : الآية ٣٠-٣١.

تلك النفس، مقدر في هذه الحياة، لأنه الصفحة المقابلة لتبلد بني إسرائيل، ومرودهم على الاستكانة ذلك الأمد الطويل، وهو تدبير القدرة وتقديرها العميق الدقيق "[١].

* وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾[٢]، يقول سيد: " والظاهر من حكاية قوله -عليه السلام- أن خوفه ليس من مجرد التكذيب، ولكن من حصوله في وقت يضيق فيه صدره ولا ينطلق لسانه فلا يملك أن يبين، وأن يناقش هذا التكذيب ويفنده إذ كانت بلسانه حبسة هي التي قال عنها ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾[٣]،ومن شأن هذه الحبسة أن تنشئ حالة من ضيق الصدر، تنشأ من عدم القدرة على تصريف الانفعال بالكلام، وتزداد كلما زاد الانفعال، فيزداد الصدر ضيقًا وهكذا، وهي حالة معروفة، فمن هنا خشي موسى أن تقع له وهو في موقف المواجهة بالرسالة لظالم جبار كفرعون، فطلب من ربه إعانته بأخيه هارون، وإشراكه معه في الرسالة إتقاءً للتقصير في أداء التكليف، لا نكوصًا ولا اعتذارًا عن التكليف، فهارون أفصح لسانًا ومن ثم هو أهدأ انفعالًا، فإذا أدركت موسى حبسة أو ضيق، نهض هارون بالجدل والمحاجة والبيان فهو الاحتياط للدعوة، حتى لا تبدو ضعيفة قاصرة .. وهذا هو الذي يليق بموسى -عليه السلام- الذي صنعه الله على عينه واصطنعه لنفسه "[٤]

* و في ظلال الآيات التي تتحدث عن الحادثة في سورة طه، يقول سيد - رحمه الله-: " إن القلب ليجف، وإن الكيان ليرتجف، وهو يتصور مجرد تصور ذلك المشهد.. موسى فريد في تلك الفلاة، والليل دامس، والظلام شامل، والصمت مخيم، وهو ذاهب يلتمس النار التي آنسها من جانب الطور، ثم إذا الوجود كله من حوله يتجاوب بذلك النداء ...﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ﴾ فيا للتكريم! ياللتكريم أن يكون الله بذاته هو الذي يختار عبدًا من العبيد .. وبعد أن يلخص له ما يوحى في ثلاثة

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٩١-٢٦٩٢ بتصرف.
(٢) سورة الشعراء: الآية :١٠-١٣.
(٣) سورة طه: الآية: ٢٧-٢٨.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٨٥-٢٥٩٠ بتصرف.

أمور مترابطة : الاعتقاد بالوحدانية ، والتوجه بالعبادة ، والإيمان بالساعة، وهي أسس رسالة الله الواحدة ، .. ولا بد أن يكون موسى قد نسي نفسه ونسي ما جاء من أجله ، ليتبع ذلك الصوت العلوي الذي ناداه، وليسمع التوجيه القدسي الذي يتلقاه، وبينما هو مستغرق فيما هو فيه ، ليس في كيانه ذرة واحدة تتلفت إلى سواه، إذا هو يتلقى سؤالًا لا يحتاج منه إلى جواب﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ فأجاب: ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ فيأتيه الأمر:﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ (١).

ووقعت المعجزة الخارقة ... فدهش لها موسى وخاف .. ثم اطمأن والتقط الحية، فإذا هي تعود سيرتها الأولى ! عصا .

ثم تحدث سيد – رحمه الله– عن حوار موسى مع ربه بكلام قريب مما سبق في سورة الشعراء، حول مراحل رعاية الله لموسى – عليه السلام – من ولادته إلى لحظته، ووقف عند قوله تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ قائلًا: " وما من شرح يمكن أن يضيف شيئًا إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق الذي يلقيه التعبير القرآني العجيب ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ وكيف يصف لسان بشري خلقًا يصنع على عين الله ؟ إن قصارى أي بشري أن يتأمله ويتملاه، إنها منزلة وإنها كرامة أن ينال إنسان لحظة من العناية، فكيف بمن يصنع صنعًا على عين الله ؟ إنه بسبب من هذا أطاق موسى أن يتلقى ذلك العنصر العلوي الذي تلقاه ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ خالصًا مستخلصًا ممحصًا لي ولرسالتي ودعوتي، وليس بك شيء من هذه الدنيا ولا لهذه الدنيا، إنما أنت للمهمة التي صنعتك على عيني لها، واصطنعتك لتؤديها" (٢).

ثالثًا :موقف مواعدة الله لموسى ـ عليه السلام ـ وعبادة قومه للعجل في غيابه:

أ- كلام -سيد- في التصوير الفني ، يقول عن قصة السحرة : " ثم لندعه فترة أخرى، لنرى ماذا يصنع الزمن في أعصابه، لقد انتصر على السحرة، وقد استخلص

(١) سورة طه : الآية :٢٠-٢١.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٣٠-٢٣٣٥ بتصرف .

بني إسرائيل، وعبر بهم البحر، ثم ذهب إلى ميعاد ربه على الطور، وإنه لنبي، ولكن ها هو ذا يسأل ربه سؤالا عجيبــًا) قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي (ثم حدث ما لا تحتمله أية أعصاب إنسانية ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]عودة العصبي في سرعة واندفاع!

ثم ها هو ذا يعود، فيجد قومه قد اتخذوا لهم عجلًا إلها، وفي يديه الألواح التي أوحاها الله إليه، فما يتريث وما يني ﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ وإنه ليمضي منفعلًا يشد رأس أخيه ولحيته ولا يسمع له قولًا ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾[2]، وحين يعلم أن "السامري" هو الذي فعل الفعلة، يلتفت إليه مغضبًا ويسأله مستنكرًا، حتى إذا علم سر العجل ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾[3]، هكذا في حنق ظاهر وحركة متوترة " [4].

ب- كلامه عن الحادثة في الظلال :

عرض سيد - رحمه الله- وقفات كثيرة في ظلال الآيات التي تتحدث عن هذه الفترة من قصة موسى - عليه السلام - وهي الفترة من انتصاره على السحرة وخروجه ببني إسرائيل من مصر، وحتى عبادة قومه للعجل أثناء غيابه عنهم، وسأحاول تلخيص كلامه والاقتصار على موضع الشاهد منه:

* يقول بعد قصته مع السحرة وتآمر فرعون وملأه: "ويرفع الستار في السياق القرآني على مشهد النبي موسى - عليه السلام - مع قومه ، يحدثهم بقلب النبي ولغته ، ومعرفته بحقيقة ربه، وبسنته وقدره ، ويوصيهم بالصبر والاستعانة بالله و يلوح

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٤٣.

(٢) سورة الأعراف :الآية : ١٥٠.

(٣) سورة طه : الآية ٩٧.

(٤) التصوير الفني في القرآن ص١٦٥-١٦٦.

لهم عن رجائه في ربه أن يهلك عدوهم ، ويستخلفهم في الأرض، إنها رؤية " النبي " لحقيقة الألوهية وإشراقها في قلبه، ولحقيقة الواقع الكوني والقوى التي تعمل فيه، ولحقيقة السُّنَّة الإلهية ..ورؤية "النبي" لحقائق الوجود الكبرى ، ويتبرم قومه ويمضي النبي الكريم على نهجه، يذكرهم بالله، ويعلق رجاءهم به، ويلوح لهم بالأمل .. إنه ينظر بقلب النبي فيرى سنة الله ، تجري وفق وعده ، للصابرين ، وللجاحدين "[١] .

ويتحقق وعد الله لموسى – عليه السلام – فيهلك فرعون وجنوده في البحر، ويجاوز ببني إسرائيل، قال سبحانه : ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[٢].

" إنه أمر غريب أن يطلبوا إلى نبيهم رسول رب العالمين أن يتخذ لهم آلهة ! ولو أنهم اتخذوا آلهة لكان الأمر أقل غرابه .

ويغضب موسى – عليه السلام – غضبة رسول رب العالمين ، لرب العالمين – يغضب لربه – سبحانه – ويغار على ألوهيته أن يشرك بها قومه ! فيقول قولته التي تليق بهذا الطلب العجيب : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾، على إطلاقه دون تحديد لمعنى الجهل، ..ثم ترتفع نغمة الغيرة في كلمات موسى – عليه السلام – على ربه والغضب له – سبحانه – والتعجب من نسيان قومه لنعمة الله عليهم – وهي حاضرة ظاهرة .

ثم يأتي مشهد تهيؤ موسى – عليه السلام – للقاء ربه العظيم، واستعداده للموقف الهائل بين يديه في هذه الحياة الدنيا، ليتلقى عنه، وكانت فترة التهيئة أربعين ليلة، روض فيها موسى نفسه على اللقاء الموعود، وينعزل فيها عن شواغل الأرض ليستغرق في هواتف السماء، ويعتكف فيها عن الخلق ليستغرق فيها في الخالق الجليل، وتصفو روحه وتشف وتستضيء، وتتقوى عزيمته على مواجهة الموقف المرتقب وحمل الرسالة الموعودة.

ثم يأتي المشهد الفذ الذي اختص الله به نبيه موسى – عليه السلام – مشهد الخطاب

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٥٥-١٣٥٦ بتصرف .
(٢) سورة الأعراف : الآية ١٣٨.

المباشر بين الجليل - سبحانه - وعبد من عباده ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾[1]، " إنها الوهلة المذهلة وموسى يتلقى كلمات ربه، وروحه تتشوف وتستشرف وتشتاق إلى ما يشوق ! فينسى من هو ، وينسى ما هو ، ويطلب ما لا يكون لبشر في هذه الأرض ، وما لا يطيقه بشر في هذه الأرض، يطلب الرؤية الكبرى وهو مدفوع في زحمة الشوق ودفعة الرجاء ولهفة الحب ورغبة الشهود . . حتى تنبهه الكلمة الحاسمة الجازمة ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِي ﴾ ثم يترفق به الرب العظيم الجليل ، فيعلمه لماذا لن يراه ، إنه لا يطيق،﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي ﴾والجبل أمكن وأثبت، ومع تمكنه وثباته أقل تأثرًا واستجابة من الكيان البشري، ومع ذلك فماذا ؟ ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا ﴾ .

فكيف كان هذا التجلي؟ نحن لا نملك أن نصفه ، ولا نملك أن ندركه، ولا نملك أن نستشرفه إلا بتلك اللطيفة التي تصلنا بالله ، حين تشف أرواحنا وتصفو.. وأدركت موسى رهبة الموقف، وسرت في كيانه البشري الضعيف ، ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا ﴾،﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ وثاب إلى نفسه ، وأدرك مدى طاقته ، واستشعر أنه تجاوز المدى في سؤاله ﴿ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ ﴾تنزهت وتعاليت عن أن ترى بالأبصار وتدرك ﴿ تُبۡتُ إِلَيۡكَ ﴾ عن تجاوزي للمدى في سؤالك،﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ والرسل دائما هم أول المؤمنين بعظمة ربهم وجلاله ، وبما ينزله عليهم من كلماته،

وأدركت موسى رحمة الله مرة أخرى، فإذا هو يتلقى البشرى بالاصطفاء على الناس ، في زمانه بالرسالة، واصطفائه وتفرده - عليه السلام - بكلامه سبحانه وتعالى .. وأعطاه الألواح وفيها من كل شيء موعظة وتفصيلاً، وأمره أن يأخذها بقوة وعزم، و يأمر قومه بذلك "[2] .

وبينما كان موسى - عليه السلام - في حضرة ربه ، في ذلك الموقف الفريد ، الذي تستشرفه البصائر وتقصر عنه الأبصار، وتدركه الأرواح وتحار فيه الأفكار، كان قومه من بعده يرتكسون وينتكسون ، ويتخذون لهم عجلا جسدًا له خوار يعبدونه

(١) سورة الأعراف : الآية ١٤٣.
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٦٥-١٣٧٠ بتصرف.

من دون الله !... كل ذلك وموسى - عليه السلام - بين يدي ربه، في مناجاة وكلام، لا يدري ما أحدثوا بعده إلا أن ينبئه ربه " [١] " وينبئه ربه بما كان خلفه ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ [٢]، و عاد موسى غضبان أسفًا يوبخ قومه، ويؤنب أخاه، عاد ليجدهم عاكفين على عجل من ذهب، فراح يسألهم في حزن وغضب ويعتذرون بعذر عجيب يكشف عن نفسياتهم وما فيها من بلادة وتفاهة، وخلل في التفكير، .. فالتفت إلى أخيه وهو في فورة الغضب، يأخذ بشعر رأسه ولحيته في انفعال وثورة " [٣] .

" وحق لموسى عليه السلام أن يغضب فالمفاجأة قاسية، والنقلة بعيدة، وهي حركة تدل على شدة الانفعال، فهذه الألواح هي التي كانت تحمل كلمات ربه، وهو لا يلقيها إلا وقد أفقده الغضب زمام نفسه، وكذلك أخذه برأس أخيه يجره إليه، وأخوه هو هارون العبد الصالح الطيب"[٤].

"فأما هارون فيستجيش في نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة، ليسكن من غضبه ، ويكشف له عن طبيعة موقفه " [٥] فتهدأ ثائرة موسى - عليه السلام - أمام هذا البيان، ويتجه بغضبه وانفعاله إلى السامري صاحب الفتنة.. يسأله عن السبب، ويسمع جوابه وتملصه، فيعلن موسى-عليه السلام-طرده من جماعة بني إسرائيل، ويواجهه بعنف في أمر إلهه الذي صنعه بيده، ليرى قومه بالدليل المادي أنه ليس إلها ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾[٦]، ..وفي حنق وعنف أمر أن يُهوى على عجل الذهب، فيُحرق ويُنسف ويُلقى في الماء، والعنفُ إحدىً سمات موسى - عليه السلام - وهو هنا غضبه لله ولدين الله، حيث يستحب

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٧٣-١٣٧٤ بتصرف .
(٢) سورة طه "الآية ٨٥.
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٤٦-٢٣٤٨ بتصرف .
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٣٧٤ بتصرف .
(٥) المصدر السابق ٣/ ١٣٧٤ ، ٤/ ٢٣٤٨ بتصرف .
(٦) سورة طه : الآية ٩٧.

العنف وتحسن الشدة "[١] .

رابعًا :قصته ـ عليه السلام - مع العبد الصالح :

أ- كلام سيد - رحمه الله- في " التصوير الفني، "يقول: " فلندعه سنوات أخرى ، لقد ذهب قومه في التيه، ونحسبه قد صار كهلاً حينما افترق عنهم، ولقي الرجل الذي طلب إليه أن يصحبه ليعلمه مما آتاه الله علماً، ونحن نعلم أنه لم يستطع أن يصبر حتى ينبئه بسر ما يصنع مرةً ومرةً ومرةً فافترقا، تلك شخصية موحدة بارزة، ونموذج إنساني واضح في كل مرحلة من مراحل القصة "[٢].

ب- كلام سيد - رحمه الله- في الظلال : يقـول : " وهذه الحلقة من سيرة موسى -عليه السلام - إنما ذكرت في موضع واحد من القرآن[٣]، والقرآن الكريم لم يحدد المكان، ولا التاريخ، وهل كانت في مصر ؟ أم بعد خروجه منها ؟ أم في التيه ؟ وكذا لا يذكر القرآن شيئًا عن العبد الصالح، من هو؟ ما اسمه؟ هل هو نبي أو رسول؟ أم عالم؟ أم ولي؟ ... ويلتقي موسى بالعبد الصالح ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾[٤]، بهذا الأدب اللائق بنبي ، يستفهم ولا يجزم ، ويطلب العلم الراشد من العبد الصالح العالم .

ولكن علم الرجل ليس هو العلم البشري الواضح، إنما هو جانب من العلم اللدني بالغيب أطلعه الله عليه بالقدر الذي أراده ، ومن ثم لا طاقة لموسى بالصبر على الرجل وتصرفاته ولو كان نبيًا رسولاً، لأن هذه التصرفات حسب ظاهرها قد تصطدم بالمنطق العقلي ، وبالأحكام الظاهرة ، ولا بد من إدراك ما وراءها من الحكمة المغيبة، وإلا بقيت عجيبة تثير الاستنكار ...وينبه الرجل الصالح موسى - عليه السلام - ويعزم على الصبر والطاعة ويستعين بالله، ويذكر له شرط صحبته ألا يسأله حتى يحدثه، ويرضى موسى . . ويقفا في المشهد الأول ، يخرق الرجل السفينة، - وهو عمل في ظاهره شر - وينسى موسى ما قاله وما قال له صاحبه أمام

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٤٨-٢٣٤٩ بتصرف، وينظر ٣/ ١٣٧٤-١٣٧٦.
(٢) التصوير الفني في القرآن : ص١٦٦.
(٣) سورة الكهف : الآية ٦٠-٨٢.
(٤) سورة الكهف : الآية ٦٦.

هذا التصرف العجيب الذي لا مبرر له في نظر المنطق العقلي، فالإنسان قد يتصور المعنى الكلي المجرد، ولكنه يصطدم بالتطبيق العملي لهذا المعنى، ولذا فموسى يندفع مستنكرًا .

نعم إن طبيعة موسى طبيعة انفعالية اندفاعية ، كما يظهر من تصرفاته في كل أدوار حياته، منذ أن وكز الرجل المصري الذي رآه يقتتل مع الإسرائيلي فقتله، ثم أناب إلى ربه مستغفرًا معتذرًا حتى إذا كان اليوم الثاني ورأى الإسرائيلي يقتتل مع مصري آخر ، هم بالآخر مرة أخرى.

نعم إن طبيعة موسى هي هذه الطبيعة، ومن ثم لم يصبر على فعلة الرجل ولم يستطع الوفاء بوعده الذي قطعه أمام غرابتها، ولكن الطبيعة البشرية كلها تلتقي في أنها تجد للتجربة العملية وقعًا وطعمًا غير التصور النظري، ولا تدرك الأمور حق إدراكها إلا إذا ذاقتها وجربتها .

وبعد استنكاره يذكره العبد الصالح في صبر ولطف بما كان قد قاله منذ البداية .. ويعتذر موسى بنسيانه .. ويقبل الرجل اعتذاره .

ويأتي المشهد الثاني : قتل نفس عمدًا، وهي فظيعة كبيرة لم يستطع موسى أن يصبر عليها على الرغم من تذكره لوعده ، ..فليس ناسيًا في هذه المرة ولا غافلا، ولكنه قاصد أن ينكر هذا النكر الذي لا يصبر على وقوعه ولا يتأول له أسبابا ..

ويرده العبد الصالح إلى شرطه الأول ووعده، ويرجع موسى فيقطع على نفسه الطريق ويجعلها آخر فرصة .

ويأتي المشهد الثالث : أهل قرية بخلاء، والرجل الصالح يقيم لهم جدارًا خوفًا من أن يسقط، فيشعر موسى بالتناقض في الموقف، ويسأل، وكانت هي الفاصلة، ولم يعد له بعدها من عذر ، وينتهي السياق ببيان حقيقة الأمر في المواقف الثلاثة، وما فيها من مفاجآت وعجائب .[1]

هذه النقولات الطويلة من الظلال التي تعمدت نقلها للمقارنة بينها وبين ما

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٧٨-٢٢٨١ بتصرف .

جاء في " التصوير الفني " تبين لنا بوضوح أن حديث سيد - رحمه الله- عن نبي الله موسى - عليه السلام - اختلف في الظلال عنه في التصوير فكلامه في التصوير جاء مقتضبًا موجزًا تبدو فيه الكلمات القاسية في وصفه لموسى - عليه السلام - .

أما في الظلال فقد استرسل في الحديث عن موسى - عليه السلام - في مراحل حياته، وخاصة المواقف التي أخذت عليه في " التصوير الفني " .

ومع بقاء بعض الألفاظ التي تصف موسى بالاندفاع والغضب وسرعة الانفعال والعصبية في بعض المواقف، إلا أننا نلمس من خلال السياق التي جاءت فيه، أنه لم يكن القصد منها الاستهزاء والسخرية والذم والتحقير لموسى - عليه السلام - كما يقوله البعض، فسيد - رحمه الله- كما لاحظنا من النقولات السابقة يتحدث في كل المواقف المذكورة عن موسى، مادحًا لنفس موسى - عليه السلام - المصطفاة المجتباة التي لا تستروح العيش في الأوضاع الآسنة، ويصفه بأنه أحسن مع الله فأحسن إليه وأن غضبه وانفعاله في حادثة قتل القبطي تدل على غضبه وغيظه من الظلم الذي طال ببني إسرائيل، والتوفز لرد العدوان ، ويكثر سيد من ترديد عبارة " وهو المصنوع على عين الله " ، ويصور غضب موسى - عليه السلام - على قومه في طلبهم آلهة بعد خروجهم من البحر، بأنه غضب لربه وألوهيته التي يجهلها قومه .

أما موقف النداء وطلبه رؤية الله، فإن كلام سيد - رحمه الله- يظهر فيه التعظيم والتبجيل والمدح والثناء لموسى - عليه السلام - وبيان إكرام الله له وتفرده بكلامه ويعلل سؤاله رؤية الله بالشوق والحب لربه - سبحانه وتعالى -.

كما يمدح موسى - عليه السلام - في غضبه على قومه بشأن العجل، ويصور تصرفه مع الألواح ومع هارون ومع السامري بأنه: " غضب لله ولدينه، حيث يستحب العنف وتحسن الشدة في مثل هذه المواقف " .

أما في قصته مع العبد الصالح فيظهر فيها ثناؤه على موسى، ويعلل عدم التزامه بوعده بالإضافة إلى شخصية موسى - عليه السلام - الاندفاعية، بأن الموقف في كل مره يستدعي الإنكار، فنفس موسى لا تطيق وهي المصنوعة على عين الله أن ترى منكرًا أمامها لا مبرر له .

ومما سبق نستطيع أن نخلص إلى الآتي :

أولًا : أن عبارات سيد- رحمه الله- في الحديث عن نبي الله موسى - عليه السلام - اختلفت في الظلال عنها في التصوير الفني مع أنها في المواقف نفسها ، مما يدل على أن كلامه السابق كان في مرحلة لها خصائصها وفي كتب كان لها أهدافها - كما سبق -.

ثانيًا : مع وجود بعض العبارات في نصوص الظلال يصف فيها موسى -عليه السلام - بالانفعال والعصبية والاندفاع والغضب ، إلا أن السياق الذي جاءت فيه هذه الألفاظ يدل على أنها لم تأتِ على سبيل السخرية والذم ، بل السياق يدل على المدح، بالإضافة إلى توضيح سيد - رحمه الله- في أكثر من موضع عند ذكر هذه الألفاظ للسبب وراء هذا الاندفاع والانفعال ، ومن الأسباب التي ذكرها :

١ - أن الله - سبحانه وتعالى - أراد أن تكون شخصية موسى -عليه السلام - شخصية انفعالية حادة في طبيعتها لتكون الصفحة المقابلة لتبلد بني إسرائيل ومرودهم على الاستكانة ذلك الأمد الطويل ، وهو تدبير القدرة وتقديرها العميق الدقيق "[(١)].

٢- أن الغضب والاندفاع وسرعة الانفعال من موسى - عليه السلام - في المواقف المختلفة كان غضبًا لله وغيرة على ألوهيته- سبحانه - من تصرفات قومه الجاهلين بربهم ، كما في طلبهم آلهة وفي اتخاذهم العجل في غيبته ، وهي مواقف كما يقول سيد - رحمه الله- " يستحب فيها العنف وتحسن عندها الشدة " [(٢)] .

٣- أن نفس موسى - عليه السلام - كانت نفسًا أبيةً ترفض الظلم ، وتندفع في وجه المنكر، كما حدث في قصة قتله للقبطي ، وفي إنكاره على العبد الصالح ما رآه منه من أعمال هي في ظاهرها مخالفات ومنكرات" [(٣)].

ثالثًا : مما يدل على تعظيم سيد - رحمه الله- لموسى -عليه السلام - ما جاء عنه في مواضع كثيرة من الظلال وغيره من مدحٍ وثناءٍ على هذا النبي العظيم يمكن أن ننقل عبارات منها:

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٩٢ .
(٢) المصدر السابق ٣/ ١٣٦٩ ، ٤/ ٢٣٤٩ .
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٣٣٥ ، ٥/ ٢٦٨١- ٢٦٨٦ .

* يصفه كثيرًا بأنه رسول كريم ، أجرى الله على يديه خوارق كثيرة " (١).

* يصفه بأنه زعيم ومنقذ ورحمة من الله لبني إسرائيل، من حياة الذل والعبودية (٢) .

* يصفه بالمعلم والمربي المشفق على قومه ، فرغم سفاهتهم وانحرافهم ، فقد تحمل - عليه السلام - الرذالات والانحرافات والنتوءات التي صدرت من قومه ، حرصًا على هدايتهم (٣) .

* يذكر تفضيل موسى - عليه السلام - وانفراده بالتكليم من بين الرسل (٤) .

* يصف موسى - عليه السلام - بأنه كان مخلصًا استخلصه الله له ومحضه لدعوته وكان رسولاً نبيًا (٥)

* يعرض صفحات من أخلاق موسى - عليه السلام - والمتمثلة في قوة إيمانه بربه، وثقته بوعده ، والالتجاء إليه -سبحانه -في كل وقت ، ومفاصلته للعصاة والفاسقين ، ويكرر دائمًا في التعقيب على كثير من المواقف بان هذا " أدب النبي ، الذي يليق بمن صنع على عين الله واستخلصه الله لنفسه " (٦).

* كثيرا ما يعقب على بعض مواقف موسى - عليه السلام - بقوله: " كيف وهو الذي صنع على عين الله " ويقف في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾(٧)، قائلًا: " وما من شرح يمكن أن يضيف شيئًا إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق الذي يلقيه التعبير القرآني العجيب ... وكيف يصف لسان بشري ، خلقًا يصنع على عين الله ؟ إن قصارى أي بشري أن يتأمله ويتملاه .. إنها منزلة وإنها كرامة أن ينال إنسان لحظة من العناية، فكيف بمن يصنع صنعًا على عين الله ؟ إنه بسبب من هذا أطاق موسى أن يتلقى ذلك العنصر العلوي الذي تلقاه " (٨).

(١) المصدر السابق ١/ ٧٢- ٧٣ .
(٢) المصدر السابق ١/ ٧٧ ، ٢/ ٨٦٧ ، ٣/ ١٣٣٢، ١٣٦٥ .
(٣) المصدر السابق ١/ ٧٨ ، ٢/ ٨٦٩، ٨٧١ .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٢٨٢ ، ٣/ ١٣٦٨، ١٣٧٠ ، ٤/ ٢٣١٣ .
(٥) المصدر السابق ٤/ ٢٣١٣ .
(٦) في ظلال القرآن ٢/ ٧٨١، ٣/ ١٣٥٥ ، ٤/ ٢٣٣٢ .
(٧) سورة طه : الآية ٤١ .
(٨) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٣٥ ، وينظر أيضًا ٤/ ٢٣٣٤ .

المبحث الثاني

نبوة نبينا محمد ﷺ وما يتعلق بها



تقدم معنا أن الإيمان بجميع الأنبياء أصل من أصول الإيمان التي لا يكون العبد مؤمنًا حتى يؤمن بها جميعًا، وأن الإيمان بهم إجمالًا فيما أجمل، وتفصيلًا فيما فصل، ويخص نبينا محمد - ﷺ - بوجوب الإيمان به على التفصيل، لما له - فداه أبي وأمي- من فضائل وخصائص ميزه الله بها عمن سواه من الأنبياء والمرسلين فضلًا عن سائر البشر، ويرشد إلى هذا المعنى ما ورد في دعائه - ﷺ - في صلاة التهجد وفيه: " .. ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق "(١) .

فقد ذكر ﷺ النبيين، وذكر نفسه بعد ذلك خاصة، ويدل ذلك على أنه ﷺ فاقهم بأوصاف مختلفة (٢).

لذا كان من المناسب أن يفرد خاتم النبيين وأفضلهم على الإطلاق ﷺ بمبحث مستقل، وذلك في المطالب الآتية :

المطلب الأول: حاجة العلم إلى بعثته ﷺ وآثارها في البشرية .

المطلب الثاني : أدلة نبوته ﷺ .

المطلب الثالث : خصائصه ﷺ .

---

(١) رواه : البخاري في التهجد ١/ ٣٧٧ برقم ١٠٦٩ ومسلم في صلاة المسافرين ١/ ٤٤٨ برقم ٧٦٩ .
(٢) فتح الباري : ٣/ ٤.

المطلب الأول

حاجة العالم لبعثة خاتم المرسلين - ﷺ - وأثارها في البشرية



الفرع الأول : حاجة العالم لبعثة خاتم المرسلين محمد - ﷺ - :

في ظلال قوله تعالى ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾[1]، يقول سيد - رحمه الله- : " لقد كانت الأرض في حاجه إلى رسالة جديدة، كان الفساد قد عم أرجاءها كلها بحيث لا يرتجى لها صلاح إلا برسالة جديدة، ومنهج جديد، وحركة جديدة، وكان الكفر قد تطرق إلى عقائد أهلها جميعًا سواء أهل الكتاب الذين عرفوا الديانات السماوية من قبل ثم حرفوها، أو المشركين في الجزيرة العربية وفي خارجها سواء .

وما كانوا لينفكوا ويتحولوا عن هذا الكفر الذي صاروا إليه إلا بهذه الرسالة الجديدة، وإلا على يد رسول هو ذاته بينة واضحة فارقة فاصلة ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ مطهرة من الشرك والكفر ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ والكتاب يطلق على الموضوع، كما يقال كتاب الطهارة، وكتاب الصلاة، وكتاب القدر، وكتاب القيامة، وهذه الصحف المطهرة - وهي هذا القرآن - فيها كتب قيمة، أي موضوعات وحقائق قيمة .

ومن ثم جاءت هذه الرسالة في إبانها، وجاء هذا الرسول في وقته، وجاءت هذه الصحف وما فيها من كتب وحقائق وموضوعات لتحدث في الأرض كلها حدثًا لا تصلح الأرض إلا به، فأما كيف كانت الأرض في حاجة إلى هذه الرسالة والى هذا الرسول فنكتفي في بيانه باقتطاف لمحات كاشفة من الكتاب القيم الذي كتبه الرجل المسلم " السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي " بعنوان : " ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" وهو أوضح وأخصر ما قرأته في موضوعه :

(١) سورة البينة: الآية ١-٣.

يقول: " وكان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف، فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردي ، وقد زادتها الأيام سرعة في هبوطها وشدة في إسفافها، وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه، فنسي نفسه ومصيره، وفقد رشده، وقوة التمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح، وقد خفتت دعوة الأنبياء من زمن، والمصابيح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدهم، أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب، فضلًا عن البيوت، فضلًا عن البلاد ، وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة، ولاذوا بالأديرة والكنائس والخلوات فرارًا بدينهم من الفتن، وضنًا بأنفسهم، أو رغبة إلى الدعة والسكون، وفرارًا من تكاليف الحياة وحدها، أو فشلًا في كفاح الدين والسياسة، والروح والمادة، ومن بقي منهم في تيار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا وعاونهم على إثمهم وعدوانهم، وأكل أموال الناس بالباطل ...

" وأصبحت الديانات العظيمة فريسة العابثين والمتلاعبين، ولعبة المجرمين والمنافقين، حتى فقدت روحها وشكلها، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها، وأصبحت مهود الحضارة والثقافة، والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام وعسف الحكام، وشغلت بنفسها لا تحمل للعالم رسالة، ولا للأمم دعوة، وأفلست في معنوياتها، ونضب معين حياتها، لا تملك مشروعًا صافيًا من الدين السماوي، ولا نظامًا ثابتًا من الحكم البشري" [١].

" هذه اللمحة السريعة تصور في إجمال حال البشرية والديانات قبيل البعثة المحمدية، وقد أشار القرآن إلى مظاهر هذا الكفر الذي شمل أهل الكتاب في مواضع شتى :

* من ذلك قوله تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾[٢]، وقوله تعالى عن اليهود﴿ وَقَالَتِ

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، للندوي

(٢) سورة التوبة : الآية ٣٠.

ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾[١] وقوله تعالى عن النصارى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾[٢] و﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾[٣] وقوله تعالى عن المشركين : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾[٤]، وكان وراء هذا الكفر ما وراءه من الشر والانحطاط والشقاق والخراب الذي عم أرجاء الأرض .." وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة، ولا حكومة قدسية على أساس العدل والرحمة، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء "[٥] .

ومن ثم اقتضت رحمة الله بالبشرية إرسال رسول من عنده يتلو صحفًا مطهرة فيها كتب قيمة، وما كان الذين كفروا من المشركين ومن الذين أوتوا الكتاب ليتحولوا عن ذلك الشر والفساد إلا ببعثة هذا الرسول المنقذ الهادي المبين "[٦] .

ويتحدث سيد - رحمه الله- في مواضع كثيرة عن حالة العالم عمومًا والعرب خصوصًا قبل بعثة النبي - ﷺ - مصورًا رجس الجاهلية ، وأهمية بعثة الرسول -ﷺ - لتطهير العالم من هذا الرجس.

فيذكر كلام جعفر بين أبي طالب[٧] - رضي الله عنه - للنجاشي[٨] - وهو يصف حالهم

---

(١) سورة المائدة : الآية ٦٤.

(٢) سورة المائدة : الآية ٧٢.

(٣) سورة المائدة : الآية ٧٣.

(٤) سورة الكافرون : الآية ١-٦.

(٥) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، للندوي .

(٦) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٤٨- ٣٩٥٠ .

(٧) هو : جعفر بن أبي طالب ، بن عم الرسول ﷺ ،أسلم قديمًا وهاجر إلى الحبشة ،وقدم عام خيبر واستشهد في غزوة مؤتة ، انظر : سير أعلام النبلاء ١/ ٢٠٦.

(٨) هو : ملك الحبشة اصحمه بن أبجر ، اسلم في عهد النبي ﷺ وأحسن إلى المسلمين الذين هاجروا إلى أرضه ، توفي قبل فتح مكة وصلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب ، انظر : الإصابة لابن حجر ١/ ١١٧ وسير أعلام النبلاء ١/ ٤٢٨.

في الجاهلية: أيها الملك ، كنا قومًا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ونسيُ الجوار ويأكل القوي منا الضعيف " (١).

ويستعرض -سيد- أيضًا رجس الجاهلية في باب العلاقات الجنسية ، ويورد حديث عائشة -رضي الله عنها- وهي تصور أنواع الاتصال بين الجنسين في الجاهلية (٢) ، والذي يظهر الصورة الهابطة الحيوانية المزرية التي تدل على هبوط التصور الإنساني وبهيميته ، وهي لا تحتاج إلى تعليق، ويكفي تصور الرجل وهو يرسل امرأته إلى "فلان " لتأتي له منه بولد نجيب، تمامًا كما يرسل ناقته أو فرسه أو بهيمته إلى الفحل النجيب ...ويكفي تصور الرجال - ما دون العشرة ! - يدخلون إلى المرأة مجتمعين- " كلهم يصيبها ! ".. ثم تختار هي أحدهم لتلحق به ولدها! .

أما البغاء - وهو الصورة الرابعة - فهو البغاء ! يزيد عليه إلحاق نتاجه برجل من البغاة ! وليس في ذلك معرة ! إنه الوحل الذي كانوا غارقين فيه إلى الأذان .

ولم يكن هذا الوحل في العلاقات الجنسية إلا طرفًا من النظرة الهابطة إلى المرأة في الجاهلية، والمتمثلة في : أكل حقوقها ، وحرمانها من الميراث ، وعضلها بعد الطلاق أو وفاة الزوج ، والتعامل معها كالمتاع الذي يورث ، وتحريم بعض المأكولات عليها ، والزواج بغير عدد محدد ووأد البنات أحياء وغيرها ...

واستعرض- سيد- أيضًا أصل الرجس في الجاهلية وهو الشرك والوثنية الهابطة الساذجة في اتخاذ الأصنام ، على مختلف المستويات ، الفرد والبيت والقبيلة والمدينة، وعبادة الجن والملائكة والكواكب واعتقاد أن الملائكة بنات الله ، واتخاذ الشفعاء والوسطاء وغير ذلك من الرجس الذي كان منتشرًا في أوساط الجاهلية .

كما استعرض كذلك ما كان عليه الجاهليون من إراقة الدماء وكثرة الحروب لأسباب تافهة ، وفراغ حياتهم من الاهتمامات الكبيرة التي تشغلهم عن السفاسف "(٣).

---

(١) الحديث : رواه أحمد ١/ ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٥/ ٢٩٠ ، وبن هشام في السيرة ٢/ ٢٠٦ وما بعدها وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية - المكتبة الإسلامية عمان ط ١ عام ١٤٢١ هـ ص ١٦٤ وما بعدها .
(٢) رواه : البخاري في كتاب النكاح باب لا نكاح إلا بولي ٥/ ١٩٧٠ برقم ٤٨٣٤ .
(٣) ينظر: في ظلال القرآن ١/ ٧٠٥-٥١١ وينظر أيضًا ٣/ ١١٨٣ ، ٦/ ٣٩٩٠ .

وأما وضع أهل الكتاب فكان أكثر انحرافًا وضلالًا [(١)].

الفرع الثاني : أثر بعثه ﷺ على البشرية :

أما أثر بعثته ﷺ فتبدو واضحة في تطهير البشرية وتنقيتها ، فالله- سبحانه - بعث محمدًا - ﷺ - " ليطهر الناس ويرفعهم وينقيهم، يطهر قلوبهم وتصوراتهم ومشاعرهم، ويطهر بيوتهم وأعراضهم وصلاتهم، ويطهر حياتهم ومجتمعهم وأنظمتهم ، يطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية والخرافة والأسطورة وما تبثه في الحياة من مراسم وشعائر وعادات وتقاليد هابطة مزرية بالإنسان وبمعنى إنسانيته، ويطهرهم من دنس الحياة الجاهلية وما تلوث به المشاعر والشعائر والتقاليد والقيم والمفاهيم" [(٢)].

" أما العرب فقد جاءهم هذا القرآن والدنيا لا تحس بهم ، وإن أحست اعتبرتهم على هامش الحياة، وهو الذي جعل لهم دورهم الأكبر في تاريخ هذه البشرية، وهو الذي واجهوا به الدنيا فعرفتهم ودانت لهم طوال الفترة التي استمسكوا فيها بالدين ، فلما أن تخلوا عنه أنكرتهم الأرض ، واستصغرتهم الدنيا، وقذفت بهم في ذيل القافلة هناك ، بعد أن كانوا قادة الموكب المرموقين " [(٣)].

" أما آثار هذا الحادث الهائل في حياة البشرية كلها فقد بدأت منذ اللحظة الأولى، بدأت في تحويل خط التاريخ ، منذ أن بدأت في تحويل خط الضمير الإنساني ، منذ أن تحددت الجهة التي يتطلع إليها الإنسان ويتلقى عنها تصوراته وقيمه وموازينه، إنها ليست الأرض وليس الهوى ، إنما هي السماء والوحي الإلهي .... ومنذ هذه اللحظة عاش أهل الأرض الذين استقرت في أرواحهم هذه الحقيقة - الإسلام- في كنف الله ورعايته ، يحسون يد الله تنقل خطاهم في الطريق ،...

ولقد ظلت آثار هذه الفترة تعمل في حياة البشر منذ تلك اللحظة إلى هذه اللحظة، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

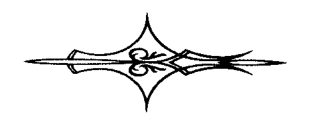
---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٦٧٩ ، ١٦٣٤- ١٦٤٢ .

(٢) المصدر السابق ١ /٥٠٧ .

(٣) المصدر السابق ٥/ ٣١٩١ بتصرف يسير ، وينظر ٢/ ٦٨٥ - ٦٨٦ .

لقد ولد الإنسان من جديد .... لقد تحول خط التاريخ كما لم يتحول من قبل قط ، وكما لم يتحول من بعد أيضًا ، وكان هذا الحدث هو مفرق الطريق، وقامت المعالم في الأرض واضحة عالية لا يطمسها الزمان ولا الأحداث، وقام في الضمير الإنساني تصور للوجود وللحياة وللقيم لم يسبق أن اتضح بمثل هذه الصورة، ولم يجيء بعده تصور في مثل شموله ونصاعته وطلاقته من اعتبارات الأرض جميعًا ، مع واقعيته وملاءمته للحياة الإنسانية، ولقد استقرت قواعد هذا المنهج الإلهي في الأرض! وتبينت خطوطه ومعالمه ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[1] ، إنه الحادث الفذ في تلك اللحظة الفريدة، الحادث الكوني الذي ابتدأ به عهد في هذه الأرض وانتهى عهد، والذي كان فرقانًا في تاريخ البشر لا في تاريخ أمة ولا جيل "[2].



(١) سورة الأنفال : الآية ٤٢ .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٣٧ - ٣٩٣٨ بتصرف ، وينظر أيضًا ١/ ١٣٧ - ١٣٩ .

المطلب الثاني

أدلة نبوة نبينا محمد ﷺ

أشار سيد – رحمه الله– في معرض حديثه عن نبوة نبينا محمد – ﷺ – في مواضع متفرقة إلى بعض أدلة نبوته – ﷺ – ، وقد سبق الإشارة إلى أدلة نبوة الأنبياء عمومًا في المبحث السابق ، وسنفرد هنا الأدلة الخاصة بنبوة محمد – ﷺ – وهي :

أولًا : البشارات في الكتب السابقة :

ذكر القرآن الكريم في مواضع عديدة أن الكتب القديمة فيها بشارات نبوة نبينا– ﷺ – ، وأنه ذكر باسمه وبصفاته ومن ذلك :

١ – قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[١] .

يقول سيد - رحمه الله-: " فقد وردت صفة الرسول الذي ينزل عليه القرآن ، كما وردت أصول العقيدة التي جاء بها في كتب الأولين ، ومن ثم كان علماء بني إسرائيل يتوقعون هذه الرسالة ، وينتظرون هذا الرسول ، ويحسون أن زمانه قد أظلهم، ويحدث بعضهم بعضًا بهذا كما ورد على لسان سلمان الفارسي [٢] ، ولسان عبد الله بن سلام [٣] – رضي الله عنهما – والأخبار في هذا ثابتة كذلك بيقين "[٤].

٢– قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا

---

(١) سورة الشعراء : الآية ١٩٦– ١٩٧ .

(٢) هو : سلمان أبن الإسلام ، أبو عبد الله الفارسي ، صحب رسول الله – ﷺ – وخدمه وحدث عنه عمر طويلًا وولي المدائن وكان متواضعًا مصدق بعطائه توفى في المدائن سنة ٣٦ هـ ، انظر : سير أعلام النبلاء ١/ ٥٠٥ والإصابة ٤/ ٢٢٣ .

(٣) هو : عبد الله بن سلام الإسرائيلي ، أبو يوسف حليف الخزرج قيل اسه الحصين فسماه رسول الله – ﷺ– عبد الله ، مشهور له أحاديث وفضل مات بالمدينة سنة ٤٣هـ انظر التهذيب ١/ ٤٢٢ .

(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦١٧ ، وينظر ١/ ٨٤ .

وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾[١]، يقول سيد - رحمه الله-: " وردت روايات شتى فيما هو المقصود بقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾، وفي قوله تعالى : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾، وفي عائد هذه الضمائر في : " رَبِّه " وفي "يَتْلُوهُ" وفي " مِنْهُ "..وأرجحها كما يبدو لي هو أن المقصود بقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾هو رسول الله - ﷺ - وبالتبعية له كل من يؤمن بما جاء به وأن المقصود بقوله تعالى: ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أي ويتبعه شاهد من ربه على نبوته ورسالته وهو هذا القرآن الذي يشهد بذاته أنه وحي من الله لا يقدر عليه بشر﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ ﴾ أي من قبل هذا الشاهد وهو القرآن﴿ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ يشهد كذلك بصدق النبي ﷺ سواء بما تضمنه من البشارة به، أو بموافقة أصله لما جاء به محمد ﷺ من بعده ، ويكون المعنى الكلي للآية : فهذا النبي الذي تتضافر الأدلة والشواهد على صدقه وصحة إيمانه ويقينه، حيث يجد في نفسه بينة واضحة مستيقنة من ربه، وحيث يتبعه أو يتبع يقينه هذا شاهد من ربه هو هذا القرآن الدال بخصائصه على مصدره الرباني، وحيث يقوم على تصديقه شاهد آخر قبله ، هو كتاب موسى الذي جاء إمامًا لقيادة بني إسرائيل ورحمة من الله تنزلت عليهم، وهو يصدق رسول الله ﷺ بما تضمنه من التبشير به ، كما يصدقه بما فيه من مطابقة للأصول الإعتقادية التي يقوم عليها دين الله كله . .

يقول : أفمن كان هذا شأنه يكون موضعًا للتكذيب والكفر والعناد كما تفعل الأحزاب التي تناوئه من شتى فئات المشركين؟ إنه لأمر مستنكر إذن في مواجهة هذه الشواهد " [٢].

٣- قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[٣]، يقول سيد - رحمه الله- : " وإنه لنبأ عظيم ، يشهد بأن بني إسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبي الأمي ، على يدي نبيهم موسى

(١) سورة هود : الآية ١٧ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٦٤- ١٨٦٥ بتصرف يسير .
(٣) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

ونبيهم عيسى - عليهما السلام - منذ أمد بعيد ، جاءهم الخبر اليقين ببعثه ، وبصفاته، وبمنهج رسالته ، وبخصائص ملته ، وبذلك البلاغ المبكر لبني إسرائيل - على يد نبيهم موسى -عليه السلام- - كشف الله -سبحانه- عن مستقبل دينه ، وعن حامل رايته، وعن أتباعه ، وعن مستقر رحمته، فلم يبق عذر لأتباع سائر الديانات السابقة، بعد ذلك البلاغ المبكر بالخبر اليقين : وهذا الخبر اليقين من رب العالمين لموسى -عليه السلام- - وهو والسبعون المختارون من قومه في ميقات ربه - يكشف كذلك عن مدى جريمة بني إسرائيل في" استقبالهم لهذا النبي الأمي وللدين الذي جاء به" [١].

٤- قوله تعالى عن عيسى -عليه السلام- - ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾[٢]، يقول سيد - رحمه الله-: " وبشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا النص ، سواء تضمنت الأناجيل المتداولة هذه البشارة أم لم تتضمنها، فثابت أن الطريقة التي كتبت بها هذه الأناجيل والظروف التي أحاطت بها لا تجعلها هي المرجع في هذا الشأن .

وقد قرئ القرآن على اليهود والنصارى في الجزيرة العربية وفيه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[٣]، وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام بهذه الحقيقة ، التي كانوا يتواصون بكتمها !.

كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا ينتظرون مبعث نبي قد أظلهم زمانه ، وكذلك بعض الموحدين المنعزلين من أحبار النصارى في الجزيرة العربية، ولكن اليهود كانوا يريدونه منهم، فلما شاء الله أن يكون من الفرع الآخر من ذرية إبراهيم ، كرهوا هذا وحاربوه " [٤] .

"وقد سئل رسول الله ﷺ عن نفسه فقال : " أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٧٨ بتصرف يسير .
(٢) سورة الصف : الآية ٦ .
(٣) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٥٧ .

الشام " .[١]. [٢].

ثانيًا : قرائن أحواله – ﷺ – :

اشرنا فيما سبق عند الحديث عن دلائل نبوة الأنبياء عموما إلى أن أحوالهم – عليهم السلام– من الأمور التي يستدل بها على صدق نبوتهم، ونذكر هنا بعض النصوص الخاصة بنبينا – ﷺ – ومنها :

١– في ظلال قوله تعالى:﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾[٣] يقول سيد –رحمه الله– : "أما الرسول الذي حمله إليكم فهو﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾ عرفتموه حق المعرفة عمرًا طويلًا، فما لكم حين جاءكم بالحق تقولون فيه ما تقولون، وتذهبون في أمره المذاهب، وهو ﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾ الذي لا تجهلون، وهو الأمين على الغيب الذي يحدثكم عنه عن يقين .

ولقد قالوا عن النبي الكريم الذي يعرفونه حق المعرفة ، ويعرفون رجاحة عقله، وصدقه وأمانته وتثبته ..." [٤] .

٢– في ظلال الآيات التي تتحدث عن اقتراحات المشركين وطلبهم الآيات من الرسول – ﷺ – يقول سيد – رحمه الله– : " ومن مثل هذه الاقتراحات يتبين التعنت كما تتبين الجهالة، وإلا فقد كان لهم من خلق رسول الله ﷺ الذي يعرفونه جيدًا بالخبرة الطويلة ما يدلهم على صدقة وأمانته وهم كانوا يلقبونه الأمين ، ويودعون لديه أماناتهم حتى وهم معه على أشد الخلاف، وقد هاجر ﷺ وترك ابن عمه عليًا – رضي الله عنه – يرد إلى قريش ودائعهم التي كانت ما تزال عنده، وهم معه على الخلاف الذي يدبرون معه قتله ! وكذلك كان صدقه عندهم مستيقنًا كأمانته، فإنه لما دعاهم أول مرة دعوة جماعية جهرية على الصفا – حين أمره ربه بذلك – وسألهم: إن كانوا يصدقونه لو أنبأهم بنبأ ، أجابوه كلهم بأنه عندهم مصدق" [٥]، فلو كانوا يريدون

---

(١) رواه : الحاكم ٨/ ٢٢٨ ، والبيهقي في دلائل النبوة ١/ ٢٠ وصححه الألباني في الصحيحة برقم ١٥٤٥ وصحيح السيرة النبوية ص ١٦ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٦٥ وينظر أيضًا : ٤/ ٢٠٦٥ الهامش ٢ .

(٣) سورة التكوير : الآية ٢٢ .

(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٤٢ .

(٥) ينظر : في ظلال القرآن ٥/ ٢٦١٩ .

أن يعلموا صدقه لقد كان لهم في ماضيه برهان، ولقد كانوا يعلمون : إنه لصادق ، وسيأتي في سياق السورة خبر الله الصادق لنبيه أنهم لا يكذبونه ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[(١)] فهي الرغبة في الإنكار والإعراض، وهو العناد والاستكبار عن الحق، وليس أنهم يشكون في صدقه ﷺ "[(٢)] "فالمشركون لم يكونوا يشكون في صدق محمد ﷺ فلقد عرفوه صادقًا أمينًا ، ولم يعلموا عنه كذبة واحدة في حياته الطويلة بينهم قبل الرسالة، وحتى الذين كانوا يتزعمون معارضته لم يكونوا يشكون في صدق رسالته، وفي أن هذا القرآن ليس من كلام البشر ، ولا يملك البشر أن يأتوا بمثله .

ومع ذلك - كانوا يرفضون إظهار التصديق ، و الدخول في دينه لا شكًا في صدقه ، ولكن لأن في دعوته خطر على نفوذهم ومكانتهم ،...

وقد أورد سيد - رحمه الله- روايات عديدة من السيرة ، توضح أن المشركين والمعاندين لرسول الله - ﷺ - كانوا على يقين بصدق نبوته ﷺ ، وتحدثهم فيما بينهم بذلك ، واعترافهم بان الذي حملهم على الكفر به هو الحسد والكبر"[(٣)].

" فإذا كان محمد ﷺ كما يعلمون عنه قبل البعثة أنه الصادق الأمين الذي لا يكذب ولا يخون ، فكيف يكذب على الله ، وينسب إليه قولًا لم يقله "[(٤)].

وبقرائن الأحوال أيضًا استدلت خديجة - رضي الله عنها - على صدق نبوته ﷺ بقولها : " والله لا يخزيك الله أبدًا ، انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرئ الضيف ، وتعين على نوائب الحق"[(٥)].

كما يلفت القرآن الكريم أنظار المشركين إلى حياة النبي ﷺ قبل أن يوحى إليه ، فقد لبث فيهم عمرًا كاملا من قبل إرساله - أربعين سنة - فلم يحدثهم بشيء من هذا القرآن ، لأنه لم يكن يملكه ، ولم يكن قد أوحي إليه به ، ولو كان في استطاعته

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٣٣ .

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٤٠ .

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٠٧٤ - ١٠٧٧ بتصرف ، وأيضًا ٥/ ٣٠٠٨ - ٣٠٠٩ .

(٤) المصدر السابق ٥/ ٢٥٥١ بتصرف يسير .

(٥) سبق تخريجه ص٨٦٧ ، وانظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٣٦ .

عمل مثل هذا أو أجزاء منه ، فلماذا تأخر عمرًا كاملًا؟ ألا إنه الوحي"[١].

ثالثا : شهادة الله ـ تعالى – لنبيه ﷺ بالنبوة :

شهادة الله – سبحانه – لنبيه ﷺ بالنبوة دليل شرعي عقلي ،جاء به الشرع وأيده العقل، قال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[٢] يقول سيد – رحمه الله–: " فإذا أنكر أهل الكتاب هذه الرسالة الأخيرة ، وهي جارية على سنة الله في إرسال الرسل، مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وهم يعترفون بالرسل قبل محمد – ﷺ– فإذا أنكروا رسالتك – يا محمد – فلا عليك منهم فلينكروا ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

وفي هذه الشهادة من الله.. ثم من ملائكته ومنهم من حملها إلى رسوله..إسقاط لكل ما يقوله أهل الكتاب، فمن هم والله يشهد ؟ والملائكة تشهد ؟ وشهادة الله وحدها فيها الكفاية ؟!"[٣]. وفي ظلال قوله تعالى:﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[٤] . يقول سيد – رحمه الله–: "ويختتم السورة بحكاية إنكار الكفار للرسالة، وقد بدأها بإثبات الرسالة، فيلتقي البدء والختام، ويشهد الله مكتفيًا بشهادته، وهو الذي عنده العلم المطلق بهذا الكتاب وبكل كتاب"[٥].

رابعًا : القرآن الكريم .

يعتبر سيد قطب – رحمه الله– القرآن الكريم أقوى حجة وأظهر برهان على صدق نبوة رسولنا محمد – ﷺ– حيث يذكر في ظلال الآيات التي تتحدث عن طلب المشركين للآيات الدالة على صدق نبوته – ﷺ– غفلة المشركين عن الآية

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٧١ بتصرف .

(٢) سورة النساء : الآية ١٦٦ .

(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٨١٢بتصرف يسير ، وينظر أيضًا ٢/ ١٠٤٥٦

(٤) سورة الرعد : الآية ٤٣ .

(٥) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٦٥ .

الخارقة الدالة على صدق نبوته - ﷺ- وهي هذا القرآن . ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾(١).

يقول سيد - رحمه الله - : " وهؤلاء العمي الذين لا يرون آيات الله في الكون ، ولا يكفيهم هذا القرآن ، فإذا هم يطلبون آية ... أما القلوب المؤمنة المطمئنة بذكر الله، فلا تقلق ولا تطلب خوارق لتؤمن ، وهذا القرآن بين أيديها، هذا القرآن العميق التأثير ، حتى لتكاد تسير به الجبال وتقطع به الأرض ، ويكلم به الموتى لما فيه من سلطان وقوة ودفعة وحيوية ، قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾(٢) أي أن هذا القرآن عجيب فلو كان من شان قرآن تسير به الجبال أو تقطع به الأرض أو يكلم به الموتى لكان في هذا القرآن من الخصائص والمؤثرات ما تتم معه هذه الخوارق والمعجزات لكنه جاء لخطاب المكلفين الأحياء " (٣) ، وبالتالي " فإن الذين يطلبون الآيات والخوارق المادية، ويتعنتون في اقتراحاتهم الدالة على طفولتهم العقلية، ويعلقوا إيمانهم بالرسول ﷺ عليها يغفلون عن الخارقة الباقية في القرآن ، وهم يعجزون عن الإتيان بمثله في نظمه ومعناه ومنهجه ، ولكنهم لا يلمسون هذا الإعجاز بحواسهم فيطلبون ما تدركه الحواس" (٤).

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ (٥)، يقول سيد - رحمه الله- : والراجح- كما يبدو لي- هو أن المقصود بقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾هو رسول الله - ﷺ- وبالتبعية له كل من يؤمن بما جاء به وأن المقصود بقوله تعالى : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أي ويتبعه شاهد من ربه على نبوته ورسالته، وهو هذا القرآن، الذي يشهد بذاته أنه وحي من الله لا يقدر عليه بشر ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ ﴾أي من قبل هذا الشاهد وهو القرآن، ﴿ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾

(١) سورة الرعد : الآية ٢٣ .
(٢) سورة الرعد : الآية ٣١ .
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٥٩، ٢٠٦١ بتصرف .
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٥٠ بتصرف يسير .
(٥) سورة هود : الآية ١٧ .

يشهد كذلك بصدق النبي ﷺ"[1]، " فالسياق يذكر أن هذا القرآن الذي يشهد للنبي ﷺ بأنه على بينة من ربه ، وأنه مرسل من عنده "[2]، واقتراح المشركين برهانًا على أن رسول الله ﷺ مرسل من الله في صور مختلفة كلها تبين مدى التعنت والجهالة، وإلا فقد كان لهم من خلق رسول الله ﷺ الذي يعرفونه ما يدل على صدقة وأمانته ...

ثم لقد كان لهم في القرآن ذاته برهان أصدق من هذه البراهين المادية التي يطلبون، فإن هذا القرآن شاهد بذاته، بتعبيره ثم بمحتوى هذا التعبير على أنه من عند الله وهم كانوا يحسون ذلك ويعرفونه "[3] فالقران إذًا هو المعجزة الخالدة الدالة على نبوة محمد ﷺ، وسيأتي بيان لأنواع الإعجاز في القرآن الكريم عند الحديث عن معجزاته ﷺ إن شاء الله .

خامسًا : معجزاته وآياته ـ ﷺ ـ :

من دلائل صدق نبوته ﷺ والأنبياء قبله كذلك ما يؤيدهم الله به من المعجزات والآيات الخارقة، وقد سبق معنا أن المعجزات والخوارق على نوعين :

حسية مادية : وهي ما يكون من الأيات الكونية ، ومعنوية : كالقران الكريم :

والذي يظهر من خلال جمع كلام سيد - رحمه الله- حول موضوع المعجزات والخوارق أنه يرى أن هناك فرقا بين المعجزة والخارقة، فالمعجزة ما كانت على سبيل التحدي، لإثبات نبوة النبيﷺ بينما الخارقة ما وقع من غير تحد، وإنما لابتلاء الناس وفتنتهم أو كنوع من رحمة الله وعنايته بالنبيﷺ وأصحابه وقت الشدائد ومن هذا المنطلق يرى سيد - رحمه الله- أن معجزة النبي ﷺ التي أيده الله بها وقام بها التحدي هي القرآن الكريم، وهو معجزة تناسب كون الرسالة التي جاء بها محمد ﷺ رسالة خاتمة للرسالات باقية إلى قيام الساعة، ولم يجعل معجزته في خارقة مادية تنتهي بانتهاء من يشاهدها، وهذا هو الفارق بين معجزته ﷺ ومعجزات الأنبياء قبله .

ويؤيد هذا الرأي بنصوص قرآنية منها قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٦٤ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ١٨٦٣ .
(٣) المصدر السابق ٢/ ١٠٤٠ بتصرف يسير .

إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [1] " فالأنبياء كلهم طولب بالآيات والخوارق، وكلهم تمنى لو يأتي الله بخارقة يذعن لها المكذبون، ولكن ما من آية إلا بإذن الله ، في الوقت الذي يريده الله " [2].

" ومن خلال قصص الأنبياء وخاصة قصة موسى - عليه السلام - والذي كانت آياته وخوارقه المادية أكثر من غيره، يظهر لنا صدق قول الله تعالى وتقريره بان الآيات والخوارق لا تهدي قلبًا لم يتأهل للإيمان " [3]، " فقد كانت الخوارق تصاحب الرسالات لتصديق الرسل، وتخويف الناس من عاقبة التكذيب وهي الهلاك بالعذاب ولكن لم يؤمن بهذه الخوارق إلا المستعدة قلوبهم للإيمان، أما الجاحدون فقد كذبوا بها، ومن هنا جاءت الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بهذه الخوارق "[4]، " والسبب في ذلك أن الأولين الذين جاءتهم الخوارق المادية وكذبوا حق عليهم الهلاك، وأمة محمد - ﷺ - لم يقدر عليها الهلاك، لذلك لم يرسل الله نبيه - ﷺ - بالخوارق المادية " [5]. " فالله سبحانه لم يشأ أن يجعل مع هذه الرسالة الأخيرة آية قاهرة، لقد جعل آيتها القرآن، منهاج حياة كاملة معجزًا في كل ناحية "[6]. "لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوي الأعناق وتخضعها وتضطرها إلى التسليم ، ذلك أن هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة للأمم كلها ، وللأجيال كلها، وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان، فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب، لكل أمة ولكل جيل . والخوارق القاهرة لا تلوي إلا أعناق من يشاهدونها، ثم تبقى بعد ذلك قصة تروى ، لا واقعًا يشهد، فأما القرآن فها هو ذا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنًا كتاب مفتوح ومنهج مرسوم ، يستمد منه أهل هذا الزمان ما يقوم حياتهم لو

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٥٩ .
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٩٩ .
(٣) المصدر السابق ٥/ ٣١٩٣ بتصرف .
(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٢٣٧ .
(٥) المصدر السابق ٤/ ٢٢٣٦ بتصرف يسير .
(٦) المصدر السابق ٥/ ٢٥٨٤ .

هدوا إلى اتخاذه إمامهم ويلبي حاجاتهم كاملة، ويقودهم بعدها إلى عالم أفضل ، وأفق أعلى ، ومصير أمثل، وسيجد فيه من بعدنا كثيرًا مما لم نجده نحن، ذلك أنه يعطي كل طالب بقدر حاجته، ويبقى رصيده لا ينفد ، بل يتجدد، ولكن لم يكونوا يفطنون إلى هذه الحكمة الكبرى، فكانوا يعرضون عما يتنزل عليهم من هذا القرآن العظيم حينًا بعد حين "(١) . " فالقرآن معجزة مفتوحة للأجيال ، وليست كالخوارق المادية التي تنقضي في جيل واحد، ولا يتأثر بها إلا الذين يرونها من ذلك الجيل " (٢) .

وبناءً على ما سبق فإن سيد قطب - رحمه الله- يرى أن القرآن هو معجزة النبي ﷺ الخارقة الباقية المتحدى بها، وأما الآيات والخوارق التي حصلت للنبي ﷺ فإنما كانت إكراما له وأصحابه أو فتنة للناس، ومن هنا يمكن أن نستعرض موقف سيد قطب - رحمه الله- من المعجزات والآيات النبوية فيما يأتي :

١ ـ القرآن الكريم :

يعتبر سيد قطب - رحمه الله- القرآن الكريم معجزة النبي ﷺ الخالدة المطلقة، والتي وقع بها التحدي ولا يزال، وقد سبق بيان أن القرآن من أعظم دلائل نبوة النبي ﷺ، وهنا نتعرض لإعجاز القرآن وأوجه الإعجاز فيه عند سيد قطب - رحمه الله- وذلك كما يلي :

أ- القرآن الكريم معجزة هذا الدين الخالدة :

في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾(٣) . يقول سيد - رحمه الله- : "فكل الآيات التي يحتويها هذا الكتاب العظيم المعجز لا تكفيهم، .. وهم يقترحون خارقة كخوارق الرسل في الأمم قبلهم ، غير مدركين طبيعة الرسالة المحمدية، وطبيعة معجزتها، فهي ليست معجزة وقتية تنتهي بمشاهدة جيل ، إنما هي المعجزة الدائمة التي تخاطب القلب والعقل في جيل بعد جيل "(٤). "لقد كانوا يطلبون آية خارقة ، كالخوارق المادية التي صاحبت الرسالات السابقة،

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٨٥ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٣٧٠ .
(٣) سورة يونس : الآية ٢٠ .
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٧٢ .

ولا يقنعون بآية القرآن الباقية ، التي تخاطب الإدراك البشري الراشد ، وتعلن عهد الرشد الإنساني ، وتحترم هذا الرشد فتخاطبه هذا الخطاب الراقي، والتي لا تنتهي بانتهاء الجيل الذي يرى الخارقة المادية، بل تظل باقية تواجه الإدراك البشري بإعجازها إلى يوم القيامة .

كانوا يطلبون خارقة ، ولا يفطنون إلى سنة الله في أخذ المكذبين بالدعوة بعد مجيء الخارقة ، وإهلاكهم في الدنيا، ولا يدركون حكمة الله في عدم مجيئهم بهذه الخارقة وهو يعلم أنهم سيجحدون بها بعد وقوعها - كما وقع في الأقوام قبلهم - فيحق عليهم الهلاك ، بينما يريد الله أن يمهلهم ليؤمن منهم من يؤمن "[١]، " ومعجزة القرآن البارزة تكمن في أنه نزل لمواجهة واقع معين في حياة أمة معينة، في فترة من فترات التاريخ محددة، وخاض بهذه الأمة معركة كبرى حولت تاريخها وتاريخ البشرية كلها معها، ولكنه - مع هذا - يعايش ويواجه ويملك أن يوجه الحياة الحاضرة، وكأنما هو يتنزل اللحظة لمواجهة الجماعة المسلمة في شؤونها الجارية، وفي صراعها الراهن مع الجاهلية من حولها، وفي معركتها كذلك في داخل النفس، وفي عالم الضمير، بنفس الحيوية، ونفس الواقعية التي له هناك يومذاك "[٢] .

ب- التحدي بالقرآن الكريم :

وقع التحدي للمشركين بالقرآن الكريم على عدة صور :

الأولى : التحدي بأن يأتوا بمثله :

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾[٤]، حيث يرى سيد - رحمه الله- أن المشركين تلقوا هذا التحدي بالعجز، ووقفوا تجاهه

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١٠٧٩ .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٤٨ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

(٤) سورة الطور : الآية ٣٣-٣٤ .

صاغرين، ولذلك راحوا يطلبون الخوارق المادية هروبًا من التحدي "[١].

الثانية : التحدي بعشر سور من القرآن :

وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [٢] " وهي نفس المقولة التي رددوها مرارًا : إن هذا القرآن مفترى، فتحدّهم إذن أن يفتروا عشر سورٍ كسوره ، وليستعينوا بمن يشاءون في هذا الافتراء " [٣] .

الثالثة : التحدي بسورة واحدة :

وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [٤]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٥] ففي هاتين الآيتين يتحدى الله المكذبين أن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن الكريم وليدعوا من يستطيعون جمعهم، وليدعوا من يشهد لهم بهذا – من دون الله – فالله قد شهد لعبده بالصدق في دعواه، وقد ثبت هذا التحدي، وثبت العجز عنه، وما يزال ثابتًا ولن يزال، فقد ظل التحدي قائما في حياة الرسول- ﷺ- وبعدها ، وما يزال قائماً إلى يومنا هذا، وهو حجة لا سبيل إلى المماحكة فيها ، وما يزال القرآن يتميز من كل كلام يقوله البشر تميزًا واضحًا وقاطعًا، وسيظل أبدًا تصديقًا لقوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ [٦]، والتحدي هنا عجيب ، والجزم بعدم إمكانه أعجب ، ولو كان في الطاقة تكذيبه ما توانوا عنه لحظة، وما من شك أن تقرير القرآن الكريم أنهم لن يفعلوا ، وتحقق هذا كما قرره هو بذاته معجزة لا سبيل إلى المماراة فيها، ولقد كان المجال أمامهم مفتوحًا ، فلو أنهم جاءوا

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٥٠، ٦/ ٣٣٩٩ .
(٢) سورة هود : الآية ١٣ .
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٦١ .
(٤) سورة البقرة : الآية ٢٣ .
(٥) سورة يونس : الآية ٣٨ .
(٦) سورة القرة : الآية ٢٤ .

بما ينقض هذا التقرير القاطع لانهارت حجية القرآن ولكن هذا لم يقع ولن يقع كذلك فالخطاب للناس جميعًا ، ولو أنه كان في مواجهة جيل من أجيال الناس وهذه وحدها كلمة الفصل التاريخية " (١) .

ج- مراحل التحدي ورأي سيد قطب فيها :

ذكر سيد - رحمة الله- :" أن المفسرين القدامى يقولون إن التحدي بالقرآن كان على الترتيب : بالقرآن كله ، ثم بعشر سورٍ ، ثم بسورةٍ واحدةٍ .

بينما ترتيب آيات التحدي في سور القرآن ليس كذلك ، ففي سورة البقرة كان التحدي بسورة ، وكذا في سورة يونس ، وفي سورة هود كان التحدي بعشر سور ، وفي سورة الإسراء والطور كان التحدي بالقران كله .

ويرى سيد أن الترتيب الذي قال به المفسرون القدامى ليس عليه دليل ، بل الظاهر أن سورة يونس سابقة والتحدي فيها بسورة واحدة ، وسورة هود لاحقة والتحدي فيها بعشر سور .

وحقيقة أن ترتيب الآيات في النزول ليس من الضروري أن يتبع ترتيب السور ، فقد كانت تنزل الآية فتلحق بسورة سابقة أو لاحقة في النزول ، إلا أن هذا يحتاج إلى ما يثبته، وليس في أسباب النزول ما يثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود، والترتيب التحكمي في مثل هذا لا يجوز .

ولقد حاول- السيد رشيد رضا - في تفسير المنار أن يجد لهذا العدد "عشر سور" علة ، فأجهد نفسه طويلًا - رحمة الله عليه - ليقول : إن المقصود بالتحدي هنا هو القصص القرآني ، وأنه بالاستقراء يظهر أن السور التي كان قد نزل بها قصص مطول إلى وقت نزول سورة هود كانت عشرًا، فتحداهم بعشر ، لأن تحديهم بسورة واحدة فيه يعجزهم أكثر من تحديهم بعشر نظرًا لتفرق القصص وتعدد أساليبه، واحتياج المتحدي إلى عشر سور كالتي ورد فيها ليتمكن من المحاكاة إن كان سيحاكى " (٢).

---

(١) ينظر في ظلال القرآن ١/ ٤٨، ٣/ ١٧٨٤-١٧٨٥ بتصرف .
(٢) تفسير المنار : ١٢/ ٢٩-٣٠ .

ونحسب - والله أعلم - أن المسألة أيسر من كل هذا التعقيد، وأن التحدي كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول ، لأن القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة مواجهة واقعة محددة، فيقول مرة : ائتوا بمثل هذا القرآن، أو ائتوا بسورة، أو بعشر سور، دون ترتيب زمني، لأن الغرض كان هو التحدي في ذاته بالنسبة لأي شيء من هذا القرآن ، كله أو بعضه أو سورة منه على السواء ، فالتحدي كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره ، والعجز كان عن النوع لا عن المقدار، وعندئذ يستوي الكل والبعض والسورة ، ولا يلزم ترتيب ، إنما هو مقتضى الحالة التي يكون عليها المخاطبون ، ونوع ما يقولون عن هذا القرآن في هذه الحالة ، فهو الذي يجعل من المناسب أن يقال سورة أو عشر سور أو هذا القرآن . ونحن اليوم لا نملك تحديد الملابسات التي لم يذكرها لنا القرآن "[١].

د- أوجه التحدي بالقرآن الكريم :

تحدث سيد - رحمه الله- عن إعجاز القرآن الكريم ، وأوجه هذه الإعجاز في مواطن متفرقة من كتبة وخاصة " التصوير الفني " و" الظلال " أما " التصوير الفني " فكان حديثة مقتصرًا على الإعجاز البياني للقرآن الكريم وما يتفرع عنه ، أما حديثة في "الظلال " فقد تحدث عن أنواع كثيرة من الإعجاز في القرآن الكريم، وفي وقفات مطولة ، يصعب نقلها كلها ، ولذا فسأحاول تلخيص كلامه عن إعجاز القرآن الكريم وأوجه هذه الإعجاز في ما يلي :

١ ـ إعجاز القرآن الكريم إعجاز مطلق وشامل :

يقرر سيد - رحمه الله-في مواضع كثيرة أن إعجاز القرآن الكريم إعجاز مطلق، وأنه دليل على أنه كلام الله تعالى ، وعلى صدق نبوة ورسالة محمد ﷺ ، فيقول : " إن هذا القرآن الذي لا تبلغ خارقة مادية من الإعجاز ما يبلغه ، من أي جانب من الجوانب شاء الناس المعجزة ،في أي زمان وفي أي مكان ، لا يستثنى من ذلك من كان من الناس ومن يكون إلي آخر الزمان"[٢].

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٦١-١٨٦٢ بتصرف يسير.
(٢) المصدر السابق ٣/ ١٤٢١ .

ويقول : " إن في هذا القرآن سرًا خاصًا ، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداءً، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها، إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أن هنالك شيئًا ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هنالك عنصرًا ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس...هذا العنصر يصعب تحديد مصدره : أهو العبارة ذاتها ؟ أهو المعنى الكامن فيها ؟ أهو الصور والظلال التي تشعها ؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة ؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة ؟ أم إنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود ؟ .

ذلك سر مودع في كل نص قرآني ، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء ، ثم تأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله :

* في التصور الكامل الصحيح الذي ينشئه في الحس والقلب والعقل، لحقيقة وجود الله - سبحانه - وحقيقة الوجود الكوني و الإنساني .

* وفي الطريقة التي يتبعها القرآن لبناء هذا التصور الكامل الصحيح في الإدراك البشري .

* وفي الشمول والتوازن والتناسق بين توجيهاته كلها ، والاستواء على أفق واحد فيها كلها، مما لا يعهد إطلاقًا في أعمال البشر .

فهذه الظواهر المدركة..وأمثالها..مع ذلك السر الخافي الذي لا سبيل إلى إنكاره، يسبغ على هذا الكتاب سمة الإعجاز المطلق في جميع العصور،وهي مسألة لا يماري فيها إنسان يحترم حسه ، ويحترم نفسه ويحترم الحقيقة التي تطالعه بقوة وعمق ووضوح، حيثما واجه هذا القرآن بقلب سليم" (١) .

" وقد ثبت هذا التحدي، وثبت العجز عنه ، وما يزال ثابتًا ولن يزال، والذين يدركون بلاغة هذه اللغة ، ويتذوقون الجمال الفني والتناسق فيها ، يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان، وكذلك الذين يدرسون النظم الاجتماعية الإنسانية، والأصول التشريعية ، ويدرسون النظام الذي جاء به هذا القرآن ،

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٩٩ بتصرف يسير .

يدركون أن النظرة فيه إلى تنظيم الجماعة الإنسانية ومقتضيات حياتها من جميع جوانبها والفرص المدخرة فيه لمواجهة الأطوار والتقلبات في يسر ومرونة..كل أولئك أكبر من أن يحيط به عقل بشري واحد ، أو مجموعة العقول في جيل واحد أو في جميع الأجيال ، ومثلهم الذين يدرسون النفس الإنسانية ووسائل الأصول إلى التأثير فيها وتوجيهها ثم يدرسون وسائل القرآن وأساليبه . .

فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده ، ولكنه الإعجاز المطلق الذي يلمسه الخبراء في هذا وفي النظم والتشريعات والنفسيات وما إليها . .

والذين زاولوا فن التعبير، والذين لهم بصر بالأداء الفني، يدركون أكثر من غيرهم مدى ما في الأداء القرآني من إعجاز في هذا الجانب، والذين زاولوا التفكير الاجتماعي والقانوني والنفسي ، والإنساني بصفة عامة ، يدركون أكثر من غيرهم مدى الإعجاز الموضوعي في هذا الكتاب أيضًا "[١].

" ومن ثم يبقى النص بعد ذلك مفتوحًا للأجيال، وكلما اتسع علم البشر أدركوا شيئًا من معناه الضخم المتجدد على توالي الأجيال، وتلك معجزة القرآن في خطابه لجميع العقول ، على توالي الأزمان!"[٢].

٢ـ أنواع الإعجاز في القرآن الكريم :

كان حديث سيد – رحمه الله– عن الإعجاز في تفسيره الحروف المقطعة في فواتح السور ، وفي تفسيره لآيات التحدي في سورة البقرة ويونس وهود والإسراء والطور، وفي وقفته أمام الآيات التي تبين موضوع القرآن الكريم وسماته وخصائصه الدالة على مصدره .

وكانت أكثر وقفاته في الظلال عن الإعجاز في تفسيره لآية التحدي في سورة يونس ، تحدث فيها عن الإعجاز البياني والموضوعي والإعجاز في التأثير والأداء .

وكان سيد – رحمه الله– يريد أن يستدل بإعجاز القرآن الكريم على مصدره الرباني ، وأن يتوصل به إلى أن القرآن الكريم كلام الله ، فلم يكن حديثه عن

(١) المصدر السابق ٣/ ١٧٨٥ .
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٦٥٧ .

الإعجاز من أجل الإعجاز أو من أجل عرض أساليب البيان أو فنون البلاغة في القرآن الكريم كما فعل بعض من كتب عن الإعجاز[١].

ومن أنواع الإعجاز التي تحدث عنها سيد قطب - رحمه الله - ما يأتي:

أولًا : الإعجاز البياني :

تحدث سيد - رحمه الله- عن الإعجاز البياني في القرآن الكريم وما يتفرع عنه من إعجاز في الأداء والتعبير والعرض والتأثير والتصوير في مواطن متعددة يمكن إيجازها فيما يلي :

١ - الإعجاز في الأداء والتعبير :

يقول - رحمه الله- : " إن هذا القرآن الذي لا تبلغ خارقة مادية من الإعجاز ما يبلغه، من أي جانب من الجوانب شاء الناس المعجزة في أي زمان وفي أي مكان.. لا يستثنى من ذلك من كان من الناس ومن يكون إلى آخر الزمان!

فهذا جانبه التعبيري، ولعله كان بالقياس إلى العرب في جاهليتهم أظهر جوانبه - بالنسبة لما كانوا يحفلون به من الأداء البياني ، ويتفاخرون به في أسواقهم ! -- ها هو ذا كان وما يزال إلى اليوم معجزًا لا يتطاول إليه أحد من البشر، تحداهم الله به وما يزال هذا التحدي قائما، والذين يزاولون فن التعبير من البشر، ويدركون مدى الطاقة البشرية فيه ، هم أعرف الناس بأن هذا الأداء القرآني معجز..سواء كانوا يؤمنون بهذا الدين عقيدة أو لا يؤمنون.. فالتحدي في هذا الجانب قائم على أسس موضوعية يستوي أمامها المؤمنون والجاحدون..وكما كان كبراء قريش يجدون من هذا القرآن - في جاهليتهم - ما لا قبل لهم بدفعه عن أنفسهم - وهم جاحدون كارهون - كذلك يجد اليوم وغدًا كل جاهلي جاحد كاره ما وجد الجاهليون الأولون ! ويبقى وراء ذلك السر المعجز في هذا الكتاب الفريد "[٢].

---

(١) المنهج الحركي في ظلال القرآن ، د/ صلاح الخالدي ص٣٧١ . وينظر :في ظلال القرآن ١/ ٣٨، ٤٩، ٢/ ٨٢١ - ٨٢٢، ١١١٢ - ١١١٣ . .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٢١ .

ويقول: " فهذا القرآن الكريم بخصائصه الموضوعية والتعبيرية ، بهذا الكمال في تناسقه ، لا يمكن أن يكون مفترى... والذين يدركون بلاغة هذه اللغة ، ويتذوقون الجمال الفني والتناسق فيها ، يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان....

فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده ، ولكنه الإعجاز المطلق الذي يلمسه الخبراء في هذا وفي النظم والتشريعات والنفسيات وما إليها . .

والذين زاولوا فن التعبير، والذين لهم بصر بالأداء الفني ، يدركون أكثر من غيرهم مدى ما في الأداء القرآني من إعجاز في هذا الجانب "(١).

وقد عرض سيد - رحمه الله- مزايا الأداء القرآني ومنها :

أ- دقة التناسق بين العبارة والمدلول :

يقول سيد :" إن الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض ، وذلك بأوسع مدلول وأدق تعبير ، وأجمله وأحياه أيضًا ! مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو، ومع جمال التعبير دقة الدلالة في آن واحد ، بحيث لا يغني لفظ عن لفظ في موضعه ، وبحيث لا يجور الجمال على الدقةً ولا الدقة على الجمال، ويبلغ من ذلك كله مستوى لا يدرك إعجازه أحد ، كما يدرك ذلك من يزاولون فن التعبير فعلاً، لأن هؤلاء هم الذين يدركون حدود الطاقة البشرية في هذا المجال، ومن ثم يتبينون بوضوح أن هذا المستوى فوق الطاقة البشرية قطعًا "(٢).

ب- تنوع مدلولات النص القرآني :

يقول سيد: " وينشأ عن هذه الظاهرة ظاهرة أخرى في الأداء القرآني..هي أن النص الواحد يحوي مدلولات متنوعة متناسقة في النص، وكل مدلول منها يستوفي حظه من البيان والوضوح دون اضطراب في الأداء أو اختلاط بين المدلولات، وكل قضية وكل حقيقة تنال الحيز الذي يناسبها، بحيث يستشهد بالنص الواحد في مجالات شتى، ويبدو في كل مرة أصيلًا في الموضع الذي استشهد به فيه، وكأنما هو

(١) المصدر السابق ٣/ ١٧٨٥ - ١٧٨٦ بتصرف يسير .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٨٧ ، وينظر أيضًا ٦/ ٣٩٦٤ .

مصوغ ابتداءً لهذا المجال ولهذا الموضع ! وهي ظاهرة قرآنية بارزة لا تحتاج منا إلى أكثر من الإشارة إليها "(١).

ج- استحضار المشاهد واستحيائها :

يقول سيد : " وللأداء القرآني طابع بارز كذلك في القدرة على استحضار المشاهد، والتعبير المواجه كما لو كان المشهد حاضرًا بطريقة ليست معهودة على الإطلاق في كلام البشر ، ولا يملك الأداء البشري تقليدها ، لأنه يبدو في هذه الحالة مضطربا غير مستقيم مع أسلوب الكتابة ! وإلا فكيف يمكن للأداء البشري أن يعبر على طريقة الأداء القرآني في مثل هذه المواضع :

* ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾(٢) .

" وإلى هنا هي قصة تحكى، ثم يعقبها مباشرة خطاب موجه في مشهد ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ ثم يعود الأداء للتعقيب على المشهد الحاضر ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾(٣).

* ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ إلى هنا أمر يوجه ورسول يتلقى ، ثم فجأة نجد الرسول يسأل القوم: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ﴾ وإذا به يعود للتلقي في شان هذا الذي سأل عنه قومه – وأجابوه ! ﴿ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾(٤) وكذلك في الالتفاتات المتكررة في مثل هذه الآيات :

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٧٨٧ ، وقد أشار سيد إلى أمثلة من ذلك في مقدمة سورة يونس ، انظر ٣/ ١٧٤٥ وما بعدها .

(٢) سورة يونس : الآية ٩٠ .

(٣) سورة يونس : الآية ٩١-٩٢ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١٩ .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ ﴾[1]، وأمثالها كثير في القرآن كله، وهو أسلوب متميز تمامًا من الأسلوب البشري، وإلا فمن شاء أن يباري ، فليحاول أن يعبر على هذا النحو ، ثم ليأت بكلام مفهوم مستقيم، فضلًا على أن يكون له هذا الجمال الرائع ، وهذا الإيقاع المؤثر ، وهذا التناسق الكامل ! هذه بعض جوانب الإعجاز في الأداء نلم بها سريعًا "[2].

٢ـ الإعجاز في التصوير:

وهو فرع من فروع الإعجاز البياني في القرآن الكريم ، ويقصد به : طريقة القرآن الكريم المعجز في التعبير عن المعاني المجردة ، والأوصاف المعنوية، والحالات النفسية، والنماذج والحوادث والقصص والمشاهد ، بصورة حية شاخصة متحركة "[3].

وهذه النوع من الإعجاز البياني هو الذي بني عليه -سيد - نظرية التصوير الفني في القرآن الكريم .

وقد عرض نماذج كثيرة من هذا اللون من ألوان الإعجاز البياني في القرآن الكريم تأخذ منها نموذجًا واحد فقط :

في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢٨- ١٣٠ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٨٧ - ١٧٨٨ .

(٣) ينظر : التصوير الفني في القرآن ص ٣٤-٣٥ بتصرف .

يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[(١)]، يقول – رحمه الله–: " إنها صورة لعلم الله الشامل المحيط، الذي لا يند عنه شيء في الزمان ولا في المكان ، في الأرض ولا في السماء في البر ولا في البحر ، في جوف الأرض ولا في طباق الجو ، من حي وميت ويابس ورطب .

ولكن أين هذا الذي نقوله نحن – بأسلوبنا البشري المعهود – من ذلك النسق القرآني العجيب؟ وأين هذا التعبير الإحصائي المجرد ، من ذلك التصوير العميق الموحي؟ .

إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول ، وعالم الغيب وعالم الشهود ، وهو يتبع ظلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح ، ووراء حدود هذا الكون المشهود..وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فج وواد، وهو يرتاد – أو يحاول أن يرتاد – أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل، البعيدة الآماد والآفاق والأغوار.. مفاتحها كلها عند الله، لا يعلمها إلا هو.. ويجول في مجاهل البر وفي غيابات البحر، المكشوفة كلها لعلم الله، ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض، لا يحصيها عد ، وعين الله على كل ورقة تسقط، هنا وهنا وهناك ، ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله، ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض ، لا يند منه شيء عن علم الله المحيط..

إنها جولة تدير الرؤوس ، وتذهل العقول، جولة في آماد من الزمان ، وآفاق من المكان ، وأغوار من المنظور والمحجوب ، والمعلوم والمجهول.. جولة بعيدة موغلة مترامية الأطراف، يعيا بتصور آمادها الخيال.. وهي ترسم هكذا دقيقة كاملة شاملة في بضع كلمات..ألا إنه الإعجاز!. الناطق بمصدر هذا القرآن "[(٢)]. " ومن ذا الذي يبدع هذا التناسق والجمال..في هذا التعبير القصير.. من ؟ إلا الله ! "[(٣)].

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٥٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١١١١-١١١٢ وينظر٢/ ١٧٩٠-١٧٩٢ .

(٣) المصدر السابق ٢/ ١١١٣ وينظر أمثلة أخرى في التصوير الفني في القرآن : ص ٣٦-٦١ ومشاهد القيامة كاملا .

٣ـ الإعجاز الموضوعي :

موضوع القرآن الكريم دليل على أنه من عند الله، والإعجاز الموضوعي فيه شاهد على مصدره، ولم يقف سيد - رحمه الله- عند الإعجاز في الأداء والتصوير بل عرض أيضًا للإعجاز في الموضوع الذي يعرضه السياق القرآني، والقران معجز بأدائه ومعجز بمضمونه [١].

وقد تحدث -سيد- عن الإعجاز الموضوعي في مواضع متعددة من الظلال، كان أشملها وأوفاها حديثه في ظلال آية التحدي في سورة يونس، فبعد أن ذكر جوانب من الإعجاز في الأداء قال : " ويبقى الإعجاز الموضوعي، والطابع الرباني المتميز من الطابع البشري فيه .

إن هذا القرآن يخاطب الكينونة البشرية بجملتها، فلا يخاطب ذهنها المجرد مرة، وقلبها الشاعر مرة، وحسها المتوفز مرة، ولكنه يخاطبها جملة ، ويخاطبها من أقصر طريق، ويطرق كل أجهزة الاستقبال والتلقي فيها مرة واحدة كلما خاطبها، وينشئ فيها بهذا الخطاب تصورات وتأثرات وانطباعات لحقائق الوجود كلها ، لا تملك وسيلة أخرى من الوسائل التي زاولها البشر في تاريخهم كله أن تنشئها بهذا العمق ، وبهذا الشمول ، وبهذه الدقة وهذا الوضوح ، وبهذه الطريقة وهذا الأسلوب أيضًا! " [٢] .

وقد عرض سيد - رحمه الله- وهو يتحدث عن الإعجاز الموضوعي عدة مزايا لمنهج القرآن الكريم في عرض موضوعاته، نقلها من كتابه " مقومات التصور الإسلامي " وهي :

أ- انه يعرض الحقيقة - كما هي في عالم الواقع - في الأسلوب الذي يكشف كل زواياها وكل جوانبها وكل ارتباطاتها، وكل مقتضياتها..وهو- مع هذا الشمول- لا يعقد الحقيقة ، ولا يلفها بالضباب! بل يخاطب بها الكينونة البشرية في كل مستوياتها، ولا يملك الأداء البشري هذا، فكل كاتب يخاطب مستوى معينًا، ولا يكاد غيره يفهم عنه ...

---

(١) المنهج الحركي في ظلال القرآن : د/ صلاح الخالدي ص ٣٠٠، وفي ظلال القرآن ٣/ ١٦٤٠، ١٧١٢، ٦/ ٣٤١٦ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٨٨ .

ب- أنه مبرأ من الانقطاع والتمزق الملحوظين في الدراسات " العلمية" والتأملات " الفلسفية " والومضات " الفنية " جميعًا، فهو لا يفرد كل جانب من جوانب " الكل" الجميل المتناسق بحديث مستقل كما تصنع أساليب الأداء البشرية، إنما يعرض هذه الجوانب في سياق موصول، يرتبط فيه عالم الشهادة بعالم الغيب، وتتصل فيه حقائق الكون والحياة والإنسان بحقيقة الألوهية، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة، وحياة الناس في الأرض بحياة الملأ الأعلى، في أسلوب تتعذر مجاراته أو تقليده ...

ج- أنه يحافظ على إعطاء كل جانب من جوانب الحقيقة- المتماسكة والمتناسقة - في الكل المتناسق مساحته التي تساوي وزنه الحقيقي في ميزان الله - وهو الميزان- ومن الأمثلة على هذا التناسق في عرض حقيقة الألوهية والى جانبها قضية العبودية وما يلحق بها من قضايا الوجود الكوني والإنساني بحيث يبدو التناسق والتوازن، فتنال كل حقيقة منها نصيبها المتناسق مع عالم الواقع، فلا تطغى حقيقة على غيرها ولا تهمل ولا تضيع معالم بعض الحقائق في المشهد الكلي الذي تعرض فيه الحقائق

د- أنه يمتاز بالحيوية الدافقة المؤثرة الموحية - مع الدقة والتقرير والتحديد الحاسم وهي تمنح هذه الحقائق حيوية وإيقاعًا وروعة وجمالا ، لا يتسامى إليها المنهج البشري في العرض ولا في الأسلوب البشري في التعبير، ثم هي في الوقت ذاته تعرض في دقة عجيبة ، وتحديد حاسم، ومع ذلك لا تجور الدقة على الحيوية والجمال ، ولا يجور التحديد على الإيقاع والروعة .

هـ- أنه يقدم الحقائق- أحيانًا- في مجالات لا يخطر للفكر البشري عادة أن يلم بها لأنها ليست من طبيعة ما يفكر فيه عادة أو يلتفت إليه على هذا النحو ، ومن هذا القبيل ما جاء في سورة الأنعام في تصوير حقيقة العلم الإلهي ومجالاته ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾[1]الآية. فهذه المطارح المترامية، الخفية والظاهرة ، ليست مما يتوجه الفكر البشري إلى ارتيادها على هذا

(١) سورة الأنعام : الآية ٥٩ .

النحو، وهو في معرض تصوير شمول العلم، مهما أراد تصوير هذا الشمول، ولو أن فكرًا بشريًا هو الذي يريد تصوير شمول العلم لاتجه اتجاهات أخرى تناسب اهتمامات الإنسان وطبيعة تصوراته .

ننظر إلى هذه الآية القصيرة من أي جانب فنرى هذا الإعجاز الناطق بمصدر هذا القرآن فنجزم للوهلة الأولى بأن هذا كلام لا يقوله بشر فليس عليه طابع البشر "[١].

وبعد أن يعرض سيد- رحمه الله- لظلال الآية في كلام أدبي طويل لا يسع المجال هنا لذكره، يذكر أيضًا مثالًا آخر وهو قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾[٢] قائلا : "ويقف الإنسان أمام هذه الصفحة المعروضة في كلمات قليلة ، فإذا هو أمام حشد هائل عجيب من الأشياء ، والحركات، والأحجام، والأشكال ، والصور ، والمعاني ، والهيئات ، لا يصمد لها الخيال!، ولو أن أهل الأرض جميعًا وقفوا حياتهم كلها يتتبعون ويحصون ما يقع في لحظة واحدة ، مما تشير إليه الآية لأعجزهم تتبعه وإحصاؤه عن يقين! "[٣].

و- أن طريقة الاستدلال في هذا القرآن تقوم على الاستدلال بأشياء وأحداث مثيرة صغيرة في ظاهرها وهي ذات حقيقة ضخمة تناسب الموضوع الضخم الذي يستدل بها عليه.. بحيث يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكررة ، قضايا كونية كبرى يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود ، وينشئ بها عقيدة ضخمة شاملة وتصورًا كاملا ، ويجعل منها منهجًا للنظر والتفكير، وحياة للأرواح والمشاعر ومن الأمثلة لذلك الاستدلال بالآيات المعروضة على البشر في أنفسهم وفي زرعهم وفي الماء الذي يشربون وفي النار التي يوقدون وهي أبسط ما يقع تحت أبصارهم من مألوفات الحياة "[٤]. وغيرها

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٨٨-١٧٩٠ بتصرف .
(٢) سورة سبا : الآية ٢ .
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٩٢، وينظر أيضًا ٢/ ١١١٢-١١١٣ .
(٤) ينظر الآيات ٥٨ -٧٣ من سورة الواقعة .

من المشاهدات لينشئ بها عقيدة في نفوس المخاطبين "[١].

" ثم يبقى وراء ذلك مادة القرآن وموضوعه، وما تتسع صفحات عابرة - في ظلال القرآن - للحديث عن مادة هذا القرآن وموضوعه، فالقول لا ينتهي والمجال لا يحد! وماذا الذي يمكن أن يقال في صفحات؟!

* منهج هذا القرآن العجيب في مخاطبة الكينونة البشرية بحقائق الوجود ، بحيث يواجهها بجملتها ، دون أن يدع جانبًا منها لا يخاطبه ، أو نافذة لا يدخل منها، ولا يدع هاتفًا فيها لا يلبيه.

* منهج هذا القرآن العجيب وهو يتناول قضايا الوجود،وتعامل الفطرة معها.

* منهج هذا القرآن العجيب وهو يأخذ بيد الفطرة الإنسانية خطوة خطوة ، في رفق وحيوية، ووضوح إلى القمة السامقة .

* منهج هذا القرآن العجيب ، وهو يلمس الفطرة الإنسانية ، من حيث لا يحتسب أحدٌ ، فإذا بها تنتفض وتستجيب، ذلك المنهج ؟.. أم المادة ذاتها التي يعرضها القرآن في هذا المنهج..

إن الذي يكتب هذه الكلمات قضى - ولله الحمد والمنة - في الصحبة الواعية الدارسة لهـذا الكتاب خمسة وعشرين عامًا، يجول في جنبات الحقائق الموضوعية لهذا الكتاب، في حقول المعرفة الإنسانية - ما طرقته معارف البشر وما لم تطرقه - ويقرأ في الوقت ذاته ما يحاوله البشر من بعض هذه الجوانب.. ويرى.. يرى ذلك الفيض الغامر المنفسح الواسع في هذا القرآن ، وإلى جانبه تلك البحيرات المنعزلة ، وتلك النقر الصغيرة ..وتلك المستنقعات الآسنة أيضًا "[٢].

٤ـ الإعجاز في التأثير :

وهو من وجوه الإعجاز التي أشار إليها سيد - رحمه الله- وعرض صورًا منها،

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٩٢-١٧٩٤ بتصرف .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٢١-١٤٢٣ بتصرف .

يقول : " إن الأداء القرآني يمتاز ويتميز من الأداء البشري ، إن له سلطانًا عجيبًا على القلـوب ليس للأداء البشري، حتى ليبلغ أحيانًا أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفا " [١]. ومن النماذج والصور التي عرضها سيد - رحمه الله- لتأثير القرآن في البشر :

أ- تأثير القرآن في النجاشي -رضي الله عنه- وفي أصحابه عندما تلا عليهم جعفر ابن أبي طالب -رضي الله عنه- سورة مريم، فقاموا تفيض أعينهم من الدمع[٢].

ب- تأثر وفد النصارى الذين قدموا إلى النبي-ﷺ-فسمعوا القرآن، وبكوا وآمنوا[٣].

ج- تأثر المشركين بالقرآن ومن ذلك عدة حوادث متفرقة رواها أصحاب السير[٤].

د- تأثر امرأة يوغسلافيه سمعت- سيد قطب- وهو يخطب على ظهر السفينة، ويقرأ القرآن [٥].

هـ- تأثر سيد نفسه، مع بعض رفاقه عندما سمعوا سورة النجم [٦] .

ويبين -سيد - سبب هذا النوع من الإعجاز القرآني -الإعجاز في التاثير -فيقول : " إن في هذا القرآن سرًا خاصًا ، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداءً ، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن ، يشعر أن هنالك شيئًا ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير ، وأن هنالك عنصرًا ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القـرآن، يـدركه بعض الناس واضحًا ويدركه بعض الناس غامضًا ، ولكنه على كل حال موجود، هذا العنصر الـذي ينسكب في الحس ، يصعب تحديد مصدره : أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها ؟ أهو الصور والظلال التي تشعها ؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٨٦ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٩٦٥ .
(٣) المصدر السابق ٢/ ٩٦٥ .
(٤) المصدر السابق ٢/ ٨٢٢، ١٠٧٤-١٠٧٦ .
(٥) المصدر السابق ٢/ ٨٢١، ١٧٨٦ .
(٦) المصدر السابق ٦/ ٣٤٢٠-٣٤٢١ .

المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة ؟ أم إنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود ؟! ذلك سر مودع في كل نص قرآني ، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء ، ثم يأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير"[١] .

" إن كل آية وكل سورة تنبض بالعنصر المستكن العجيب المعجز في هذا القرآن، وتشي بالقوة الخفية المودعة في هذا الكلام، وإن الكيان الإنساني ليهتز ويرتجف ويتزايل ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن ، كلما تفتح القلب ، وصفا الحس ، وارتفع الإدراك ، وارتفعت حساسية التلقي والاستجابة، وإن هذه الظاهرة لتزداد وضوحًا كلما اتسعت ثقافة الإنسان"[٢] .

" ويبقى وراء ذلك السر المعجز في هذا الكتاب الفريد، ذلك السلطان الذي له على الفطرة، متى خُلي بينها وبينه لحظة ! وحتى الذين رانت على قلوبهم الحجب ، وثقل فوقها الركام ، تنتفض قلوبهم أحيانًا وتململ تحت وطأة هذا السلطان وهم يستمعون إلى هذا القرآن ...

ولقد كان كبراء قريش يقولون لأتباعهم الذين يستخفونهم- ويقولون لأنفسهم في الحقيقة -: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[٣] لما كانوا يجدونه هم في نفوسهم من مس هذا القرآن وإيقاعه الذي لا يقاوم ! وما يزال كبراء اليوم يحاولون أن يصرفوا القلوب عن هذا القرآن بما ينزلونه لهم من مكاتيب! غير أن هذا القرآن يظل - مع ذلك كله - غلابًا.. وما إن تعرض الآية منه أو الآيات في ثنايا قول البشر، حتى تتميز وتنفرد بإيقاعها ، وتستولي على الحس الداخلي للسامعين ،وتنحي ما عداها من قول البشر المحير الذي تعب فيه القائلون.

ثانيًا : الإعجاز التشريعي :

أشار سيد - رحمه الله- إلى الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم في ظلال آية

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٣٩٩ .

(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٨٠٥ وينظر أيضًا " التصوير الفني في القرآن " ص ١١-٢٣ .

(٣) سورة فصلت : الآية ٢٦ .

الدين في سورة البقرة حيث قال: " وإن الإنسان ليقف في عجب وفي إعجاب أمام التعبير التشريعي في القرآن - حيث تتجلى الدقة العجيبة في الصياغة القانونية حتى ما يبدل لفظ بلفظ ، ولا تقدم فقرة عن موضعها أو تؤخر، وحيث لا تطغى هذه الدقة المطلقة في الصياغة القانونية على جمال التعبير وطلاوته، وحيث يربط التشريع بالوجدان الديني ربطًا لطيف المدخل عميق الإيحاء قوي التأثير، دون الإخلال بترابط النص من ناحية الدلالة القانونية، وحيث يلحظ كل المؤثرات المحتملة في موقف طرفي التعاقد وموقف الشهود والكتاب ، فينفي هذه المؤثرات كلها ويحتاط لكل احتمال من احتمالاتها، بحيث لا ينتقل من نقطة إلى نقطة إلا وقد استوفى النقطة التشريعية بحيث لا يعود إليها إلا حيث يقع ارتباط بينها وبين نقطة جديدة يقتضي الإشارة إلى الرابطة بينهما . . .

إن الإعجاز في صياغة آيات التشريع هنا لهو الإعجاز في صياغة آيات الإيحاء والتوجيه، بل هو أوضح وأقوى، لأن الغرض هنا دقيق يحرفه لفظ واحد ، ولا ينوب فيه لفظ عن لفظ، ولولا الإعجاز ما حقق الدقة التشريعية المطلقة والجمال الفني المطلق على هذا النحو الفريد .

وذلك كله فوق سبق التشريع الإسلامي بهذه المبادئ للتشريع المدني والتجاري بحوالي عشرة قرون كما يعترف الفقهاء المحدثون ! "[١] .

وبعد أن استعرض سيد - رحمه الله- عظمة التشريع الإسلامي في مسالة الدين وما يتعلق به، قارن بين عظمة وإعجاز القرآن في التشريعات والنظم وبين ما سواه من قوانين وتشريعات ومناهج بشرية، لا تثمر إلا الشقاء والعنت[٢] .

ثالثًا : الإعجاز الحركي :

ويقصد به: الإعجاز في مهمة القرآن الدعوية وطبيعته الحركية، وقد أشار سيد - رحمه الله- إلى هذا النوع من الإعجاز في مواضع من الظلال منها :

حديثه عن بيان القرآن الكريم لطبيعة المعركة المستمرة بين المسلمين وأعدائهم،

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٣٤ .
(٢) المصدر السابق ١/ ٣٣٥-٣٣٨ .

على اختلاف الزمان والمكان، حيث بين القرآن الكريم بيانًا شاملًا شافيًا وافيًا معجزًا، سواءً طبيعة هذه المعركة أو أهدافهم منها، أو اتفاق جميع فئاتهم على تحقيقها، أو أسلحتهم المختلفة فيها .[١].

ففي مقدمة تفسير الجزء الثاني من سورة البقرة يقول سيد - رحمه الله- : " ابتداء من هذا الجزء - نجد التركيز على إعداد الجماعة المسلمة لحمل الأمانة الكبرى - أمانة العقيدة، وأمانة الخلافة في الأرض باسم هذه العقيدة ، .. وإعطاء الجماعة المسلمة خصائص الأمة المستخلفة وشخصيتها المستقلة بقبلتها وشرائعها ومنهجها الشامل المتميز، وقبل ذلك بتصورها الخاص للوجود والحياة وعلاقتها بربها ووظيفتها في الأرض وما تقتضيه هذه الوظيفة من تكاليف في النفس والمال والشعور والسلوك " [٢].

" ومن خلال مراجعة نصوص القرآن في هذا الشأن ندرك طبيعة المعركة التي كان يخوضها القرآن وطبيعة الغاية التي كان يستهدفها في بناء الأمة المسلمة، وهي معركة ضخمة مع الدسائس والفتن والألاعيب والبلبلة والتلبيس والكذب، ومع الضعف البشري، ومداخل الفتنة ومسارب الغواية في النفس البشرية على السواء، وهي كذلك معركة للبناء والتوجيه وإنشاء التصور الصحيح الذي يمكن أن تقوم عليه الأمة المستخلفة في الأرض، والتي تتولى القيادة الرشيدة للبشرية جميعًا .

أما الإعجاز القرآني فيتجلى في أن هذه التوجيهات، وهذه الأسس التي جاء بها القرآن لكي ينشئ الجماعة المسلمة الأولى، هي هي ما تزال التوجيهات والأسس الضرورية لقيام الجماعة المسلمة في كل زمان ومكان، وأن المعركة التي خاضها القرآن ضد أعدائها هي ذاتها المعركة التي يمكن أن يخوضها في كل زمان ومكان، لا بل إن أعداءها التقليدين الذين كان يواجههم القرآن ويواجه دسائسهم وكيدهم ومكرهم، هم هم، ووسائلهم هي هي، تتغير أشكالها بتغير الملابسات وتبقى حقيقتها وطبيعتها، وتحتاج الأمة المسلمة في كفاحها وتوقيها إلى توجيهات هذا القرآن حاجة الجماعة المسلمة الأولى، كما تحتاج في بناء تصورها الصحيح، وإدراك

(١) المنهج الحركي في ظلال القرآن، د/ صلاح الخالدي : ص ٣٨٣-٣٨٤ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ١٢٣ بتصرف يسير .

موقفها من الكون والناس إلى ذات النصوص وذات التوجيهات، ونجد فيها معالم طريقها واضحة، كما لا تجدها في أي مصدر آخر من مصادر المعرفة والتوجيه .

ويظل القرآن الكريم كتاب هذه الأمة العامل في حياتها، وقائدها الحقيقي في طريقها الواقعي، ودستورها الشامل الكامل، الذي تستمد منه منهج الحياة، ونظام المجتمع، وقواعد التعامل الدولي والسلوك الأخلاقي والعملي، وهذا هو الإعجاز"[١].

وفي مقدمة تفسيره لسورة النساء يوضح سيد - رحمه الله- إن هذه السورة تمثل جانبًا من الجهد الذي أنفقه الإسلام في بناء الجماعة المسلمة، وإنشاء المجتمع الإسلامي، وفي حماية تلك الجماعة، وصيانة هذا المجتمع، ونماذج من المجتمع الذي انبثق من خلال نصوص هذا القرآن، ونشأ من خلال المنهج الرباني .

حيث نلمح من منهج القرآن طريقة تعامله مع الجاهلية ورواسبها في النفس والمجتمع، وصراعها مع الحق، وكيف يرتقي هذا المنهج بالإنسان والحياة إلى القمة السامقة، وما هي الملامح التي يتوخى المنهج الإسلامي إنشاءها وتثبيتها في المجتمع المسلم بعد تطهيره من رواسب الجاهلية، وإنشاء الأوضاع والتشريعات التنفيذية التي تكفل حماية هذه الملامح وتثبيتها في الواقع الاجتماعي .

حيث نجد بيان حقيقة الربوبية ووحدانيتها، وحقيقة الإنسان وأصله وعلاقته بغيره، ونجد التشريعات العملية لتحقيق البناء التكاملي للجماعة المسلمة، وتنظيم العلاقات المختلفة بين أفرادها، وحماية المجتمع من الفاحشة والوقاية منها، ونجد التشريعات الخاصة بالقيادة والطاعة والولاء والبراء والجهاد بأنواعه، وعلاقة الجماعة المسلمة بغيرها سلمًا وحربًا ، والحرب المشبوبة عليها وعلى عقيدتها وقيادتها من المنافقين وأهل الكتاب والمشركين عموما، حيث نجد المنهج الرباني الذي يأخذ بالجماعة المسلمة السائرة بين الأشواك الخبيثة، والأحابيل الماكرة، يقودها ويوجهها ويحذرها ويكشف لها طبيعة أعدائها، وطبيعة المعركة التي تخوضها، وطبيعة الأرض التي تدور فيها المعركة وزواياها وجوانبها الخبيثة [٢].

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٢٤ .

(٢) ينظر : المصدر السابق : ١/ ٥٥٤-٥٦٦ بتصرف .

وبعد استعراض سيد - رحمه الله- لما سبق يقول : " ومن علامات الإعجاز في القرآن الكريم ، أن هذه النصوص التي نزلت لتواجه معركة معينة، ما تزال هي بذاتها تصور طبيعة المعركة الدائمة المتجددة بين الجماعة المسلمة في كل مكان، وعلى توالي الأجيال، وبين أعدائها التقليدين الذين ما يزالون هم هم، وما تزال حوافزهم هي هي في أصلها، وإن اختلفت أشكالها وظواهرها وأسبابها القريبة، وما تزال أهدافهم هي هي في طبيعتها وإن اختلفت أدواتها ووسائلها، وما تزال زلزلة العقيدة وزعزعة الصف، والتشكيك في القيادة الربانية، هي الأهداف التي تصوب إليها طلقاتهم الماكرة، للوصول من ورائها إلى الاستيلاء على مقاليد الجماعة المسلمة، والتصرف في مقاديرها، واستغلال أرضها وجهدها وغلاتها وقواها وطاقاتها، كما كانت يهود تستغل الأوس والخزرج في المدينة قبل أن يعزهم الله ويجمعهم بالإسلام ، وبالقيادة المسلمة ، وبالمنهج الرباني" [١].

رابعًا : الإعجاز العلمي :

ويقصد به: " مطابقة ما توصلت إليه الكشوف العلمية من حقائق ونظريات في الكون والآفاق والأنفس لما أشار إليه القرآن من الحقائق التي لم تكن معروفة للسابقين" [٢].

وقد انقسم العلماء إزاء هذا النوع إلى مؤيد ومعارض، ولكل منهما وجهة النظر التي انطلق منها، وأدلته في التأييد والمعارضة، [٣].

موقف سيد قطب من الإعجاز العلمي :

أشار سيد - رحمه الله- في مواضع متعددة من " الظلال " و "المقومات " إلى موقفه مما يتعلق بقضية الإعجاز العلمي في القرآن عند حديثه عن بعض القضايا الكونية، وباستقراء كلامه حول الموضوع يمكن إيجاز موقفه في القضايا الآتية :

(١) في ظلال القرآن ١/ ٥٦٦ .

(٢) علم الإعجاز القرآني : د/ خليل رجب الكبيسي، مركز عبادي، صنعاء، ط ١ عام ١٤٢٢هـ، ص ١٨١ وما بعدها .

(٣) ينظر ذلك بالتفصيل في : المصدر السابق : ص ١٨١-١٨٧ .

أولًا : موقف الناس من النظريات العلمية وعلاقتها بالقرآن :

أشار سيد- رحمه الله- إلى : " أنه وجدت في هذا العصر فتنة بالنظريات والبحوث والكشوف العلمية، جعلت بعض المهزومين أمام فتوحات العلم الحديث يحاولون أن يلتمسوا الموافقات بين النصوص القرآنية التي تشير إلى بعض الحقائق الكونية، وبين النظريات والكشوف العلمية الحديثة، ليتخذوا منها سندًا لهذا القرآن ولهذا الدين ! وهو اتجاه خاطئ وخطر كذلك من الناحية الإعتقادية، فوق خطئه من الناحية المنهجية " [(١)] ." كما حاول بعض الطاعنين في القرآن الكريم أن يلتمسوا مخالفاته لهذه العلوم ، وكلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ووظيفته ومجال عمله " [(٢)].

ثانيًا : طبيعة القرآن ووظيفته ومجاله وعلاقة ذلك بالعلوم العصرية :

* أما طبيعة القرآن فيحددها سيد - رحمه الله- في أنه: " منهج هداية للضمير وللعقل البشري معا، ليستقيما على منهج واضح ثابت مستقر في القواعد الكلية الأساسية، ثم هو منهج هداية كذلك لنظام الحياة البشرية كي يصبح واقع الحياة متناسقًا مع استقامة الضمير والعقل، بحيث يسمح هذا الواقع للضمير والعقل أن يسلكا طريقهما في سلام واستقامة إلى ما يحبه ويرضاه، وعندما يستقيم نظام الحياة بكل جوانبه، ويستقيم الضمير والعقل، فان للإدراك البشري حينئذ أن يبحث في سنن الكون وينتفع بها ليحقق الخلافة في الأرض، فالحقائق العلمية الكونية متروكة تفاصيلها للإدراك البشري، وبحوثه وتجاربه ولم يتكفل المنهج القرآني ببيان تفصيلاتها له، وبناءً على ذلك فالقران لم ينزل إذن ليكون كتاب علوم فلكية، أو طبيعية، أو بيولوجية، أو فسيولوجية، أو طبية، والحقائق التي وردت فيه عن مثل هذه المسائل إنما وردت في صورة الإشارات الكلية، في معرض الهداية الإعتقادية، ولتصحيح الانحرافات والأضاليل والأوهام والتخبطات الإعتقادية، التي أحاطت بهذه المسائل ، وبالقدر الذي يكفي لتصحيح العقيدة، فلا ينبغي إخراج

(١) مقومات التصور الإسلامي : ص٣٢٦ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ١٨١ .

المنهج القرآني عن طبيعته في هذا الصدد "[١].

*أما وظيفته ومجاله فيقول-- سيد -: "إن مجال القرآن هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية، وإن وظيفته أن ينشئ تصورًا عامًا للوجود وارتباطه بخالقه ، ولوضع الإنسان في هذا الوجـود وارتباطه بربه، وأن يقيم على أساس هذا التصور نظامًا للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته ومنها العقلية ، التي تقوم هي بعد تنشئتها على استقامة ، وإطلاق المجال لها لتعمل - بالبحث العلمي - في الحدود المتاحة للإنسان - وبالتجريب والتطبيق ، وتصل إلى ما تصل إليه من نتائج ليست نهائية ولا مطلقة بطبيعة الحال ، إن مادة القرآن التي يعمل فيها هي الإنسان ذاته : تصوره واعتقاده ، ومشاعره و مفهوماته ، وسلوكه وأعماله ، وروابطه وعلاقاته، أما العلوم المادية ، والإبداع في عالم المادة بشتى وسائله وصنوفه ، فهي موكولة إلى عقل الإنسان وتجاربه وكشوفه وفروضه ونظرياته ، بما أنها أساس خلافته في الأرض ، وبما أنه مهيأ لها بطبيعة تكوينه ...

وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن ، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه ، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه، وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها، كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه!.

إن القرآن الكريم كتاب كامل في موضوعه ، وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها..لأنه هو الإنسان ذاته الذي يكشف هذه المعلومات وينتفع بها، والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الإنسان، والقرآن يعالج بناء هذا الإنسان نفسه، بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره، كما يعالج بناء المجتمع الإنساني الذي يسمح لهذا الإنسان بأن يحسن استخدام هذه الطاقات المذخورة فيه، وبعد أن يوجد الإنسان السليم التصور في التفكير والشعور، ويوجد المجتمع الذي يسمح له بالنشاط ، يتركه القرآن يبحث ويجرب ، ويخطئ ويصيب ، في مجال العلم والبحث والتجريب "[٢].

---

(١) مقومات التصور الإسلامي : ص ٣٢٧-٣٢٨ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ١٨١-١٨٢ بتصرف يسير، وينظر أيضًا ٤/ ١٨٥٨ .

ثالثا: الموقف من النظريات والحقائق العلمية :

يوضح سيد - رحمه الله- الموقف الذي ينبغي أن يكون نحو النظريات والحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم، والذي يقوم على أمرين :

الأمر الأول :عدم تعليق الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن بفروض العقل البشري ونظرياته :

حيث يرى- سيد- أنه لا يجوز أن نعلق الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن عن الكون في طريقه لإنشاء التصور الصحيح لطبيعة الوجود وارتباطه بخالقه، وطبيعة التناسق بين أجزائه ، لا يجوز تعليقها بفروض العقل البشري ونظرياته، ولا حتى بما يسميه " حقائق علمية " مما ينتهي إليه بطريق التجربة القاطعة في نظره" [1] .

" وليس لنا أيضًا أن نلتمس للنصوص القرآنية مصداقًا من النظريات التي تسمى " العلمية " حتى ولو كان ظاهر النص يتفق مع النظرية وينطبق " [2] .

ويعلل سيد - رحمه الله- ذلك بما يلي :

١- أن النصوص القرآنية قطعية الدلالة، ومطلقة الدلالة كذلك، ونهائية في تقرير الحقيقة التي تقررها، ومن ثم لا يجوز أن يستشهد على صدقها بقول آخر إلا من جنسها، ومن مستواها من حيث قطعية الدلالة ونهائيتها المطلقة، وقول البشر ومنه كل ما يقررونه سواءً من الحقائق العلمية أو النظريات ليس من جنس تلك النصوص، ولا هو من مستواها حتى يستشهد به على صدقها، وفي هذا يتجلى الخطاء الاعتقادي، والخطاء المنهجي معًا في الاستشهاد بتقريرات البشر " العلمية" على صحة أو صدق النصوص القرآنية .

فالنصوص القرآنية صحيحة وصادقة بذاتها لا بشهادة من خارجها عليها، والمؤمن بها لا يجوز أن تدركه الهزيمة أمام علم البشر، فيشهد به على صدقها وصحتها " [3].

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٨٢ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ٤/ ١٨٥٧ .

(٣) مقومات التصور الإسلامي : ص ٣٢٦، و في ظلال القرآن ١/ ١٨٢ .

٢- أن ما تعارف عليه البشر على أنه " نظريات علمية " أو " حقائق علمية " كلاهما ليس قطعي الدلالة ولا مطلق الدلالة، فهو علمٌ ظنيٌ في أحسن الأحوال .

فأما " النظريات العلمية " فمعروف عند العلماء المحدثين أنفسهم أنها ليست سوى " فروض راجحة " فروض علمية لتفسير ظاهرة، أو ظواهر كونية، وتظل النظرية قائمة ومعتبرة إلى أن يوجد فرض علمي آخر يفسر تلك الظاهرة - أو الظواهر- تفسيرًا أوضح أو أصح، أو يفسر عددًا أكبر من الظواهر تفسيرًا متناسقًا، وهي عرضه دائمًا للتبدل والتغير والتعديل والإلغاء، فأين يذهب النص القرآني إذا نحن فسرناه بإحدى تلك النظريات وعلقناه بها ؟ أين يذهب عندما يظهر خطأ تلك النظرية، أو عندما تعدل في بعض أجزائها، أو عندما يضاف إليها جديد ؟ .

إننا سنضطر أن نحمله ونجري به وراء نظرية أخرى لعلها تتوافق معه ! وهكذا لا نكف عن حمله والجري به، فالنظريات العلمية لا تكاد تستقر، وهو عناء أغنانا الله عنه، فلا ينبغي أن نتكبده، وأن نعرض قول الله لمثله !

أما " الحقائق العلمية" فهي كما يقرر العلماء المحدثون كذلك، مجرد احتمالات راجحة وليست قطعية الدلالة، ولا مطلقة الدلالة - إنها حقائق ظنية - بما أنها احتمالات راجحة، وطبيعة المنهج العلمي التجريبي لا تسمح بغير هذا، فالإنسان هو الذي يقوم بالتجربة ومن ثم فهو لا يعتمد على نتائج إحصائية، وإنما يعتمد على نتائج قياسية يجري تجاربه على ما تناولته هذه التجارب، لأن كل أجزاء المادة ليست في يده، ولا تحت سلطانه البشري، وليست جميع الظروف خاضعة لسلطانه، بالإضافة إلى أن عمره - لا الفردي ولكن الإنساني - محدود كذلك، فلا يملك إجراء التجربة على كل أجزاء المادة، ولا يحيط بجميع الظروف والعوامل، وبالتالي فهو مضطر إلى أن يتخذ البرهان القياسي لا الإحصائي، ومن المسلم به أن البرهان القياسي برهان ظني لا قطعي، ومقيد الدلالة كذلك، بالإضافة إلى عامل " النسبية" الذي يتدخل في الموقف فيجعل كل حقيقة يصل إليها البشر حقيقة "نسبية" لا مطلقة، فالحقائق القطعية المطلقة لا يملكها إلا الله -سبحانه وتعالى- بحكم ألوهيته المهيمنة على الكون، وبحكم علمه المحيط غير المقيد بالزمان والمكان، وبحكم أنه

- سبحانه - هو الأول والأخر والظاهر والباطن، وهي الصفات اللازمة لعلم الحقيقة القطعية المطلقة، وهي الحقيقة التي يقص منها في كتابه ما يشاء، ومن ثم لا تحتاج إلى برهان خارج عنها ولا يستشهد على صدقها وصحتها بشيء من الحقائق الظنية النسبية المقيدة، لا من الناحية الإعتقادية وحدها ولكن كذلك من الناحية المنهجية العملية " [١] .

٣- "أن كل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة - أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا - تحتوي أولًا على خطأ منهجي أساسي ، كما أنها تنطوي على معان ثلاثة كلها لا يليق بجلال القرآن الكريم .

الأول : هي الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع ، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم ،أو الاستدلال له من العلم ، على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه ، ونهائي في حقائقه ، والعلم ما يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس ، وكل ما يصل إليه غير نهائي ولا مطلق ، لأنه مقيد بوسط الإنسان وعقله وأدواته ، وكلها ليس من طبيعتها أن تعطي حقيقة واحدة نهائية مطلقة " [٢].

" وتلمسُّ موافقات من النظريات " العلمية" للنصوص القرآنية هو هزيمة لجدية الإيمان بهذا القرآن واليقين بصحة ما فيه ، وأنه من لدن حكيم خبير، هزيمة ناشئة من الفتنة " بالعلم " وإعطائه أكثر من مجاله ومداه... فلينتبه إلى دبيب الهزيمة في نفسه من يحسب أنه بتطبيق القرآن على " العلم " يخدم القرآن ويخدم العقيدة ويثبت الإيمان! إن الإيمان الذي ينتظر كلمة العلم البشري المتقلبة ليثبت هو إيمان يحتاج إلى إعادة النظر فيه! إن القرآن هو الأصل والنظريات العلمية توافقه أو تخالفه سواء. أما الحقائق العلمية التجريبية فمجالها غير مجال القرآن ، وقد تركها القرآن للعقل البشري يعمل فيها بكامل حريته ، ويصل إلى النتائج التي يصل إليها

---

(١) مقومات التصور الإسلامي : ص ٣٢٦-٣٢٧ بتصرف ، وينظر: في ظلال القرآن ١/ ١٨٢، ٢/ ١١١٥، ٤/ ١٨٥٨ .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ١٨٢ .

بتجاربه" [١].

والثاني : سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته ، وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناء يتفق - بقدر ما تسمح طبيعة الإنسان النسبية - مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهي ، حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله، بل يصادقه ويعرف بعض أسراره ، ويستخدم بعض نواميسه في خلافته ، نواميسه التي تكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق ، وفق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة!

والثالث : هي التأويل المستمر- مع التمحل والتكلف- لنصوص القرآن كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر ، وكل يوم يجد فيها جديد ، وكل أولئك لا يتفق وجلال القرآن ، كما أنه يحتوي على خطأ منهجي كما أسلفنا " [٢].

الأمر الثاني : الانتفاع بما يثبت من الحقائق العلمية :

مع أن سيد - رحمه الله- يقرر أنه لا يجوز تعليق الحقائق القرآنية بالنظريات والفروض والحقائق العلمية البشرية وعدم تلمس موافقات لنصوص القرآن الكريم من النظريات العلمية ، باعتبارها غير قطعية الدلالة ، وما يترتب عليها من سوء فهم لطبيعة القرآن الكريم ووظيفته وحصول الهزيمة أمام فتنة العلم مما يؤدي إلى التكلف في تأويل نصوص القرآن الكريم جريًا وراء النظريات والفروض التي لا تستقر أبدًا، إلا أنه يقرر أن ذلك المنهج في التعامل مع النظريات والحقائق العلمية لا يمنع من الانتفاع بما يثبت من " الحقائق العلمية " وليست " النظريات العلمية " في توسيع مدى الرؤية البشرية لدلالات بعض النصوص القرآنية " [٣].

يقول سيد - رحمه الله- : " وهذا لا يعني ألا ننتفع بما يكشفه العلم من نظريات - ومن حقائق - عن الكون والحياة والإنسان في فهم القرآن.. كلا ! إن هذا ليس هو

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٥٨ .

(٢) المصدر السابق ١/ ١٨٢-١٨٣ .

(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ٣٢٨ .

الذي عنينا بذلك البيان ، ولقد قال الله سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[١]، ومن مقتضى هذه الإشارة أن نظل نتدبر كل ما يكشفه العلم في الآفاق وفي الأنفس من آيات الله ، وأن نوسع بها يكشفه مدى المدلولات القرآنية في تصوراتنا " [٢].

ويسأل سيد - رحمه الله- سؤالًا : كيف يمكن الانتفاع بها كشفه العلم من نظريات وحقائق دون أن نعلق النصوص القرآنية النهائية المطلقة بمدلولات ليست نهائية ولا مطلقة ؟ .

يرى سيد - رحمه الله- أن الجواب يتضح من خلال المثال ، حيث ضرب أمثلة للانتفاع الجائز والمأمون بالكشوف العلمية ، وأمثلة لما لا يجوز ولا يصح علميًا ، ومن هذه الأمثلة :

*يقول القرآن الكريم مثلًا: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [٣]و﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [٤] و ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [٥]... الخ، ثم تكشف الملاحظات العلمية أن هناك موافقات دقيقة وتناسقات ملحوظة بدقة في هذا الكون.. الأرض بهيئتها هذه وببعد الشمس عنها هذا البعد ، وبعد القمر عنها هذا البعد ، وحجم الشمس والقمر بالنسبة لحجمها، وبسرعة حركتها هذه وبميل محورها هذا ، وبتكوين سطحها هذا.. وبآلاف من الخصائص.. هي التي تصلح للحياة وتوائمها.. فليس شيء من هذا كله فلتة عارضة ولا مصادفة غير مقصودة.. هذه الملاحظات تفيدنا في توسيع مدلول ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ وتعميقه في تصورنا.. فلا بأس من تتبع مثل هذه الملاحظات لتوسيع هذا المدلول وتعميقه ، وتوسع مدى الرؤية البشرية لدلالة هذه النصوص" [٦].

---

(١) سورة فصلت : الآية ٥٣ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ١٨٣ .
(٣) سورة الفرقان : الآية ٢ .
(٤) سورة الرعد : الآية ٨ .
(٥) سورة الحجر : الآية ٢١ .
(٦) في ظلال القرآن ١/ ١٨٣ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ٣٢٨ .

* كذلك حين يقول الله - تعالى -: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) فإنه يجوز لنا أن نتتفع بالكشوف العلمية المستحدثة ، فيما تكشف عنه من الدقة الباهرة والتعقيد المدهش في أجهزة السمع والبصر، وفي الإدراك العقلي للإنسان، لتوسيع مدى الرؤية البشرية لحقيقة ما أمتن الله - سبحانه - به عليهم في الأجهزة التي لا يقاس إليها شيء مما صنعة البشر من الأجهزة " (٢)،هذا جائز ومطلوب .

ولكن الذي لا يجوز ولا يصح علميًا هذه الأمثلة الأخرى :

*يقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ (٣)، ثم توجد نظرية النشوء والارتقاء لـ "والاس دارون " تفترض أن الحياة بدأت خلية واحدة ، وأن هذه الخلية نشأت في الماء ، وأنها تطورت حتى انتهت إلى خلق الإنسان.. فنحمل نحن هذا النص القرآني ونلهث وراء النظرية لنقول : هذا هو الذي عناه القرآن!! لا ..إن هذه النظرية أولا ليست نهائية ، فقد دخل عليها من التعديل في أقل من قرن من الزمان ما يكاد يغيرها نهائيًا ، وقد ظهر فيها من النقص المبني على معلومات ناقصة عن وحدات الوراثة التي تحتفظ لكل نوع بخصائصه ولا تسمح بانتقال نوع إلى نوع آخر ما يكاد يبطلها ، وهي معرضة غدًا للنقض والبطلان.. بينما الحقيقة القرآنية نهائية ، وليس من الضروري أن يكون هذا معناها ، فهي تثبت فقط أصل نشأة الإنسان، وكفى " (٤).

*وكذلك قوله-سبحانه-: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾(٥)، فإنه لا يجوز أن نحمل هذا النص على نظرية أن الأرض كانت قطعة من الشمس فانفصلت عنها ، فهذه ليست سوى نظرية، أي مجرد فرض ظني، وليست نهائية في موضوعها . بل إن هناك الآن نظريات أخرى تعادلها وترجح

---

(١) سورة النحل : الآية ٧٨ .
(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ٣٢٩ .
(٣) سورة السجدة : الآية ٨ .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ١٨٣ .
(٥) سورة الأنبياء : الآية ٣٠ .

عليها " [(١)].

* وكذلك قوله- سبحانه- ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ [(٢)]، فإنه لا يجوز لنا أن نحمل هذا النص على نظرية السديم ، فالسديم ليس إلا مجرد نظرية ، ومثلها سائر النظريات الأخرى عن نشأة هذا الكون التي لم يشهدها أحد من البشر ولا من غيرهم من خلق الله ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [(٣)]. "ومع هذا قد يكون الكلام صحيحًا لأنه اقرب ما يكون إلى المدلول الذي تقرره الحقيقة القرآنية في الآية" [(٤)].

" ولعل هذه الأمثلة أن توضح المنهج الصحيح المأمون في التعامل مع الإشارات القرآنية والنظريات والحقائق العلمية البشرية ، في توسيع مدلول الآيات القرآنية وتعميقها ، دون تعليقها بنظرية خاصة أو بحقيقة علمية خاصة تعليق تطابق وتصديق، وفرق بين هذا وذاك ، وفي هذا القدر كفاية " [(٥)].

وهنالك أمثلة أخرى ذكرها سيد - رحمه الله - في مواطن متفرقة على ما يصح وما لا يصح النظريات والحقائق العلمية ، يمكننا هنا الإشارة إليها من باب إتمام الفائدة ومنها :

أ- نماذج من النظريات والحقائق التي يصح الاستفادة منها في بيان مدلول النصوص القرآنية :

١ - قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [(٦)]، حيث ذكر سيد - رحمه الله- بعض الآثار التي تدل على اخراج ذرية آدم من صلبه على هيئة الذر وإشهادهم ، ثم يعلق سيد على ذلك بقوله : " لقد عرض القرآن الكريم هذا المشهد الرائع الباهر العجيب الفريد ، لتلك الحقيقة الهائلة في أعماق الفطرة والوجود، قبل قرابة أربعة عشر قرنًا من الزمان ، حيث لم

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ٣٢٩ ، و في ظلال القرآن ١/ ١٨٣، ١٨٤ .
(٢) سورة فصلت : الآية ١١ .
(٣) سورة الكهف : الآية ٥١ .
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣١١٤ ، و مقومات التصور الإسلامي ص ٥٥ مع الهامش .
(٥) في ظلال القرآن ١/ ١٨٤ ، و مقومات التصور الإسلامي ص ٣٢٩ .
(٦) سورة الأعراف : الآية ١٧٢ .

يكن إنسان يعلم عن طبيعة النشأة الإنسانية وحقائقها إلا الأوهام! ثم يهتدي البشر بعد قرون إلى طرف من هذه الحقائق، فإذا " العلم " يقرر أن الناسلات ، وهي خلايا الوراثة التي تحفظ سجل " الإنسان " وتكمن فيها خصائص الأفراد وهم بعد خلايا في الأصلاب تحفظ سجل ثلاثة آلاف مليون من البشر، وتكمن فيها خصائصهم كلها ولا يزيد حجمها على سنتيمتر مكعب كلمة لو قيلت للناس يوم ذاك لاتهموا قائلها بالجنون والخبال وصدق الله العظيم ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[(١)] [(٢)].

٢-قوله تعالى ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ ﴾[(٣)]. يقول سيد - رحمه الله -: " وهو تعبير عجيب يقسر الناظر فيه قسرًا على الالتفات إلى ما كشف حديثًا عن كروية الأرض، ومع أنني في هذه الظلال حريص على ألا أحمل القرآن على النظريات التي يكشفها الإنسان ، لأنها نظريات تخطئ وتصيب ، وتثبت اليوم وتبطل غدًا، والقرآن حق ثابت يحمل آية صدقه في ذاته ،ولا يستمدها من موافقةٍ أو مخالفةٍ لما يكشفه البشر الضعاف المهازيل!.

مع هذا الحرص فإن هذا التعبير يقسرني قسرًا على النظر في موضوع كروية الأرض، فهو يصور حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض، فالأرض الكروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس، فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهارًا، وكلما تحركت الأرض غمر الليل السطح الذي كان عليه النهار وهكذا في حركة دائبة، واللفظ القرآني يرسم الشكل، ويحدد الوضع ، ويعين نوع طبيعة الأرض وحركتها، وكروية الأرض ودورانها يفسران هذا التعبير تفسيرًا أدق من أي تفسير آخر "[(٤)].

(١) سورة فصلت : الآية ٥٣ .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٩٢-١٣٩٣ .
(٣) سورة الزمر : الآية ٥ .
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٣٨ .

٣-قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [(١)]، يقول سيد- رحمه الله- :" وفيها تقرير حقيقة خطيرة، يعد العلماء كشفها وتقريرها أمرًا عظيمًا، ويمجدون " دارون " لاهتدائه إليها! وتقريره أن الماء هو مهد الحياة الأول .

وهي حقيقة تثير الانتباه حقًا، وإن كان ورودها في القرآن الكريم لا يثير العجب في نفوسنا ، ولا يزيدنا يقينا بصدق هذا القرآن، فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق في كل ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله، لا من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية له، وأقصى ما يقال هنا كذلك: إن نظرية النشوء والارتقاء لدارون وجماعته لا تعارض مفهوم النص القرآني في هذه النقطة بالذات " [(٢)] .

٤- قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا ﴾ [(٣)]، حيث نقل سيد - رحمه الله- عن بعض علماء الجيولوجيا ما يتعلق بوضع الجبال وفائدتها في تثبيت الأرض"[(٤)].

٥- قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ [(٥)]، حيث ذكر سيد - رحمه الله- ما أثبته العلم الحديث من احتواء جسم الإنسان على العناصر التي تحتويها الأرض جميعًا، إلا أنه يجب ألا يؤخذ على أنه التفسير الحتمي للآية، فقد يكون ما تعنيه وقد يكون شيئًا آخر."[(٦)].

---

(١) سورة الأنبياء :الآية ٣٠ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧٦ .
(٣) سورة فصلت : الآية ١٠ .
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣١١٢ وما بعدها، ٤/ ٢٣٧٦ .
(٥) سورة الرحمن :الآية ١٤ .
(٦) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٥١ .

ب-نماذج من النظريات والحقائق التي يرى سيد- رحمه الله-أنه لا يصح تفسير القرآن بها :

١- حملهم قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ ﴾ (١) ،على نقص أطراف الأرض عند القطبين، وانبعاجها على خط الاستواء، حيث يرى-سيد - أن هذا هراء، وأن السياق القرآني يحدد مدلول العبارات بأنه بيان لعمل يد الله فيما حولهم ، فهي تأتي الأمم القوية الغنية حين تبطر وتكفر وتفسد، فتنقص من قوتها وتنقص من ثرائها وتنقص من قدرها، وتحصرها في رقعة من الأرض ضيقة بعد أن كانت ذات سلطان وامتداد " (٢) .

٢- تفسير بعضهم قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ (٣) بأن الرياح تحمل اللقاح من شجرة إلى شجرة، حيث يرى سيد - رحمه الله- أن السياق هنا يشير إلى أنها لواقح بالماء دون سواه ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ وليس هناك ذكر ولو من بعيد للإنبات حتى يكون هناك ظل في المشهد للنبات، والتعبير القرآني دقيق في رسم ظلال المشاهد من قريب ومن بعيد يدرك ذلك من يعيش في ظلاله ناجيًا من الشوائب والإيحاءات الغريبة " (٤).

اكتفي بهذه الأمثلة التي نبه بها سيد -رحمه الله- على المنهج المأمون في التعامل مع الحقائق العلمية والنظريات، وفيها كفاية .

والخلاصة في موقف سيد ـ رحمه الله ـ من الإعجاز العلمي :

١- أنه يجب الإيمان بصدق ما جاء به القرآن ابتداء سواءً وافق ما توصلت إليه النظريات والحقائق العلمية أم لا .

٢- لا يصح أن نحمل النصوص القرآنية المستيقنة على النظريات والحقائق التي تتغير على سبيل القطع والجزم بأن هذه النظريات والحقائق هي ما تعنيه النصوص .

---

(١) سورة الرعد : الآية ٤١ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٦٥ مع الهامش ١ .
(٣) سورة الحجر : الآية ٢٢ .
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٣٤ مع الهامش ١ .

٣-جواز الاستفادة من الكشوف العلمية في تفسير نصوص القرآن وتوسيع مدلولاتها المجملة في تصوراتنا، دون القطع بأنها كل ما تعنيه النصوص، بل على أن يكون هذا بعض ما تشير إليه، وهذا ما أشار إليه سيد - رحمه الله- في بعض الأمثلة كما سبق .

٤- استعلاء سيد - رحمه الله- بدينه، واعتزازه بالقران، وحديثه عنه حديث المؤمن الذي لا يحتاج على دينه دليل من سواه .

خامسًا : شبهة القول بالإعجاز بالصرفة وموقف سيد - رحمه الله- منه:

الإعجاز بالصرفة يعني : " أن العرب إنما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن أو بسورة من مثله، لأن الله -سبحانه- صرفهم عن ذلك، وأمسك بهم أن يقوموا له، ولو قاموا لقالوا مثل ما قال، ولعارضوه قولًا ونظمًا وبلاغةً لأنه من جنس كلامهم، فكان هذا الصرف خارقًا للعادة وبه وقع الإعجاز"[١].

أما سيد قطب - رحمه الله- فهو مع إجماع العلماء في بطلان القول بالصرفة، حيث يقول : " فتحداهم مرة ومرة...ولكنهم لم يأتوا بعشر سور، ولا بسورة مفردة ! ولم يحاولوا هذه المحاولة أصلًا، إلا ما قيل من محاولة بعض المتنبئين بعد محمد ﷺ وليس هذا من الجد في شيء، ولا يجوز أن يحسب له في هذا المجال حساب، أما الرأي القائل بصرفهم عن المحاولة فليس له وزن يقام ! "[٢].

ب - آيات النبيﷺ الكونية :

في سياق الحديث عن آيات نبينا ﷺ يثبت سيد - رحمه الله- وقوع آيات كونية لنبينا ﷺ على نحو ما وقع لمن سبقه من الأنبياء، إلا أنه يرى أن النصوص القرآنية تدل بمفهومها على أن النبي ﷺ لم يرسل بالخوارق المادية التي جاءت مع الرسل قبله، لسببين :

(١) أول من قال بهذا القول هو : أبو إسحاق إبراهيم من سيار النظام ، المعتزلي، شيخ الجاحظ ، المتوفى سنة بضع وعشرين ومائتين، وهو قول مخالف لإجماع العلماء قديمًا وحديثًا، وقد ورد عليه أهل العلم قديمًا وحديثًا، ينظر: الملل والنحل للشهرستاني ١/ ١٤٢ ، والإتقان للسيوطي ٢/ ١١٨، والإعجاز القرآني . أ.د/ خليل الكبيسي ص ١٧٥ وما بعدها .

(٢) التصوير الفني في القرآن : ص ١٤-١٥ .

الأول : تكذيب الأولين بها،كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[١].يقول سيد - رحمه الله-:"ومفهوم النص القرآني ومدلوله أن النبي ﷺ لم يرسل بخوارق من نوع الخوارق التي جاءت مع الرسل قبله.. فقد اقتضت حكمة الله منع الآيات- أي الخوارق - لما كان من تكذيب الأولين بها "[٢].

ويقول : " والخوارق التي سبقت على أيدي الأنبياء قبل رسالة محمد ﷺ امتنعت في هذه الرسالة لأن الأولين الذين جاءتهم كذبوا بها ولم يهتدوا فحق عليهم الهلاك، والهلاك لم يقدر على أمة محمد ﷺ لذلك لم يرسله بالخوارق المادية ، وما كانت الخوارق إلا تخويفًا للأمم الخالية مما يحل بها من الهلاك إذا كذبت بعد مجيئها "[٣].

" وفي كل مناسبة طلب المشركون آية من الرسول ﷺ كان الرد يفيد أن هذا الأمر خارج عن حدود وظيفته، وأنه ليس إلا بشرًا رسولًا ، وكان يردهم إلى القرآن يتحداهم به بوصفه معجزة هذا الدين الوحيدة ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ "[٤]،[٥] .

الثاني : أن التجارب البشرية في تكذيب الأمم بالخوارق المادية بعد طلبها وهلاكهم بعد ذلك، هذه التجارب اقتضت أن تجيء الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بالخوارق ، لأنها رسالة الأجيال المقبلة جميعها لا رسالة جيل واحد يراها، ولأنها

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٥٩ .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٢٦-٣٤٢٧ بتصرف يسير .
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٣٦-٢٢٣٧ بتصرف .
(٤) سورة الإسراء : الآيات ٨٨-٩٣ .
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٢٧ .

رسالة الرشد البشري تخاطب مدارك الإنسان جيلًا بعد جيل وتحترم إدراكه الذي تتميز به بشريته والذي من أجله كرمه الله على كثير من خلقه " [١] .

" إن الخوارق الحسية ، قد تدهش القلب البشري في طفولته ، قبل أن يتهيأ لإدراك الآيات الكونية القائمة الدائمة ، والتأثر بإيقاعها الثابت الهادئ ، وكل الخوارق التي ظهرت على أيدي الرسل - صلوات الله عليهم - قبل أن تبلغ البشرية الرشد والنضوج، يوجد في الكون ما هو أكبر منها وأضخم وإن كان لا يستثير الحس البدائي كما تستثيره تلك الخوارق !... ولهذا كان اتجاه الرسالة الأخيرة إلى مخاطبة القلب البشري بالقرآن الكريم وحده ، وما فيه من إعجاز ظاهر ، ثم توجيه هذا القلب عن طريق القرآن الكريم إلى آيات الله القائمة في الأنفس والأفاق وفي أحداث التاريخ سواء "[٢].

" فمعجزة الإسلام هي القرآن الكريم ، وهو كتاب يرسم منهجًا كاملًا للحياة ، ويخاطب الفكر والقلب ، ويلبي الفطرة القويمة ، ويبقى مفتوحًا للأجيال المتتابعة تقرؤه وتؤمن به إلى يوم القيامة ، أما الخارقة المادية فهي تخاطب جيلًا واحدًا من الناس ، وتقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل على أن كثرة من كانوا يشاهدون الآيات لم يؤمنوا بها " [٣].

" والقرآن الكريم فرقانٌ ، بما فيه من فارق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال، - يرسم منهجًا واضحًا للحياة في كل صورها - ويمثل عصرًا جديدًا للبشرية، فرقان ينتهي به عصر الطفولة و يبدأ به عهد الرشد ، وينتهي به عهد الخوارق المادية، ويبدأ به عهد المعجزات العقلية ، وينتهي به عهد الرسالات المحلية الموقوتة، ويبدأ به عهد الرسالة العامة الشاملة " [٤].

وبناء على ما سبق فإن سيدًا - رحمه الله- يثبت وقوع الآيات والخوارق المادية للنبي ﷺ ، لكنه يتوقف في تعليلها بأنها كانت دليلًا لإثبات رسالته ، بل يرى أنها إما إكرامًا من الله لعبده ورسوله محمد ﷺ أو فتنه للناس .

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٢٣٧ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ٣٣٢٧ .
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٢٣٧ .
(٤) المصدر السابق ٥/ ٢٥٤٧ .

يقول - رحمه الله- : " فأما ما وقع فعلًا للرسول ﷺ من خوارق صحيحة فكانت إكرامًا من الله لعبده، دليلًا لإثبات رسالته ... ومن ثم نثبت حادثة انشقاق القمر بالنص القرآني وبالروايات المتواترة التي تحدد مكانه وزمانه وهيئته، ونتوقف في تعليل الذي ذكرته بعض الروايات من أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين " [(١)].

ويقول في تعليقه على قصة الإسراء: " أما الخوارق التي وقعت للرسول ﷺ وأولها خارقة الإسراء والمعراج فلم تتخذ معجزة مصدقة للرسالة، إنما جعلت فتنة للناس وابتلاء ... ولقد ارتد بعض من كان آمن بالرسول ﷺ بعد حادثة الإسراء، كما ثبت بعضهم وازداد يقينًا...

فماذا كانت الخوارق صانعة مع القوم لو كانت هي آية رسالته كما كانت علامة الرسالات قبله ومعجزة المرسلين؟ وما زادتهم خارقة الإسراء إلا طغيانًا كبيرًا؟.

إن الله لم يقدر إهلاكهم بعذاب من عنده، ومن ثم لم يرسل إليهم بخارقة، فقد اقتضت إرادته أن يهلك المكذبين بالخوارق، أما قريش فقد أمهلت ولم تؤخذ بالإبادة كقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، ومن المكذبين من آمن بعد ذلك وكان من جند الإسلام الصادقين، ومنهم من أنجب المؤمنين الصادقين وظل القرآن معجزة الإسلام كتابًا مفتوحًا لجيل محمد - ﷺ - وللأجيال بعده، يهتدي به من هم بعد في ضمير الغيب، وقد يكون منهم من هو أشد إيمانًا وأصلح عملًا، وأنفع للإسلام من كثير سبقوه "[(٢)].

ومن الآيات التي تحدث عنها سيد قطب - رحمه الله- :

أولًا : الإسراء والمعراج :

١- تعريفه: يقول- سيد -:

"الإسراء من السرى:وهو السير ليلًا، فكلمة "أسرى" تحمل معها زمانها،

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٢٧.

(٢) في ظلال القرآن ٤ / ٢٢٣٧ - ٢٢٣٨ بتصرف يسير.

ولا تحتاج إلى ذكره ، ولكن السياق ينص على الليل ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾[(١)]. للتظليل والتصوير على طريقة القرآن الكريم – فيلتقي ظل الليل الساكن، ويخيم جوه الساجي على النفس ، وهي تتملى حركة الإسراء اللطيفة وتتابعها " [(٢)].

" وقصة الإسراء من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس – ومعها قصة المعراج – من بيت المقدس إلى السماوات العلى وسدرة المنتهى وذلك العالم الغيبي المجهول لنا ، كانتا في ليلة واحدة ، وهذه القصة جاءت فيها روايات شتى ، وثار حولها جدل كبير، ولا يزال إلى اليوم يثور" [(٣)].

٢- المكان الذي أسري منه : اختلف في المكان الذي أسري منه على أقوال :

– فقيل : هو المسجد الحرام بعينة – وهو الظاهر– وروي عن النبي ﷺ :" بينما أنا في المسجد في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل – عليه السلام – بالبراق... " [(٤)].

– وقيل : أُسري به من دار أم هاني بنت أبي طالب، والمراد بالمسجد الحرام الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به، وعن ابن عباس : الحرم كله مسجد .

وروي أنه كان نائمًا في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسري به ورجع من ليلته، وقص القصة على أم هانئ وقال : " مثل لي النبيون فصليت بهم " ثم قام ليخرج إلى المسجد ، فتشبثت أم هانئ بثوبه فقال : " مالك؟ " قالت : أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم . قال : " وإن كذبوني " فخرج فجلس إليه أبو جهل ، فأخبره رسول الله ﷺ بحديث الإسراء، فقال أبو جهل : يا معشر بني كعب ابن لؤي هلم، فحدثهم ، فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجبًا وإنكارًا، وارتد ناسٌ ممن كان آمن به، وسعى رجالٌ إلى أبي بكر– رضي الله عنه – فقال : أو قال ذلك؟ قالوا نعم، قال : فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا : فتصدقه في أن يأتي في الشام في

---

(١) سورة الإسراء : الآية ١ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢١١– ٢٢١٢ .

(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٢١٠ بتصرف يسير .

(٤) رواه : البخاري كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة ٣/ ١١٧٣ برقم ٣٠٣٥ وأيضًا برقم ٣٦٧٤ .

ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال : نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء! فسمي الصدّيق ، وكان منهم من سافر إلى بيت المقدس فطلبوا إليه وصف المسجد ، فجلي له ، فطفق ينظر إليه وينعته لهم ، فقالوا : أما النعت فقد أصاب، فقالوا : أخبرنا عن عيرنا، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها، وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية -لمراقبة مقدم العير- فقال قائل منهم : هذه والله الشمس قد شرقت، فقال آخر : وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد.. ثم لم يؤمنوا : وفي الليلة ذاتها كان العروج إلى السماء من بيت المقدس " (١) .

٣- حقيقة الإسراء والمعراج :

يقول سيد : " واختلف في أن الإسراء كان في اليقظة أم في المنام ،

- فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : والله ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن عرج بروحه " (٢).

- وعن الحسن كان في المنام رؤيا رآها .

- وفي أخبار أخرى أنه كان بروحه وجسمه، وأن فراشه ﷺ لم يبرد حتى عاد إليه.

- والراجح من مجموع الروايات أن رسول الله ﷺ ترك فراشه في بيت أم هانئ إلى المسجد فلما كان في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان أسري به وعرج، ثم عاد إلى فراشه قبل أن يبرد .

على أننا لا نرى محلًا لذلك الجدل الطويل الذي ثار قديمًا والذي يثور حديثًا حول طبيعة هذه الواقعة المؤكدة في حياة الرسول ﷺ والمسافة بين الإسراء والمعراج بالروح أو بالجسم ، وبين أن تكون رؤيا في المنام أو رؤية في اليقظة..المسافة بين هذه الحالات كلها ليست بعيدة، ولا تغير من طبيعة هذه الواقعة شيئًا، وكونها كشفًا وتجلية للرسول ﷺ عن أمكنة بعيدة، وعوالم بعيدة في لحظة خاطفة، والذين يدركون

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢١٠ ، والقصة في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٤٨-٢٥١ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢١٠ ، والقصة في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٤٨-٢٥١ .، وينظر :شرح الطحاوية ص ٢٧٠ .

شيئًا من طبيعة القدرة الإلهية ومن طبيعة النبوة لا يستغربون في الواقعة شيئًا، فأمام القدرة الإلهية تتساوى جميع الأعمال التي تبدو في نظر الإنسان وبالقياس إلى قدرته وإلى تصوره متفاوتة السهولة والصعوبة حسب ما اعتاده وما رآه، والمعتاد المرئي في عالم البشر ليس هو الحكم في تقدير الأمور بالقياس إلى قدرة الله .

أما طبيعة النبوة فهي اتصال بالملأ الأعلى على غير قياس أو عادة لبقية البشر، وهذه التجلية لمكان بعيد ، أو عالم بعيد، والوصول إليه بوسيلة معلومة أو مجهولة ليست أغرب من الاتصال بالملأ والتلقي عنه، وقد صدق أبو بكر - رضي الله عنه -وهو يرد المسألة المستغربة المستهولة عند القوم إلى بساطتها وطبيعتها فيقول : إني لأصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء!"(١) .

٤- فوائد وأحكام من حادثة الإسراء والمعراج :

تعرض سيد - رحمه الله- في مواطن متعددة لبعض الحكم والأسرار والفوائد والأحكام المستفادة من هذه الحادثة ومنها :

أ- ذكر وصف العبودية في حادثة الإسراء ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ يقرر ويؤكد حقيقة العبودية في مقام الإسراء والعروج التي لم يبلغها بشر، وذلك كي لا تنسى هذه الصفة ، ولا يلتبس مقام العبودية ، بمقام الألوهية كما التبسا في العقائد المسيحية بعد عيسى - عليه السلام - ، بسبب ما لابس مولده ووفاته ، وبسبب الآيات التي أعطيت له ، فاتخذها بعضهم سببًا للخلط بين مقام العبودية ومقام الألوهية ، وبذلك تبقى للعقيدة الإسلامية بساطتها ونصاعتها وتنزيهها للذات الإلهية عن كل شبهة من شرك أو مشابهة ، من قريب أو من بعيد " (٢) .

ب- " أن الرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة ، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام -، إلى محمد خاتم النبيين ﷺ وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعًا، وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله ، واشتمال

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢١٠-٢٢١١ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢١١، ٥/ ٢٥٤٧-٢٥٤٨ .

رسالته على هذه المقدسات ، وارتباط رسالته بها جميعًا، فهي رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان، وتشمل آفاقًا أوسع من الزمان والمكان، وتتضمن معاني أكبر من المعاني القريبة التي تتكشف عنها للنظرة الأولى "[١].

ج- وصف المسجد الأقصى بأنه ﴿ ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ وصف يرسم البركة حافة بالمسجد ، فائضة عليه، وهو ظل لم يكن ليلقيه تعبير مباشر مثل : باركناه ، أو باركنا فيه ، وذلك من دقائق التعبير القرآني العجيب "[٢].

د- " أن الإسراء آية صاحبتها آيات، كشفت عن حكمتها بقوله :﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ﴾ والنقلة العجيبة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى في البرهة الوجيزة التي لم يبرد فيها فراش الرسول ﷺ أيًا كانت صورتها وكيفيتها..آية من آيات الله، تفتح القلب على آفاق عجيبة في هذا الوجود، وتكشف عن الطاقات المخبوءة في كيان هذا المخلوق البشري ، والاستعدادات اللدنية التي يتهيأ بها لاستقبال فيض القدرة في أشخاص المختارين من هذا الجنس الذي كرمه الله وفضله على كثير من خلقه ، وأودع فيه هذه الأسرار اللطيفة " .[٣]

هـ - ثقة الرسول - ﷺ - بالحق الذي جاء به " حيث يلاحظ - بمناسبة هذه الواقعة وتبين صدقها للقوم بالدليل المادي الذي طلبوه يومئذ في قصة العير وصفتها، أن الرسول ﷺ لم يسمع لتخوف أم هانئ -رضي الله عنها- من تكذيب القوم له بسبب غرابة الواقعة، فإن ثقته ﷺ بالحق الذي جاء به ، والحق الذي وقع له، جعلته يصارح القوم بها رأى كائنًا ما كان رأيهم فيه، وقد ارتد بعضهم فعلًا ، واتخذها بعضهم مادة للسخرية والتشكيك، ولكن هذا كله لم يكن ليقعد الرسول ﷺ عن الجهر بالحق الذي آمن به، وفي هذا مثل لأصحاب الدعوة أن يجهروا بالحق لا يخشون وقعه في نفوس الناس ، ولا يتملقون به القوم ، ولا يتحسسون مواضع الرضى والاستحسان ، إذا تعارضت مع كلمة الحق تقال "[٤].

(١) المصدر السابق ٤ / ٢٢١٢ و معركتنا مع اليهود - سيد قطب - ص ٣٦ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٢١٢ .
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٢١٢ .
(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٢١٢ .

و- أن النبي ﷺ لم يتخذ من الواقعة معجزة لتصديق رسالته ، مع إلحاح القوم في طلب الخوارق وقد قامت البينة عندهم على صدق الإسراء على الأقل، ذلك أن هذه الدعوة لا تعتمد على الخوارق ، إنما تعتمد على طبيعة الدعوة ومنهاجها المستمد من الفطرة القويمة ، المتفقة مع المدارك بعد تصحيحها وتقويمها، فلم يكن جهر رسولﷺ بالواقعة ناشئًا عن اعتماده عليها في شيء من رسالته، إنما كان جهرًا بالحقيقة المستيقنة له لمجرد أنها حقيقة " [١] . "فالخوارق التي وقعت للرسولﷺ وأولها خارقة الإسراء والمعراج لم تتخذ معجزة مصدقة للرسالة، إنما جعلت فتنة للناس وابتلاء.. ولقد ارتد بعض من كان آمن بالرسول ﷺ بعد حادثة الإسراء ، كما ثبت بعضهم وازداد يقينًا " [٢].

ز- في هذه الرحلة إثبات لرؤية النبي ﷺ لجبريل -عليه السلام- على هيئته وصورته التي خلقه الله عليها، يسد الأفق بخلقه الهائل، حيث رآه وصاحبه إلى سدرة المنتهى.. التي انتهت إليها رحلة المعراج، أو انتهت إليها صحبت جبريل لرسول ﷺ حيث وقف هو، وصعد محمد ﷺ درجة أخرى أقرب إلى عرش ربه وأدنى، وكله غيب من غيب الله، اطلع عليه عبده المصطفى، ولم يرد إلينا إلا هذا، وكله أمر فوق طاقتنا أن ندرك كيفيته " [٣] .

كما رأى الأنبياء في السموات العلى، ورأى البيت المعمور، وهو بيت عبادة الملائكة في السماء كما ورد في الصحيحين في حديث الإسراء : " ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفًا لا يعودون إليه آخر ما عليهم " [٤]، يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم"[٥]

ح- أما رؤية النبي ﷺ لربه ليلة الإسراء والمعراج، فإن سيد - رحمه الله- يقرر ما عليه أهل السُّنَّة والجماعة من أنه لم يره، وإنما رأى النور، حيث أشار إلى فيض

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢١٢ .

(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٢٣٧ وينظر أيضًا : ٣/ ١٨٢٠ .

(٣) المصدر السابق ٦/ ٣٢٠٦-٣٤٠٧ بتصرف . وينظر ٥/ ٢٩٢١ .

(٤) رواه : البخاري في بدء الخلق باب ذكر الملائكة ٣/ ١١٧٤ برقم ٣٠٣٥ .

(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٩٣ وينظر ٥/ ٢٨١٤، ٣١٨٥ هامش ١ .

نور الله تعالى على قلب محمد ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج، فلما سألته عائشة: هل رأيت ربك؟ قال:" نور أنى أراه"[١] . وذكر عن عائشة - رضي الله عنها - قولها أيضًا : " من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية "[٢].[٣] .

ثانيا: انشقاق القمر :

وهي الآية الكونية الثانية التي تعرض لها سيد - رحمه الله- في الظلال وهو يتحدث عن الخوارق المادية للنبي - ﷺ - ففي ظلال قوله تعالى:﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[٤]، يقول سيد : "والروايات عن انشقاق القمر، ورؤية العرب له في حالة انشقاقه أخبار متواترة، تتفق كلها في إثبات وقوع الحادث وتختلف في رواية هيئته تفصيلًا وإجمالًا، وقد ذكر سيد - رحمه الله- عدة روايات حول حادثة انشقاق القمر[٥] .

ثم قال سيد : " فهذه روايات متواترة من طرق شتى عن وقوع الحادث، وتحديد مكانه في مكة - باستثناء رواية لم نذكرها - أنه كان في منى" ، وتحديد زمانه في عهد النبيﷺ قبل الهجرة، وتحديد هيئته - في معظم الروايات أنه انشق فلقتين ، وفي رواية واحدة أنه كسف (أي خسف) . . فالحادث ثابت من هذه الروايات المتواترة المحددة للمكان والزمان والهيئة .

وهو حادث واجه به القرآن الكريم المشركين في حينه، ولم يروَ عنهم تكذيب لوقوعه، فلا بد أن يكون قد وقع فعلًا بصورة يتعذر معها التكذيب ، ولو على سبيل المراء الذي كانوا يمارونه في الآيات لو وجدوا منفذًا للتكذيب، وكل ما روي عنهم أنهم قالوا : سحرنا! ولكنهم هم أنفسهم اختبروا الأمر ، فعرفوا أنه ليس بسحر، فلئن كان قد سحرهم فإنه لا يسحر المسافرين خارج مكة الذين رأوا

---

(١) سبق تخريجه ص ٥٥٩.

(٢) سبق تخريجه ص ٥٣٤ .

(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥١٩، ٥/ ٣١٦٩ .

(٤) سورة القمر : الآية ١-٢ .

(٥) رواه : البخاري في التفسير باب انشقاق القمر ٤/ ١٨٤٤ برقم ٤٥٨٣ - ٤٥٨٧ .

الحادث وشهدوا به حين سئلوا عنه "[١] .

ومع إثبات سيد قطب- رحمه الله- لهذه الآية من الآيات الخارقة التي وقعت للنبي ﷺ إلا أنه - كما سبق - يرى أنها لم تكن معجزة لتأييده، حيث يقول بعد سرد الروايات السابقة : " بقيت لنا كلمة في الرواية التي تقول : إن المشركين سألوا النبي ﷺ آية ، فانشق القمر ، فإن هذه الرواية تصطدم مع مفهوم نص قرآني مدلوله أن الرسول ﷺ لم يرسل بخوارق من نوع الخوارق التي جاءت مع الرسل قبله ، لسبب معين : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾[٢]، فمفهوم هذه الآية أن حكمة الله اقتضت منع الآيات - أي الخوارق - لما كان من تكذيب الأولين بها .

وفي كل مناسبة طلب المشركون آية من الرسولﷺ كان الرد يفيد أن هذا الأمر خارج عن حدود وظيفته ، وأنه ليس إلا بشرًا رسولًا، وكان يردهم إلى القرآن يتحداهم به بوصفه معجزة هذا الدين الوحيدة ...

فالقول بأن انشقاق القمر كان استجابة لطلب المشركين آية - أي خارقة - يبدو بعيدًا عن مفهوم النصوص القرآنية، وعن اتجاه هذه الرسالة الأخيرة إلى مخاطبة القلب البشري بالقرآن وحده ، وما فيه من إعجاز ظاهر، ثم توجيه هذا القلب- عن طريق القرآن الكريم - إلى آيات الله القائمة في الآفاق والأنفس، وفي أحداث التاريخ سواء.. فأما ما وقع فعلًا للرسول ﷺ من خوارق شهدت بها روايات صحيحة فكان إكرامًا من الله لعبده ، لا دليلًا لإثبات رسالته .

ومن ثم نثبت الحادث - حادث انشقاق القمر - بالنص القرآني وبالروايات المتواترة التي تحدد مكان الحادث وزمانه وهيئته، ونتوقف في تعليله الذي ذكرته بعض الروايات ، .. ونكتفي بإشارة القرآن إليه مع الإشارة إلى اقتراب الساعة، باعتبار هذه الإشارة لمسة للقلب البشري ليستيقظ ويستجيب .فانشقاق القمر إذن كان آية كونية يوجه القرآن القلوب والأنظار إليها ، كما يوجهها دائمًا إلى الآيات

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٢٥-٣٤٢٦ بتصرف يسير و وينظر أيضًا : مشاهد القيامة : ص ٩٥ .
(٢) سورة الإسراء : الآية ٥٩ .

الكونية الأخرى، ويعجب من موقف الناس تجاهها ...

ولنفرض أن انشقاق القمر جاء آية خارقة، فإن القمر في ذاته آية أكبر.. والقرآن جاء ليقف بالقلب البشري في مواجهة الكون كله وما فيه من آيات "[١] .

ثالثا : تسليم الحجر والشجر على النبي ﷺ وحنين الجذع إليه .

ذكر سيد قطب - رحمه الله- بعض الآيات التي حدثت للنبي ﷺ إجمالا، ومنها :

١- تسليم الحصى والحجر والشجر عليه : ففي الصحيح قال رسول الله ﷺ : "إن بمكة حجرًا كان يسلم عليّ ليالي بعثت، إني لأعرفه الآن "[٢] .

وعن علي - رضي الله عنه - قال : كنت مع رسول الله بمكة فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول " السلام عليك يا رسول الله "[٣].

٢- حنين الجذع إليه ﷺ في الصحيح عن أنس - رضي الله عنه - قال :"خطب رسول الله ﷺ إلى لزق جذع، فلما صنعوا له المنبر فخطب عليه حن الجذع حنين الناقة ، فنزل الرسول فمسحه ، فسكن "[٤].[٥] .

٣- ما حدث يوم الخندق ، عندما ضرب النبي ﷺ الصخرة بالمعول، فلمعت ثلاث مرات فلما سئل قال :" أما الأولى فإن الله فتح عليّ بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح عليّ بها الشام والمغرب،وأما الثالثة فإن الله فتح عليّ بها المشرق "[٦].

هذه بعض الآيات التي أشار إليها سيد - رحمه الله- والتي يرى -كما سبق -أنها كانت إكرامًا لنبيه ﷺ من ربه جل وعلا.

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٢٦-٣٤٢٨ بتصرف .

(٢) رواه مسلم : في الفضائل باب فضل النبي- ﷺ - ٤/ ١٤٢٣ بلفظ " أني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث أني لأعرفه الآن "

(٣) رواه الترمذي : في باب إثبات نبوة النبي- ﷺ - ٥/ ٥٥٣ برقم ٣٦٢٦ وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي ص٤١٢ والمشكاة برقم ٥٩١٩

(٤) رواه الترمذي : في الصلاة باب الخطبة على المنبر ٢/ ٣٧٩ برقم ٥٠٥ وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ١/ ٢٨٥

(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٧٨، ٣٦٠٩ .

(٦)رواه النسائي في الجهاد باب عزو الترك ٦/ ٣٥٠ برقم ٣١٧٦ ، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي ٢/ ٣٩٧- ٣٩٨ ، و في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٤٢ ، وسيرة ابن هشام ٣/ ٢٣٤..

المطلب الثالث

خصائص النبي ﷺ

اختص الله سبحانه وتعالى نبينا محمدًا - ﷺ - بجملة من الخصائص والمميزات في نفسه وفي رسالته، وقد أشار سيد - رحمه الله- إلى بعض منها وهي :

١- أنه - ﷺ - خاتم الأنبياء والرسل :

وهذا بنص القرآن الكريم: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[(١)]، وقد ذكر سيد - رحمه الله- هذه المزية في كثير من المواضع، مشيرًا إلى أن ذلك يقتضي أن تكون رسالته هي الرسالة الخاتمة، وشريعته هي الشريعة الثابتة التي لا تبديل فيها بعد ذلك ولا تغيير كونها آخر رسالة السماء إلى الأرض لتسير عليها البشرية ومن ثم انقطع الوحي بعده " [(٢)] .

٢- أنه أفضل الأنبياء والرسل :

وكما مر معنا في مسالة التفاضل بين الأنبياء من أن الله -سبحانه - فضل بعض النبيين على بعض وقد أشار سيد - رحمه الله- إلى أن أفضلهم هو محمد - ﷺ - في مواضع عديدة، حيث يقول : " ومحمد - ﷺ - أفضل الرسل وأولاهم بتبرئة الله له والدفاع عنه " [(٣)] .

ويقول : " وحين ننظر إلى مقامات الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - من أية ناحية نجد محمدًا - ﷺ - في القمة العليا، وسواءً نظرنا إلى الأمر من ناحية شمول الرسالة وكليتها، أو من ناحية محيطها وامتدادها ، فإن النتيجة لا تتغير"[(٤)].

(١) سورة الأحزاب : الآية ٤٠ .
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٧٠ وينظر أيضًا ١/ ٩١، ٢٨٣، ٢/ ٨٠٥، ٨٠٩ .
(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٨٨٤ .
(٤) المصدر السابق ١/ ٢٨٣ .

٣- عموم رسالته وكمالها وشمولها :

حيث وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تبين عموم رسالة النبي - ﷺ - للخلق أجمعين، كقوله سبحانه ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[١] وقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[٢] وقوله : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[٣] وقوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[٤] وغيرها .

وقد وقف سيد - رحمه الله- في ظلال هذه الآيات وغيرها مقرر عالمية رسالة النبي - ﷺ - وكمالها وشمولها، موضحًا أن القرآن الكريم صدع بهذه الحقيقة منذ فجر الرسالة، والآيات المكية في ذلك كثيرة جدًا ، " حيث أمر النبي - ﷺ - أن يواجه برسالته الناس أجمعين ، كما في الآية الأولى: ﴿ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وهي آية مكية في سورة مكية، وهي تجبه المزورين من أهل الكتاب الذين يزعمون أن محمدًا - ﷺ - لم يكن يدور في خلده وهو في مكة أن يمد بصره برسالته إلى غير أهلها ، وأنه إنما بدأ يفكر في أن يتجاوز بها قريشًا ، ثم يجاوز بها العرب إلى دعوة أهل الكتاب، ثم يجاوز بها الجزيرة العربية إلى ما وراءها .. كل أولئك بعد أن أغراه النجاح الذي ساقته إليه الظروف! وإن هي إلا فرية من ذيول الحرب التي شنوها قديما على هذا الدين وأهله، وما يزالون ماضين فيه! "[٥] .

وقوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ وفي سورة القلم: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ وفي سورة التكوير: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ وهي سورة مكية ، والدعوة في مكة تقابل بذلك الجحود...وهي في هذا الوقت المبكر، وفي هذا الضيق المستحكم تعلن عن عالميتها ، كما هي طبيعتها وحقيقتها ، فلم تكن هذه الصفة جديدة عليها حين انتصرت في المدينة - كما يدعي المفترون اليوم - إنما كانت صفة مبكرة في أيام مكة الأولى ، لأنها حقيقة ثابتة في صلب هذه الدعوة منذ نشأتها .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٥٨ .
(٢) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .
(٣) سورة الفرقان : الآية ١ .
(٤) سورة التكوير : الآية ٢٧ .
(٥) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٧٩ .

كذلك أرادها الله وكذلك اتجهت منذ أيامها الأولى، وكذلك تتجه إلى أخر الزمان، والله الذي أرادها كذلك هو صاحبها وراعيها والمدافع عنها وحاميها... وليس على أصحابها إلا الصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين "(١).

" فهي إذًا الرسالة الكاملة ، يحملها الرسول الكامل ، للبشر جميعا ، ولقد كانت رسالة محمد - ﷺ - رحمة لقومه وللبشرية كلها من بعده ، يقود البشرية إلى الكمال المقدر لها في هذه الحياة "(٢).

ويقرر سيد- رحمه الله- أنه لو لم تكن هذه الرسالة عامة للناس كافة، لكان للناس - ممن سيأتون من أجيال وأمم - حجة على الله ، فانقطعت هذه الحجة بالرسالة العامة للناس وللزمان ، وكانت هي الرسالة الأخيرة ، فإنكار أن هناك رسالة بعد أنبياء بني إسرائيل غير عيسى ، أو بعد عيسى - عليه السلام - لا يتفق مع عدل الله ، في أن يأخذ الناس بالعقاب بعد البلاغ . . ولم يسبق أن كانت هناك رسالة عامة، ولم يكن بد من هذه الرسالة العامة، فكانت بعدل الله ورحمته بالعباد، وكان حقًا قول الله سبحانه:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ رحمة في الدنيا ورحمة في الآخرة "(٣).

وقد تحدث سيد - رحمه الله- عن وجوب محبة النبي ﷺ وطاعته والإيمان به، وعن كفر من لم يؤمن به أو أنكر نبوته أو شاقة في طريقته ، وتحدث أيضًا عن ولاية النبي ﷺ للمؤمنين ، وعن كثير من أخلاقه وصفاته ، وعن حياته مع زوجاته وأصحابه وتعامله مع أعدائه وأقاربه ، مما حقه أن يفرد ببحث مستقل ، في السيرة والتربية "(٤).

واختتم هذا المبحث بنص لسيد - رحمه الله - حول خصائص بعثة النبي ﷺ

---

(١) المصدر السابق ٥/ ٢٥٤٨ ، ٦/ ٣٦٧١-٣٦٧٢، ٣٨٤٣ .

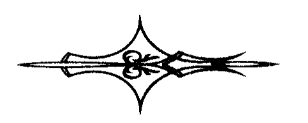
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٤٠١ ، ٦/ ٣٦١٧ بتصرف .

(٣) المصدر السابق ٢/ ٨١٤ .

(٤) ينظر في ذلك على سبيل المثال : في ظلال القرآن ١/ ١٢٨، ٤١٠ ، ٤٢٠- ٤٢١، ٤٦٠ ، ٢/ ٦٩٦، ٩٥٢ ، ٤/ ٢٢١٠ ، ٢٢٦٢ ، ٣/ ١٦٦٨ ، ٥/ ٢٥٢٦ ، ٢٥٧٧، ٢٨٢٨، ٢٨٢٩، ٢٨٦٥ ، ٦/ ٣٦٥٦، ٣٨٩٠، ٣٨٩٢، ٣٩٣٧ وغيرها .

وصفاته حيث يقول في مقدمة سورة التحريم : " عندما جرى قدر الله أن يجعل الإسلام هو الرسالة الأخيرة، والمنهاج الباقي إلى آخر الخليقة ، وأن تجري حياة المؤمنين به وفق الناموس الكوني العام ، جعل الله هذا المنهج في هذه الصورة ، شاملًا كاملًا متكاملًا ، يلبي كل طاقات البشر واستعداداتهم بما يليق وكرامتهم ، فاختار الله رسوله ﷺ إنسانًا تتمثل فيه العقيدة بكل خصائصها ، ويكون هو بذاته وبحياته الترجمة الصحيحة الكاملة لها ، إنسانًا قد اكتملت طاقاته الإنسانية كلها ، ضليع التكوين الجسدي ، قوي البنية ، سليم البناء صحيح الحواس ، يقظ الحس ، يتذوق المحسوسات تذوقًا كاملًا سليمًا ، وهو في الوقت ذاته ضخم العاطفة ، حي الطبع ، سليم الحساسية ، يتذوق الجمال ، متفتح للتلقي والاستجابة ، وهو في الوقت ذاته كبير العقل ، واسع الفكر ، فسيح الأفق ، قوي الإرادة ، يملك نفسه ولا تملكه ، ثم هو بعد ذلك كله . . النبي الذي تشرق روحه بالنور الكلي ، والذي تطيق روحه الإسراء والمعراج ، والذي ينادى من السماء ، والذي يرى نور ربه ، والذي تتصل حقيقته بحقيقة كل شيء في الوجود من وراء الأشكال والظواهر، فيسلم عليه الحصى والحجر، ويحن له الجذع ، ويرتجف به أحد الجبل..! ثم تتوازن في شخصيته هذه الطاقات كلها ، فإذا هو التوازن المقابل لتوازن العقيدة التي اختير لها .

ثم يجعل الله حياته الخاصة والعامة كتابًا مفتوحًا لأمته وللبشرية كلها ، تقرأ فيه صورة هذه العقيدة وترى فيه تطبيقاتها الواقعية ، ومن ثم يعرض القرآن الكريم جوانب كثيرة من حياته ، حتى مواضع الضعف البشري الذي لا حيلة فيه للبشر "[1].



(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٠٩ بتصرف يسير .

المبحث الثالث

منهجه في الصحابة - رضوان الله عليهم -



من القضايا المتعلقة بنبوة نبينا ﷺ قضية الحديث عن الصحابة - رضوان الله عليهم- كونهم الجيل الذي اختاره الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ وحمل هذا الدين .

والصحابي هو: من لقي النبي - ﷺ - مؤمنا به ومات على الإسلام (١) . ومن عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة موالاة جميع الصحابة - رضي الله عنهم - والاعتراف بفضلهم وسابقتهم إلى الإسلام، والاحتجاج بإجماعهم والاقتداء بهم، وتحريم كراهتهم أو سبهم، لما لهم من شرف الصحبة والجهاد والصبر والبلاء والتضحية وتزكية الله لهم في كتابه الكريم ، وعلى لسان نبيه ﷺ وأصبح كل ذلك جزءًا من عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة .

وفي هذا المبحث بيان لمنهج سيد قطب- رحمه الله - وموقفه من الصحابة - رضوان الله عليهم - وهو أمرٌ كثر حوله الجدل في الآونة الأخيرة، حيث ينسب إلى سيد قطب- رحمه الله- الطعن في أصحاب رسول الله ﷺ بناء على كلام له في بعض كتبه حول بعض الصحابة (٢) .

وحتى يتبين لنا موقفه - رحمه الله - من الصحابة كان لابد من النظر في جميع كتبه السابق منها على التزامه بالإسلام واللاحق منها، ومعرفة طبيعة المرحلة التي ألف فيها كل كتاب وطبيعة ما فيه من صواب أو من خطاء ، للخروج بنظرة تكاملية قائمة على الاستقراء والموضوعية بعيدًا عن الاجتزاء والخلط بين المراحل التي كتب فيها الكلام، وبعيدًا أيضًا عن التعسف في التبرير .

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة : لابن حجر ١/ ٧ .

(٢) ينظر : مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله، وأضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب ص ٢٧ وما بعدها ، والحد الفاصل ص ١٢٩ و ما بعدها، وجميعها للدكتور / ربيع المدخلي .

وذلك من خلال المطالب الآتية :

المطلب الأول : مكانة الصحابة - رضوان الله عليهم -.

المطلب الثاني : طبقات الصحابة - رضوان الله عليهم - ومراتبهم .

المطلب الثالث : مميزات وخصائص جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - .

المطلب الرابع : وقفات مع دعوى " مطاعن سيد قطب في الصحابة - رضوان الله عليهم -.



المطلب الأول

مكانة الصحابة في هذا الدين والواجب نحوهم



جاءت آيات عديدة في القرآن الكريم في مدح الصحابة - رضوان الله عليهم - وبيان شرفهم وفضلهم وما يجب لهم، وكذلك جاءت أحاديث كثيرة في بيان مكانتهم وعلو منزلتهم وما ينبغي نحوهم .

ونذكر كلام سيد - رحمه الله- في ظلال هذه الآيات وما ذكره من أحاديث عن النبي - ﷺ - في هذا الشأن :

١- في ظلال قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [(١)] . يقول سيد: "وهم أصحاب رسول الله - ﷺ - المثل الكامل للنفس البشرية على الإطلاق " [(٢)].

" فالجماعة التي صاحبت رسول الله - ﷺ - تمثل أكرم رجال هذه الأمة على الله " [(٣)] .

٢- في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[(٤)]، يقول سيد : " وهذه الطبقة من المسلمين - بمجموعاتها الثلاث " السابقون الأولون من المهاجرين ، والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان " كانت تؤلف القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم في الجزيرة بعد الفتح وكانت هي التي تمسك هذا المجتمع كله في كل شدة ، وفي كل رخاء كذلك، فابتلاء الرخاء كثيرًا ما يكون أصعب وأخطر من ابتلاء الشدة ! .

والسابقون من المهاجرين نميل إلى اعتبار أنهم هم الذين هاجروا قبل بدر،

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٥٢٩ .
(٣) المصدر السابق ١/ ٥٣٣ .
(٤) سورة التوبة : الآية ١٠٠ .

وكذلك السابقون من الأنصار، أما الذين اتبعوهم بإحسان ، - الذين يعنيهم هذا النص وهو يتحدث عما كان واقعًا إبان غزوة تبوك فهم الذين اتبعوا طريقهم وآمنوا إيمانهم وأبلوا بلاءهم بعد ذلك ، وارتفعوا إلى مستواهم الإيماني وإن بقيت للسابقين سابقتهم بسبقهم في فترة الشدة قبل بدر، وهي أشد الفترات طبعًا .

وقد وردت أقوال متعددة في اعتبار من هم السابقون من المهاجرين والأنصار :

* فقيل : هم الذين هاجروا ونصروا قبل بدر .

* وقيل : هم الذين صلوا للقبلتين .

* وقيل : هم أهل بدر .

* وقيل : هم الذين هاجروا ونصروا قبل الحديبية .

*وقيل : هم أهل بيعة الرضوان .

ونحن نرى من تتبعنا لمراحل بناء المجتمع المسلم وتكون طبقاته الإيمانية ، أن الاعتبار الذي اعتبرناه أرجح ،والله أعلم "[١].

٣- في ظلال قوله تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ يقول سيد - رحمه الله- : " ورضى الله عنهم هو الرضى التي تتبعه المثوبة ، وهو في ذاته أعلى وأكرم مثوبة، ورضاهم عن الله هو الاطمئنان إليه سبحانه ، والثقة بقدره ، وحسن الظن بقضائه ، والشكر على نعمائه ، والصبر على ابتلائه، ولكن التعبير بالرضى هنا وهناك يشيع جو الرضى الشامل الغامر ، المتبادل الوافر ، الوارد الصادر ، بين الله سبحانه وهذه الصفوة المختارة من عباده، ويرفع من شأن هذه الصفوة - من البشر - حتى ليبادلون ربهم الرضى، وهو ربهم الأعلى ، وهم عبيده المخلوقون، وهو حالٌ وشأنٌ وجوٌ لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبر عنه، ولكن يُتنسم ويُستشرف و يستجلى من خلال النص القرآني بالروح المتطلع والقلب المتفتح والحس الموصول ! .

ذلك حالهم الدائم مع ربهم :﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ . وهناك تنتظرهم

(١) في ظلال القرآن : ٣/ ١٧٠٢-١٧٠٣ .

علامة هذا الرضى ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ " وأي فوز بعد هذا وذلك عظيم ؟؟؟ " [١].

٤- في ظلال قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [٢].

يقول سيد - رحمه الله- : " هذا الدرس كله حديث عن المؤمنين وحديث مع المؤمنين، مع تلك المجموعة الفريدة السعيدة التي بايعت رسول الله - ﷺ - تحت الشجرة والله حاضر البيعة وشاهدها وموثقها ، ويده فوق أيديهم فيها، تلك المجموعة التي سمعت الله تعالى يقول عنها لرسوله - ﷺ - ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ وسمعت رسول الله - ﷺ- يقول لها : " أنتم اليوم خير أهل الأرض " [٣].

"حديث عنها من الله - سبحانه وتعالى - إلى رسوله - ﷺ - وحديث معها من الله سبحانه وتعالى يبشرها بها أعد لها من مغانم كثيرة وفتوح، وما أحاطها به من رعاية وحماية في هذه الرحلة ، وفيها سيتلوها، وفيها قدر لها من نصر موصول بسنته التي لا ينالها التبديل أبدًا، ويندد بأعدائها الذين كفروا تنديدًا شديدًا، ويكشف لها عن حكمته في اختيار الصلح ... وإنني لأحاول اليوم من وراء ألف وأربعمائة عام أن أستشرف تلك اللحظة القدسية التي شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوي الكريم من الله العلي العظيم إلى رسوله الأمين عن جماعة المؤمنين، أحاول أن أستشرف صفحة الوجود في تلك اللحظة وضميره المكنون، وهو يتجاوب جميعه بالقول الإلهي الكريم ، عن أولئك الرجال القائمين إذ ذاك في بقعة معينة من هذا الوجود، وأحاول أن أستشعر بالذات شيئًا من حال أولئك السعداء الذين

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٧٠٥-١٧٠٦ .

(٢) سورة الفتح : الآية ١٨ .

(٣) رواه البخاري : في كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية ٤/ ١٥٢٦ برقم ٣٩٢٣- ومسلم في الإمارة ٣/ ١١٧٩ برقم ١٨٥٦ .

يسمعون بآذانهم ، أنهم هم ، بأشخاصهم وأعيانهم ، يقول الله عنهم : لقد رضي عنهم، ويحدد المكان الذي كانوا فيه ، والهيئة التي كانوا عليها حين استحقوا هذا الرضى : ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ يسمعون هذا من نبيهم الصادق المصدوق، على لسان ربه العظيم الجليل ..

يا لله ! كيف تلقوا - أولئك السعداء - تلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الإلهي؟ التبليغ الذي يشير إلى كل أحد ، في ذات نفسه ، ويقول له : أنت أنت بذاتك، يبلغك الله، لقد رضي عنك، وأنت تبايع تحت الشجرة ! وعلم ما في نفسك، فأنزل السكينة عليك !

إن الواحد منا ليقرأ أو يسمع ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيسعد، يقول في نفسه: ألست أطمع أن أكون داخلًا في هذا العموم؟ ويقرأ أو يسمع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فيطمئن، يقول في نفسه : ألست أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين؟ وأولئك الرجال يسمعون ويبلغون، واحدًا واحدًا، أن الله يقصده بعينه وبذاته، ويبلغه : لقد رضي عنه ! وعلم ما في نفسه ، ورضي عما في نفسه ! يا لله ! إنه أمر مهول !...

علم ما في قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم، وعلم ما في قلوبهم من الصدق في بيعتهم، وعلم ما في قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز، وضبط لمشاعرهم ليقفوا خلف كلمة رسول الله - ﷺ - طائعين مسلمين صابرين ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ بهذا التعبير الذي يرسم السكينة نازلة في هينة وهدوء ووقار، تضفي على تلك القلوب الحارة المتحمسة المتأهبة المنفعلة ، بردًا وسلامًا وطمأنينة وارتياحًا "[١].

ويمضي السياق في وصفهم بقوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾[٢] والسكينة الوقورة الهادئة ، كالتقوى المتحرجة المتواضعة، كلتاهما تليق بالقلب المؤمن الموصول بربه ، الساكن بهذه الصلة، المطمئن بما فيه من ثقة، المراقب لربه في كل خالجة وكل حركة، فلا يبطر ولا يطغى، ولا يغضب لذاته ، إنما يغضب لربه ودينه، فإذا أمر أن يسكن

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٢٥-٣٣٢٦ بتصرف يسير .
(٢) سورة الفتح: الآية ٢٦ .

ويهدأ ، خشع وأطاع في رضى وطمأنينة .

ومن ثم كان المؤمنون أحق بكلمة التقوى، وكانوا أهلها، وهذا ثناء آخر من ربهم عليهم إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل على قلوبهم من سكينة ، وما أودع فيها من تقوى، فهم قد استحقوها في ميزان الله ، وبشهادته، وهو تكريم بعد تكريم، صادر عن علم وتقدير"[1].

٥- في ظلال قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾[2]، يقول سيد – رحمه الله- : " وتختتم السورة بتلك الصورة الوضيئة التي يرسمها القرآن لواقع صحابة رسول الله – ﷺ – وبذلك الثناء الكريم على تلك الجماعة الفريدة السعيدة التي رضي الله عنها ، وبلغها رضاه فردًا فردًا ...

إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع، صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة ،حالاتها الظاهرة والمضمرة، فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ولقطة تصور هيئتهم في عبادتهم : ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها ويجيش بها : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله في سمتهم وسحنتهم وسماتهم:﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ وهذه صفتهم فيها، ولقطات متتابعة تصورهم كما هم في الإنجيل ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ .

وتبدأ الآية بإثبات صفة محمد – ﷺ – صفته التي أنكرها المشركين ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٢٩ .

(٢) سورة الفتح: الآية ٢٩ .

﴿ٱللَّهِ﴾ ثم ترتسم تلك الصورة الوضيئة بذلك الأسلوب البديع .

والمؤمنون لهم حالات شتى، ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة في حياتهم، ونقط الارتكاز الأصيلة في هذه الحياة، وإرادة التكريم واضحة في اختيار هذه اللقطات، وتثبيت الملامح والسمات التي تصورها، التكريم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة.

إرادة التكريم واضحة ، وهو يسجل لهم في اللقطة الأولى أنهم : ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم ، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعًا رحماء بينهم وهم فقط إخوة دين، فهي الشدة لله والرحمة لله، وهي الحمية للعقيدة ،والسماحة للعقيدة، فليس لهم في أنفسهم شيء ، ولا لأنفسهم فيهم شيء، وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم ، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها، يشتدون على أعدائهم فيها ، ويلينون لإخوتهم فيها، قد تجردوا من الأنانية ومن الهوى ، ومن الانفعال لغير الله ، والوشيجة التي تربطهم بالله .

وإرادة التكريم واضحة وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم ، هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة، ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ والتعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حيثما رآهم، ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة ، وهي الحالة الأصيلة لهم في حقيقة نفوسهم، فعبر عنها تعبيرًا يثبتها كذلك في زمانهم ، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعًا سجدًا .

واللقطة الثالثة مثلها، ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ فهذه صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة، كل ما يشغل بالهم، وكل ما تتطلع إليه أشواقهم، هو فضل الله ورضوانه. ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به .

واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر في ملامحهم ، ونضحها على سماتهم : ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ سيماهم في وجوههم من

الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف، وليست هذه السيما هي النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة، واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها ، فهو أثر هذا الخشوع، أثره في ملامح الوجه ، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة، ويحل مكانها التواضع النبيل ، والشفافية الصافية، والوضاءة الهادئة والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحه ونبلاً .

وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة، إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر ، ومن ثم فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ﴾ وصفتهم التي عرفهم الله بها في كتاب موسى ، وبشر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها .

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ ﴾ وصفتهم في بشارته بمحمد ومن معه ، أنهم ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ فهو زرع نام قوي ، يخرج فرخه ، من قوته وخصوبته، ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشّده ، ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أو أن العود آزر فرخه فشده ﴿ فَاسْتَغْلَظَ ﴾ الزرع وضخمت ساقه وامتلأت ﴿ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ﴾ لا معوجًا ومحنيًا، ولكن مستقيماً قويًا سويًا .

هذه صورته في ذاته، فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة في الزرع العارفين بالنامي منه والذابل، المستثمر منه والبائر، فهو وقع البهجة والإعجاب : ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾ وفي قراءة يعجب " الزارع" وهو رسول الله ﷺ صاحب هذا الزرع النامي القوي المخصب البهيج، وأما وقعه في نفوس الكفار فيوحي بأن هذه الزرعة هي زرعه الله، أو زرعه رسوله ﷺ وأنهم ستار للقدرة وأداة لإغاظة أعداء الله ! .

وهذا المثل كذلك ليس مستحدثا، فهو ثابت في صفحة القدر، ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجيء محمد ﷺ ومن معه إلى هذه الأرض، ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ﷺ ومن معه حين يجيئون .

وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة، صحابة رسول الله ﷺ فتثبت في صلب الوجود كله، وتتجاوب بها أرجاؤه، وهو يتسمع إليها من بارئ الوجود، وتبقى نموذجًا للأجيال، تحاول أن تحققها، لتحقق معنى الإيمان في أعلى الدرجات .

وفوق هذا التكريم كله، وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ وهو وعد يجيء في هذه الصيغة العامة، بعد ما تقدم من صفتهم التي تجعلهم أول الداخلين في هذه الصيغة العامة .

مغفرةٌ وأجرٌ عظيمٌ..وذلك التكريم وحده حسبهم، وذلك الرضى وحده أجرٌ عظيم ولكنه الفيض الإلهي بلا حدود ولا قيود، والعطاء الإلهي عطاء غير مجذوذ .

*ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرنًا أن استشرف وجود هؤلاء الرجال السعداء وقلوبهم، وهم يتلقون هذا الفيض الإلهي من الرضى والتكريم والوعد العظيم، وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله، وفي ميزان الله، وفي كتاب الله، وأنظر إليهم وهم عائدون من الحديبية، وقد نزلت هذه السورة، وقد قرئت عليهم، وهم يعيشون فيها بأرواحهم وقلوبهم ومشاعرهم وسماتهم، وينظر بعضهم إلى وجوه بعض فيرى أثر النعمة التي يحسها هو في كيانه .

وأحاول أن أعيش معهم لحظات في هذا المهرجان العلوي الذي عاشوا فيه، ولكن أنى لبشر لم يحضر هذا المهرجان أن يتذوقه إلا من بعيد ؟! اللهم إلا من يكرمه الله إكرامهم، فيقرب له البعيد ؟! فاللهم إنك تعلم أنني أتطلع لهذا الزاد الفريد ؟!! " [١].

٦- قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٣١-٣٣٣٣ .

ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(١).

يقول سيد - رحمه الله - : " في الآية الأولى صورة صادقة تبرز فيها أهم الملامح المميزة للمهاجرين أخرجوا إخراجًا من ديارهم وأموالهم، أكرههم قومهم على الخروج ، لا لذنب إلا أن يقولوا ربنا الله .

وقد خرجوا تاركين ديارهم وأموالهم ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ اعتمادهم على الله في فضله ورضوانه، لا ملجأ لهم سواه ، ولا جناب لهم إلا حماه، وهم مع أنهم مطاردون قليلون ﴿ وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ بقلوبهم وسيوفهم في أحرج الساعات وأضيق الأوقات ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ الذين قالوا كلمة الإيمان بألسنتهم ، وصدقوها بعملهم، وكانوا صادقين مع الله في أنهم اختاروه، وصادقين مع رسوله في أنهم اتبعوه، وصادقين مع الحق في أنهم كانوا صورة منه تدب على الأرض ويراها الناس!..

وفي الآية الثانية كذلك صورة وضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار، هذه المجموعة التي تفردت بصفات ، وبلغت إلى آفاق ، لولا أنها وقعت بالفعل ، لحسبها الناس أحلامًا طائرة ورؤى مجنحة ومُثُلًا عُليا قد صاغها خيال محلق .

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ ﴾ أي دار الهجرة، يثرب مدينة الرسول ﷺ وقد تبوأها الأنصار قبل المهاجرين، كما تبوءوا فيها الإيمان وكأنه منزل لهم ودار، وهو تعبير ذو ظلال، وهو أقرب ما يصور موقف الأنصار من الإيمان، لقد كان دارهم ونزلهم ووطنهم الذي تعيش فيه قلوبهم ، وتسكن إليه أرواحهم ، ويثوبون إليه ويطمئنون له ، كما يثوب المرء ويطمئن إلى الدار ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثًا جماعيًا كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين، بهذا الحب الكريم، وبهذا البذل السخي، وبهذه المشاركة الرضية، وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء، حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة، لأن عدد الراغبين في الإيواء المتزاحمين

(١) سورة الحشر: الآية ٨-٩ .

عليه أكثر من عدد المهاجرين! ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ مما يناله المهاجرون من مقام مفضل في بعض المواضع ، ومن مال يختصون به كهذا الفيء ، فلا يجدون في أنفسهم شيئًا من هذا، ولا يقول : حسدًا ولا ضيقًا ، إنما يقول : " شيئًا " مما يلقي ظلال النظافة الكاملة لصدورهم والبراءة المطلقة لقلوبهم، فلا تجد شيئًا أصلًا . ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ والإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا، وقد بلغ إليها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيرًا، وكانوا كذلك في كل مرة وفي كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر " [(١)].

ويكفي جيل الصحابة شرفًا قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فالله سبحانه وتعالى يطمئن رسوله ﷺ والعصبة المسلمة من ورائه، إلى ولاية الله سبحانه له ولها، وهو حسبه وحسبها " [(٢)] .

هذه ملامح صورة جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - ومكانتهم في القرآن الكريم، أما مكانتهم عند رسول الله ﷺ فتمثل في إكرامه ﷺ لأصحابه، وإعزازه لهم، والتنبيه في كل مناسبة إلى فضلهم ووجوب رعاية حقهم وخاصة السابقين الأولين ، ومن الأمثلة لذلك :

١- ما جاء في الصحيح " أن أبا سفيان - رضي الله عنه - أتى على سلمان وصهيب وبلال- رضي الله عنهم - ونفر، فقالوا : والله ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها! فقال أبو بكر- رضي الله عنه - : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي ﷺ فأخبره . فقال : يا أبا بكر ، لعلك أغضبتهم ، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك، فأتاهم أبو بكر فقال : يا إخوتاه ، أغضبتكم ؟ قالوا : لا، يغفر الله لك يا أخي " [(٣)].

يقول سيد - رحمه الله- : " وما يملك أي تعليق أن يبلغ هذا المدى، وما نملك إلا أن نتملاه ! " [(٤)].

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٢٦ وينظر أيضًا ٦/ ٣٤٨٣-٣٤٨٤ .
(٢) المصدر السابق ٣/ ١٥٤٩ .
(٣) رواه مسلم : في الفضائل باب فضائل سلمان وصهيب وبلال ٤/ ١٥٤٦ برقم ٢٥٠٤ .
(٤) في ظلال القرآن ٢/ ١١٠٢- ١١٠٤ بتصرف يسير .

٢- نهي النبي ﷺ أن ينقل إليه أحد ما يغير قلبه على أحدٍ من أصحابه فكان يقول: " لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئًا ؛ فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر "[١]،[٢] .

٣- الإشادة بهم والنهي عن سبهم أو انتقاصهم، ومن ذلك ما سبق من اختلاف خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنهما - وقول خالد: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ! فلما بلغ ذلك النبي ﷺ فقال: " دعوا لي أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد - أو مثل الجبال - ذهبًا ما بلغتم أعمالهم "[٣].

وقوله ﷺ : "لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه "[٤]،[٥] .

فهذه الإشارات وغيرها كثير تدل على مكانة الصحابة - رضوان الله عليهم - في نفس رسول الله- ﷺ- وإعزازه لهم - رضي الله عنهم - أجمعين .

أما الواجب نحو الصحابة - رضوان الله عليهم - :

فيتحدث عنه سيد - رحمه الله- في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾[٦]، بقوله : " وهذه الصورة النظيفة الرضية الواعية، وهي تبرز أهم ملامح التابعين ، كما تبرز أخص خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق في جميع الأوطان والأزمان .

---

(١) رواه :والترمذي المناقب فضل أزواج - ﷺ - ٥/ ٦٦٧ برقم ٣٨٩٦ ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ص ٤٤٦.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٦٢ .

(٣) رواه أحمد ٣/ ٢٦٥ ، وإسناده صحيح ، رجاله رجال الشيخين غير أحمد الحراني ، روى له أصحاب السنن ، انظر مسند أحمد ٢١/ ٣١٩ برقم ١٣٨١٢ تحقيق الأرناؤوط .

(٤) رواه البخاري في فضائل الصحابة ٣/ ١٣٤٣ برقم ٣٤٧٠ ، ومسلم في فضائل الصحابة باب تحريم سب الصحابة ٤/ ١٥٦٢ برقم ٢٥٤٠ وأحمد ٣/ ١١ .

(٥) ينظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٨٤

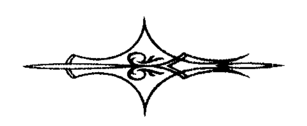
(٦) سورة الحشر : الآية ١٠ .

هؤلاء الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار، سمة نفوسهم أنها تتوجه إلى ربها في طلب المغفرة لا لذاتها ولكن كذلك لسلفها الذين سبقوا بالإيمان، وفي طلب براءة القلب من الغل للذين آمنوا على وجه الإطلاق ، ممن يربطهم معهم رباط الإيمان، مع الشعور برأفة الله ورحمته ، ودعائه بهذه الرحمة ، وتلك الرأفة : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وتتجلى من وراء تلك النصوص طبيعة هذه الأمة المسلمة وصورتها الوضيئة في هذا الوجود، في الآصرة القوية الوثيقة التي تربط أول هذه الأمة بآخرها ، وآخرها بأولها ، في تضامن وتكافل وتواد وتعاطف ، وشعور بوشيجة القربى العميقة التي تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب، وتتفرد وحدها في القلوب ، تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة ، فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة ، كما يذكر أخاه الحي أو أشد ، في إعزاز وكرامة وحب، ويحسب السلف حساب الخلف، ويمضي الخلف على آثار السلف، صفًا واحدًا وكتيبة واحدة على مدار الزمان واختلاف الأوطان ، تحت راية الله .

إنها صورة باهرة، تمثل حقيقة قائمة، كما تمثل أرفع وأكرم مثال للبشرية يتصوره قلب كريم.. ويبدو ذلك عندما تقارن بغيرها ...

هذه هي قافلة الإيمان، وهذا هو دعاء الإيمان، و إنها لقافلة كريمة، وإنه لدعاء كريم "[١].



(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٢٧ بتصرف يسير .

المطلب الثاني

طبقات الصحابة ومراتبهم



مع فضل وشرف جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - إجمالًا، إلا أنهم كانوا متفاوتين في المقامات والمراتب، وقد تحدث سيد - رحمه الله- عن مكونات جيل الصحابة وطبقاتهم ومراتبهم ونشأة كل طبقة، وذلك في ظلال الآيات التي تتحدث عنهم:

١- ففي ظلال قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [1]، تحدث سيد - رحمه الله- عن مراحل بناء المجتمع المسلم وتكون طبقاته الإيمانية وبين كيف ولدت الحركة الإسلامية في مكة على محك الشدة ، فعندما أحست قريش و الجاهلية من ورائها بخطر الدعوة الإسلامية أعلنتها حربًا شعواء، وانتفض المجتمع الجاهلي يدافع عن وجوده، وعندئذ تعرض كل فرد في التجمع الإسلامي الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها ، إلى حد إهدار الدم، وبالتالي فلم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، والانضمام إلى التجمع الإسلامي الوليد ، إلا كل من نذر نفسه لله وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة، والموت في أبشع الصور أحيانا .

وبذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عودًا في المجتمع العربي، فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام ، وقطع الطريق الشائك الخطر إلا العناصر المختارة الفريدة التكوين .

وهكذا اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة ، ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين في مكة، ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك في المدينة مع السابقين من الأنصار، الذين وإن كانوا لم يصطلوها في أول الأمر كما اصطلاها المهاجرون ، إلا أن بيعتهم لرسول الله ﷺ بيعة العقبة - قد دلت على أن عنصرهم ذو طبيعة أصيلة مكافئة لطبيعة هذا الدين .

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٠٠ .

حيث قالوا لرسول الله ﷺ ليلة العقبة : " اشترط لربك ولنفسك ما شئت . فقال: " أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم ". قالوا: فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك؟ قال: " الجنة " قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل " [١].

فقد كانت بيعتهم للرسول ﷺ دون أن يرتقبوا من ورائها شيئًا إلا الجنة، ووثقوا هذا البيع ، فأعلنوا أنهم لا يقبلون أن يرجعوا فيه ولا أن يرجع فيه رسول الله ﷺ، وهم يعلمون أنهم لا يبايعون على أمر هين، بل كانوا مستيقنين أن العرب سترميهم عن قوس واحدة ومع ذلك ... فلا جرم أن يكونوا - مع السابقين من المهاجرين الذين بُنوا هذا البناء وأعدوا هذا الإعداد - هم القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم أول العهد بالمدينة .

وبعد غزوة بدر تغيرت تركيبة مجتمع الصحابة - رضوان الله عليهم - ، فبالإضافة إلى القاعدة الصلبة المكونة لهذا المجتمع وهم المهاجرون والأنصار، فقد دخل في الإسلام أقوام لم يكونوا قد فقهوه بعد وما انطبعوا بطابعة ، ومنهم من دخل نفاقًا ، ومع ذلك فقد استمرت عملية الصهر للعناصر الجديدة التي تدخل في الإسلام باستمرار، مع بقاء الاعتماد على القاعدة الصلبة الخالصة من السابقين من المهاجرين والأنصار وخاصة في وقت الشدائد حتى قبيل فتح مكة حيث كان المجتمع الإسلامي أقرب ما يكون إلى التناسق التام مع قاعدته الصلبة الخالصة ، وأقرب ما يكون إلى النموذج الذي يهدف إليه المنهج التربوي الرباني الفريد .

ومع ذلك كانت هناك أقدار متفاوتة أنشأتها الحركة العقيدية ذاتها، فتميزت مجموعات من المؤمنين بأقدارها على قدر بلائها في الحركة وسبقها وثباتها .

- تميز السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار .
- وتميز أهل بدر .
- وتميز أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية .

---

(١) القصة رواها البيهقي في دلائل النبوة ، دار الكتب العلمية - بيروت - ط٢ عام ١٤٢٣هـ ٢/ ٤٥٤ .

- ثم تميز بصفة عامة الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا.

وجاءت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، والأوضاع العملية في المجتمع المسلم ، تؤكد هذه الأقدار التي أنشأتها الحركة بالعقيدة ، و تنص عليها .

ولكن تميز هذه الطبقات بأقدارها الإيمانية التي أنشأتها الحركة الإسلامية ، لم يكن مانعًا أن تتقارب المستويات الإيمانية وتتناسق في مجتمع المدينة قبل الفتح ، وأن يتوارى الكثير من أعراض الخلخلة في الصف ، والكثير من ظواهر الضعف والشح من ذلك المجتمع المدني .

إلا أن فتح مكة وما أعقبه من استسلام هوازن وثقيف في الطائف - وهما آخر قوتين كبيرتين بعد قريش في الجزيرة - قد عاد فصب في المجتمع المسلم أفواجًا جديدة كثيرة دخلت في الدين مستسلمة على درجات متفاوتة من المستويات الإيمانية وفيهم كارهون للإسلام منافقون، وفيهم المنساقون إلى الإسلام الظاهر القاهر، وفيهم المؤلفة قلوبهم دون انطباع بحقائق الإسلام الجوهرية ولا امتزاج بروحه الحقيقية .

ومن هذه المقتطفات يتضح لنا مركز السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بعد ذلك ﴿ بِإِحْسَانٍ ﴾ يصل بهم إلى مستواهم الإيماني وبلائهم الحركي ، وندرك حقيقة دورهم الباقي في بناء الإسلام وترجمته إلى واقع عملي يبقى مؤثرًا في التاريخ البشري كله ، كما نستشرف حقيقة قول الله سبحانه فيهم: ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾[1].

٢- في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[2].

يقول سيد - رحمه الله- : " ولقد بذلت الحفنة المصطفاة من السابقين، من

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٧٠-١٥٧٦، ١٧٠٣- ١٧٠٥ بتصرف.
(٢) سورة الحديد: الآية ١٠.

المهاجرين والأنصار، ما وسعها من النفس والمال، في ساعة العسرة وفترة الشدة - قبل الفتح - فتح مكة أو فتح الحديبية وكلاهما اعتز به الإسلام أيام أن كان الإسلام غريبًا محاصرًا من كل جانب، مطاردًا من كل عدو، قليل الأنصار والأعوان، وكان هذا البذل خالصًا لا تشوبه شائبة من طمع في عوض من الأرض، ولا من رياءٍ أمام كثرة غالبة من أهل الإسلام، كان بذلًا منبثقًا عن خيرة اختاروها عند الله، وعن حمية لهذه العقيدة التي اعتنقوها وآثروها على كلِ شيء وعلى أرواحهم وأموالهم جميعًا، ولكن ما بذلوه - من ناحية الكم - كان قليلًا بالقياس إلى ما أصبح الذين جاءوا بعد الفتح يملكون أن يبذلوه، فكان بعض هؤلاء يقف ببذله عند القدر الذي يعرف ويسمع أن بعض السابقين بذلوه! هنا نزل القرآن ليزن بميزان الحق بذل هؤلاء وبذل أولئك، وليقرر أن الكم ليس هو الذي يرجح في الميزان، ولكنه الباعث وما يمثله من حقيقة الإيمان...

إن الذي ينفق ويقاتل والعقيدة مطاردة، والأنصار قلة، وليس في الأفق ظل منفعة ولا سلطان ولا رخاء، غير الذي ينفق ويقاتل والعقيدة آمنة، والأنصار كثرةٌ، والنصر والغلبة والفوز قريبة المنال. ذلك متعلق مباشرة بالله، متجرد تجردًا كاملًا لا شبهة فيه، عميق الثقة والطمأنينة بالله وحده، بعيد عن كل سبب ظاهر وكل واقع قريب، لا يجد على الخير عونًا إلا ما يستمده مباشرة من عقيدته، وهذا له على الخير أنصار حتى حين تصح نيته ويتجرد تجرد الأولين.

جاء في المسند عن أنس - رضي الله عنه[(١)] - قال: كان بين خالد بن الوليد[(٢)] وبين عبد الرحمن بن عوف[(٣)] كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا

---

(١) هو: أنس بن مالك بن النضر النجاري، صحب النبي ولازمه وخدمه وغزا معه وبايع تحت الشجرة، له ٢٢٨٦ حديثًا، وهو آخر من مات في البصرة من الصحابة، سنة ٩١هـ، انظر: سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٩٥، والأعلام ٢/ ٢٤ .

(٢) هو: خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي، سيف الله، أسلم قبل الفتح، من قادة الفاتحين، حارب المرتدين، وشارك في فتوحات الشام والعراق قائدًا وجنديًا مطيعًا، مات سنة ٢١هـ، انظر: سير أعلام النبلاء ١/ ٣٦٦، والأعلام ٢/ ٣٠٠ .

(٣) هو: عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف من أجلاء الصحابة، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، كان من الأغنياء الأجواد الشجعان، شهد بدرًا والمشاهد كلها، توفي في المدينة سنة ٣٢هـ، انظر: الإصابة ٦/ ٣١١، والأعلام ٣/ ٣٢١ .

بها ! فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي - ﷺ - فقال دعوا لي أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد- أو مثل الجبال- ذهبًا ما بلغتم أعمالهم " [(١)] .

وفي الصحيح : " لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه " [(٢)].

ومن هذين الحديثين يتحدد معنىً لأصحاب الرسول ﷺ الذين تكرر تحذيره بشأنهم فهم أولئك السابقون ، وقد كان يقول للمسلمين حوله ممن صحبوه " دعوا لي أصحابي " فدل على أنه ﷺ يعني صحبه خاصة كما قال مرة عن الصديق- رضي الله عنه - " دعوا لي صاحبي " .

ومع ذلك فان القرآن الكريم يقرر أن للجميع الحسنى ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ فقد أحسنوا جميعًا على تفاوت ما بينهم في الدرجات " [(٣)].

٣- عند استعراض سيد - رحمه الله- لأحداث غزوة تبوك " العسرة " وما حصل للصحابة فيها يقول : " ولعل هذا الاستعراض أن يصور لنا اليوم كيف كانت "العسرة " ، كما ينقل لنا لمحة من الجو الذي عاشه المجتمع المسلم في تلك الفترة ، يتجلى فيها تفاوت المقامات الإيمانية:

- من اليقين الجاد عند طائفة .

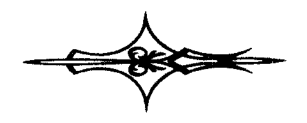
- إلى الزلزلة والأرجحة تحت مطارق العسرة عند طائفة .

- إلى القعود والتخلف - بغير ريبة - عند طائفة.

- إلى النفاق الناعم عند طائفة - إلى النفاق الفاجر عند طائفة - إلى النفاق المتآمر عند طائفة ، مما يشي أولًا بالحالة العامة للتركيب العضوي للمجتمع في هذه الفترة، ويشي ثانيًا بمشقة الغزوة الممحصة الممتحنة الكاشفة ، والتي لعل الله سبحانه قد قدرها من أجل التمحيص والكشف والتمييز" [(٤)].

(١) سبق تخريجه ص ٩٥٠.
(٢) سبق تخريجه ص ٩٥٠.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٨٤ مع الهامش .
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٧٢٧ .

ومن خلال عرض النصوص السابقة يتضح لنا أن سيد - رحمه الله- قسم الصحابة إلى مراتب أفضلها كما يسميها " القاعدة الصلبة " وهي الرعيل الأول السابقين من المهاجرين والأنصار ، ثم الذي اتبعوهم بإحسان ، وتميز منهم أهل بدر ثم أهل بيعة الرضوان ، ثم بعدهم من سار على نهجهم ممن أسلم بعد الفتح وقاتل ، ومع ذلك فالكل قد وعده الله الحسنى لإحسانه .



المطلب الثالث

خصائص ومميزات جيل الصحابة



أولًا : خصائص ومميزات جيل الصحابة ـ رضوان الله عليهم – :

أفرد سيد- رحمه الله- فصلًا في كتاب " معالم في الطريق " بعنوان : " جيل قرآني فريد " قال فيه : " هنالك ظاهرة تاريخية ينبغي أن يقف أمامها أصحاب الدعوة الإسلامية في كل أرض وفي كل زمان ، وأن يقفوا أمامها طويلًا ، ذلك أنها ذات أثر حاسم في منهج الدعوة واتجاهها .

لقد خرَّجت هذه الدعوة جيلًا من الناس – جيل الصحابة رضوان الله عليهم – جيلًا مميزًا في تاريخ الإسلام كله، وفى تاريخ البشرية جميعه ، ثم لم تعد تخرج هذا الطراز مرة أخرى ، نعم وُجد أفراد من ذلك الطراز على مدار التاريخ ، ولكن لم يحدث قط أن تجمَّع مثل ذلك العدد الضخم ، في مكان واحد ، كما وقع في الفترة الأولى من حياة هذه الدعوة "" (١) .

وقد حاول سيد- رحمه الله- أن يبين الأسباب التي جعلت من ذلك الجيل نموذجًا فريدًا في تاريخ البشرية في أكثر من موضع يمكن إجمالها فيما يلي :

١ - أنهم جيل صنع على عين الله ورعاه رسول الله ﷺ :

يقول سيد - رحمه الله-: " إن نعمة وجود الرسول بين القوم ، يدعوهم بلغة السماء ، ويخاطبهم بكلام الله ، ويصل بينهم وبين الله في ذوات نفوسهم وخواص شؤونهم ، نعمة فوق التصور حين نتملاها نحن الآن من بعيد ، فهذه الفترة – فترة الوحي وحياة الرسول ﷺ فترة عجيبة حقًا .

إن الله – جل جلاله – يخاطب هذا البشر من صنع يديه ، على لسان عبده ﷺ في رحمة علوية ندية يقول لهم : خذوا هذا ودعوا ذاك ! ها هو ذا طريقي فاسلكوه ! لقد

---

(١) معالم في الطريق ص ١٤ .

تعثرت خطاكم فهاكم حبلي ! لقد أخطأتم وأثمتم فتوبوا وها هو ذا بابي مفتوح ، تعالوا ولا تشردوا بعيدًا ، ولا تقنطوا من رحمتي التي وسعت كل شيء . . وأنت يا فلان - بذاتك وشخصك - قلت كذا ، وهو خطأ ، ونويت كذا وهو إثم ، وفعلت كذا وهي خطيئة ، فتعال هنا قدامي وتطهر وتب وعد إلى حماي ، وأنت يا فلان - بذاتك وشخصك - أمرك الذي يعضلك هذا حله ، وسؤالك الذي يشغلك هذا جوابه ، وعملك الذي عملت هذا وزنه !

إنه الله ، هو الذي يقول ، يقول لهؤلاء المخاليق ، وهم يعيشون معه ، يحسون أنه معهم ، حقيقة وواقعًا أنه يستمع إلى شكواهم في جنح الليل ويستجيب لها ، وأنه يرعاهم في كل خطوة ويعنى بها .

ألا إنه لأمر فوق ما يطيق الذي لم يعش هذه الفترة أن يتصور، ولكنهم عاشوها فعلًا....

ورد في الصحيح أن "رسول الله - ﷺ - قال يومًا لأصحابه:" أي المؤمنين أعجب إليكم ؟ قالوا الملائكة . قال : " وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ " قالوا : الأنبياء. قال : " وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟ " قالوا فنحن . قال : " وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانًا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفًا يؤمنون بما فيها "[1].

وصدق رسول الله- ﷺ - إنه لأمر متفاوت ، وإن موحيات الإيمان وموجباته لديهم لشيء هائلٌ هائلٌ ، عجيبٌ عجيبٌ "[2].

فجيل الصحابة - رضوان الله عليهم - إذًا جيل صنع على عين الله - سبحانه- " فقد كان القرآن الكريم هو مصدر المعرفة والتربية والتوجيه والتكوين الوحيد لجيل من البشر فريد ، جيل لم يتكرر بعد في تاريخ البشرية - لا من قبل ولا من بعد - جيل الصحابة الكرام الذين أحدثوا في تاريخ البشرية ذلك الحدث الهائل العميق

(١) رواه : البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٥٣٨ ، وهو مرسل .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٨٣ ، ٤/ ٢٤٩٤ ، وينظر أيضًا : هذا الدين لسيد قطب ص ٤٢-٤٣ .

الممتد ، الذي لم يدرس حق دراسته إلى الآن " [١] .

كان النبع الأول الذي استقى منه ذلك الجيل هو نبع القرآن، القرآن وحده، فما كان حديث رسول الله ﷺ وهديه إلا أثرًا من آثار ذلك النبع، فعندما سُئلت عائشة - رضي الله عنها - عن خُلق رسول الله ﷺ قالت : " كان خُلقه القرآن " [٢].

لقد كان هذا النبع هو المصدر الوحيد لهذا الجيل ، لاعن فقر في الثقافات والحضارات ، ولكن عن قصدٍ وتصميم مرسوم ، يدل عليه غضبٌ رسول الله ﷺ عندما رأى صحيفة من التوراةٌ في يد عمرً - رضي الله عنه - حيث كان يريد ﷺ صنع جيل خالص القلب والعقل والتصور والشعور والتكوين من أي مؤثر آخر غير المنهج الإلهي ، الذي يتضمنه القرآن الكريم ، وهو الأمر الذي كان له الأثر في صنع ذلك الجيل الفريد في تأريخ البشرية " [٣].

٢- صدق إيمانهم وبذلهم لله :

أشار سيد - رحمه الله- إلى ما تميز به الصحابة - رضوان الله عليهم - من صدق في الإيمان ، وبذلٍ لأنفسهم وأموالهم طلبًا لمرضاته ومثوبته ، وخاصة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان ، كونهم صفوة لا تعرف النفاق [٤]. ويضرب سيد - رحمه الله- أمثلة لصدق إيمانهم وبذلهم في سبيل الله لكل ما يملكون ، ومن هذه الأمثلة :

أ- موقف السابقين الأولين من المؤمنين في مكة، حيث ثبتوا على دينهم في وجه البلاء والفتنة واستعلوا بإيمانهم في وجه الجاهلية، وتركوا ديارهم وأموالهم وهاجروا بدينهم رغبة في ما عند الله، مما يدل على صدق إيمانهم [٥].

ب- موقف الأنصار في بيعة العقبة الثانية ، وما ظهر فيها من صدق في الإيمان

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٢٣ .

(٢) رواه : أحمد ٦/ ١٦٣ ، والحاكم ٢/ ٤٩٩، وإسناده صحيح على شرط الشيخين ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٤٨١١ ، والأرناؤوط في المسند ٤٢/ ١٨٣ ..

(٣) ينظر : معالم في الطريق ص ١٥- ١٧ بتصرف ، وفي ظلال القرآن ٣/ ١٤١٠ .

(٤) في ظلال القرآن ٢/ ٧١١ .

(٥) ينظر : في ظلال القرآن ٣/ ١٥٧١، ١٧٠٣ .

واستعدادٍ للبذل والتضحية حيث كانت بيعتهم دون أن يرتقبوا من ورائها شيئا إلا الجنة ، ووثقوا ذلك بقولهم: " لا نقيل ولا نستقيل "[١].

ج- موقف الصحابة - رضوان الله عليهم - في بيعة الرضوان حيث علم الله - سبحانه - ما في قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم ، وعلم ما في قلوبهم من الصدق في بيعتهم، والطاعة لربهم فأنزل سكينته على قلوبهم وأثابهم فتح قريبًا[٢].

ويكفيهم تزكية الله لهم في صدق إيمانهم بقوله: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾[٣]، وهي صورة وضيئة للإيمان الواثق المطمئن، وصورة المؤمنين المشرقة الوضيئة، في مواجهة الأهوال والأخطار[٤].

حيث صدقوا ربهم في بيع أنفسهم وأموالهم له كما صور القرآن حالهم يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾[٥]، حيث كان بذلهم لأنفسهم وأموالهم خالصًا لا تشوبه شائبة من طمع في عوض من الأرض ، ولا من رياء[٦].

- ويقارن سيد - رحمه الله- بين الصحابة - رضوان الله عليهم - وبين أصحاب عيسى - عليه السلام - " الحواريين " عند تعليقه على طلب الحواريين من عيسى - عليه السلام - مائدة من السماء فيقول : " والقصة تكشف لنا عن طبيعة قوم عيسى -عليه السلام- المستخلصين منهم وهم الحواريون فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا ﷺ فرق بعيد .

إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى -عليه السلام- فآمنوا، وأشهدوا عيسى على إسلامهم ، ومع هذا فهم بعدما رأوا من معجزات عيسى- عليه السلام - ما رأوا ، يطلبون خارقة جديدة ، تطمئن بها نفوسهم ، ويعلمون منها أنه

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٥٧١، ١٧٠٤ .
(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٣٢٦ بتصرف يسير .
(٣) سورة الأحزاب: الآية ٢٣ .
(٤) ينظر : في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٤٣- ٢٨٤٤ بتصرف .
(٥) سورة التوبة: الآية ١١١ .
(٦) في ظلال القرآن ٣/ ١٧١٦، ٦/ ٣٤٨٤ بتصرف .

صدقهم ، ويشهدون بها له لمن وراءهم .

فأما أصحاب محمد ﷺ فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم، لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان ، ولقد صدقوا رسولهم فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهان ، ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن ،هذا هو الفارق الكبير بين حواريي عيسى عليه السلام - وحواريي محمد ﷺ ذلك مستوى ، وهذا مستوى ، وهؤلاء مسلمون وأولئك مسلمون ، وهؤلاء مقبولون عند الله وهؤلاء مقبولون ، ولكن تبقى المستويات متباعدة كما أرادها الله " [1].

٣- جديتهم في التعامل مع القرآن الكريم وتعاليمه :

وهذه الصفة ثمرة لصدقهم في إيمانهم " فالذين يؤمنون هم الذين ينتفعون بما جاء به الرسول ﷺ و يفقهون حقيقة ، و يدركون ما وراءه ،...إن الكلمة لا تعطي مدلولها الحقيقي إلا للقلب المفتوح لها ، والعقل الذي يستشرفها ويتقبلها ، وإن هذا القرآن الكريم لا يفتح كنوزه ، ولا يكشف أسراره ، ولا يعطي ثماره ، إلا لقوم يؤمنون ، ولقد ورد عن بعض صحابة رسول الله ﷺ : " كنا نؤتى الإيمان قبل أن نؤتى القرآن .

وهذا الإيمان هو الذي كان يجعلهم يتذوقون القرآن ذلك التذوق ، ويدركون معانيه وأهدافه ذلك الإدراك ويصنعون به تلك الخوارق التي صنعوها في أقصر وقت من الزمان .

لقد كان ذلك الجيل المتفرد يجد من حلاوة القرآن ، ومن نوره ، ومن فرقانه ، ما لا يجده إلا الذين يؤمنون إيمان ذلك الجيل ، ولئن كان القرآن هو الذي أخذ بأرواحهم إلى الإيمان ، لقد كان الإيمان هو الذي فتح لهم في القرآن ما لا يفتحه إلا الإيمان !.

لقد عاشوا بهذا القرآن ، وعاشوا له كذلك ، ومن ثم كانوا ذلك الجيل المتفرد الذي لم يتكرر - بهذه الكثرة وبهذا التوافي على ذلك المستوى - في التاريخ كله ،

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٩٨ .

اللهم إلا في صورة أفراد على مدار التاريخ يسيرون على أقدام ذلك الجيل السامق العجيب ! "[١].

ويرجع سيد – رحمه الله– أسباب ذلك إلى ما يأتي :

أ- أن القرآن الكريم كان هو النبع الوحيد الذي استقى منه جيل الصحابة -رضوان الله عليهم – كما سبق – فقد خلصوا لهذا القرآن فترة طويلة من الزمان، فلم تشب نبعه الرائق شائبة من قول البشر ، اللهم إلا قول رسول الله – ﷺ – وهديه، وقد كان من نبع القرآن ذاته كذلك ، ومن ثم كان ذلك الجيل المتفرد ما كان ، وما أجدر الذين يحاولون أداء ما أداه ذلك الجيل أن ينهجوا نهجه ، فيعيشوا بهذا القرآن ولهذا القرآن فترة طويلة من الزمان ، لا يخالط عقولهم وقلوبهم غيره من كلام البشر ليكونوا كما كان "[٢].

ب- أن منهج التلقي عند الصحابة – رضوان الله عليهم – قائم على التلقي للتنفيذ والعمل ، " فلم يكونوا يقرءون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع ، ولا بقصد التذوق والمتاع ، لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة ، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولًا يملأ به جعبته ، إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها ، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته ، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه ، كما يتلقى الجندي في الميدان " الأمر اليومي " ليعمل به فور تلقيه ! ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة ، لأنه كان يحس أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه ، فكان يكتفي بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، هذا الشعور.. شعور التلقي للتنفيذ كان يفتح لهم من القرآن آفاقًا من المتاع وآفاقًا من المعرفة ، لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع ، وكان ييسر لهم العمل ويخفف عنهم التكاليف ، ويخلط القرآن بذواتهم ، ويحوله في نفوسهم وفي حياتهم إلى منهج واقعي ، وإلى ثقافة متحركة لا تبقى داخل الأذهان ولا في بطون

(١) المصدر السابق ٣/ ١٤١٠ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٣/ ١٤١٠-١٤١١ ، وينظر معالم في الطريق ص ١٥-١٧ .

الصحائف ، إنها تتحول آثارًا وأحداثًا تحوِّل خط سير الحياة ...

إن منهج التلقي للتنفيذ والعمل هو الذي صنع الجيل الأول ، ومنهج التلقي للدراسة والمتاع هو الذي خرَّج الأجيال التي تليه ، وما من شك أن هذا العامل الثاني كان عاملًا أساسيًا كذلك في اختلاف الأجيال كلها عن ذلك الجيل المميز الفريد .[1]

ج- أن الصحابة - رضوان الله عليهم - كان أحدهم حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية ، كان يشعر في تلك اللحظة أنه يبدأ عهدًا جديدًا منفصلًا عن حياته التي عاشها في الجاهلية ، وكان يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف ، الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام ! .

وبهذا الإحساس كان يتلقى هَدْي الإسلام الجديد ، فإذا غلبته نفسه مرة ، وإذا اجتذبته عاداته مرة ، وإذا ضعف عن تكاليف الإسلام مرة ، شعر في الحال بالإثم والخطيئة ، وأدرك في قرارة نفسه أنه في حاجة إلى التطهر مما وقع فيه ، وعاد يحاول من جديد أن يكون على وفق الهَدْي القرآني .

كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه ، تنشأ عنها عزلة كاملة في صلاته بالمجتمع الجاهلي والروابط الاجتماعية حوله.. حتى ولو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي في عالم التجارة والتعامل اليومي، فالعزلة الشعورية شيء والتعامل اليومي شيء آخر.... وكان هذا مفرق الطريق [2].

٤- كونهم مع ذلك كله بشرًا :

مع كون جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - جيلًا فريدًا مميزًا في تاريخ البشرية كما سبق ، تمثلت فيهم نماذج الإنسانية العليا التي ظلت فريدة في سموقها والتي حققت المنهج الإلهي في حياتها على ذلك النحو العجيب ، قد ظلت مع هذا بشرًا لم

(١) معالم في الطريق ص ١٧-١٩ بتصرف يسير ، وينظر أيضًا : في ظلال القرآن ٣/ ١١٤٣ .
(٢) معالم في الطريق ص ١٩-٢٠ بتصرف يسير .

يخرجوا عن طبيعتهم ولا عن فترتهم ، زاولوا كل ألوان النشاط الإنساني ، وأصابوا من الطيبات كل ما كان متاحًا لهم في بيئتهم وزمانهم ، وأخطأوا وأصابوا وعثروا ونهضوا وأصابهم الضعف البشري أحيانًا ، كما يصيب سائر البشر ، وغالبوا هذا الضعف ، وانتصروا عليه أحيانا أخرى [١].

* يقول سيد - رحمه الله- في تعليقه على قصة الخندق وأحوال الصحابة -رضوان الله عليهم - فيها : " لقد كانوا ناسًا من البشر، لا يملكون أن يتخلصوا من مشاعر البشر، وضعف البشر، وليس مطلوبًا منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشري ، ولا أن يخرجوا من إطار هذا الجنس ، ويفقدوا خصائصه ومميزاته ، فلهذا خلقهم الله ، خلقهم ليبقوا بشرًا ، ولا يتحولوا جنسًا آخر، لا ملائكة ولا شياطين، ولا بهيمة ولا حجرًا ...

كانوا ناسًا من البشر يفزعون ويضيقون بالشدة ، ويزلزلون للخطر الذي يتجاوز الطاقة ، ولكنهم كانوا- مع هذا- مرتبطين بالعروة الوثقى التي تشدهم إلى الله ، وتمنعهم من السقوط ، وتجدد فيهم الأمل ، وتحرسهم من القنوط ، وكانوا بهذا وذاك نموذجًا فريدًا في تاريخ البشرية لم يعرف له نظير .

وعلينا أن ندرك هذا لندرك ذلك النموذج الفريد في تاريخ العصور، علينا أن ندرك أنهم كانوا بشرًا ، لم يتخلوا عن طبيعة البشر، بما فيها من قوة وضعف، وأن منشأ امتيازهم أنهم بلغوا في بشريتهم هذه أعلى قمة مهيأة لبني الإنسان، في الاحتفاظ بخصائص البشر في الأرض مع الاستمساك بعروة السماء.

وحين نرانا ضعفنا مرة ، أو زلزلنا مرة ، أو فزعنا مرة ، أو ضقنا مرة بالهول والخطر والشدة والضيق ، فعلينا ألا نيأس من أنفسنا ، وألا نهلع ونحسب أننا هلكنا ، أو أننا لم نعد نصلح لشيء عظيم أبدًا ! ولكن علينا في الوقت ذاته ألا نقف إلى جوار ضعفنا لأنه من فطرتنا البشرية! ونصّر عليه لأنه يقع لمن هم خير منا ! هنالك العروة الوثقى ، عروة السماء ، وعلينا أن نستمسك بها لننهض من الكبوة ونسترد الثقة والطمأنينة .

---

(١) هذا الدين لسيد قطب ص ٤٣ .

وهذا هو التوازن الذي صاغ ذلك النموذج الفريد في صدر الإسلام، النموذج الذي يذكر عنه القرآن الكريم مواقفه الماضية وحسن بلائه وجهاده، وثباته على عهده مع الله "[١].

*وفي ظلال حادث تخيير النبي ﷺ لأزواجه في سورة الأحزاب، يقول سيد -رحمه الله-: " ونحن نحب أن نقف لحظات أمام هذا الحادث تتدبره من بعض زواياه ...

إنه يصور لنا من جانب حقيقة حياة رسول الله ﷺ والذين عاشوا معه واتصلوا به، وأجمل ما في هذه الحقيقة أن تلك الحياة كانت حياة إنسان وحياة ناس من البشر، لم يتجردوا من بشريتهم ومشاعرهم وسماتهم الإنسانية، مع كل تلك العظمة الفريدة البالغة التي ارتفعوا إليها، ومع كل هذا الخلوص لله والتجرد مما عداه، فالمشاعر الإنسانية والعواطف البشرية لم تمت في تلك النفوس، ولكنها ارتفعت ، وصفت من الأوشاب، ثم بقيت لها طبيعتها البشرية الحلوة ، ولم تعوق هذه النفوس عن الارتفاع إلى أقصى درجات الكمال المقدر للإنسان .

وكثيرًا ما نخطئ نحن حين نتصور للنبي ﷺ ولصحابته -رضوان الله عليهم - صورة غير حقيقية ، أو غير كاملة ، نجردهم فيها من كل المشاعر والعواطف البشرية ، حاسبين أننا نرفعهم بهذا وننزههم عما نعده نحن نقصًا وضعفًا !.

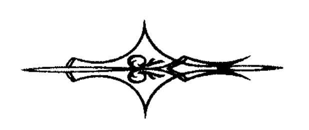
وهذا الخطأ يرسم لهم صورة غير واقعية ، صورة متلفعة بهالات غامضة لا نتبين من خلالها ملامحهم الإنسانية الأصيلة، ومن ثم تنقطع الصلة البشرية بيننا وبينهم، وتبقى شخوصهم في حِسِّنا بين تلك الهالات أقرب إلى الأطياف التي لا تلمس ولا تتماسك في الأيدي ! ونشعر بهم كما لو كانوا خلقا آخر غيرنا، ملائكة أو خلقًا مثلهم مجردًا من مشاعر البشر وعواطفهم على كل حال !.

ومع شفافية هذه الصورة الخيالية فإنها تبعدهم عن محيطنا ، فلا نعود نتأسى بهم أو نتأثر، يأسًا من إمكان التشبه بهم أو الاقتداء العملي في الحياة الواقعية، وتفقد السيرة بذلك أهم عنصر محرك ، وهو استجاشة مشاعرنا للأسوة والتقليد، وتحل

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٤٤ بتصرف يسير ، وينظر أيضًا : ٤/ ٢٤٩٢ .

محلها الروعة والانبهار، اللذان لا ينتجان إلا شعورًا مبهمًا غامضًا سحريًا ليس له أثر عملي في حياتنا الواقعية، ثم نفقد كذلك التجاوب الحي بيننا وبين هذه الشخصيات العظيمة، لأن التجاوب إنما يقع نتيجة لشعورنا بأنهم بشر حقيقيون، عاشوا بعواطف ومشاعر وانفعالات حقيقية من نوع المشاعر والعواطف والانفعالات التي نعانيها نحن، ولكنهم هم ارتقوا بها وصفوها من الشوائب التي تخالج مشاعرنا "[1].

هذه بعض خصائص ومميزات وفضائل جيل الصحابة كما ذكرها سيد - رحمه الله - إجمالًا، وقد أشار في مواضع متفرقة إلى فضائل بعض أصحاب النبي ﷺ ممن ورد ذكرهم في السياق الذي يتحدث عنه [2].



(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٥٥-٢٨٥٦ .

(٢) ينظر: المصدر السابق : ٣/ ١٤١٦، ٣/ ١٧٢٣، ٤/ ٢٥٠٤، ٥/ ٣١٤٣، ٥/ ٣١٤٤، ٦/ ٣٣٠٩، ٣٣١٢، ٣٤١٤، ٣٨٢٧، ٣٨٢٩ . ومعركة الإسلام الرأسمالية : ص ٧٣، وهذا الدين : ص٨٤-٨٥ ومعركتنا مع اليهود : ص ٣٣ .

المطلب الرابع

وقفة مع دعاوى" مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ﷺ "(١)



مما يثار حول سيد قطب- رحمه الله - أنه يطعن في أصحاب رسول الله ﷺ ويعتمد من تحدث عن هذه القضية على كتابات لسيد في بعض كتبه السابقة لالتزامه أو ما ألفه في بداية مرحلة تحوله نحو الإسلام ، أو في طبعات تم تعديلها بعد ذلك، ويجعل ذلك وصفًا ثابتًا لسيد دون النظر في طبيعة المرحلة التي ألف فيها هذه الكتب ، وكذا النظر في الطبعات المعدلة لهذه الكتب ، أو النظر في كتبه الأخيرة، التي ألفها بعد التزامه بمنهج الإسلام كـ " الظلال ، المعالم ، المقومات ، وغيرها"، ومعلوم أن سيدًا - رحمه الله - كما ذكرنا في الباب الأول - مَرَّ بمراحل مختلفة في حياته ، وحصل له انحراف في بعضها ، وبالتالي فمن الظلم تقييم فكر الرجل وعقيدته من خلال جمع النصوص من مراحل انحرافة وجعلها هي حقيقة ما كان عليه ، كما فعل البعض (٢).

فالموضوعية والأمانة في البحث العلمي المتجرد من الهوى والتعصب تقتضي النظر في موقفه من الصحابة - رضوان الله عليهم - عمومًا، وكذا كلامه في بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - وحقيقته، وفي أي مرحلة كان ؟ وهل تراجع عنه أو عدله ؟ وما هو موقفة في كتبة الأخيرة من الصحابة - رضوان الله عليهم - الذي تكلم فيهم في كتبة الأدبية السابقة ؟ وهو ما نحاول عرضة في الفروع الآتية:

الفرع الأول : لمحة تاريخية عن الكتب التي تكلم فيها سيد قطب عن بعض الصحابة :

العبارات التي انتقدت على سيد قطب عند كلامه عن بعض الصحابة - رضوان

---

(١) ما بين القوسين عنوان كتاب لـ د/ ربيع المدخلي .

(٢) انظر مطاعن سيد قطب في أصحاب الرسول ﷺ للدكتور / ربيع المدخلي ، وأضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره ، وكذا الحد الفاصل للمدخلي أيضًا ، وسيأتي بيان حقيقة ما في هذه الكتب ، في هذا المطلب .

الله عليهم – جاءت في كتابين:

الأول : كتاب " كتب وشخصيات " : وهو في الأصل عبارة عن مجموعة مقالات أدبية ونقدية ، كان سيد – رحمه الله- ينشرها في بعض الصحف والمجلات في فترات متفرقة ، بين عامي (١٩٤٢م -١٩٤٦م) أي قبل سفره إلى أمريكا بسنتين ثم جمعها وأصدرها في كتاب بهذا العنوان يقع في (٣٣٦) صفحة وتحدث فيه عن الصراع بين عليّ[١] ومعاوية – رضي الله عنهما – في معرض رده على بعض الكُتّاب، مستعرضًا أسباب غلبة معاوية على عليّ – رضي الله عنهما – بعبارات غير لائقة بمعاوية وعمرو بن العاص – رضي الله عنهما – منطلقًا – كما يقول- من الانتصار للخلق الفاضل، وليس لأنه شيعيًا[٢] .

الثاني : كتاب " العدالة الاجتماعية في الإسلام " : وهو أول كتاب فكري ألفه في بداية مرحلة تحوله إلى الدراسات الإسلامية ، حيث كان قد ألف قبله كتابين هما: " التصوير الفني في القرآن الكريم " و" مشاهد القيامة " وخلال دراسته الفنية للقرآن الكريم وجد أنه يحتوي على حقائق وموضوعات فكرية وتشريعية المجتمع المعاصر في أمس الحاجة إليها ، خاصة مع نشاط الشيوعيين في الدعاية لمناهجهم في تلك الفترة ، وفساد أحوال الأنظمة والمجتمعات ، فتحول سيد – رحمه الله – من الدراسات البيانية البلاغية للقران الكريم إلى الدراسات الفكرية وألف كتابة "العدالة الاجتماعية في الإسلام " عام ١٩٤٨م قبل سفره إلى أمريكا ، وأصدره أخوه محمد قطب – حفظه الله – ١٩٤٩م، وكان سيد حينها في أمريكا .

والكتاب يتحدث عن نظرة الإسلام إلى الدين والمجتمع والإصلاح، وتميزه عن غيره من الأديان وخاصة المسيحية ، وكذا الحديث عن طبيعة العدالة الاجتماعية في الإسلام وعلاقتها بالعقيدة، وعن أسس ووسائل العدالة في الإسلام، وانتقل للحديث عن سياسة الحكم والمال والواقع التاريخي في الإسلام وعرض نماذج من عصر الصحابة – رضوان الله عليهم – في سياسة الحكم والمال من الوجهة الرسمية

(١) هو: عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب ،ابن عم رسول الله ﷺ وزوج الزهراء،أبو الحسن والحسين،أول من آمن من الصبيان، شهد المشاهد كلها إلا تبوك، قتل بالكوفة سنة ٤٠هـ ،انظر: الإصابة لابن حجر،٨/ ١٣١ والاستيعاب لابن عبد البر٧/ ٥٧ .

(٢) ينظر : كتب وشخصيات سيد قطب ص ٢٤٢،٢٤٣ ، وكذا سيد قطب الأديب الناقد للدكتور / صلاح الخالدي ص ٣٤٢ وما بعدها .

في الدولة واختلاف تصرفات الحكام المسلمين الأمويين والعباسيين عن ما كان عليه الوضع في الخلافة الراشدة .

وتكلم في هذا الفصل عن عثمان و معاوية - رضي الله عنهما - بكلام غير لائق بهما، انتقده العلامة محمود شاكر - رحمه الله - في مقالات نشرها عام - (١٣٧١هـ - ١٩٥٢م)، ثم انضم سيد - رحمه الله- إلى الإخوان المسلمين عام (١٩٥٣م)، وعمل معهم حتى كانت محنة عام (١٩٥٤م) حيث سجن سيد قطب وحكم عليه بالأشغال الشاقة، واستمر حتى عام (١٩٦٤م) حيث خرج بعفو صحي، وفي عام (١٩٦٤م) أعاد النظر في كتاب العدالة الاجتماعية، وخاصة المواضع والألفاظ التي انتقده فيها محمود شاكر، حيث حذف بعضها وعدل بعضها، وأبقى بعضها كما هو، واصدر الطبعة السادسة المعدلة عام (١٩٦٤م) .

ومن هذا العرض التاريخي السابق لطبيعة الكتب والمرحلة التي جاء كلام سيد - رحمه الله- عن بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - فيها نجد :

١- أنها كانت في بداية مرحله تحوله نحو الدراسات الإسلامية بعد مرحله طويلة من الضياع الفكري و الدراسات الأدبية والنقدية .

٢- أن سيد - رحمه الله- عدل بعض الألفاظ التي انتقدها عليه محمود شاكر - رحمه الله - كما سيأتي- بعد ١٢عاما، في مرحلة سيد الإسلامية والتي تعمق فيها في الدراسات الإسلامية أكثر من ذي قبل، مع بقاء بعض الألفاظ التي كان الأولى بسيد - رحمه الله- أيضًا أن يعدلها.

٣- أن كلام سيد - رحمه الله- عن الصحابة - رضوان الله عليهم - عمومًا وعن بعض الصحابة الذين تكلم فيهم في هذين الكتابين مختلف تمامًا في كتبه الأخيرة - كما سيأتي بيانه - مما يدل على أن هذا الكلام كان في مرحلة ولها حكمها، وبالتالي فالاعتماد على ما في هذه الكتب، وعلى الطبعة غير المعدلة، ليس من الإنصاف والموضوعية في الردود والمناقشات العلمية .

الفرع الثاني مع الدكتور/ ربيع المدخلي حول " مطاعن سيد قطب في الصحابة " :

يعتبر الدكتور / ربيع المدخلي أبرز من تفرغ في هذا العصر للتصدي لفكر سيد - رحمه الله - ومواجهته حيث ألف عددًا من الكتب في بيان مخالفات -سيد- وخاصة ما يتعلق منها بالعقيدة [١] . وما انتقده على سيد - رحمه الله - لاشك أن فيه ما هو صواب وحق، وفيه ما هو غير ذلك .

وقد سبق بيان كثير من الأمور التي انتقدها المدخلي على سيد قطب في ما سبق من مباحث الرسالة كل في موضعه [٢].

ونقف هنا مع ما يتعلق بالصحابة - رضوان الله عليهم -حيث خصص الدكتور المدخلي كتابا بعنوان "مطاعن سيد قطب في أصحاب الرسول ﷺ "جمع فيه العبارات التي اخطأ فيها سيد في حق بعض الصحابة - رضوان الله عليهم -، كما أورد فصلًا كاملًا في كتابه " أضواء إسلامية " حول " موقف سيد قطب من عثمان- رضي الله عنه - ومعظم الصحابة " وكذا أعاد نفس الكلام في كتابه " الحد الفاصل "[٣].

ومن خلال الاطلاع على كتب الكتور المدخلي السابقة، وعلى رسالة العلامة محمود شاكر - رحمه الله - التي انتقد فيها سيد قطب حول الموضوع، وعلى كتاب العدالة الاجتماعية لسيد قطب - رحمه الله - والمقارنة بين كلامه في الطبعات الأولى وبين الطبعة المعدلة وجدت الآتي :

أولا: أن سيد -رحمه الله- عدل بعض الألفاظ التي انتقدها عليه محمود شاكر- رحمه الله - في الطبعة السادسة، ومع ذلك ففيها عبارات كان الأولى بسيد-رحمه الله- حذفها أو تعديلها كما فعل في غيرها.

---

(١) منها : مطاعن سيد قطب في أصحاب الرسول ﷺ، وأضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره، والحد الفاصل .

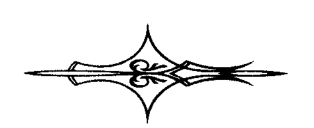
(٢) ينظر على سبيل المثال القضايا الآتية : موقف سيد قطب من حديث الآحاد، وسحر النبي ﷺ، والألوهية والربوبية، وموقف سيد قطب من الصفات وتأويلها، ووحدة الوجود، وخلق القرآن، وغيرها، من القضايا التي ذكرها الدكتور المدخلي في كتبه .

(٣) ينظر : مطاعن سيد قطب في أصحاب النبي ﷺ، وأضواء إسلاميه : ص ٢٧- ٦٢ والحد الفاصل : ص ١٢٩- ١٣٧ .

ثانيا : يلاحظ على كلام الدكتور / ربيع المدخلي في كتبه حول موقف سيد من الصحابة ما يلي :

١ - أن الدكتور / ربيع المدخلي جعل اعتماده في نقد سيد - رحمه الله- وإدانته له على الألفاظ السابقة التي ذكرها محمود شاكر- رحمه الله- في نقده لسيد ، أي أنه أعتمد على الطبعة الخامسة قبل تعديل سيد لها وجعلها هي الأصل، وربما أصبحت مفقودة في عالم اليوم لأنها طبعت قبل أكثر من خمس وأربعين عاما، ولم يعتمد في نقده على الطبعة التي عدلها سيد قبل موته بسنتين عام "١٩٦٤م " والتي تكررت طباعتها إلى اليوم، بل كان المدخلي يشير في الهامش بعد أن يذكر النص من الطبعة الخامسة بقوله ومعناه في الثانية عشر- أي في المعدلة - مما يدل على أنه يرى أن التعديل غير ذي قيمة !! وأحيانا يذكر أن سيد - رحمه الله- تلاعب بالألفاظ وتحايل في تغيير شكلها مع بقاء المضمون !!.

وعلى فرض صحة كلام الدكتور المدخلي ومع أنه دخول في نية الرجل، إلا أن المنهج العلمي والموضوعي في النقد يقتضي الاعتماد على آخر ما سطره الرجل ولا يمنع ذلك من الإشارة إلى ما قبل التعديل إن كان الناقدٍ يرى أن التعديل غير حقيقي أو أنه شكلي، واستسمح القارئ في أن انقل له جدولاً فيه مقارنة بين كلام سيد -رحمه الله- في الطبعة القديمة من العدالة الاجتماعية التي انتقده فيها الشيخ محمود شاكر ونقل عنها المدخلي في الغالب، وبين الطبعة المعدلة للكتاب، حتى يتبين الأمر وذلك كما يلي :



أولا : مقارنه بين ما أنتقده محمود شاكر وبين الطبعة المعدلة :

رقم الفقرة	نص الفقرة في الطبعة الخامسة قبل التعديل وفي رسالة محمود شاكر - رحمه الله -	نص الفقرة في الطبعات المعدلة
(١)	فلما أن جاء معاوية وصير الخلافة الإسلامية ملكًا عضوضًا في بني أميه، لم يكن ذلك من وحي الإسلام، إنما كان من وحي الجاهلية، فأمية بصفة عامة لم يعمر الإيمان قلوبها وما كان الإسلام لها إلا رداء تخلعه وتلبسه حسب المصالح والملابسات [١]	فلما أن جاء الأمويون، وصارت الخلافة الإسلامية ملكًا عضوضًا في بني أمية، لم يكن ذلك من وحي الإسلام، إنما كان من وحي الجاهلية الذي أطفأ إشراقة الروح الإسلامي [٢]

(١) مجلة المسلمون : العدد ٣ سنة ١٣٧هـ مقال للعلامة محمود شاكر رحمه الله، نقلا عن : مطاعن سيد قطب في الصحابة د/ المدخلي ص ١٣ .

(٢) العدالة الاجتماعية: سيد قطب ص ١٥٤ .

أثبت سيد - رحمه الله- بعض الروايات والملابسات التي صاحبت البيعة ليزيد وطريقة معاوية - رضي الله عنه - في إكراه الناس عليها، ثم يذكر في الهامش معلقا عليها بقوله " ذكرها ابن الأثير في حوادث سنة(٥٦هـ) ونحن لا نحب أن نجزم بصدق مثل هذه الرواية، ولكن تبرئة للإسلام في ذاته نقول : " إنها إن صحت كان هذا مخالفة أساسية لطبيعة المنهج الإسلامي في الحكم لا تبررها حجة، ولا يقوم لها عذر"، ثم ذكر مقالة لبعض خصوم يزيد بن معاوية في وصف يزيد، وقال : فإذا كانت هذه مقالة خصم ليزيد فإن تصرفات يزيد العملية الواقعية فيما بعد من قتل للحسين- رضي الله عنه - على ذلك النحو الشنيع إلى حصار البيت ورميه.. تشهد بأن خصوم يزيد لم يبالغوا كثيرا فيما قالوه. وأيًا ما كان الأمر فان أحدًا لا يجرؤ على الزعم بأن يزيد كان أصلح المسلمين للخلافة وفيهم الصحابة -رضوان الله عليهم- والتابعون، إنما كانت مسالة وراثة الملك في البيت الأموي، وكان هذا الاتجاه طعنة نافذة في قلب الإسلام واتجاه الإسلام ،وفي سبيل تبرئة الإسلام - روحه ومبادئه – من ذلك النظام الوراثي الذي ابتدع ابتداعا في الإسلام نقرر هذه الحقائق، لتكون واضحة في تصور الحكم الإسلامي على حقيقته " [٣].	يقول شاكر : " ثم يذكر يزيد ابن معاوية بأسوأ الذكر، ثم يقول: أي- سيد- " وهذا هو الخليفة الذي يفرضه معاوية على الناس، مدفوعا إلى ذلك بدافع العصبية العائلية القبلية وما هي بكثيرة على معاوية ولا بغريبة عليه، فمعاوية هو ابن أبي سفيان، وابن هند بنت عتبة[١] ، وهو وريث قومه جميعًا، وأشبه شيء بهم في بعد روحه عن حقيقة الإسلام، فلا يأخذ أحد الإسلام بمعاوية أو بني أمية فهو منه ومنهم بريء " [٢].	(٢)

(١) هي : هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس القرشي ، أم معاوية رضي الله عنهما ، كان لها دور في قتل حمزة t وأسلمت عام الفتح ، انظر: الإصابة لابن حجر ٤/ ٤٢٥ .

(٢) مطاعن سيد قطب : للمدخلي ص ١٣، ١٤ .

(٣) العدالة الاجتماعية سيد قطب ص ١٥٤- ١٥٥ بتصرف، حيث يلاحظ أن الفقرة التي انتقدها محمود شاكر - رحمه الله- حذفها سيد بأكملها في الطبعة المعدلة .

رقم الفقرة	نص الفقرة في الطبعة الخامسة قبل التعديل وفي رسالة محمود شاكر – رحمه الله -	نص الفقرة في الطبعات المعدلة
(٣)	"ولسنا ننكر على معاوية في سياسة الحكم ابتداعه نظام الوراثة وقهر الناس عليها فحسب !! إنما ننكر عليه أولاً وقبل كل شيء إقصاء العنصر الأخلاقي في صراعه مع علي ، وفي سيرته في الحكم بعد ذلك إقصاءً كاملاً لأول مرة في تاريخ الإسلام . فكانت جريمة معاوية الأولى التي حطمت روح الإسلام في أوائل عهده هي نفي العنصر الأخلاقي من سياسته نفيًا باتًا ، ومما ضاعف الجريمة أن هذه الكارثة باكرت الإسلام ، ولم تنقض إلا ثلاثون سنة على سننه الرفيعة . ولكي ندرك عمق هذه الحقيقة يجب أن نستعرض صورًا من سياسة الحكم في العهود المختلفة على أيدي أبي بكر وعمر وعلى أيدي عثمان ومروان .. ثم على أيدي الملوك من بين أمية ... ومن بعدهم من بني العباس ، بعد أن خنقت روح الإسلام خنقًا على أيدي معاوية وبني أمية[1]	- في الطبعة المعدلة حذف سيد - رحمه الله- أول فقرة وهي قولة " ولسنا ننكر على معاوية ... إلى قوله .. سننه الرفيعة " وأثبت فقط من قوله: ولكي ندرك مع تعديل فيها على النحو الآتي: " ولكي ندرك عمق هذه الحقيقة يجب أن نستعرض صورًا من سياسة الحكم في العهود المختلفة على أيدي أبي بكر وعمر وعلى أيدي عثمان ومروان ، وعلى أيدي علي الإمام ثم على أيدي الملوك من بني أمية ، ومن بعدهم من بني العباس ، بعد هذه الهزة المبكرة في تاريخ الإسلام " .[2]

(١) مطاعن سيد قطب في الصحابة – د/ المدخلي ص ١٤ .
(٢) العدالة الاجتماعية: سيد قطب ص ١٥٦.

(٤)	" ومضى علي إلى رحمة ربه ، وجاء معاوية ابن هند وابن أبي سفيان ، فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورقته كانت تقف حاجزًا أمام أمية، لقد أنهار هذا الحاجز، وانساح ذلك السد، وارتدت أمية طليقة حرة إلى وراثتها في الجاهلية والإسلام ، وجاء معاوية تعاونه العصبة التي على شاكلته، وعلى رأسها عمرو بن العاص ، قوم تجمعهم المطامع والمآرب وتدفعهم المطامح والرغائب ، ولا يمسكهم خلق ولا دين ولا ضمير " ، " ولا حاجة بنا للحديث عن معاوية ، فنحن لا نؤرخ له هنا ، وبحسبنا تصرفه في توريث يزيد الملك ، لنعلم أي رجل هو !! ثم بحسبنا سيرة يزيد لنقرر أي جريمة كانت تعيش في أسلاخ أمية على الإسلام والمسلمين " ثم ينقل خطبة يزعم أنها لمعاوية في أهل الكوفة بعد الصلح يقول فيها: " وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين " ويعقب عليه بأن الله أمر بالوفاء بعهود المشركين المعاهدين ، ثم يقول أما معاوية فيخسيس بعهده للمسلمين ويجهر بهذه الكلمة جهرة المتبجحين ، إنه من أمية التي أبت نحيزتها أن تدخل في حلف الفضول " [١].	" عدّل سيد – رحمه الله – الفقرة جذريًا في الطبعة المنقحة ونصها: " ومضى علي إلى رحمة ربه ، وجاء بنو أمية ، فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورقته ، كانت تقف حاجزًا أمام أمية ، لقد انهار هذا الحاجز، وانفتح الطريق للانحراف .... ثم تحدث عن انحراف ملوك بني أمية وبني العباس في سياسة المال وتصريفه والهبات لمن لا يستحق ، باستثناء عهد عمر بن عبد العزيز الذي أعاد الأمر إلى ما كان عليه في عهد الخلافة الراشدة ، في الحكم والمال ، وذكر نماذج من سيرة عمر بن عبد العزيز- رحمه الله- في رده للمظالم وعدله في حكمه ، ثم قال " وإذا كنا لا نؤرخ هنا للدولة الإسلامية ، ولكن الروح الإسلامي في الحكم ، فإننا نكتفي في إبراز مظاهر التحول والانحسار في هذا الروح بإثبات ثلاث خطب من عهد الملوك وبموازنتها بالخطب الثلاث التي سبقت في عهد الخلفاء تبين الفارق العميق . ثم ذكر خطبة معاوية في أهل الكوفة بعد الصلح، وفيها ".. إلا أن كل مال أو دم أصيب في هذه الفتنة فمطلول ، وكل شرط شرطته فتحت قدميهاتين" وحذف التعقيب الموجود في الطبعة السابقة كاملًا [٢].

(١) مطاعن سيد قطب في الصحابة د/ المدخلي ص ١٤- ١٥ بتصرف يسير .
(٢)العدالة الاجتماعية سيد قطب ص ١٦٤- ١٦٧ بتصرف م.

(٥)	ثم يذكر خطبه أخرى لمعاوية في أهل المدينة " أما بعد فإني والله ما وليتها بيعة بمحبة علمتها منكم " ثم يعلق بقوله " أجل !! ما وليها بمحبة منهم، وإنه ليعلم أن الخلافة بيعة الرضا في دين الإسلام ولكن ما لمعاوية وهذا الإسلام، وهو ابن هند وابن أبي سفيان !! "[1] .	- يذكر خطبته في أهل المدينة فقط، ويحذف التعقيب كاملاً من قوله "أجل!! " إلى نهاية الفقرة.[2]
(٦)	يقول : " وأما معاوية بعد علي فقد سار في سياسة المال سيرته التي ينتفي منها العنصر الأخلاقي، فجعله للرشى واللهى وشراء الأمم (ولعله الذمم) في البيعة ليزيد وما أشبه هذه الأغراض،بجانب مطالب الدولة والأجناد والفتوح بطبيعة الحال" [3].	" فأما بنو أميه فقد ساروا في سياسة المال سيرة أخرى، حتى كان عمر عبد العزيز، فصنع الذي أسلفنا من رد المظالم، وفي الكف عن بعثرة أموال المسلمين في غير حقها، فلم يكن لبني أميه إلا ما لسائر الناس، ولم يكن للمتملقين والملهين نصيب في هذا المال ، فقد انقطع عن الشعراء المداح"[4] . حيث يلاحظ حذف الفقرة المنتقدة كاملة، وتعديل فكرتها تمامًا كما في النص .

(١) مطاعن سيد قطب في الصحابة د/ المدخلي ص ١٢

(٢)العدالة الاجتماعية سيد قطب ص ١٦٨ .

(٣)مطاعن سيد قطب في الصحابة د/ المدخلي ص ١٥ .

(٤) العدالة الاجتماعية سيد قطب ص ١٧٦ .

(٧)	" هذا هو الإسلام، على الرغم مما اعترض خطواته العملية الأولى من غلبة أسرة لم تعمر روح الإسلام نفوسها، فأمنت على حرف حين غلب الإسلام، وظلت تحلم بالملك الموروث العضوض حتى نالته، فسارت بالأمر سيرة لا يعرفها الإسلام " (١) .	" وهذا هو الإسلام على الرغم مما اعترض خطواته العملية الأولى، من انحراف في تصور معنى الحكم وسياسة المال التي كانت له آثار ضخام .. " (٢) . والفرق بين الفقرتين واضح .
(٨)	" أبو سفيان هو ذلك الرجل الذي لقي الإسلام منه والمسلمون ما حفلت به صفحات التاريخ والذي لم يسلم إلا وقد تقررت غلبة الإسلام، فهو إسلام الشفة واللسان، لا إيمان القلب والوجدان، وما نفذ الإسلام إلى قلب ذلك الرجل ... " (٣) .	محذوفة كلها في الطبعة المعدلة.
(٩)	" ولقد كان أبو سفيان يحلم بملك وراثي في بني أمية منذ تولى عثمان.."(٤).	محذوفة كلها في الطبعة المعدلة.
(١٠)	" ذلك أبو معاوية، فأما أمه هند بنت عتبة فهي تلك التي وقفت يوم أحد تلغ في الدم إذ تنهش كبد حمزة كاللبؤة المتوحشة..." (٥) .	محذوفة تماما في الطبعة المعدلة" (٦) .

(١) مطاعن سيد قطب في الصحابة د/ المدخلي ص ١٦ .
(٢) العدالة الاجتماعية سيد قطب ص ١٨١ .
(٣) مطاعن سيد قطب في أصحاب النبي ﷺ : د/ المدخلي ص ١٦ .
(٤) المصدر السابق : د/ المدخلي : ص ١٦ .
(٥)مطاعن سيد قطب في أصحاب النبي ﷺ : ص ١٧ .
(٦)انظر العدالة الاجتماعية: ص ١٧٦ وما بعدها حيث حذفت العبارات ٨-١٠ منها .

هذه هي النقاط العشر التي انتقدها الشيخ محمود شاكر - رحمه الله - على سيد قطب في الرسالة التي أوردها الدكتور المدخلي في مقدمة كتابه: " مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ﷺ " ، وكما لاحظنا من خلال المقارنة بينها وبين الطبعة التي عدلها سيد قطب فيها بعد أن سيدًا حذف ما كان أساء فيه، وعدل بعض الألفاظ عما كانت عليه في الطبعة السادسة، ولا أدري لماذا يصر الدكتور المدخلي على وصف حذف سيد - رحمه الله- لما انتقده عليه محمود شاكر كما رأينا في الجدول السابق بأنه تلاعب بالألفاظ مع بقاء المعنى والمضمون مع أن القارئ المنصف يجد أن التعديل جذري بحذف العبارات والجمل المنتقدة، أو تعديلها لتعطي معنى مغايرًا، كما سبق بيانه في جدول المقارنة .

وهناك ملاحظة أخرى : وهي أن الدكتور المدخلي وبعد أن أورد رسالة محمود شاكر - رحمه الله - في نقده لسيد، أورد رسالة من سيد - رحمه الله - لأحد أصدقائه حول ما كتبه محمود شاكر من انتقادات لكتاب العدالة الاجتماعية، وفيها كلام حول نقد شاكر له، بين فيها سيد قطب أن سبب كلامه في معاوية وبني أمية، ليس عداءً شخصيًا، وليس سبًا للصحابة، وسوء نية في تدنيس المسلمين، إنما كان محاولة منه لبيان انحراف سياسة الحكم والمال عما كانت عليه في عهد الخلافة الراشدة، ومحاولة تبرئة الإسلام من ما يلصقه به أعداؤه من التهم بسبب انحرافات الحكام من بني أمية في سياستهم في الحكم والمال . [(١)]

وهذه الرسالة نشرها سيد -رحمه الله- في مارس عام "١٩٥٢م " ، أي في نفس الفترة التي نُشِرَ فيها نقد العلامة محمود شاكر -رحمه الله-.

ومع أننا لا نوافق سيدًا في العبارات التي انتقده فيها محمود شاكر، ولا في التبريرات التي ذكرها في رسالته حول نقد شاكر له، إلا أننا يجب أن نذكر أن- سيدًا- عدل ما انتقده فيه محمود شاكر بعد "١٢ عامًا "، مما يعني أن سيدًا تحول عما كان عليه في موقفه من انتقاد شاكر له، وبالتالي فلا يصح أن ندندن كثيرًا حول رفض سيد قطب لانتقاد شاكر مادام الأمر قد أصبح في خبر كان، والأولى النظر في

---

(١) تنظر الرسالة في : مطاعن سيد قطب د/ المدخلي ص ٢٥-٢٩ .

ما استقر عليه سيد - رحمه الله- في كتابه بعد التعديل، ونقده فيما اخطأ فيه.

ثانيًا : مقارنة بين ما ذكره المدخلي في كتبه وبين الطبعة المعدلة لكتاب العدالة الاجتماعية :

ذكر الدكتور / المدخلي في كتبه الثلاثة حول سيد قطب انتقادات لما جاء في كتاب العدالة مما يتعلق بالإساءة إلى الصحابة - رضوان الله عليهم - والطعن فيهم، وقبل أن أورد جدولًا للمقارنة بين العبارات الموجودة في كتب الدكتور/ المدخلي وبين ما في العدالة الاجتماعية، أود التذكير بما سبق من أن الدكتور / المدخلي اتخذ منهجًا في معالجة الموضوع يقوم على الاعتماد على الطبعة الخامسة " قبل التعديل " ونقل النصوص منها وجعلها هي " النسخة الأم !! " مع علمه بأن سيد - رحمه الله- عدلها في الطبعة السادسة أو حذفها منها، واكتفى بالإشارة في الهامش بعد كل فقرة بقوله: " صفحه كذا الطبعة الخامسة، ومعناه في صفحة كذا الطبعة الثانية عشرة - أي المعدلة - [١] .

وأحيانا ينقل في الهامش التعديل ويعقب عليه بقوله: " ما هو إلا تغيير للفظ مع الحفاظ على المعنى "[٢].

وأحيانا ينقل من الثانية عشرة ما لم يكن من الألفاظ في الخامسة ،وأحيانا العكس - كما يعمل المحقق لنسخ المخطوطة [٣]. ولا أدري ما هو السبب الذي حمله على فعل ذلك، مع أن الأصل في المنهج العلمي والنقدي أن يُعتمد الرأي الأخير الذي استقر عليه المؤلف وينقد أو يناقش ولا يمنع ذلك من الإشارة إلى رأيه السابق إن كان لا يوجد بينه وبين الجديد خلاف .

وفيما يأتي جدول يبين النقولات التي أوردها الدكتور المدخلي في كتبه، مقارنة بما هو في الطبعة المعدلة من العدالة الاجتماعية لسيد قطب :

---

(١) انظر أمثلة لذلك في : " أضواء إسلامية " د/ المدخلي هوامش الصفحات ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٨، ٣٩ و" مطاعن سيد قطب " هوامش الصفحات ٦٦، ١١٤، ١٦٤ .

(٢) أضواء إسلامية: هوامش الصفحات ٤٣، ٤٤ و " مطاعن سيد قطب " ص ٦٦ هامش ٣، ص ١٠٨ هامش ١، ص ٢٠٧ هامش ٢ .

(٣) مطاعن سيد قطب : ص ٦٦ هامش ١، ص ٦٧ هامش ٢، ص ٩٩ هامش ٢، ص ١١٧ هامش ١ .

	الفقرة قبل التعديل	بعد التعديل
(١)	" وفي سبيل تبرئة الإسلام – روحه ومبادئه – من ذلك النظام الذي ابتدع ابتداعًا في الإسلام نقرر هذه الحقائق لتكون واضحة في تصور الحكم الإسلامي على حقيقته. ومما ضاعف الكارثة أن هذا الانحراف باكر الإسلام ولم تنقض إلا ثلاثون سنة على سننه الرفيعة، فلم تتح له فرصة الثبات والاستقرار وتكوين التقاليد العميقة والأوضاع النظامية التي يصعب فيها بعد الخروج عليها وهو سوء حظ ولا شك فيه ولكنه في الواقع ليس المصادفة السيئة الأولى،فلقد كانت أسوأ مصادفة هي : تأخير علي وتقديم عثمان وهو شيخ ضعيف، وتسلم مروان بن الحكم الأموي مقاليد السلطة، فلو شاء حسن الطالع أن يتقدم عليٌ بعد الشيخين لاستمرت تقاليد الإسلام فترة أخرى، ولاستطردت موجته عهدًا ثالثًا، ولكان غير ما كان من طمس روح الإسلام، فإن استقرار التقاليد الإسلامية فترة أخرى وقيام أوضاع نظامية محدودة من شأنه أن يجعل النكسة أصعب على من يحاولها، ولكي ندرك عمق هذه الحقيقة يجب أن نستعرض صورًا من سياسة الحكم و " المال " في العهود المختلفة على أيدي أبي بكر وعمر وعلى أيدي عثمان ومروان، وعلى أيدي علي الإمام، ثم على أيدي الملوك من بني أمية ومن بعدهم من بني العباس بعد أن خفقت روح الإسلام " [١]	حذف سيد – رحمه الله– الفقرة التي تحتها خط من قوله: "ومما ضاعف الكارثة..... إلى – أصعب على من يحاولها – "وعدل في الفقرة الأخيرة قوله " بعد أن خفقت روح الإسلام" إلى " بعد هذه الهزة المبكرة في تاريخ الإسلام " . [٢]

(١) مطاعن سيد قطب/ للمدخلي ص٦٥، وقد نقلها عن الطبعة الخامسة من العدالة الاجتماعية ص١٨٢، وكلمة "المال" أضافها من الطبعة الثاني عشرة المعدلة وأشار في هامش إلى ذلك !!! .

(٢) العدالة الاجتماعية : سيد قطب ص ١٥٥-١٥٦ .

(٢)	" لقد اتسعت رقعة الإسلام فيما بعد، ولكن روحه انحسرت بلا جدال وما قيمة الرقعة إذا انحسرت الروح ؟! ولولا قوة كامنة في طبيعة هذا الدين، وفيض عارم في طاقته لكانت أيام أمية كفيلة بالقضاء عليه القضاء الأخير "[(١)].	حذف الجملة الأولى التي تحتها خط وعدل الأخيرة بقوله "لكانت أيام أمية كفيلة بتغيير مجراه الأصيل "[(٢)].

(٣)	" هذا التصور لحقيقة الحكم قد تغير شيئا ما بدون شك على عهد عثمان، ولقد كان من سوء الطالع أن تدرك الخلافة عثمان وهو شيخ كبير، ضعفت عزيمته عن عزائم الإسلام وضعفت إرادته عن الصمود لكيد مروان، وكيد أمية من ورائه . فهم عثمان – رحمه الله – أن كونه إمامًا يمنحه حرية التصرف في مال المسلمين بالهبة والعطية، فكان رده في كثير من الأحيان على منتقديه في هذه السياسة " وإلا ففيم كنت إماما ؟!" كما يمنحه حرية أن يحمل بني معيط وبني أمية –من قرابته – على رقاب الناس، وفيهم الحكم طريد رسول الله ﷺ لمجرد أن من حقه أن يكرم أهله ويبرهم ويرعاهم "[(٣)].	" هذا التصور لحقيقة الحكم قد تغير شيئا ما بدون شك على عهد عثمان – وإن بقي في سياج الإسلام – ولقد أدركت الخلافة عثمان وهو شيخ كبير، ومن ورائه مروان بن الحكم يصرف الأمور بكثير من الانحراف عن الإسلام، كما إن طبيعة عثمان الرخية، وحدبه الشديد على أهله، قد ساهم كلاهما في صدور تصرفات أنكرها الكثيرون من الصحابة من حوله، وكانت لها معقبات كثيرة، وآثار في الفتنة التي عانى منها الإسلام كثيرًا "[(٤)] . حيث حذف الجملة ابتداء من قوله "فهم عثمان –رحمه الله – أن كونه إماما....إلى أخرها." ومع ذلك يثبتها المدخلي في أكثر من مكان من كتبه نقلا عن الطبعة السابقة للتعديل.

(١) مطاعن سيد قطب ، للمدخلي ص ٨٢- ٨٦، حيث نقله من الطبعة الخامسة قبل التعديل، وأضواء إسلامية ص ٥٣ .

(٢) العدالة الاجتماعية: سيد قطب ص ١٦٤.

(٣) مطاعن سيد قطب ، للمدخلي ص ٨٩ وأضواء إسلامية للمدخلي ص ٣٢.

(٤) العدالة الاجتماعية : سيد قطب ص ١٥٩، وقد أشار إليها المدخلي في هامش ص ٨٩ من كتاب المطاعن .

(٤)	"ولقد كان الصحابة يرون هذا الانحراف عن روح الإسلام، فيتداعون إلى المدينة لإنقاذ الإسلام، وإنقاذ الخليفة من المحنة، والخليفة في كبرته وهرمه لا يملك أمره من مروان، وإنه لمن الصعب أن نتهم روح الإسلام في نفس عثمان، ولكن من الصعب كذلك أن نعفيه من الخطأ، الذي هو خطا المصادفة السيئة في ولايته الخلافة وهو شيخ موهون تحيط به حاشية سوء من أميه " .[1]	-" ولقد كان الصحابة يرون هذه التصرفات الخطيرة العواقب، فيتداعون إلى المدينة لإنقاذ الإسلام ، وإنقاذ الخليفة من المحنة، والخليفة في كبرته لا يملك أمره مروان، وإنه لمن الصعب أن نتهم روح الإسلام في نفس عثمان، ولكن من الصعب كذلك أن نعفيه من الخطأ، الذي نلتمس أسبابه في ولاية مروان الوزارة في كبرة عثمان " .[2]
(٥)	تحت عنوان: سيد قطب يرى أن الثورة التي قادها ابن سبأ اليهودي أقرب إلى روح الإسلام من عثمان بن عفان ! ينقل نصًا من الطبعة الخامسة وفيه " وأخيرًا ثارت الثائرة على عثمان واختلط فيها الحق بالباطل، والخير بالشر، ولكن لابد لمن ينظر إلى الأمور بعين الإسلام، و يستشعر الأمور بروح الإسلام أن يقرر : أن تلك الثورة في عمومها كانت أقرب إلى روح الإسلام، واتجاهه من موقف عثمان، أو بالأدق من موقف مروان ومن ورائه بنو أميه "[3].	- عدل فيها سيد ما تحته خط بقوله: " أن يقرر أن تلك الثورة في عمومها كانت فورة من روح الإسلام . وذلك دون إغفال لما كان وراءها من كيد اليهودي ابن سبأ لعنه الله!"[4].

(١) مطاعن سيد قطب ، للمدخلي ص ١٠٨، نقله من الخامسة، ثم أشار في الهامش إلى أن سيدًا أو غيره تحايل فحذف هذه التهم الأولى، وأبقى معناها ومضمونها، وقد غير بعض الألفاظ في النص محافظًا على معناه، ثم ذكر ما في الطبعة المعدلة . وينظر أيضًا: أضواء إسلامية ص ٣٤ .

(٢) العدالة الاجتماعية: سيد قطب ص ١٥٩- ١٦٠.

(٣) مطاعن سيد قطب ، للمدخلي ص ١١٤، ويقول في الهامش وقد تغير هذا النص شيئًا من التغيير، مع الإصرار على مضمونه ، و أضواء إسلاميه ص ٣٤، ٤٥ .

(٤) العدالة الاجتماعية: سيد قطب ص ١٦٠- ١٦، ١٧٤.

(٦)	واعتذرنا لعثمان – رحمه الله – أن المصادفات السيئة قد ساقت إليه الخلافة متأخرة فكانت العصبة الأموية حوله وهو يدلف إلى الثمانين، واهن القوى ضعيف الشيخوخة ....."[1].	واعتذرنا لعثمان –رحمه الله – أن الخلافة قد جاءت إليه متأخرة، فكانت العصبة الأموية حوله وهو يدلف إلى الثمانين" [2] حيث حذف قوله " واهن القوى ضعيف الشيخوخة " .
(٧)	" جاء عثمان فلم ير أن يأخذ بالعزيمتين أو أحدهما، ترك الفضول لأصحابها .. وترك الأعطيات .. ووسع على الناس..... فإذا عهد من عهود الإقطاع يسود المجتمع الإسلامي في نهاية عهده يرحمه الله " [3].	عدل فيها ما تحته خط بقوله: " فإذا نوع من الفوارق المالية الضخمة يسود المجتمع الإسلامي في نهاية عهده –رحمه الله –" [4] .
(٨)	– " ولقد كان ذلك برًا ورحمه بالمسلمين وبكبرهم خاصة ولكنه أنشأ شرًا عظيماً لم يكن خافيًا على فطنة أبي بكر وعمر بعده، أنشأ الفوارق المالية والاجتماعية الضخمة في الجماعة الإسلامية، كما أنشأ طبقة ارستقراطية فارغة يأتيها رزقها من كل مكان دون كدٍ ولا تعب " [5].	حذف منها ما تحته خط فأصبحت " كما أنشأ طبقه تأتيها أرزاقها من كل مكان دون كد ولا تعب " [6] .

(١)مطاعن سيد قطب / للمدخلي ص ١١٥، وأضواء إسلاميه ص ٣٥ . وكلاهما منقول من الطبعة الخامسة قبل التعديل .

(٢)العدالة الاجتماعية : سيد قطب ص ١٦١ .

(٣) مطاعن سيد قطب / للمدخلي ص ٧٠٢ وأضواء إسلاميه ص ٤٣، مع الإشارة في الهامش إلى أن سيدًا غير بعض الألفاظ مع بقاء المعنى .

(٤) العدالة الاجتماعية : سيد قطب ص ١٧٣ .

(٥)مطاعن سيد قطب / للمدخلي ص ٢١٥ .

(٦) العدالة الاجتماعية : سيد قطب ص ١٧٣ .

(٩)	فلما أن جاء عليٌ لم يكن من اليسير أن يرد الأمر إلى نصابه في هوادة، وقد علم المستنفعون على عهد عثمان وبخاصة من أمية، أن عليًا لن يسكت عليهم فانحازوا بطبيعتهم وبمصالحهم إلى معاوية. - ولو قد جاء علي عقب عمر ما كان لهم إلى هذا الانحياز من سبيل، فقوة معاوية يوم ذاك لم تكن تصمد لقوة الخلافة، ولا لقوة الروح الدينية في النفوس وما كان معاوية ليخاطر بالخروج على الخليفة كما خرج ،فإن ثلاثة عشر عامًا من حكم عثمان هي التي جعلت من معاوية معاوية، إذ جمعت له قوة المال وقوة الجند وقوة الدولة في الأقطار الأربعة بالشام .. إنها المحنة الحقة أن عليا لم يكن ثالث الخلفاء ! "[١]	حذف سيد - رحمه الله- الفقرة كاملة في الطبعة المعدلة ابتداءً من قوله "ولو قد جاء علي عقب عمر - إلى آخر الفقرة [٢]

(١) أضواء إسلامية ، للمدخلي ص ٣٨ نقله من الطبعة الخامسة قبل التعديل، وأشار في الهامش إلى أن ملخصه في الطبعة الثانية عشر المعدلة، وينظر أيضًا الحد الفاصل : ص ١٣٠ .

(٢) العدالة الاجتماعية: ص ١٦١ .

(١٠)	والذين يرون في معاوية دهاءً وبراعةً ولا يرونها في علي، ويعزون إليهما غلبة معاوية في النهاية، إنما يخطئون تقدير الظروف كما يخطئون فهم علي وواجبه، لقد كان واجب علي الأول والأخير : أن يرد للتقاليد الإسلامية قوتها، وأن يرد إلى الدين روحه وأن يجلو الغاشية التي غشت هذا الروح على أيدي أمية في كبرة عثمان ووهنه، ولو جارى معاوية في إقصاء العنصر الأخلاقي من حسابه لسقطت مهمته ولما كان لظفره بالخلافة خالصة من قيمة في حياة هذا الدين، فما جدوى استبدال معاوية بمعاوية ؟ إن عليا إما أن يكون عليًا، أو فلتذهب الخلافة عنه، بل فلتذهب حياته معها وهذا هو الفهم الصحيح الذي لم يغب عنه-كرم الله وجهه- وهو يقول : " والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس "[١].	حذف سيد - رحمه الله- الكلمات التي تحتها خط "ووهنه " ،" فما جدوى استبدال معاوية بمعاوية "، وعدل قوله " فلو جارى معاوية...، بقوله " فلو جارى وسائل بني أمية في المعركة لبطلت مهمته الحقيقية". - وزاد عند ذكره الرواية عن علي قوله " فيما روي عنه إن صحت الرواية " .[٢]
(١١)	ومما انتقده المدخلي على سيد أنه ساق التوارث ومنها ثورة القرامطة مساق الاعتزاز والتباهي، ونقل نصًا من الطبعة الخامسة، ليس موجودًا في الطبعة المعدلة[٣] .	حذف سيد كلامه حول الثوارت من الطبعة المعدلة .

(١) أضواء إسلامية: ص ٤١ نقلها من الطبعة الخامسة والمعدلة.

(٢) العدالة الاجتماعية: سيد قطب ص ١٦٣- ١٦٤.

(٣) أضواء إسلامية: ص ٤٦.

وعموما فهذه نماذج لمنهج الدكتور/ ربيع المدخلي في جميع كتبه في قضية نقده لسيد قطب واعتماده على فقرات من الطبعة القديمة رغم أن المعدلة بين يديه، ولا يعني ذلك أن سيدًا لم يخطئ بل نوافق المدخلي في بعض العبارات التي انتقدها على سيد - رحمه الله- في حديثه عن بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - والتي كان الأولى بسيد - رحمه الله- حذفها أو تعديلها .

الفرع الثالث :موقف سيد قطب من الصحابة في كتبه الإسلامية الأخيرة:

ذكرنا سابقًا أن سيد - رحمه الله- مر بمراحل مختلفة، وكانت كتاباته مختلفة أيضًا في كل مرحلة، وإذا كنا قد استعرضنا في الفرعين السابقين ما كتبه سيد - رحمه الله- في بعض كتبه الأدبية والفكرية التي ألفها في بداية تحوله نحو الإسلام، فإن من الواجب أن ننظر في كتبه الإسلامية الأخيرة وما يتعلق بموقفه من الصحابة - رضوان الله عليهم - عمومًا و الصحابة الذين تكلم فيهم في كتبه السابقة خصوصًا، لنعرف هل عدَّل سيد- رحمه الله- موقفه منهم، أم ما يزال هو هو ؟ وبيان ذلك فيما يلي :

أولًا: موقف سيد قطب من الصحابة عمومًا :

استعرضنا في المطلب الأول من هذا المبحث مكانة الصحابة - رضوان الله عليهم - من خلال كلام سيد - رحمه الله- في ظلال الآيات التي تحدثت عن مكانة الصحابة في هذا الدين وفضائلهم ونستطيع هنا أن نلخص رؤية سيد - رحمه الله- لمكانة الصحابة عمومًا فيما يأتي :

١- الصحابة هم الصفوة المختارة من البشر، الذين رفعهم الله، ورفع من شأنهم - حتى أنهم يبادلونه الرضى والحب .

٢- وعد الله لهم بالجنة والفوز [١] .

٣-الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا أهل صدق وحمية لدينهم وطاعة لربهم ونبيهم وبالتالي حصلوا على رضوان الله عنهم، وتكريم الله لهم. [٢]

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٧٠٥-١٧٠٦ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٣٢٥- ٣٣٢٦ بتصرف .

٤- تكريم الله لهم في مدحه وتصويره لظاهرهم وباطنهم بما يدل على عظمتهم وحب الله لهم، فهم أخلص العباد ولاءً وبراءً، وهم أعبد الناس لربهم وأحرص الخلق على رضوانه سبحانه وإثبات مكانتهم في الكتب السابقة والأديان الأولى، قبل أن يظهروا إلى الوجود .[١]

٥- إشادة سيد – رحمه الله- بالقاعدة الصلبة لهذه الأمة والمتمثلة بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ووصفهم بأنهم لم تشهد البشرية مثلهم في إيمانهم وبذلهم وصدق أخوتهم وشرف صحبتهم لرسول الله ﷺ .[٢]

٦- تميز جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - مع تفاوت الأفراد في هذا الجيل حيث يقرر-سيد - ما عليه أهل السُّنَّة في أن أفضل الصحابة - رضوان الله عليهم - هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ثم أهل بدر ثم أصحاب بيعة العقبة، ثم الذين أنفقوا وجاهدوا قبل الفتح، ثم مسلمة الفتح "[٣]. ومع هذا إلا أن الله وعد جميع الصحابة بالحسنى ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾على تفاوت ما بينهم[٤] .

٧- أن الصحابة هم الجيل الذين صنعوا على عين الله، وتربوا على يد رسول الله ﷺ فهم جيل مميز من بين البشر، عايشوا النبي ﷺ وسدد الوحي خطواتهم أولًا بأول استقوا من النبع الصافي - الوحي - فكانوا جيلًا فريدًا في تاريخ البشرية [٥] .

٨- جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - أصدق الناس إيمانًا وتضحيةً وثباتًا في مواجهة الأهوال والأخطار، وتصديقًا لما جاء به الرسول ﷺ [٦] .

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٣٣١-٣٣٣٣ بتصرف .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٢٦، ٣٤٨٣.
(٣) المصدر السابق ٣/ ١٥٧٠- ١٥٧٦، ١٧٠٣ -١٧٠٥.
(٤) المصدر السابق ٦/ ٣٤٨٤.
(٥) المصدر السابق ٣/ ١٤٢٣، ٤/ ٢٤٩٤، ٦/ ٣٤٨٣ ومعالم في الطريق: ص ١٥-١٧ هذا الدين: ص ٤٢، ٤٣.
(٦) في ظلال القرآن ٢/ ٩٩٨، ٣/ ١٥٧١، ١٧٠٣، ١٧١٦، ٦/ ٣٣٢٦، ٣٤٨٤ .

٩- وعمومًا فسيد قطب يرى أن جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - "جيل قرآني فريد" لم ولن تشهد الحياة تكرر جيل مثله بتلك الصورة وبذلك التجمع .

هذا مجمل ما جاء في كلام سيد - رحمه الله- في كتبه الأخيرة عن جيل الصحابة إجمالا .

ثانيًا : الخلفاء الراشدون ومكانتهم :

تحدث سيد قطب في " الظلال والمعالم " وغيرها عن الخلفاء الراشدين الأربعة حديث المعظم لهم والموقر لمكانتهم، ويمكن الإشارة إلى بعض فضائل الخلفاء الراشدين التي ذكرها سيد قطب فيما يأتي:

أ- فضائل أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وبعض صفاته :

أشار- سيد- إلى عدد من فضائل أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - في مواطن متفرقة يمكن إجمالها فيما يلي :

١- " أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - أكرم من أقلت الأرض بعد رسول الله ﷺ"[١]، وأعرف أصحاب رسول الله ﷺ بروح الإسلام"[٢] .

٢- صدق إيمانه وقوة يقينه وثباته في مواطن الخطر: والأمثلة على ذلك في حياة الصديق - رضي الله عنه - كثيرة جدًا منها:

* ثباته على الأذى في مكة : يقول سيد:" فلقد كان أبو بكر الصديق- رضي الله عنه - يردد والمشركون يتناولونه بالأذى، ويضربون وجهه الكريم بالنعال المخصوفة يحرفونها إلى عينيه ووجهه حتى تركوه وما يعرف له فمٌ من عين! كان يردد طوال هذا الاعتداء المنكر الفاجر على أكرم من أقلت الأرض بعد رسول الله ﷺ : " رب ما أحلمك! رب ما أحلمك ! رب ما أحلمك ! " كان يعرف في قرارة نفسه ما وراء هذا الأذى من حلم ربه ! لقد كان واثقًا أن ربه لا يعجز عن التدمير على أعدائه، كما

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤١٦.
(٢) معركة الإسلام والرأسمالية: ص ٧١.

كان واثقًا أن ربه لا يتخلى عن أوليائه !" [١].

موقفه في حادثة الإسراء والمعراج :

عندما حدث رسول الله ﷺ الناس بما وقع له في الإسراء والمعراج تفاوتت مواقفهم " بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجبًا وإنكارًا، وارتد ناس ممن كان آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر – رضي الله عنه – فقال : أو قال ذلك ؟ قالوا نعم . قال: فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: فتصدقه في أن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح ؟ قال: نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء! فسمي الصدّيق " [٢]. " وقد صدق أبو بكر – رضي الله عنه – وهو يرد المسألة المستغربة المستهولة عند القوم إلى بساطتها وطبيعتها فيقول : إني لأصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء ! " [٣].

موقفه في الغار في حادثة الهجرة :

وهذا الموقف من مواقف الصديق – رضي الله عنه – سجله القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾[٤]، وذلك حين ضاقت قريش بمحمد ﷺ ذرعًا كما تضيق القوة الغاشمة دائما بكلمة الحق ، لا تملك لها دفعًا ، ولا تطيق عليها صبرًا ، فائتمرت به ، وقررت أن تتخلص منه، فأطلعه الله على ذلك ، وأوحي إليه بالخروج ، فخرج وحيدًا إلا من صاحبه الصدّيق .. والسياق يرسم مشهد الرسول ﷺ وصاحبه " إذ هما في الغار " والقوم على إثرهما يتعقبون ، والصديق – رضي الله عنه – يجزع – لا على نفسه ولكن على صاحبه – أن يطلعوا عليهما فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب، يقول له : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، والرسول ﷺ وقد أنزل الله سكينته على قلبه ، يهدئ من روعه ويطمئن من

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤١٦ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٢١٠ .
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٢١١ .
(٤) سورة التوبة : الآية ٤٠ .

قلبه فيقول له : " يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ " [١].

موقفه في بدر وأحد والحديبية وغيرها من المشاهد :

حيث يتجلى صدق إيمانه ويقينه بربه سبحانه في موقفه مع النبي ﷺ وهو يناشد ربه، حيث جاء في الحديث : " إن النبي - ﷺ - قال وهو في قبة له يوم بدر : " أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبدًا " فأخذ أبو بكر - رضي الله عنه - بيده ، وقال: حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ! فخرج وهو يثب في الدرع، وهو يقول:﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾[٢]، [٣].

وفي رواية أخرى :أن النبيﷺ نظر يوم بدر إلى أصحابه وهم ثلاث مائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة ، وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال : " اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدًا " قال : فما زال يستغيث ربه ويدعوه ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّاه ، ثم ألتزمه من ورائه ، ثم قال : يا نبي الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾[٤]،[٥] .

كما روي أنه- رضي الله عنه - هم بقتل ولده عبد الرحمن وكان مع المشركين في بدر. [٦]

- أما في أحد فقد انقلبت المعركة على المسلمين ووقع الهرج في صفوفهم، وخلص المشركون إلى رسول الله ﷺ ولم يبق معه إلا نفر من أصحابه يعدون على الأصابع يدافعون عنه، وفيهم أبو بكر وعمر وبعض الأنصار" [٧].

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٥٦ والحديث في الصحيحين ،وقد سبق تخريجه .

(٢) رواه : البخاري ي الجهاد باب ما قيل في درعه - ﷺ - ٣/ ١٠٦٧ برقم ٢٧٥٨ .

(٣) في ظلال القرآن ٣/ ٣٤٣٥ .

(٤) رواه : مسلم في الجهاد باب الإمداد باللائكة في بدر ٣/ ١١٠٩ برقم ١٧٦٣ .

(٥) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٨٣ .

(٦) المصدر السابق ٦/ ٣٥١٥ .

(٧) في ظلال القرآن ١/ ٤٦٢ .

أما في الحديبية فقد كان موقفه - رضي الله عنه - موقف المؤمن بربه، المستسلم لنبيه ﷺ فعندما راجعه عمر - رضي الله عنه - في شأن الصلح مع المشركين ، قال له أبو بكر - رضي الله عنه - : إلزم غرزه ،(١) فإني أشهد أنه رسول الله "(٢)، ففي موقفه هذا - رضي الله عنه - نرى اليقين والقبول الخالص العميق، فالصديق أبي بكر- رضي الله عنه - لم تفقد روحه لحظة واحدة صلتها بروح رسول الله ﷺ ومن ثم بقيت على اطمئنانها دائما ، ولم تفارقها الطمأنينة أبدًا "(٣) .

- ومن مواقف ثباته ورسوخه أيضًا ما جاء في الصحيحين وغيرها : بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ أقبلت عير تحمل طعاما، فالتفتوا إليها حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلًا من الراسخين منهم أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما "(٤) .

ثباته يوم وفاة النبي ﷺ :

" فلقد أصيب المسلمون - عند موت النبيﷺ بالدهشة والذهول، حتى لقد وقف عمر - رضي الله عنه - شاهرًا سيفه يهدد به من يقول : إن محمدًا قد مات ! ، ولم يثبت إلا أبو بكر، الموصول القلب بصاحبه وبقدر الله فيه الاتصال المباشر الوثيق، حين ذكرهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ (٥) فإذا هم يثوبون ويرجعون "(٦) .

ثباته أيام الردة :

ومن ذلك ثباته في قتال المرتدين، حيث وقف وقفته المشهورة وقال قولته الخالدة: "والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه" مخالفًا في ذلك رأي عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الذي كان يرى قبل أن يفيء إلى

---

(١) إلزم غرزه : أي التزم طريقه، وأصله وضع القدم في الركاب موضعه .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٠٩ .
(٣) المصدر السابق ٦/ ٣٣١٢ .
(٤) رواه : البخاري في التفسير - سورة الجمعة ٤/ ١٨٥٩ برقم ٤٦١٦ .
(٥) سورة آل عمران : الآية ١٤٤ .
(٦) في ظلال القرآن ١/ ٤٨٧ بتصرف يسير .

رأي أبي بكر ويشرح الله له صدره ويعلم أنه الحق "[١].

- ومن ذلك أيضًا : إنفاذه جيش أسامة [٢]- رضي الله عنه - وقتال المرتدين ومانعي الزكاة ، يقول سيد - رحمه الله- " وكان من تدبير الله لهذا الأمر أن يليه بعد رسول الله ﷺ صاحبه الأول أبو بكر ، وصاحبه الثاني عمر ، أقرب اثنين لإدراك طبيعة هذا الأمر، وأشد اثنين انطباعًا بهدي رسول الله ﷺ وأعمق اثنين حبًا لرسول الله ﷺ وحرصًا على تتبع مواضع حبه ومواقع خطاه .

حفظ أبو بكر رضي الله عنه عن صاحبه ﷺ ما أراده في أمر أسامة، فكان أول عمل له بعد توليه الخلافة هو إنفاذه بعث أسامة على رأس الجيش الذي أعده رسول الله ﷺ وسار يودعه بنفسه إلى ظاهر المدينة، أسامة راكب وأبو بكر الخليفة راجل، فيستحي أسامة الفتى الحدث أن يركب والخليفة الشيخ يمشي . فيقول : " يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن " فيقسم الخليفة : والله لا تنزل، ووالله لا أركب " وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة؟

ثم يرى أبو بكر أنه في حاجة إلى عمر، وقد حمل عبء الخلافة الثقيل، ولكن عمر إنما هو جندي في جيش أسامة، وأسامة هو الأمير، فلا بد من استئذانه فيه، فإذا الخليفة يقول: " إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل " . . يا لله ! إن رأيت أن تعينني فافعل. . إنها آفاق عوالٍ، لا يرقى إليها الناس إلا بإرادة الله ، على يدي رسول من عند الله !"[٣] .

٣- بذله في سبيل الله تعالى :

بَـذْلُ أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - في سبيل الله من الأمور المستفاضة والتي تحدث عنها القرآن الكريم والسُّنَّة والتاريخ، فقد كان - رضي الله عنه - من أصحاب السعة والفضل كما سماه القرآن الكريم، ومن ذلك :

---

(١) العدالة الاجتماعية : سيد قطب ص ١٦٩-١٧٠ .

(٢) هو: أسامة بن زيد بن حارثة ، صحابي ابن صحابي ،ولد بمكة ونشأ على الإسلام كان يحبه الرسول ﷺ ١٧ حبًا جمًا ،أمره النبي قبل العشرين من عمره ، توفي سنة ٥٤هـ،بالمدينة ، انظر :سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٤٢ والأعلام ١/ ٢٩١ .

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٢٩ وينظر أيضًا : ١/ ٣٣١، ٣/ ١٦٢٩ .

* شراؤه - رضي الله عنه - للموالي : الذين كانوا يعذبون في أول الإسلام وإعتاقهم، ليمنع بذلك تعذيبهم بهذا الإجراء ، وتمتنع فتنتهم عن دينهم، ولا يخفى ما في هذا الوضع من ميزة بالقياس إلى نشأة الدين الجديد [١] .

يقول سيد في ظلال قوله تعالى: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ [٢] : " ثبات وطمأنينة واستقامة، ثم أورد سيد - رحمه الله- روايات في أسماء من اعتقهم أبو بكر- رضي الله عنه - من الموالي والعبيد، وكان يريد ما يريد لله، فعندما قال له أبوه: يا بني إني أراك تعتق رقابًا ضعافًا ، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالًا جُلدًا يمنعونك ويقومون دونك ! فقال له أبو بكر - رضي الله عنه -: يا أبت إني إنما أريد ما أريد لله. . .

لقد كان- رضي الله عنه - يقتحم العقبة وهو يعتق هذه الرقاب العانية لله، وكانت الملابسات الحاضرة في البيئة تجعل هذا العمل يذكر في مقدمة الخطوات والوثبات لاقتحام العقبة في سبيل الله"[٣] .

" بل إنه- رضي الله عنه - أسلم وله أربعون ألف درهم مدخرة بمكة من ربح تجارته فأنفقها في شراء الموالي،حتى أنه هاجر إلى المدينة وليس له إلا خمسة آلاف درهم"[٤].

إنفاقه على المحتاجين من الفقراء والمهاجرين :

ومن ذلك ما جاء في سورة النور في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٥]، يقول سيد - رحمه الله- : " نزلت في أبي بكر - رضي الله عنه - بعد نزول القرآن ببراءة الصديقة، وقد عرف أن مسطح بن أثاثه كان ممن خاضوا فيه، وهو قريبه، وهو من فقراء المهاجرين، وكان

---

(١) المصدر السابق ٥/ ٣١٤٣ .

(٢) سورة البلد،الآية :١١-١٣.

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩١٢-٣٩١٣ بتصرف يسير .

(٤) العدالة الاجتماعية : ص ١٥٠ .

(٥) سورة النور : الآية ٢٢ .

أبو بكر - رضي الله عنه - ينفق عليه، فآلى على نفسه لا ينفع مسطحًا بنافعة أبدًا .

فنزلت هذه الآية تذكر أبا بكر ، وتذكر المؤمنين ، بأنهم هم يخطئون ثم يحبون من الله أن يغفر لهم، فليأخذوا أنفسهم بعضهم مع بعض بهذا الذي يحبونه ، ولا يحلفوا أن يمنعوا البر عن مستحقيه ، وإن كانوا قد أخطئوا وأساءوا .

وهنا نطلع على أفق عال من آفاق النفوس الزكية ، التي تطهرت بنور الله، أفق يشرق في نفس أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أبي بكر الذي مسه حديث الإفك في أعماق قلبه ، والذي احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه، وما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو، وما يكاد يلمس وجدانيه ذلك السؤال الموحي : " ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟ " حتى يرتفع على الآلام ، ويرتفع على مشاعر الإنسان ، ويرتفع على منطق البيئة، وحتى تشف روحه وترف وتشرق بنور الله، فإذا هو يلبي داعي الله في طمأنينة وصدق يقول : بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، ويعيد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه ، ويحلف : والله لا أنزعها منه أبدًا، ذلك في مقابل ما حلف : والله لا أنفعه بنافعة أبدًا .

بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير ، ويغسله من أوضار المعركة ، ليبقى أبدًا نظيفًا طاهرًا زكيًا مشرقًا بالنور "[1] .

٤- رقته وتحرجه وحساسيته :

كان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - رجلًا رقيقًا رحيمًا شديد الحساسية والتأثير، فما أن يسمع الآية من القرآن الكريم حتى تأخذ منه مأخذًا، وقد جاءت روايات متعددة فيها إشارة إلى هذه الصفة من صفات الصديق - رضي الله عنه - منها :

- لما نزل قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾[2]. قال أبو بكر - رضي الله عنه - : " يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية ؟ فكل سوء عملناه جزينا به، فقال النبي ﷺ " غفر الله لك يا أبا بكر . ألست

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٠٤-٢٥٠٥ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٢٣ .

تمرض ؟ ألست تنصب ؟ ألست تحزن ؟ ألست تصيبك اللأواء ؟ " قال بلى ! قال : " فهو مما تجزون به " ، وفي رواية : " أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فإنكم تجزون بذلك في الدنيا ، حتى تلقوا الله ليس لكم ذنوب، وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة "[(١)]،[(٢)] .

- ومن ذلك أيضًا ما جاء في الصحيح :" كاد الخيران أن يهلكا ، أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - رفعا أصواتهما عند النبي - ﷺ - حين قدم عليه ركب بني تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس وأشار الآخر بالقعقاع بن معبد، فقال : أبو بكر لعمر - رضي الله عنهما - ما أردت إلا خلافي، قال : ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾[(٣)] قال فما كان عمر - رضي الله عنه - يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه !.. وأما أبو بكر - رضي الله عنه - فقال : يا رسول الله ، والله لا أكلمك إلا كأخي السرار "يعني كالهمس ! "[(٤)]،[(٥)].

- ومن ذلك بكاؤه - رضي الله عنه - مع النبي ﷺ لما نزلت الآية في شان الأسرى حين استشاره النبي ﷺ في شانهم فقال : يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدًا ، - واستشار عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فأشار بقتلهم - فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر فلما كان من الغد - قال عمر - فغدوت إلى النبيﷺ وأبي بكر وهما يبكيان ..الحديث " ، وفي رواية أن النبي ﷺ قال : " إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل

---

(١) رواه : أحمد ١/ ١١، والحاكم ٣/ ٧٤ وهو صحيح بشواهده وطرقه ، انظر :مسند أحمد بتحقيق الأرناؤوط ١/ ٢٣٠-٢٣٢ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٧٦٣ بتصرف يسير .
(٣) سورة الحجرات : الآية ٢ .
(٤) رواه: البخاري في كتاب الاعتصام باب ما يكره في التعمق والتنازع في العلم ٦/ ٢٦٦٢ برقم ٦٨١٢ .
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٣٩ بتصرف يسير .

إبراهيم -عليه السلام- قال: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(١)].

وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى -عليه السلام- : قال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[(٢)].

وإن مثلك يا عمر كمثل موسى - عليه السلام - قال: ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[(٣)]

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام قال: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[(٤)]،[(٥)]"[(٦)].

- ومنها قول عائشة - رضي الله عنها - للنبي ﷺ لما قال: مُروا أبا بكر فليصل بالناس، إن أبا بكر رجل أسيف، فإذا قام الناس لم يسمعوا صوته "[(٧)].

٥- تواضعه ولين جانبه - رضي الله عنه - ؛ وذكر سيد من ذلك :

* مشيه مع أسامة - رضي الله عنه - عند إنفاذ جيشه راجلا وأسامة راكبا وحلفه عليه ألاَّ ينزل[(٨)].

* إنكاره على بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - [(٩)] كلامهم في شأن أبي سفيان- رضي الله عنه - وإخباره للنبي ﷺ فقال له: يا أبا بكر لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك " فأتاهم أبو بكر - رضي الله عنه - فقال: يا اخوتاه

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٦.
(٢) سورة المائدة: الآية ١١٨.
(٣) سورة يونس: الآية ٨٨.
(٤) سورة نوح: الآية ٢٦.
(٥) رواه:احمد ١٠/ ٣٨٣ والترمذي برقم١٧١٤ وفي سنده ضعف ،انظر:المسند بتحقيق الأرناؤوط ٦/ ١٣٨ وضعيف سنن الترمذي للألباني ص ١٦٤ حديث رقم ١٧١٤.
(٦) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥١-١٥٥٢ بتصرف يسير.
(٧) العدالة الاجتماعية: ص ١٥٣ والقصة في.
(٨) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٢٩.
(٩) وهم سفيان وصهيب وبلال - رضي الله عنهم - مر بهم أبو سفيان فقالوا: ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها، فقال لهم أبو بكر: أتقولون هذا الشيخ قريش وسيدهم ..الحديث.

أغضبتكم؟ قالوا : لا يغفر الله لك "[١]، [٢].

*عندما سئل عن الكلالة قال : أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه : الكلالة من لا ولد له ولا والد[٣].

* " قوله رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر انطلق بنا إلى أم أيمن - رضي الله عنها - نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما أتيا إليها بكت، فقالا لها : ما يبكيك ؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ ؟ قالت : بلى ، إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسول ﷺ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء ، فجعلا يبكيان معها "[٤].

* تواضعه بعد توليه الخلافة: حيث بقي في سكنه في منزله الصغير المتواضع بالقرب من المدينة، وكان يمشي على قدميه إلى المدينة، وكان يعمل في التجارة حتى جعلوا له من بيت المال ما يكفيه ليتفرغ وكان يحلب للضعفاء أغنامهم[٥].

فهذه بعض النصوص التي ذكرها سيد - رحمه الله- عن مواقف وفضائل وصفات أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - باعتباره، كما يقول سيد - رحمه الله- واحدًا من الرجال العظام في الجيل الأول في حياة الرسول ﷺ "[٦].

ب- فضائل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وبعض صفاته :

أشار سيد قطب في مواطن كثيرة إلى فضائل وصفات عمر - رضي الله عنه - ومن ذلك .

١ - أنه هو وأبو بكر - رضي الله عنهما - أقرب اثنين لإدراك طبيعة هذا الدين :

وأشد اثنين انطباعًا بهدي رسول الله ﷺ ، وأعمق اثنين حبًا لرسول الله ﷺ

---

(١) سبق تخريجه ص ٩٤٩:
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١١٠٢ بتصرف يسير .
(٣) تفسير الطبري ،٣/ ٦٢٥-٦٢٦، وفي ظلال القرآن ٢/ ٥٩٤ .
(٤) رواه : مسلم في فضائل الصحابة ، باب فضائل أم أيمن ٤/ ١٥١٦ برقم ٢٤٥٤ .
(٥) العدالة الاجتماعية: ص ١٥٦ بتصرف.
(٦) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٤٤ .

وحرصًا على تتبع مواضع حبه ومواقع خطاه ، فكان من تدبير الله أن يليا الأمر بعد رسول الله ﷺ " [١] .

٢- ثباته وقوته في الحق :

والأمثلة في حياة عمر كثيرة جدًا، تبين مدى ثباته - رضي الله عنه - وصدق إيمانه وقوته في الحق وقد مر معنا في فضائل أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - مواقف كان عمر - رضي الله عنه - صاحبه فيها ومن ذلك :

* ثباته مع النبي ﷺ في احد، ورده على أبي سفيان يومذاك " [٢].

*وثباته يوم الجمعة مع أبي بكر والراسخين حين انصرف الناس إلى القافلة [٣].

* قوته أمام أهل الكفر والنفاق ومن ذلك موقفه يوم بدر في شأن الأسرى ، وتمثيل النبي ﷺله بموسى ونوح - عليهما السلام - في شدتهما على أهل الكفر [٤].

* موقفه يوم الحديبية في شأن الصلح ومعارضته لبنود الاتفاق ظنًا منه أن فيها تنازل لقريش ، ومراجعته لأبي بكر- رضي الله عنه - ولرسول الله ﷺ في ذلك غيرةً على الدين واعتزازًا به [٥].

*ضربه صبيغ بن عسل بعد حواره معه ،عندما وجده يسأل عن المتشابهات تعنتًا،حتى ذهب ما في رأسه [٦].

٣- بذله في سبيل الله :

حيث كان من السباقين إلى البذل بعد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - ومن ذلك : وقفه لأرضه التي بخيبر جاء في الصحيحين أن عمر- رضي الله عنه - قال : يا رسول الله، لم اصب مالًا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر فما تأمرني به ؟ قال :

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٨٢٩.
(٢) المصدر السابق ١/ ٤٦٢.
(٣) المصدر السابق ٦/ ٣٥٦٣.
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٥٥١-١٥٥٢.
(٥) المصدر السابق ٦/ ٣٣١٢.
(٦) المصدر السابق٦/ ٣٣٧٤.

احبس الأصل، وسبل الثمرة" [١] . [٢].

٤- خوفه وتأثره بالقرآن الكريم :

رغم ما عرف به عمر - رضي الله عنه - من القوة والشدة إلا أنه كان سريع التأثر بالقرآن الكريم والخوف من الله - سبحانه وتعالى - ومن ذلك :

* أنه خرج ذات ليلة يعس بالمدينة، فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائمًا يصلي، فوقف يستمع قراءته فقرأ: ﴿ وَالطُّورِ ۝١ ﴾حتى بلغ: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨ ﴾ فقال: قسم ورب الكعبة حق، فنزل عن حماره واستند إلى حائط فمكث مليًا، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهرًا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه رضي الله عنه [٣].

* خوفه لما قرأ قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾[٤]، حيث فزع وأتى أبيّ بن كعب فقال : يا أبا المنذر ، قرأت آية من كتاب الله ، من يَسلم؟ فقال : ما هي؟ ، فقرأها عليه فأينا لا يظلم نفسه؟ فقال : غفر الله لك! أما سمعت الله تعالى ذكره يقول : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ؟ إنما هو: ولم يلبسوا إيمانهم بشرك. [٥].

٥- وصية النبي ﷺ بالاقتداء بهدي أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - :

حيث أورد سيد - رحمه الله- قوله ﷺ :" إني لا أدري ما بقائي فيكم فاقتدوا بالذين من بعدي وأشار إلى أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما -" [٦]،[٧].

---

(١) رواه : مسلم في كتاب الوصية باب الوقف ٣/ ١٠١٦ برقم ١٦٣٢ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٢٥ ، والعدالة الاجتماعية ص ١٥٠ .
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٩٤ والقصة في
(٤) سورة الأنعام : الآية ٨٢ .
(٥) في ظلال القرآن ٢/ ١١٤٣ .
(٦) رواه : الترمذي في المناقب ٥/ ٥٦٩-٥٧٠ برقم ٣٦٦٢-٣٦٦٣ ، وابن ماجة وأحمد ٥/ ٣٨٢ في فضائل الصحابة برقم ٩٧ ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ٥٠٢ .
(٧) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٢٨ .

٦- سداد رأيه في كثير من القضايا التي اقترحها وموافقة القرآن الكريم له ومنها :

* إشارته بقتل الأسرى في بدر (١)

* قصة الحجاب وعرضه على النبي - ﷺ - حجب نسائه (٢).

٧-عدله وضبطه لعماله ووفاؤه :

حيث أشار سيد - رحمه الله- إلى عدد من المواقف التي تدل على عدل عمر في رعيته واهتمامه بهم وعلى محاسبته لعماله وأمره لهم بالوفاء (٣).

هذه بعض النصوص التي تبين موقف سيد - رحمه الله- من فضائل عمر - رضي الله عنه - في كتبه الأخيرة، أما في كتبه السابقة ومنها: العدالة الاجتماعية فقد تحدث كثيرًا عن عمر وذكر قصص وروايات عن ورعه وزهده وعدله وسياسته (٤).

جـ- فضائل عثمان - رضي الله عنه - :

وهنا ينبغي أن نقف قليلًا ونحن نعرض موقف سيد - رحمه الله- من عثمان - رضي الله عنه -، ذلك لأن سيد - رحمه الله- كما مر معنا سابقًا - تعرض لعثمان - رضي الله عنه - في بعض كتبه السابقة بكلام لا يليق انتقده عليه بعض أهل العلم المعاصرين له ، وعدل بعضه بعد فترة ، وإن كان لا يزال في كتابه " العدالة " ألفاظا تحتاج إلى حذف أو تعديل ، ومن العدل أن ننظر موقفه من عثمان - رضي الله عنه - في كتبه الأخيرة وعلى رأسها الظلال ، ويمكن بيان ذلك من خلال الأتي :

١- يذكر سيد قطب، عثمان - رضي الله عنه - مادحًا له في سياق ترتيبه الطبيعي بين الخلفاء الراشدين وهو يتحدث عن الرجال العظام في هذا الدين حيث يقول وهو يستعرض مقومات العرب عند مجيء الإسلام : " ولعل هذا بعض ما يفسر لنا وجود هذا الحشد من الرجال العظام في الصحابة في الجيل الأول في حياة الرسول - ﷺ - من أمثال : أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، ....وغيرهم من تلك العصبة التي تلقت

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥١ - ١٥٥٢ .

(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٨٧٧ .

(٣) ينظر المصدر السابق ١/ ٩٤، ٢٤٥، ٦/ ٣٨٢٩ .

(٤) ينظر العدالة الاجتماعية : ص ١٣٥، ١٣٩، ١٤١، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٦، ١٥٨، ١٧٢ .

الإسلام، فتفتحت له، وحملته، وكبرت به من غير شك وصلحت" [(١)].

ويذكر سيد – رحمه الله– أيضًا في كتاب " هذا الدين " نماذج من عدل أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – وتعاملهما مع الأمة، ويذكر بعض خطبهما ومواقفهما ويلحق بهما عثمان – رضي الله عنه – في السياق مادحًا له فيقول : " وكتب عثمان – رضي الله عنه – إلى جميع الأمصار كتابًا قال فيه : " إني آخذ عمالي بموافاتي كل موسم ، وقد سلطت الأمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلا يرفع علي شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته ، وليس لعمالي حق قبل الرعية لا متروك لهم ، وقدر رفع آليا أهل المدينة أن أقوامًا يشتمون ويضربون، فمن أدعي شيئًا من ذلك فليوافي الموسم ، يأخذ حقه حيث كان ، مني أو من عمالي أو تصدقوا فأن الله يجزي المتصدقين " [(٢)].

ويذكر أن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي – رضي الله عنهم – قائمة على أساس الاختيار المطلق [(٣)].

٢- يذكر مكانة عثمان عند الصحابة - رضوان الله عليهم – وعند غيرهم في صلح الحديبية ، حيث يورد سيد – رحمه الله– قول عمر رضي الله عنه – للنبي ﷺ لما دعاه ليرسله إلى قريش .. " ولكني أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان – رضي الله عنه –.. فدعاه الرسول ﷺ وأرسله إلى قريش ، ثم ذكر أن عثمان – رضي الله عنه – انطلق إلى قريش فأبلغهم رسالة النبي ﷺ ، وعرضوا عليه أن يطوف بالبيت إن شاء فأبى ، وقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ فاحتبسته قريش عندها ، وبلغ النبي ﷺ أنه قد قتل ... فقال ﷺ : " لا نبرح حتى نناجز القوم " ثم دعا المسلمين إلى البيعة فبايعوا تحت الشجرة ، .. وذكر الرواية التي فيها أن رسول الله ﷺ بايع لعثمان – رضي الله عنه – فضرب بإحدى يديه على الأخرى " [(٤)].

٣- إشادة سيد - رحمه الله- بعثمان – رضي الله عنه – وبذله وسخائه في غزوة العسرة حيث يقول : " ثم إن رسول الله ﷺ حض أهل الغنى على النفقة ... فحمل رجال من

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٤١ .
(٢) هذا الدين لسيد قطب ص ٨٤-٨٥ .
(٣) معركة الإسلام والرأسمالية ص ٧٣ .
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٠٦- ٣٣١٠ بتصرف .

أهل الغنى محتسبين عند الله ، وكان في مقدمة المنفقين المحتسبين ، عثمان بن عفان - رضي الله عنه - فأنفق نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها ، حيث روي أن عثمان - رضي الله عنه - أنفق في جيش العسرة في غزوة تبوك ألف دينار، فقال رسول الله ﷺ: "اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض "، وفي رواية : " خطب النبي ﷺ فحث على جيش العسرة ، فقال عثمان بن عفان : عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها. قال : ثم نزل مرقاة من المنبر، ثم حث، فقال عثمان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال : فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا يحركها - وأخرج الراوي يده كالمتعجب - : " ما على عثمان ما عمل بعد هذا " .وفي رواية :" ثلاث مرات وأنه التزم بثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها " [١]، [٢] .

٤ - دفاع سيد - رحمه الله - عن عثمان - رضي الله عنه - : ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾[٣] ، يقول سيد - رحمه الله- : " ويحدد صاحب " الكشاف " شخصه ، أنه عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ويذكر في ذلك قصة ، لا يستند فيها إلى شيء ، ولا يقبلها من يعرف عثمان - رضي الله عنه - وطبيعته وبذله الكثير الطويل في سبيل الله بلا توقف وبلا حساب كذلك ، وعقيدته في الله وتصوره لتبعة العمل وفرديته ، ثم يعلق في الهامش بقوله : " أي صاحب " الكشاف " وروي أن عثمان - رضي الله عنه - كان يعطي ماله في الخير فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح -وهو أخوه من الرضاعة- يوشك ألا تبقي لك شيئًا ، فقال عثمان : إن لي ذنوبًا وخطايا وإني اطلب بما أصنع رضى الله تعالى وأرجو عفوه ، فقال عبد الله : أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها! فأعطاه وأشهد عليه ، وأمسك عن العطاء فنزلت ! "، يقول سيد - رحمه الله- : " وهي رواية ظاهرة البطلان ، وما هكذا يتصور عثمان - رضي الله عنه - ! " [٤] .

---

(١) رواه : الترمذي في مناقب عثمان ٥/ ٥٨٤ برقم ٣٧٠٠ وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي ص ٤٢١ وضعيف المشكاة برقم ٦٠٦٣ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٢٣ - ١٧٢٤ بتصرف يسير .

(٣) سورة النجم : الآية ٣٣- ٣٤ .

(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤١٤ مع الهامش ، وينظر : الكشاف للزمخشري - دار إحياء التراث ط١ عام ١٢١٧هـ ٤/ ٤٢٧ .

٥- يذكر سيد - رحمه الله- أن عثمان - رضي الله عنه - سار سيرة النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر في عدم قبولهم لصدقة ثعلبة بن حاطب أحد المنافقين، ومع أن القصة باطلة إلا أنه يفهم من خلال سياقها مدح سيد لعثمان وأنه سار بسيرة من قبله ولم يخالفهم.

٦- تحدث سيد - رحمه الله- في مواضع من الظلال وغيره عن دور اليهود في التآمر على المجتمع المسلم في عهد عثمان - رضي الله عنه -، وعن الفتنة التي أشعلها اليهودي ابن سبأ في خلافة عثمان - رضي الله عنه - فقال: " والذي ألب العوام، وجمع الشراذم، وأطلق الشائعات، في فتنة مقتل عثمان - رضي الله عنه - وما تلاها من النكبات .. يهودي .. "[(١)].

وقال: " .. ثم تابع اليهود كيدهم للإسلام وأهله وكانوا عناصر أساسية في إثارة الفتنة الكبرى التي قتل فيها الخليفة الراشد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وانتثر بعدها شمل التجمع الإسلامي إلى حد كبير "[(٢)].

هذه لمحات من صورة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - في ظلال القرآن الكريم وكتب سيد - رحمه الله- الأخيرة، لعلها تعطينا صورة عن موقف سيد - رحمه الله- من عثمان بن عفان - رضي الله عنه - في كتبه الأخيرة مقارنة بما كتب عنه سابقًا.

د- فضائل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - :

ذكر سيد - رحمه الله- كثيرًا من فضائل ومواقف علي - رضي الله عنه - في كتبه السابقة كالعدالة الاجتماعية، وأشار في الظلال إلى بعض المواقف منها:

١- ذكره لعلي - رضي الله عنه - في الرجال العظام من الصحابة - رضوان الله عليهم- مع بقية الخلفاء الراشدين الأربعة بقوله " وهذا يفسر وجود هذا الحشد من الرجال العظام في الصحابة - رضوان الله عليهم - كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ... ".[(٣)]

٢- استشارة النبي ﷺ له في شأن عائشة - رضي الله عنها - في واقعة الإفك[(٤)] وإرساله

(١) معركتنا مع اليهود لسيد قطب ص ٣٣.
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٢٨، وينظر أيضًا: ٦/ ٣٥٥٧، وهذا الدين ص ٢٩.
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٤٤.
(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٤٩٦.

لإعلان ما تضمنته سورة براءة من المبادئ في حج العام التاسع الهجري [1] ،وفي ذلك دلالة على علو منزلته .

٣- سعة علمه - رضي الله عنه - حيث أورد سيد - رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴾ [2] أن عليًّا - رضي الله عنه - صعد منبر الكوفة فقال: " لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ولا عن سُنَّة عن رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك ، فقام أحدهم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴾؟ قال علي - رضي الله عنه - : الريح ، قال : ﴿ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴾ ؟ قال - رضي الله عنه - : " السحاب"، قال : ﴿ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴾ ؟ قال - رضي الله عنه - : السفن ، قال : ﴿ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ﴿٣﴾ ﴾؟ قال - رضي الله عنه - : الملائكة " [3].

٤-يشير سيد -رحمه الله- إلى دور اليهود في الفتنة الكبرى في عهد عثمان - رضي الله عنه - ويقول : " وكانوا - أي اليهود - رأس الفتنة في ما وقع بعد ذلك بين علي ومعاوية - رضي الله عنهما - " [4] . في إشارة إلى ابن سبأ وأتباعه ، وإن كان - سيد- يعتبر قتال علي - رضي الله عنه - لأهل الجمل وصفين فقال بغاة كون علي - رضي الله عنه - هو الإمام [5].

٥- كما أشار سيد - رحمه الله- إلى عظمة علي - رضي الله عنه - في ظلال تفسير قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [6] حيث ينقل عن علي - رضي الله عنه - قوله: " أرجوا أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ ﴾ [7].

هذا استعراض موجز لموقف سيد - رحمه الله- من الخلفاء الراشدين في كتبه الإسلامية الأخيرة وقد أشار فيها أيضًا إلى فضائل عدد من الصحابة - رضوان الله

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٥٩٨ .
(٢) سورة الذاريات : الآية ١ .
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٧٤ ، وقد نقله عن تفسير ابن كثير ٧/ ٣٣٠١ .
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٦٢٨ .
(٥) المصدر السابق ٦/ ٣٣٤٣ .
(٦) سورة الحجر : الآية ٤٧ .
(٧) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٩٢ ، والأثر رواه القرطبي .

عليهم - وأمهات المؤمنين . (١)

هـ - موقفه من معاوية وعمرو بن العاص - رضي الله عنهما - :

أفردت هذين الصحابيين - رضي الله عنهما - لننظر موقف سيد - رحمه الله- في كتبه الأخيرة منهما ، حيث وأكثر ما انتقد عليه من أخطاء في حق الصحابة - رضوان الله عنهم - كان فيهما وفي عثمان - رضي الله عنه - .

*أما موقفه النهائي من عثمان - رضي الله عنه - فقد سبق معنا قبل قليل .

* وأما موقفه من معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - فقد ذكر سيد - رحمه الله- معاوية بن أبي سفيان- رضي الله عنه- في الظلال في موضعين يفهم من سياقهما المدح والترضي عنه وهما :

١ - يقول سيد - رحمه الله- : " ولقد ترك القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ في نفوس المسلمين أثرًا قويًا وطابعًا عامًا في هذه الناحية - أي الوفاء بالعهد - ظل هو طابع التعامل الإسلامي الفردي والدولي المتميز.. روي أنه كان بين معاوية بن أبي سفيان وملك الروم أمد ، فسار إليهم في أخر الأجل، حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون، فقال له عمر بن عتبة : الله أكبر يا معاوية ، وفاء لا غدر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : " من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقده حتى ينقضي أمدها ، فرجع معاوية بالجيش " (٢).

٢- ذكر حديث معاوية - رضي الله عنه - قال : سمعت النبي ﷺ يقول " إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم " فقال أبو الدرداء - رضي الله عنه - كلمة سمعها معاوية - رضي الله عنه - من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها " (٣).

* أما عمرو بن العاص - رضي الله عنه - فإن سيدًا - رحمه الله- يذكره مترضيًا عنه ،

(١) ينظر كلامه في فضائل بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - فيما يأتي : فضائل أمهات المؤمنين : في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٠٤ ، ٢٨٥٨ ، ٢٨٥٩ ، ٢٨٦٢ ، ٢٦٧٥ ، ٣١٧١ ، وينظر أيضًا فضائل بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - في : في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥٠ ، ١٧٢٤ ، ١٧٢٥ ، ٥/ ٣٠٨٦ ، ٦/ ٣٨٠٧ ، ٣٨٢٧ ، ٣٨٣٠ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٩٢ - ٢١٩٣ .

(٣) المصدر السابق ٦/ ٣٣٤٦ ، والحديث رواه : أبو داود .

عند ذكره حديثًا عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - [(١)] في الرحمة .

ويصفه بأنه حاكم مسلم ، عندما تحدث عن استنقاذ الإسلام لأهل مصر من الذل ، وإطلاقهم من العبودية للبشر من الطواغيت الفراعنة ، ثم الرومان حيث يقول: " فلما أن ضرب ابن عمرو بن العاص - فاتح مصر وحاكمها المسلم - ظهر ابن قبطي من أهل مصر .. " [(٢)] .

ويقول عنه أيضًا : " وعمرو بن العاص هو فاتح هذا الإقليم - أي مصر - وأول أمير عليه من قِبَلِ الإسلام " [(٣)] .

هذه لمحة عن موقف سيد - رحمه الله - من الصحابة - رضوان الله عليهم - عمومًا ، وعن من تكلم فيهم في كتبه السابقة خصوصًا ، لعلها تصحح ما علق في كثير من الأذهان حول الموضوع مع إقرارنا بأن في كلام سيد - رحمه الله - بعد التعديل لكتابه العدالة الاجتماعية ألفاظًا الأولى أن تحذف .

أما ما يتعلق بمسألة بني أمية وبني العباس وكلام سيد - رحمه الله - في العدالة الاجتماعية والذي قد يفهمه بعضهم على أنه تكفير لهم فالذي يظهر أنه يقصد بقوله " وبذلك خرجت سياسة الحكم نهائيًا من دائرة الإسلام وتعاليم الإسلام .. وخرج الحكام نهائيًا من كل حدود الإسلام في المال " [(٤)] خروجهم عن تعاليم الإسلام فيما يتعلق بتوريث الحكم بدلًا من كونه حقًّا للأمة تختار خليفتها حسب الشروط الشرعية ، وكذلك صرف المال في غير أوجهه الشرعية بدليل قوله في الظلال : " ولقد حكم الإسلام في الجولة الأولى الأرض ألف ومائتي عام تقريبًا لم ينقطع فيها حكم شريعة الإسلام ، وقيام القيادة المسلمة على شريعة الله وسلطانه " [(٥)] .

فسيد - رحمه الله - يصرح في هذا النص ببقاء الحكام الأمويين والعباسيين

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١٠٥١ .
(٢) المصدر السابق ٣/ ١٣٦٤ .
(٣) هذا الدين ص ٨٦ .
(٤) العدالة الاجتماعية : ص ١٦٨ .
(٥) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٦٠ .

والعثمانيين أيضًا على الإسلام لأن الحاكمية العامة كانت للشريعة الإسلامية ، وإن حصل خروج عن بعض حدود الإسلام سواء في المال أو طريقة تولي الحكم بالوراثة ونحوها ، مما انتقده في العدالة الاجتماعية .



المبحث الرابع

منهجه في الإمامة والخلافة



الإمامة العظمى أو الخلافة ، منصب كبير ومسئولية عظمية ، وهي تولِّي تدبير أمور المسلمين ، وتعد الإمامة والخلافة من أهم المسائل الدينية ، لما لها من أثر كبير في حياة الناس ، ولذلك أهتم علماء أهل السُّنَّة والجماعة ببيان المنهج الذي ينبغًي أنً يسير عليه الناس في شأن الإمامة والخلافة ، وأدرجوه ضمن مباحث العقيدة التي يجب علمها والعمل بها .

ومناسبة إدراج مسألة الإمامة والخلافة ضمن المباحث المتعلقة بالنبوة هي: أنها امتداد لمهمة النبي ﷺ والمتمثلة في حماية الدين وسياسة الدنيا به ، وفي هذا المبحث نعرض منهج سيد قطب- رحمه الله- فيما يتعلق بمسألة الإمامة والخلافة .

ومعلوم أن سيدًا - رحمه الله- عاصر نهاية وسقوط الخلافة العثمانية آخر مظلة كانت تجمع المسلمين، وبسقوطها تغيرت الأحوال والأوضاع في العالم الإسلامي، الأمر الذي كان له الأثر البالغ ولا يزال على جميع جوانب الحياة الإسلامية.

وبيان منهج سيد قطب - رحمه الله- في هذه المسألة من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: أهمية الإمامة والخلافة.

المطلب الثاني: خصائص ومميزات نظام الحكم في الإسلام.

المطلب الثالث: الحاكم في النظام الإسلامي.

المطلب الرابع: مصدر السلطات في النظام الإسلامي.

المطلب الخامس: الشورى في النظام الإسلامي.

المطلب السادس: شبهات حول الحكم الإسلامي.

المطلب السابع: موقف سيد قطب من الأنظمة المعاصرة ومنهجه في التغيير.

المطلب الأول

أهمية الإمامة والخلافة



ركز المنهج القرآني كثيرًا على أهمية إيجاد الجماعة المسلمة ، التي تحمل الأمانة الكبرى – أمانة العقيدة – وأمانة الخلافة في الأرض باسم العقيدة .

كما ركز أيضًا على أعطاء الجماعة المسلمة خصائص الأمة المستخلفة ، وشخصيتها المستقلة ، بقبلتها وبشرائعها المهيمنة على ما قبلها من الشرائع ، ومنهجها الجامع الشامل المميز ، وقبل ذلك بتصورها الخاص للوجود والحياة ، ولحقيقة ارتباطها بربها ، ولوظيفتها في الأرض وما تقتضيه من تكاليف ، وتهيئتها للطاعة المطلقة للقيادة الإلهية المتمثلة في القرآن الكريم وتوجيهات النبي ﷺ وتلقي ذلك بالرضى والثقة واليقين والاستسلام [١] .

وقد بيَّن سيد قطب – رحمه الله– أهمية وجود الخلافة القائمة على الحق في أكثر من موضع ، ومن ذلك ما نقله عن المودودي في بيان أهمية الإمامة والخلافة الصالحة في الأرض حيث يقول: " وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الإنسانية، لا يخفى عليه أن المسألة – التي تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية وفسادها – إنما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومن بيده زمام أمرها، وذلك كما تشاهد في القطار أنه لا يجري إلا إلى الجهة التي يوجهه إليها سائقه ، وأنه لا بد للركاب أن يسافروا – طوعًا أو كرهًا – إلى تلك الجهة نفسها ، فكذلك لا يجري قطار المدنية الإنسانية إلا إلى جهة يوجهه إليها من بأيديهم زمام أمر تلك المدنية ، ومن الظاهر البين أن الإنسانية بمجموعها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تأبى السير على تلك الخطة التي رسمها لهم الذين بأيديهم وسائل الأرض وأسبابها طرًا ، ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمَّةِ الأمر، وبيدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الإنسانية ، وتتعلق بأذيالهم نفوس الجماهير وآمالهم ، وهم يملكون أدوات تكوين الأفكار

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٢٣ بتصرف .

والنظريات وصوغها في قوالب يحبونها ، وإليهم المرجع في تنشئة الطباع الفردية، وإنشاء النظام الجماعي، وتحديد القيم الخلقية ، فإذا كان هؤلاء الزعماء والقوّاد ممن يؤمنون بالله ويرجون حسابه ، فلا بد لنظام الحياة بأسره أن يسير على طريق من الخير والرشد والصلاح ، وأن يعود الخبثاء الأشرار إلى كنف الدين ويصلحوا شؤونهم ، وكذلك تنمو الحسنات ويزكو غراسها ، وأقل ما يكون من تأثير المجتمع في السيئات أنها لا تربو ، إن لم تمحق وتنقرض آثارها .

وأما إذا كانت هذه السلطة - سلطة الزعامة والقيادة والإمامة - بأيدي رجال انحرفوا عن الله ورسوله ، واتبعوا الشهوات ، وانغمسوا في الفجور والطغيان ، فلا محالة أن يسير نظام الحياة بقضه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء ، ويدب دبيب الفساد والفوضى في الأفكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والعمران والأخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمتها ، وتنمو السيئات ويستفحل أمرها . . .

إن أول ما يطالب به دين الله عباده، أن يدخلوا في عبودية الحق كافة مخلصين له الطاعة والانقياد حتى لا يبقى في أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير الله تعالى، ثم يتطلب منهم إلا يكون لحياتهم قانون إلا ما أنزله الله تعالى ، وجاء به الرسول الأمي الكريم ﷺ ثم إن الإسلام يطالبهم أن ينعدم من الأرض الفساد، وتستأصل شأفة السيئات والمنكرات الجالبة على العباد غضب الله تعالى وسخطه.

وهذه الغايات السامية لا يمكن أن يتحقق منها شيء ما دامت قيادة أبناء البشر وتسيير شؤونهم في الأرض بأيدي أئمة الكفر والضلال، ولا يكون من أمر أتباع الدين الحق وأنصاره إلا أن يستسلموا لأمر هؤلاء وينقادوا لجبروتهم ، يذكرون الله قابعين في زواياهم ، منقطعين عن الدنيا وشؤونها ، مغتنمين ما يتصدق به هؤلاء الجبابرة عليهم من المسامحات والضمانات! .

ومن هنا يظهر ما للإمامة الصالحة وإقامة نظام الحق من أهمية خطيرة تجعلها من غايات الدين وأسسه، والحق أن الإنسان لا يمكنه أن يبلغ رضى الله تعالى بأي عمل من أعماله إذا تناسى هذه الفريضة وتقاعس عن القيام بها . بالإضافة إلى ما جاء

في الكتاب والسُّنَّة من ذكر الجماعة ولزومها والسمع والطاعة ، حتى إن الإنسان ليستوجب القتل إذا خرج من الجماعة - ولو قيد شعره - وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ،وليس لذلك من سبب سوى أن غرض الدين الحقيقي وهدفه إنما هو إقامة نظام الحق ، والإمامة الراشدة وتوطيد دعائمه في الأرض ....

وما جعل الجهاد في أعلى المنازل في هذا الدين حتى أنه يحكم بالنفاق على من ينكلون عنه إلا لأنه سبيل لإقامة نظام الحق، ليس غيره ....

إن إقامة الإمامة الصالحة في أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الإسلام ، فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق ، لا ينتهي عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته في قالب الإسلام ، ولا تبرأ ذمته من ذلك فحسب ، بل يلزمه بمقتضى ذلك الإيمان أن يستنفد جميع قواه ومساعيه في انتزاع زمام الأمر من أيدي الكافرين والفجرة والظالمين حتى يتسلمه رجال ذوو صلاح ممن يتقون الله ، ويرجون حسابه ، ويقوم في الأرض ذلك النظام الحق المرضيّ عند الله الذي به صلاح أمور الدنيا وقوام شؤونها " (١) .

- كما بيَّن سيد -رحمه الله - أن وجود الإمامة والسلطة في الحياة الإسلامية ضرورة لإقامة منهج الله في الأرض ولتغليب الحق على الباطل ، والمعروف على المنكر، والخير على الشر، فلا بد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، ..وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان فإن " الأمر والنهي " لا يقوم بهما إلا ذو سلطان ... فلابد إذًا من سلطة تأمر وتنهى وتحقق منهج الله في حياة البشر، وتصون الحياة من الشر والفساد، وتحقق القيم الروحية والمادية على حدٍ سواء " (٢).

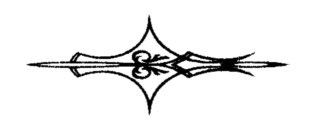
ويقول سيد أيضًا: " إن حياة الناس لا تصلح إلا بأن يتولى قيادتها المبصرون أولوا الألباب، الذين يعلمون ما أنزل من الحق ، ويدينون به لله وحده ، ويدفعون السوء

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٢٠-١٣٢١ بتصرف يسير ، وينظر أيضًا : فصل لابد للإسلام أن يحكم من كتاب معركة الإسلام والرأسمالية لسيد قطب ص ٥٦ وما بعدها ، والأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية للسيد أبي الأعلى المودودي .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٤٤، ٤٤٧ بتصرف ، ١/ ٦٠-٦١ .

والفساد في الأرض بالإصلاح والإحسان، و تسير على هدى الله وحده ، و تصوغ الحياة كلها وفق منهجه وهديه ، أما القيادات الضالة العمياء ، التي لا تعلم أن ما أنزل من الحق ولا تتبع منهج الله بل تتبع مناهج أخرى غيره كالشيوعية والرأسمالية والديمقراطية وغيرها من مناهج العمي ، التي شقيت بها البشرية في تاريخها كلها ولا تزال ، ولم تسعد الإنسانية إلا في ظل خلافة قائمة على منهج الله "[١].



(١)المصدر السابق ٤/ ٢٠٧٥-٢٠٧٦ بتصرف .

المطلب الثاني

خصائص ومميزات نظام الحكم في الإسلام



تحدث سيد قطب- رحمه الله-عن خصائص نظام الحكم في الإسلام التي تميزه عن سائر أنظمة الحكم في الحياة ، ومنها :

١ - ارتباطه بالعقيدة: فالعقيدة الإسلامية تتسع لتشمل كل نشاط الإنسان في كل حقول الحياة، فلا تقتصر على حقل دون حقل... إنها لا تدع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، إنها تتولى روح الفرد وجسده وشعائره وشرائعه وضميره وسلوكه، وتتولى الفرد والجماعة على السواء، سواء في الحياة الشخصية أو في نظام الحكم والعلاقات الدولية.

فكل أنظمة الحياة في الإسلام موصولة كلها بالعقيدة وجودًا وعدمًا، فالأحكام المختلفة في النظام الإسلامي منبثقة من المنهج الإلهي للحياة البشرية، ومرتبطة بأصول العقيدة التي ينبثق منها النظام الإسلامي. [١]

٢ - الشمولية والتكامل بين أجزائه التشريعية : فالنظام الإسلامي كل متكامل ، فلا تفهم حكمة الجزئيات التشريعية فيه حق فهمها إلا أن ينظر في طبيعة النظام وأصوله ومبادئه وضماناته، كذلك لا تصلح هذه الجزئيات في التطبيق إلا أن يؤخذ النظام كاملًا ، ويعمل به جملة ، أما اجتزاء بعض أحكامه أو مبادئه في ظل أنظمة أخرى غير إسلامية فلا جدوى منه ، والجزء المقتطع منه تطبيقًا للإسلام ، لأن الإسلام ليس أجزاء وتفاريق، إنما هو نظام متكامل يشمل تطبيقه كل جوانب الحياة [٢].

٣ - قيامة على الرضى والاختيار بين الحاكم والأمة : فنظام الحكم في الإسلام يقرر العلاقات بين الراعي والرعية على أساس من السلم والطمأنينة.. فالراعي لا يصل

---

(١) ينظر السلام العالمي والإسلام - سيد قطب - ص ٩-١٢ ، في ظلال القرآن ١/ ١٣٢، ٢٣٦ بتصرف، ٢/ ٨٩٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٨٢ بتصرف يسير .

إلى مكانه إلا عن طريق واحدٍ : رغبة الرعية المطلقة واختيارها الحر، لا يستبقي الراعي مكانه بين الرعية إلا عن طريق واحد : طاعة الله والعمل بشريعة الله ، وحكم يقوم على رضا واختيار بعد مشورة وإذن من الناس ولا يحكم إلا بما انزل الله ، حكم يشيع الثقة والطمأنينة في النفوس ويثبت الرضى والارتياح في القلوب فلا مجال للبرم به والضيق منه ، والتفكير في الخروج عليه ، ما دام ينهض بتبعاته بالطريقة التي رسمها الإسلام ، وفي الحدود التي شرعها الإسلام [١].

أما أكذوبة الاختيار الحر في النظم الديمقراطية وغير الإسلامية فسيأتي الحديث عنه عند الكلام عن موقف سيد من الأنظمة العلمانية .

٤- قيامة على مبدأ الشورى : فنظام الحكم في الإسلام يرتكز على مبدأ الشورى لقوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [٢]، وقوله تعالى﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [٣]، وإذا كانت الشريعة لم تحدد طريقة معينة للشورى ، فذلك متروك لحاجة العصر وضروراته ، وطريقة حياته ، ولكن المبدأ مقـرر والطريقة معينة ، ومن شأنها إشراك المسلمين في تدبير أمورهم ، فلا مجال إذن لان يسخطوا وهم شركاء في التدبير[٤].

٥- اشتماله على الضمانات القانونية التي تحقق العدل وتحميه : " حيث يستمد الحكم الإسلامي عدالته أول ما يستمد من عدالة القانون ذاته ، فهو ليس من صنع فرد ، ولا من صنع طائفة ، حتى تظن به الظنون ، ويخشى أن يميل مع الهوى ، أو يتلبس به الخطأ ، فيفوته تحقيق العدالة المطلقة ، أما عند التنفيذ فقد ناط الإسلام ذلك بوضوح القانون ، وبضمير القاضي ورقابة الجماعة ، وكل فرد في الجماعة الإسلامية منوط به هذه الرقابة ، منوط به أن يدفع الظلم حين يقع ، وأن ينبه الحاكم حين يطغى، والقاضي حين يخطئ ، وإنه ليبوء بالإثم حين يكتم الشهادة ، أو حين يقر الخطأ، ولا ينبه إليه إذ يراه .

والعدل الذي يطلبه الإسلام هو العدل المطلق الذي لا يتأثر بالمحبة والشنآن،

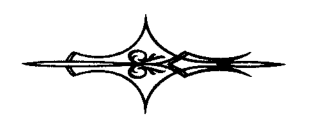
---

(١) السلام العالمي والإسلام – سيد قطب – ص ١٢٢ – ١٢٣ بتصرف يسير .
(٢) سورة الشورى : الآية ٣٨ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .
(٤) السلام العالمي والإسلام – سيد قطب – ص ١٢٣ .

ولا بالمال والجاه والحكام، والآيات في ذلك كثيرة جدًا، والنماذج من التاريخ الإسلامي لا تحصى (١).

كما تتوفر في نظام الحكم الإسلامي ضمانات الأمن والسلامة ،الأمن على الحياة والأنفس والدين، والأمن على الأموال والأعراض ، والأمن على الحقوق الشخصية كالعمل والمعيشة ونحوها ، فالعدل أساس النظام الإسلامي وهو الأمر الذي يجعل من النظام الإسلامي نظامًا عالميًا يملك الجميع الحياة في ظله دون تعب ولا اضطهاد (٢).

وقد أشار سيد إلى بعض هذه الخصائص إجمالًا بقوله : " تقوم نظرية الحكم في الإسلام على أساس شهادة أن لا اله إلا الله ، حيث يتقرر عليها أن الحاكمية في حياة البشر لله وحده ، ثم بعد التسليم بقاعدة الألوهية والحاكمية الواحدة تقوم على أساس العدل من الحكام ، والطاعة من المحكومين، والشورى بين الحاكم والمحكوم، وهي خطوط أساسية ترسم شكل الحكم وصورته في النظام الإسلامي" (٣) .



(١) المصدر السابق ص ١٢٦ وما بعدها بتصرف .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٠-١٤٢ بتصرف ، وينظر : في ظلال القرآن ١/ ١١٢ ، ٢/ ٦٨٨، ٨٧٣، ٨٨٢، ٨٩٠ .

(٣) العدالة الاجتماعية ص ٨٠ .

المطلب الثالث

الحاكم في النظام الإسلامي



أولًا: مواصفات الحاكم في النظام الإسلامي:

تحدث سيد قطب - رحمه الله- عمن يصلح أن يكون حاكمًا في النظام الإسلامي، وعن الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى الحكم ومنها:

١- الإسلام: فلابد فيمن يتولى أمر المسلمين أن يكون مسلمًا، يقول سيد - رحمه الله-: " فأما أولو الأمر، فالنص يعين من هم ﴿ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ أي من المؤمنين، الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحَدُّ الإسلام المبين في الآية . . من طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ وإفراد الله - سبحانه - بالحاكمية وحق التشريع للناس ابتداءً، والتلقي منه وحده - فيما نص عليه - والرجوع إليه أيضًا فيما تختلف فيه العقول والإفهام والآراء، مما لم يرد فيه نص، لتطبيق المبادئ العامة في النصوص "(١).

٢- الأهلية والصلاح: يقول سيد - رحمه الله-: " إن الإمامة لمن يستحقونها بالعمل والشعور، وبالصلاح والإيمان، وليست وراثة أصلاب وأنساب، والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معاني الإمامة: إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصلاة.. وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة، فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أية صورة من صورها. ومن ظَلَمَ - أي لون من الظلم - فقد جرَّد نفسه من حق الإمامة وأسقط حقه فيها، بكل معنى من معانيها "(٢).

٣- اختيار الأمة ورضاها: يقول سيد - رحمه الله- : " والأمة في النظام الإسلامي هي التي تختار الحاكم فتعطيه شرعية مزاولة الحكم بشريعة الله "(٣).

ويقول أيضًا: " والإمام هو الذي اختارته الأمة بعد ترشيح أهل الحل والعقد أو

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٦٩١ .
(٢) المصدر السابق ١/ ١١٢ .
(٣) المصدر السابق ٤/ ١٩٩٠ .

أهل الشورى له " [١] .

ويقول أيضًا: " والحاكم في الإسلام يتلقى الحكم من مصدر واحد ، هو إرادة المحكومين ، فالبيعة الاختيارية هي الطريقة الوحيدة لتلقي الحكم ، والواقع التاريخي قام على هذا المبدأ ، فخلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي قامت على أساس الاختيار المطلق ، ولا يتعارض هذا مع وصية أن تكون في واحد من ستة ، فقد كانت هذه نصيحة للمسلمين ، ولم تكن أمرًا واجبَ الطاعة ، ولو اختار المسلمون واحدًا غير الستة لاختاروا ، ولكن هؤلاء كانوا بالإجماع أصلح الجميع ، فاختاروا واحدًا منهم برضاهم وإذنهم ، لا بأمر عمر ووصايته .

لما عدل بنو أمية عن هذه القاعدة الإسلامية الأساسية في الحكم رده إليها الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز [٢]، رده إلى الأمة التي يجب أن تختار حكامها حرة طائعة مختارة ، حيث صعد المنبر وقال : يا أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وأني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم ، فقال الناس : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضيناك ، فلِ الأمر باليمن والبركة .وبذلك رد الأمر إلى نصابه في ولاية الأمر، فلا ولاية بغير شورى ورضى وقبول" [٣] .

ويقول أيضًا: " إن الراعي لا يصل إلى مكانه إلا عن طريق واحد: رغبة الرعية المطلقة، واختيارها الحر " [٤] .

ويقول: " والحاكم في الإسلام إنما يصبح حاكمًا باختيار المسلمين الكامل وحريتهم المطلقة لا يقيدهم عهد حاكم قبله، ولا وراثة كذلك في أسرة.. فإذا لم يرضه المسلمون لم تقم له ولاية " [٥] .

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٠٠٩ .

(٢) هو: عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي القرشي ، الخليفة الصالح ،ولد ونشا في المدينة ، ووليها للوليد ،ثم استوزره سليمان بالشام ،وولي الخلافة بعده ،ولقب بخامس الخلفاء الراشدين ، توفي سنة ١٠١هـ ،انظر : سير أعلام النبلاء ٥/ ١١٤ ،والأعلام ٥/ ٥٠ .

(٣) معركة الإسلام والرأسمالية ص ٧٣-٧٤ .

(٤) دراسات إسلامية ص ١٢٢ ، ومعركة الإسلام والرأسمالية ص ٧٢ .

(٥) العدالة الاجتماعية ص ٨٢ .

٤- أن يعترف ابتداءً بسلطان الله ويحكم بشريعته في الحياة: يقول سيد - رحمه الله-: " ولا يكون إمامًا حتى يعترف ابتداءً بسلطان الله، وبتحكيم شريعته، فالذي لا يحكم شريعة الله لا يقال له "إمامًا" إنما يقول عنه الله - سبحانه وتعالى - ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [١]، [٢]. ويقول سيد أيضًا: "والحاكم المسلم هو الذي يطبق شريعة الإسلام " [٣].

ثانيًا : وضعه للقانون ووظيفته :

يرى سيد - رحمه الله- أن الإمام أو الحاكم نائب عن الأمة، حيث يقول: " إن الأمة المسلمة بمجموعها مسؤولة عن إقامة منهج الله في الحياة، ومنع الفساد والمنكر، والقيام على الشريعة وحراستها وتنفيذها، والإمام نائب عن الأمة في هذا، وهذه الحدود تنحصر حقوق الأمة وسلطتها وكذا سلطة الإمام النائب عنها. [٤] ويقول أيضًا " والإسلام يقرر حق كل فرد في المجتمع المسلم في الحياة وفي الوسائل الضرورية لحفظ الحياة.. وعلى الدولة النائبة عن الجماعة - أن توفرها له " [٥].

ومن النصين السابقين نجد أن سيدًا - رحمه الله- يرى أن الحاكم أو الإمام يعتبر نائبًا عن الأمة والجماعة المسلمة في تحقيق منهج الله في الأرض، وأن الحكومة والدولة ووظيفتها ومهمتها النيابة عن مجموع الأمة في تحقيق خلافة الله في الأرض على منهاجه الذي جاء به رسول الله- ﷺ - في الكتاب والسُّنَّة.

ثالثًا : طاعة الحاكم وحدودها :

الأصل في هذه المسألة قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[٦].

(١) سورة المائدة: الآية ٤٤ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٩٤٩، وينظر أيضًا: ٤/ ٢٠٧٥-٢٠٧٦ .
(٣) المصدر السابق ٢/ ٨٧٤ .
(٤) المصدر السابق ٦/ ٣٥٢٥ بتصرف يسير .
(٥) المصدر السابق ٢/ ٨٨٢ .
(٦) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٢٥ بتصرف يسير .

يقول سيد – رحمه الله- : " وفي هذا النص القصير يبين الله – سبحانه – شرط الإيمان وحد الإسلام في الوقت الذي يبين فيه قاعدة النظام الأساسي في الجماعة المسلمة، وقاعدة الحكم ، ومصدر السلطان فالحاكمية لله وحده في حياة البشر، فيما سنة الله وشرعة في قرآنه وسنة رسول الله ﷺ . فطاعة الله واجبة ابتداءً بماله من الألوهية وحق التشريع ، وطاعة الرسول ﷺ واجبة أيضًا بماله من صفة الرسالة من الله ، فطاعته من طاعة الله ، والإيمان يتعلق – وجودًا وعدمًا – بهذه الطاعة وهذا التنفيذ بنص القرآن ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۚ ﴾ ، فأما أولي الأمر، فالنص يعين من هم ﴿ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ ﴾ أي من المؤمنين ، الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحد الإسلام المبين في الآية ،من طاعة الله وطاعة الرسول، وإفراد الله – سبحانه – بالحاكمية وحق التشريع للناس ابتداء .

والنص يجعل طاعة الله أصلًا، وطاعة رسوله أصلًا كذلك – بما أنه مرسل منه- ويجعل طاعة أولي الأمر﴿ مِنكُمْ ﴾ تبعًا لطاعة الله وطاعة رسوله ، فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهـم ، كما كـررها عند ذكر الرسول- ﷺ - ليقرر أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله وطاعة رسوله بعد أن قرر أنهم "منكم" بقيد الإيمان وشرطه..

وطاعة أولي الأمر﴿ مِنكُمْ ﴾ بعد هذه التقريرات كلها ، في حدود المعروف المشروع من الله ، والذي لم يرد نص بحرمته ، ولا يكون من المحرم عندما يرد إلى مبادئ الشريعة عند الاختلاف فيه ، والسُّنَّة تقرر حدود هذه الطاعة ، على وجه الجزم واليقين :

– في الصحيحين قال- ﷺ -: " إنما الطاعة في المعروف " [(١)]، وقال ﷺ : " السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة " [(٢)] . وفي رواية: " ولو استعمل عليكم عبد، يقودكم بكتاب الله، اسمعوا له وأطيعوا " [(٣)] .

(١) رواه : البخاري في المغازي باب سرية عبد الله بن جحش ٤/ ١٥٧٨ برقم ٤٠٨٥ .
(٢) رواه : البخاري في الأحكام باب السمع والطاعة للإمام ٦/ ٢٦١٢ برقم ٦٧٢٥ ، ومسلم في الإمارة ٣/ ١١٦٧ برقم ١٨٣٩ .
(٣) المصدرين السابقين نفسهما .

بهذا يجعل الإسلام كل فرد أمينًا على شريعة الله وسُنَّة رسوله ﷺ وعلى إيمانه هو ودينه ونفسه وعقله أمينًا على مصيره في الدنيا والآخرة ، ولا يجعله بهيمة في القطيع تزجر من هنا أو من هنا فتسمع وتطيع، فالمنهج واضح ، وحدود الطاعة واضحة، والشريعة التي تطاع والسُّنَّة التي تتبع واحدة لا تتعدد ولا تتفرق ، ولا يتوه فيها الفرد بين الظنون! "[١] .

وفي ظلال قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾[٢] " يقول سيد : وهذا الشرط أحد قواعد الدستور في الإسلام ، وهو يقرر أن لا طاعة على الرعية لإمام أو حاكم إلا في المعروف الذي يتفق مع دين الله وشريعته ، وأنها ليست طاعة مطلقة لولي الأمر في كل أمر ، وهي القاعدة التي تجعل قوة التشريع مستمدة من شريعة الله لا من إرادة إمام ولا من إرادة أمة إذا خالفت شريعة الله ، فالإمام والأمة كلاهما محكوم بشريعة الله ، ومنها يستمدان السلطان "[٣] .

ويقول أيضًا : " والحاكم الإسلامي يتلقى الطاعة بعد توليه من قيامه على تنفيذ الشريعة فقد سقطت طاعته عليهم ، بقول صاحب هذا الدين ﷺ " اسمعوا وأطيعوا، وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة – ما أقام فيكم كتاب الله تعالى" [٤]، فليس هي الطاعة المطلقة لإرادة الحاكم ، وليس هي الطاعة الدائمة لو ترك شريعة الله ورسوله "[٥] .

ومن خلال النصوص السابقة نجد :

١ – أن سيدًا – رحمه الله– يجعل طاعة الحاكم وولي الأمر واجبة بشرط أن يكون مسلمًا لقوله تعالى: ﴿ مِنكُمْ ﴾ أي من المؤمنين .

٢ – أن طاعة ولي الأمر مستمدة من طاعته هو لله ورسوله وتنفيذه لشريعة الله

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٦٩٠-٦٩١ بتصرف يسير .
(٢) سورة الممتحنة : الآية ١٢ .
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٤٨ .
(٤) رواه : البخاري في الأحكام ٦/ ٢٦١٢ برقم ٦٧٢٣ ، ومسلم في الإمارة ٣/ ١١٦٧ برقم ١٢٩٨ واللفظ له .
(٥) معركة الإسلام والرأسمالية ص ٧٤ ، العدالة الاجتماعية ص ٨١-٨٢ .

وحكمه بها ، فإذا لم يقم بذلك فلا طاعة له ، فطاعته موقوتة بتنفيذه للشريعة .

٣- أن الطاعة له تكون في المعروف ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

بالإضافة إلى طاعة الحاكم فإن له على الرعية أيضًا حق النصح له ، والمعونة على إقامة الشريعة ، وليس له حقوق أخرى وراء ذلك إلا ما لأحدِ المسلمين [1] .

رابعًا : الخروج على الحاكم المسلم :

يقرر سيد أنه إذا كان الحاكم مسلمًا يحكم بشريعة الله ، فعندئذ يجب على الأمة طاعته - كما سبق - ولا يجوز الخروج عليه ويعتبر الخارج على الإمام المسلم باغيًا مجرمًا محاربًا لله رسوله ، ويجب على المسلمين قتاله .

وفي ذلك يقول سيد : " إن أمن الجماعة المسلمة في دار الإسلام ، وصيانة النظام العام الذي تستمتع في ظله بالأمان ، وتزاول نشاطها الخير في طمأنينة ، ذلك كله ضروري كأمن الأفراد، والذي يهدد أمن المجتمع هو عنصر خبيث يجب استئصاله، ما لم يثب إلى الرشد والصواب ، والشريعة قررت عقوبة هذا العنصر الخبيث هو ما يعرف بـ"بحد الحرابة "، قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [2] . وحدود هذه الجريمة التي ورد فيها هذا النص ، هي الخروج على الإمام المسلم الذي يحكم بشريعة الله والتجمع في شكل عصابة ، خارجة على سلطان هذا الإمام ، تروع أهل دار الإسلام، وتعتدي على أرواحهم وأموالهم وحرماتهم ، ويشترط بعض الفقهاء أن يكون ذلك خارج المصر بعيدًا عن مدى سلطان الإمام ، ويرى بعضهم أن مجرد تجمع مثل هذه العصابة وأخذها في الاعتداء على أهل دار الإسلام بالقوة ، يجعل النص منطبقًا عليها ، سواء خارج المصر أو داخلة . وهذا هو الأقرب للواقع العملي ومجابهته بما يستحقه.

(١) العدالة الاجتماعية ص ٨٣ بتصرف .
(٢) سورة المائدة : الآية ٣٣ .

وهؤلاء الخارجون على حاكم يحكم بشريعة الله، المعتدون على أهل دار الإسلام المقيمين للشريعة - سواء كانوا مسلمين أو ذميين أو مستأمنين بعهد - لا يحاربون الحاكم وحده ، ولا يحاربون الناس وحدهم ، إنما هم يحاربون الله ورسوله حينما يحاربون شريعته ، ويعتدون على الأمة القائمة على هذه الشريعة ، ويهددون دار الإسلام المحكومة بهذه الشريعة . كما أنهم بحربهم لله ورسوله، وحربهم لشريعته وللأمة القائمة عليها وللدار التي تطبقها، يسعون في الأرض فسادًا.. فليس هناك فساد أشنع من محاولة تعطيل شريعة الله، وترويع الدار التي تقام فيها هذه الشريعة.

إنهم يحاربون الله ورسوله ... وإن كانوا إنما يحاربون الجماعة المسلمة والإمام المسلم.

* كما أن للنص - في صورته هذه - مفهومًا آخر متعينًا كهذا المفهوم - هو أن السلطان الذي يحق له - بأمر الله - أن يأخذ الخارجين عليه بهذه العقوبات المقررة لهذه الجريمة ، هو السلطان الذي يقوم على شريعة الله ورسوله ، في دار الإسلام المحكومة بشريعة الله ورسوله ، وليس أي سلطان آخر لا تتوافر له هذه الصفة ، في أية دار أخرى لا يتوافر لها هذا الوصف .

نقرر هذا بوضوح ، لأن بعض أذناب السلطة في كل زمان ، كانوا يفتون لحكام لا يستمدون سلطانهم من شريعة الله ولا يقومون على تنفيذ هذه الشريعة ، ولا يحققون وجود دار الإسلام في بلادهم ، ولو زعموا أنهم مسلمون . . كانوا يفتون لهم بأن يأخذوا الخارجين عليهم بهذه العقوبات - باسم شريعة الله - بينما كان هؤلاء الخارجون لا يحاربون الله ورسوله ، بل يحاربون سلطة خارجة على الله ورسوله.. إنه ليس لسلطة لا تقوم على شريعة الله في دار الإسلام، أن تأخذ الخارجين عليها باسم شريعة الله، وما لمثل هذه السلطة وشريعة الله ؟ إنها تغتصب حق الألوهية وتدعيه، فما لها تتحكك بقانون الله وتدعيه؟! .

إنما هذا جزاء أفراد العصابات المسلحة التي تخرج على سلطان الإمام المسلم المقيم لشريعة الله "[1]، ثم ذكر سيد - رحمه الله- كلام الفقهاء في عقوبة الخارجين

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٧٨-٨٧٩ بتصرف يسير .

على سلطان الإمام المسلم وماذا يوقع بهم الإمام المسلم من أنواع العقوبات المذكورة في الآية ، حيث اختار رأي الإمام مالك - رحمه الله- في أن العقوبة توقع على مجرد الخروج وإخافة السبيل ، باعتبار هذا إجراء وقائي المقصود منه أولاً منع وقوع الجريمة ، والتغليظ على المفسدين في الأرض، الذين يروعون الجماعة المسلمة القائمة على شريعة الله في هذه الدار الأجدر بالأمن والطمأنينة والإسلام .. وذلك أن الجماعة المسلمة في دار الإسلام يجب أن تعيش آمنة، وأن السلطة المسلمة القائمة على شريعة الله يجب أن تكون مطاعة "[١] .

*وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآيِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ ﴾[٢] .

يقول سيد - رحمه الله- : " من مستلزمات الإخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة ، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه، وأن يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليردوهم إلى الصف ، وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة ، وهو إجراء صارم وحازم كذلك .

ومن مقتضيات هذه القاعدة كذلك ألا يجهز على جريح في معارك التحكيم هذه، وألا يقتل أسير ، وألا يتعقب مدبر ترك المعركة ، وألقى السلاح ، ولا تؤخذ أموال البغاة غنيمة ، لأن الغرض من قتالهم ليس هو القضاء عليهم ، وإنما هو ردهم إلى الصف ، وضمهم إلى لواء الأخوة الإسلامية .

والأصل في نظام الأمة المسلمة أن يكون للمسلمين في أنحاء الأرض إمامة واحدة، وأنه إذا بويع لإمام، وجب قتل الثاني، واعتباره ومن معه فئة باغية يقاتلها المؤمنون مع الإمام. وعلى هذا الأصل قام الإمام علي - رضي الله عنه - بقتال البغاة في وقعة الجمل وفي وقعة صفين، وقام معه بقتالهم أجلاَّءُ الصحابة رضوان الله عليهم، وتخلف بعضهم عن المعركة إما لأنهم لم يتبينوا وجه الحق في الموقف في حينه فاعتبروها فتنة،

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٨٧٩- ٨٨٠ .
(٢) سورة الحجرات : الآية ٩ .

وإما لأنهم كما يقول الإمام الجصاص " ربما رأوا الإمام مكتفيًا بمن معه مستغنيًا عنهم بأصحابه فاستجازوا القعود عنه لذلك " والاحتمال الأول أرجح.

ومع قيام هذا الأصل فإن النص القرآني يمكن إعماله في جميع الحالات - بما في ذلك الحالات الاستثنائية التي يقوم فيها إمامان أو أكثر في أقطار متفرقة متباعدة بين بلاد المسلمين ، وهي حالة ضرورة واستثناء من القاعدة - فواجب المسلمين أن يحاربوا البغاة مع الإمام الواحد ، إذا خرج هؤلاء البغاة عليه ، أو إذا بغت طائفة على طائفة في إمامته دون خروج عليه .

وواجب المسلمين كذلك أن يقاتلوا البغاة إذا تمثلوا في إحدى الإمامات المتعددة في حالات التعدد الاستثنائية ، بتجمعهم ضد الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله ، وهكذا يعمل النص القرآني في جميع الظروف والأحوال[1].

ويوضح سيد - رحمه الله - أن الخروج على الحاكم المسلم الذي يعترف ابتداءً بسلطان الله وحاكمية شريعته لا يجوز وإن وجد منه ظلم أو طغيان في بعض الأحيان، فيقول: " كل النصوص القرآنية والنبوية التي ورد فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانت تتحدث عن واجب المسلم في مجتمع مسلم ، مجتمع يعترف ابتداءً بسلطان الله ، ويتحاكم إلى شريعته ، مهما وجد فيه من طغيان الحكم ، في بعض الأحيان ، ومن شيوع الإثم في بعض الأحيان.. وهكذا نجد في قول الرسول ﷺ : " أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر " [2].

فهو " إمام " ولا يكون إمامًا حتى يعترف ابتداءً بسلطان الله، وبتحكيم شريعته، فالذي لا يحكم شريعة الله لا يقال له : " إمام " إنما يقول عنه الله - سبحانه -: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [3]، [4].

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٤٣-٣٣٤٤ بتصرف .

(٢) رواه : أبو داود في الملاحم ٤/ ٥١٤ برقم ٤٣٤٤ ، والترمذي في الفتن ٤/ ٤٠٩ برقم ٢١٧٤ وابن ماجة في الفتن ٤/ ٦٢٨ برقم ٤٠١١ وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢/ ٤٦٢ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٤٤ .

(٤) في ظلال القرآن ٢/ ٩٤٩ بتصرف يسير .

المطلب الرابع

مصدر السلطات في النظام الإسلامي

يقصد بمصدر السلطات : الجهة التي تملك سلطة وضع التشريعات والقوانين والأحكام التي يسير البشر علي وفقها ، في جميع جوانب الحياة .

وقد تكلم سيد قطب عن مصدر السلطات في نظام الحكم الإسلامي، والأنظمة الوضعية المختلفة في مواطن متفرقة يمكن إجمال كلامه في النقاط الآتية:

أولًا : اهتمام القرآن الكريم بتحديد مصدر السلطة :

تعتبر مسألة مصدر السلطات من قضايا العقيدة والمنهج الإسلامي ، ونظام الحكم والحياة في الإسلام ، يقول سيد - رحمه الله- : " تحدث القرآن الكريم عن نظام الحكم والحياة بشكل محدد وبنصوص وعبارات واضحة ، حيث ربط القرآن الكريم بين ذلك وبين الألوهية والتوحيد والإيمان، فقضية الحكم والشريعة والتقاضي - ومن ورائها قضية الألوهية والتوحيد والإيمان - تتلخص في الإجابة على هذا السؤال :

أيكون الحكم والشريعة والتقاضي حسب مواثيق الله وعقوده وشرائعه التي استحفظ عليها أصحاب الديانات السماوية واحدة بعد الأخرى، وكتبها على الرسل ، وعلى من يتولون الأمر بعدهم ليسيروا على هداهم ؟ أم يكون ذلك كله للأهواء المتقلبة ، والمصالح التي لا ترجع إلى أصل ثابت من شرع الله والعرف الذي يصطلح عليه جيل أو أجيال ؟ وبتعبير آخر : أتكون الألوهية والربوبية والقوامة لله في الأرض وفي حياة الناس؟ أم تكون كلها أو بعضها لأحد من خلقه يشرع للناس ما لم يأذن به الله ؟ الله - سبحانه - يقول : إنه هو الله لا إله إلا هو، وإن شرائعه التي سنها للناس بمقتضى ألوهيته لهم وعبوديتهم له ، وعاهدهم عليها وعلى القيام بها، هي التي يجب أن تحكم هذه الأرض ، وهي التي يجب أن يتحاكم ، إليها الناس وهي التي يجب أن يقضي بها الأنبياء ومن بعدهم من الحكام . .

والله - سبحانه - يقول : إنه لا هوادة في هذا الأمر ، ولا ترخص في شيء منه، ولا انحراف عن جانب ولو صغير، وإنه لا عبرة بما تواضع عليه جيل ، أو لما اصطلح عليه قبيل ، مما لم يأذن به الله في قليل ولا كثير!، والله - سبحانه - يقول : إن المسألة - في هذا كله - مسألة إيمان أو كفر، أو إسلام أو جاهلية، وشرع أو هوى. وأنه لا وسط في هذا الأمر ولا هدنة ولا صلح! "[١].

ففي قول الله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾[٢] بيان قاعدة النظام الأساسي في الجماعة المسلمة، وقاعدة الحكم ، ومصدر السلطان.. وكلها تبدأ وتنتهي عند التلقي من الله وحده، والرجوع إليه فيما لم ينص عليه نصًا من جزيئات الحياة التي تعرض في حياة الناس على مدى الأجيال، مما تختلف فيه العقول والآراء والأفهام.. ليكون هنالك الميزان الثابت ، الذي ترجع إليه العقول والآراء والأفهام![٣].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾[٤]، تتمثل النظرية الدستورية الإسلامية ، فسلطان القانون في الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول ﷺ قرآنًا أو سُنَّة .

والأمة كلها والإمام معها لا تملك أن تخالف عما جاء به الرسول، فإذا شرعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا سلطان، لأنه فقد السند الأول الذي يستمد منه السلطان.. وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية ، بما فيها تلك التي تجعل الأمة مصدر السلطات، بمعنى أن للأمة أن تشرع لنفسها ما تشاء ، وكل ما تشاء ، وكل ما تشرعه فهو ذو سلطان .

فمصدر السلطات في الإسلام هو شرع الله الذي جاء به الرسول ﷺ والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها والإمام نائب عن الأمة في هذا وفي هذا تنحصر حقوق الأمة . فليس لها أن تخالف عما آتاها الرسول في أي تشريع[٥].

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٨٨ بتصرف يسير ، ٢/ ٨٩١ .
(٢) آل عمران : الآية ١٣٢ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٦٩٠ .
(٤) سورة الحشر : الآية ٧ .
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٢٥ وينظر أيضًا : ٦/ ٣٥٤٨ ، والسلام العالمي والرأسمالية ص ٦٢ .

ويبين سيد – رحمه الله– أهمية تحديد مصدر السلطة باعتباره الميزان الذي يحكم حياة البشر، فيقول: " فلا بد من ميزان ثابت نرجع إليه بالأعمال، ولا بد من قيم معترف بها نقيس إليها المعروف والمنكر، فمن أين نستمد هذه القيم؟ ومن أين نأتي بهذا الميزان؟ من تقديرات الناس وعرفهم وأهوائهم وشهواتهم وهي متقلبة لا تثبت على حال؟ إننا ننتهي إذن إلى متاهة لا دليل فيها، وإلى خضم لا معالم فيه! فلابد ابتداء من إقامة الميزان.. ولا بد أن يكون هذا الميزان ثابتًا لا يتأرجح مع الأهواء ،هذا الميزان الثابت هو ميزان الله.. فلابد من اعتراف بسلطان الله ومنهجه للحياة ابتداءً وعلى هذا الأساس يقام بعد ذلك البنيان" [1].

ويوضح سيد – رحمه الله– أن تشدد القرآن الكريم في مسألة مصدر السلطة على النحو الذي سبق وجعلها مسألة إيمان أو كفر يعود إلى أسباب منها:

١- أن مقتضى الإيمان بربوبية الله وأُلوهيته –سبحانه– هو إفراده بحق السلطان والحاكمية والتشريع ، باعتباره– سبحانه –وحده هو الخالق الرازق المالك للوجود وبالتالي يجب أن يكون هو صاحب السلطان في حياة البشر .

٢- الأفضلية الحتمية المقطوع بها لشريعة الله على شرائع الناس، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [2]، والاعتراف بهذه الأفضلية هو أساس الإيمان، وإعطاء حق التشريع والسلطان لغير الله لا يستقيم مع دعوى الإيمان و الإسلام " [3].

" فمظهر الإيمان الأول بالله هو استمداد الأنظمة من منهجه وشريعته ، ولا إيمان بغير هذه القاعدة الكبيرة " [4].

٣- أن جعل مصدر السلطة لغير الله هو أبرز مظاهر الجاهلية، يقول سيد – رحمه الله–: " والجاهلية حالة توجد كلما وجدت مقوماتها في وضع أو نظام.. وهي في صميمها الرجوع بالحكم والتشريع إلى أهواء البشر ، لا إلى منهج الله

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٥٠ بتصرف .
(٢) سورة المائدة : الآية ٥٠ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٨٨٩ بتصرف .
(٤) المصدر السابق ١/ ٥٨٤ .

وشريعته للحياة ، ويستوي أن تكون هذه الأهواء أهواء فرد، أو أهواء طبقة، أو أهواء أمة ، أو أهواء جيل كامل من الناس ، فكلها ما دامت لا ترجع إلى شريعة الله أهواء.

*يشرع فرد لجماعة فإذا هي جاهلية، لأن هواه هو القانون، أو رأيه هو القانون لا فرق إلا في العبارات!.

*وتشرع طبقة لسائر الطبقات فإذا هي جاهلية، لأن مصالح تلك الطبقة هي القانون - أو رأي الأغلبية البرلمانية هو القانون - فلا فرق إلا في العبارات!.

*ويشرع ممثلو جميع الطبقات وجميع القطاعات في الأمة لأنفسهم فإذا هي جاهلية.. لأن أهواء الناس الذين لا يتجردون أبدًا من الأهواء، ولأن جهل الناس الذين لا يتجردون أبدًا من الجهل هو القانون - أو لأن رأي الشعب هو القانون - فلا فرق إلا في العبارات!.

*وتشرع مجموعة من الأمم للبشرية فإذا هي جاهلية . لأن أهدافها القومية هي القانون - أو رأي المجامع الدولية هو القانون - فلا فرق إلا في العبارات!.

*ويشرع خالق الأفراد، وخالق الجماعات، وخالق الأمم والأجيال، للجميع، فإذا هي شريعة الله التي لا محاباة فيها لأحد على حساب أحد، لا لفرد ولا لجماعة ولا لدولة، ولا لجيل من الأجيال، لأن الله رب الجميع والكل لديه سواء، ولأن الله يعلم حقيقة الجميع ومصلحة الجميع ، فلا يفوته - سبحانه - أن يرعى مصالحهم وحاجاتهم بدون تفريط ولا إفراط .

*ويشرع غير الله للناس فإذا هم عبيد من يشرع لهم ، كائنًا من كان ، فردًا أو طبقة أو أمة أو مجموعة من الأمم .

*ويشرع الله للناس فإذا هم كلهم أحرار متساوون، لا يحنون جباههم إلا لله، ولا يعبدون إلا الله.

ومن هنا خطورة هذه القضية في حياة بني الإنسان ، وفي نظام الكون كله ﴿ وَلَوِ

ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ (١)، (٢).

ويقول أيضًا : " إن الجاهلية هي الجاهلية ، ولكل جاهلية أرجاسها وأدناسها ، لا يهم موقعها من الزمان والمكان ، فحيثما خلت قلوب الناس من عقيدة إلهية تحكم تصوراتهم ، ومن شريعة - منبثقة من هذه العقيدة - تحكم حياتهم فلن تكون إلا الجاهلية في صورة من صورها الكثيرة " (٣) .

ثانيًا : الفرق بين مصدر السلطة ومزاولة السلطة .

يبين سيد - رحمه الله- أن الجهة التي تملك حق الحاكمية ، أي التي تكون هي مصدر السلطات هي لله سبحانه وتعالى ، وأن استمداد القوانين من مصدر أخر أو من جهة أخرى غير الله سبحانه - ولو كان هو مجموع الأمة أو مجموع البشرية - ينافي الإيمان والتوحيد ويكون منازعة الله سبحانه في أولى خصائص ألوهيته .

والأمة في النظام الإسلامي هي التي تختار الحاكم فتعطيه شرعية مزاولة الحكم بشريعة الله، ولكنها ليست هي مصدر الحاكمية التي تعطي القانون شرعيته، إنما مصدر الحاكمية هـو الله ، وكثيرون حتى من الباحثين المسلمين يخلطـون بين مزاولة السلطـة و بين مصـدر السـلطـة، فالناس بجملتهم لا يملكون حق الحاكمية إنما يملكه الله وحده ، والناس إنما يزاولون تطبيق ما شرعه الله بسلطانه ، أما ما لم يشرعه الله فلا سلطان له ولا شرعية ، وما أنزل الله به من سلطان ، وهذا ما يرشد إليه قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤)، (٥).

وهذه المسألة هي الفارق بين النظام الإسلامي والأنظمة الوضعية الجاهلية التي تجعل الأمة أو الشعب هو المصدر السلطات بمعنى هو صاحب الحق في وضع التشريعات والقوانين عن طريق البرلمانات والأغلبية النيابية وإن كانت مضادة

(١) سورة المؤمنون : الآية ٧١ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٩١ ، وينظر أيضًا : السلام العالمي والرأسمالية ص ١٦٠ وما بعدها .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٥١٠ .
(٤) سورة يوسف : الآية ٤٠ .
(٥) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٩٠ بتصرف يسير .

لشرع الله وحكمه.

بينما النظام الإسلامي يجعل الأمة هي صاحبة الحق في مزاولة السلطة من خلال اختيار الحاكم ومراقبة تطبيق أحكام الله لا أنها هي مصدر السلطة والتشريع.

ويقول أيضًا : " ويجب أن نفرق بين قيام الحاكم بتنفيذ الشريعة الدينية ، وبين استمداده السلطان من صفة دينية لشخصه ، فليست للحاكم سلطة دينية يتلقاها مباشرة من السماء كما كان لبعض الحكام في القديم في نوع الحكم المسمى "ثيوقراطية " إنما هو يصبح حاكمًا باختيار المسلمين الكامل وحريتهم المطلقة ، لا يقيدهم عهد من حاكم قبله ، ولا وراثة كذلك في أسرة ، ثم يستمد سلطته بعد ذلك من قيامه بتنفيذ شريعة الله دون أن يدعي لنفسه حق التشريع ابتداء بسلطان ذاتي له ، فإذا لم يرضه المسلمون لم تقم له ولاية ، وإذا رضوه ثم ترك شريعة الله لم تكن له طاعة .

ومن هنا ندرك حكمة النبي ﷺ في أنه لم يعين خليفة من بعده إذ كان هذا مظنة أن يستمد خليفته سلطة دينيه ذاتية من استخلاف الرسول ﷺ له " [(١)].

ثالثًا : الاجتهاد لمواجهة المستجدات في الحياة وضوابط ذلك :

في الفقرة السابقة بين سيد - رحمه الله- أن مصدر السلطة هو الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له ، وذلك مقتضى الألوهية وعلامة الإيمان، وأنه لا يجوز لأحد سواه أن يشرع للبشر تحت أي مسمى وأن البشر مأمورون - حكامًا ومحكومين - بالرجوع إلى ما شرعه الله لهم من أحكام ونظم في مختلف جوانب حياتهم على السواء " باعتبار أن استئناف حياة إسلامية لا يتم بمجرد وضع تشريعات وقوانين ونظم مستمدة من الشريعة الإسلامية ، فهذا ركن واحد من ركنين يعتمد عليهما الإسلام في إقامة الحياة ، وهو الركن الثاني لا الأول .

أما الركن الأول ، فهو العقيدة الصحيحة التي تفرد الله سبحانه وتعالى بالألوهية، ومن ثم تفرده بالحاكمية وتنكر على غير الله أن يدعي الحاكمية أو يزاولها " [(٢)].

وبناء على ذلك يوضح سيد - رحمه الله- طريقة التعامل مع ما يعرض للبشر

(١) العدالة الاجتماعية ص ٨٢ .
(٢) المصدر السابق ص ١٩٦ .

من مشكلات وأقضية على مدى الزمان فيقول بعد أن بين وجوب التحاكم إلى نصوص الشرع : " ذلك فيما ورد فيه نص صريح، فأما الذي لم يرد فيه نص ، وأما الذي يعرض من المشكلات والأقضية على مدى الزمان وتطور الحاجات واختلاف البيئات - ولا يكون فيه نص قاطع ، أو لا يكون فيه نص على الإطلاق، مما تختلف في تقديره العقول والآراء والأفهام - فإنه لم يترك كذلك تيهًا ، ولم يترك بلا ميزان ، ولم يترك بلا منهج للتشريع فيه والتفريع، فقد وضع الله منهجًا للاجتهاد كله، وحدده بحدوده، وأقام " الأصل " الذي يحكم منهج الاجتهاد أيضًا بقوله تعالى: ﴿تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [١]، ردوه إلى النصوص التي تنطبق عليه ضمنًا، فإن لم توجد النصوص التي تنطبق على هذا النحو، فردوه إلى المبادئ الكلية العامة في منهج الله وشريعته.. وهذه ليست عائمة ولا فوضى ، ولا هي من المجهلات التي تتيه فيها العقول كما يحاول بعض المخادعين أن يقول : وهناك -في هذا الدين - مبادئ أساسية واضحة كل الوضوح ، تغطي كل جوانب الحياة الأساسية ، وتضع لها سياجًا خرقه لا يخفى على الضمير المسلم المضبوط بميزان هذا الدين " [٢].

- كما يحدد سيد - رحمه الله- أن الاجتهاد في حالة وجود نص يكون في تطبيق النص على الواقع فيقول:" وما قرره الله سبحانه من العقائد والتصورات ، أو من منهج الحياة ونظامها ، سواء في موقف العقل إزاءه متى صح النص ، وكان قطعي الدلالة ولم يوقت بوقت ، فليس للعقل أن يقول : آخذ في العقائد والشعائر التعبدية، ولكني أرى أن الزمن قد تغير في منهج الحياة ونظامها ، فلو شاء الله أن يوقت مفعول النصوص لوقته . فما دام النص مطلقًا فإنه يستوي زمان نزوله وآخر الزمان احترازًا من الجرأة على الله ، ورمي علمه بالنقص والقصور - سبحانه وتعالى عما يقولون علوًا - إنما يكون الاجتهاد في تطبيق النص العام على الحالة الجزئية، لا في قبول المبدأ العام أو رفضه ، تحت أي مقولة من مقولات العقل في

(١) سورة النساء : الآية ٥٩ .
(٢) في ظلال القرآن ٦٩١ ، ويراجع بتوسع فصل " الثبات" في كتاب " خصائص التصور الإسلامي " ص ٧٥ وما بعدها .

جيل من الأجيال! " [١].

ويقول أيضًا : " فأما حين لا يوجد نصوص فيما جاء به الرسول ﷺ بخصوص أمر يعرض للأمة فسبيلها أن تشرع له بما لا يخالف أصلًا من أصول ما جاء به الرسول، وهذا لا ينقض تلك النظرية - النظرية الدستورية الإسلامية التي تجعل الله وحده مصدر السلطات - إنما هو فرع عنها ، فالمرجع في أي تشريع هو أن يتبع ما جاء به الرسول ﷺ إن كان هناك نص ، وألا يخالف أصلًا من أصوله فيما لا نص فيه ، وتنحصر سلطة الأمة - والإمام النائب عنها- في هذه الحدود ، وهذا نظام فريد لا يماثله نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعيه يربط التشريع للناس بناموس الكون كله ، وينسق بينه وبين القانون الذي يحكم البشر وهو من منهج الله ، كي لا يصطدم قانون البشر بناموس الكون ، فيشقى الإنسان " [٢].

ويقول أيضًا : " وحين يُضيِّق الإسلام سلطة الإمام فيما يختص بشخصه ، يوسع له إلى أقصى الحدود في رعاية المصالح المرسلة للجماعة ، تلك المصالح التي لم يرد فيها نص والتي تتجدد بتجدد الزمان والأحوال ، فالقاعدة العامة : أن للإمام المسلم القائم على شريعة الله أن يحدث من الاقضية بقدر ما يجد من مشكلات ، تنفيذًا لقوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ ﴾[٣] ، وتحقيقًا لأهداف الدين العامة ، في إصلاح حال الفرد، وحال الجماعة ، وحال الإنسانية كلها ، في حدود المبادئ المقررة في الإسلام ، وبشرط العدل الذي يجب توافره في الإمام ، فكل ما يوقع بالأمة ضررًا من أي نوع ، على الإمام ان يزيله ، وكل ما يتحقق للأمة نفعًا من أي نوع عليه أن يقوم به ، على أن لا يخالف نصًا من نصوص الدين" [٤].

ثم يتحدث سيد - رحمه الله- طويلًا حول مبدأ " المصالح المرسلة " و" وسد الذرائع " كدائرة واسعة تشمل تحقيق كافة المصالح للجماعة ، وتضمن دفع جميع

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٠٨ .
(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٥٢٥ بتصرف يسير ، وينظر أيضًا : نحو مجتمع إسلامي ص ٤٧ وما بعدها .
(٣) سورة الحج : الآية ٨٧ .
(٤) العدالة الاجتماعية ص ٨٤، ٨٥ .

المضار، وينقل نقولات عن ألائمه والفقهاء حول اعتبار مبدأ المصالح المرسلة وسد الذرائع في مواجهة مستجدات الحياة مما لا نص فيه، وينقل أمثلة لما قام به الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - بعد موت النبي ﷺ كجمع القرآن الكريم، وزيادة حد الخمر، وتضمين الصُّنَّاع، وقتل الجماعة بالواحد وغير ذلك مما فيه حفاظًا على الحياة الإسلامية ويلخص سيد - رحمه الله- ما يتعلق بقضية الاجتهاد في مواجهة مستجدات الحياة في صورة تطبيق تشريعي جزئي للشريعة الإسلامية الثابتة ، مستشهدًا بفعل بعض الخلفاء الراشدين ومواقفهم إزاء المستجدات في عصورهم مما ليس فيه نص، واعتبار ذلك منارات ومعالم تهتدي بها الأمة ، ويذكر أن التطبيقات التي يحتاجها المجتمع لمواجهة المستجدات في أي زمن لا تخرج عن أربعة احتمالات :

الأول: أن تكون الشريعة قد نصت على حكمة نصًا معينًا صريحًا، فهذا واجب التطبيق دون تحوير أو تبديل.

الثاني: أن تكون الشريعة قد جاءت فيه بنص أو نصوص قابلة للتأويل فيكون حينئذ قابلًا للاجتهاد ترجيحًا أو توفيقًا بين النصوص والحالات المراد تطبيقه عليها، وهذا يسترشد بالتطبيقات العملية في صدر الإسلام وأقوال الفقهاء.

الثالث: أن تكون الشريعة قد جاءت بمبدأ عام ، تدخل هذه المسألة الخاصة فيه حتمًا ولكنه لا ينص عليها تصريحًا ، عندئذ يكون الأمر موضع اجتهاد في تطبيق المبدأ العام على الجزئيات المعروضة والاسترشاد بالسوابق التاريخية والأحكام الفقهية .

الرابع: أن لا يوجد في الشريعة نص عليه، فهو متروك للاجتهاد المطلق على ألا يصدم الحكم الذي يصل إليه مبدأ من مبادئ الإسلام ولا أصلًا من أصول الشريعة، مع الاسترشاد بتصرف فقهاء الإسلام في ما يماثله "[1] .

وفيما سبق نجد أن سيدًا - رحمه الله- يرى أن ما لم يرد فيه نص من المستجدات في حياة البشر فلهم أن يواجهوها بالاجتهاد والرجوع إلى النصوص الشرعية في

(١) نحو مجتمع إسلامي ص ٥٢-٥٧ بتصرف .

الكتاب والسُّنَّة واستنباط الأحكام من المبادئ العامة المقررة في الشريعة ، ووضع النظم التي تحكم المستجدات بشرط ألاَّ تخالف نصوص الشرع أو تصطدم مع أصوله ، وإنما تنطلق من خلال ما قرره العلماء في باب " المصالح المرسلة ودرء المفاسد " وهما مبدآن عظيمان من مبادئ النظام الإسلامي .

رابعًا : وقفة مع دعوى أن سيد قطب يجوز للبشر أن يشرعوا ما لم يأذن به الله :

أورد الدكتور/ ربيع المدخلي في كتابة " أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره " فصلًا بعنوان: " سيد قطب يجوّز للبشر أن يشرعوا قوانين لتحقيق حياة إسلامية صحيحة " ، ذكر فيه كلامًا لسيد قطب في العدالة الاجتماعية ونصه : " فإذا انتهينا من وسيلة التوجيه الفكري ، بقيت أمامنا وسيلة التشريع القانوني، لتحقيق حياة إسلامية صحيحة تكفل فيها العدالة الاجتماعية للجميع ، وفي هذا المجال لا يجوز أن نقف عند مجرد ما تم في الحياة الإسلامية الأولى بل يجب الانتفاع بكافة الممكنات التي تتيحها مبادئ الإسلام وقواعده المجملة ، فكل ما أتمته البشرية من تشريعات ونظم اجتماعية ولا تخالف أصوله - أصول الإسلام - ولا تصطدم بفكرته عن الحياة والناس ، يجب أن لا نحجم عن الانتفاع به عند وضع تشريعاتنا، ما دام يحقق مصلحة شرعية للمجتمع ، أو يدفع مضرة متوقعة، ولنا في مبدأ المصالح المرسلة ومبدأ سد الذرائع وهما مبدآن إسلاميان صريحان ما يمنح ولي الأمر سلطة واسعة لتحقيق المصالح العامة في كل زمان ومكان" [1] .

ثم يعقب الدكتور المدخلي على النص السابق بقوله : وعلى هذا مآخذ :

١- كأن سيد يرى أن الإسلام غير كافٍ ولا وافٍ بمتطلبات الأمة الإسلامية !

٢- يمكن لأي دولة تنتمي إلى الإسلام أن تأخذ بكل ما تهواه من القوانين الوضعية بحجة تحقيق المصالح ودرء المفاسد، وبحجة إنها لا تنافي أصول الإسلام...

٣- يرى سيد أخذ كل ما أتمته البشرية من تشريعات ونظم اجتماعية إذا لم تخالف

(١) أضواء إسلامية د/ المدخلي ص ٢١٦ ، وقد نقله عن العدالة الاجتماعية لسيد قطب - الطبعة الخامسة ولم أجده في الطبعة المعدلة .

أصول تلك التشريعات أصول الإسلام... أي لا تحرم التشريعات والنظم الكافرة إلا في حالة مصادمة أصولها أصول الإسلام . أما إذا خالفت أصول تلك التشريعات الكافرة نصوص الإسلام في الأمور الفرعية فلا تحرم بل يجب الأخذ بها والحال كذلك (!!!) وإذا خالفت تفريعات القوانين الكافرة أصول الإسلام فلا حرج فيها بل يجب الأخذ بها ، لأنها فروع صادمت أصول الإسلام ، وإنما الضرر فقط في مصادمة الأصول الكافرة لأصول الإسلام . وبهذا التأصيل والتقعيد الذي يضعه سيد تنفتح أبواب التلاعب بدين الله فكل طاغية يجلب قوانين أوربا وأمريكا تحت شعار هذه التأصيلات [١].

والحقيقة أن هذه المآخذ التي ذكرها د/ المدخلي على كلام سيد في النص السابق لم أجد لها سندًا في النص ،وبيان ذلك كما يأتي:

١- أين كلام سيد - رحمه الله- الذي يدل على أن الإسلام غير كامل ولا واف بمتطلبات الأمة الإسلامية ؟!!.

٢- من أين فهم الدكتور المدخلي أن سيدًا يقرر أن لكل دولة أن تأخذ ما تهواه من القوانين الوضعية ؟؟؟.

٣- أنه في المأخذ الثالث يطبق لازم الكلام ، فإذا أشار سيد إلى الاستفادة مما عند الغير بشرط إلا تخالف أصوله أصول الإسلام ولا تصطدم بفكرته عن الحياة، فهل يعني هذا ما فهمه الدكتور المدخلي من أن سيد - رحمه الله- يرى وجوب الأخذ بأنظمة الكفار إذا كانت أصولها مخالفة لفروع الإسلام أو العكس ؟؟؟ .

أظن أن القارئ المتأمل في كلام سيد - رحمه الله- لا يفهم شيئًا من هذه المآخذ، وخاصة إذا أضاف إليها الشروط التي وضعها سيد - رحمه الله- في النصوص السابقة للاجتهاد في مواجهة المستجدات، من رده الأمر إلى :

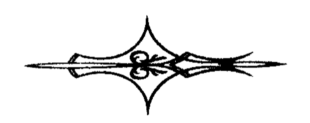
- النصوص التي تنطبق عليه ضمنًا.

---

(١) أضواء إسلامية د/ ربيع المدخلي ص ١٢٦، ٢١٧ بتصرف يسير .

- وإذا لم يوجد، فيرد إلى المبادئ الكلية العامة في منهج الله وشريعته .

- وأن للأمة أن تضع من التشريعات لمواجهة تطور الحياة فيما لم يرد فيه نص بشرط ألاّ تخالف نصوص الشرع ولا أصوله ومبادئه العامة من خلال مبدأ المصالح المرسلة وسد الذرائع .



المطلب الخامس

الشورى في النظام الإسلامي



الفرع الأول: تعريف الشورى وحقيقتها :

الشورى في اللغة : الشورى والمشاورة والمشورة، مصادر للفعل "شور"، وأصلها في اللغة يعنى : الاستخراج والإظهار والإعانة .[(١)].

وفي الاصطلاح : هي استطلاع الرأي من ذوي الخبرة فيه للوصول إلى أقرب الأمور للحق[(٢)].

والشورى من المبادئ الإسلامية العامة التي قررتها الشريعة الإسلامية، وتحدث عنها أهل العلم والسياسة الشرعية في أبواب الإمامة والخلافة كثيرًا، موضحين أهميتها ومكانتها في الإسلام، وحدودها ومجالاتها، وشروط أهلها وكيفيها، وما يتعلق بها من مسائل إجرائية .

حقيقة الشورى:

يرى سيد قطب - رحمه الله- أن حقيقة الشورى ومهمتها هي تقليب أوجه الرأي واختيار اتجاه من الاتجاهات المعروضة، فإذا انتهى الأمر إلى هذا الحد، انتهى دور الشورى وجاء دور التنفيذ في عزم وحسم وفي توكل على الله،يصل الأمر بقدر الله ويدع لمشيئته تصوغ العواقب كما تشاء "[(٣)].

ويقول : " وهذا الأمر - أي مبدأ الشورى وإنفاذه - يقتضي الأخذ بالرأي الذي بدا رجحان الاتجاه إليه في الجماعة "[(٤)].

---

(١) لسان العرب ٤/ ٣٤٣- ٤٣٦ .

(٢) الشورى في ظل الحكم الإسلامي - عبد الرحمن عبد الخالق - الدار السلفية الكويت ط عام ١٩٧١ ص ١٤ .

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٥٠٢ .

(٤) المصدر السابق ١/ ٥١٦ بتصرف يسير .

الفرع الثاني: أهمية الشورى ومكانتها في الإسلام:

ذكر سيد -رحمه الله- أهمية الشورى ومكانتها في الإسلام وكونها أصلًا من أصول الحياة الإسلامية من خلال ما يأتي:

١- ورودها في الآيات المكية ضمن صفات الجماعة المسلمة يدل على عمقها في الحياة الإسلامية:

ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[1] يقول سيد - رحمه الله- : " وهنا يصور خصائص هذه الجماعة المسلمة التي تطبعها وتميزها ، ومع أن هذه الآيات مكية ، نزلت قبل قيام الدولة المسلمة في المدينة ، فإننا نجد فيها أن من صفة هذه الجماعة المسلمة ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ مما يوحي بأن وضع الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظامًا سياسيًا للدولة ، فهو طابع أساسي للجماعة كلها ، يقوم عليه أمرها كجماعة ، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة ، بوصفها إفرازًا طبيعيا للجماعة ...، وذكر هذه الصفات المميزة لطابع الجماعة المسلمة ، المختارة لقيادة البشرية وإخراجها من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام ، ذكرها في سورة مكية وقبل أن تكون القيادة العملية في يدها فعلا ، جدير بالتأمل ، فهي الصفات التي يجب أن تقوم أولًا، وهي الإيمان ، والتوكل ، واجتناب كبائر الإثم والفواحش ، والمغفرة عند الغضب ، والاستجابة لله ، وإقامة الصلاة ، والشورى الشاملة ، والإنفاق مما رزق الله ، والانتصار من البغي ، والعفو ، والإصلاح ، والصبر " [2].

ويقول أيضًا : " وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ هذا التعبير يجعل أمرهم كله شورى ليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة ، وهو كما قلنا نص مكي ، كان قبل قيام الدولة الإسلامية ، فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة في حياة المسلمين ، إنه طابع الجماعة الإسلامية في كل حالاتها ، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم فيها بعد ... ومن ثم كان طابع الشورى في الجماعة مبكرًا، وكان

(١) سورة الشورى : الآية ٣٨ .
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٦٠ ، ٣١٦١ بتصرف يسير .

مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشؤون الحكم فيها، إنه طابع ذاتي للحياة الإسلامية، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية، وهي من ألزم صفات القيادة " (١).

٢-أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بالشورى : وذلك في قوله تعالى :﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾(٢)، يقول سيد - رحمه الله- " وفي هذه الآية نجد أصل النظام الذي تقوم عليه الحياة الجماعية الإسلامية - وهو الشورى - يؤمر به في الموضع الذي كان للشورى - في ظاهر الأمر- نتائج مريرة! (٣). فهذا النص الجازم﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾يقرر الإسلام هذا المبدأ في نظام الحكم، حتى محمد رسول الله ﷺ هذا الذي يتولاه، وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكًا في أن الشورى مبدأ أساسي لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه (٤).

ويقول أيضًا: " ومما يلفت النظر أكثر، الكلام - في صدد التعقيب على معركة حربية ، عن الشورى والأخذ بها ، على الرغم مما كان للشورى من معقبات ظاهرية في النتائج السيئة للمعركة! " (٥).

٣- ممارسة النبي ﷺ للشورى : ولأهمية الشورى في الإسلام فقد درب النبي ﷺ أصحابه - رضوان الله عليهم - والأمة من بعدهم على هذا المبدأ ، مهما كانت نتائجه ، يقول سيد - رحمه الله- " كان الإسلام ينشىء أمة ويربيها ويعدها للقيادة الراشدة ، ولتحقيق ذلك فقد دربها على الشورى في حياتها العملية بإشراف النبي ﷺ ، ولو كان وجود القيادة الراشدة يمنع الشورى ويمنع تدريب الأمة عليها تدريبًا عمليًا واقعيًا في أخطر الشؤون - كمعركة أحد التي قد تقرر مصير الأمة المسلمة نهائيًا وهي أمة ناشئة تحيط بها العداوات والأخطار من كل جانب - ويحل للقيادة أن تستقل بالأمر وله كل هذه الخطورة - لو كان وجود القيادة الراشدة

(١) المصدر السابق ٥/ ٣١٦٥ بتصرف يسير ، وينظر أيضًا : ١/ ٤٥٨ .
(٢) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .
(٣) أي : نتائج غزوة أحد .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٥٠٠-٥٠١ بتصرف
(٥) المصدر السابق ١/ ٤٥٨ .

في الأمة يكفي ويسد مسد مزاولة الشورى في أخطر الشؤون لكان وجود محمد - ﷺ- ومعه الوحي من الله سبحانه وتعالى - كافيًا لحرمان الجماعة المسلمة يومها من حق الشورى! - وبخاصة على ضوء النتائج المريرة التي صاحبتها في ظل الملابسات الخطيرة لنشأة الأمة المسلمة ولكن وجود محمد رسول الله - ﷺ - ومعه الوحي الإلهي ووقوع تلك الأحداث ووجود تلك الملابسات لم يلغ هذا الحق ،لأن الله - سبحانه - يعلم أن لا بد من مزاولته في أخطر الشؤون ومهما تكن النتائج ومهما تكن الخسائر و التضحيات و الأخطار ، لان هذه كلها جزئيات لا تقوم أمام إنشاء الأمة الراشدة المدربة بالفعل على الحياة ، المدركة لتبعات الرأي والعمل الواعية لنتائج الرأي والعمل ومن هنا جاء هذا الأمر الإلهي بالشورى في مثل هذه لظروف" [١].

٤- ممارسة النبي ﷺ وكذا خلفاؤه الراشدون :ومما يظهر أهمية الشورى ومكانتها في الإسلام أيضًا ، ممارسة النبي ﷺ لمبدأ الشورى وتربية الأمة عليه وكذا ممارسة خلفائه الراشدين لهذا المبدأ ، وقد أشار سيد - رحمه الله- إلى أن النبي ﷺ كان يستشير المسلمين - فيما لم يرد فيه نص - ويأخذ برأيهم فيما هم اعرف به من شؤون دنياهم ، ومن ذلك :

* استشارته ﷺ لأصحابه في معركة بدر في شأن القتال ، وكذا أخذه بمشورة الخباب بن المنذر - رضي الله عنه - فنزل على ماء بدر بعد ان نزل على مبعدة منه [٢].

* وكذا استشارته لهم في شأن أسرى بدر وأخذه بمشورة أبي بكر - رضي الله عنه - حتى نزل القرآن الكريم مؤيدًا رأي عمر - رضي الله عنه - [٣] ، واستشارهم في معركة أحد[٤]، وسمع رأيهم في حفر الخندق ، وكذا في مصالحة غطفان على نصف ثمار المدينة في غزوة الأحزاب [٥] ، واستشار بعض أصحابه في حادثة الإفك [٦] ، وغيرها.

(١) في ظلال القرآن ١/ ٥٠٢ وينظر : ١/ ٥٣٢، ٥٣٣ .
(٢) المصدر السابق ٣/ ١٤٥٦-١٤٥٧، والعدالة الاجتماعية ص ٨٣ .
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥١، العدالة الاجتماعية ص ٨٣ .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٣٦٠ .
(٥) المصدر السابق ٥/ ٢٨٣٤ ، العدالة الاجتماعية ص ٨٣ .
(٦) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٩٩ .

* وكذلك سار الخلفاء الراشدون من بعده في استشارة المسلمين ، واستشار أبو بكر – رضي الله عنه – في دخول الموبؤة ، وانتهى إلى رأي ، ثم وجد نصًا من السُّنَّة يؤيده فالتزمه ، وجعل الخلافة شورى في ستة من الصحابة ولم يستخلف أحدًا بعينه ، وغير ذلك . [1]

الفرع الثالث : فيم تكون الشورى وطريقتها .

يقرر سيد – رحمه الله- أن الشورى إنما تكون فيما لم يرد فيه نص أما ما ودر فيه نص فلا مجال للشورى فيه بل يجب العمل به " [2] . فيقول: " كان النبي ﷺ يستشير المسلمين – فيما لم يرد فيه وحي ويأخذ برأيهم فيما هم عرف به من شؤون دنياهم.. أما ما كان فيه وحي فلا مجال فيه للشورى بطبيعة الحال، فهو من مقررات الدين، وكذلك سار الخلفاء في استشارة المسلمين " [3] .

*أما طريقة الشورى: فيرى سيد – رحمه الله- أنها ليست محدودة بنظام خاص وشكل معين، بل طريقة تطبيقها متروك للأمة وفق أوضاعها وظروفها.

يقول - رحمه الله -: " أما شكل الشورى، والوسيلة التي تحقق بها ، فهذه أمور قابلة للتحوير والتطوير وفق أوضاع الأمة وملابسات حياتهم ، وكل شكل وكل وسيلة تتم بها حقيقة الشورى – لا مظهرها – فهي من الإسلام " [4] .

ويقول أيضًا: " أما الشكل الذي تتم به الشورى فليس مصبوبًا في قالب حديدي، فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان، لتحقيق ذلك الطابع في حياة الجماعة الإسلامية، والنظم الإسلامية كلها ليست أشكالًا جامدة ، وليست نصوصًا حرفية ، إنما هي قبل كل شيء روح ينشأ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب ، وتكيف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة . والبحث في أشكال الأنظمة الإسلامية دون الاهتمام بحقيقة الإيمان الكامنة وراءها لا يؤدي إلى شيء " [5] .

---

(١) العدالة الاجتماعية ص ٨٣ .
(٢) ينظر: في ظلال القرآن ٢/ ٨٠٨ ٣/ ٣٥٢٥ ، ونحو مجتمع إسلامي ص ٥٢ ما بعدها .
(٣) العدالة الاجتماعية ص ٨٣ بتصرف يسير .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٥٠١ .
(٥) المصدر السابق ٥/ ٣١٦٥ .

ويقول أيضًا: " أن الإسلام يجعل الشورى من أسس الحكم في الدولة الإسلامية، فما كيف تتحقق الشورى على الوجه الأمثل فهذا ما لم ينص عليه ، ولقد وقعت في المجتمع الإسلامي على عهد رسول الله ﷺ وبعده ألوان من الشورى ولكن هذه الذي وقع لا يحدد جميع وسائل الشورى ، بل إن ذلك متروك لما يجد من تطورات في جسم المجتمع الإسلامي ، وفي ظروفه ، ومتروك كذلك لما يبتكر من وسائل الشورى الناجحة حسب التجارب المتجددة .

- فهل تتم الشورى على الوجه الأمثل بالتصويت العام في كل الشؤون أم في بعضها ؟.
- أم تتم بتصويت أهل الحل العقد من ممثلي الأمة الذين لا يختلف عليهم ؟.
- أم تتم بواسطة ممثلين للنقابات والجامعات والطوائف المختلفة ؟.
- وهل تتم بالتصويت الشفهي أم الكتابي ؟.
- وهل تتم بمسؤولية الوزراء أمام الحاكم الأعلى المنتخب ؟.
- أم بمسؤوليته أمام الهيئة الممثلة للشعب ؟.
- وهل تتم بمجلس واحد أم بمجلسين ؟ ... الخ .

كل ذلك متروك لظروف كل أمة وزمانها ومكانها ، وللتجارب البشرية التي تحقق الشورى على الوجه الأمثل "[1] .

الفرع الرابع: أهل الشورى وطريقة اختيارهم.

يرى سيد – رحمه الله– أن أهل الشورى أو أهل الحل والعقد في الأمة المسلمة هم طائفة من الأمة يبرزون لا من خلال تزكية أنفسهم وترشيحهم والدعاية لأشخاصهم بدعاية ما كي يختاروا لمجلس الشورى أو لغيره – كما هو الحال اليوم، وإنما تبرز هذه الطائفة في الأمة من خلال حركتهم بهذا الدين والعمل له ، ففي أثناء الحركة بهذا الدين – تتميز أقدار الناس وتتحدد مقاماتهم في المجتمع ، ويقوم

---

(١) نحو مجتمع إسلامي لسيد قطب ص ١٤١، وينظر أيضًا: العدالة الاجتماعية ص ٨٣.

هذا التحديد وذلك التميز على موازين وقيم إيمانية ، الجميع يتعارفون عليها ، ومن البلاء في الجهاد ، والتقوى والصلاح والعبادة والأخلاق والقدرة والكفاءة ، وكلها قيم يحكم عليها الواقع ، وتبرزها الحركة ، ويعرفها المجتمع ، ويعرف المتسمين بها ، ومن ثم لا يحتاج أصحابها أن يزكوا أنفسهم ولا أن يطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية..

وهذا ما حدث في النشأة الأولى للمجتمع المسلم - في عهد النبي ﷺ حيث تميز السابقين من المهاجرين ثم الأنصار، وأهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل ثم ظل يتميز الناس فيه بحسن البلاء في الإسلام ...

وقد يخيل للناس الآن أن هذه خاصية متفردة للمجتمع المسلم الأول بسبب نشأته، وينسون أن أي مجتمع مسلم لن يوجد إلا بمثل هذه النشأة في أي زمان ، دعوة إلى الإسلام ، وفتنة البلاء ، وتميز للصادقين المجاهدين المتحركين إلى طبقات إيمانية ، وفق الموازين والقيم الإيمانية.. ويومئذ لن يحتاج إلى ترشيح أنفسهم وتزكيتها، لأن مجتمعهم الذي جاهد كله معهم يعرفهم ويزكيهم ويرشحهم!

وقد يقال: ولكن هذا يكون في المرحلة الأولى، فإذا استقر المجتمع بعد ذلك ؟ وهذا سؤال من لا يعرف طبيعة هذا الدين! إن هذا الدين يتحرك دائماً ولا يكف عن الحركة.. يتحرك لتحرير" الإنسان " كل الإنسان.. في " الأرض"..كل الأرض.. من العبودية لغير الله من الطواغيت وإذن فستظل الحركة التي هي طبيعة هذا الدين الأصيلة تميز أصحاب البلاء وأصحاب الكفايات والمواهب، ولا تقف أبدًا ليركد هذا المجتمع ويأسن إلا أن ينحرف عن الإسلام .

وقد يقال: ولكن المجتمع حين يتسع لا يعرف الناس بعضهم بعضًا، ويصبح الأكفاء الموهوبون في حاجة إلى الإعلان عن أنفسهم وتزكيتها وطلب العمل على أساس هذه التزكية!.

وهذا القول كذلك وهمٌ ناشئ من التأثر بواقع المجتمعات الجاهلية الحاضرة ، إن المجتمع المسلم يكون أهل كل محلة فيه متعارفين متواصلين متكافلين - كما هي طبيعة التربية والتكوين والتوجيه ، والالتزام في المجتمع المسلم - ومن ثم يكون

أهل كل محلة عارفين بأصحاب الكفايات والمواهب فيهم، موزونة هذه الكفايات والمواهب بموازين و قيم إيمانية ، فلا يعز عليهم أن ينتدبوا هم من بينهم أهل البلاء والتقوى والكفاية.. سواء لمجلس الشورى أو للشؤون المحلية..أما الإمارات العامة فيختار لها الإمام.. بين مجموعة الرجال المختارين الذين ميزتهم الحركة، والحركة دائبة كما قلنا في المجتمع المسلم، والجهاد ماض إلى يوم القيامة " (١) .

ويتحدث سيد - رحمه الله- عن إشكالية محاولة تطبيق قواعد النظام الإسلامي وأحكامه في المجتمعات المعاصرة وتركيبها العضوي الذي يناقض التركيب العضوي للمجتمع المسلم ، فالمجتمع المسلم يقوم تركيبه على أساس ترتيب الشخصيات والفئات كما ترتبها الحركة لإقرار هذا النظام في عالم الواقع، ومجاهدة الجاهلية ،وتحمل الفتنة والأذى ، بينما المجتمعات المعاصرة تقوم على قيم لا علاقة لها بالإسلام والقيم الإيمانية في ترتيب الشخصيات والفئات .

وبالتالي فأول ما يحير الباحثين والكتّاب هو طريقة اختيار أهل الحل والعقد - أو أهل الشورى - من غير ترشيح من أنفسهم ولا تزكية ! في مجتمعات لا يعرف الناس فيها بعضهم بعضا، ولا يزنون بموازين الكفاية والنزاهة والأمانة، ثم تحيرهم أيضًا طريقة اختيار الإمام؟ أيكون الاختيار من عامة الشعب ؟ أم يكون من ترشيح أهل الحل والعقد؟ وإذا كان الإمام سيختار أهل الحل والعقد، فكيف يعودون فيختارونه ؟ ألا يؤثر هذا في ميزانهم؟ ألا تكون لهم ولاية عليه وهو الإمام الأعظم؟ ثم ألا يجعله هذا يختار أشخاصًا يضمن ولاءهم له ؟ ... وأسئلة كثيرة لا يجدون لها جواب !.

ويحدد سيد - رحمه الله- أن نقطة البدء في هذه المتاهة هو عدم إدراك الفرق بين المجتمعات المعاصرة بتركيبتها العضوية وبين طبيعة المجتمع المسلم المطلوب وكذا اختلاف القيم والموازين والتصورات بينهما ، ما يجعل تطبيق الأحكام الإسلامية في مثل هذه الأوضاع فراغًا لا يمكن أن تعمل فيه " (٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٠٧-٢٠٠٩ بتصرف يسير .
(٢) ينظر : المصدر السابق ٤/ ٢٠٠٧-٢٠١٣ بتصرف .

المطلب السادس

شبهات حول نظام الحكم في الإسلام



استعرض سيد قطب - رحمه الله- عددًا من الشبهات التي تثار حول نظام الحكم في الإسلام، وبين أسبابها وحقيقتها ورد عليها وخاصة في كتابه " معركة الإسلام والرأسمالية " حيث عقد فصلًا بعنوان " شبهات حول حكم الإسلام " ويمكن استعراضها بإيجاز فيما يأتي :

أولًا : أسباب الشبهات المثارة حول الحكم الإسلامي :

يقول -سيد-: " تغيم على الإسلام وعلى حكم الإسلام شبهات داكنة في نفوس هذا الجيل ، وهي ناشئة إما من :

١ - الجهل الفاضح بكل شيء عن هذا الدين .

٢- إلتباس فكرة الدين ذاته بمن يسمون في هذا العصر بـ "رجال الدين " وهو التباس مؤذٍ للإسلام وصورته في نفوس الناس ، بسبب جهلهم لحقيقة الدين ، وتأثُّرهم بثقافة الاحتلال .

٣- إلتباس صورة الحكم الإسلامي ببعض أنواع الحكومات التي تسمى نفسها "حكومات إسلامية " وهي لا تمثل حقيقة الإسلام .

٤ - إلتباس صورة الحاكم الإسلامي ببعض الشخصيات التاريخية التي تنتسب إلى الإسلام وتزعم أنها تحكم باسمه " [١] .

٥ -كيد أعداء الإسلام في تشويه صورة الإسلام بشتى الوسائل وعلى مر العصور.

ثانيًا : بعض الشبهات والرد عليها .

عرض سيد - رحمه الله- بعض الشبهات المثارة في عصره حول الحكم الإسلامي

---

(١) معركة الإسلام والرأسمالية ص ٦٣- ٦٥

وناقشها ورد على أصحابها ويمكن إيجازها فيما يأتي :

الشبهة الأولى :"بدائية الحكم" :

عندما يسمع البعض" الحكم الإسلامي" يتصور بسذاجة أن معناه هو العودة إلى الصورة البدائية التي كانت عليها العرب عند مجيء الإسلام ، والبعد عن صورة الحضارة والمدنية وما أفرزته من تأثيرات على الحياة .

ويرى سيد - رحمه الله- أن سبب هذا يعود إلى :

١- الخلط بين النشأة التاريخية للإسلام وبين النظام الإسلامي ذاته كنظام ، فالنظام الإسلامي كنظام يحتوي على حاجات العصر المتجددة التي تشمل كل حضارة البشرية النظيفة وتجاربها العلمية والفكرية اللائقة بالإنسان ، والشظف والبداوة التي كانت عند مجيء الإسلام ليست أصلاً من أصوله، بل كانت ظاهرة اقتصادية في مرحلة معينة .

٢- الخلط بين الشريعة الإسلامية في ذاتها وبين النشأة التاريخية للفقه الإسلامي، فيظنون أن معنى استحياء القوانين من الشريعة هو الوقوف عند الأحكام الفقهية وهي لا تكفي لمواجهة حاجات المجتمع في هذه العصور!!!

ويبين سيد - رحمه الله- أن هذا خلط مضحك، فالشريعة فيها من المرونة والشمول ما يجعلها تستجيب لحاجات ومطالب الحياة في كل عصر، كما حدث ذلك في عهد النبي ﷺ وعهد الخلافة الراشدة الذي توسع كثيرًا في الأرض وحتى اليوم.

٣- جهل كثير من المشتغلين بالتشريع اليوم بالإسلام وشريعته ، حيث تلقوا تعليمهم غالبًا في ظل عقلية تشريعية أجنبيه ، لا تعرف عن الشريعة الإسلامية إلا اليسير .

ثم يقرر سيد - رحمه الله- تميز الشريعة الإسلامية عن غيرها من القوانين ، بما في ذلك مراعاتها لحاجات الفرد والجماعة ومطالب الحياة المتجددة والمتحضرة ، من دون أن يعني ذلك إخضاع الإسلام ومبادئه وأنظمته لشهوات الجماهير والطغاة

باسم " التحضر والتجديد " على طريقة من يسمونهم " المسلمين العصريين " أو الأقزام " المتحررين " الذين يسيرون على طريقة الكنيسة في تملق شهوات الناس وتقديم الدين بالطريقة التي تناسب شهوات المجتمع [١] .

الشبهة الثانية : حكم المشايخ والدراويش :

يقول سيد - رحمه الله- : " يتصور البعض أن حكم الإسلام معناه حكم المشايخ والدراويش ! بسبب الثقافة السطحية الناقصة ، وملابسات الواقع في هذا الجيل .

وفي الرد على هذه الشبهة يقرر-سيد- أن الإسلام الحق له أصوله وأحكامه التي يقوم عليها ، وليس مسألة الزي واللباس هي التي يُوَلَّى الناس بناءً عليها ، فالإسلام له شريعة واحدة تنظم جميع حالات الحياة وتصدر عنها نشاط البشر ، والذي يتولى عملاً في الأمة يشترط فيه أن يكون حاذقًا فيه، قاضيًا كان أو طبيبًا أو مهندسًا أو غير ذلك .

فالحكم الإسلامي لا يتحقق بوجود طائفة من الناس " رجال الدين " على سدة الحكم ، إنما يتحقق بكون شريعة الإسلام وقوانينه ومبادئه هي التي تحكم ، ويكون الحكم قائمًا على الشورى بين الحاكم والأمة ، والتلقي من مصدر واحد هو الشرع ، وبالتالي فلا مكان للدراويش ومشايخ الطرق الذين يسترزقون باسم الدين في ظل الحكم الإسلامي إلا إذا تحولوا إلى العمل المثمر كغيرهم من أفراد المجتمع " [٢].

الشبهة الثالثة : طغيان الحكم :

ارتبط في أذهان كثير من المثقفين وغيرهم أن الحكم الإسلامي يعني الحكومة الدينية التي من طبيعتها الاستبداد والظلم والجمود وخنق الحريات، وقد جاءت هذه الصورة البائسة من محاكم التفتيش في عصور الظلمات في أوربا ، والتي حرقت العلماء واستعبدت البشر، وكذا من بعض الحكومات القائمة اليوم باسم الدين في بعض بلاد المسلمين ، والتي لا تقوم على الإسلام ، وإنما تتخذه شعارًا للاستبداد .

*وفي الرد على هذه الشبهة يقرر سيد - رحمه الله- أن وجود مثل هذا النوع من

(١) معركة الإسلام والرأسمالية ص ٦٥-٦٩ بتصرف .
(٢) المصدر السابق ص ٦٩-٧٥ بتصرف .

الحكومات المستبدة باسم الدين لا يعني اتهام الدين ووجوب إقصائه من الحياة.

ثم يذكر أمثلة كثيرة للأنظمة الديمقراطية، التي تحكم اليوم في كثير من دول العالم والتي فيها الظلم والاستبداد، وكتم الحريات وانتهاك الحقوق، ويروي قصصًا عن الجرائم والتعذيب للمواطنين في ظل بعض الأنظمة الديمقراطية المعاصرة ! فلماذا لا يطعنون في هذه الأنظمة كما يطعنون في الحكم الإسلامي بسبب سوء تطبيق البعض له أو بسبب انحرافات باسمه ؟؟؟ .

ثم يبين سيد - رحمه الله -: أن المرجع في الحكم على نظام ما يجب أن يكون هو قواعده وأصوله، أما حين تخالف هذه الأصول لأي سبب فَلا يصح الطعن فيه .

فالإسلام بأصوله النظرية ومواقفه التاريخية يمثل نموذجًا فريدًا للعدل وحماية الحقوق المشروعة للبشر، وحتى الحدود التي شرعها الله ، والتي يخطر للبعض - ممن لم يدرس فكرة الإسلام الكلية وقواعده العامة - أن فيها قسوة ، فإن الإسلام لا يقيمها إلا بعد أن لا يكون للمجرمين عذر ولا شبهة ، فالإسلام يمنع أولاً الأسباب التي تضطر الفرد إلى الجريمة ويعالجها علاج وقاية قبل وقوعها ، فإذا استهتر الفرد بها وأقدم عليها فالعقوبة ضرورية لحماية المجتمع [١].

الشبهة الرابعة : غموض النصوص :

يصدق بعض الجهلة ما يشيعه المغرضون بقصد التخويف ، عن غموض النصوص في الشريعة الإسلامية ، ويظنون أن كتب الشروح والحواشي التي تمثل المذاهب الإسلامية وخلافات الفقهاء وردودهم شيء غامض لا يمكن الاستفادة منه.

وفي الرد على هذه الشبهة يقول سيد: " ينسى هؤلاء أن المذاهب الأربعة الكبرى في الإسلام كان مصدر ما فيها من أحكام وتشريعات هو الكتاب والسُّنَّة ، وإن وجد فيها آراء مختلفة في الجزئيات والتطبيقات .

وكل نظرية تشريعية في العالم تختلف حولها الشروح ، ويتجادل فيها القانونيون ، ومع ذلك لا يدعو أحد إلى نبذها بعذر اختلاف الشراح حولها .

---

(١) معركة الإسلام والرأسمالية ص ٧٥-٨٤ بتصرف .

إن الأصول الإسلامية واضحة في الكتاب والسُّنَّة ، وهما الينابيع الأصيلة في الإسلام ، وسعة المبادئ وعمومها في الشؤون العامة المتجددة تترك مجالاً لتطبيقها على الواقع في كل العصور [(١)] .

الشبهة الخامسة : " الحريم " :

وهي شبهة أُلصقت بهذا الدين ، وجدت في عهد الأتراك ، حيث يتحدث البعض أن الإسلام لو حكم فسيعيد النساء رقيقًا ، يحبسن في الحريم .

* وفي الرد على هذه الشبهة يقرر سيد – رحمه الله –: أن وثبة الإسلام بالمرأة وثبة إنسانية كريمة، لم تصل إليها حتى الحضارة الغربية اليوم .

فالإسلام منح المرأة حقوقها التي تحتاجها لتعيش امرأة فاضلة شريفة محترمة .

ويشير –سيد– إلى أن الذين يتحككون بقضايا المرأة اليوم لهم أهدافهم في تجريد المرأة من مقوماتها الإنسانية ، ليتحول المجتمع إلى بهائم باسم الحرية .

وبالتالي فلا خوف على المرأة من حكم الإسلام، لأنه يسمح لها بمزاولة نشاطها الإنساني في حدود الشرف والكرامة [(٢)] .

الشبهة السادسة : التعصب ضد الأقليات :

ذكر سيد – رحمه الله – أن التخوف من حكم الإسلام على الأقليات القومية نوع من التجني الذي لا يليق ، فليس هناك دينٌ ولا حكمٌ في الدنيا ضمن لهذه الأقليات حرياتهم وكرامتهم وحقوقهم كما صنع الإسلام في تاريخه الطويل ... في حين كان جزاء الإسلام من هذه القوميات هو الاضطهاد لأتباعه في بلاد الأديان الأخرى ، مما يجعل الحديث عن قومية الحكم في ظل التشريع الإسلامي حديثًا بغيضًا لا سند له من الحق ولا من الواقع والتاريخ ولا من الإنصاف .

ثم ذكر مثالًا لعهد الأتراك وأورد كلامًا لأحد المستشرقين حول معاملة العثمانيين للمسيحيين مقارنة بما حدث بين بعض الفرق المسيحية في أوربا وروسيا

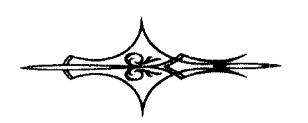
---

(١) معركة الإسلام والرأسمالية ص ٨٤-٨٦ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ص ٨٦-٨٨ بتصرف .

من اضطهاد لأفراد الفرق المخالفة لها من المسيحيين، وأشار إلى أن اليهود الذين أضطهدوا في أسبانيا لم يجدوا لهم مكانًا يؤويهم إلا الخلافة العثمانية ، وبالمقابل أشار إلى ما يعانيه المسلمون في بلاد غير المسلمين كالحبشة وروسيا ويوغسلافيا وسائر بلاد الشيوعية والمسيحية من تعصب واضطهاد [١] .

وأشار سيد - رحمه الله- إلى أن هذه الشبهات وغيرها يكفي في جلائها مجرد المعرفة الصحيحة للحقائق التاريخية والاجتماعية الإسلامية [٢] .



(١)المصدر السابق ص ٨٨ - ٩٢ .
(٢)معركة الإسلام والرأسمالية ص ٦٤ .

المطلب السابع

موقف سيد قطب من الأنظمة المعاصرة ومنهج التغيير عنده



تحدث سيد – رحمه الله– عن الأنظمة المعاصرة وحقيقتها، والموقف الذي ينبغي أن يكون حيالها وكيفية التعامل معها، ويمكن بيان ذلك في الفروع الآتية :

الفرع الأول : **نظرة سيد قطب إلى الأنظمة المعاصرة** :

يرى سيد – رحمه الله– أن هذه الأنظمة من صنائع الاستعمار ومخلفات الغزو الصليبي لبلاد المسلمين في القرنين الماضيين، وأنها أنظمة جاهلية ، لأنها لا تقرّ لله بالحاكمية ، وإنما تعتدي على سلطان الله ، وتدعي لنفسها الحاكمية .

يقول سيد : " إنَّ العالم يعيش اليوم كله في جاهلية ، من ناحية الأصل الذي تنبثق منه مقومات الحياة وأنظمتـها ، هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله في الأرض وعلى أخص خصائص الألوهية وهي الحاكمية ، إنها تسند الحاكمية إلى البشر، فتجعل بعضهم لبعض أربابًا ، لا في الصورة البدائية الساذجة التي عرفتها الجاهلية الأولى ، ولكن في صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم، والشرائع والقوانين ، والأنظمة والأوضاع ، بمعزل عن منهج الله للحياة ، وفيما لم يأذن به الله " [(١)] .

ويبني سيد – رحمه الله– حكمه هذا على أنه لا يوجد في الأرض إلا حكمان: حكم الله سبحانه وتعالى أو حكم الجاهلية ، فلا وسط بين الطرفين ولا بديل .

* فحكم الله هو الذي يقوم على تنفيذ شريعة الله في حياة الناس ، والناس – في أي زمان وفي أي مكان – إما أنهم يحكمون بشريعة الله – دون فتنة عن بعضها – ويقبلونها ويسلمون بها فهم في ديـن الله ، وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر، ويقبلونها فهم إذن في جاهلية..والذي لا يبتغي حـكم الله يبتغي حكم الجاهلية ، والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية ، ويعيش في الجاهلية

(١) معالم في الطريق لسيد قطب ص ١٠ ، وينظر : في ظلال القرآن ٢/ ١١٣٨ ، ٣/ ١٧٣٥ .

وهذا مفرق الطريق "[١].

وأشار- رحمه الله - إلى دور اليهود والصليبيين في القضاء على الخلافة الإسلامية العثمانية ، وإقامة أنظمة وأوضاع في العالم الإسلامي تـتـزيا بزي الإسلام، وتتمسح بالعقيدة، ولا تنكر الدين جملة ، بل تحوله إلى مجرد شعائر ومشاعـر في نفوس الأفراد مع طرده من واقع الحياة ، وهي بذلك تنفذ الأهداف والخطط التي عجز أعداء الإسلام عن تنفيذها من خلال الشيوعية والتنصير والاستعمار بالقوة .

وأحيانًا يلجأ أعداء الإسلام إلى إثارة حروب مصطنعة - باردة أو ساخنة - وعداوات مصطنعة في شتى الصور ، بينهم وبيّن هذه الأنظمة والأوضاع التي أقامتها والتي تكفلها بالمساعدات المادية والأدبية ، وتحرسها بالقوى الظاهرة والخفية ، وتجعل أقلام مخابراتها في خدمتها وحراستها المباشرة!.

تثير هذه الحروب المصطنعة والعداوات المصطنعة ، لتزيد من عمق الخدعة، ولتبعد الشبهة عن العملاء ، الذين يقومون لها بما عجزت هي عن إتمامه في خلال ثلاثة قرون أو تزيد ، من تدمير القيم والأخلاق، وسحق العقائد والتصورات، وتجريد المسلمين في هذه الرقعة العريضة من مصدر قوتهم الأول وهو قيام حياتهم على أساس دينهم وشريعتهم ، وتنفيذ المخططات الرهيبة التي تضمنتها بروتوكولات الصهيونيين ومؤتمرات المبشرين، في غفلة من الرقباء والعيون!.

فإذا بقيت بقية في هذه الرقعة لم تجز عليها الخدعة، ولم تستسلم للتخدير باسم الدين المزيف، وباسم الأجهزة الدينية المسخرة لتحريف الكلم عن مواضعه، ولوصف الكفر بأنه الإسلام، والفسق والفجور والانحلال، بأنه تطور وتقدم وتجدد.. إذا بقيت بقية كهذه سلطت عليها الحرب الساحقة الماحقة، وصبت عليها التهم الكاذبة الفاجرة وسحقت سحقًا، بينما وكالات الأنباء العالمية وأجهزة الإعلام العالمية خرساء صماء عمياء!!![٢].

" ويحتاجون في سبيل ذلك أن يخلقوا أبطالاً مزيفين في أرض الإسلام يعملون لهم

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٠٤ بتصرف ، وأيضًا ٤/ ٢٠١١ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٣٢-١٠٣٣ بتصرف .

في تنفيذ أحقادهم ومكايدهم ضد الإسلام كما فعلوا مع " أتاتورك " حتى صنعوا منه بطلاً قوميًا في أعين مواطنيه، وبذلك استطاع أن يلغي الخلافة ويمحوا الإسلام من تركيا ويحولها إلى دولة علمانية ، وهم يكررون صنع هذه البطولات المزيفة كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام والحركات الإسلامية في بلد من بلاد المسلمين "[(١)] .

ومما سبق يظهر لنا أن سيد قطب - رحمه الله- كان ينظر إلى الأنظمة القائمة في العالم الإسلامي على أنها أنظمة غير إسلامية أو بتعبير أخر أنظمة جاهلية ، لقيام الحاكمية فيها على غير شريعة الله ، ولكن هذا لا يعني الحكم بكفر الشعوب والأفراد ، فتلك مسألة أخرى ! .

وقد وضح سيد - رحمه الله- ذلك كما نقله عنه غير واحد وفي محاضر التحقيق أيضًا حيث سئل - رحمه الله- عن ماذا يقصد بقوله: " إن وجود الأمة المسلمة قد انقطع منذ فترة طويلة ؟ " ، فقال : " لابد من تفسير مدلول كلمة الأمة المسلمة التي أعنيها ، فالأمة المسلمة هي التي تحكم كل جانب من جوانب حياتها الفردية والعامة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية ، شريعة الله ومنهجه، وهي بهذا الوصف غير قائمة الآن لا في مصر، ولا في أي مكان في الأرض ! وإن كان هذا لا يمنع من وجود الأفراد المسلمين، لأنه فيما يتعلق بالفرد يكون الاحتكام إلى عقيدته وخلقه، وفيما يتعلق بالأمة يكون الأحتكام إلى نظام حياتها كلها ! وبالتالي فنظام الحكم القائم نظام غير إسلامي، أو تعبير آخر نظام جاهلي "[(٢)].

الفرع الثاني : الموقف من هذه الأنظمة :

الذي يقرا كتب سيد قطب - رحمه الله- يدرك بوضوح أنه لا يعترف بشرعية الأنظمة التي تقوم على تحكيم غير شريعة الله ، ويعتبرها أنظمة طاغوتية جاهلية، وبالتالي يجب مفاصلتها وفضح حقيقتها والسعي لتغييرها ، ويمكن تلخيص موقف سيد - رحمه الله- من الأنظمة العلمانية في النقاط الآتية :

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٥٥٧-٣٥٥٨ بتصرف .

(٢) ينظر في ذلك : " الموتى يتكلمون " لسامي جوهر ص ١١١- ١٤٦ ، وسيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد للخالدي ص ٤٣٣- ٤٣٤ .

أولًا: وجوب مفاصلتها والبراءة منها:

حيث تحدث سيد - رحمه الله- عن تحديد العلاقة مع الجاهلية وأهلها عمومًا، ووجوب مفاصلتها والتميز عنها، ويعتبر ذلك شرطًا من شروط التمكين للعصبة المؤمنة، فيقول: " وهذا يقودنا إلى موقف العصبة المسلمة في الأرض ، وضرورة مسارعتها بالتميز من الجاهلية المحيطة بها - والجاهلية كل وضع وكل حكم وكل مجتمع لا تحكمه شريعة الله وحدها، ولا يفرد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية - وضرورة مفاصلتها للجاهلية من حولها، باعتبار نفسها أمة متميزة من قومها الذي يؤثرون البقاء في الجاهلية ،والتقيد بأوضاعها وشرائعها وأحكامها وموازينها وقيمها .

إنه لا نجاة للعصبة المسلمة في كل أرض.. إلا بأن تنفصل هذه العصبة عقيديًا وشعوريًا ومنهج حياة عن أهل الجاهلية.. وأن تفاصل قومها على العقيدة والمنهج .. فإذا لم تفاصل هذه المفاصلة ، ولم تتميز هذا التميز ، حق عليها وعيد الله هذا ، وهو أن تظل شيعة من الشيع في المجتمع ، شيعة تتلبس بغيرها من الشيع ، ولا تتبين نفسها ، ولا يتبينها الناس مما حولها ، وعندئذ يصيبها ذلك العذاب المقيم المديد، دون أن يدركها فتح الله الموعود!.

إن موقف التميز والمفاصلة قد يكلف العصبة المسلمة تضحيات ومشقات.. لكنها لن تكون أشد ولا أكبر من الآلام والعذاب الذي يصيبها نتيجة التباس موقفها وعدم تميزه، ونتيجة انضمامها وتميعها في قومها والمجتمع الجاهلي من حولها.

ومراجعة تاريخ الدعوة إلى الله على أيدي الرسل يعطينا يقينًا جازمًا بأن فتح الله ونصره ، وتحقيق وعده للذين آمنوا لم يقع مرة واحدة ، قبل تميز العصبة المسلمة ومفاصلتها لقومها على العقيدة ..وطريق الدعوة واحد "[1] .

ويقرر سيد قطب - رحمه الله- أن المفاصلة تمر بمراحل:

المرحلة الأولى: المفاصلة العقدية الشعورية: وهي شعور المسلم بانفصاله عن أهل الجاهلية ، وبغضهم وعداوتهم ، والانخلاع من تصورات الجاهلية ، وقيمها

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٥ بتصرف يسير ، ٤/ ١٩٤٦- ١٩٤٧ .

وروابطها ، والتحلي بالقيم الإيمانية ، وهذه المفاصلة العقيدية الشعورية يجب أن تتم منذ اللحظة الأولى [١] .

المرحلة الثانية: الوضوح في دعوة الناس إلى الإسلام الحق: فلا بد من الوضوح في دعوة الناس إلى الدينونة لله وحده في كل شؤون الحياة ، ونبذ الدينونة لغير في أي صورة من الصور، وقد تطول فترة الدعوة قبل المفاصلة العملية [٢] .

وتحدث سيد - رحمه الله- عن العرض المتميز للدعوة في فصل كامل من " معالم في الطريق " بعنوان " نقلة بعيدة ! " فقال : " هناك حقيقة أولية ، ينبغي أن تكون واضحة في نفوسنا تمامًا ونحن نقدم الإسلام للناس : المؤمنين به أو غير المؤمنين على السواء..

إن الإسلام تصور مستقل للوجود والحياة ذو خصائص متميزة، ينبثق منه منهج مستقل للحياة بكل مقوماتها، ويقوم عليه نظام خاص، يخالف سائر التصورات الجاهلية قديمًا وحديثًا..

ووظيفة الإسلام الأولى هي إنشاء حياة توافق هذا التصور وتمثله في الواقع نظامًا، وليس الاصطلاح مع التصورات والأوضاع الجاهلية - أو الالتقاء معها في منتصف الطريق والقبول بأنصاف الحلول، فالإسلام وظيفته إقصاء الجاهلية من قيادة البشرية، وتولي قيادتها على منهجه الخاص، لم يجيء ليربت على شهوات الناس وأنظمتهم وأوضاعهم الجاهلية..

فالجاهلية خبثت قديمًا وخبثت حديثًا.. يختلف خبثها في مظهره وشكله ، ولكنه واحد في أصله ومغرسه.. وهذه الحقيقة ينبغي أن تكون من القوة والوضوح في نفوسنا ونحن نقدم الإسلام للناس بحيث لا نتلجلج في الإدلاء بها ولا نتلعثم، ولا ندع الناس في شك منها...

يجب ألاَّ ندع الناس حتى يدركوا أن الإسلام ليس هو أي مذهب من المذاهب الاجتماعية الوضعية ، كما أنه ليس أي نظام من أنظمة الحكم الوضعية .. بشتى

---

(١) معالم في الطريق ص ٢٠ ، وفي ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٦-١٩٤٧ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٧ بتصرف يسير .

أسمائها وشياتها وراياتها جميعًا .. وإنما هو الإسلام فقط ! الإسلام بشخصيته المستقلة وتصوره المستقل، وأوضاعه المستقلة، وحين ندرك حقيقة الإسلام على هذا النحو، فسيجعلنا نخاطب الناس ونقدم لهم الإسلام، في ثقة وقوة، وفي عطف كذلك ورحمة.. ثقة الذي يستيقن أن ما معه هو الحق وأن ما عليه الناس هو الباطل، وعطف الذي يرى شقوة البشر، وهو يعرف كيف يسعدهم ..

لن نتدسس إليهم بالإسلام تدسسًا ، ولن نربت على شهواتهم وتصوراتهم المنحرفة .. سنكـون صرحاء معهم غاية الصراحة.. هـذه الجاهلية التي أنتم فيها نجس والله يريد أن يطهركم.. هذه الأوضاع التي أنتم فيها خبث، والله يريد أن يطيِّبكم.. هذه الحياة التي تحيونها دَوْنٌ، والله يريد أن يرفعكم ، والإسلام سيغير تصوراتكم وأوضاعكم وقيمكم ، ويرفعكم إلى حياة وأوضاع وقيم أفضل منها وهكذا ينبغي أن نخاطب الناس ونحن نقدم لهم الإسلام .

وهذه هي الصورة التي خاطب الإسلام الناس بها أول مرة ، نظر إليهم من عل، خاطبهم بلغة الحب والعطف ، وفاصلهم مفاصلة كاملة لا غموض فيها ولا تردد لأن هذه هي طريقته.. ولم يقل لهم أبدًا إنه لن يمس حياتهم وأوضاعهم وتصوراتهم وقيمهم إلا بتعديلات طفيفة ! أو أنه يشبه نظمهم وأوضاعهم، كما يقول بعضنا اليوم للناس وهو يقدم إليهم الإسلام.. مرة تحت عنوان: "ديمقراطية الإسلام" ! ومرة تحت عنوان " اشتراكية الإسلام " ! ... إلى آخر هذا التدسس الناعم والتربيت على الشهوات ! .

كلا، إن الأمر مختلف جدًا.. فصورة الحياة الإسلامية مغايرة تمامًا لصور الحياة الجاهلية قديمًا وحديثًا... وهذه حقيقة يجب أن نجهر بها ونصدع، وألا ندع الناس في شك منها ولا لبس. وقد يكره الناس هذا في أول الأمر و يجفلون منه كما كرهوه في أول الدعوة وحاربوه، ومع ذلك فقد فاؤوا إلى الحق الذي لم يعجبهم أول مرة... وعمومًا فليس لنا أن نجاري الجاهلية في شيء من تصوراتها وأوضاعها وتقاليدها ، مهما كان ضغطها علينا ، لابد لنا أن نثبت أولًا ، وأن نستعلي ثانيًا ، وأن نبين حقيقة

الجاهلية بالقياس إلى الآفاق العليا للحياة الإسلامية التي نريدها [١].

المرحلة الثالثة : المفاصلة العملية : وتكون في حالة الضعف تكون بهجر مجالس المنكر والزور وعدم مجاراة أهل الجاهلية في باطلهم أو السكوت عنهم ، فالمسلم مأمور بمفاصلتهم وبمقاطعتهم إلا للذكرى [٢].

يقول سيد - رحمه الله-: " ولن يكون هذا- أي التميز والمفاصلة- بأن نجاري الجاهلية في بعض الخطوات، كما أنه لن يكون بأن نقاطعها الآن وننزوي عنها وننعزل.. كلا! ، إنما هي المخالطة مع التميز ، والأخذ والعطاء مع الترفع ، والصدع بالحق في مودة ، والاستعلاء بالإيمان في تواضع [٣]. فسيد – رحمه الله- في كلامه السابق يرفض أمرين :

الأول : مجارة أهل الجاهلية في جاهليتهم سواء كانت في التصور أو الحكم أو السلوك .

والثاني : الانعزال والانزواء في الكهوف وترك أهل الجاهلية يزاولون منكراتهم، ويحدد طريقة التعامل: بالمخالطة مع التميز ، والتعامل مع الترفع ، والصدع بالدعوة في مودة والاستعلاء بالإيمان الذي يحمله الداعية .

وهذا يرد على من يقول بأن سيد – رحمه الله- دعا إلى عزلة المجتمعات ومفاصلة الناس . أما قضية تولي المناصب في ظل الأنظمة غير الإسلامية ، فيفهم من كلام سيد قطب – رحمه الله- في قصة يوسف – عليه السلام – أنه يرى جوازها بشرط أن يكون من يتولاها في عمله حاكمًا مطاعًا لا خادمًا للوضع الجاهلي، وأن يتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره وإلا فلا [٤].

ويقرر سيد – رحمه الله- أن فترة الدعوة قد تطول قبل المفاصلة العملية ، وقد يبطئ الفصل ، وتكثر التضحيات ، ولكن وعد الله بالفصل يجب أن يكون في قلوب

(١) معالم في الطريق : فصل نقله بعيدة ص ١٦٢-١٧٧ بتصرف يسير .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٨ بتصرف .
(٣) معالم في الطريق ١٧٦ .
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠١٣ .

العصبة المؤمنة أصدق من الواقع الظاهر في جيل أو أجيال فهو لا شك آتٍ ، ولن يخلف الله وعده [(١)].

ثانيًا: إزالة اللافتات المضللة عن الأنظمة الجاهلية:

يقول سيد -رحمه الله- : "وأعداء هذا الدين الراصدون لحركات البعث الإسلامي الجديدة في هذا الجيل، يرصدونها عن خبرة واسعة بطبيعة النفس البشرية وبتاريخ الحركة الإسلامية على السواء وهم من أجل ذلك حريصون كل الحرص على رفع لافتة إسلامية على الأوضاع والحركات والاتجاهات والقيم والتقاليد والأفكار التي يعدونها لسحق حركات البعث الإسلامي الجديدة في أرجاء الأرض جميعًا ، ذلك لتكون هذه اللافتة الخادعة مانعة من الانطلاق لمواجهة "الجاهلية" الحقيقية القابعة وراء تلك اللافتة الكاذبة ! ... كما فعلوا مع حركة "أتاتورك" التي ألبسوها " لافتة إسلامية " فتحتم – إذن – إزالة هذه اللافتة ، وتعريتهم من ظلها الخادع، وكشفهم على حقيقتهم الواقعة، لأن السذج من الدعاة إلى الإسلام في الأرض يتحرجون من إنزالها عن " الجاهلية " القائمة تحتها، ويتحرجون من وصف هذه الأوضاع بصفتها الحقيقية التي تحجبها هذه اللافتة الخادعة.. وكل هذا يحول دون الانطلاق الحقيقي الكامل لمواجهة هذه الجاهلية ، بل يؤدي إلى تخدير حركات البعث الإسلامي ، وتقوم حاجزًا دون الوعي الحقيقي ، وهؤلاء السذج – من الدعاة إلى الإسلام – أخطر في نظري على حركات البعث الإسلامي من أعداء هذا الدين الواعين الذين يرفعون لافتة الإسلام على الأوضاع والحركات والاتجاهات والأفكار والقيم والتقاليد التي يقيمونها ويكفلونها لتسحق هذا الدين.

والخطر الحقيقي على هذا الدين ليس في قوة أعدائه بقدر ما يكمن في سذاجة أبنائه .. لذا فالواجب الأول على الدعاة في الأرض أن ينزلوا تلك اللافتات الخادعة المرفوعة على الأوضاع الجاهلية.. وهذا نقطة البدء في أية حركة إسلامية " [(٢)].

---

(١) المصدر السابق ٤/ ١٩٤٧ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٦٤٨-١٦٥٠ بتصرف .

ثالثًا : السعي لتغيير الأنظمة الجاهلية وإقامة النظام الإسلامي :

الذي يقرأ كتب سيد - رحمه الله- وخاصة " الظلال " و " المعالم " يجد أنه يتحدث كثيرًا عن وجوب العمل الدائب لتغيير الأنظمة الجاهلية، من خلال إستراتيجية طويلة، إبتداءً بتوعية الأمة بالإسلام وتكوين قاعدة شعبية تقبل الإسلام وتطالب به وتحافظ عليه.

ومع ذلك لا يغفل محاربة المنكرات الجزئية ، بل يرى وجوب ربطها بالمنكر الأكبر وهو " حاكمية غير الله " وعدم الانشغال بها عن هذا المنكر الأكبر .

وقد انتقد رحمه الله الذين ينشغلون بالمنكرات الجزئية ، ويجعلون منها إستراتيجية تشتغل الناس عن المنكر الأكبر.

ويحدد - سيد قطب - بوضوح موقفه من الأنظمة الجاهلية ، ويقرر أن الاكتفاء بترقيعها والانشغال بالجزئيات عن الأصل وهو التغيير ، لا يصح مطلقًا ، بل هو انحراف عن المنهج الإسلامي الذي يرفض التعايش مع الجاهلية أو الالتقاء معها في منتصف الطريق فيقول: " وليست وظيفة الإسلام إذن أن يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة في الأرض ، ولا الأوضاع الجاهلية القائمة في كل مكان، لم تكن هذه وظيفته يوم جاء ، ولن تكون هذه وظيفته اليوم ، ولا في المستقبل، فالجاهلية هي الجاهلية، الجاهلية هي الانحراف عن العبودية لله وحده ، وعن المنهج الإلهي في الحياة ، واستنباط النظم والشرائع والقوانين والعادات والتقاليد والقيم والموازين من مصدر آخر غير المصدر الإلهي والإسلام هو الإسلام ، ووظيفته هي نقل الناس من الجاهلية إلى الإسلام " [(١)].

ويقول : " إن الإسلام لا يقبل أنصاف الحلول مع الجاهلية، لا من ناحية التصور، ولا من ناحية الأوضاع المنبثقة من هذا التصور.. فإما إسلام وإما جاهلية، وليس هنالك وضع آخر نصفه إسلام ونصفه جاهلية يقبله الإسلام ويرضاه .. فنظرة الإسلام واضحة في أن الحق واحد لا يتعدد ، وأن ما عدا هذا الحق فهو الضلال، وهما غير قابلين للتلبس والامتزاج، وإنه إما حكم الله وإما حكم الجاهلية، وإما

(١) معالم في الطريق ص ١٦٣ .

شريعة الله، وإما الهوى..والآيات القرآنية في هذا المعنى متواترة كثيرة :﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾[١]،[٢].

ويقول : " ليست مهمتنا أن نصطلح مع واقع المجتمع الجاهلي، ولا أن ندين له بالولاء.. فهو غير قابل لأن نصطلح معه، إن مهمتنا أن نغير من أنفسنا أولًا لنغير هذا المجتمع أخيرًا.

إن مهمتنا الأولى هي تغيير واقع هذا المجتمع من أساسه لأنه يصطدم اصطداما أساسيا بالمنهج والتصور الإسلامي ويحرمنا بالقهر والضغط أن نعيش كما يريد لنا المنهج الإلهي أن نعيش "[٣].

ويقول : " إن الإسلام إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد ،فهو يهدف إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الإنسان للإنسان "[٤].

مراحل التغيير ووسائلها عند سيد قطب:

يرى سيد قطب: أن تغيير الأنظمة الجاهلية يحتاج إلى إستراتيجية طويلة تمر بعدة مراحل هي :

المرحلة الأولى: مرحلة الدعوة والبيان وإحياء العقيدة في نفوس الناس وتربيتهم على الإسلام:

حيث خلص -سيد قطب- من خلال مراجعته ودراسته الطويلة للحركة الإسلامية المعاصرة ومقارنتها بالحركة الإسلامية الأولى - جيل الصحابة - إلى أن الحركة اليوم تواجه حالة شبيهة بالحالة التي كانت عليها المجتمعات يوم جاء الإسلام من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة الإسلامية ، والبعد عن القيم والأخلاق الإسلامية ،

(١) سورة المائدة : الآية ٤٩ .
(٢) معالم في الطريق ص ١٦٣ .
(٣) المصدر السابق ص ١٦٣ .
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٣٥ .

وليس فقط البعد عن النظام والشريعة الإسلامية ، وفي الوقت نفسه توجد معسكرات مختلفة تحارب الدعوة الإسلامية وتعمل على تدميرها بوسائل مختلفة .

وبما أن المجتمعات بجملتها قد بعدت عن فهم مدلول العقيدة الإسلامية والغيرة عليها ، وبعدت عن الأخلاق الإسلامية ، فلابد إذن أن تبدأ الحركات الإسلامية من القاعدة وهي إحياء مدلول العقيدة الإسلامية في القلوب والعقول [١] .

ويرى أن" أصحاب الدعوة إلى دين الله وإقامة النظام الذي يتمثل فيه هذا الدين والواقع خليقون أن يقفوا أمام ظاهرة اهتمام القرآن الكريم والنبي ﷺ بتقرير العقيدة في بداية الدعوة وعدم مجاوزتها إلى غيرها ..فمتى استقرت العقيدة في النفوس استقر معها النظام الذي تتمثل فيه " لا اله إلا الله " بعد ذلك في الواقع..

وينبغي أن تطول مرحلة بناء العقيدة، وأن تتم خطوات البناء على مهلٍ ، وفي عمقٍ وتثبت، فبناء النفوس والجماعات لا يتم بين يوم وليلة [٢].

" وأشق ما تعانيه حركات الإسلام اليوم هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول " لا إله إلا الله" ومدلول الإسلام في جانب، وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية في الجانب الآخر.. وبالتالي فيجب أن تبدأ الدعوة إلى الله ببيان الحق والباطل وألا تأخذها خشية أو خوف في سبيل بيان الواقع وتعريف الناس بما يجب أن يكونوا عليه " [٣] .

المرحلة الثانية :التنظيم وبناء القاعدة الصلبة (العصبة المؤمنة) :

يرى – سيد قطب – أن التغيير ينبغي أن يكون عن طريق تكوين تنظيم ناجح، يتنامى هذا التنظيم ويزداد انتشارًا حتى يكون قاعدة إسلامية صلبة قادرة على التغيير الشامل للأنظمة الجاهلية ، فيقول : " وهذا يقتضي عملية بعث في الرقعة الإسلامية ، هذا البعث الذي يتبعه – على مسافة ما بعيدة أو قريبة – تسلم قيادة البشرية ، فكيف تبدأ عملية البعث الإسلامي ؟ .

---

(١) ينظر : لماذا أعدموني ص ٢٧-٢٨ بتصرف .
(٢) ينظر : معالم في الطريق ص ٤٢-٥١ ، في ظلال القرآن ٢/ ١٠٠٥-١٠١٥ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ١١٠٦-١١٠٧ بتصرف .

إنه لا بد من طليعة تعزم هذه العزمة ، وتمضي في الطريق ، تمضي في خضم الجاهلية الضاربة الأطناب في أرجاء الأرض جميعًا ، تمضي وهي تزاول نوعًا من العزلة من جانب ، ونوعًا من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة..

ولا بد لهذه الطليعة من معرفة بدورها ، وحقيقة وظيفتها ، ونقطة البدء في الرحلة الطويلة ، وموقفها من الجاهلية وأين تلتقي مع الناس وأين تفترق وكيف تخاطبهم وبم تخاطبهم ؟ [١] .

ويطلق سيد - رحمه الله- على هذا التنظيم أسماء متعددة في كتاباته، فأحيانًا يسميه " الجماعة المسلمة" وأحيانا " العصبة المسلمة " وأحيانًا " طلائع البعث الإسلامي " وأحيانًا " الطليعة المؤمنة " وأحيانًا " التجمع الحركي العضوي " [٢].

ويعلل سيد - رحمه الله- ظروف وجود هذا التنظيم والتجمع الحركي لتغيير الأنظمة الجاهلية بقوله: " ومن أجل أن الجاهلية لا تتمثل في نظرية مجردة ، ولكن تتمثل في تجمع حركي على هذا النحو، فإن محاولة إلغاء هذه الجاهلية ، ورد الناس إلى الله مرة أخرى ، لا يجوز - ولا يجدي شيئًا - أن تتمثل في نظرية مجردة ، فإنها حينئذ لا تكون مكافئة للجاهلية القائمة فعلًا والمتمثلة في تجمع حركي عضوي ، فضلًا على أن تكون متفوقة عليها كما هو المطلوب في حالة محاولة إلغاء وجود قائم بالفعل ، لإقامة وجود آخر يخالفه مخالفة أساسية في طبيعته وفي منهجه وفي كلياته وجزئياته ، لا بد لهذه المحاولة الجديدة أن تتمثل في تجمع عضوي حركي أقوى في قواعده النظرية والتنظيمية ، وفي روابطه وعلاقاته ووشائجه من ذلك التجمع الجاهلي القائم فعلًا " [٣].

ويقول أيضًا : " والمنهج الإلهي الذي يمثله الإسلام في صورته التي جاء بها محمد ﷺ لا يتحقق في الأرض وفي دنيا الناس مجرد تنزله ، ولا مجرد إبلاغه للناس وبيانه، ولا بالقهر الإلهي على نحو ما يمضي ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب ، إنما يتحقق بأنه تحمله جماعة من البشر ، تؤمن به إيمانًا كاملًا، وتستقيم عليه - بقدر

(١) معالم في الطريق ص ١١، ١٢ بتصرف يسير .
(٢) ينظر : في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥٦ و معالم في الطريق ص ١١ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٥٤ ، وهذا الدين ص ٩ .
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥٦ ، معالم في الطريق ص ٥٤ .

طاقتها – وتجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم كذلك ، وتجاهد لهذه الغاية بكل ما تملك ، فتجاهد الضعف البشري والهوى داخل نفوسها ، وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى للوقوف في وجه الهدى "[١] .

وقد حاول سيد – رحمه الله– إنشاء هذا التنظيم من خلال محاولة إحياء تنظيم يستفيد من قاعدة الإخوان المسلمين المحظورة ، وهو ما عرف بتنظيم " ٦٥ " والذي شارك فيه مع مجموعة من قيادات الإخوان المسلمين ، ووضع له برنامجًا تربويًا يقوم على إحياء مدلول العقيدة الإسلامية في القلوب والعقول ، وتربية من يقبل هذه الدعوة وهذه المفهومات الصحيحة ، تربية إسلامية صحيحة ، وفق برنامج تربوي متكامل[٢] .

وبعد ذلك تجيء الخطوات التالية بطبيعتها، بحكم اقتناع وتربية القاعدة في المجتمع والتي تكون نواة للعمل والتغيير[٣] .

وقد أشار سيد – رحمه الله– إلى أنه " لا يجوز البدء بأي تنظيم إلا بعد وصول الأفراد إلى درجة عالية من فهم العقيدة ، ومن الأخذ بالخلق الإسلامي في السلوك والتعامل ، ومن الوعي بالمفاهيم الإسلامية وطريقة التعامل مع المعسكرات المعادية والعقبات في طريق الدعوة "[٤] .

المرحلة الثالثة : إزالة الأنظمة الجاهلية :

وهذه المرحلة هي المرحلة النهائية في طريق التغيير عند سيد قطب، حيث يقول: " وقيام مملكة الله في الأرض، وإزالة مملكة البشر، وانتزاع السلطان من أيدي مغتصبيه من العباد ورده إلى الله وحده ، وسيادة الشريعة الإلهية وحدها ، وإلغاء القوانين البشرية، كل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان، لان المتسلطين على رقاب العباد ، المغتصبين لسلطان الله في الأرض لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان ، وإلا فما كان أيسر عمل الرسل في إقرار دين الله في الأرض ، وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل –

---

(١) هذا الدين ص ٩-١٠ بتصرف يسير .

(٢) لماذا أعدموني ص ١٧، ٢٦-٢٩ بتصرف يسير ، وسيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد للخالدي ص ٣٨٦ وما بعدها .

(٣) لماذا أعدموني ص ٣١ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٢، ٤٣ بتصرف .

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – وتاريخ هذه الدين على مر الأجيال !.

إن هذا الإعلان العام لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من كل سلطان غير سلطان الله ، لم يكن نظريًا سلبيًا ، إنما كان إعلانًا حركيًا ايجابيًا .. ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل " الحركة " إلى جانب شكل " البيان " ليواجه " الواقع" البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه " فالبيان" يواجه العقائد والتصورات ، و" الحركة " تواجه العقبات المادية الأخرى ، وهما معًا يواجهان " الواقع البشري" بجملته "[١] .

ومن ثم لم يكن بد " للإسلام " أن ينطلق في الأرض لإزالة " الواقع " المخالف لذلك الإعلان العام، بالبيان وبالحركة مجتمعين ، وأن يوجه الضربات للقوى السياسية التي تُعَبِّد الناس لغير الله – أي تحكم بغير شرع الله وسلطانه – والتي تحول بينهم وبين الاستماع إلى " البيان " ،والذي يدرك طبيعة هذا الدين– على النحو المتقدم– ليدرك معها حتمية الانطلاق الحركي للإسلام في صورة جهاد بالسيف – إلى جانب الجهاد بالبيان "[٢] .

ويقول أيضًا : " وإن هذا الدين لا يقوم إلا بجهد وجهاد ،ولا يصلح إلا بعمل وكفاح ، ولا بد لهذا الدين من أهل يبذلون جهدهم لرد الناس إليه ، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وتقرير ألوهية الله في الأرض ، وردع للمغتصبين سلطان الله ، وإقامة شريعة الله في الحياة، لا بد من جهد :

- **بالحسنى :** حين يكون الضالون أفرادًا ضالين ، يحتاجون إلى الإرشاد والإنارة

- **وبالقوة :** حين تكون القوة الباغية في طريق الناس هي التي تصدهم عن الهدى، وتعطل دين الله أن يوجد ، وتعوق شريعة الله أن تقوم "[٣] .

ومما سبق عرضه من النصوص نجد أن سيدًا - رحمه الله- يؤكد على ضرورة التغيير بالقوة بشرط :

١ – أن يكون هذا التغير بعد مرحلة تعريف الناس بالإسلام الحق ودعوتهم إليه

---

(١)في ظلال القرآن ٣/ ١٤٣٤ بتصرف .
(٢) المصدر السابق ٣/ ١٤٣٥ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٩٩٢-٩٩٣.

وتربيتهم عليه .

٢- وجود القاعدة الإسلامية الصلبة في شكل تجمع عضوي وحركي مؤثر في المجتمع .

٣- وجود القدرة على تغيير الأنظمة .

أما قبل وجود هذه الأمور فإن سيد قطب - رحمه الله- يرى استبعاد استخدام القوة لتغيير الأنظمة لان النتائج لن تكون نافعة بل ضارة حيث يقول : " فإذا كان المسلمون اليوم لا يملكون بواقعهم تحقيق هذه الأحكام ، فهم - اللحظة وموقتًا - غير مكلفين بتحقيقها - ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها - ولهم في الأحكام المرحلية سعة يتدرجون معها حتى ينتهوا إلى تنفيذ هذه الأحكام عندما يكونون في الحال التي يستطيعون معها تنفيذها "[١] .

ويوضح سيد قطب - رحمه الله- طبيعة تنظيم "٦٥" ووسائل التغيير التي وضعها فيقول: " وكنا قد اتفقنا على استبعاد استخدام القوة كوسيلة لتغيير نظام الحكم أو إقامة النظام الإسلامي، وفي الوقت نفسه قررنا استخدامها في حالة الاعتداء على هذا التنظيم الذي يسير على منهج تعليم العقيدة وتربية الخلق وإنشاء قاعدة للإسلام في المجتمع "[٢] .

ويقول: " ولابد إذن أن تبدأ الحركات الإسلامية من القاعدة : وهي إحياء مدلول العقيدة الإسلامية في القلوب والعقول، وتربية من يقبل الدعوة وهذه المفهومات الصحيحة تربية إسلامية صحيحة ، وعدم إضاعة الوقت في الأحداث السياسية الجارية ، وعدم محاولات فرض النظام الإسلامي عن طريق الاستيلاء على الحكم قبل أن تكون هناك القاعدة المسلمة في المجتمعات هي التي تطلب النظام الإسلامي لأنها عرفته على حقيقته وتريد أن تحكم به.. وفي الوقت نفسه ومع المضي في برنامج تربوي كهذا ،لابد من حماية الحركة من الاعتداء عليها أو تدميرها من خلال وجود مجموعات فدائية مدربة بعد تمام تربيتها للتدخل في حالة الاعتداء على الجماعة "[٣].

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٥٨٢ بتصرف يسير .

(٢) لماذا أعدموني ص ٤٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٨-٢٩ بتصرف .

ويفهم من كلام سيد - رحمه الله- السابق أن استخدام القوة يكون في حالتين:

الأولى: في حالة الاعتداء على التنظيم من قبل الأنظمة الجاهلية.

الثانية: في حالة تكوين القاعدة الإسلامية في المجتمع ووجود القدرة على تغيير الأنظمة الجاهلية .

أما قبل ذلك فلا يجوز استخدام القوة ، بل يجب الانصراف إلى الدعوة والبيان وتعريف الناس بالعقيدة وتربيتهم على الإسلام مهما اقتضى ذلك من الزمن الطويل والمراحل البطيئة [١].

وسائل التغيير الخاطئة في نظر سيد قطب :

تبين لنا فيما سبق أن إستراتيجية تغيير الأنظمة الجاهلية في فكر سيد قطب تقوم على التدرج في ثلاث مراحل:

الأولى: الدعوة والبيان والبلاغ وتعريف الناس بالإسلام الحق والمفاهيم العقدية الصحيحة وتربيتهم عليها.

الثانية: إنشاء تنظيم حركي من العناصر التي تم تربيتها على العقيدة والخلق، لتكون هي القاعدة الصلبة في المجتمع والتي ستنقل المجتمع إلى الإسلام الصحيح.

الثالثة: تغيير الأنظمة عند وجود القدرة وتوفر الوسائل التي تضمن النجاح.

وقد نبه سيد - رحمه الله- إلى بعض الطرق والوسائل التي يراها خاطئة في عملية التغيير ومنها:

١ - الانشغال بالمشاركة السياسية عن التربية :

وذلك نابع من نظرة سيد - رحمه الله- إلى الأنظمة القائمة اليوم سواء كانت رأسمالية أو اشتراكية أو ديمقراطية بأنها أنظمة علمانية جاهلية [٢].

*وبالتالي فالمشاركة فيها والانشغال بالعمل السياسي دون الاهتمام بالتربية فيه

---

(١) لماذا أعدموني ص ٢٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٥٦ بتصرف يسير .

إضاعة للوقت، وفيه تلبيس على الناس بشرعية هذه الأنظمة المضادة للإسلام، يقول سيد : " أن محاولة وضع أقنعة على الإسلام أخرى كالاشتراكية والديمقراطية، وغيرها هي محاولة ذليلة ، فالاشتراكية مذهب اجتماعي اقتصادي من صنع البشر، والديمقراطية نظام للحياة أو للحكم من صنع البشر كذلك يحمل صنع البشر من القابلية للصواب والخطأ ، بينما الإسلام منهج حياة مبرأ من النقص والعيب ... فالإسلام هو الإسلام ، والاشتراكية هي الاشتراكية ، والديمقراطية هي الديمقراطية .. ذلك منهج الله .. وهذه مناهج البشر ، ولا ينبغي لصاحب الدعوة إلى دين الله ، أن يستجيب لإغراء الزي الرائج .. فيقدم الإسلام للناس في أزياء اليوم التي يحبها البشر بل لا بد أن يستعلي بدينه فلا يستجيب لاقتراحات المقترحين، ولا يحاول تزيين هذا الدين بغير اسمه وعنوانه ، ولا مخاطبة الناس بغير منهجه ووسيلته " [1] .

*" فالديمقراطية ليست إلا لافتة خادعة أوقعت الأكثرية الساحقة في عبودية ذليلة للأقلية الطاغية التي تملك رأس المال وتملك معه الأغلبية البرلمانية والدساتير الوضعية والحريات الصحيفة...وغيرها مما ظنها الناس كفيلة بضمان إنسانيتهم وكرامتهم ، فكانت العاقبة ذلك الطغيان الذي أحال كل تلك الأمور إلى مجرد لافتات وخيالات" [2] .

*ويقرر سيد – كما سبق معنا– وجوب مفاصلة الأنظمة الجاهلية ، وعدم لبس الإسلام باللافتات الخادعة للجماهير ، فعلى العصبة المسلمة أن تتميز بعقيدتها ، وتفاصل مفاصلة كاملة واضحة لا غموض فيها، كما كان رسول الله ﷺ يعرضها مفاصلًا ومتميزًا ، لا كما يفعل اليوم البعض ممن يقدم الإسلام للناس مرة تحت عنوان " ديمقراطية الإسلام " ومرة تحت عنوان " اشتراكية الإسلام " ... إلى أخر هذا التدسس الناعم .. والأمر مختلف جدًا " [3] .

* فالإسلام لا يقبل أنصاف الحلول مع الجاهلية، ولا يقبل التلبس والامتزاج

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١٠٨٣-١٠٨٤ بتصرف .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٢-١٩٤٣ بتصرف .
(٣) معالم في الطريق ص ١٦٩ بتصرف .

بها ،وإنه إما حكم الله وإما حكم الجاهلية : أمران لا ثالث لهما "[١] .

* ويؤكد سيد - رحمه الله- أن عدم مفاصلة أهل الباطل تسبب التباس الأمر على الناس وتحرم الدعوة من النصر في النهاية[٢].

* وكان من مآخذ سيد - رحمه الله- على الجماعات الإسلامية انشغالها في أحيان كثيرة بالاستغراق في الحركات السياسية ، وشغل نفسها بمطالبة الحكومات بتطبيق النظام الإسلامي ، بينما المجتمعات ذاتها بجملتها قد بعدت عن فهم مدلول العقيدة والغيرة عليها والأخلاق الإسلامية ، ومن هنا يؤكد على أهمية التربية والتنظيم ، وعدم إضاعة الوقت في الإحداث السياسية[٣].

* ويرى أن قيام حكم إسلامي في أي بلد لن يجيء عن طريق الانتخابات ، وأنه لن يكون إلا بمنهج بطيء طويل المدى يستهدف القاعدة لا القمة ، ويبدأ من غرس العقيدة من جديد ، والتربية الإسلامية والأخلاقية ، وأن هذا الطريق الذي يبدو بطيئًا وطويلًا جدًا أقرب الطرق وأسرعها[٤].

* وكان من توجيهاته العامة للإخوان ولكل الحركات الإسلامية بعد خروجه من السجن أن لا تستغرقهم الأحداث الجارية ، وألا ينغمسوا فيها وفي المناورات الحزبية والسياسية ، فإن لهم حقلًا أخر أوسع وأبعد مدى وإن كان بطيئًا وطويل الأمد ، وهو حقل البعث الإسلامي للعقيدة والقيم والأخلاق والتقاليد الإسلامية في صلب المجتمع حتى بإذن الله بقيام النظام الإسلامي[٥] .

٢- الانقلابات على الأنظمة :

تحدث سيد - رحمه الله- عن وسائل تغيير الأنظمة الجاهلية بالخطوات الإستراتيجية كما سبق ، واستبعد التغيير عن طريق الانقلابات لما فيه من مفاسد،

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٤-١٦٥ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٥ بتصرف .

(٣) لماذا أعدموني ص ٢٨-٢٩ ، ٣١ .

(٤) المصدر السابق ص ٦٧ ، وكلام سيد - رحمه الله تعالى - حول اهتمامات إخوان السودان بالانتخابات في وقته ، ولكن كانت نتيجتها كما توقع سيد مخيبة لآمالهم .

(٥) لماذا أعدموني ص ٧٠ .

حيث يرى أن التنظيم الذي يمثل القاعدة الصلبة لإقامة النظام الإسلامي مهمته تربية المجتمع ونقل قطاعات كبيرة من الأمة إلى الإسلام بالوسائل المشروعة ، وأن المجموعات الفدائية في هذا التنظيم ليس لها أن تبدأ الاعتداء ، ولا أن تحاول قلب نظام الحكم ، طالما والدعوة ممكنة بغير مصادرة أو تدمير ...

ويقرر أن الوصول إلى تطبيق النظام الإسلامي " الحكم بشريعة الإسلام ليس هدفًا عاجلًا لأنه لا يمكن تحقيقه إلا بعد نقل المجتمعات ذاتها أو غالبيتها إلى ممارسة الحياة الإسلامية الحقة " [١] .

وبالتالي لا يكون الوصول إلى إقامة النظام الإسلامي وتحكيم الشريعة الإسلامية عن طريق انقلاب في الحكم يجيء من أعلى ، ولكن عن طريق تغيير في تصورات المجتمع كله - أو مجموعات كافية لتوجيه المجتمع كله - وفي قيمه وأخلاقه والتزامه بالإسلام ، يجعل نظامه وشريعته فريضة لابد منها في حسهم [٢] .

٣- رفع رايات القومية والإصلاح الاجتماعي والأخلاقي والاقتصادي وغيرها :

حذر سيد - رحمه الله- الدعاة من بعض الطرق الخاطئة التي تخالف منهج التغيير الإسلامي وتعتبر مزالق للحركة الإسلامية أو استدراج لها ، ومن ذلك رفع راية للإصلاح والتغيير غير راية العقيدة ، حيث يقرر أن الأصل في الدعوة الإسلامية التغييرية هو البدء بالعقيدة كما بداء بها النبي ﷺ .

* فقد كان من الممكن لرسول الله ﷺ أن يقوم بحركة قومية عربية ، تستهدف تجميع العرب وتحريرهم من الاستعمار الفارسي والروماني ، فإذا نجح طبق عليهم الإسلام بحكم ما له من سلطان ، ومع ذلك بدأ بالعقيدة ،

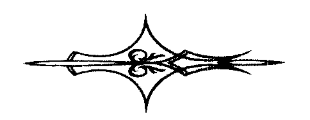
* وكذلك كان بإمكان النبي ﷺ أن يقود حركة إصلاح اجتماعي وينادي بحقوق الفقراء والمستضعفين ويقودهم لتحطيم الطواغيت ، ثم يحكم الإسلام وينشر العقيدة ، ولكن الله لم يوجهه لهذا لأنه ليس هو الطريق .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨-٢٩ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ص ٤٣ .

* وكذلك كان بإمكانه ﷺ القيام بحركة أخلاقية لمحاربة الفساد المستشري في المجتمع ، فإذا استجاب له الناس حكمهم بالإسلام ، ولكنه لم ينطلق من هذا المنطلق ولا مما سبقه ، وإنما وجهه الله أن يبدأ بالعقيدة وتربية الناس عليها وتجميعهم على أساسها ، فإذا تقررت العقيدة في النفوس وعرف الناس ربهم وعبدوه وحده، وتحرروا من سلطان العبيد والشهوات سواء ، تطهرت الأرض من الطواغيت كلها وتطهر المجتمع من المفاسد وقام " نظام الإسلام " في صورة دولة وشرائع وأحكام على الأرض [1] .



(١) معالم في الطريق ص ٢٤ وما بعدها بتصرف ، وينظر أيضًا : في ظلال القرآن ٢/ ١٠٠٥ وما بعدها .

المطلب الثامن

أسباب معارضة الحكم الإسلامي والعدول عنه



تعرض سيد قطب - رحمه الله - لأسباب معارضة حكم الله والعدول عنه، والعداوات التي تواجهه ، وكذا مفاسد العدول عن الحكم الإسلامي إلى غيره وفيما يلي عرض لهذه القضايا بإيجاز:

أولاً : معارضة نظام الحكم الإسلامي وأسبابها:

يقول- سيد -: " ولقد علم الله - سبحانه - أن الحكم بما أنزل الله ستواجهه - في كل زمان وفي كل أمة - معارضة من بعض الناس، ولن تتقبله نفوس هذا البعض بالرضى والقبول والاستسلام..

* ستواجهه معارضة الكبراء والطغاة وأصحاب السلطان الموروث ، ذلك أنه سينزع عنهم رداء الألوهية الذي يدعونه، ويرد الألوهية لله خالصة ، حين ينزع عنهم حق الحاكمية والتشريع والحكم بما يشرعونه هم للناس مما لم يأذن به الله..

* وستواجهه معارضة أصحاب المصالح المادية القائمة على الاستغلال والظلم والسحت، ذلك أن شريعة الله العادلة لن تبقي على مصالحهم الظالمة..

* وستواجهه معارضة ذوي الشهوات والأهواء والمتاع الفاجر والانحلال، ذلك أن دين الله سيأخذهم بالتطهر منها وسيأخذهم بالعقوبة عليها..

* وستواجهه معارضة جهات شتى غير هذه وتلك، ممن لا يرضون أن يسود الخير والعدل والصلاح في الأرض. علم الله - سبحانه - أن الحكم بما أنزل ستواجهه هذه المقاومة من شتى الجبهات، وأنه لا بد للمستحفظين عليه والشهداء أن يواجهوا هذه المقاومة، وأن يصمدوا لها ، وأن يحتملوا تكاليفها في النفس والمال فيقول لهم : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ كما علم الله - سبحانه - أن بعض المستحفظين على كتاب الله المستشهدين، قد تراودهم أطماع الحياة الدنيا،

وهم يجدون أصحاب السلطان وأصحاب المال ، وأصحاب الشهوات ، لا يريدون حكم الله فيتملقـون شهوات هؤلاء جميعًا ، طمعًا في عرض الحياة الدنيا - كما يقع من رجال الدين المحترفين في كل زمان وفي كل قبيل، فناداهم : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾[(١)]، " لقد قال الرجل العربي - بفطرته وسليقته - حين سمع رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله : " هذا أمر تكرهه الملوك !

" فما يمكن أن تجتمع شهادة " أن لا إله إلا الله " مع الحكم بغير شرع الله ، ولهذا يخاف منها الطواغيت " [(٢)].

ثانيًا :أسباب العدول عن تحكيم شرع الله والحكم بما أنزل الله أو شيء منه :

يقول سيد : " وقد علم الله أن معاذير كثيرة يمكن أن تقوم وأن يبرر بها العدول عن شيء مما أنزل الله وإتباع أهواء المحكومين المتحكمين.. وأن هواجس قد تتسرب في ضرورة الحكم بما أنزل الله كله بلا عدول عن شيء فيه، في بعض الملابسات والظروف. فحذر الله نبيه ﷺ من إتباع أهواء المتحكمين ، ومن فتنتهم له عن بعض ما أنزل الله إليه . .

وأولى هذه الهواجس: الرغبة البشرية الخفية في تأليف القلوب بين الطوائف المتعددة، والاتجاهات والعقائد المتجمعة في بلد واحد، ومسايرة بعض رغباتهم عند ما تصطدم ببعض أحكام الشريعة ، والميل إلى التساهل في الأمور الطفيفة ، أو التي يبدو أنها ليست من أساسيات الشريعة!

وقد روي أن اليهود عرضوا على رسول الله ﷺ أن يؤمنوا له إذا تصالح معهم على التسامح في أحكام معينة .. ولكن الأمر - كما هو ظاهر - أعم من ذلك ..

وقد شاء الله - سبحانه - أن يحسم هذا الأمر ، و يقطع الطريق على الرغبة البشرية الخفية في التساهل مراعاة للاعتبارات والظروف ، وتأليفًا للقلوب حين

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٩٧ بتصرف يسير ، وينظر ٣/ ١٣٠٦ ، ١٣٠٧ ، ١٣٣٠ .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٤٨ بتصرف ، وينظر معالم في الطريق ص ٢٦-٢٧ .

تختلف الرغبات والأهواء . فقال لنبيه : إن الله لو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولكنه جعل لكل منهم طريقًا ومنهاجًا، وجعلهم مبتلين مختبرين فيما آتاهم من الدين والشريعة... وإذن فلا يجوز أن يفكر في التساهل في شيء من الشريعة لتجميع المختلفين في المشارب والمناهج.. فهم لا يتجمعون.. بذلك أغلق الله - سبحانه - مداخل الشيطان كلها، وبخاصة ما يبدو منها خيرًا وتأليفًا للقلوب وتجميعًا للصفوف، بالتساهل في شيء من شريعة الله، في مقابل إرضاء الجميع! أو في مقابل ما يسمونه وحده الصفوف!.

إن شريعة الله أبقى وأغلى من أن يضحى بجزء منها في مقابل شيء قدر الله ألا يكون! فالناس قد خلقوا ولكل منهم استعداد، ومشرب، ومنهج، و طريق" (١).

*وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٢). يقول سيد: " وأجل ! فمن أحسن من الله حكمًا ؟ ، ومن ذا الذي يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس ، ويحكم فيهم ، خيرًا مما يشرع الله لهم ؟ ، وأية حجة يملك أن يسوقها ؟ ، أيستطيع أن يقول : إنه أعلم بالناس من خالق الناس ؟ أيستطيع أن يقول: أو إنه أرحم بهم من ربهم ؟ أو أنه أعرف بمصالحهم من إلههم ؟ أم أن الله كان يجهل ما سيطرأ ويستجد من أحوال البشر ، ما الذي يستطيع أن يقوله من ينحي شريعة الله عن حكم الحياة ، ويستبدل بها شريعة الجاهلية ، وبخاصة إذا كان يدعي أنه من المسلمين؟! ، الظروف ؟ الملابسات ؟ عدم رغبة الناس؟ الخوف من الأعداء؟.. ألم يكن هذا كله في علم الله، وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته، وأن يسيروا على منهجه، وألا يفتنوا عن بعض ما أنزله ؟.

قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة ، والأوضاع المتجددة ، والأحوال المتغلبة؟ ألم يكن ذلك في علم الله، وهو يشدد هذا التشديد ، ويحذر هذا التحذير؟ ، يستطيع غير المسلم أن يقول ما يشاء.. ولكن المسلم.. أو من يدعون الإسلام..ما الذي يقولونه من هذا كله ، ثم يبقون على شيء من الإسلام ؟ أو يبقى لهم شيء من الإسلام ؟ إنه مفرق الطريق... إما إسلام وإما جاهلية. إما إيمان وإما

(١) المصدر السابق ٢/ ٩٠٢- ٩٠٤ بتصرف .

(٢) سورة المائدة : الآية ٥٠ .

كفر. إما حكم الله وإما حكم الجاهلية "[١].

" وإردة الشيطان إضلال البشر هي العلة الكامنة وراء التحاكم إلى الطاغوت "[٢].

" كما أن مكائد وحرب أهل الكتاب لهذا الدين وإقامتهم أُلواهيات لغير الله في البلاد الإسلامية سبب من أسباب العدول عن تحكيم شريعة الله "[٣].

ثالثًا: عداوات الحكم الإسلامي:

عقد سيد قطب فصلًا كاملًا في كتابه " معركة الإسلام والرأسمالية " باسم " عداوات حول الإسلام " وضح فيه أن للإسلام أعداء كثيرون في الخارج والداخل، تلتقي مصالحهم في إقصاء الإسلام عن الحكم في الحياة، وأهم هؤلاء :

١- الصليبيون : فهم يتنادون لحماية الحضارة الصليبية المادية ، والدين والتوحيد الذي يواجههم هو الإسلام الحق ، الذي يقوم على الشريعة والعقيدة ، وبالتالي يحاربون رجعة الحكم إلى الإسلام بنفوذهم وقوتهم ، وبالمغفلين أصحاب المصالح من المسلمين .

٢- المستعمرون: لأنهم يرون في الإسلام عقيدة تكافح الاستعمار، والحكم الإسلامي هو الذي يوقظ هذه الروح بشدة لذا لابد من أن يبقى حكم الإسلام بعيدًا.

٣- المستغلون والطغاة : لأنهم يعرفون أن الجماهير تصعب قيادتها وتسخيرها ضد عقيدتها الدينية، فهم حريصون على جعل الإسلام شعارًا لا حقيقة في الواقع ، فلا ضير عندهم من الإسلام حين يكون طقطقة بالمسابح ، وأدعية وموالد ، وطرق ونحو ذلك من أجهزة التخدير للجماهير ، أما أن يكون حكما جادًا ينفذ شريعة الله في الحكم والمال والحقوق فهذا ما يتقيه الطغاة ..

٤- المحترفون من رجال الدين : الذين يسترزقون باسم الدين ، والذين يعرفون

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٠٥- بتصرف يسير ، وينظر أيضًا ٣/ ١١٩٤- ١١٩٥ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٦٩٤ .
(٣) المصدر السابق ٣/ ١١٩٤ بتصرف .

أن حكم الإسلام الحق لو قام لما وجدوا لهم مكانًا، لأنه يطارد الدجالين والمتبطلين والدراويش الذين يعيشون على الاستغلال للجماهير باسم الدين.

٥- المستهترون والمنحلون : الذين غرقوا في أو حال الجنس والمخدرات والفاحشة لأنهم يعلمون أن حكم الإسلام سوف يكبح جماحهم ويمنعهم من تحللهم واستهتارهم .

٦- الشيوعيون والملاحدة : وعداؤهم للإسلام وحكمه شديد لأنه الوحيد الذي يقف في وجوه إلحادهم وفسادهم "(١).

رابعًا: مفاسد الإعراض عن حكم الله في حياة البشرية:

* بيَّــن سيد قطب - رحمه الله - حتمية التلازم بين " دين الله " و " الحكم بما أنزل الله " وأن ذلك ناشئ من أن الحكم بما أنزل الله إقرار بألوهية الله وتحقيق مدلول الإسلام الحق ، وناشئ أيضًا من أن ما أنزل الله خير مما يصنع البشر لأنفسهم من مناهج وشرائع وأنظمة وأوضاع (٢).

* "وبين كذلك توافق الديانات التي جاءت من عند الله كلها على تحتيم الحكم بما أنزل الله ، وإقامة الحياة كلها على شريعة الله ، وجعل هذا الأمر مفرق الطريق بين الإسلام والجاهلية (٣) .

* " وبين الأفضلية المطلقة لشريعة الله ومنهجه- سبحانه القائم على العلم المطلق بحقيقة الكائن الإنساني ، والحاجات الإنسانية ، وبحقيقة الكون وطبيعة نواميس الحياة التي تحكمه وتحكم الكينونة الإنسانية . . حتى لا يقع تصادم بينهما ، ومن ثم قيامه على العدل المطلق والبراءة من الهوى والميل والجهل والقصور وقيامه على تحرير البشرية من العبودية لغير الله " (٤).

---

(١) انظر: معركة الإسلام والرأسمالية ص ٩٣-١١٢ بتصرف ، وفي ظلال القرآن ٤/ ٢٠١٢ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٢٨
(٣) المصدر السابق ٢/ ٨٨٨ .
(٤) المصدر السابق ٢/ ٨٩٠.

بين- رحمه الله -مفاسد وأضرار وأثار العدول عن حكم الله في حياة البشرية ومنها :-

١ــ فساد الحياة البشرية وعدم استقامتها:

يقول: " فالحياة البشرية لا تستقيم إلا إذا تلقت العقيدة والشعائر والشرائع من مصدر واحد، يملك السلطان على الضمائر والسرائر، كما يملك السلطان على الحركة والسلوك. ويجزي الناس وفق شرائعه في الحياة الدنيا، فأما حين تتوزع السلطة، وتتعدد مصادر التلقي.. حين تكون السلطة لله في الضمائر والشعائر بينما السلطة لغيره في الأنظمة والشرائع.. وحين تكون السلطة لله في جزاء الآخرة بينما السلطة لغيره في عقوبات الدنيا.. حينئذ تتمزق النفس البشرية بين سلطتين مختلفتين، وبين اتجاهين مختلفين، وبين منهجين مختلفين.. وحينئذ تفسد الحياة البشرية ذلك الفساد الذي تشير إليه آيات القرآن في مناسبات شتى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[١]، ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[٢].

حكم بغير ما أنزل الله معناه الشر والفساد والخروج في النهاية عن نطاق الإيمان بنص القرآن "[٣].

٢ــ القضاء على " إنسانية " الإنسان ومقومات الحياة الكريمة :

يقول سيد :" إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة - مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق! - إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة! تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته فهذه " الإنسانية " لا توجد، والإنسان عبد للإنسان - وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان؟! و تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان أخر به ، ورضاه أو غضبه عليه؟! . . وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان؟!.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ٧١.
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٨٩١ .

علمًا أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعاني الرفيعة . . إنه يهبط ويهبط حتى يكلف الناس - في حكم الطواغيت - أموالهم التي لا يحميها شرع... ويكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصورات والأفكار والأخلاق والعادات... ثم يكلفهم أعراضهم في النهاية. . حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التي يريدها بها الطواغيت، سواء في صورة الغصب المباشر - أو في صورة تنشئتهن على تصورات ومفاهيم تجعلهن نهبًا مباحًا للشهوات تحت أي شعار!... فالذي يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه وبناته في حكم الطواغيت من دون الله . إنما يعيش في وهم ، أو يفقد الإحساس بالواقع!" .[1]

٣- التخلف والفساد السياسي والاجتماعي والاقتصادي :

ربط سيد قطب - رحمه الله- بين الانحراف عن الحاكمية وبين ضعف المسلمين وتخلفهم في الجانب السياسي والاجتماعي والاقتصادي باعتبار أن الحاكمية - على شمول مفهومها - تنطلق أول ما تنطلق إلى الجانب السياسي والذي يقوم عليه بعد ذلك النظام الاقتصادي و الاجتماعي ، فالنظام في المجتمع الإسلامي نظام رباني قائم على العقيدة الإسلامية والشريعة المنبثقة منها ، وبالتالي فأثر العقيدة الإسلامية واضح في كل جزيئات النظام بما فيها السياسية الداخلية والخارجية ، والاجتماع والاقتصاد وغيرها من النظم التي تحكم الحياة .

ويقرر- رحمه الله " أنه لابد للإسلام أن يحكم ، لأن غياب الحكم الإسلامي سبَّب فسادًا عريضًا في حياة المسلمين ، وأدى إلى الانحطاط والتخلف والتيه في الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي على حدٍ سواء [2].

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٣١٩-١٣٢١ بتصرف .

(٢) ينظر : معركة الإسلام والرأسمالية ص ٦٥-٨٥ ، والسلام العالمي في الإسلام ص ١٠٢ ، والإسلام ومشكلات الحضارة فصل تخبط واضطراب، وعقوبة الفطرة ص ٣٥، ١٢٣ ، والمستقبل لهذا الدين فصل الفصام النكد ص٢٤، ٥٨ ، وخصائص التصور الإسلامي فصل تيه وركام ص ٢٣ ، والصلة بين الحاكمية والعقيدة عند سيد قطب للوهيبي ص ١٤٩ وما بعدها .



الفصل الثالث

منهجه في الإيمان باليوم الآخر والمعاد

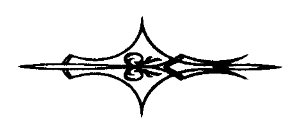
وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول : الإيمان باليوم الآخر وأثره.

المبحث الثاني: مقدمات اليوم الآخر.

المبحث الثالث: اليوم الآخر" يوم القيامة ".

المبحث الرابع: الجنة والنار.





توطئة

ترتبط حياة الخلق بأمرين هما :

الأول: المبدأ: وهو إخراج الخلق من العدم إلى الوجود .

الثاني: المعاد : وهو رجوعهم إلى الوجود بعد الفناء ، أو إلى الحياة بعد الموت .

والى هذين الأمرين يشير القرآن الكريم في كثير من الآيات كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[1] قوله سبحانه وتعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾[2]، وغيرها، وكما أنه لا مجال لإنكار المبدأ بعد الوجود، فكذلك لا مجال لإنكار المعاد بعد الموت ، لأن الذي قدر على البدء، قادر على الإعادة من باب أولى، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[3]، وقد وقع التعبير عن المعاد في الكتاب والسُّنَّة بعبارات متعددة منها : " اليوم الآخر " و" يوم القيامة " و" الساعة" و " البعث والنشور" وغيرها، والإيمان بالمعاد وما يتعلق به من الموضوعات الهامة التي تناولها سيد – رحمه الله – بالشرح والبيان وخاصة في كتاب " الظلال " و " مشاهد القيامة في القرآن " ولو جمع كلامه حول الموضوع لكان في حد ذاته رسالة مستقلة أو أكثر[4].

وسأعرض في هذا الفصل لأهم المسائل التي تناولها سيد قطب بنوع من الإيجاز، وذلك من خلال المباحث الآتية:

---

(١) سورة يونس : الآية ٣٤.

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٩.

(٣) سورة الروم الآية : ٢٧.

(٤) جمع الشيخ / أحمد فائز ما يتعلق باليوم الآخر من مسائل في ظلال القرآن في كتاب سماه " اليوم الآخر في ظلال القرآن " وهو كتاب نفيس ، إلا أن مما يؤخذ على المؤلف أنه لم يعزو الأقوال إلى مواضعها في الظلال ، الأمر الذي يصعب معه التمييز بين كلام سيد وكلام غيره .

المبحث الأول
الإيمان باليوم الآخر وأثره



تحدث سيد قطب - رحمه الله - عن الإيمان باليوم الآخر في كل مناسبة ورد ذكره فيها في كتاب الله تعالى، مبينًا حكم الإيمان باليوم الآخر، وأهميته في الحياة، وآثار الكفر به أيضًا، ويمكن بيان ذلك بإيجاز في المطالب الآتية.



المطلب الأول

معنى الإيمان باليوم الآخر وحكمه

أولا : معنى الإيمان باليوم الآخر :

الايمان باليوم الآخر يعني: التصديق باليوم الذي يرجع فيه العباد إلى الله وما يكون فيه من البعث والحساب والجزاء على الأعمال، والتصديق بما يقع في ذلك اليوم من الأمور العظام، وما يقع قبله من الموت والحياة البرزخية .

ثانيا : حكم الإيمان باليوم الآخر:

الإيمان باليوم الآخر وما فيه ركن من أركان الإيمان الستة التي يجب الإيمان بها، وهو أحد عناصر الإيمان وأصول العقيدة في كل الديانات السماوية التي جاءت من عند الله، وقد دل على وجوب الإيمان باليوم الآخر الكتاب والسُّنَّة والإجماع.

أما أدلة الكتاب فكثيرة جدًا: منها قول الله تعالى:﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [1].وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [2].

وأما السُّنَّة : فقد جعله النبي ﷺ من أركان الإيمان، كما جاء في حديث جبريل المشهور قال: فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال : صدقت " . [3]

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٧٧.

(٢) سورة النساء : الآية ١٣٦ وينظر الآيات : البقرة ٦٢ آل عمران ١١٤ النساء ١٦٢ المائدة ٦٩.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان ١/ ٤٦، برقم ٨

وأما الإجماع: فقد اجمع المسلمون على وجوب الإيمان باليوم الآخر وكفر من أنكره [(١)].

وقد تحدث سيد - رحمه الله - كثيرًا عن وجوب الإيمان باليوم الآخر وكفر من أنكره ومن ذلك:

* قوله -رحمه الله- : " والاعتقاد بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية"، " وأحد عناصر وأركان الإيمان التي يجب أن يؤمن بها الذين امنوا " .

* ويقول أيضًا : " والإيمان باليوم الآخر هو أحد مقتضيات الإيمان بالله وفق التصور الإسلامي .. فاليوم الآخر والجزاء فيه حتمية من حتميات الإيمان وفق التصور الإسلامي ... حيث ذكره الله تعالى في سياق أركان الإيمان في قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [(٢)] .فذكرت الآية حقيقة الإيمان الشامل الذي جاء به هذا الدين والذي يشمل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر [(٣)].

*ويقول أيضًا : " وقضية البعث والحساب والجزاء في الدار الآخرة من قضايا العقيدة الأساسية التي جاء بها الإسلام، والتي يقوم عليه بناء هذه العقيدة بعد قضية وحدانية الألوهية ، والتي لا يقوم هذا الدين – عقيدة وتصورًا، وخلقًا وسلوكًا، وشريعةً ونظامًا، إلا عليها وبها .." " فالإيمان باليوم الآخر شطر الإيمان ".

كما يقرر سيد – رحمه الله – أن الإيمان باليوم الآخر أحد أصول العقيدة التي جاء بها رسل الله جميعا حيث يشير رحمه الله في ظلال قصة يوسف إلى أن الإيمان بالآخرة كان عنصرًا من عناصر العقيدة على لسان الرسل جميعا منذ فجر البشرية الأول " .

---

(١) ينظر : مراتب الإجماع لابن حزم ، دار أبن حزم بيروت – ط١ عام ١٤١٩هـ ، ص ٢٧١ ، وموسوعة الإجماع لسعدي أبو حبيب ١/ ١٦١ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٨٥.

(٣) في ظلال القرآن : ١/ ٣٤٠-٣٤٤ بتصرف .

ثالثا : موقف الناس من اليوم الآخر :

بين سيد قطب - رحمه الله - أن عقيدة الإيمان باليوم الآخر من الأصول التي جاء بها كل نبي من أنبياء الله، ولكن البشر عندما ينحرفون عن الدين الحق تغيب هذه الحقيقة عنهم أو تصبح مشوهة.

* وأورد - سيد - فصلًا في كتابه " مشاهد القيامة في القرآن" بعنوان :" العالم الآخر في الضمير البشري " ، تحدث فيه عن عقيدة الإيمان باليوم الآخر عند الأمم والشعوب في التاريخ البشري، وكيف انحرف الناس عنها، فبعض الأمم والشعوب كانت تؤمن بالحياة بعد الموت ، ولكن يشوب ذلك كثير من الشوائب لأنها قامت في ظل عقيدة وثنية كما كان الحال عند قدماء المصريين .

* وبعض الشعوب لا نجد عندها إيمان باليوم الآخر ولا الحساب والجزاء، وإنما نجد عندها التناسخ والفناء في الروح الأعظم كما هو شان عقيدة " النيرفانا " في الديانات الهندوكية والبوذية .

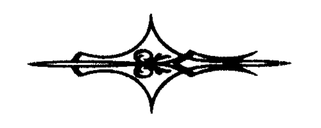
* أما أهل الكتاب فقد حرفوا دينهم فبعض فرق اليهود كـ " الصدوقيين" ينكرون القيامة، وآخرون يؤمنون بها " كالفريسيين " ولكنه إيمان تشوبه كثير من الشوائب والانحرافات .

و أما الأناجيل فقد أشارت إلى اليوم الآخر إشارات متفرقة، يشوبها ما شاب التوراة قبلها من تحريف لحقائق هذا اليوم العظيم.

* أما العرب فقد كانوا يزعمون أنهم على دين أبيهم إسماعيل وجدهم إبراهيم - عليهما السلام - ومع أن عقيدة الإيمان باليوم الآخر كانت أصيلة في دين جدهم إبراهيم - عليه السلام - وفي دين أبيهم إسماعيل - عليه السلام - أيضًا، إلا أنه كان قد طال عليهم الأمد، وبَعُدَ ما بينهم وبين أصول الإسلام الذي كان عليه إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - لقد اندثرت عقيدة الإيمان بالآخرة تماما من تصوراتهم، فكانت أغرب شيء عليهم وأبعده عن تصورهم، حتى لقد كانوا يعجبون ويُعَجِّبون من رسول الله - ﷺ - لأنه يحدثهم عن الحياة بعد الموت، وعن البعث والنَشور

والحساب والجزاء، كما حكى القرآن الكريم عنهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ [١]،[٢].

" لذا كانت حقيقة الآخرة من الحقائق العسيرة الإدراك عند مشركي العرب، ولقد لقيت منهم معارضه نفسية عميقة، وكانوا يتلقونها بغاية العجب والدهش والاستغراب ، وينكرونها أشد الإنكار ويتحدون الرسول ﷺ في صور شتى أن يأتيهم بهذا اليوم الموعود، أو أن يقول لهم: متى يكون؟ " [٣]. " والعجيب في أمر المشركين أنهم كانوا يعتقدون بوجود الله، وخلقه للكون أول مرة، ولكنهم مع هذا لم يعتقدوا بيوم الجزاء كما أخبر الله عنهم في مواضع متعددة من القرآن الكريم كقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [٤] ثم يحكى عنهم في موضع آخر: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ [٥]،[٦].



(١) سورة سبا : الآية ٧-٨ .
(٢) في ظلال القرآن : ٣/ ١٤٠٨ .
(٣) المصدر السابق: ٦/ ٣٦٩٥ .
(٤) سورة لقمان : الآية ٢٥ .
(٥)سورة ق : الآية ٢-٣ .
(٦)في ظلال القرآن : ١/ ٢٤ .

المطلب الثاني

أهمية الإيمان باليوم الآخر وآثاره



الإيمان باليوم الآخر هو أحد الأصول التي بعث بها الرسل جميعا والتي تشمل: "إثبات التوحيد والنبوات والمعاد " .

أولًا : أهمية الإيمان باليوم الآخر :

بيَّن سيد قطب - رحمه الله – أن أهمية الإيمان باليوم الآخر تظهر فيما يأتي :

١ - أنه أحد أصول الإيمان والعقيدة التي جاء بها الرسل جميعا ، وعنصرًا من عناصر العقيدة منذ فجر الرسالات " .

٢- أنه كلية من كليات العقيدة الإسلامية وأحد مقتضيات الإيمان بالله التي يجب الإيمان بها، بل هو شطر الإيمان الذي لا يتم إلا به " .

٣- أنه" مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة " .

ثانيًا : أثار الإيمان باليوم الآخر :

وأما أثار الإيمان باليوم الآخر فكثيرة جدًا وقد ذكر سيد - رحمه الله – عددًا منها هي :

١- " أن الاعتقاد باليوم الآخر ضروري لاكتمال الشعور بأن وراء الحياة حكمة ، وأن الخير الذي تدعو إليه الرسالات هو غاية الحياة ومن ثم لابد من أن يلقي جزاءه، فإن لم يلقي في هذه الحياة الدنيا فجزاؤه مضمون في العالم الآخر، الذي تصل فيه الحياة البشرية إلى الكمال المقدر لها ، أما الذين يزيغون عن نهج الله وحكمته في الحياة فهؤلاء يرتكسون وينتكسون إلى درك العذاب ، وفي هذا ضمان للفطرة السليمة ألا تنحرف فإن غلبتها شهوة أو استبد بها ضعف عادة تائبة ولم تلج في العصيان ، ومن ثم تصلح هذه الأرض لحياة البشر وتمضي الحياة على سنتها في طريق الخير" .

٢ – أن الاعتقاد باليوم الآخر ليس طريقا للثواب في الآخرة فحسب – كما يعتقد بعض الناس – إنما هو الحافز على الخير في الحياة الدنيا ، والحافز على إصلاحها ونمائها ، على أن يراعى في هذه النماء أنه ليس هدفًا في ذاته ، إنما هو وسيلة لتحقيق حياة لائقة بالإنسان المكرم " " فالباعث على العمل الطيب ، والخلق الطيب ، هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، والتطلع إلى رضاء الله . . وجزاء الآخرة، فهو باعث رفيع لا ينتظر صاحبه جزاء من الناس، ولا يتلقاه ابتداءً من عرف الناس! فإذا لم يكن هناك إيمان بإله يبتغي وجهه، وتتحدد بواعث العمل بالرغبة في رضاه، وإذا لم يكن هناك اعتقاد بيوم آخر يتم فيه الجزاء.. اتجه هم الناس إلى نيل القيم الأرضية المستمدة من عرف الناس، وهذه لا ضابط لها في جيل واحد في رقعة واحدة، فضلًا عن أن يكون لها ضابط ثابت في كل زمان وفي كل مكان! فيكون التأرجح المستمر وتكون الصفات الذميمة في حياة البشر " .

٣– أن " الاعتقاد بالآخرة يؤدي دوره الأساسي في إفاضة السلام على روح المؤمن وعالمه ، ونفي القلق والسخط والقنوط.. إن الحساب الختامي ليس في هذه الأرض، والجزاء الأوفى ليس في هذه العاجلة.. إن الحساب الختامي هناك؛ والعدالة المطلقة مضمونة في هذا الحساب، فلا ندم على الخير والجهاد في سبيله إذا لم يتحقق في الأرض أو لم يلق جزاءه ، ولا قلق على الأجر إذا لم يوفَ في هذه العاجلة بمقاييس الناس ، فسوف يوفاه بميزان الله، ولا قنوط من العدل إذا توزعت الحظوظ في الرحلة القصيرة على غير ما يريد ، فالعدل لا بد واقع ، وما الله يريد ظلمًا للعباد " .

٤ – أن الاعتقاد بالآخرة حاجز كذلك دون الصراع المجنون المحموم الذي تداس فيه القيم وتداس فيه الحرمات بلا تحرج ولا حياء ، فهناك الآخرة فيها عطاء، وفيها غناء ، وفيها عوض عما يفوت، وهذا التصور من شأنه أن يفيض السلام على مجال السباق والمنافسة، وأن يخلع التجمل على حركات المتسابقين؛ وأن يخفف السعار الذي ينطلق من الشعور بأن الفرصة الوحيدة المتاحة هي فرصة هذا العمر القصير المحدود! " ، " فالإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالعدالة الإلهية المطلقة في الجزاء وبأن حياة الإنسان على هذه الأرض ليست سدى ولا فوضى بغير ميزان ، وبأن الخير لا يعدم جزاءه، ولو بدأ أنه في هذه الأرض لا يلقى الجزاء " فهناك الجزاء عما يفوت " .

" والإيمان بالآخرة هو الزمام الذي يكبح الشهوات والنزوات ويضمن القصد والاعتدال في الحياة، والذي لا يعتقد في الآخرة لا يملك أن يحرم نفسه شهوة أو يكبح فيها نزوة ، وهو يظن أن الفرصة الوحيدة المتاحة له للمتاع هي فرصة الحياة على هذا الكوكب ، وهي قصيرة مهما طالت، وما تكاد تتسع لشيء من مطالب النفوس وأمانيها التي لا تنال ، ثم ما الذي يمسكه حين يملك إرضاء شهواته ونزواته ، وتحقيق لذاته ورغباته ، وهو لا يحسب حساب وقفته بين يدي الله ، ولا يتوقع ثوابًا ولا عقابًا يوم يقوم الأشهاد، ومن ثم يصبح كل تحقيق للشهوة واللذة مزينًا للنفس التي لا تؤمن بالآخرة تندفع إليه بلا معوقٍ من تقوى أو حياء ، والنفس مطبوعة على أن تحب ما يلذ لها ، وأن تجده حسنًا جميلًا ما لم تهتدِ بآيات الله ورسالته إلى الإيمان بعالم آخر باق بعد هذا العالم الفاني ، فإذا هي تجد لذاتها في أعمال وأشواق أخرى ، تصغر إلى جوارها لذائذ البطون والأجسام " .

" فالإيمان بالدار الآخرة وحده هو الذي يرجح الكفة، ويعصم من فتنة العرض الأدنى القريب في هذه الدنيا.. فلا يصلح قلب ولا حياة ولا تستقيم نفس إلا به، وإلا فما الذي يعدل في النفس البشرية الرغبة الملحة في حيازة كل عرض يلوح لها من أعراض الأرض ؟ وما الذي يحجزها عن الطمع ويكفها عن البغي؟ وما الذي يهدئ فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع ؟ وما الذي يطمئنها في صراع الحياة الدنيا على النصيب الذي لا يضيع بفوات الحياة الدنيا ؟ وما الذي يثبتها في المعركة بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، وأعراض الأرض تفر من بين يديها وتنأى ؟ والشر يتبجح والباطل يطغى ؟ لا شيء يثبت على الغيَر والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج ، وفي هذه المعركة الكبرى، إلا اليقين بالآخرة "[1].

٥- أن " اليقين بالآخرة هو الضمان ليقظة القلب البشري ، وتطلعه إلى ما عند الله ، واستعلائه على أوهاق الأرض ، وترفعه على متاع الحياة الدنيا، ومراقبة الله في السر والعلن وفي الدقيق والجليل، والوصول إلى درجة الإحسان التي سئل عنها رسول الله ﷺ فقال : " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه

(١) المصدر السابق ٤/ ١٣٨٧ .

يراك " [١]، [٢].

٦- أن الإيمان بالآخرة نعمة وهبة وفسحة في التصور : " فالإيمان بالحياة الآخرة نعمة يفيضها الإيمان على القلب، نعمة يهبها الله للفرد الفاني العاني، المحدود الأجل الواسع الأمل وما يغلق أحد على نفسه هذا المنفذ إلى الخلود ، إلا وحقيقة الحياة في روحه ناقصة أو مطموسة، فالإيمان بالآخرة - فوق أنه إيمان بعدل الله المطلق، وجزائه الأوفى- هو ذاته دلالة على فيض النفس بالحيوية، وعلى امتلاء بالحياة لا يقف عند حدود الأرض، إنما يتجاوزها إلى البقاء الطليق ، الذي لا يعلم إلا الله مداه وإلى المرتقى السامي الذي يتجه صعدًا إلى جوار الله " [٣].

" إن العقيدة في الآخرة فسحة في التصور، وسعة في النفس ، وامتداد في الحياة ضروري في تكوين النفس البشرية ذاتها ، لتصلح أن تناط بها تلك الوظيفة الكبيرة كذلك هي ضرورية لضبط النفس عن شهواتها الصغيرة ومطامعها المحدودة، ولفسحة مجال الحركة حتى لا تيئسها النتائج القريبة ولا تقعدها التضحيات الأليمة عن المضي في التبشير بالخير ، وفعل الخير والقيادة إلى الخير ، على الرغم من النتائج القريبة ، والتضحيات الأليمة.. وهي صفات ومشاعر ضرورية كذلك للنهوض بتلك الوظيفة الكبيرة . .

والاعتقاد في الآخرة مفرق طريق بين فسحة الرؤية والتصور في نفس "الإنسان" وضيق الرؤية واحتباسها في حدود الحس في إدراك " الحيوان "! وما يصلح إدراك الحيوان لقيادة البشرية ، والقيام بأمانة الله في الخلافة الراشدة! " [٤].

٧- أن" الإيمان باليوم الآخر يغير من تصورات الإنسان ومن موازينه ومن حوافزه ومن أهدافه، ويربط الحاسة الأخلاقية في نفسه بمصيره كله ، فيزيدها قوة وفاعلية ، لأن هلاكه أو نجاته مرهونة بيقظة هذه الحاسة وتأثيرها في نيته وعمله .

إن مسألة الإيمان بالآخرة مسألة أساسية في حياة البشر، إنها حاجة أكبر من

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) في ظلال القرآن ٥ / ٢٧٨٤ .

(٣) المصدر السابق ١/ ٩٢ .

(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٠٨ ، وأيضًا ١٠٧٣ .

حاجات الطعام والشراب والكساء، وإنها إما أن تكون فيكون" الإنسان " وإما ألا تكون فهو حيوان من ذلك الحيوان!.

وذلك لأن " التصديق بيوم الدين شطر الإيمان ، وهو أثرذو حاسم في منهج الحياة شعورًا وسلوكًا، والميزان في يد المصدق بيوم الدين غير الميزان في يد المكذب بهذا اليوم أو المستريب فيه، ميزان الحياة والقيم والأعمال والأحداث..المصدق بيوم الدين يعمل وهو ناظر لميزان السماء لا لميزان الأرض، ولحساب الآخرة لا لحساب الدنيا ويتقبل الأحداث خيرها وشرها وفي حسابه أنها مقدمات نتائجها هناك، فيضيف إليها النتائج المرتقبة حين يزنها ويقوّمها.. والمكذب بيوم الدين يحسب كل شيء بحسب ما يقع له منه في هذه الحياة القصيرة المحدودة ، ويتحرك وحدوده هي حدود هذه الأرض وحدود هذا العمر، ومن ثم يتغير حسابه وتختلف نتائج موازينه ، وينتهي إلىٰ نتائج خاطئة فوق ما ينحصر في مساحة من المكان ومساحة من الزمان محدودة.. وهو بائس مسكين معذب قلق " .

" فالكفر باليوم الآخر سبب للضلال وتنكب الطريق والخيلاء والبخل واختلال القيم والموازين" .

* ومما سبق اختياره من النصوص يظهر لنا أهمية الإيمان باليوم الآخر وأثر في حياة البشر، في كونه ضروري لاكتمال الشعور بأن وراء الحياة حكمة ، ومن كونه أيضًا حافزًا للعمل الصالح والخلق الطيب ، ولأنه يفيض السلام على روح المؤمن وعالمه وينفى القلق والسخط والقنوط ، ويحجز عن الصراع المحموم على الدنيا ، ويكبح الشهوات والنزوات ، و يعصم من الفتن ، ويغرس في القلب الاستعلاء على الدنيا ولذائذها ، ويفسح في تصور الإنسان لنفسه ولما حوله ، كما أنه يقيم التصورات والموازين الصحيحة للحياة " لذلك كله كان التوكيد شديدًا على عقيدة الآخرة في دين الله كله.. ثم بلغت صورة الآخرة في هذا الدين الأخير غايتها من السعة والعمق والوضوح ، حتى بات عالم الآخرة في حس الأمة المسلمة أثبت وأوضح وأعمق من عالم الدنيا الذي يعيشونه فعلًا ، وبهذا صلحت هذه الأمة لقيادة البشرية ، تلك القيادة الراشدة التي وعاها التاريخ الإنساني! " .

المبحث الثاني
مقدمات اليوم الآخر

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: الموت.

المطلب الثاني: القبر والبرزخ.

المطلب الثالث : أشراط الساعة.



المطلب الأول

الموت ومقدماته



الفرع الأول : التوبة

لسيد قطب – رحمه الله –وقفات كثيرة في ظلال الآيات التي ورد فيها ذكر التوبة وفي مواضع أخر في كتبة ، ويمكن إيجاز ذلك في النقاط الآتية :

أولاً: فكرة الإسلام عن الخطيئة :

تحدث سيد - رحمه الله – كثيرًا عن فكرة الإسلام عن الخطيئة والتوبة مبينًا:

١ – أن الإسلام لا يقف عند حد الاعتراف في الفرد بضروراته وتنسيقها مع أشواقه ، بل يعترف للفرد بدوافع الخطأ والخطيئة ، فأما الخطأ والنسيان والإكراه فمعفي عنه : " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " [(١)] ، وأما الذنب والخطيئة فباب التوبة منهما مفتوح في كل لحظة .. فإذا انزلق الفرد إلى الخطيئة لم تقطع دونه السبل: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [(٢)]، " إن هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشري الذي تهبط به ثقلة الجسد أحيانًا إلى درك الفاحشة وتهيج به فورة اللحم والدم فينزو نزوة الحيوان في حمى الشهوة ، وتدفعه نزواته وشهواته وأطماعه ورغباته إلى المخالفة عن أمر الله في حمى الاندفاع، يدرك ضعفه هذا فلا يقسو عليه ولا يبادر إلى طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه، حين يرتكب الفاحشة .. المعصية الكبيرة.. فمادام أن شعلة الإيمان في قلبه لم تنطفىء ، وما دام يعرف أنه عبد يخطىء وأن له ربًا يغفر فما يزال بخير.. فليعثر ما شاء له ضعفه أن يعثر، فهو

---

(١) رواه : أبن ماجه بلفظ " إن الله تجاوز عن أمتي .." ٢/ ٦٥١ برقم ٢٠٤٥ ، وصححه الألباني في صحيح سنن أبن ماجه ٢/ ١٧٨ ، وصحيح المشكاة برقم ٦٢٨٤ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٥٣ .

واصل في النهاية ما دام يذكر ربه ويستغفره ويقر بالعبودية له ، إن الطفل الذي يخطئ ويعرف أن السوط - لا سواه - في الدار.. سيروح آبقًا شاردًا لا يثوب إلى الدار أبدًا، فأما إذا كان يعلم أن إلى جانب السوط يدًا حانية تربت على ضعفه حين يعتذر من الذنب وتقبل عذره حين يستغفر من الخطيئة.. فإنه سيعود!.

وهكذا يأخذ الإسلام الإنسان الضعيف في لحظات ضعفه.. ويأخذ بيده ليصعد ما دام لا يصر على الخطيئة وهو يعلم أنها الخطيئة ! قال الرسول ﷺ : " ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة "[1] والإسلام لا يدعو- بهذا- إلى الترخص ولا يمجد العاثر الهابط كما هو حال " الواقعية "! إنما هو يقيل عثرة الضعف ويستجيش في النفس الحياء من الله ! فالمغفرة تخجل ولا تطمع ، وهكذا يجمع الإسلام بين الهتاف للبشرية إلى الآفاق العلى ، والرحمة بهذه البشرية التي يعلم طاقتها، ويفتح أمامها باب الرجاء أبدًا، ويأخذ بيدها إلى أقصى طاقتها "[2].

بل يذهب الإسلام مذهبًا بعيدًا حتى ليحسبه المرء عند النظرة السريعة يزين للناس الخطيئة ليتوبوا من الخطيئة ! يقول ﷺ : " كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون "[3].

ويقول: "والذي نفسه بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر الله لهم"[4] وهو لا يزين الخطيئة هنا، ولكن ييسر التوبة ، ويملئ نفوس الخاطئين بالرجاء ، وينير لأرواحهم الطريق ، وهو في الوقت ذاته يفرض على ضمير الفرد الرقابة على نفسه ويحذره من الشهوات والفتن بأنواعها ، ويبين له عداوة الشيطان ومكائده والدعوة إلى اليقظة والحذر من دوافع الشر والخطيئة وعدم الاستسلام للإغواء "[5].

---

(١) رواه : أبو داود في كتاب الصلاة باب الاستغفار ٢/ ١٧٧ برقم ١٥١٤ ، والترمذي في الدعوات ٥/ ٥٢١ برقم ٣٥٥٩ ، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي ص ٣٩٣ .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٧٦ - ٤٧٧ بتصرف .

(٣) رواه : الترمذي في صفة القيامة ٤/ ٥٦٩ برقم ٢٤٩٩ ، وصحيح ابن ماجه برقم ٤٢٥١ ، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢/ ٦٠٤ .

(٤) رواه : مسلم في التوبة باب سقوط الذنوب بالاستغفار ٤/ ١٦٧٢ برقم ٢٧٤٨ ، وأحمد ٢/ ٣٠٥ .

(٥) السلام العالمي والإسلام سيد قطب ص ٤٨ - ٥٢ بتصرف .

٢- فردية الخطيئة وفردية التوبة :حيث يقرر الإسلام أن الخطيئة فردية، والتوبة فردية، في تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض، ليست هنالك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده - كما تقول نظرية الكنيسة - وليست هناك تكفير لاهوتي، كالذي تقول الكنيسة من أن عيسى- عليه السلام - " ابن الله بزعمهم " قام بصلبه تخليصًا لبني آدم من خطيئة آدم !! كلا ! خطيئة آدم كانت خطيئته الشخصية، والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة في يسر وبساطة، وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصية ، والطريق مفتوح للتوبة في يسر وبساطة، تصور مريح صريح، يحمل كل إنسان وزره، ويوحي إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط :﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

٣-أن باب التوبة مفتوح في كل وقت لكل ذنب : " فمن رحمة الله أن جعل باب التوبة مفتوحا للإنسان في كل لحظة، فإذا نسي ثم تذكر، وإذا عثر ثم نهض، وإذا غوى ثم تاب، وجد الباب مفتوحًا له ، وقبل الله توبته ، وأقال عثرته، فإذا استقام على طريقه بدل الله سيئاته حسنات ، وضاعف له ما شاء، ولم يجعل خطيئته الأولى لعنة مكتوبة عليه، فليست هنالك خطيئة أبدية ولا موروثة ولا تزر وازرة وزر أخرى " [2] .

" والله تواب في كل وقت على من يتوب، والله رحيم في كل وقت على من يؤوب، وهو - سبحانه - يصف نفسه بصفته - توابًا رحيما - ويعد العائدين إليه قبول التوبة.. وباب الله مفتوحًا لا يغلق ووعده قائما، فمن شاء لنفسه الخير فليدلف إلى الباب المفتوح .. الذي ليس عليه بواب يمنع ولا يحتاج إلى استئذان " [3].

*أما شمول التوبة لكل الذنوب فيكفي فيها قول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٦١، ٢/ ٧٥٥، ٣/ ١٢٧٤ وينظر أيضًا السلام العالمي والإسلام ص ٥٢
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٧٤ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٦٩٦ وينظر أيضا ١/ ٥١٥١، ١/ ٤٢٤، ٢/ ٧٥٥، ٣/ ١٦٧٨، ٦/ ٣٠٥٨ .

﴿الرَّحِيمُ﴾[١] حيث تظهر رحمة الله الواسعة التي تسع كل معصية كائنة ما كانت "[٢].

" فباب التوبة دائمًا مفتوح ، يدخل منه كل من استيقظ ضميره ، لا يصد عنه قاصد ، ولا يغلق في وجه لاجئ ، أيًا كان ، وأيًا ما ارتكب من الآثام ، جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال:"أرأيت رجلًا عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة [٣] فهل له من توبة ؟ فقال : ﷺ أسلمت؟ "فقال : نعم . قال : " فافعل الخيرات واترك السيئات ، فيجعلها الله لك خيرات كلها " . قال : و غدراتي و فجراتي؟ قال: "نعم"، فما زال يكبر حتى توارى " [٤].

٤- التوبة تصلح ما فات وتقلب السيئات حسنات : وهذا من عظيم رحمة الله بعباده كما جاء في الحديث السابق " فيجعلها الله لك خيرات كلها " وقبل هذا قول الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ [٥] حيث يعد التائبين المؤمنين العاملين أن يبدل ما عملوه من سيئات قبل التوبة حسنات بعدها تضاف إلى حسناتهم الجديدة وهو فيض من عطاء الله لا مقابل له من عمل العبد إلا أنه اهتدى ورجع عن الضلال، وتاب إلى حمى الله، ولاذ به بعد الشرود والتيه : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ " [٦].

ثانيًا : شروط التوبة النافعة :

حث الله تعالى عباده على التوبة النصوح فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

---

(١) المصدر السابق : ٣٠٥٨/٦ .

(٢) المصدر السابق : ٣٠٥٨/٦ .

(٣) يقصد بالحاجة (الصغيرة) ، والداجه (الكبيرة) .

(٤) رواه : المنذري في الترغيب والترهيب برقم ٣١٦٤ ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢٢٨/٣ .

(٥) سورة الفرقان : الآية ٧٠.

(٦) في ظلال القرآن ٢٥٧٩/٦ .

وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1]، فالتوبة النصوح هي : التي تنصح القلب وتخلصه، ثم لا تغشه ولا تخدعه وتخلصه من رواسب المعاصي وعكارها، وتحضه على العمل الصالح بعدها، فهذه هي التوبة النصوح، التوبة التي تظل تذكر القلب بعدها وتنصحه فلا يعود إلى الذنوب ، وهي بهذا مرجوة لتكفير السيئات" [2].

وقد أشار سيد قطب- رحمه الله – إلى قاعدة التوبة النصوح وشروطها في ظلال بعض الآيات؛ ومن هذه الشروط:

١ – الندم.   ٢- الإقلاع عن المعصية .

٣- إتباعها بعمل صالح يثبت جديتها .   ٤- أن تكون في وقت القبول .

حيث يقول سيد – رحمه الله – : " فالتوبة تبدأ بالندم والإقلاع عن المعصية ، وتنتهي بالعمل الصالح الذي يثبت أن التوبة صحيحة وأنها جدية، وهو في الوقت ذاته ينشئ التعويض الإيجابي في النفس للإقلاع عن المعصية، فالمعصية عمل وحركة ، يجب ملء فراغه بعمل مضاد وحركة ، وإلا حنت النفس إلى الخطيئة بتأثير الفراغ الذي تحسه بعد الإقلاع، وهذه لمحة في منهج التربية القرآني عجيبة تقوم على خبرة بالنفس الإنسانية عميقة، ومن أخبر من الخالق بما خلق ؟ سبحانه وتعالى! " [3].

ويقول : " وباب التوبة يظل مفتوحًا للكافر والعاصي حتى يغرغر، فإذا بلغت الروح الحلقوم فلا توبة ولا مغفرة ، فقد ذهبت الفرصة التي لا تعود " [4] . وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا

(١) سورة التحريم : الآية ٨.
(٢) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٦١٨ بتصرف يسير .
(٣) المصدر السابق ٦/ ٢٥٨٠ .
(٤) المصدر السابق : ٦/ ٣٣٠١ .

ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[١]، يدل على أن الذين يرتكبون الذنوب ويتوبون إلى الله قبل أن يتبين لهم الموت وقبل أن يدخلوا في سكراته ويحسوا أنهم على عتباته، هم الذين تقبل توبتهم لأنها توبة ندم وانخلاع من الخطيئة ونية على العمل الصالح للتكفير ...

أما التوبة عند رؤية الموت فهي توبة المضطر الذي لجت به الغواية وأحاطت به الخطيئة، توبة الذي يتوب لأنه لم يعد لديه متسع لارتكاب الذنوب ولا فسحة لمقارفة الخطيئة، وهذه لا يقبلها الله لأنها لا تنشئ صلاحًا في القلب ولا صلاحًا في الحياة ولا تدل على تبدل في الطبع ولا تغير في الاتجاه " [٢].

" وعموما فالإسلام لا يغلق الأبواب في وجه الخاطئين والخاطئات، ولا يطردهم من المجتمع إن أرادوا أن يتطهروا ، بل يفسح لهم الطريق ويشجعهم على التوبة، ويبلغ من التشجيع أن يجعل الله قبول توبتهم - متى أخلصوا فيها - حقًا عليه سبحانه يكتبه على نفسه بقوله الكريم، وليس وراء هذا الفضل زيادة لمستزيد .

" إن التوبة التي يقبلها الله ، والتي تفضل فكتب على نفسه قبولها هي التي تصدر من النفس فتدل على أنها قد أنشئت نشأة أخرى، وقد هزها الندم من الأعماق ورجها رجًا شديدًا حتى استفاقت فثابت وأنابت وهي في فسحة من العمر وبحبوحة من الأمل واستجدت رغبة حقيقية في التطهر، ونية حقيقية في سلوك طريق جديد "[٣].

" ولذا لا يجوز تعيير التائبين بما كان منهم من ذنب تابوا عنه وتطهروا منه وأصلحوا حالهم بعده، بل ينبغي مساعدتهم على استئناف حياة طيبة نظيفة تنسيهم جريمتهم، لان تذكيرهم وتعييرهم يؤذي نفوسهم، وقد يحمل البعض منهم على الانتكاس والإرتكاس واللجاج في الخطيئة وخسارة أنفسهم في الدنيا والآخرة، والإفساد في الأرض وتلويث المجتمع والنقمة عليه " [٤].

---

(١) سورة النساء : الآية ١٧-١٨.
(٢) في ظلال القرآن : ٢/ ٦٠٣-٦٠٤ بتصرف .
(٣) في ظلال القرآن: ٢/ ٦٠٤ .
(٤) المصدر السابق:١/ ٦٠٠ .

الفرع الثاني : حقيقة الموت وحتميته :

يقول سيد قطب - رحمه الله -: " تكثر الإشارة في القرآن الكريم إلى آيتي الحياة والموت، لأنهما تلمسان قلب الإنسان بشدة وعمق، ثم لأنهما الظاهرتان البارزتان المكررتان في كل ما يقع عليه حس الإنسان، وللإحياء والإماتة مدلول أكبر مما يبدو لأول مرة " [١].

فقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾[٢]، يعني: انشأ الموت والحياة، كما قال في سورة أخرى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ [٣]، فكلاهما من خلق الله وهما أمران معروفان كل المعرفة بوقوعها المتكرر، ولكنهما خافيان كل الخفاء حين يحاول البشر أن يعرفوا طبيعتهما وسرهما الخافي على الأحياء .

فما الموت ؟ وما الحياة ؟ ما حقيقتهما حين يتجاوز الإنسان لفظهما وشكلهما الذي يراه ؟ كيف دبت الحياة في الكائن الحي ؟ ما هي ؟ ومن أين جاءت ؟ وكيف تلبست بهذا الكائن فكان ؟ وكيف سارت في طريقها الذي سارت فيه بهذا الكائن أو بهذه الكائنات الأحياء ؟ وما الموت ؟ وكيف كان.. قبل دبيب الحياة، وبعد مفارقتها للأحياء ؟ إنه السر الخافي وراء الستر المسبل ، بيد الله!" [٤].

هذا الموت الذي ينتهي إليه كل حي، ما هو ؟ وكيف يقع ؟ وأي سلطان له لا يقاوم ؟ إنه قدر الله : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [٥]، ومن ثم لا يفلت منه أحد، ولا يسبقه فيفوته أحد.. وهو حلقة في سلسلة النشأة التي لا بد أن تتكامل" [٦].

إنه الموت نهاية كل حي، ولا يتفرد بالبقاء إلا الله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[٧]

---

(١) المصدر السابق: ٥/ ٣٠٩٦ .
(٢) سورة النجم : الآية ٤٤.
(٣) سورة الملك : الآية ٢.
(٤) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٤١٦، ٣٦٣٢ بتصرف .
(٥) سورة الواقعة : الآية ٦٠.
(٦) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٤٦٨ .
(٧) سورة الزمر : الآية ٣٠.

ففي الموت يستوي كل البشر بما فيهم محمد رسول الله ﷺ فالموت ليس نهاية المطاف، إنما هو حلقة لها ما بعدها من حلقات النشأة المقدرة المدبرة ، التي ليس شيء منها عبثًا ولا سدى" [١].

" إنه الموت الذي ينتهي إليه كل حي ، والذي لا يدفعه عن نفسه ولا عن غيره حي، الموت الذي يفرق الأحبة ، ويمضي في طريقه لا يتوقف، ولا يتلفت ، ولا يستجيب لصرخة ملهوف ، ولا لحسرة مفارق، ولا لرغبة راغب ولا لخوف خائف ! الموت الذي يصرع الجبابرة بنفس السهولة التي يصرع بها الأقزام، ويقهر بها المتسلطين كما يقهر المستضعفين سواء ! الموت الذي لا حيلة للبشر فيه وهم مع هذا لا يتدبرون القوة القاهرة التي تجريه " [٢].

ويقرر القرآن أن لكل نفس كتابًا مؤجلًا إلى أجل مرسوم، ولن تموت نفس حتى تستوفي هذا الأجل المرسوم، فالخوف والهلع والحرص والتخلف لا تطيل أجلًا، والثبات والإقدام والوفاء لا تقصر عمرًا فلا كان الجبن ولا نامت أعين الجبناء والأجل المكتوب لا ينقص منه يوم ولا يزيد ! وبذلك تستقر حقيقة الأجل في النفس ... ثم ينتقل بالنفس خطوة أخرى.. فإنه إذا كان العمر مكتوبًا والأجل مرسومًا، فلتنظر نفس ما قدمت لغد، ولتنظر نفس ماذا تريد ؟ أتريد أن تقعد عن تكاليف الإيمان وأن تحصرهما في هذه الدنيا ؟ أم تريد أن تتطلع إلى أفق أعلى وإلى اهتمامات أرفع و حياة أكبر ؟ وشتان بين حياة وحياة ! وشتان بين اهتمام واهتمام ! - مع اتحاد النتيجة بالقياس إلى العمر والأجل - فكلاهما يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب ، ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [٣]، وبهذا يلمس القرآن مكمن الخوف من الموت في النفس البشرية لمسة موحية تطرد ذلك الخوف ، عن طريق بيان الحقيقة الثابتة في شأن الموت وشأن الحياة وما بعد الحياة والموت من حكمة لله وتدبير ومن ابتلاء للعباد وجزاء " [٤].

---

(١) في ظلال القرآن : ٥/ ٣٠٥٠ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق: ٦/ ٣٧٧٢ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ١٤٥ .
(٤) في ظلال القرآن : ١/ ٤٨٧ بتصرف، وينظر أيضًا ٢/ ٧١٦ .

" والموت غيب لا يدري إنسان متى يدركه، فبيد الله إعطاء الحياة، وبيده استرداد ما أعطى في الموعد المضروب والأجل المرسوم سواء كان الناس في بيوتهم وبين أهلهم أو في ميادين الكفاح للرزق أو للعقيدة : ﴿ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [(١)] "[(٢)].

" ولكن ليس معنى هذا أن لا يأخذ الإنسان حذره وحيطته، ويستعد للموت عدته، فالإنسان لا يعرف متى يحين أجله فيجب عليه أن يستيقظ، فالحياة إلى نهاية، والموت الذي يفر منه فإنه ملاقيه: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾[(٣)]، وجاء في الحديث أن النبي - ﷺ - قال : " مثل الذي يفر من الموت كمثل الثعلب ، تطلبه الأرض بدَيْن ، فجاء يسعى ، حتى إذا أعيا وأنهر دخل جحره فقالت له الأرض : يا ثعلب! دَيْني، فخرج له حصاص، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه فمات "[(٤)]، وهي صورة متحركة موحية عميقة الإيحاء "[(٥)].

الفرع الثالث : سكرة الموت وقبض الأرواح :

جاءت النصوص الشرعية في الكتاب والسُّنَّة مبينة أن للموت سكرات وغمرات، وأن لحظة الاحتضار وخروج الروح من الجسد لحظة رهيبة مفزعة، وأن أحوال الناس تختلف عند الاحتضار، وقد أشار سيد - رحمه الله - في ظلال الآيات التي تتحدث عن سكرات الموت وغمراته إلى أحوال الناس عند الاحتضار، ومن ذلك :

١ - في ظلال قوله تعالى ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾[(٦)].
يقول: " والموت أشد ما يحاول المخلوق البشري أن يروغ منه ، أو يبعد شبحه عن خاطره، ولكن أنى له ذلك، والموت طالب لا يمل الطلب ، ولا يبطئ الخطى ، ولا

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٥٦.
(٢) في ظلال القرآن : ١/ ٤٤٦، ٤٩٦، ٥١٦، ٧١٦ .
(٣) سورة الجمعة : الآية ٨.
(٤) رواه : الطبراني في الكبير ، مطبعة الزهراء العراق ط٢ عام ١٤٠٥ هـ ، ٧/ ٢٢٢ برقم ٦٩٢٢ ،وفي سنده معاذ الهذلي ، قال العقيلي: لا يتابع على رفع حديثه ، وفيه أيضًا عنعنة الحسن وهو مدلس .
(٥) ينظر في ظلال القرآن : ٤/ ٢٣٧٧ /٦ ٣٥٦٨ بتصرف .
(٦) سورة ق : الآية ١٩.

يخلف الميعاد، وذكر سكرة الموت كفيل برجفة تدب في الأوصال ! وبينما المشهد معروض يسمع الإنسان: ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ وإنه ليرجف لصداها وهو بعد في عالم الحياة ! فكيف به حين تقال له وهو يعاني السكرات ! وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: " سبحان الله إن للموت لسكرات "[1]. يقولها وهو قد اختار الرفيق الأعلى واشتاق إلى لقاء الله، فكيف بمن عداه ؟ .

ويلفت النظر في التعبير ذكر كلمة الحق ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ وهي توحي بأن النفس البشرية ترى الحق كاملاً وهي في سكرات الموت ، تراه بلا حجاب ، وتدرك منه ما كانت تجهل وما كانت تجحد ، ولكن بعد فوات الأوان حين لا تنفع رؤية ، ولا يجدي إدراك ، ولا تقبل توبة ، ولا يحسب إيمان، وذلك الحق هو الذي كذبوا به فانتهوا إلى الأمر المريج ! وحين يدركونه ويصدقون به لا يجدي شيئًا ولا يفيد! "[2].

٢- ويعقب- سيد- على وصية يعقوب -عليه السلام- لأبنائه عند موته بأنها مشهد عظيم الدلالة قوي الإيحاء، عميق التأسي حيث لم تصرفه سكرات الموت وصراعاته، وساعة الاحتضار عن الاستيثاق من أبنائه حول القضية الكبرى " العقيدة " مما يدل على أن سكرات الموت حق على كل إنسان " .

ويتحدث عن لحظة الاحتضار بقوله: " ولحظة الموت.. ترجف لها الأوصال، وهي اللحظة التي تنهي كل جدال، و يقف فيها الحي بين نهاية طريق وبداية طريق، حيث لا يملك الرجوع ولا يملك النكوص، ويصور القرآن موقف الاحتضار تصويرًا موحيًا، يرسم ظلال الموقف كله في لمسات سريعة ناطقة بكل ما فيه، وبكل ما وراءه: ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[3]، إنا

(١) رواه : البخاري في الرقاق باب سكرات الموت ٥/ ٢٣٨٧ برقم ٦١٤٥ .
(٢) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٣٦ وينظر أيضًا ٢/ ٨٠٣ .
(٣) سورة الواقعة : الآية ٨٣- ٨٧ .

لنكاد نسمع صوت الحشرجة ، ونبصر تقبض الملامح ، ونحس الكرب والضيق من خلال قوله : ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾، كما نكاد نبصر نظرة العجز وذهول اليأس في ملامح الحاضرين من خلال قوله: ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ في هذه اللحظة، وقد فرغت الروح من أمر الدنيا، وخلفت وراءها الأرض وما فيها، وهي تستقبل عالمًا لا عهد لها به ، ولا تملك من أمره شيئًا إلا ما ادخرت من عمل .. وهي ترى ولا تملك الحديث عما ترى، وقد انفصلت عمن حولها وما حولها، الجسد هو الذي يراه الناظرون، وهم ينظرون ولا يرون ما يجري ولا يملكون من الأمر شيئًا.. هنا يجلل الموقف جلال الله، ورهبة حضوره سبحانه وتعالى وهو حاضر في كل وقت " [١] .

" وهي صورة عميقة مؤثرة، حين تبلغ الروح الحلقوم ، ويقف صاحبها على حافة العالم الآخر، ويقف الجميع مكتوفي الأيدي عاجزين ، لا يملكون له شيئًا، ولا يدرون ما يجري حوله ، ولا ما يجري في كيانه، ويخلص أمره كله لله ، قبل أن يفارق هذه الحياة، ويرى هو طريقه المقبل ، حين لا يملك أن يقول شيئًا عما يرى ولا أن يشير" [٢]، " ويصور مشهد الاحتضار أيضًا في موضع ثالث بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾[٣]، فحين تبلغ الروح التراقي يكون النزع الأخير ، وتكون السكرات المذهلة، ويكون الكرب الذي تزوغ منه الأبصار ويتلفت الحاضرون حول المحتضر يتلمسون حيلة أو وسيلة لاستنقاذ الروح المكروب وتلوّى المكروب من السكرات والنزع، وبطلت كل حيلة ، وعجزت كل وسيلة ، وتبين الطريق الواحد: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ وهو مشهد يرسم حالة الاحتضار، ومعها الجزع والحيرة واللهفة ومواجهة الحقيقة القاسية المريرة، التي لا دافع لها ولا راد " [٤].

٣- يقرر سيد - رحمه الله - أن الله تعالى أوكل إلى ملك الموت وأعوانه فيقبض

(١) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٤٧١- ٣٤٧٢ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق : ٦/ ٣٤٦٢ .
(٣) سورة القيامة : الآيات ٢٦- ٣٠.
(٤) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٧٧٢ بتصرف .

أرواح العباد وسماهم رسلًا كما قال تعالى: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾[١]، وبين في ظلال الآيات التي تتحدث عن أحوال الناس لحظة الاحتضار وكيفية قبض الأرواح:

أ- أما المؤمنون: فقد أخبر الله تعالى أن الملائكة تبشرهم بالجنة عند قبض أرواحهم بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٢].

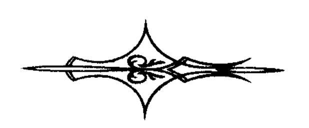
"فمشهد احتضار المؤمنين الطيبين مشهد هين لين كريم و نفوسهم طيبة بلقاء الله، معافين من الكرب وعذاب الموت، تسلم عليهم الملائكة طمأنة لقلوبهم وترحيبا بقدومهم: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تعجيلًا لهم بالبشرى وهم على أعتاب الآخرة، جزاء وفاقا بما كانوا يعملون "[٣].

ب- أما الكافرون والظالمون: فإن الملائكة تقبض أرواحهم في مشهد مفزع مكروب مرهوب يصوره قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾[٤]"[٥].

إنها صورة الظالمين في غمرات الموت وسكراته - ولفظ غمرات يلقي ظله المكروب - والملائكة يبسطون إليهم أيديهم بالعذاب ، وهم يطلبون أرواحهم للخروج ! وهم يتابعونهم بالتأنيب..عذاب مهين.. وتأنيب فاضح .. يضفي على المشهد ظلالًا مكروبه "[٦]، وأعظم من ذلك ما صوره القرآن لمشهد احتضار الكفار في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ

(١)سورة الأنعام : الآية ٦١.
(٢)سورة الأنعام : الآية ٦١.
(٣) في ظلال القرآن : ٢/ ١٠٤٤، ٤/ ٢١٦٩ بتصرف يسير .
(٤) سورة الأنعام الأية :٩٣ .
(٥) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠٤٤، ٤/ ٢١٦٩ بتصرف يسير .
(٦) المصدر السابق: ٢/ ١٠٤٤، ٤/ ٢١٦٩ بتصرف يسير .

وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ (١) ، فالملائكة تستل منهم أرواحهم في مشهد مهين يضيف المهانة والخزي إلى العذاب والموت - وهم يحتضرون - وفي نهاية حياتهم على الأرض ومستهل حياتهم الآخرى التي تفتتح بضرب الوجوه والأدبار لحظة الوفاة ، والضيق والكرب والمخافة " (٢) .



(١) سورة المائدة : الآية ٣١ .
(٢)ينظر: في ظلال القرآن : ٢/ ١٠٤٤، ٣/ ١٥٣٤ ، ٤/ ٢١٦٩ بتصرف يسير، وينظر أيضًا : ٢/ ٧٤٤، ٣/ ١٢٧٣، ٥/ ٢٩٨٢، ٦/ ٣٢٩٨ .

المطلب الثاني
القبر والبرزخ

القبر هو أول منازل الآخرة ، والحياة التي يقضيها الإنسان في قبره إلى يوم القيامة تسمى حياة البرزخ وقد أشار سيد – رحمه الله – إلى ما يتعلق بالقبر والحياة البرزخية في مواضع متعددة يمكن إجمالها في النقاط الآتية :

أولًا : مشروعية القبر :

أشار سيد – رحمه الله – إلى مشروعية دفن الميت في ظلال قوله تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [(١)]، حيث بين أن هذا كان أول حادث عدواني متعمد، وأن الفاعل لم يكن يعرف طريقة دفن الجثث، وفي بعض الروايات أن الغراب قتل غرابًا آخر، فجعل يحفر في الأرض، ثم واراه وأهال عليه التراب .. فقال القاتل قولته، وفعل مثلما رأى الغراب يفعل.. وظاهر أن القاتل لم يكن قد رأى من قبل ميتًا يدفن – وإلا لفعل " [(٢)].

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾ [(٣)] ، يقول سيد: " فأمره في نهايته كأمره في بدايته ، في يد الذي أخرجه إلى الحياة حين شاء ، وأنهى حياته حين شاء ، وجعل مثواه جوف الأرض ، كرامة له ورعاية ، ولم يجعل السُّنَّة أن يترك على ظهرها للجوارح والكواسر، وأودع فطرته الحرص على مواراة ميتة وقبره ، فكان هذا طرفًا من تدبيره له وتقديره " [(٤)].

ثانيًا : حياة البرزخ وعذاب القبر ونعيمه .

أخبر الله سبحانه وتعالى أن الفترة التي يقضيها الناس بعد موتهم إلى يوم القيامة

---

(١) في ظلال القرآن : ٢/ ٨٧٥، ٨٧٧ بتصرف .
(٢) سورة عبس : الآية ٢١.
(٣) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٨٣١، وينظر أيضًا : ٣/ ١٢٧٠، ٤/ ٢٣٣٩، ٦/ ٣٧٩٠، ٣٧٩٣ .
(٤) سورة المؤمنون : الآية ٩٩-١٠٠ .

تسمى بالبرزخ فقال سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾(١).

" حيث تصور الآيات مشهد الاحتضار، وطلب الرجعة إلى الحياة لتدارك ما فات ، وبيان أن ذلك لا ينفع في هذا الموقف ، حيث جاء الرد بأنها كلمة لا مدلول لها ولا يلتفت إليها فقد قضى الأمر وأسدلت الأستار.. ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ فلا هم من أهل الدنيا ولا هم من أهل الآخرة، إنما هم في ذلك البرزخ بين. بين، إلى يوم يبعثون " (٢).

" وهذه الحياة البرزخية التي يقضيها الإنسان بعد موته يعيش فيها إما منعمًا أو معذبًا ، وقد أشار القرآن الكريم إلى عذاب القبر لمن كان له أهلا بقوله عن قوم نوح ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (٣) .

يقول سيد - رحمه الله : " - فبخطيئتهم وذنوبهم ومعصيتهم أغرقوا فأدخلوا نارًا، والتعقيب بالفاء مقصود هنا ، لأن إدخالهم النار موصول بإغراقهم، والفاصل الزمني القصير كأنه غير موجود ، لأنه في موازين الله لا يحسب شيئًا.. وقد يكون هو عذاب القبر في الفترة القصيرة بين الدنيا والآخرة " (٤).

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ (٥)، يقول سيد - رحمه الله- : " والنص يلهم أن عرضهم على النار غدوًا وعشيًا ، هو في الفترة من بعد الموت إلى قيام الساعة ، وقد يكون هذا هو عذاب القبر ، إذ أنه يقول بعد هذا : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ للتعذيب برؤيتها وتوقع لذعها وحرها وهو عذاب شديد وإما لمزاولتها فعلاً . فكثيرًا ما يستعمل لفظ العرض للمس والمزاولة، وهذه أدهى.. ثم إذا كان يوم القيامة أدخلوا أشد العذاب! " (٦).

---

(١) سورة المؤمنون : الآية ٩٩-١٠٠ .

(٢) في ظلال القرآن : ٤/ ٢٤٨٠-٢٤٨١ بتصرف يسير .

(٣) سورة نوح : الآية ٢٥.

(٤) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٧١٦ .

(٥) سورة غافر : الآية ٤٦.

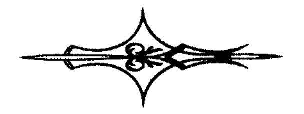
(٦) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٠٨٤ .

وأما في السُّنَّة فقد استعاذ النبي -ﷺ- من عذاب القبر[١] وأخبرﷺ أن للشهيد ست خصال ومنها " ويأمن من عذاب القبر " [٢]، [٣].

ثالثا : ما ينفع الميت بعد موته

في ظلال قوله تعالى:﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[٤]، يقول سيد - رحمه الله-: " فما يحسب للإنسان إلا كسبه وسعيه وعمله، لا يزاد عليه شيء من عمل غيره، ولا ينقص منه شيء ليناله غيره وهذه الحياة الدنيا هي الفرصة المعطاة له ليعمل ويسعى، فإذا مات ذهبت الفرصة وانقطع العمل، إلا ما نص عليه حديث رسول الله ﷺ في قوله : " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به " [٥]، وهذه الثلاثة في حقيقتها من عمله .

ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي - رحمه الله - ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ، ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة - رضي الله عنهم - ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما " [٦]، [٧].



(١) رواه : البخاري في الصلاة باب قبل السلام ١/ ٢٨٦ برقم ٧٩٨ ، ومسلم في المساجد باب ما يستعاذ منه ١/ ٣٤٤، ٣٤٥ برقم ٥٨٨، ٥٩٠.

(٢) رواه : الترمذي في فضائل الجهاد ٤/ ١٦١ برقم ١٦٦٣ وابن ماجه في الجهاد ٣/ ٢٣١ برقم ٢٧٩٩ ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢/ ٢٤٠.

(٣) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٩٤١، ٣٢٨٧ .

(٤) سورة النجم : الآية ٢٩.

(٥) رواه : مسلم في الوصية باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ٣/ ١٠١٦ برقم ١٦٣١ ، والترمذي في الأحكام ٣/ ٦٦٠ برقم ١٣٧٦.

(٦) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٣٤٣.

(٧) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٤١٥ .

المطلب الثالث

أشراط الساعة

الفرع الأول : تعريف أشراط الساعة :

الـ " أشراط " : بفتح الهمزة، جمع شَرَط " بفتحتين " كقلم وأقلام، بمعنى العلامات، وقيل الشرط الردى من كل شيء .

و" الساعة " في اللغة هي : الجزء من الزمن وتسمى ساعة زمنية، ومنه قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ﴾(١) " وفي عرف أهل الميقات جزء من أربعة وعشرين جزءًا من اليوم والليلة"(٢).

أما الساعة الشرعية: فالمراد بها يوم القيامة، وتأتي في القرآن معرفة بأل العهد بخلاف الساعة الزمانية، وقد جمع الله بين الساعة الزمانية والشرعية في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾(٣)، وسمي يوم القيامة " الساعة " لأنها كلمح البصر، ولم يكن في كلام العرب في المدد أقصر من الساعة، وقيل لأنها خفية ، أو لوقوعها بغتة ، أو لسرعة الحساب فيها" (٤).

والبعض يرى أن هناك فرق بين الساعة والقيامة، فالساعة هي الوقت الذي يموت فيه الأحياء في هذا العالم ويضطرب نظامه ويخرب، والقيامة هي البعث والحشر وما يكون فيه من حساب وما يتلوه،فالساعة هي المبدأ والقيامة هي الغاية.

والمقصود بـ" أشراط الساعة : "هي العلامات التي يعقبها قيام الساعة " .

الفرع الثاني : الإيمان بقيام الساعة :

جاء في القران الكريم والسُّنَّة الشريفة الإخبار عن قيام الساعة ، وأنه أعظم

(١) سورة الأعراف : الآية ٣٤.
(٢) فتح الباري : ١١/ ٣٨٩ .
(٣) سورة الروم : الآية ٥٥.
(٤) فتح الباري : ١/ ١٢١، ١١/ ٣٨٩ وهدي الساري ص ١٣٢.

حدث يحصل في الكون، وبه تنتهي الحياة الدنيا ، والآيات والأحاديث الواردة في ذلك أكثر من أن تحصر .

وأحداث قيام الساعة وأهوالها عظام جسام لا يعلم مداها إلا الله، وقد أخبر الله تعالى وأخبر رسوله ﷺ عنها، موعظة للناس وتذكيرًا لهم ليعدوا عدتهم من الإيمان والعمل الصالح .

والإيمان بقيام الساعة يشتمل على مسائل عديدة، تحدث عنها سيد قطب ويمكن بيانها فيما يأتي :

أولًا : علم وقت قيام الساعة :

جاءت الأدلة في الكتاب والسُّنَّة على أن الله- سبحانه وتعالى - استأثر بعلم وقت قيام الساعة، فلا يعلم أحد متى الساعة إلا الله تعالى وحده ، قال سبحانه: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[2]، وغيرها من الآيات، يقول سيد -رحمه الله-: " والساعة غيب قد اختص به الله سبحانه ، ولم يشأ أن يطلع عليه أحدًا من خلقه جميعًا ، بما فيهم الرسل والملائكة المقربون، وفي حديث حقيقة الإيمان والإسلام أن جبريل -عليه السلام- قال : للنبي ﷺ ...فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل إلخ، ثم قال رسول الله ﷺ فإنه جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم "[3].

فالمسئول رسول الله ﷺ والسائل جبريل -عليه السلام- -كلاهما لا يعلم علم الساعة ﴿ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾على وجه الاختصاص والتفرد من دون عباد الله"[4].

(١) سورة الأحزاب : الآية ٦٣.
(٢) سورة الأعراف : الآية ١٨٧ .
(٣) سبق تخريجه ص ٣٠٥ .
(٤) في ظلال القرآن : ٥/ ٢٨٨٢ بتصرف يسير .

والله سبحانه قد جعل الساعة غيبًا لا يعلمه سواه، استأثر الله به، فلم يطلع عليه أحدا من خلقه " . (١)

وإذا ثبت أن علم وقت قيام الساعة مما استأثر الله تعالى به، فإن الانشغال بتحديد عمر الدنيا بطريقة ما من الطرق يعد خوضا فيما ليس للإنسان به علم، لأنه إذا حدد عمر الدنيا فقد حدد وقت قيام الساعة وهذا مستحيل لما سبق من الأدلة " .

ثانيًا : الحكمة من إخفاء وقت الساعة وجعلها غيبًا :

أشار سيد – رحمه الله – في عدة مواضع إلى بعض الحكم من كون الساعة غيبًا، حيث يقول: " فأما الساعة فهي الوعد المرتقب للجزاء الكامل العادل ، الذي تتوجه إليه النفوس فتحسب حسابه، وتسير في الطريق وهي تراقب وتحاسب وتخشى الانزلاق، والله سبحانه يؤكد مجيئها " إن الساعة آتية " وأنه يكاد يخفيها، فعلم الناس بها قليل لا يتجاوز ما يطلعهم عليه من أمرها بقدر ما يحقق حكمته من معرفتهم ومن جهلهم، والمجهول عنصر أساسي في حياة البشر وفي تكوينهم النفسي فلا بد من مجهول في حياتهم يتطلعون إليه، ولو كان كل شيء مكشوفًا لهم وهم بهذه الفطرة لوقف نشاطهم وأسنت حياتهم ، فوراء المجهول يجرون، فيحذرون ويأملون ، ويجربون ويتعلمون، ويكشفون المخبوء من طاقاتهم وطاقات الكون من حولهم، وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد ، يحفظهم من الشرود فهم لا يدرون متى تأتي الساعة ، فهم من موعدها على حذر دائم وعلى استعداد دائم، ذلك لمن صحت فطرته واستقام، فأما من فسدت فطرته واتبع هواه فيغفل ويجهل ، فيسقط ومصيره إلى الردى " .

ويقول " وإنه لمن رحمة الله بالناس أن يجهلوا ما وراء اللحظة الحاضرة ليؤملوا ويعملوا وينتجوا وينشئوا ، والساعة من هذا الغيب المستور، ولو علم الناس موعدها لتوقفت عجلة الحياة ، أو اختلت ، ولما سارت الحياة وفق الخط الذي رسمته لها القدرة " .

" قدر الله هذا لحكمة يعلمها، نلمح طرفًا منها ، في ترك الناس على حذر من

(١) المصدر السابق : ٣/ ١٤٠٨ ، ١٤٠٩ ، ٥/ ٢٧٩٨ بتصرف، وينظر أيضًا :٢/ ١٠٧٣ ، ٤/ ٢١٨٥، ٥/ ٣١٢٩، ٣١٥١

أمرها ، وفي توقع دائم لها، وفي استعداد مستمر لفجأتها، ذلك لمن أراد الله له الخير وأودع قلبه التقوى دون الغافلين".

ثالثًا : قرب قيام الساعة :

أشارت بعض الآيات والأحاديث إلى قرب قيام الساعة وهذا يعني أن ما بقى من عمر الدنيا أقل مما مضى منه ، والقرب والبعد من الأمور النسبية .[١]

وقد ذكر سيد – رحمه الله – في ظلال قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[٢]، تصوير القران الكريم لقرب الساعة التي توشك أن تقع ، وهو تصوير فوق أنه صادق – بارع موح مثير – ثم أورد حديث النبيﷺ وفيه : أنه ﷺ خرج يومًا فنادى ثلاث مرات " أيها الناس أتدرون ما مثلي ومثلكم ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال ﷺ : " إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدوًا يأتيهم فبعثوا رجلًا يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر العدو ، فاقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه ، أيها الناس أتيتم ، أيها الناس أتيتم ، أيها الناس أتيتم " [٣] .

وقال ﷺ : " بعثت أنا والساعة جميعًا أن كادت لتسبقني " [٤]،[٥].

*وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾[٦] يقول سيد – رحمه الله – : " هل ينظرون إلا الساعة ؟ " فقد جاء أشراطها " ووجدت علاماتها ، والرسالة الأخيرة أضخم هذه العلامات، فهي إيذان بأنها النذارة الأخيرة قرب الأجل المضروب ، وقد قال رسول الله ﷺ: "بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بأصبعيه السبابة والتي تليها [٧] ، وإذا كان الزمن

(١) تفسير المنار ٩/ ٤١٠ .
(٢) سورة سبأ : الآية ٤٦ .
(٣) رواه : أحمد ٥/ ٣٤٨ ، قال الأرناؤوط صحيح لغيره ، انظرمسند أحمد بتحقيق الأرناؤوط ٣٨/ ٣٧ برقم ٢٢٩٤٨ .
(٤) رواه : أحمد ٥/ ٣٤٨ وحسنه الأرناؤوط ، المصدر السابق ٣٨/ ٣٧ .
(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩١٥ .
(٦) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩١٥ .
(٧) رواه : البخاري في الرقاق باب قول – ﷺ – بعثت أنا والساعة كهاتين ٥/ ٢٣٨٥ برقم ٢١٣٨ – ٣١٤٠ ، ومسلم في الفتن باب قرب الساعة ٤/ ٧٩٤ برقم ٢٩٥١ .

يلوح ممتدًا منذ هذه الرسالة الأخيرة، فإن أيام الله غير أيامنا ، ولكنها في حساب الله قد جاءت الأشراط الأولى، وما عاد لعاقل أن يغفل حتى تأخذه الساعة بغتة حيث لا يملك صحوًا ولا ذكرًا " (١) .

* وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ (٢)، يقول سيد -رحمه الله - : " مطلع باهر مثير ، على حادث كوني كبير ، وإرهاص بحادث أكبر، لا يقاس إليه ذلك الحدث الكوني... فيا له من إرهاص ! ويا له من خبر ، ولقد رأوا الحدث الأول فلم يبق إلا أن ينتظروا الحدث الأكبر . وبعد أن أورد روايات عدة حول انشقاق القمر يقول: " ونكتفي بإشارة القران الكريم إليه مع الإشارة إلى اقتراب الساعة باعتبار هذه الإشارة ، لمسة للقلب البشري ليستيقظ ويستجيب " (٣).

*ويقول سيد – رحمه الله –: فاقتراب الوعد بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول ﷺ فجاء في القرآن : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ والزمان في الحساب الإلهي غيره في حساب البشر ، فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون، يراها البشر طويلة مديدة، وهي عند الله ومضة قصيرة " (٤).

رابعًا : استبعاد المشركين لقيام الساعة وسببه :

أشار القران الكريم في عدة آيات إلى استبعاد المشركين لقيام الساعة وشكهم فيها ، لذا راحوا يسألون الرسول ﷺ عنها ويسخرون من حديثه عن الساعة ، وقد بين سيد – رحمه الله – في ظلال بعض الآيات أسباب إنكار المشركين لقيام الساعة ومن خذه الأسباب :

١ – اندثار عقيدة الإيمان وما فيها من حساب وجزاء عند المشركين مع أنها عقيدة أصيلة في دين إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام- بسبب طول الأمد ، وبعد ما بينهم وبين أصول الإسلام الذي كان عليه إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام–،

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٥ .
(٢) سورة القمر : الآية ١ .
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٢٥ ، ٣٤٢٧ ، ٣٤٢٧ ، ٣٤٢٨ ، بتصرف يسير .
(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٢٩٤، ٢٣٩٨ .

حتى أصبحت غريبة في تصوراتهم ، فكانوا يعجبون منها كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[١]،[٢].

٢- قصر علمهم وعدم إدراكهم لحكمة الله وتقديره ، فإنكار الذين كفروا للآخرة ناشئ من عدم إدراكهم لحكمة الله وتقديره ، فحكمة الله لا تترك الناس سدى ، يحسن منهم من يحسن ويسيء منهم من يسيء، ثم لا يلقى المحسن جزاء إحسانه ، ولا يلقى المسيء جزاء إساءته ، وقد أخبر الله على لسان رسله أنه يستبقي الجزاء كله أو بعضه للآخرة ، فكل من يدرك حكمة الله في خلقه يدرك أن الآخرة ضرورية لتحقيق وعد الله وخبره.. ولكن الذين كفروا محجوبون عن تلك الحكمة، من ثم يقولون قولتهم هذه : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ﴾[٣]، فيرد عليهم مؤكدًا جازمًا : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾[٤].

٣- الكفر وما ينتج عنه من حجب على القلوب، فالذين لا يؤمنون لا تحس قلوبهم ، ولا تقدر ما ينتظرهم، ولذا فهم محجوبون لا يدركون، بخلاف الذين آمنوا حيث نجدهم مشفقين يخافون الساعة، وينتظرونها بوجل وخشية ، وهم يعرفون ما هي حين تكون [٥].

٤- الكبر والغرور والبطر والاغترار بالنعم، حيث أشارت الآيات القرآنية إلى أن من أسباب إنكار الآخرة واستبعاد قيام الساعة الكبر وعدم الإذعان للحق والجدال بالباطل، وكذا الاغترار بالنعمة، فغير المؤمن تستخفه النعمة فينسى الشكر، ويستطيره الرخاء فيغفل عن مصدر النعمة، وينسى الآخرة ويستبعد أن تكون [٦].

---

(١) سورة سبأ : الآية ٧-٨ .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٠٨ بتصرف يسير .
(٣)سورة سبأ : الآية ٣ .
(٤)سورة سبأ : الآية ٣ .
(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٥١ بتصرف ، وينظر ٥/ ٢٥٥٤ .
(٦) ينظر ذلك : في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٧٠ ، ٥/ ٣٠٩١، ٣١٢٩ ، ٣٢٣٣ .

الفرع الثالث : علامات وأشراط الساعة :

علامات الساعة على قسمين :

الأول : العلامات الصغرى: وهي التي تتقدم الساعة بأزمان بعيدة وتكون في أصلها معتادة الوقوع .

الثاني : العلامات الكبرى: وهي التي تقارب قيام الساعة مقاربة وشيكة سريعة، وتكون في ذاتها غير معتادة الوقوع .[1]

موقف سيد قطب من أشراط الساعة:

أما موقف سيد - رحمه الله – من أشراط الساعة فبيانه كما يأتي :

أ- موقفه من أشراط الساعة إجمالًا :

١ -أما أشراط الساعة الصغرى فلم يتعرض لها سيد- رحمه الله- تفصيلًا وإنما أشار إلى اثنين منها :

الأول : بعثة النبي ﷺ

الثاني : انشقاق القمر وقد سبق الحديث عنهما في الفرع السابق، حيث أشار سيد – رحمه الله – إلى أن بعثة النبي ﷺ وكذا انشقاق القمر من علامات الساعة، فذكر قوله ﷺ "بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بإصبعه السبابة والتي تليها "[2]، وذكر أن انشقاق القمر من أشراط الساعة .[3]

٢- أشراط الساعة الكبرى: أما أشراط الساعة الكبرى فقد ذكر سيد – رحمه الله – الحديث الذي يجمعها في ظلال قوله تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾[4]، حديث : " لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس

---

(١) فتح الباري ١/ ١٢١ ، ١٨٧ واليوم الآخر في ظلال القرآن – احمد فائز – مؤسسة الرسالة ، ط٢٨ عام ١٤١٨هـ ص١٠٢ .

(٢) سبق تخريجه ص ١٠٧٤ .

(٣) ينظر : في ظلال القرآن ٥/ ٢٩١٥ ، ٦/ ٣٢٩٥ ، ٣٤٢٥ ، ٣٤٢٧ ، ٣٤٢٨ .

(٤) سورة الدخان : الآية ١٠ .

من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف ، خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا " [١] .

وحديث :" إن ربكم أنذركم ثلاثًا الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه ، والثانية الدابة ، والثالثة الدجال " [٢]،[٣].

ب- موقفه من أشراط الساعة تفصيلا :

١ـ الدجال : لم يتعرض سيد - رحمه الله - للحديث عن الدجال تفصيلًا، إنما ذكره في ضمن حديث العشر الآيات الذي سبق ذكره .

٢ـ نزول عيسى ـ عليه السلام ـ :

يقول سيد - رحمه الله - في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[٤] : " وقد وردت أحاديث شتى عن نزول عيسى -عليه السلام- إلى الأرض قبيل الساعة وهو ما تشير إليه الآية : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ بمعنى أنه يُعلِم بقرب مجيئها ، والقراءة الثانية: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ بمعنى أمارة وعلامة ، وكلاهما قريب من قريب .ثم ذكر قوله ﷺ : " والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها "[٥].

وقوله ﷺ " لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة،

---

(١) رواه : مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٤/ ١٧٦٣ برقم ٢٩٠١ وأحمد ٤/ ٦ .
(٢) تفسير الطبري ١١/ ٢٢٧ .
(٣) تفسير الطبري ١١/ ٢٢٧ .
(٤) سورة الزخرف : الآية ٦١ .
(٥) رواه البخاري في الأنبياء باب نزول عيس ٣/ ١٢٧٢ برقم ٣٢٦٤ وكذا برقم ٢١٠٩ ، ٢٣٤٤ ، ومسلم في باب نزول عيسى بن مريم ١/ ١٢٢ برقم ١٥٥ .

فينزل عيسى ابن مريم ، فيقول أميرهم : تعال : صل لنا، فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمه الله تعالى لهذه الأمة "[١]،[٢].

٣- خروج ياجوج وماجوج : جاء ذكر ياجوج ومأجوج في موضعين من القران الكريم :

الأول : قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾[٣].

والثاني : قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾[٤].

وأما في السُّنَّة فقد جاء ذكرهم في الحديث الذي يتحدث عن الآيات العشر " لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات وذكر منها... خروج يأجوج ومأجوج "[٥].

ويرى سيد قطب - رحمه الله - أن الآيات لا تجزم بشيء عن مكان يأجوج ومأجوج وإنما تثبت وجود قوم يسمون بـ" يأجوج ومأجوج " مفسدون في الأرض، وأن ذا القرنين وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين ، أو بين سدين صناعيين تفصلهما فجوة أو ممر، وأن قومًا ضعافًا كانوا يعيشون هناك، عرضوا عليه أن يقيم لهم سدًا في وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاجزين ، ويغيرون عليهم من ذلك الممر، ويعيثون في الأرض فسادًا... وتبعًا للمنهج الصالح الذي أعلنه ذلك الحاكم الصالح، فقد رأى أن أيسر الطرق هي ردم الممر بين الحاجزين، فطلب من القوم أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية فجمعوا له قطع الحديد ، وكومها في الفتحة بين الحاجزين ، وسخنها بالنار ثم افرغ عليها النحاس ليزيد من صلابتها، وبذلك أغلق الطريق على يأجوج ومأجوج، فلم يستطيعوا أن يتسوروه أو ينقبوه "[٦].

---

(١) رواه : مسلم كتاب الإيمان باب نزول عيسى بن مريم ١/ ١٢٤ برقم ١٥٦ .
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٩٨ ، ٣١٩٩ وينظر أيضًا : ٢/ ٨٠٢ .
(٣) سورة الكهف : الآيات ٩٤- ٩٩ .
(٤) سورة الأنبياء : الآية ٩٦ .
(٥) سبق تخريجه ص ١٠٧٦ .
(٦) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٩٢ بتصرف .

ثم يقول سيد – رحمه الله – بعد ذلك :" وبعد فمن يأجوج ومأجوج؟ وأين هم الآن؟ وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون؟ كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق ، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد في القرآن ، وفي بعض الأثر الصحيح .

والقرآن يذكر في هذا الموضع ما حكاه من قول ذي القرنين: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾[١]، وهذا النص لا يحدد زمانًا، ووعد الله بمعنى : وعده بدك السد ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار ، وانساحوا في الأرض ، ودمروا الممالك تدميرًا .

وفي موضع آخر سي سورة الأنبياء ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾[٢].

وهذا النص كذلك لا يحدد زمانا معينًا لخروج يأجوج ومأجوج، فاقتراب الوعد بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول ﷺ فجاء في القرآن: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾[٣]، والزمان في الحساب الإلهي غيره في حساب البشر، فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون ، يراها البشر طويلة مديدة ، وهي عند الله ومضة قصيرة .

وإذن فمن الجائز أن يكون السد قد فتح في الفترة ما بين: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ ويومنا هذا، وتكون غارات المغول والتتار التي اجتاحت الشرق هي انسياح يأجوج ومأجوج .

وهنالك حديث صحيح عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت : " استيقظ الرسول ﷺ من نومه وهو محمر الوجه وهو يقول : " ويل للعرب من شر قد اقتربت، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا " وحلق بإصبعيه السبابة والإبهام .

---

(١) سورة الكهف : الآية ٩٨ .
(٢) سورة الأنبياء ٩٦- ٩٧ .
(٣) سورة القمر : الآية ١ .

قلت : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : نعم إذا كثر الخبيث "[١] .

وقد كانت الرؤيا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا ونصف قرن. وقد وقعت غارات التتار بعدها ، ودمرت ملك العرب بتدمير الخلافة العباسية على يد -هولاكو- في خلافة ...آخر ملوك العباسيين، وقد يكون هذا تعبير رؤيا الرسول ﷺ وعلم ذلك عند الله ، وكل ما نقوله ترجيح لا يقين "[٢].

وفي سورة الأنبياء يقول سيد : " ثم يعرض مشهدًا من مشاهد القيامة، يبدؤه بالعلامة التي تدل على قرب الموعد وهي فتح يأجوج ومأجوج ... وقد قلنا من قبل عند الكلام على يأجوج ومأجوج في قصة ذي القرنين: أن اقتراب الوعد الحق الذي يقرنه السياق بفتح يأجوج مأجوج ، ربما يكون قد وقع بانسياح التتار وتدفقهم شرقًا وغربًا ، وتحطيم المماليك والعروش، لأن القرآن قد قال منذ أيام الرسولﷺ ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾،غير أن اقتراب الوعد الحق لا يحدد زمانًا معينًا للساعة، فحساب الزمن في تقدير الله غيره في تقدير البشر: ﴿ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾، إنما المقصود هنا هو وصف ذلك اليوم حين يجيء ، والتقديم له بصورة مصغرة من مشاهد الأرض ، هي تدفق يأجوج ومأجوج من كل حدب في سرعة واضطراب "[٣].

وما ذكره سيد من القول بأن المقصود بخروج يأجوج ومأجوج قد يكون هو انسياح التتار في الأرض خلاف ما عليه جمهور أهل السُّنَّة والجماعة ، فالراجح أنهم من علامات الساعة الكبرى التي لم تأتِ بعد[٤].

---

(١) رواه : البخاري في كتاب الأنبياء باب قصة يأجوج ومأجوج ٣/ ١٢٢١ برقم ٣١٦٨ ومسلم في الفتن باب اقتراب الفتن ٤/ ١٧٤٩ برقم ٢٨٨٠ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٩٣-٢٢٩٤ ، وقد ذكر سيد - رحمه الله - في الهامش أنه كشف سد بمقربة من مدينة ترمز وعرف بباب الحديد وقد مر به أوائل القرن الخامس الميلادي العالم الألماني" سيلد برجر" وسجله في كتابه ، وكذا المؤرخ الاسباني "كلا فيجو" في رحلة عام ١٤٠٣م .. وقد يكون هو السد الذي بناه ذي القرنين .

(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٨ .

(٤) يضيف الدكتور / خليل الكبيسي –حفظه الله– قائلًا " وما المانع أن يكون لهم ظهور جزئي قبل القيامة كما أخبر النبي ﷺ عنه ، وتكون علامة الساعة الكبرى هي خروجهم الكلي فلا تعارض بينهما والله أعلم " .

٤- الدخان :

في ظلال قوله تعالى: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[١].

يقول سيد - رحمه الله - : " وقد اختلف السلف في تفسير آية الدخان :

*فقال بعضهم : إنه دخان يوم القيامة ، وإن التهديد بارتقابه كالتهديد المتكرر في القرآن، وإنه آتٍ يترقبونه ويترقبه رسول الله ﷺ .

*وقال بعضهم : بل هو قد وقع فعلًا كما توعدهم به، ثم كُشف عن المشركين بدعاء الرسول ﷺ فنذكر هنا ملخص القولين وأسانيدها، ثم نعقب بما فتح الله به ، ونحسبه صوابًا إن شاء الله .

ثم ذكر سيد - رحمه الله - حديث مسروق[٢]. قال: دخلنا مسجد الكوفة -عند أبواب كندة - فإذا رجل يقص على أصحابه: ﴿ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾ تدرون ما الدخان؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام ، قال: فأتينا ابن مسعود- رضي الله عنه - فذكرنا ذلك له، وكان مضطجعًا ففزع فقعد ، وقال : إن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴾[٣] إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : الله أعلم، أحدثكم عن ذلك، إن قريشًا لما أبطأت عن الإسلام ، واستعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان وفي رواية فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، قال الله تعالى: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾،

---

(١) سورة الدخان : الآية ١٠-١١ .

(٢) هو : مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني ،تابعي ثقة ، من أهل اليمن ،قدم المدينة في أيام أبي بكر رضي الله عنه ،وسكن الكوفة ،كان فقيها عالما بالفتيا ،توفي سنة ٦٣هـ ،انظر : سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٣ ، الأعلام ٧/ ٢١٥ .

(٣) سورة ص : الآية ٨٦ .

فأُتي رسول الله ﷺ فقيل له : " يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت، فاستسقى ﷺ لهم فسقوا، فنزلت : ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾، قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة ؟فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم ، فأنزل الله عزوجل: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾،قال : يعني يوم بدر، قال ابن مسعود - رضي الله عنه - فقد مضى خمس : الدخان، والروم، والقمر، والبطشة ، واللزام " (١).

*وقال آخرون : لم يمض الدخان بعد ، بل هو من أمارات الساعة ، كما جاء في حديث : " لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات وذكر منها : الدخان" (٢).

وكما جاء في قوله ﷺ : " إن ربكم أنذركم ثلاثًا الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه ، والثانية الدابة ، والثالثة الدجال " (٣).

وكذا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما نمت الليلة حتى أصبحت، قيل : لم ؟ قال : قالوا طلع الكوكب ذو الذنب ، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق ، فما نمت حتى أصبحت " (٤).

قال ابن كثير : " وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - حبر الأمة وترجمان القرآن، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين- رضي الله عنهم أجمعين - مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما التي أوردوها ، مما فيه مقتنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة ، مع أنه ظاهر القرآن ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي بيّن واضح يراه كل أحد ، وعلى ما فسر به ابن مسعود - رضي الله عنه - إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد ، وهكذا قوله تعالى: ﴿ يَغْشَى

---

(١) رواه البخاري في التفسير ٤/ ١٨٢٣ برقم ٤٥٣٤ ، وقد واقف ابن مسعود على تفسير الآية بهذا جماعة من السلف كمجاهد وأبي العالية ، والنخعي ، والضحاك والصوفية ، واختاره ابن جرير الطبري ، ينظر : تفسير ابن جرير ١١/ ٢٢٨، في ظلال القرآن ٥/ ٣٢١٠ .

(٢) سبق تخريجه : ص ١٠٧٦ .

(٣) تفسير الطبري ١١/ ٢٢٧ .

(٤) تفسير الطبري ١١/ ٢٢٧ .

﴿ٱلنَّاسَ﴾ أي يتغشاهم ويعميهم ، ولو كان أمرًا خياليًا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي يقال لهم ذلك ، تقريعًا وتوبيخًا.. أو يقول بعضهم لبعض، وقوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ أي يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم ، كقوله جلت عظمته: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾[1].

وقوله تعالى :﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ يحتمل معنيين :

أحدهما: أنه يقول: ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾[2].

والثاني: أن يكون المراد : إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلًا بعد انعقاد أسبابه ، ووصوله إليكم ، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال ، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم ، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾[3] ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم ، بل كان قد انعقد سببه عليهم .

وقيل : معناه إنكم عائدون إلى عذاب الله .

وقوله تعالى ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ فسرها ابن مسعود - رضي الله عنه - بيوم بدر ووافقه جماعة ، وجماعة على أن ذلك يوم القيامة ، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: قال ابن مسعود البطشة الكبرى يوم بدر ، وأنا أقول : هي يوم القيامة "[4].

---

(١)سورة الأنعام : الآية ٢٧ .

(٢)سورة الأنعام : الآية ٢٨.

(٣)سورة يونس : الآية ٩٨.

(٤)أخرجه ابن جرير بسنده إلى ابن عباس وقال : وهذا إسناد صحيح عنه : وبه يقول الحسن البصري وعكرمة في أصح الروايتين ، انظر: تفسير الطبري ١١/ ٢٢٦.

وبعد أن ساق سيد – رحمه الله – الآثار السابقة قال: ونحن نختار قول ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الدخان بأنه عند يوم القيامة، وقول ابن كثير في تفسيره، فهو تهديد له نظائره الكثيرة في القرآن الكريم ، في مثل هذه المناسبة ، ومعناه : إنهم يشكون ويلعبون، فدعهم وارتقب ذلك اليوم المرهوب ، يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس ، ووصف هذا بأنه عذاب أليم ، وصور استغاثتهم : ﴿ رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾، ورده عليهم باستحالة الاستجابة ، فقد مضى وقتها ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ [1].

٥- الدابة:

في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾[2]، يقول سيد – رحمه الله – : "والسياق يجول بهم في أشراط الساعة ، وبعض مشاهدها ويذكر فيها ظهور الدابة التي تكلم الناس الذين كانوا لا يؤمنون بآيات الله الكونية ...

وقد ورد ذكر خروج الدابة المذكورة هنا في أحاديث كثيرة بعضها صحيح، وليس في هذا الصحيح وصف للدابة ، إنما جاء وصفها في روايات لم تبلغ حد الصحة ، لذلك نضرب صفحًا عن أوصافها ، فما يعني شيئًا أن يكون طولها ستين ذراعًا ، وأن تكون ذات زغب وريش وحافر، وأن يكون لها لحية ! وأن يكون رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيل، وعنقها عنق نعامة، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هر، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير.. الخ هذه الأوصاف التي افتن فيها المفسرون!.

وحسبنا أن نقف عند النص القرآني والحديث الصحيح الذي يفيد أن خروج الدابة من علامات الساعة، وأنه إذا انتهى الأجل الذي تنفع فيه التوبة، وحق القول على الباقين فلم تقبل منهم توبة بعد ذلك، وإنما يقضى عليهم بما هم عليه.. عندئذ يخرج الله لهم دابة تكلمهم ، والدواب لا تتكلم ، أولا يفهم عنها الناس ولكنهم اليوم يفهمون ، ويعلمون أنها الخارقة المنبئة باقتراب الساعة ، وقد كانوا لا يؤمنون

---

(١) في ظلال القرآن : ٥/ ٣٢١٠-٣٢١٢ بتصرف .

(٢) سورة النمل : الآية ٨٢ .

بآيات الله ، ولا يصدقون باليوم الموعود "[١].

٦- طلوع الشمس من المغرب :

ذكر سيد حديث أشراط الساعة الكبرى وفيه قوله -ﷺ-: " طلوع الشمس من مغربها "[٢].

ولكنه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾[٣].

يقول: " إنه تهديد واضح حاسم ، فقد مضت سُنَّة الله بأن يكون عذاب الاستئصال حتماً إذا جاءت الخارقة ثم لم يؤمن بها المكذبون ، والله سبحانه يقول لهم : إن ما طلبوه من الخوارق لو جاءهم بعضه لقضي عليهم بعده.. وإنه يوم تأتي بعض آيات الله تكون الخاتمة التي لا ينفع بعدها إيمان ولا عمل لنفس لم تؤمن من قبل ، ولم تكسب عملاً صالحًا في إيمانها ، فالعمل الصالح هو دائماً قرين الإيمان وترجمته في ميزان الإسلام، ولقد ورد في روايات متعددة أن المقصود بقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ هو أشراط الساعة وعلاماتها ، التي لا ينفع بعدها إيمان ولا عمل ، وعدوا من ذلك أشراطًا بعينها.. ولكن تأويل الآية على وفق السُّنَّة الجارية في هذه الحياة أولى ، فقد سبق مثله في أول السورة وهو قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ والملاحظ أن السياق يكرر وهو بصدد الكلام عن الشريعة والحاكمية ، ما جاء مثله من قبل وهو بصدد الكلام عن الإيمان والعقيدة ، وأن هذا ملحوظ ومقصود ، لتقرير حقيقة بعينها ، فأولى أن نحمل هذا الذي في آخر السورة على ما جاء من مثله في أولها من تقرير سنة الله الجارية ، وهو كاف في التأويل بدون الالتجاء إلى الإحالة على ذلك الغيب المجهول "[٤].

---

(١) في ظلال القرآن : ٥/ ٢٦٦٦-٢٦٦٧ .

(٢) سبق تخريجه ص ١٠٧٦ ، وانظر: في ظلال القرآن : ٥/ ٣٢١٠ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١٥٨ .

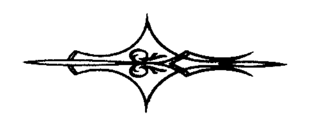
(٤) في ظلال القرآن : ٣/ ١٢٣٨- ١٢٣٩ .

- وكلام سيد - رحمه الله - في تفسير الآية له وجهه، وهو أن النص عام لم يخصص وما جاء في بعض الاحاديث فهو مثال لبعض الآيات ،وإن كان جمهور المفسرين على أن المقصود بالآية هو طلوع الشمس من مغربها "[(١)]، لورود أحاديث عن النبي -ﷺ- فيها بيان أن المراد هو طلوع الشمس من مغربها ، ومن ذلك :

قوله -ﷺ- : " لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل "[(٢)].

وقوله -ﷺ- : " أتدرون أين تذهب هذه الشمس ؟ " قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : " إن هذه الشمس تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها : ارتفعي ارجعي من حيث جئت ، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة، ولا تزال كذلك حتى يقال لها ، ارجعي من حيث جئت فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ، ثم تجري ، لا يستنكر الناس شيئا حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش فيقال لها : ارتفعي أصبحي من مغربك ، فتصبح طالعة من مغربها فقال الرسول -ﷺ- : أتدرون متى ذاك ؟ ذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن أمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا "[(٣)].

هذه العلامات التي تعرض لها سيد - رحمه الله - بالتفصيل في ضوء الآيات التي جاء ذكرها فيها.أما بقية العلامات وهي النار والخسوفات فلم يتعرض لها بالتفصيل وإنما جاء ذكرها إجمالا في الحديث الذي جمع العشر الآيات .



---

(١) ينظر : تفسير الطبري ٥/ ٤٠٤ - ٤٠٥ ، وتفسير ابن كثير ٣/ ١٣٩٣- ١٣٩٧ .

(٢) رواه البخاري من كتاب التفسير ، باب " لا ينفع نفسا إيمانها " ٤/ ١٦٩٧برقم ٤٣٥٩ ومسلم ، في كتاب الإيمان ، باب " الزمن الذي لا يقبل منه إيمان " ١ / ١٢٤ برقم ١٥٧ .

(٣) رواه البخاري في كتاب التوحيد ، باب " وكان عرشه على الماء " ٦/ ٢٧٠ برقم ٦٩٨٨ ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب " الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان " ١ / ٢٥برقم ١٥٩ واللفظ له .

المبحث الثالث

يوم القيامة وأحداثه



يبدأ يوم القيامة من النفخ في الصور ثم البعث والنشور ثم العرض الحساب والموازين والصراط وينتهي بالاستقرار في دار الخلود الجنة أو النار.

وفيما يلي استعراض لأحداث هذا اليوم العظيم وما فيه ومنهج سيد قطب - رحمه الله- فيها ، وذلك من خلال المطالب الآتية :

المطلب الأول

النفخ في الصور



النفخ في الصور هو المؤذن بقيام الساعة ، وعنه ينشأ الصعق والبعث ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[١].

وقد تكلم سيد-رحمه الله- عن النفخ في الصور موضحًا معناه وصفاته وعدد النفخات وذلك كالآتي:

أولًا : تعريف الصور :ـ

الثابت عند أهل السنة والجماعة أن الصور قرن ينفخ فيه ، وهو واحد لا اسم جمع ، ويسمى بالناقور أيضًا[٢] .

وزعم بعضهم أن الصور ليس قرنًا بل صورة ، كالصوف جمع صوفة ، وهذا

---

(١) سورة الزمر : الآية٦٨ .

(٢) فتح الباري : ٨/ ٨٢٩ ، ١١/ ٣٧٦ .

خطأ فاحش وتحريف لكلمات الله عز وجل ، لان الله عز وجل قال : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾- بفتح الواو - ولا نعلم أحدًا من القراء قرأها فأحسن صُوْركم -بسكون الواو - فمن قرأ : ونفخ في الصُوَر ، وقرأ : فأحسن صُوْركم ، فقد افترى وبدل[١].

ويرد أيضًا على من فسر الصور، بأنه جمع صورة، بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ فالمعلوم أن إرجاع الأرواح يكون مرة واحدة ، فهل معنى هذا أن الصور ترجع لها الروح مرتين ؟ لا شك في بطلان هذا[٢].

أما سيد - رحمه الله - فقد قرر ما عليه أهل السنة في تعريف الصور من أنه البوق الذي ينفخ فيه فقال : " الصور: هو القرن المجوف كالبوق ، غيب من ناحية ماهيته وحقيقته ، ومن ناحية كيفية استجابة الموتى له ، والروايات المأثورة تقول : هو بوق من نور ينفخ فيه ملك ، فيسمع من في القبور، حيث يهبون للنشور - وهذه هي النفخة الثانية - أما الأولى فيصعق لها من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله كما جاء في آية الزمر: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[٣] ، وهذه الأوصاف للصور ولآثار النفخة فيه تعطينا - عن يقين - أنه على غير ما يمكن أن يكون البشر قد عهدوه في هذه الأرض أو تصوروه.. وهو من ثم غيب من غيب الله.. نعلمه بقدر ما أعطانا الله من وصفه وأثره، ولا نتجاوز هذا القدر الذي لا أمان في تجاوزه، ولا يقين، إنما هي الظنون! "[٤].

ويقول في موضع أخر : " والصور البوق ينفخ فيه ،ونحن لا ندري عنه إلا اسمه ، ولا نعلم إلا أنه سينفخ فيه ، وليس لنا أن نشغل أنفسنا بكيفية ذلك ، فهي لا تزيدنا إيمانًا ولا تأثرًا بالحادث ، وقد صان الله طاقتنا عن أن تتبدد في البحث وراء هذا

(١)لسان العرب : ٤/ ٤٧٥ بتصرف يسير .
(٢)اليوم الآخر في القرآن والسنة د/ عبد المحسن المطيري- دار البشائر - لبنان - ط٢-عام ١٤٢٧هـ ص٢١٢ .
(٣) سورة الزمر : الآية٦٨ .
(٤) في ظلال القرآن ٢/ ١١٣٤-١١٣٥ ، وينظر : ٤/ ٢٣٥٤ .

الغيب المكنون وأعطانا منه القدر الذي ينفعنا فلا نزيد" [(١)].

ويسمى أيضًا بالناقور ، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾[(٢)]، يقول سيد -رحمه الله - : " والنقر في الناقور ، هو ما يعبر عنه في مواضع أخرى بالنفخ في الصور ، ولكن التعبير هنا أشد إيحاء بشدة الصوت ورنينه كأنه نقر يصوّت ويدوّي، والصوت الذي ينقر الآذان أشد وقعًا من الصوت الذي تسمعه الآذان " [(٣)].

ويسمى أيضًا بالقرن يقول سيد -رحمه الله- في ظلال قوله تعالى:﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾[(٤)]: " وهو مشهد يكفي استحضاره في النفس لتقضي رحلتها كلها على الأرض في توجس وحذر وارتقاب، وقد قال رسول الله ﷺ :"كيف أنعم، وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ، وانتظر أن يؤذن له؟ " قالوا : يا رسول الله ، كيف نقول؟ قال ﷺ : " قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل " فقال القوم : حسبنا الله ونعم الوكيل " [(٥)]،[(٦)].

ثانيًا : عدد النفخات وكيفيتها :

اختلف العلماء في عدد النفخات على أقوال :

القول الأول : أنها نفختان : نفخة الصعق ، ونفخة البعث ،واستدلوا ببعض الآيات والأحاديث مثل قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [(٧)]، وبحديث أبي هريرة- رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال:" بين النفختين أربعون يومًا" [(٨)]، وببعض

---

(١) المصدر السابق ٥/ ٢٦٦٨ ، ٦/ ٣٦٧٩، ٣٨٠٧ .

(٢) سورة المدثر : الآية ٨ .

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٥٥ .

(٤) سورة ق : الآية ٢٠ .

(٥) رواه : الترمذي في كتاب صفة القيامة ، باب ما جاء في الصور ٤/ ٥٣٦ برقم ٢٤٣١ ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ص ٥٧٨ .

(٦) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٦٤ .

(٧) سورة الزمر : الآية٦٨ .

(٨) رواه البخاري : في التفسير باب ونفخ في الصور ٤/ ١٨١٣ برقم ٤٥٣٦ ، ومسلم في الفتن باب ما بين النفختين ٤/ ١٧٩٦ برقم ٢٩٥٥ .

الآثار عن بعض الصحابة والتابعين "[١].

القول الثاني: أنها ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث، واستدلوا بالآيات التي ذكرت الألفاظ الثلاثة وهي:

* قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[٢].

* وقوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[٣].

كما استدلوا بحديث الصور الطويل، وفيه أن النفخات الثلاث[٤]، ورجح هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية وابن كثير وغيرهما[٥].

- ويرد البعض على أصحاب هذا القول بأنه " لا يلزم من مغايرة الصعق للفزع كما ورد في الآيات أن لا يحصلا معًا في النفخة الأولى، فالناس يسمعون الصيحة الأولى فيفزعون ثم يصعقون، فهي نفخة واحدة لا اثنتان، وقد ورد في السنة ما يدل على أن النفخة الأولى يستمع إليها الناس من بعيد فيصغون لها الرؤوس ثم تزداد قوتها فيفزعون -كما في الآية- ثم يصعقون كما في الآية الأخرى"[٦].

القول الثالث: أنها أربع نفخات: قال الحافظ ابن حجر: " وزعم ابن حزم أن النفخات يوم القيامة أربع، الأولى: إماتة يموت فيها من بقى حيًا في الأرض، والثانية نفخة إحياء يقوم بها كل ميت، وينتشرون من القبور، والثالثة: نفخة فزع وصعق يفيقون منها كالمغشي عليه لا يموت منها أحد، والرابعة: نفخة إقامة من ذلك الغشي " ثم قال الحافظ: وهذا الذي ذكره من كون الثنتين أربعًا ليس بواضح، بل هما نفختان فقط، وقد قع التغاير في كل واحدة منها باعتبار من يستمعها،

---

(١) ممن قال بهذا: ابن عباس ومجاهد والسحن وقتادة والضحاك وغيرهم، انظر: تفسير أبن كثير ٧/ ٣٠٥٤، وفتح الباري ١١/ ٣٧٤.

(٢) سورة النمل: الآية ٨٧.

(٣) سورة الزمر: الآية ٦٨.

(٤) الحديث رواه البيهقي في البعث والنشور ص ٣٢٥.

(٥) ينظر مجموع الفتاوى ٤/ ٢٦٠، ١٦/ ٣٥، وتفسير أبن كثير ٧/ ٣٠٥٤، لوامع الأنوار للسفاريني ٢/ ١٦١، وفتح الباري ١١/ ٣٧٧.

(٦) ينظر: فتح الباري ١١/ ٣٧٧، تفسير القرطبي ٥/ ١٥٩، ٨/ ١٨٢، ومعالم التنزيل للبغوي ٧/ ١٣١، وفتح القدير للشوكاني ٤/ ٤٥٨.

فالأولى يموت بها كل من كان حيًا ،ويغشى على من لم يمت ممن استثنى الله ، والثانية : يعيش بها من مات ويفيق من غشي عليه ، والله أعلم "[١].

أما سيد قطب فيرى أن عدد النفخات ثلاث :

الأولى : **نفخة الفزع والصعق** :

يقول سيد - رحمه الله - :" أما في الأولى فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله كما جاء في آية الزمر: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[٢]، ويقول في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[٣] : " وهذه هي نفخة الفزع الذي يشمل كل من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله أن يأمن ويستقر.. قيل هم الشهداء.. وفيها يصعق كل حي في السماوات والأرض إلا من شاء الله ... ويصاحب الفزع الانقلاب الكوني العام الذي تختل فيه الأفلاك، وتضطرب دورتها، ومن مظاهر هذا الاضطراب أن تسير الجبال الراسية ، وتمر كأنها السحاب في خفته وسرعته وتناثره ، وهو مشهد يتناسق مع ظل الفزع ، ويتجلى الفزع فيه، وكأنما الجبال مذعورة مع المذعورين ، مفزوعة مع المفزوعين، هائمة مع الهائمين"[٤].

وفي ظلال آية الزمر نفسها يقول سيد: " ها هي ذي الصيحة الأولى تنبعث ، فيصعق من يكون باقيًا على ظهر الأرض من الأحياء ، ومن في السماوات كذلك إلا من شاء الله ولا نعلم كم يمضي من الوقت حتى تنبعث الصيحة الثانية "[٥].

الثانية : **نفخة البعث** :

يقول سيد - رحمه الله -: " والصور البوق ينفخ فيه- النفخة الأولى - نفخة

---

(١) فتح الباري : ٦/ ٤٤٦ ، ١١/ ٣٧٧ .

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١١٣٤-١١٣٥ .

(٣) سورة النمل : الآية ٨٧ .

(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٦٨ ، ٢٦٦٩ وينظر أيضًا ٢/ ١٢٦٦ ، ٥/ ٢٩٧١ ، ٦/ ٣٦٧٩ .

(٥) المصدر السابق ٥/ ٣٠٦٢ .

الفزع الذي يشمل كل من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، وفيها يصعق كل حي في السماوات والأرض إلا من شاء الله ، ثم تكون نفخة البعث "(١).

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾(٢)، يقول سيد -رحمه الله-: " فهي تأخذهم بغتة وهم في جدالهم وخصامهم في معترك الحياة ، لا يتوقعونها ولا يحسبون لها حسابًا فإذا هم منتهون، كل على حاله التي هو عليها..." .

ثم ينفخ في الصور فإذا هم ينتفضون من القبور، ويمضون سراعًا ، وهم في دهش وذعر يتساءلون ﴿ مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾(٣) . فهذه هي النفخة الثانية نفخة البعث والقيام لرب العالمين .

الثالثة: نفخة الحشر والتجميع:

أشار سيد - رحمه الله - إلى النفخة الثالثة وسماها نفخة الحشر والتجميع في أكثر من موضع ، ففي ظلال آية الزمر ذكر الصحية الأولى التي يصعق بها كل من في السموات والأرض إلا من شاء الله ، ثم تأتي الصيحة الثانية صيحة البعث والنشور من القبور ثم قال " ولا تذكر الصيحة الثالثة صيحة الحشر والتجميع" (٤).

* وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ في سورة يس يقول: "فهي تأخذهم كل على حاله... ثم ينفخ في الصور فإذا هم ينتفضون من القبور... ثم إذا الصيحة الأخيرة ، صيحة واحدة فإذا هذا الشتيت الحائر المذهول المسارع في خطاه المدهوش يثوب ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ وتنتظم الصفوف وتتهيأ للاستعراض في مثل لمح البصر ورجع الصدى "(٥) .

*وفي سورة النمل يذكر سيد - رحمه الله - نفخة الفزع التي يصعق فيها كل

---

(١) المصدر السابق ٥/ ٢٦٦٨ .
(٢) سورة يس: الآية ٤٩ .
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٧٢ ، وينظر أيضًا ٥/ ٣٠٦٢ ، ٦/ ٣٨٠٧ .
(٤) المصدر السابق ٥/ ٣٠٦٢٥ بتصرف يسير .
(٥) المصدر السابق ٥/ ٢٩٧٢ بتصرف يسير .

من في السموات والأرض إلا من شاء الله ، ويقول ثم تكون نفخة البعث ثم نفخة الحشر ، وفي هذه يحشر الجميع ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ أذلاء مستسلمين "[١].

* وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾[٢] ، يقول سيد : " وهو مشهد يرسم حركة الجموع البشرية ، من كل لون وجنس وأرض ، ومن كل جيل وزمان وعصر، مبعوثين منشرين ، يختلطون ويضطربون في غير نظام وفي غير انتباه، تتدافع جموعهم تدافع الموج وتختلط اختلاط الموج.. ثم إذا نفخة التجمع والنظام: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ فإذا هم في الصف في نظام! "[٣].

*وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾[٤]، يجمع سيد قطب بين النفخة الثانية والثالثة في نفخة واحدة فيقول : " وهذه الزجرة الواحدة يغلب بالاستناد إلى النصوص الأخرى أنها النفخة الثانية ، نفخة البعث والحشر "[٥].

ويلاحظ من كلام سيد قطب السابق في تحديد عدد النفخات أنه وإن اتفق مع أصحاب القول الثاني القائلين بأنها ثلاث إلا انه يختلف معهم في تحديدها فهم يقولون إنها : نفخة الفزع ،ونفخة الصعق ونفخة البعث ، وهو يقول : إنها نفخة الفزع والصعق ، ونفخة البعث ، ونفخة الحشر والتجميع ، حيث جعل الاثنتين الأوليين واحدة وزاد نفخة الحشر والتجميع .

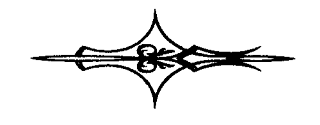
كيفية النفخ في الصور: يرى سيد - رحمه الله - أن كيفية النفخ في الصور من الأمور الغيبية مثلها مثل كيفية الصور ، فيقول : " ونحن نؤمن أن هناك نفخة في الصور وهو البوق تحدث بعدها هذه الأحداث ، ولا نزيد في تفصيلها شيئًا ، لأنها غيب ، ليس عندنا من دلائله إلا مثل هذه النصوص المجملة، وليس لنا مصدر آخر

(١) المصدر السابق ٥/ ٢٦٦٨ تصرف يسير .
(٢) سورة الكهف : الآية ٩٩ .
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٩٤ ،وينظر أيضًا ٥/ ٢٣٥٢ .
(٤) سورة النازعات : الآية ١٣- ١٤ .
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨١٣

لتفصيل هذا الإجمال ، والتفصيل لا يزيد في حكمة النص شيئًا ، والجري وراءه عبث لا طائل تحته ، إلا إتباع الظن المنهيّ عنه أصلًا "(١).

ويقول أيضًا : " والصور: البوق . ونحن لا ندري عنه إلا اسمه ، ولا نعلم إلا أنه سينفخ فيه ، وليس لنا أن نشغل أنفسنا بكيفية ذلك، فهي لا تزيدنا إيمانًا ولا تأثرًا بالحادث ، وقد صان الله طاقتنا عن أن تتبدد في البحث وراء هذا الغيب المكنون ، وأعطانا منه القدر الذي ينفعنا فلا نزيد! "(٢).

ويقول: " والصور كذلك غيب من ناحية ماهيته وحقيقته ، ومن ناحية كيفية استجابة الموتى له .. ولكن الأوصاف له ولآثار النفخة فيه تعطينا -عن يقين- أنه على غير ما يمكن أن يكون البشر قد عهدوه في هذه الأرض أو تصوروه ، وهو من ثم غيب من غيب الله ، نعلمه بقدر ما أعطانا الله من وصفه وأثره ، ولا نتجاوز هذا القدر الذي لا أمان في تجاوزه ، ولا يقين ، إنما هي الظنون! "(٣).



(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٧٩ .
(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٨٠٧ .
(٣) المصدر السابق ٢/ ١١٣٤-١١٣٥ بتصرف يسير .

المطلب الثاني



أولًا: تعريف البعث والنشور :

البعث والنشور لفظان مترادفان وأصل البعث إثارة الشيء عن جفاءٍ وتحريكه عن سكون [١]

والمراد بالبعث هنا : إحياء الأموات يوم القيامة[٢].

أما النشور: فهو البعث والإحياء بعد الإماتة أيضًا، يقال نشر الله الموتى: أي أحياهم[٣].

ثانيًا : حتمية البعث :

يقول سيد - رحمه الله -: " قضية البعث والحساب والجزاء في الدار الآخرة من قضايا العقيدة الأساسية ، التي جاء بها الإسلام، والتي يقوم عليها بناء هذه العقيدة بعد قضية وحدانية الألوهية ، والتي لا يقوم هذا الدين - عقيدة وتصورًا ، وخلقًا وسلوكًا ، وشريعة ونظامًا - إلا عليها و بها "[٤].

ويقول :" والإيمان بالبعث والحشر ، وبالحساب والجزاء ، عنصر أصيل في العقيدة ، لا يستقيم منهجها في الحياة إلا به ، فلا بد من عالم مرتقب ، يكمل فيه الجزاء ، ويتناسق فيه العمل والأجر، ويتعلق به القلب ، وتحسب حسابه النفس ، ويقيم الإنسان نشاطه في هذه الأرض على أساس ما ينتظره هناك .

---

(١)لسان العرب ٢/ ١١٦ ،ومعجم مقاييس اللغة ١/ ٢٦٦ ، وتفسير الطبري ٢/ ٨٤،وفتح الباري ١١/ ٣٩٣.

(٢)فتح الباري ١١/ ٣٩٣ ،شرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين ص ١١٥ .

(٣)فتح الباري ١١/ ١١٤ .

(٤) ٤في ظلال القرآن ٢/ ١٠٦٨ .

ولقد وقفت البشرية في أجيالها المختلفة ورسالاتها المتوالية موقفًا عجيبًا من قضية البعث والدار الآخرة على بساطتها وضرورتها ، فكان أعجب ما تدهش له أن ينبئها رسول أن هناك بعثًا بعد الموت وحياة بعد الدثور "[(١)].

" ولقد كانت قضية البعث دائمًا هي مشكلة العقيدة عند كثير من الأقوام منذ أن أرسل الله الرسل للناس، يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر، ويخوفونهم حساب الله يوم البعث والحساب "[(٢)].

وبناء على ذلك " فقد كانت قضية البعث مثار جدل طويل بين الرسول ﷺ والمشركين ، واشتمل القرآن الكريم على الكثير من هذا الجدل ، مع بساطة هذه القضية ووضوحها عند من يتصور طبيعة الحياة والموت ، وطبيعة البعث والحشر، ولقد عرضها القرآن الكريم في هذا الضوء مرات ، ولكن القوم لم يكونوا يتصورونها بهذا الوضوح وبتلك البساطة، فكان يصعب عليهم تصور البعث بعد البلى والفناء المسلط على الأجسام "[(٣)].

" والسبب في ذلك : أنهم لم يكونوا يتدبرون نشأتهم الأولى ، ويغفلون عن معجزة الحياة الأولى ، ويغفلون عن طبيعة القدرة الإلهية وأنها لا تقاس إلى تصورات البشر وطاقتهم ، وأن إيجاد شيء لا يكلف تلك القدرة شيئًا ، فيكفي أن تتوجه الإرادة إلى كون الشيء فيكون .

وغفلوا كذلك عن حكمة الله في البعث.. ليتم الجزاء في الآخرة على ما كان من الناس في الدنيا بالإضافة إلى جهل المشركين بنواميس الله الخاصة بخلق الإنسان على هذا النحو من القدرة على الاختيار والاتجاه.. وجهلهم بسنن الله في الرسالات والمعجزات والعذاب جعلهم يتسألون عن تأخر البعث والقيامة "[(٤)].

لذلك نجد أن المنهج القرآني اعتنى بتقرير البعث والحساب – عناية واضحة – مقررًا أهمية البعث ومؤكدًا لوقوعه في كثير من الآيات ، ومناقشًا لشبهات المشركين

---

(١)المصدر السابق ٥/ ٢٦٦١ .
(٢)المصدر السابق ٤/ ٢١٧١ .
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٣٣ ،وينظر أيضًا ٣/ ١٤٠٨ ، ٤/ ٢١٨٥، ٢٨٨٨ .
(٤) المصدر السابق ٤/ ١٨٥٩ ، ٢١٧١ ، ٢٢٣٣بتصرف .

الذين أنكروا البعث واستبعدوا حدوثه مدللًا على وقوع البعث بأنواع من الأدلة ، وهي ما نعرض له في الفقرة الآتية .

ثالثًا : أدلة البعث :

الدليل الأول : الاستدلال بالنشأة الأولى :

كثيرًا ما يربط القرآن الكريم بين البدء والإعادة وهو يناقش مقولات المنكرين للبعث ويرد عليهم ، حيث يبين أن حقيقة البعث والمآب طرف من الحق الأكبر الذي يقوم عليه الوجود ،يقول سبحانه وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1]، في حقيقة بسيطة واضحة ، والترابط والتناسق بين جزئيها أو بين حلقتيها واضح كذلك ، فالإعادة كالبدء لا غرابة فيها ، وهما حلقتان في سلسلة النشأة مترابطتان لا انفصام بينهما ، والرجعة في النهاية إلى رب العالمين ، الذي أنشأ النشأة الأولى والنشأة الآخرة "[2].

" والمنهج القرآني يجعل حقيقة النشأة الأولى دليلًا على البعث ولهذا يكثر من مواجهة المشركين بهذا السؤال ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾[3]، وذلك لأن بدء الخلق حقيقة واقعة لا يملك أحد إنكارها ، ولا يمكن لأحد تعليلها بغير وجود الله ووحدانيته ، وجوده لأن وجود هذا الكون ملجئ للإقرار بوجوده وقد باءت بالفشل المنطقي كل محاولة لتعليل وجود هذا الكون على هذا النحو الذي يظهر فيه التدبير والقصد بغير الإقرار بوجود الله ، ووحدانيته لأن آثار صنعته ملجئة للإقرار بوحدانيته، فعليها آثار التقدير الواحد ، والتدبير الواحد..

فأما إعادة الخلق فهذه التي كانوا يجادلون فيها ويمارون ، ولكن الإقرار ببدء الخلق على هذا النحو الذي يظهر فيه التقدير والتدبير والقصد والتنسيق ملجئ كذلك للتصديق بإعادة الخلق ، ليلقوا جزاءهم الحق على أعمالهم في دار الفناء .. ومن هذا التلازم بين الإقرار بمبدأ الحياة والإقرار بمعيدها يسألهم ذلك السؤال:

---

(١) سورة الروم : الآية ١١ .
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٦١ .
(٣) سورة النمل : الآية ٦٤ .

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

وإنهم ليعجزون عن البرهان.. وهذه طريقة القرآن في الجدل عن العقيدة ، يستخدم حقائق الكون النفس، ويوقظ الفطرة ويستجيش المشاعر والوجدان بما هو مركوز فيها من الحقائق التي تغشيها الغفلة ، ويحجبها الجحود والكفران ، ويصل إلى تقرير الحقائق بطريقة لا تقبل المراء الذي يقود إليه المنطق الذهني البارد ، الذي انتقلت عدواه إلينا من المنطق الإغريقي ، وفشا فيما يسمى علم التوحيد ، أو علم الكلام! "[1].

وقد جاءت آيات عدة ترد على مقولات الكفار في استبعاد البعث منها :

١- قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[2].

يقول سيد- رحمه الله- : " والآيات تبدأ بمواجهة الإنسان بواقعه هو ذاته في خاصة نفسه ، وهذا الواقع يصور نشأته وصيرورته مما يراه واقعًا في حياته ، ويشهده بعينه وحسه مكررًا معادًا ، ثم لا ينتبه إلى دلالته ، ولا يتخذ منه مصداقًا لوعد الله ببعثه ونشوره بعد موته ودثوره ..

فما النطفة التي لا يشك الإنسان في أنها أصله القريب ؟ إنها نقطة من ماء مهين، لا قوام لها ولا قيمة ! نقطة من ماء تحوي ألوف الخلايا.. خلية واحدة من هذه الألوف هي التي تصير جنينًا ، ثم تصير هذا الإنسان الذي يجادل ربه ويخاصمه ويطلب منه البرهان والدليل! .

والقدرة الخالقة هي التي تجعل من هذه النطفة ذلك الخصيم المبين ، وما أبعد النقلة بين المنشأ والمصير! أفهذه القدرة يستعظم الإنسان عليها أن تعيده وتنشره بعد البلى و الدثور؟ ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٦٠-٢٦٦١ بتصرف .
(٢) سورة يس : الآية ٧٧-٧٩ .

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٨) يا للبساطة ! ويا لمنطق الفطرة ! ومنطق الواقع القريب المنظور! .

وهل تزيد النطفة حيوية أو قدرة أو قيمة على العظم الرميم المفتوت ؟ أو ليس من تلك النطفة كان الإنسان؟ أو ليست هذه هي النشأة الأولى؟ أو ليس الذي حول تلك النطفة إنسانًا وجعله خصيمًا مبينًا بقادر على أن يحول العظم الرميم مخلوقًا حيًا جديدًا ؟ إن الأمر أيسر وأظهر من أن يدور حوله سؤال، فما بال الجدل الطويل؟!" [١].

٢-قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[٢].

إن هذا الأمر أمر النشأة الأولى ونهايتها، أمر الخلق وأمر الموت، إنه أمر منظور ومألوف وواقع في حياة الناس، فكيف لا يصدقون أن الله خلقهم ؟ إن ضغط هذه الحقيقة على الفطرة أضخم وأثقل من أن يقف له الكيان البشري أو يجادل فيه .. إن دور البشر في أمر هذا الخلق لا يزيد على أن يودع الرجل ما يُمنى رحمَ امرأة، ثم ينقطع عمله وعملها، وتأخذ يد القدرة في العمل وحدها.. وهذا القدر من التأمل يدركه كل إنسان، وهذا يكفي لتقدير هذه المعجزة.. فقصة هذه الخلية منذ أن تمنى ، إلى أن تصير خلقًا ، قصة أغرب من الخيال ، لولا أنها تقع فعلًا، ويشهدها الإنسان!..والنهاية فلا تقل إعجازًا، وإن كانت مثلها من مشاهدات البشر المألوفة ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ فهو حلقة في سلسلة النشأة التي لا بد أن تتكامل.. فإذا جاء الأجل المضروب كانت النشأة الآخرى﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾في ذلك العالم المغيب المجهول.. تكون النشأة الآخرة ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فهي قريب من قريب، وليس فيها من غريب.

بهذه البساطة وبهذه السهولة يعرض القرآن قصة النشأة الأولى والنشأة الآخرة،

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٧٧ .

(٢)سورة الواقعة : الآية ٥٧-٦٢ .

وبهذه البساطة وهذه السهولة يقف الفطرة أمام المنطق الذي تعرفه ، ولا تملك أن تجادل فيه ، لأنه مأخوذ من بديهياتها هي ومن مشاهدات البشر في حياتهم القريبة ، بلا تعقيد ولا تجريد ولا فلسفة تكد الأذهان ، ولا تبلغ إلى الوجدان، إنها طريقة الله مبدع الكون وخالق الإنسان ومنزل القرآن" [(١)].

٣-قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ ﴾[(٢)].

يقول سيد - رحمه الله - : " إن كانوا يشكون في إعادة الحياة فليتدبروا كيف تنشأ الحياة ، ولينظروا في أنفسهم ، وفي الأرض من حولهم ، حيث تنطق لهم الدلائل بأن الأمر مألوف ميسور...

إن البعث إعادة لحياة كانت، فهو في تقدير البشر أيسر من إنشاء الحياة ، وإن لم يكن بالقياس إلى قدرة الله شيء أيسر ولا شيء أصعب ، فالبدء كالإعادة أثر لتوجه الإرادة " إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون" ولكن القرآن يأخذ البشر بمقاييسهم ، ومنطقهم ، وإدراكهم ، فيوجه قلوبهم إلى تدبر المشهود المعهود لهم ، وهو يقع لهم كل لحظة ، ويمر بهم في كل برهة ..

فما هؤلاء الناس ؟ ما هم ؟ من أين جاءوا ؟ وكيف كانوا ؟ وفي أي الأطوار مروا ؟ ﴿ مِّن تُرَابٖ ﴾ : ولكن أين التراب وأين الإنسان ؟.. نقلة ضخمة بعيدة الأغوار والآماد ، تشهد بالقدرة التي لا يعجزها البعث ، وهي أنشأت ذلك الخلق من تراب ﴿ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ ﴾ والمسافة بين عناصر التراب والنطفة مسافة هائلة .. وتحول النقطة إلى علقة ثم مضغة ثم إنسان مركب معجزة تدل على القدرة الإلهية .. فدلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مزدوجة.. فهي تدل على البعث من ناحية

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٤٦٧-٣٤٦٨ بتصرف .
(٢) سورة الحج : الآية ٥ .

أن القادر على الإنشاء قادر على الإعادة، وهي تدل على البعث لأن الإرادة المدبرة تكمل تطوير الإنسان في الدار الآخرة "[١].

٤ - قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾[٣].

حيث وقف سيد - رحمه الله - في ظلال هذه الآيات مبينًا منهج القرآن الكريم في الاستدلال بالنشأة الأولى على قدرة الله على البعث والنشور بعد الموت[٤].

الدليل الثاني : الاستدلال بخلق ما هو أعظم من خلق الإنسان :

فالذي قدر على أن يخلق الأعظم، قادرعلى أن يخلق ما دونه مع أنه يساوى الجميع في حق الله تعالى، ومن ذلك :

* قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ﴾[٥]، " فالقرآن يجادلهم بالمنطق الواقعي الذي يرونه فيغفلونه.. فأية غرابة في البعث ، والله خالق هذا الكون الهائل قادر على أن يخلق مثلهم ، فهو قادر إذًا على أن يعيدهم "[٦].

* وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾[٧]، " فالآية تعرض دلائل القدرة، وتبسط قضية الخلق

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٠٩-٢٤١١ بتصرف .
(٢) سورة الإسراء : الآية ٤٩-٥٢ .
(٣) سورة القيامة : الآية ٣٦-٤٠ .
(٤) ينظر في ذلك : في ظلال القرآن ٤/ ٢١٧١-٢١٧٢، ٢٢٣٣، ٦/ ٣٧٥٤-٣٧٥٥ .
(٥) سورة الإسراء : الآية ٩٩ .
(٦) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٥٢ .
(٧) سورة يس : الآية ٨١ .

والإيمان والإعادة للبشر أجمعين.. فالسموات والأرض خلق عجيب هائل دقيق، في أحجامها ومكوناتها ،ودقتها.. فأين الناس من ذلك الخلق الهائل العجيب؟"، فالله سبحانه وتعالى يخلق هذا وذلك وغيرهما بلا كلفة ولا جهد ولا يختلف بالقياس إليه خلق الكبير والصغير " إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون " يكون هذا الشيء سماءً أو أرضًا ، ويكون بعوضة أو نملة ، هذا وذلك سواء أمام الكلمة.. كن .. فيكون ! ليس هناك صعب ولا سهل، وليس قريب ولا بعيد ، فتوجه الإرادة لخلق الشيء كافٍ وحده لوجوده كائنًا ما يكون إنما يقرب الله للبشر الأمور ليدركوها بمقياسهم البشري المحدود "[(١)].

*وقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾[(٢)].

يقول سيد - رحمه الله -: " بعد أن ذكر الله الملائكة وذكر السماوات والأرض وما بينهما ، وذكر الكواكب التي تزين السماء الدنيا ، وذكر الشياطين المردة والقذائف التي تلاحقها ، يكلف الرسول ﷺ أن يسألهم أهم أشد خلقًا أم هذه الخلائق ؟ وإذا كانت هذه الخلائق أشد وأقوى ففيم يدهشون لقضية البعث ويسخرون منها، ويستبعدون وقوعها ، وهي لا تقاس إلى خلق تلك الخلائق الكبرى.. فاستفتهم واسألهم إذا كانت الملائكة والسماوات والأرض وما بينهما والشياطين والكواكب والشهب كلها من خلق الله ، فهل خلقهم هم أشد وأصعب من خلق هذه الأكوان والخلائق؟ ولا ينتظر منهم جوابًا، فالأمر ظاهر، إنما هو سؤال الاستنكار والتعجب من حالهم العجيب ، وغفلتهم عما حولهم ، والسخرية من تقديرهم للأمور.. وغفلتهم عن آثار القدرة الإلهية فيما حولهم، واستبعادهم للبعث، وما في هذا البعث من غريب على تلك القدرة الإلهية ولا بعيد لمن يتأمل الواقع وما يحيط

---

(١)في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٧٧-٢٩٧٨ .

(٢) سورة الصافات : الآية ١١-١٨ .

به " (١).

* وقوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ (٢).

يقول سيد- رحمه الله- : " وهو استفهام لا يحتمل إلا إجابة واحدة بالتسليم الذي لا يقبل الجدل ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴾ السماء ! بلا جدال ولا كلام ! فما الذي يغركم من قوتكم والسماء أشد خلقًا منكم، والذي خلقها أشد منها؟ هذا جانب من إيحاء السؤال .

وهناك جانب آخر، فما الذي تستصعبونه من أمر بعثكم ؟ وهو خلق السماء وهي أشد من خلقكم؛ وبعثكم هو إعادة لخلقكم، والذي بنى السماء وهي أشد، قادر على إعادتكم وهي أيسر !" (٣).

* وكذلك قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤) " وهي لفتة إلى كتاب الكون المنظور، الذي يشهد بالقدرة المبدعة ويوحي بيسر الإحياء بعد الموت " (٥).

- إذًا فعجيب أمر قوم ينكرون البعث وهم يرون الآيات الضخام ، وعجائب الكون الدالة على قدرة الخالق --جل وعلا- وحكمته الناطقة بان من مقتضيات هذه الحكمة أن يكون هناك وحي لتبصير الناس، وأن يكون هناك بعث لحساب الناس، وأن من مقتضيات تلك القدرة أن تكون مستطيعة بعث الناس ورجعهم فالذي خلق هذا الكون الضخم ودبره على هذا النحو، قادر على إعادة الأناسي في بعث جديد(٦).

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٨٤-٢٩٨٥ بتصرف .
(٢) سورة النازعات : الآية ٢٧-٣٢ .
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨١٦ .
(٤) سورة الأحقاف : الآية ٣٣ .
(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٢٣٧٤ بتصرف يسير .
(٦) المصدر السابق ٤/ ٢٠٤٤، ٢٠٤٧ بتصرف .

وعمومًا فالقرآن الكريم يجعل من الكون وما فيه من مخلوقات عظمية دليلًا كونيًا على يسر الخلق وسهولة البعث ، فقدرة الله يستوي عندها الواحد والكثير، والكبير والصغير، فهي لا تبذل جهدًا في خلق الأشياء ،إنما هي الكلمة والمشيئة ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ وعندئذ يستوي خلق الواحد وخلق الملايين ، وبعث النفس الواحدة وبعث الملايين قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[٧] ،[٨].

الدليل الثالث : الاستدلال بإحياء الأرض الميتة بالمطر :

من البراهين التي جاءت في القرآن الكريم في معرض الاستدلال على قضية البعث : الاستدلال بإحياء الأرض الميتة بالمطر، حيث جاء ذلك البرهان في كثير من الآيات منها :

١- قال تعالى : ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[٩].

يقول سيد - رحمه الله -: " السياق يقرر أن الله هو الذي يرسل الرياح، وينزل المطر، ويحيي الأرض بعد موتها، وكذلك يحيي الموتى فيبعثون ، سنة واحدة ، وطريقة واحدة ، وحلقات في سلسلة الناموس الكبير...إنها حقيقة واقعة منظورة، لا تحتاج إلى أكثر من النظر والتدبر، ومن ثم يتخذها برهانًا على قضية البعث والإحياء في الآخرة، على طريقة الجدل القرآني ، الذي يتخذ من مشاهد الكون المنظورة وواقع الحياة المشهودة ، مادته وبرهانه، ويجعل من ساحة الكون العريض مجاله وميدانه ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهذه آثار رحمة الله في الأرض تنطق بصدق هذا الوعد وتؤكد هذا المصير "[١٠].

٢- قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ

(٧) سورة لقمان : الآية ٢٨ .
(٨) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٩٥ بتصرف .
(٩) سورة الروم : الآية ٥٠ .
(١٠) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٧٥ بتصرف يسير .

مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾[١].

عملية دائبة لا تكف ولا تني لحظة واحدة من لحظات الليل والنهار في كل مكان، على سطح الأرض، وفي أجواز الفضاء، وفي أعماق البحار.. ففي كل لحظة يتم هذا التحول، بل هذه المعجزة الخارقة التي لا ننتبه إليها لطول الألفة والتكرار، في كل لحظة يخرج حي من ميت ويخرج ميت من حي، ويتحرك برعم ساكن في جوف حبة أو نواة فيفلقها ويخرج إلى وجه الحياة، وفي كل لحظة يجف عود أو شجرة تستوفي أجلها فتتحول إلى هشيم ، ومن الهشيم توجد الحبة الجديدة المتهيئة للحياة والإنبات ..إنها دورة دائبة عجيبة رهيبة لن يتأملها بالحس الواعي والقلب البصير ﴿ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ فالأمر عادي واقعي لا غرابة فيه، وليس بدعًا مما يشهده الكون في كل لحظة من لحظات الليل والنهار في كل مكان! "[٢]. " إن إحياء الموتى إعادة للحياة ، والذي أنشأ الحياة الأولى في نفس والأرض والنبات قادر على أن ينشاها مرة أخرى "[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾[٤].

يقول سيد - رحمه الله - : " وهذا المشهد يتردد في معرض دلائل الإيمان الكونية في القرآن ، مشهد الرياح والسحاب والمطر الذي يحي الأرض الميتة ، وهي خارقة تحدث كل لحظة ، والناس في غفلة عن العجب العاجب فيها ، مع وقوعها في كل لحظة يستبعدون النشور في الآخرة ، وهو يقع بين أيديهم في الدنيا ، "كذلك النشور " في بساطة ويسر، وبلا تعقيد ولا جدل بعيد! "[٥].

٤- قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٦] ، وقوله تعالى:

(١) سورة الروم : الآية ١٩ .
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٦٢-٢٧٦٣ بتصرف .
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٤١٠-٢٤١١ بتصرف .
(٤) سورة فاطر : الآية ٩ .
(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٢٩ بتصرف يسير .
(٦) سورة فصلت : الآية ٣٩ .

﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾(١) ، فالآيات تشير إلى الموتى ، وتتخذ من إحياء الأرض نموذجًا ودليلًا .. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، ويتكرر في القرآن الكريم عرض مثل هذا المشهد واتخاذه نموذجًا للإحياء في الآخرة ودليلًا على القدرة ، فمشهد الحياة في الأرض قريب من كل قلب لأنه يلمس القلوب قبل أن يلمس العقول، والحياة تنبض من بين الأموات، وتوحي بالقدرة المنشئة إيحاءً خفيًا في أعماق الشعور، والقرآن الكريم يخاطب الفطرة بلغتها من أقرب طريق "(٢).

٥- وقوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾(٣)، يقول سيد - رحمه الله - : " يمضي السياق في عرض صفحات الحق في كتاب الكون ، في طريقه إلى قضية الإحياء والبعث ، من خلال عرض آية الماء والنبات لينتهي إلى الهدف الأخير ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ فهي عملية دائمة التكرار، مألوفة للناس، ولكنهم لا ينتبهون إليها ، ولا يلحظونها قبل الاعتراض والتعجب، كذلك الخروج ،على هذه الوتيرة ، وبهذه السهولة "(٤).

الدليل الرابع : الاستدلال بإحياء الله لبعض الموتى في الدنيا :

حيث وردت عدة قصص في القرآن الكريم لإحياء الله لبعض الموتى من المخلوقات إنسانًا وطيرًا وحيوانات، وقد أشار سيد - رحمه الله - في ظلال الآيات التي تحدثت عن إحياء الله لبعض الموتى إلى دلالتها على البعث والنشور .

* ففي ظلال قوله تعالى في قصة أصحاب الكهف: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾(٥)، يقول سيد- رحمه الله -: "إن العبرة في خاتمة هؤلاء الفتية هي دلالتها على البعث بمثلٍ واقعي قريبٍ محسوسٍ،

---

(١) سورة الحج : الآية ٥ .
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٢٦ ، ٦/ ٣٧١٤ بتصرف .
(٣) سورة ق : الآية ٩-١١ .
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٦٠-٣٣٦١ بتصرف .
(٥) سورة الكهف : الآية ٢١ .

يقرب إلى الناس قضية البعث ، فيعلموا أن وعد الله بالبعث حق ، وأن الساعة لا ريب فيها.. وعلى هذا النحو بعث الفتية من نومتهم وأعثر قومهم عليهم" (١).

*وفي ظلال قوله تعالى في قصة بني إسرائيل: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢)، يقول سيد -رحمه الله -- : "وهنا نصل إلى الجانب الثاني من جوانب القصة، جانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث ، وطبيعة الموت والحياة،...إنها مجرد وسيلة تكشف لهم عن قدرة الله التي لا يعرف البشر كيف تعمل ، فهم يشاهدون آثارها ولا يدركون كنهها ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ ﴾ كذلك بمثل هذا الذي ترونه واقعًا ولا تدرون كيف وقع، وبمثل هذا اليسر الذي لا مشقة فيه ولا عسر" (٣).

*ومن ذلك قصة الرجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه ، قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٤)، " فهذا القائل يعرف أن الله هناك ، ولكن مشهد البلى جعله يحار كيف تدب الحياة في هذا الموات؟ لم يقل له كيف ، إنما أراه في عالم الواقع كيف!﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ فالمشاعر تكون أحيانًا من العمق بحيث لا تعالج بالبرهان العقلي والمنطق الوجداني، ولا بالواقع العام الذي يراه العيان، إنما يكون العلاج بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة، التي يمتلئ بها الحس ويطمئن بها القلب ، دون كلام ! فأدرك كيف يحي الله الموتى ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥).

* ومثل هذا قصة سؤال إبراهيم ربه أن يريه كيف يحي الله الموتى ، قال تعالى:

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٦٤ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٧٣ .

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٧٩-٨٠ بتصرف .

(٤) سورة البقرة : الآية ٢٥٩ .

(٥) في ظلال القرآن ١/ ٢٩٩-٣٠٠ بتصرف .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١)، " وقد استجاب الله لهذا الشوق والتطلع من إبراهيم - عليه السلام - ومنحه التجربة الذاتية المباشرة " (٢).

الدليل الخامس : تنزه الله عن العبث :

إن الذين ينكرون البعث ويرونه أمرًا عسيرًا بعد الموت والبلى وتفرق الأشلاء، إنما غفلوا - كما سبق - عن معجزة الحياة الأولى ، وغفلوا عن طبيعة القدرة الإلهية التي لا تقاس إلى تصورات البشر وطاقاتهم ، وكذلك غفلوا عن حكمة الله في البعث ، فهذه الدنيا لا يبلغ أمر فيها تمامه ، فالناس يختلفون حول الحق والباطل ، والهدى والضلال، والخير والشر ، وقد لا يفصل بينهم فيما يختلفون فيه هذه الأرض لإن إرادة الله شاءت أن يمتد ببعضهم الأجل ، وألا يحل بهم عذابه في هذه الدار حتى يتم الجزاء في الآخرة ، ويبلغ كل أمر تمامه هناك " (٣).

هذا من جانب ، ومن جانب آخر فان الحياة الإنسانية التي نشأت من الأرض لا تنتهي في الأرض، لأن عنصرًا غير أرضي قد امتزج بها ، وتدخل في خط سيرها، ولأن تلك النفخة العلوية قد جعلت لها غاية غير غاية الجسد الحيواني، ونهاية غير نهاية اللحم والدم القريبة، وجعلت كمالها الحقيقي لا يتم في هذه الأرض ، ولا في هذه الحياة الدنيا ،إنما يتم هنالك في مرحلة جديدة وفي الحياة الآخرى...

فالذين ينكرون البعث لا يدركوا حكمة الحياة الكبرى، ودقة التدبير في أطوارها للوصول بها إلى غايتها البعيدة ، هذه الغاية التي لا تتحقق بكمالها في هذه الأرض، فالخير لا يلقى جزاءه الكامل في الحياة الدنيا ، والشر كذلك ، إنما يستكملان هذا الجزاء هنالك ، حيث يصل المؤمنون الصالحون إلى قمة الحياة المثلى ، التي لا خوف فيها ولا نصب ، ولا تحول فيها ولا تعب ، ويصل المرتكسون المنتكسون إلى درك

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦٠ .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٠٢ .

(٣) المصدر السابق ٤/ ٢١٧١-٢١٧٢ بتصرف يسير .

الحياة السفلية ويرتدون فيها أحجارًا أو كالأحجار! "(١).

" فالبعث في الآخرة ضرورة للنشأة الإنسانية لتستكمل حسابها، وتنتهي إلى ما تؤهلها له سيرتها الأولى في الحياة الدنيا، فلا مجال للظن بأنه لن يبعث أحدًا من الناس، فهذا الظن مخالف للاعتقاد في حكمة الله وكماله سبحانه وتعالى "(٢).

" ولقد كانت الحياة في نظر المنكرين حركة لا علة لها ولا هدف ولا غاية، أرحام تدفع وقبور تبلع وبين هاتين لهو ولعب، وزينة وتفاخر، ومتاع قريب من متاع الحيوان، فأما أن يكون هناك ناموس وراءه هدف، ووراء الهدف حكمة، ووجود لإنسان إلى الدنيا وفق قدر يجري إلى غاية وينتهي إلى حساب، فلم يكن في تصورهم ومداركهم "(٣).

ولهذا كان الرد الإلهي على من ينكر البعث ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾(٤)، بهذا التعقيب ينهي القرآن الكريم الجدل مع المشركين حول إنكارهم البعث، فحكمة البعث من حكمة الخلق، محسوب حسابها، ومقدر وقوعها، ومدبر غايتها، وما البعث إلا حلقة في سلسلة النشأة، تبلغ بها كمالها ويتم فيها تمامها، ولا يغفل عن ذلك إلا المحجوبون المطموسون، الذين لا يتدبرون حكمة الله الكبرى، وهي متجلية في صفحات الكون والوجود "(٥).



(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٦٠، ٢٤٦٧ بتصرف.
(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٧٢٩.
(٣) المصدر السابق ٦/ ٣٧٧٣-٣٧٧٤ بتصرف.
(٤) سورة المؤمنون: الآية ١١٥-١١٦.
(٥) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٨٢.

المطلب الثالث

الحشر والقيامة

الحشر في اللغة بمعنى: الحشد أي الجمع، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾[١]، ويغلب استعمال الحشر للجمع مع السوق[٢].

أما في الاصطلاح الشرعي: فالحشر يعني: جمع الخلائق يوم القيامة لحسابهم والقضاء بينهم[٣].

وحشر الناس والخلائق وجمعهم ليوم الفصل يكون بعد البعث، وقد سبق معنا أن سيد قطب -رحمه الله- يرى أن يوم القيامة يبدأ بنفخة الصعق والفزع، التي تقضي على كل حي - إلا من شاء الله - ثم تأتي نفخة البعث والنشور والخروج من القبور، ثم تأتي نفخة الحشر والتجميع والسوق للحساب والجزاء، ويصاحب ذلك أحداثًا وأهوالًا عظامًا.

وقد قرر القرآن الكريم تلك الإحداث والأهوال في كثير من الآيات، وكلها تشير إلى اختلال كامل في النظام الذي يربط أجزاء هذا الكون المنظور وأفلاكه ونجومه، وانقلاب في أوضاعه وأشكاله وارتباطاته، تكون بها نهاية هذا العالم، وهو انقلاب لا يقتصر على الأرض، إنما يشمل النجوم والكواكب والأفلاك، وقد جاء استعراض مظاهر من هذا الانقلاب في سور متعددة مثل:

* قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا

---

(١) سورة طه: الآية ٥٩.

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢/ ٦٦.

(٣) شرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين ص ١١٥.

أَحْضَرَتْ ﴾(١).

* وقوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾(٢).

* وقوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾(٣).

* وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾(٤).

* وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾(٥).

* وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾(٦).

* وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾(٧).

* وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾(٨).

* وقوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾(٩).

* وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ

---

(١) سورة التكوير : الآية ١-١٤ .
(٢) سورة الانفطار : الآية ١- ٥ .
(٣) سورة الانشقاق : الآيات ١-٥ .
(٤) سورة الرحمن : الآية ٣٧ .
(٥) سورة الحاقة : الآية ١٣-١٧ .
(٦) سورة المعارج : الآية ٨-٩ .
(٧) سورة القارعة : ٤- ٥ .
(٨) سورة القيامة : الآية ٧-٩ .
(٩) سورة طه : الآية ١٠٥-١٠٧ .

﴿ٱلْقَهَّارِ﴾[١]

* وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[٢].

* وقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾[٣].

وغيرها من الآيات التي تصور أهوال القيامة وأحداثها الكونية ، وتنبئ بأن نهاية عالمنا هذا ستكون نهاية مروعة ، ترج فيها الأرض وتدك ، وتنسف فيها الجبال وتتفجر فيها البحار.. وتطمس فيها النجوم وتتكور، وتشقق السماء وتنفطر، وتتحطم الكواكب وتنتثر، وتختل فيها المسافات فيجمع الشمس والقمر، وتبدو السماء مرة كالدخان ومرة ملتهبة حمراء.. إلى آخر هذا الهول الكوني الرهيب .

وقد استعرض سيد - رحمه الله - مظاهر هذا اليوم في كتابه " مشاهد القيامة في القرآن الكريم " وأيضًا في ظلال الآيات التي تتحدث عن أهوال وأحداث يوم القيامة في القرآن الكريم موضحًا إيحاءات تلك الآيات والأحداث وظلالها التي تطبعها على الحس وهو يطالعها ويتخيلها .[٤]

وفي ظل هذه الأحداث والمشاهد العنيفة والمروعة ، يبعث الناس من القبور ويحشرهم إلى أرض المحشر مع بقية الخلائق ليكون الحساب والجزاء " وتنصت الجموع المحشودة ، وتخفت كل حركة وكل نأمة ، ويستمعون الداعي إلى الموقف فيتبعون توجيهه كالقطيع صامتين مستسلمين ، لا يتلفتون ولا يتخلفون..ويخيم الصمت الرهيب والسكون الغامر: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[٥]، ويخيم الجلال على الموقف كله ، وتغمر الساحة التي لا يحدها البصر رهبة وصمت وخشوع ، فالكلام همس ، والسؤال

(١) سورة إبراهيم : الآية ٤٨ .
(٢) سورة الأنبياء : الآية ١٠٤ .
(٣) سورة الفرقان : الآية ٢٥ .
(٤) ينظر في ذلك : مشاهد القيامة في القرآن كاملًا ،وفي ظلال القرآن ٤/ ٢١١٣ ، ٢٣٥٢، ٢٣٩٩ ، ٦/ ٣٤٢٩، ٣٤٥٦ ، ٣٦٧٩ ، ٣٦٧٩ ، ٣٧٥٥ ، ٣٧٩٢ ، ٣٨٠٠ ، ٣٨١٢ ، ٣٨٣٦، ٣٨٤٥، ٣٨٦٤ ، ٣٩٥٤، ٣٩٥٧، ٣٩٦٠
(٥) سورة طه : الآية١٠٨ .

تخافت ، والخشوع ضاف ، والوجوه عانية ، وجلال الحي القيوم يغمر النفوس بالجلال الرزين ، ولا شفاعة إلا لمن ارتضى الله قوله ، والعلم كله لله ، وهم لا يحيطون به علما ، والظالمون يحملون ظلمهم فيلقون الخيبة ، والذين آمنوا مطمئنون لا يخشون ظلما في الحساب ولا هضما لما عملوا من صالحات "(٦).

" ونقف أمام المشهد المرهوب يوم القيامة ، نتملى ما وراءه من الهول المذهل الذي ينطبع في النفوس ويصبح هم كل واحد نفسه ، فقد قطع الهول المروّع جميع الوشائج وحبس النفوس على همومها "(٧).

* " أما أحوال الناس يوم الحشر فأنهم ينقسمون إلى أصناف ثلاثة "(٨) كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾(٩).

- فالصنف الأول : الكفار وحالهم كما ذكره الله في كثير من الآيات القرآنية أنهم يحشرون في ذلة سود الوجوه كأنما أغشيت وجوههم قطعًا من الليل مظلما زرقاً مبلسون ، نادمون ، خاشعة أبصارهم مهطعين مقنعي الرؤوس لا يرتد إليهم طرفهم و أفئدتهم هواء ، عميًا وبكما وصما ، يتلاومون فيما بينهم ، ينادى على رؤوسهم: ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾(١٠).

وقد وقف سيد - رحمه الله - في ظلال الآيات التي تتحدث عن حال الكفار يوم القيامة وقفات عديدة بين فيها ما تدل عليه الآيات من أحوال وصفات في ذلك الموقف الرهيب.(١١)

---

(٦) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٥٢ .

(٧) المصدر السابق ٥/ ٦٣٩٧ بتصرف .

(٨) المصدر السابق ٦/ ٣٤٩٣ .

(٩) سورة الواقعة : الآية ٧-١١ .

(١٠) ينظر الآيات : يونس ٢٧ ، الروم ١٢ ، المعارج ٤٤ ، السجدة ١٤ ، إبراهيم ٤٣ ، عبس ٤٠-٤١ ، طه ١٠٢ ، هود ١٨

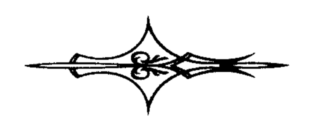
(١١) ينظر كلامه : في ظلال القرآن ٣/ ١٧٧٦ ، ٤/ ٢١١١-٢١١٣ ، ٢٣٥٢ ، ٥/ ٢٧٦١، ٢٨١١ ، ٦/ ٣٦٩٧، ٣٨٣٤ .

الصنف الثاني: عصاة الموحدين:

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم حال عصاة الموحدين الذين ماتوا على الذنوب والكبائر من غير توبة ، وأنهم يحشرون يوم القيامة ويطالهم عذاب ذلك اليوم وشدته، وخاصة أصحاب بعض الذنوب كمنع الزكاة ، وكنز العلم ، والغلول، ونحوها مما جاءت النصوص بعذاب أصحابها يوم القيامة ، حتى يروا سبيلهم أما إلى الجنة أو إلى النار .

الصنف الثالث: الصالحون الأتقياء

وهؤلاء كما أخبر ربنا -جل وعلا- عنهم في آيات كثيرة أنهم يحشرون، بيض الوجوه، لا يحزنهم الفزع الأكبر، كما في قول تعالى: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾[3]، فهي مستنيرة متهللة مستبشرة، راجية في ربها، مطمئنة بما تستشعره من رضاه عنها، أو هي قد عرفت مصيرها، وتبين لها مكانها، فتهللت واستبشرت[4].



(١) سورة الزمر : الآية ٦١ .
(٢) سورة الأنبياء : الآية ١٠٣ .
(٣) سورة عبس : الآية ٣٨-٣٩ .
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٥٩، ٦/ ٣٨٣٤ بتصرف .

المطلب الرابع

الشـفـاعـة



الشفاعة : هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة (١)، والشفاعة في الآخرة على قسمين :

١ - **شفاعة عامة :** يشفع فيها الملائكة والأنبياء والمؤمنون، للموحدين أصحاب المعاصي في أن لا يدخلون النار أو في إخراج من دخلها .

٢ - **شفاعة خاصة :** وهي شفاعة النبي ﷺ في أهل الموقف عند الله ليقضي بينهم ويبدأ الحساب ، وكذا شفاعته في دخول أهل الجنة الجنة (٢).

والشفاعة يوم القيامة تبدأ بالشفاعة العظمى ، وتكون بعد الحشر ، وذلك لأن الله تعالى يحشر الخلق إلى أرض المحشر حفاة عراة غرلاً ، وتدنوا الشمس من رؤوسهم بمقدار ميل ، ويغرقهم العرق ، ويصبح الناس في عذاب وهم لا يطاق ، فعند ذلك يفزعون إلى الأنبياء والمرسلين حتى يشفعون عند الله ليبدأ الحساب ، أما الشفاعات الأخرى فهي متأخرة فبعضها بعد الحساب ، وبعضها بعد دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار (٣).

أما موقف سيد - رحمه الله - من الشفاعة ، فقد تلكم كلامًا عامًا في ظلال الآيات القرآنية التي تتحدث عن الشفاعة ، مبينًا انحراف تصور المشركين للشفاعة، وكذا الشفاعة المثبتة وشروطها ، ولم يتعرض لأنواع الشفاعات ، لأن حدثيه كان حول الآيات القرآنية التي ذكرت فيها الشفاعة، بيان ذلك فيما يأتي :

أولًا : الشفاعة المنفية :

وردت آيات عديدة في القرآن الكريم فيها نفي للشفاعة ومن خلال استقراء

---

(١) شرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين ص ١٢٨ .
(٢) المصدر السابق ص ١٢٩ .
(٣) اليوم الآخر في القرآن الكريم د.عبد المحسن المطيري ص ٢٨٣ .

تلك الآيات نجد أنها تقرر تفرد الله سبحانه وتعالى بالحكم والقضاء ، وترد على ضلالات المشركين في اتخاذ الشركاء ليشفعوا لهم بزعمهم ، وتصحح أوهامهم حول الشفاعة في الآخرة ومن ذلك :

١ - نفي استحقاق الشفاعة بدون إيمان وعمل صالح : ومن الآيات في ذلك :

أ- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[١] حيث تدعو الآية إلى الفرصة التي إن أفلتت منهم فلن تعود.. فهي فرصة لو فوّتوها على أنفسهم ، فليس بعدها بيع تربح فيه ولا صداقة أو شفاعة ترد عنهم عاقبة النكول والتقصير[٢].

ب- قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[٣]، حيث تقرر أنه لا شفاعة تنفع يومئذ من لم يقدم إيمانًا وعملًا صالحًا ، ولا فدية تؤخذ منه للتجاوز عن كفره ومعصيته[٤].

٢ - نفي حصول الشفاعة ونفعها للكافرين بسبب كفرهم :

حيث صرحت الآيات بأن الشفاعة لا تنفع المشركين بسبب كفرهم وشركهم بالله ومن ذلك :

أ- قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾[٦]، " فقد قضي الأمر، وحق القول، وتقرر المصير، الذي يليق بالمجرمين المعترفين! وليس هناك من شفيع للمجرمين أصلًا ، وحتى على فرض ما لا وجود له فما تنفعهم شفاعة الشافعين" [٧].

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٤ .
(٢) في ظلال القرآن ٢٨٥ بتصرف يسير .
(٣) سورة البقرة : الآية ٤٨ .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٧٠ .
(٥) سورة غافر : الآية ١٨ .
(٦) سورة المدثر : الآية ٤٢-٤٨ .
(٧) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٦٢ ، وينظر : ٢/ ١١٢٩ ، ٥/ ٢٦٠٥ ، ٢٧٦١ ، ٣٠٧٤ ، ٦/ ٣٧٦٢ .

٣- نفي الشفاعة التي يثبتها المشركون ومن شابههم من أهل البدع :

يظن المنحرفون في باب الشفاعة أن بعض الخلق لهم من القدر عند الله ما يجعلهم يشفعوا عنده بغير إذنه ، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض ، فيقبل المشفوع إليه شفاعة الشافع لحاجته إليه رغبة أو رهبة ، وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة، فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين ، ويصورون تماثيلهم ويستشفعون بها ، ويقولون : هؤلاء خواص الله ، فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا ، كما يتوسل إلى الملوك بخواصهم [١] .

وقد جاءت آيات كثيرة ترد على أوهام المشركين حول الشفاعة ، ومن ذلك :

* قوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[٢]، يقول سيد - رحمه الله -: " وهو سؤال للتهكم والسخرية من زعمهم أنهم يعبدون تماثيل الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى! يعقبه تقرير جازم بأن لله الشفاعة جميعًا ، فهو الذي يأذن بها لمن يشاء على يد من شاء ، فهل مما يؤهلهم للشفاعة أن يتخذوا من دون الله شركاء؟! " [٣].

" يعالج الأسطورة المعقدة التي كان المشركون يواجهون بها دعوة التوحيد بقوله: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴾[٤].

" فلقد كانوا يعلنون أن الله خالقهم وخالق السماوات والأرض.. ولكنهم لم يكونوا يسيرون مع منطق الفطرة في إفراد الخالق إذن بالعبادة، وفي إخلاص الدين لله بلا شريك. إنما كانوا يبتدعون أسطورة بنوة الملائكة لله سبحانه ، ثم يصوغون

---

(١) اليوم الآخر في القرآن الكريم د.عبد المحسن المطيري ص ٢٩٤
(٢) سورة الزمر : الآية ٤٣-٤٤ .
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٥٥ .
(٤) سورة الزمر : الآية ٣ .

للملائكة تماثيل يعبدونها فيها ، ثم يزعمون أن عبادتهم لتماثيل الملائكة وهي التي دعوها آلهة أمثال اللات والعزى ومناة ليست عبادة لها في ذاتها، إنما هي زلفى وقربى لله ، كي تشفع لهم عنده ، وتقربهم منه! .

وهو انحراف عن بساطة الفطرة واستقامتها، إلى هذا التعقيد والتخريف ، فلا الملائكة بنات الله ، ولا الأصنام تماثيل للملائكة ، ولا الله سبحانه يرضى بهذا الانحراف ، ولا هو يقبل فيهم شفاعة ، ولا هو يقربهم إليه عن هذا الطريق! وإن البشرية لتنحرف عن منطق الفطرة كلما انحرفت عن التوحيد الخالص البسيط الذي جاء به الإسلام وجاءت به العقيدة الإلهية الواحدة مع كل رسول ، وإنا لنرى اليوم في كل مكان عبادة للقديسين والأولياء تشبه عبادة العرب الأولين للملائكة أو تماثيل الملائكة تقربًا إلى الله بزعمهم وطلبًا لشفاعتهم عنده ، وهو سبحانه يحدد الطريق إليه ، طريق التوحيد الخالص الذي لا يتلبس بوساطة أو شفاعة على هذا النحو الأسطوري العجيب! ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ فهم يكذبون على الله ، يكذبون عليه بنسبة بنوة الملائكة إليه، ويكذبون عليه بأن هذه العبادة تشفع لهم عنده ! وهم يكفرون بهذه العبادة ، ويخالفون فيها عن أمر الله الواضح الصريح " [١].

" وقد كان المشركون يعتقدون أن هناك كائنات من خلق الله ، لها مشاركة – عن طريق الشفاعة الملزمة عند الله – في تسيير الأحداث والأقدار ، كالملائكة" [٢]. فنفى ذلك وقرر أنه " يومذاك لا أحد ممن يدعونهم أولادًا أو شركاء يملك أن يشفع لأحد منهم كما كانوا يزعمون أنهم يتخذونهم شفعاء عند الله، فإنه لا شفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن به، ومن يشهد بالحق لا يشفع في من جحده وعاداه!" [٣].

٤- نفي الشفاعة التي لا تتوافر فيها الشروط :

حيث نفى الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم كل شفاعة لا تتوافر فيها الشروط المعتبرة في الشفاعة المقبولة والمثبتة ، والتي تتمثل في إذن الله سبحانه وتعالى للشافع،

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٣٧ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ١٠٦٣ .
(٣) المصدر السابق ٥/ ٣٢٠٤ ، وينظر أيضًا : ٣/ ١١٤٩ ، ٥/ ٢٩٦٤ ، ٦/ ٣٤٠٩ .

ورضاه عن الشافع وعن المشفوع فيه أيضًا وفي حدود معينة وهو ما يأتي بيانه في الفقرة الآتية:

ثانيًا : الشفاعة المثبتة وشروطها :

اثبت الله سبحانه وتعالى الشفاعة في الآخرة ، لكنها شفاعة ليست من جنس شفاعة الدنيا ـ فالله سبحانه وتعالى- هو المتفرد وحده بالحكم والقضاء والملك "فالعبيد جميعًا يقفون في حضرة الألوهية موقف العبودية ، لا يتعدونه ولا يتجاوزونه، يقفون في مقام العبد الخاشع الخاضع ، الذي لا يقدم بين يدي ربه ، ولا يجرؤ على الشفاعة عنده ، إلا بعد أن يؤذن له ، فيخضع للإذن ويشفع في حدوده "[١].

شروط الشفاعة عند الله وهي :

١ - إذن الله بالشفاعة : قال سبحانه: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾[٢]، وقال أيضًا: ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ ﴾[٣]، وقال أيضًا: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِى شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾[٤].

فالآيات تقرر أنه ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾[٥] و" أنه لا يجرؤ أحد على الشفاعة إلا بعد أن يؤذن له ، فيخضع للإذن ويشفع في حدوده"[٦]. "فالشفاعة مرهونة بإذن الله..وفقًا لتدبيره وتقريره، فلا الملائكة ، ولا غيرها يملك الشفاعة إلا حين يأذن الله في شيء منها "[٧].

٢ - رضى الله عن الشافع : قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَوۡمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٨٨ .
(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .
(٣) سورة يونس : الآية ٣ .
(٤) سورة النجم : الآية ٢٦ .
(٥) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٩٩
(٦) المصدر السابق ١/ ٢٨٨ .
(٧) المصدر السابق ٣/ ١٧٦٣ ، ٥/ ٢٩٠٤ ، ٦/ ٣٤٠٩ بتصرف .

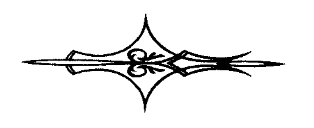
لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾[١]، " فلا شفاعة إلا لمن ارتضى الله قوله "[٢] .

٣- رضى الله عن المشفوع فيه :

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾[٣]، " فلا شفاعة إلا بعد الإذن ، ولمن ارتضاه الله ، ورضي أن تقبل الشفاعة فيه "[٤].

ثالثًا : شفاعة النبي ﷺ :

لم يتعرض سيد – رحمه الله – لأنواع الشفاعات الخاصة بالنبي ﷺ عدا الشفاعة العظمى حيث ذكر في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾[٥]. " أن الله تعالى يأمر نبيه ﷺ بالصلاة والتهجد والقرآن ليبعثه ربه المقام المحمود المأذون له به ، وهو مقام الشفاعة يوم القيامة كما في بعض الروايات "[٦].



(١) سورة طه : الآية ١٠٩ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٥٣ .
(٣) سورة الأنبياء : الآية ٢٨ .
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧٥ ، وينظر : ٢/ ١٠٩٩ .
(٥) سورة الإسراء : الآية ٧٩ .
(٦) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٤٧ مع الهامش .

المطلب الخامس

العرض والحساب



اهتم القرآن الكريم كثيرًا بقضية الحساب في الآخرة وخاصة في السور المكية ، وبيّن أنه بعد الحشر الجامع يكون العرض الشامل والحساب ، وأن الناس في ساحة العرض الهائلة يجثون على الركب متميزين أمةً أمة في ارتقاب الحساب المرهوب [١].

وحال الناس كما قال سبحانه: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾[٢]، يقول سيد قطب : " فالكل مكشوف..الجسد .. والنفس .. والضمير .. والعمل .. والمصير ، تسقط جميع الأستار التي كانت تحجب الأسرار، وتتعرى النفوس تعري الأجساد ، وتبرز الغيوب بروز الشهود ، ويتجرد الإنسان من حيطته ومن مكره ومن تدبيره ومن شعوره ، ويفتضح منه ما كان حريصًا على أن يستره حتى عن نفسه ! وتكون الفضيحة القاسية على الملأ، أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله، من الإنس والجن والملائكة ، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع " [٣]، ويبدأ الحساب بإيتاء الكتب وينتهي بالميزان وبيان ذلك فيما يأتي :

أولًا : إيتاء الكتب :

يبدأ الحساب يوم القيامة بإيتاء الكتب ، فقد ذكر الله في القرآن الكريم الحساب بعد إيتاء الكتب ، قال سبحانه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾[٤]، فذكر إيتاء الكتب أولًا ثم التعقيب بحرف الفاء - الذي يقتضي الترتيب والتعقيب ، ثم ذكر الحساب .

ومن تمام عدل الله تعالى أن وكل مع كل إنسان ملائكة يكتبون عليه كل شيء كما

---

(١) ينظر في ذلك : في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٤٧ ، ٢٣١٧ ، ٥/ ٣٢٣٣ ، ٦/ ٣٦٩٧، ٣٦٨١، ٣٨٠١
(٢) سورة الحاقة : الآية ١٨ .
(٣)في ظلال القرآن ٦/ ٢٦٨٠ بتصرف .
(٤) سورة الانشقاق : الآية ٧-٨ .

في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (١)، وقوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢)، فإذا كان يوم القيامة نشرت الصحف كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ (٣) وتطايرت فيأخذ كل واحد كتابه ليقرأه كما قال سبحانه : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (٤) .

وهذا الكتاب في غاية الدقة ، فلا يترك صغيرًا ولا كبيرًا إلا أحصاه ، قال سبحانه : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٥) وقوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ (٦) .

فالمؤمن يأخذ كتابه بيمينه ، وأما الكافر فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره ، قال سبحانه ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ (٧) وقال أيضًا ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ (٨) .

---

(١) سورة يس : الآية ١٢ .
(٢)سورة الانفطار : الآية ١٠-١٢ .
(٣) سورة التكوير : الآية ١٠ .
(٤) سورة الإسراء : الآية ١٣-١٤ .
(٥)سورة الكهف : الآية ٤٩ .
(٦) سورة القمر : الآية ٥٢-٥٣ .
(٧) سورة الحاقة : الآية ١٩- ٢٩ .
(٨) سورة الانشقاق : الآية ٧-١٢ .

يقول سيد – رحمه الله –: " وأخذ الكتاب باليمين وبالشمال ومن وراء الظهر قد يكون حقيقة مادية، وقد يكون تمثيلًا لغويًا جاريًا على اصطلاحات اللغة العربية من تعبيرهم عن وجهة الخير باليمين ووجهة الشر بالشمال أو من وراء الظهر ، وسواء كان هذا أو ذاك فالمدلول واحد ، وهو لا يستدعي جدلًا يضيع فيه جلال الموقف! "[(١)]،" والذي ألفناه في تعبيرات القرآن من قبل هو كتاب اليمين وكتاب الشمال ، أما الصورة التالية وهي إعطاء الكتاب من وراء الظهر ، فليس يمتنع أن يكون الذي يعطى كتابه بشماله يعطاه كذلك من وراء ظهره ، فهي هيئة الكاره المكره الخزيان من المواجهة ، وكذلك لا ندري حقيقة الكتاب وكيفية إيتائه باليمين أو بالشمال ومن وراء الظهر ، إنما تخلص لنا حقيقة النجاة من وراء التعبير الأول، وحقيقة الهلاك من وراء التعبير الثاني ، وهما الحقيقتان المقصود أن نستيقنهما.. والله أعلم بحقيقة ما يكون كيف يكون! "[(٢)].

وبعد أن يأخذ الناس كتبهم يقرأونها ويعرفون ما فيها ويبدأ الحساب والسؤال والتقرير، فأما المؤمن الذي يؤتى كتابه بيمينه فهو المرضي السعيد ، وهو يحاسب حسابًا يسيرًا ، فلا يناقش ولا يدقق معه في الحساب ، والذي يصور ذلك هو الآثار الواردة عن الرسول ﷺ وفيها غناء "[(٣)].

" فينطلق في فرحة غامرة ، بين الجموع الحاشدة ، تملأ الفرحة جوانحه ، وتغلبه على لسانه ، فيهتف ﴿ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴾ ، ثم يذكر في بهجة أنه لم يكن يصدق أنه ناج ، بل كان يتوقع أن يناقش الحساب " ومن نوقش الحساب عذب " كما جاء في الأثر : عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : **" من نوقش الحساب عذب"** فقلت : أليس يقول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩ ﴾ فقال : **" إنما ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك "**[(٤)] .

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٨١ .
(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٨٦٧ .
(٣) المصدر السابق ٦/ ٣٨٦٧ .
(٤) رواه : البخاري في الرقاق باب من نوقش الحساب عذب ٥/ ٢٣٩٤ برقم ٦١٧١، ٦١٧٢ .

وفي الصحيح قال رسول الله ﷺ : " **يدني الله العبد يوم القيامة ، فيقرره بذنوبه كلها ، حتى إذا رأى أنه قد هلك ، قال الله تعالى : إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه ، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين** " [١]، [٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته : " اللهم حاسبني حسابًا يسيرًا "، فلما انصرف قلت : يا رسول الله ، ما الحساب اليسير؟ قال: " **أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه ، من نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك** " [٣].

فهذا هو حال المؤمن حساب ثم ينجو وينقلب إلى أهله في الجنة مسرورًا " [٤].

وأما التعيس الذي قضى حياته في الأرض كدحًا في المعصية والإثم والضلال، فيأخذ كتابه بشماله ومن وراء ظهره ، ويعرف نهايته ومصيره ، فيدرك أنه العناء الطويل بلا توقف فيدعو ثبورًا ، وينادي الهلاك لينقذه مما هو مقدم عليه من الشقاء، وحين يدعو الإنسان بالهلاك لينجو به ، يكون في الموقف الذي ليس بعده ما يتقيه ، حتى ليصبح الهلاك أقصى أمانيه ، وهذا هو المعنى الذي أراده الشاعر وهو يقول : كفى بك داءً أن ترى الموت شافيًا ... وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا [٥].

فهي التعاسة والشقاء الذي ليس بعدهما تعاسة ولا شقاء! " [٦].

ثانيًا: الاستجواب والشهادة :

بعد أخذ الكتب يكون الاستجواب والشهادة ، ومن عدل الله تعالى أن يقيم الحجة على الجميع قبل المؤاخذة ، ولهذا ضرب موعدًا للفصل بين الخلق يوم

---

(١) رواه : البخاري في المظالم ٣/ ٨٦٢ برقم ٢٣٠٩ ، ومسلم في التوبة باب قبول توبة القاتل ٤/ ١٦٨٥ برقم ٢٧٦٨ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٨١ بتصرف يسير .

(٣)رواه : أحمد ٦/ ٤٨ ، وصححه دون قوله " اللهم حاسبني حسابًا يسيرا " فهي زيادة منكرة ، وقصة الحديث في الصحيحين ، انظر :مسند أحمد لمحقق الأرناؤوط ٤٠/ ٢٦٠ .

(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٦٧ .

(٥) البيت للمتنبي ، انظر : ديوان المتنبي ، دار صادر بيروت ط٢١ عام ١٩٨٥م ص ٢٨٤ .

(٦)في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٦٧-٣٨٦٨ بتصرف يسير ، وينظر أيضًا ٦/ ٣٦٨٢ .

القيامة، وهو الموعد الذي تنتهي إليه الرسل بحسابها مع البشر ، يقول سيد - رحمه الله - : " فهو موعد الرسل لعرض حصيلة الدعوة ، فالرسل قد أقتت لهذا اليوم وضرب لها الموعد هناك لتقديم الحساب الختامي عن ذلك الأمر العظيم .. للفصل في جميع القضايا المعلقة في الحياة الأرضية، والقضاء بحكم الله فيها، وإعلان الكلمة الأخيرة التي تنتهي إليها الأجيال والقرون "[١].

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾[٢] " حيث يجمع الله الرسل الذين فرقهم في الزمان فتتابعوا على مداره ، وفرقهم في المكان فذهب كل إلى قريته ، وفرقهم في الأجناس فمضى كل إلى قومه.. يدعون كلهم بدعوة واحدة على اختلاف الزمان والمكان والأقوام ، حتى جاء خاتمهم ﷺ بالدعوة الواحدة لكل زمان ومكان وللناس كافة من جميع الأجناس والألوان .

هؤلاء الرسل إلى شتى الأقوام ، في شتى الأمكنة والأزمان ها هو ذا مرسلهم فرادى ، يجمعهم جميعًا، ويجمع فيهم شتى الاستجابات، وشتى الاتجاهات، وها هم أولاء.. نقباء البشرية في حياتها الدنيا، ومعهم رسالات الله إلى البشرية في شتى أرجائها ، ووراءهم استجابات البشرية في شتى أعصارها ، هؤلاء هم أمام الله رب البشرية - سبحانه - في مشهد يوم عظيم .. تجمع فيه الحصيلة ، ويضم الشتات، ويقدم الرسل حساب الرسالات ، وتعلن النتائج على رؤوس الأشهاد ﴿ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ والرسل بشر من البشر، لهم علم ما حضر، وليس لديهم علم ما استتر لقد دعوا أقوامهم إلى الهدى، فاستجاب منهم من استجاب ، وتولى منهم من تولى وما يعلم الرسول حقيقة من استجاب إن كان يعرف حقيقة من تولى ، فإنما له ظاهر الأمر وعلم ما بطن لله وحده وهم في حضرة الله الذي يعرفونه خير من يعرف، والذي يهابونه أشد من يهاب ، والذي يستحيون أن يدلوا بحضرته بشيء من العلم وهم يعلمون أنه العليم الخبير .

إنه الاستجواب المرهوب في يوم الحشر العظيم ، على مشهد من الملأ الأعلى،

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٩٢ .
(٢) سورة المائدة : الآية ١٠٩ .

وعلى مشهد من الناس أجمعين ، الاستجواب الذي يراد به المواجهة.. مواجهة البشرية برسلها، ومواجهة المكذبين من هذه البشرية خاصة برسلهم الذين كانوا يكذبونهم، ليعلن في موقف الإعلان ، أن هؤلاء الرسل الكرام إنما جاءوهم من عند الله بدين الله، وها هم أولاء مسؤولون بين يديه - سبحانه - عن رسالاتهم وعن أقوامهم الذين كانوا من قبل يكذبون " (١) ، ويتوجه السؤال إلى المكذبين: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾(٢)، ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ... ﴾(٣).

" وإن الله ليعلم ماذا أجابوا المرسلين ، ولكنه كذلك سؤال التأنيب والترذيل ، والخزي والفضيحة على رؤوس الإشهاد ومن ثم لا يجيب المسؤولون عن السؤال، فليس المقصود به هو الجواب " (٤).

وبعد المواجهة بين الرسل والأمم تكون الشهود ، والشهود يوم القيامة هم الله سبحانه وتعالى والملائكة والأنبياء ، والمؤمنون والأرض والأعضاء .

* أما الله تعالى فهو خير الشاهدين كما قال سبحانه: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ ﴾(٥).

*وإما شهادة الملائكة يوم القيامة فيقول سبحانه : ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾(٦) ، " كل نفس معها سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها ، قد يكونان هما الكاتبان الحافظان لها في الدنيا ، وقد يكونان غيرهما والأول أرجح ، وهو مشهد أشبه شيء بالسوق للمحاكمة ، ولكن بين يدي الجبار" (٧) .

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٩٦-٩٩٧ .
(٢)سورة القصص : الآية ٦٥-٦٦ .
(٣) سورة القصص : الآية ٦٢، ٧٤ .
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٠٦ بتصرف .
(٥) سورة الأنعام : الآية ١٩ .
(٦) سورة ق : الآية ٢١ .
(٧) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٦٤ .

وأما شهادة الأنبياء فقد جاءت في آيات كثيرة منها :

- قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾[1] .

- وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾[2] .

- وقوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ... ﴾[3] .

- وقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[4] .

- وقوله تعالى عن عيسى - عليه السلام -: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾[5] .

فهذه الآيات وغيرها تقرر شهادة الأنبياء على أقوامهم بما أجابوه وما استقبلوا به رسالته ، وتوضح موقف الشهداء من الأنبياء وهم يدلون بما يعلمون مما وقع لهم في الدنيا مع أقوامهم من تبليغ وتكذيب وهو عام لكل الرسل ، فالشهيد على كل أمة هو نبيها الذي يشهد عليها[6].

* أما شهادة المؤمنين فيقول سبحانه ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾[7]. ويقول سبحانه: ﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[8] .

يقول سيد - رحمه الله - : " والأشهاد هم الملائكة والرسل والمؤمنون، أو هم

---

(١)سورة النحل : الآية ٨٤ .
(٢) سورة النحل : الآية ٨٩ .
(٣)سورة القصص : الآية ٧٥ .
(٤)سورة النساء : الآية ٤١ .
(٥)سورة النساء : الآية ١٥٩ .
(٦)ينظر في ذلك : في ظلال القرآن ١/ ١٣١ ، ٢/ ٦٦٢ ، ٨٠٣ ، ٤/ ٢١٨٧ ، ٢١٨٨ ، ٥/ ٢٧٠٩ .
(٧) سورة البقرة : الآية ١٤٣ .
(٨)سورة هود :الآية ١٨ .

الناس أجمعون "[1].

* وأما شهادة الأعضاء ، فيقول سبحانه: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2].

- ويقول سبحانه ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[3] . ويقول سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[4] .

فشهادة الأعضاء في سياق الآيات خاصة بأعداء الله من الكفار والمشركين الذين يناقشون الحساب وينكرون الكتاب ولا يقبلون الشهود إلا من أنفسهم ، فتكون أعضائهم هي الشهود عليهم .

يقول سيد - رحمه الله - : " ويحشر أعداء الله كالقطيع! إلى النار حتى إذا كانوا حيالها وقام الحساب ، إذا شهود عليهم لم يكونوا لهم في حساب ، إن ألسنتهم معقودة لا تنطق ، وقد كانت تكذب وتفتري وتستهزئ ، وإن أسماعهم وأبصارهم وجلودهم تخرج عليهم ، لتستجيب لربها طائعة مستسلمة، تروي عنهم ما حسبوه سرًا ، فقد يستترون من الله ويظنون أنه لا يراهم وهم يتخفون بنواياهم ، ويتخفون بجرائمهم ، ولم يكونوا ليستخفوا من أبصارهم وأسماعهم وجلودهم ، وكيف وهي معهم ؟ بل كيف وهي أعضائهم ؟! وها هي ذي تفضح ما حسبوه مستورًا عن الخلق أجمعين، وعن الله رب العالمين... وتأخذهم المفاجئة ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾، فإذا هي تجبههم بالحقيقة التي خفيت عليهم في غير مواربة ولا مجاملة : ﴿ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ، وقد أنطق كل شيء فهو يتحدث

---

(١) في ظلال القرآن : ٣/ ١٨٦٧ .

(٢) سورة النور : الآية ٢٤ .

(٣)سورة يس : الآية ٦٥ .

(٤) سورة فصلت : الآية ٢٠-٢٣ .

وينطق ويبين" [١].

ثالثًا : قواعد الحساب يوم القيامة :

أشار القرآن الكريم إلى عدد من القواعد التي يتم وفقها حساب الله تعالى للعباد ، ومنها :

١ ــ العدل التام والدقة في الحساب :

حيث يقرر الله تعالى أن الحساب في الآخرة يقوم على مبدأ العدل التام ، فلا ظلم ولا بخس، قال سبحانه: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[٢].

وقال سبحانه : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٣]، وقال سبحانه : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[٤].

" فلا غبن ولا ضير ولا بخس في الحساب الختامي" ، "ولا مجال للمغالطة في الوزن، ولا التلبيس في الحكم ، ولا الجدل الذي يذهب بصحة الأحكام والموازين"، " فكل شيء مسجل لا يبدل ، ولا يجزى أحد إلا بما هو مسجل ولا يظلم أحد ، فالمجازي هو الحكم العدل "، " وما يبلغ تعبير مجرد عن دقة علم الله وشموله وقدرته ، وعن دقة الحساب وعدالة الميزان ما يبلغه قوله تعالى: ﴿ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾[٥]"[٦].

٢ ــ فردية الحساب :

فكل شخص مسئول عن نفسه ، لا يتحمل أحد ذنب أحد ، ولا يحاسب أحد

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣١١٨ بتصرف يسير ، وينظر أيضًا ٥/ ٢٩٧٣ .
(٢) سورة الأنبياء : الآية ٤٧ .
(٣)سورة يس : الآية ٥٤ .
(٤)سورة النساء : الآية ٧٧ ، وقد ورد نفي الظلم في ذلك اليوم في القرآن الكريم في احد عشر موضعًا من القرآن الكريم ، ينظر : اليوم الآخر في القرآن والسُّنَّة ، د.عبد المحسن المطيري ص ٣٢٣-٣٢٤ .
(٥) سورة لقمان : الآية ١٦ .
(٦) في ظلال القرآن ٢/ ٧١٦ ، ٣/ ١٢٦١ ، ٤/ ٢٣١٩ ، ٥/ ٢٧٨٨ ، ٦/ ٣٣٦٥ .

عن أخطاء أحد فلا تزر وازرة وزر أخرى : يقول سبحانه : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[1] .

" فكل مجزيٌ بذنبه لا يحمله عنه غيره "[2]، " فهي التبعة الفردية التي تربط كل إنسان بنفسه ، إن اهتدى فلها ، وإن ضل فعليها ، وما من نفس تحمل وزر أخرى، وما من أحد يخفف حمل أحد ، إنما يسأل كل عن عمله ، ويجزي كل بعمله ولا يسأل حميم حميما "[3].

- وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾[4]، " لمسة أخرى بحقيقة فردية التبعة ، والجزاء الفردي الذي لا يغني فيه أحد عن أحد شيئًا ، فما بالنبي ﷺ من حاجة إلى هدايتهم يحققها لنفسه ، فهو محاسب على عمله وحده ، كما أن كلًا منهم محاسب على ما كسبت يداه ، يحمل حمله وحده ، لا يعينه أحد عليه...

وحقيقة فردية التبعة والجزاء ذات أثر حاسم في الشعور الأخلاقي، وفي السلوك العملي سواء . فشعور كل فرد بأنه مجزيٌّ بعمله ، لا يؤاخذ بكسب غيره ، ولا يتخلص هو من كسبه ، عامل قوي في يقظته لمحاسبة نفسه قبل أن تحاسب ! مع التخلي عن كل أمل خادع في أن ينفعه أحد بشيء ، أو أن يحمل عنه أحد شيئًا.. إن الله - سبحانه- لا يحاسب الناس جملة بالقائمة ! إنما يحاسبهم فردًا فردًا كل على عمله ، وفي حدود واجبه "[5].

ويدخل في عمل الإنسان الذي يحاسب عليه إضلاله لغيره من الناس ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[6]، " فهم يحملون وزر ضلالهم وشركهم وافترائهم ، ووزر إضلالهم

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٦٤ ، سورة الإسراء ١٥ ، سورة فاطر : الآية ١٨ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٤١ .

(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٢١٧ .

(٤) سورة فاطر : الآية ١٨ .

(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٣٨ بتصرف يسير ، وينظر ٥/ ٢٧٢٤ ، ٦/ ٣٤١٤-٣٤١٥ .

(٦) سورة العنكبوت : الآية ١٣ .

للآخرين دون أن يعفي هؤلاء من تبعة الضلال "[١] .

٣ـ إطلاع العباد على أعمالهم إعذارًا لهم ومحاسبتهم عليها :

من تمام عدل الله وحكمته أن يطلع الخلق على ما قدموه من أعمال من خلال إعطائهم كتبهم التي أحصت تلك الأعمال، قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[٢]، ويقول سبحانه : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[٣].

يقول سيد - رحمه الله - : " إن الحساب والجزاء والحكم في الآخرة ، إنما يقوم على عمل الناس في الدنيا؛ ولا يحاسب الناس على ما اجترحوا في الدنيا إلا أن تكون هناك شريعة من الله تعين لهم ما يحل وما يحرم ، مما يحاسبون يوم القيامة على أساسه، وتوحد الحاكمية في الدنيا والآخرة على هذا الأساس .

فأما حين يحكم الناس في الأرض بشريعة غير شريعة الله ، فعلام يحاسبون في الآخرة ؟ .

أيحاسبون وفق شريعة الأرض البشرية التي كانوا يحكمون بها ، ويتحاكمون إليها ؟ .

أم يحاسبون وفق شريعة الله السماوية التي لم يكونوا يحكمون بها ، ولا يتحاكمون إليها؟.

إنه لا بد أن يستيقن الناس أن الله محاسبهم على أساس شريعته هو ، لا شريعة العباد، وأنهم إن لم ينظموا حياتهم ويقيموا معاملاتهم - كما يقيمون شعائرهم وعباداتهم - وفق شريعة الله في الدنيا ، فإن هذا سيكون أول ما يحاسبون عليه بين يدي الله ، وأنهم يومئذ سيحاسبون على أنهم لم يتخذوا الله - سبحانه - إلها

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٢٤ .
(٢) سورة آل عمران : الآية ٣٠ .
(٣)سورة الكهف : الآية ٤٩ .

في الأرض، ولكنهم اتخذوا من دونه أربابًا متفرقة ، وأنهم محاسبون إذن على الكفر بألوهية الله - أو الشرك به بإتباعهم شريعته في جانب العبادات والشعائر ، وإتباعهم شريعة غيره في النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، وفي المعاملات والارتباطات - والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء " . [1]

٤ـ مضاعفة الحسنات دون السيئات، وتبديل السيئات حسنات للمؤمنين:

وهذا من كمال فضل الله تعالى وعدله قال سبحانه : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[2] وقال سبحانه ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [4]، "ففي هذه وأمثالها يقرر الله -سبحانه- قاعدة الحساب والجزاء في الآخرة ..

فقد اقتضى فضل الله أن تضاعف الحسنات ولا تضاعف السيئات ، رحمة من الله بعباده ، وتقديرًا لضعفهم وللجواذب والموانع لهم في طريق الخير والاستقامة ، فضاعف لهم الحسنات ، وجعلها كفارة للسيئات فإذا وصلوا إلى الجنة بعد الحساب رزقهم الله فيها بغير حساب " [5].

" وهو فيض من عطاء الله لا مقابل له من عمل العبد إلا أنه اهتدى ورجع عن الضلال ، وثاب إلى حمى الله ، ولاذ به بعد الشرود والمتاهة.. وقد جاء في الحديث أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال : أرأيت رجلًا عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة ، فهل له من توبة ؟ فقال : " أسلمت؟ " فقال : نعم . قال : " فافعل الخيرات واترك السيئات ، فيجعلها الله لك خيرات كلها " قال : وغدراتي وفجراتي؟ قال :

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٣ .
(٢) سورة الإنعام : الآية ١٦٠.
(٣) سورة غافر : الآية ٤٠ .
(٤) سورة الفرقان : الآية ٤٠.
(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٨٢، ٣٠٨٣ .

" نعم " . فما زال يكبر حتى توارى " .[١] ، [٢].

٥ـ إقامة الشهود على الناس . وقد سبق

٦ـ وزن الأعمال لإقامة الحجة،وهو ما يأتي تفضيله في الفقرة القادمة .

رابعًا : إقامة الموازين :

الموازين لغة : جمع ميزان ، والميزان المقدار ، وأصله موزان ، فقلبت الواو ياءً لكسر ما قبلها فأصبحت ميزان ، والميزان العدل [٣]. وقيل : ما تقدر به الأشياء خفة وثقلًا [٤].

وشرعًا : هو ما يضعه الله يوم القيامة لوزن أعمال العباد خيرها وشرها إظهارًا للعدل الإلهي [٥].

وقد ورد ذكر الوزن والموازين في عدة آيات من القرآن الكريم ، وكذا في عدة أحاديث .

*وأهل السُّنَّة والجماعة على أنه ميزان حقيقي له لسان وكفتان ، يميل بالأعمال.

*وذهب بعض أهل السُّنَّة إلى أن الميزان بمعنى العدل والقضاء ، فقد روى عن مجاهد [٦] في قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [٧] قال : إنما هو مثل كما يجوز وزن الإعمال كذلك يجوز الحط وفي رواية عنه : قال : الموازين العدل ، والراجح ما ذهب إليه الجمهور [٨] .

---

(١) سبق تخريجه ص ١٠٦٠ .

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٧٩-٢٥٨٠ بتصرف .

(٣) لسان العرب ١٣/ ٤٤٨ بتصرف .

(٤) شرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين ص ١٢٠ .

(٥) السُّنَّة لابن أبي عاصم ٢/ ٣٦٣ ، فتح الباري ١٣/ ٥٤٨ ، شرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٦٠٨ ، شرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين ص ١٢٠ .

(٦) هو : مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج المخزومي مولاهم ،المكي ،تابعي ،ثقة ، إمام في التفسير ،أخذ التفسير عن ابن عباس ، توفي سنة ١٠٤هـ،انظر :سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٤٩ والأعلام ٥/ ٢٧٨ . .

(٧) سورة الأنبياء : الآية ٤٧.

(٨) فتح الباري ١٣/ ٥٣٨-٥٣٩ ،وينظر أيضًا :شرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٦١٠،التذكرة للقرطبي ٢/ ١٢ .

قال الحافظ ابن حجر: " وأنكرت المعتزلة الميزان ، وقالت هو عبارة عن العدل.. بناءً منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها ، إذ لا تقوم بأنفسها " (١).

أما سيد - رحمه الله - فالذي يظهر من خلال استقراء كلامه في التصور الفني وفي ظلال بعض الآيات التي تتحدث عن الموازين والوزن في ظلال القرآن أنه يرى: " أن عملية الوزن بالميزان تجري على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير، وتجسيم المعاني في صورة حسية ومشاهد ذات حركة " (٢).

يقول : " وثقل الموازين وخفتها تفيدنا قيماً لها عند الله اعتبار ، وقيماً ليس لها عنده اعتبار ، وهذا ما يلقيه التعبير بجملته ، وهذا- والله أعلم -ما يريده الله بكلماته ، فالدخول في جدل عقلي ولفظي حول هذه التعبيرات هو جفاء للحس القرآني ، وعبث ينشئه الفراغ من الاهتمام الحقيقي بالقرآن والإسلام! .

فمن ثقلت موازينه في اعتبار الله وتقويمه فهو في عيشة راضية، ومن خفت موازينه في اعتبار الله وتقويمه فأمه هاوية " (٣).

ويقول : " فالوزن يومئذٍ الحق ، لا مجال للمغالطة في الوزن والتلبيس في الحكم، والجدل الذي يذهب بصحة الموازين " (٤).

فهو فيما سبق من النصوص يرى أن الموازين هي عدل الله ، وأن وزن أفعال العباد من أفعال الله وبالتالي فهو يقرر في موضع أخر بأن " لا ندخل في طبيعة الوزن وحقيقة الميزان - كما دخل فيه المتجادلون بعقلية غير إسلامية في تاريخ الفكر "الإسلامي"!..فكيفيات أفعال الله كلها خارجة عن الشبيه والمثيل، منذ كان الله سبحانه ليس كمثله شيء..وحسبنا تقرير الحقيقة التي يقصد إليها السياق، من أن الحساب يومئذ بالحق، وأنه لا يظلم أحد مثقال ذرة، وأن عملًا لا يبخس ولا يغفل ولا يضيع " (٥).

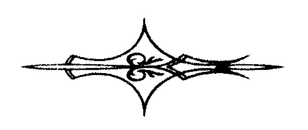
(١) فتح الباري، ١٣/ ٥٣٨ .
(٢) التصوير الفني ص ٧١ ، في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٨١ .
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٦١ .
(٤)المصدر السابق ٣/ ١٢٦١ .
(٥) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٦١ ، وينظر أيضًا : ٤/ ٢٢٩٥ .

وهو بهذا موافق لرأي المعتزلة وبعض السلف كمجاهد في أن الوزن والموازين مثل للعدل الإلهي - كما سبق - وهو خلاف ما عليه جمهور أهل السُّنَّة والجماعة من أنه ميزان حقيقي ،[١] .

ووجدت أيضًا كلامًا لسيد قطب - رحمه الله - ظاهره أنه يثبت الميزان وهو قوله: " والحبة من خردل تصور أصغر ما تراه العيون، وأخفه في الميزان وهي لا تترك يوم الحساب ولا تضيع ، والميزان يشيل بها أو يميل.. وهم - أي الكفار - وإن نجوا من عذاب الدنيا فهناك عذاب الآخرة تعد موازينه فلا تظلم نفس شيئًا ولا يهمل مثقال حبة من خردل "[٢].

ويقول : " وفضل الله يتجلى به على عباده المتقين ، يكفر عنهم أسوأ أعمالهم فلا يبقى لها حساب في ميزانهم ويجزيهم أجرهم بحساب الأحسن فيما كانوا يعملون، فترجح حسناتهم وتعلو وترجح في الميزان "[٣]، " ويبلغ فضل الله سبحانه وتعالى وفيضه على عبده المؤمن ، أنه إذا قال : الحمد لله كتبها له حسنة ترجح كل الموازين"[٤].

ويقول: " إن لهم في صلوات الله ورحمته وشهادته جزاء ، جزاء على التضحية بالأموال والأنفس والثمرات، وجزاء على الخوف والجوع والشدة ، وجزاء على القتل والشهادة ، إن الكفة ترجح بهذا العطاء فهو أثقل في الميزان من كل عطاء "[٥].



(١)ينظر: أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب د. ربيع المدخلي ص ١٨٠ وما بعدها .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٨١ .
(٣) المصدر السابق ٥/ ٣٠٥١ .
(٤) المصدر السابق ١/ ٢٢ .
(٥) المصدر السابق ١/ ١٤٦ .

المطلب السادس

الحوض والصراط



أولًا : الحوض :

الحوض في اللغة : هو مجمع الماء [١].

وشرعًا : هو حوض الماء النازل من الكوثر ، والذي أعطيه النبي ﷺ في عرصات القيامة [٢].

فالحوض غير الكوثر ولكنه وثيق الصلة به ، حيث يطلق عليه أحيانًا كوثر ، لكونه يمد منه [٣] .

ولم أجد سيد - رحمه الله - تعرض لتفاصيل الحوض ، وإنما أشار في ظلال قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾[٤]، إلى أن الكوثر : صيغة من الكثرة ، وهو مطلق غير محدد ، على عكس ما أطلقه السفهاء عن النبي ﷺ وإذا أراد أحد أن يتتبع هذا الكوثر الذي أعطاه الله لنبيه ﷺ فهو واجده حيثما نظر أو تصور .

هو واجده في النبوة.. وواجده في هذا القرآن الكريم ، وسورة واحدة منه كوثر لا نهاية لكثرته ، وهو واجده في الملأ الأعلى الذي يصلي عليه.. وهو واجده في سنته الممتدة على مدار القرون، وفي الملايين بعد الملايين السائرة على أثره.. الهاتفة باسمه، المحبة له، وهو واجده في الخير الذي فاض على البشرية في جميع أجيالها بسببه وعن طريقه ﷺ ، ولهذا تركه النص بلا تحديد ...

وقد وردت روايات من طرق كثيرة أن الكوثر نهر في الجنة أوتيه رسول الله ﷺ ولكن ابن عباس أجاب بأن هذا النهر هو من بين الخير الكثير الذي أوتيه الرسول،

---

(١) لسان العرب ٧/ ١٤١ .

(٢) فتح الباري ١١/ ٤٦٦ ، شرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين ص ١٢٣ .

(٣) فتح الباري ١١/ ٤٦٧ .

(٤) سورة الكوثر : الآية ١ .

فهو كوثر من الكوثر! وهذا هو الأنسب في هذا السياق "[١].

ثانيًا : الصرط :

الصراط في اللغة : الطريق [٢].

وشرعًا : الجسر المنصوب على متن جهنم لعبور المسلمين عليه الى الجنة "[٣].

والمفسرون على أن المراد بالورد في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[٤]. هو : المرور على الصراط ، وهو الجسر المنصوب على جهنم ، فيقع فيها أهلها وينجو الآخرون.

ويرى آخرون أن المراد بالورود الدخول . والأول هو الراجح [٥].

لم يتعرض سيد – رحمه الله – لتفاصيل حول الصراط ، ولكنه يقول في تفسير آية الورود : " وإن المؤمنين ليشهدون العرض الرهيب ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ فهم يردون فيدنون ويمرون بها وهي تتأجج وتتميز وتتلمظ ، ويرون العتاة ينزعون ويقذفون "﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ﴾ فتزحزح عنهم وينجون منها لا يكادون! ﴿ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[٦].

ويقوله في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾[٧]: "كذلك انتهى المشهد وألسنتهم معقودة ،وأيديهم تتكلم وأرجلهم تشهد على غير ما يعهدون من أمرهم وعلى غير ما كانوا ينتظرون ... ثم يعرض مشهدًا أخر فيه من البلاء قدر ما فيه من السخرية والاستهزاء... فهم عميان مطموسون ، ثم هم مع هذا العمى يستبقون الصراط ويتزاحمون على العبور ويتخبطون تخبط العميان حين يتسابقون ! ويتساقطون تساقط العميان حين

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٨٨ بتصرف يسير .
(٢) لسان العرب ٧/ ٣٤٠ .
(٣) فتح الباري لابن حجر ١١/ ٤٤٦ .
(٤)سورة مريم : الآية ٧١-٧٢ .
(٥) فتح الباري ١١/ ١٤٨ .
(٦)في ظلال القرآن ٤/ ٣٢١٨ .
(٧) سورة يس : الآية ٦٦ .

يسارعون متنافسين "[١].

" ويجعل الله للمؤمنين نورًا " يسعى بين أيديهم وبأيمانهم " نورًا يعرفون به في ذلك اليوم الهائل المائج العصيب الرهيب ، ونورًا يهتدون به في الزحام المريج ، ونورًا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم إلى الجنة في نهاية المطاف! .. "[٢].



(١)في ظلال القرآن ٦/ ٢٩٧٣ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٦١٨ وينظر أيضًا ٦/ ٣٤٨٥ .

المطلب السابع

النـــار وعذابها



ومن الإيمان باليوم الآخر أيضًا : الإيمان بوجود النار ، وهي دار أعدها الله سبحانه وتعالى لأعدائه ولمن عصاه وخالفه ، فهي دار العقوبة في الآخرة ، وقد ورد ذكر النار وعذابها في كتاب الله كثيرًا ، وكذا في أحاديث النبي ﷺ .

وتحدث سيد - رحمه الله - عن النار وعذابها في ظلال الآيات التي ذكرت فيها النار وهي كثيرة جدًا ويمكننا بيان ذلك بإيجاز في ما يأتي :

١ - أنها مخلوقة موجودة : قال سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴾ [(١)] يقول سيد : " إنها خلقت ووجدت وكانت مرصادًا للطاغين تنتظرهم وترقبهم وينتهون إليها فإذا هي معدة لهم ، مهيأة لاستقبالهم ، وكأنهم كانوا في رحلة في الأرض ثم آبوا إلى مأواهم الأصيل! وهم يردون هذا المآب للإقامة الطويلة المتجددة أحقابًا بعد أحقاب " [(٢)].

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ [(٣)]، يقول سيد - رحمه الله -: " وجهنم هنا مخلوقة حية ، تكظم غيظها ، فترتفع أنفاسها في شهيق وزفير، ويملأ جوانحها الغيظ فتكاد تتمزق من الغيظ الكظيم وهي تنطوي على بغض وكره يبلغ إلى حد الغيظ والحنق على الكافرين! .

والتعبير في ظاهره يبدو مجازًا تصويريًا لحالة جهنم ، ولكنه - فيما نحس - يقرر حقيقة ، فكل خليقة من خلائق الله حية ذات روح من نوعها ، وكل خليقة تعرف ربها وتسبح بحمده ، وتدهش حين ترى الإنسان يكفر بربه ، وتتغيظ لهذا الجحود المنكر الذي تنكره فطرتها وتنفر منه روحها ، وهذه الحقيقة وردت في القرآن في مواضع شتى تشعر بأنها تقرر حقيقة مكنونة في كل شيء في هذا الوجود

---

(١) سورة النبأ : الآية ٢١-٢٢ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٠٧ .

(٣) سورة الملك : الآية ٧-٨ .

فقد جاء بصريح العبارة في القرآن: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [(١)]،[(٢)].

٢- صفاتها وعذابها:

ذكر القرآن الكريم لجهنم وصفًا مفصلًا في كثير من الآيات القرآنية وقد وقف سيد- رحمه الله- في ظلال تلك الآيات وقفات عديدة ومن كلامه في وصف النار :-

* يقول: " إنها نارٌ فظيعةٌ متسعرةٌ وقودها الناس والحجارة ، الناس فيها كالحجارة سواء ، في مهانة الحجارة وفي رخص الحجارة ، وفي قذف الحجارة ، دون اعتبار ولا عناية ، وما أفظعها نارًا هذه التي توقد بالحجارة ! وما أشده عذابًا هذا الذي يجمع إلى شدة اللذع المهانة والحقارة ! وكل ما بها وما يلابسها فظيع رهيب ، عليها ملائكة غلاظ شداد تتناسب طبيعتهم مع طبيعة العذاب الذي هم به موكلون " [(٣)].

ويقول:"فهي حطمة تحطم كل ما يلقى فيها، وإضافتها إلى الله في قوله تعالى: ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴾[(٤)] وتخصيصها هكذا يوحي بأنها نار فذة ، غير معهودة ، ويخلع عليها رهبة مفزعة رعيبة ...مغلقة على أهلها ، لا ينقذهم أحد ولا يسأل عنهم فيها أحد ، وهم موثوقون فيها إلى الأعمدة كما توثق البهائم بلا احترام "[(٥)].

ويقول : " إنها شيء أعظم و أهوال من الإدراك ..فهي ﴿ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴾ [(٦)] ، تكنس كنسًا، وتبلع بلعًا، وتمحو محوًا، فلا يقف لها شيء، ولا يبقى وراءها شيء، ولا يفضل منها شيء!.

تتعرض للبشر وتلوح، وتدعو من أدبر وتولى ، فهي تدل على نفسها ، وكأنما تقصد إثارة الفزع في النفوس ، بمنظرها المخيف! " . [(٧)]

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٤٤ .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٣٥ .
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦١٨ .
(٤) سورة الهمزة : الآية ٦ .
(٥)في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٧٣ بتصرف يسير .
(٦) سورة المدثر : الآية ٢٨ .
(٧) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٥٧ بتصرف ،وينظر أيضًا ٦/ ٣٦٩٨ .

ويقول: " وفي النار لأهلها ﴿ سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾[1] ، فالهواء شواظ ساخن ينفذ إلى المسام ويشوي الأجسام ، والماء متناه في الحرارة لا يُبرد ولا يُروي ، وهناك ظل! ولكنه ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ ظل الدخان اللافح الخانق ، إنه ظل للسخرية والتهكم ، ظل﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤ ﴾ فهو ظل ساخن لا روْح فيه ولا برد؛ وهو كذلك كز لا يمنح وارده راحة ولا إنعاشًا!...

طعامهم من زقوم شجرة طلعها كرؤوس الشياطين ، ورؤوس الشياطين لم يرها أحد ولكنها تلقي في الحس ما تلقيه! ولفظ الزقوم نفسه يصور بجرسه ملمسًا خشنًا شائكًا مدببًا يشوك الأكف- بله الحلوق- ومع ذلك فإنهم لآكلون منها ﴿ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٥٣ ﴾ فالجوع طاغ والمحنة غالبة ، وإن الشوك الخشن ليدفع إلى الماء لتسليك الحلوق وري البطون! وإنهم لشاربون مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ ﴾ الساخن الذي لا يبرد غلة ولا يروي ظمأ ﴿ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝٥٥ ﴾ وهي الإبل المصابة بداء الاستسقاء لا تكاد ترتوي من الماء! ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٥٦ ﴾.. والنزل للراحة والاستقرار، ولكن أصحاب الشمال هذا نزلهم الذي لا راحة فيه ولا قرار! بما كانوا يشركون بالله ولا يخافون وعيده "[2].

" وسعير النار يشوى الجلود وينضجها، وكلما نضجت بدلت، ليعود الاحتراق من جديد ، ويعود الألم من جديد "[3]، " لهم ظلل من النار من فوقهم وظلل من تحتهم ، وهم في طبقات هذه الظلل المعتمة تلفهم وتحتوي عليهم وهي من النار"[4]

" والأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون كما تسحب الأنعام والوحوش في العذاب والمهانة ، ثم ينتهي بهم المطاف إلى ماء حار ونار ، يربطون ويحبسون فيه على طريقة سجر الكلاب أي يملأ لهم المكان ماءً حارًا ونارًا موقدة وإلى هذا ينتهون"[5].

---

(١) سورة الواقعة : الآية ٤٢-٤٤ .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٦٥ بتصرف يسير .
(٣) المصدر السابق ٢/ ٦٨٤ بتصرف .
(٤) المصدر السابق ٥/ ٣٠٤٥ .
(٥) المصدر السابق ٥/ ٣٠٩٧ .

٣-خلود النار وأهلها :

ما دامت النار هي دار الجزاء للكافرين ، وما دام الله قد حكم على الكفار بالخلود في النار فهذا يقضي ببقاء النار ودوامها كالجنة ، وهذا ما عليه أهل السُّنَّة والجماعة من أن الجنة والنار باقيتان لا تفنيان وهو ما قررته الأدلة الكثيرة من الكتاب والسُّنَّة .

وقد قرر سيد - رحمه الله - خلود النار ودوامها وبقاءها في ظلال الآيات التي تتحدث عن خلود النار وأهلها وهي كثيرة جدًا [١].

وبيّن أن الاستثناء الوارد في بعض الآيات إنما هو لبيان طلاقة المشيئة الإلهية ، ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[٢]، يقول سيد : " فالنار مثابة ومأوى، والمثوى للإقامة ، وهي إقامة الدوام - إلا ما شاء الله- لتبقى صورة المشيئة الطليقة هي المسيطرة على التصور الاعتقادي، فطلاقة المشيئة الإلهية قاعدة من قواعد هذا التصور ، والمشيئة لا تنحبس ولا تتقيد، ولا في مقرراتها هي " [٣].

ويقول: "ومن خلال التعبير نشهد : ﴿ ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ ﴾ نشهدهم في النار مكروبي الأنفاس ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ من الحر والكتمة والضيق ، ونشهد ﴿ ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ ﴾ نشهدهم في الجنة لهم فيها عطاء دائم غير مقطوع ولا ممنوع .

هؤلاء وأولئك خالدون حيث هم ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ وهو تعبير يلقي في الذهن صفة الدوام والاستمرار، وقد علق السياق هذا الاستمرار بمشيئة الله في كلتا الحالتين ، وكل قرار وكل سنة معلقة بمشيئة الله في النهاية ، فمشيئة الله هي التي اقتضت السُّنَّة وليست مقيدة بها ولا محصورة فيها ، إنما هي طليقة تبدل هذه السُّنَّة حين يشاء الله " [٤].

---

(١) ينظر : المصدر السابق : ١/ ١٥١ ، ٢٩٣ ، ٥٩٥ ، ٢/ ٨١٣، ٩٥٢ ، ٣/ ١٢٠٧ ، ١٢٨٨ ، ١٦١٤ ، ١٧٩٨ ، ٤/ ١٩٢٩ ، ٢٣٥٢ ، ٢٣٩٩ ، ٥/ ٢٥٧٨ ، ٢٨٨٣ ، ٣٠٦٢ ، ٦/ ٣٢٩٢ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٢٨ .

(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٠٧ .

(٤) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٢٩ .

المطلب الثامن

الجنة ونعيمها



من الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالجنة ،وأنها حق لا ريب فيه ، والجنة هي دار النعيم التي أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين ، المشتملة على أصناف النعيم والسرور ، وقد أكثر الله تعالى من ذكر الجنة ونعيمها في كتابه الكريم [(١)]، وكذا جاءت أحاديث كثيرة تتحدث عن الجنة وما أعده الله فيها لعباده الصالحين مما لا يعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقد تحدث سيد- رحمه الله- عن الجنة ونعيمها عند كل موضع ذكرت فيه في القرآن الكريم، ومن ذلك:

١ - أن دخول الجنة مقصور على المؤمنين ، فلا يدخل الجنة كافر ولا مشرك :

ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾[(٢)]، يقول سيد : "ودونك فقف بتصورك ما تشاء أمام هذا المشهد العجيب.. مشهد الجمل تجاه ثقب الإبرة ، فحين يفتح ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير ، فانتظر حينئذ – وحينئذ فقط – أن تفتح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين ، فيقبل دعاءهم أو توبتهم – وقد فات الأوان – وأن يدخلوا إلى جنات النعيم! أما الآن، وإلى أن يلج الجمل في سم الخياط، فهم هنا في النار، التي تداركوا فيها جميعًا وتلاحقوا، وتلاوموا فيها وتلاعنوا " [(٣)].

٢- أن دخول الجنة إنما هو برحمة الله :

فالمؤمن يعمل ما في وسعه ، ويشعر بالتقصير،ويرجو بعد ذلك ويتطلع إلى رحمة

---

(١)ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقي - دار الحديث - القاهرة طبعة ١٤٢٢هـ، ص ٢٢١-٢٢٣ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٤٠ .

(٣)في ظلال القرآن ٣/ ١٢٩١ ،وينظر أيضًا : ١/ ١٩٣ .

الله وعفوه بالعمل الصالح والإيمان وإتباع الرسول ﷺ و طاعة الله ورسوله ، ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1].

يقول سيد - رحمه الله - : " هؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات قدر استطاعتهم ، لا يكلفون إلا طاقتهم ، هؤلاء هم يعودون إلى جنتهم ! إنهم أصحابها - بإذن الله وفضله - ورثها لهم - برحمته - بعملهم الصالح مع الإيمان.. جزاء ما اتبعوا رسل الله وعصوا الشيطان، وجزاء ما أطاعوا أمر الله العظيم الرحيم ، وعصوا وسوسة العدو اللئيم القديم ! ولولا رحمة الله ما كفى عملهم - في حدود طاقتهم - وقد قال رسول الله ﷺ : **" لن يُدْخِلَ أحدًا منكم الجنة عمله "** ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **" ولا أنا ؛ إلا أنْ يتغمدني الله برحمة منه وفضل "** [2] .

وليس هنالك تناقض ولا اختلاف بين قول الله سبحانه في هذا الشأن ، وقول رسوله ﷺ وهو لا ينطق عن الهوى.. فكل ما ثار من الجدل حول هذه القضية بين الفرق الإسلامية لم يقم على الفهم الصحيح لهذا الدين ، إنما ثار عن الهوى ! فلقد علم الله من بني آدم ضعفهم وعجزهم وقصورهم عن أن تفي أعمالهم بحق الجنة، ولا بحق نعمة واحدة من نعمه عليهم في الدنيا، فكتب على نفسه الرحمة، وقبل منهم جهد المقل القاصر الضعيف ، وكتب لهم به الجنة ، فضلًا منه ورحمة ، فاستحقوها بعملهم ولكن بهذه الرحمة " [3].

ويقول سيد : " ويعرف المؤمنون أن العمل لا يدخل صاحبه الجنة إلا بمنّة من الله وفضل ، فما يبلغ العمل أكثر من أن يشهد لصاحبه أنه بذل جهده ، ورغب فيما عند الله ، وهذا هو المؤهل لفضل الله " [4].

٣- سعة الجنة :

وأما سعة الجنة فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٤٣ .

(٢) سبق تخريجه ص ٥٩٩ .

(٣)في ظلال القرآن ٣/ ١٢٩١ ، وينظر أيضًا ١/ ٣٤٧ .

(٤) المصدر السابق ٦/ ٣٣٩٧ بتصرف يسير .

كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[١].

يقول سيد - رحمه الله -: " وربما كان بعضهم في الزمن الخالي - قبل أن تكشف بعض الحقائق عن سعة هذا الكون - يميل إلى حمل مثل هذه الآية على المجاز ، وكذلك حمل بعض الأحاديث النبوية، كذلك الحديث الذي أسلفنا عن أصحاب الغرف التي يتراءاها سكان الجنة كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب.. فأما اليوم ومراصد البشر الصغيرة تكشف عن الأبعاد الكونية الهائلة التي ليس لها حدود ، فإن الحديث عن عرض الجنة ، والحديث عن تراءي الغرف من بعيد ، يقع قطعًا موقع الحقيقة القريبة البسيطة المشهودة ، ولا يحتاج إلى حمله على المجاز إطلاقًا ! فإن ما بين الأرض والشمس مثلًا لا يبلغ أن يكون شيئًا في أبعاد الكون يقاس! وذلك الملك العريض في الجنة يبلغه كل من أراد، ويسابق إليه كل من يشاء، وعربونه : الإيمان بالله ورسوله "[٢]

١ - نعيم الجنة : أما حقيقة النعيم في الجنة وألوانه ، فقد ذكر الله سبحانه تعالى في القرآن الكريم وذكر رسوله ﷺ من أنواع النعيم مالا يدرك الإنسان حقيقته في هذه الحياة ، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[٣] .

يقول سيد - رحمه الله -: " وهي ألوان من النعيم يستوقف النظر منها- إلى جانب الأزواج المطهرة- تلك الثمار المتشابهة ، التي يخيل إليهم أنهم رزقوها من قبل - إما ثمار الدنيا التي تشبهها بالاسم أو الشكل ، وإما ثمار الجنة التي رزقوها من قبل - فربما كان في هذا التشابه الظاهري والتنوع الداخلي مزية المفاجأة في كل مرة.. وهي ترسم جوًا من الدعابة الحلوة ، والرضى السابغ ، والتفكه الجميل ، بتقديم المفاجأة بعد المفاجأة ، وفي كل مرة ينكشف التشابه الظاهري عن شيء جديد! .

---

(١) سورة الحديد : الآية ٢١ .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٩٢ .
(٣) سورة البقرة : الآية ٢٥ .

وهذا التشابه في الشكل، والتنوع في المزية، سمة واضحة في صنعة البارئ تعالى، تجعل الوجود أكبر في حقيقته من مظهره " (١).

ويقول : " وهذا النعيم والمتاع الآخروي هو نعيم حسي في عمومه ، ولكن هنالك فارقًا أساسيًا بينه وبين متاع الدنيا.. فالذين اتقوا ربهم يتطلعون إلى هذا المتاع الحسي الذي يبشرون به يتطلعون إليه في شفافية مبرأة من غلظة الحس ! وفي حساسية مبرأة من بهيمية الشهوة .. وفي هذا المتاع النظيف العفيف عوض كامل عن متاع الدنيا.. وفيه زيادة . .

فإذا كان متاعهم في الدنيا حرثًا مُعطيًا مخصبًا ، ففي الآخرة جنات كاملة تجري من تحتها الأنهار، وهي فوق هذا خالدة وهم خالدون فيها ، لا كالحرث المحدود الميقات! ، وإذا كان متاعهم في الدنيا نساء وبنين ، ففي الآخرة أزواج مطهرة ، وفي طهارتها فضل وارتفاع على شهوات الأرض في الحياة! .

فأما الخيل المسومة والأنعام ، وأما القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، فقد كانت في الدنيا وسائل لتحقيق متاع ، فأما في نعيم الآخرة فلا حاجة إلى الوسائل لبلوغ الغايات! .

ثم ..هنالك ما هو أكبر من كل متاع ..هنالك " رضوان من الله " رضوان يعدل الحياة الدنيا والحياة الأخرى كليهما.. ويرجح.. رضوان بكل ما في لفظه من نداوة، وبكل ما في ظله من حنان"(٢).

" فالنعيم بلا منغصات وبدون عقابيل تعقب اللذة غاية من غايات الخلق والإعادة ، وفيه قمة الكمال البشري.. وهذا كله في الجنة كما وصف القرآن الكريم نعيمها الكامل الشامل " (٣).

ومن الآيات التي وصفت نعيم الجنة أيضًا : ما جاء في سورة الرحمن في الآيات (٤٦-٧٨) ، وتبدأ بقوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ والأظهر أنهما ضمن

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٤٩ .
(٢) المصدر السابق ١/ ٣٧٥ .
(٣)المصدر السابق ٣/ ١٧٦٤ بتصرف .

الجنة الكبيرة المعروفة ، ولكن اختصاصهما هنا بالذكر قد يكون لمرتبتهما .. فلنشهد الجنتين ولنعش فيهما لحظات :

* إنهما ﴿ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴾ وهي الأغصان الصغيرة الندية .

* ﴿ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴾ فماؤها غزير وسهل يسير .

* ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴾ ففاكهتهما منوعة كثيرة وفيرة.

* وأهل الجنتين ما حالهم ؟ إننا ننظرهم :﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ ﴾ وهو المخمل الحرير السميك ، فكيف بظاهر هذه الفرش إذا كانت تلك بطائنها ؟

* ﴿ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴾ قريب دان ، لا يتعب في قطاف .

ولكن هذا ليس كل ما فيها من رفاهية ومتاع ، فهناك بقية بهيجة لهذا المتاع :

* ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴾ فهن عفيفات الشعور والنظر ، لا تمتد إبصارهن إلى غير أصحابهن ، مصونات لم يمسسهن إنس ولا جان ، وهن – بعد هذا – ناضرات لامعات " كأنهن الياقوت والمرجان " فهذا حال الجنتين الأوليين ، ومن دونهما جنتان أوصافهما أدنى من الجنتين السابقتين:

* ﴿ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴾ مخضرتان خضرة تميل إلى السواد لما فيها من أعشاب .

* ﴿ فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ بالماء وهو دون الجريان .

* ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ﴾ وهناك ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴾

* ﴿ فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ ﴾ بسكون ياء ﴿ خَيۡرَٰتٌ ﴾ أو بتشديدها على الوصف ، وتأويلها .

* ﴿ حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴾ ﴿ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴾ فهن يشتركن مع زميلاتهن هناك في الصون والعفاف .

أما أهل هاتين الجنتين فنحن ننظرهما :

* ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴾ وهي الأبسطة ، وكأنها من

صنع " عبقر " لتقريب وصفها إلى العرب " [١].

والآيات في بيان نعيم الجنة وما فيها من لذات كثيرة جدًا، ووقفات سيد - رحمه الله - في ظلالها متنوعة لا يسع المجال هنا لاستقصائها وعرضها، ونكتفي بما سبق الإشارة إليه " [٢].

٥- بقاء الجنة ودوامها : يقرر سيد - رحمه الله- أيضًا في ظلال الآيات التي تتحدث عن خلود الجنة وأهلها، أن الجنة لا تبيد ولا تفنى ، بل هي باقية خالدة ، خالدٌ فيها أهلها [٣].

أما الاستثناء الذي جاء في بعض الآيات كقوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾[٤]، وقوله أيضًا : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [٥]، ونحوها فيرى سيد قطب : أنه يقرر طلاقة المشيئة الإلهية من كل قيد يرد عليها حتى من عملها هي ، لتبقى واضحة ، ويبقى تصورها غير مشوب ، فقد وعد الله أهل الجنة بالخلود وأهل النار كذلك ، وهذا الوعد صادر من المشيئة، ولكنه أبقى المشيئة طليقة خارج نطاق هذا الوعد ذاته وهو من عملها باختيارها ، فقال عن هؤلاء وهؤلاء ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ وهكذا في كل موضع وردت فيه مثل هذه المناسبة " [٦].

٦- رأي سيد قطب في الجنة التي كان فيها آدم -عليه السلام -:

تكلم سيد - رحمه الله - حول الجنة التي كان فيها آدم- عليه السلام - وزوجه قبل أن يهبطا إلى الأرض، وفي موضعين من الظلال، وتساءل بقوله :" ولكن أين كانوا ؟

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٥٧-٣٤٥٨ بتصرف يسير .

(٢) لمزيد من التوسع حول الموضوع ينظر : في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٩٧، ٣٤٦٣ ، ٣٧٨١ ، ٣٩٥٣ .

(٣) ينظر كلامه : في ظلال القرآن في المواضع الآتية ٢/ ٥٩٥ ، ٨٦٤، ٧٦١ ، ٩٦٣ ، ١٠٠٢ ، ٣/ ١٦١٤ ، ١٧٠٦ ، ١٧٧٩ ، ٤/ ١٨٦٨ ، ١٩٢٩ ، ٢٢٩٥ ، ٢٣٤٣ ، ٢٣٩٩ ، ٢٤٥٧ ، ٥/ ٢٥٥٥ ، ٢٧٨٥ ، ٣٠٦٢ ، ٦/ ٣٢٦٠ ، ٣٣٦٥ ، ٣٤٦٤ ، ٣٦٠٦ ، ٣٩٥٣ .

(٤) سورة هود : الآية ١٠٧ .

(٥)سورة هود : الآية ١٠٨ .

(٦) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٧٩ ، وينظر أيضًا ٤/ ١٩٢٩ .

أين هي الجنة ؟ هذا من الغيب الذي ليس عندنا نبأ عنه إلا ما أخبرنا به من عنده مفاتيح الغيب وحده ، وكل محاولة لمعرفة هذا الغيب بعد انقطاع الوحي هي محاولة فاشلة " [١].

وقد ذكر د/ ربيع المدخلي " أن سيد - رحمه الله - خالف أهل السُّنَّة والجماعة وسار وراء مذهب المعتزلة والقدرية في هذا الرأي " [٢] . وذكر الشيخ الدويش أيضًا في المورد الزلال " أن سيدًا - رحمه الله - أخطأ في هذا ، وبين أن الجنة التي عاش فيها آدم وزوجه - عليهما السلام - هي جنة الخلد ، لكونها عرفت بالألف واللام ، وهي تفيد الجنة المتعارف عليها بين الخلق عندما يطلبونها ، وكذا الحديث : " أن موسى قال لآدم أخرجتنا ونفسك من الجنة " [٣]، وحديث الشفاعة: " فيأتون إلى آدم - عليه السلام - فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة ؟ فيقل هل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم " [٤].

وكذا إجماع أهل السُّنَّة على أنها جنة الخلد ، كما حكاه القرطبي في تفسيره وابن القيم في أول مفتاح دار السعادة " [٥].

وقد جاء في تقرير إدارة المطبوعات بالرئاسة العامة للبحوث العلمية والدعوة والإفتاء والإرشاد تعقيب على كلام الشيخ الدويش السابق حول ذكره الإجماع من أهل السُّنَّة على أنها جنة الخلد ، حيث جاء فيه ذكر كلام ابن القيم ، الذي بين فيه حجج القائلين بأنها جنة الخلد وحجج القائلين بأنها غيرها ، وأطال فيه الكلام والنقل عن غير واحد من السلف ، مما يدل على أنه لم يثبت الإجماع على أن الجنة التي عاش فيها آدم وزوجه - عليهما السلام - هي جنة الخلد ، وكذلك ذكر الحافظ ابن كثير القولين وأطال الكلام حولهما . [٦]

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٢٧٠ وينظر أيضًا ١/ ٥٩ .
(٢) أضواء على عقيدة سيد قطب د.ربيع المدخلي ص ١٣١ .
(٣) رواه : البخاري في كتاب الأنبياء باب وفاة موسى ٣/ ١٢٥١ برقم ٣٢٢٨.
(٤) رواه : مسلم في كتاب الإيمان ١/ ١٥٩ برقم ١٩٥.
(٥) المورد الزلال للدويش ص١٠- ١١ .
(٦) المورد الزلال للدويش ص ٣٢٨-٣٣٠ ،وينظر : تفسير ابن كثير ١/ ٢٤١ .

المطلب التاسع

رؤية الله تعالى



رؤية الله -تعالى- من أشرف وأجل مسائل أصول الدين ، وهي الغاية التي شمرّ إليها المشمرون ، وتنافس فيها المتنافسون ، وحرمها الذين هم عن ربهم محجوبون [(١)]

وقد زعمت الجهمية والمعتزلة أن الله -تعالى- لا يدرك ولن يدرك بشيء من الحواس الخمس[(٢)]، ولذلك نفوا رؤية الله- تعالى -في الدنيا والآخرة [(٣)].

أما أهل السُّنَّة والجماعة فإنهم يقولون بجواز الرؤية في الدنيا عقلًا، ولكنها لم تقع لأحد قط لا نبي ولا غير نبي، ولم يختلفوا في ذلك إلا في نبينا ﷺ ويقولون بجوازها عقلًا ووقوعها قطعًا في الآخرة[(٤)].

واستدلوا على ذلك بأدلة كثيرة من الكتاب والسُّنَّة .

موقف سيد قطب من مسألة الرؤية: أما موقف سيد-رحمه الله- من مسألة الرؤية فبيانه فيما يأتي:

أولا : نفي رؤية الله في الدنيا وسبب ذلك :

ذكر سيد - رحمه الله- في أكثر من موضع أن الناس لا يرون الله تعالى في الدنيا، ولكنهم يجدونه في نفوسهم حين يؤمنون.. فهو بالنسبة لهم غيب ، وإن كانت قلوبهم تعرفه حين تؤمن به [(٥)].

* ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ١/ ٢٠٨.

(٢) ينظر في ذلك : شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص ٣٤٨ ، والمقالات للأشعري ١/ ٢٣٨ والرد على المريسي للدرامي ص ١٣-١٤ .

(٣) شرح الأصول الخمسة ص ٢٣٢ وما بعدها ، و ص ٣٤٨ .

(٤)ينظر ذلك : التوحيد لابن خزيمة ص ١٨٥ والسُّنَّة لابن أبي عاصم ص ١٩٣ ومنهاج السُّنَّة لابن تيمية ٢/ ٣٢٩ وحادي الأرواح لابن القيم ، ص ٢٢٣ .

(٥) في ظلال القرآن : ٢/ ٩٨٠ وينظر أيضا : ١٢٧٣ .

﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[(١)] يقول سيد: " إن الذين كانوا يطلبون في سذاجة أن يروا الله، كالذين يطلبون في سماجة دليلًا ماديًا على الله ! هؤلاء وهؤلاء لا يدركون ماذا يقولون! ، إن أبصار البشر وحواسهم وإدراكهم الذهني كذلك ، كلها إنما خلقت لهم ليزاولوا بها التعامل مع هذا الكون، والقيام بالخلافة في الأرض ، وإدراك آثار الوجود الإلهي في صفحات هذا الوجود المخلوق ، فأما ذات الله - سبحانه - فهم لم يوهبوا القدرة على إدراكها ، لأنه لا طاقة للحادث الفاني أن يرى الأزلي الأبدي، فضلا على أن هذه الرؤية لا تلزم لهم في خلافة الأرض ، وهي الوظيفة التي هم معانون عليها وموهوبون ما يلزم لها "[(٢)].

* وفي ظلال قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٣)].

يقول سيد - رحمه الله -: " إننا لفي حاجة إلى استحضار ذلك الموقف الفريد في خيالنا وفي أعصابنا وفي كياننا كله ، في حاجة إلى استحضاره لنستشرف ونحاول الاقتراب من تصوره ، ولنشعر بشيء من مشاعر موسى - عليه السلام - فيه..إنها الوهلة المذهلة وموسى يتلقى كلمات ربه ، وروحه تتشوف وتستشرف وتشتاق إلى ما يشوق! فينسى من هو ، وينسى ما هو ، ويطلب ما لا يكون لبشر في هذه الأرض، وما لا يطيقه بشر في هذه الأرض ، يطلب الرؤية الكبرى ، وهو مدفوع في زحمة الشوق ودفعة الرجاء ولهفة الحب ورغبة الشهود ، حتى تنبهه الكلمة الحاسمة الجازمة ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ ثم يترفق به الرب العظيم الجليل ، فيعلمه لماذا لن يراه ، إنه لا يطيق ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ﴾ والجبل أمكن وأثبت ، والجبل مع تمكنه وثباته أقل تأثرًا واستجابة من الكيان البشري ، ومع ذلك فماذا ؟ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٠٣ .

(٢) في ظلال القرآن : ٢/ ١١٦٦- ١١٦٧ ، وينظر أيضا : ٥/ ٣٠٩٣ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٤٣ .

فكيف كان هذا التجلي ؟ نحن لا نملك أن نصفه ، ولا نملك أن ندركه ، ولا نملك أن نستشرفه إلا بتلك اللطيفة التي تصلنا بالله ، حين تشف أرواحنا وتصفو، وتتجه بكليتها إلى مصدرها ، فأما الألفاظ المجردة فلا تملك أن تنقل شيئًا ، لذلك لا نحاول بالألفاظ أن نصور هذا التجلي ، ونحن نميل إلى اطراح كل الروايات التي وردت في تفسيره ، وليس منها رواية عن المعصوم ﷺ والقرآن الكريم لم يقل عن ذلك شيئًا .

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ وقد ساخت نتوءاته ، فبدا مسوًّى بالأرض مدكوكًا ، وأدركت موسى رهبة الموقف ، وسرت في كيانه البشري الضعيف ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾.

مغشيًا عليه ، غائبًا عن وعيه ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ وثاب إلى نفسه ، وأدرك مدى طاقته ، واستشعر أنه تجاوز المدى في سؤاله ﴿ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾! تنزهت وتعاليت عن أن ترى بالأبصار وتدرك ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ عن تجاوزي للمدى في سؤالك! ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ والرسل دائمًا هم أول المؤمنين بعظمة ربهم وجلاله "[١].

* وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ ﴾[٢] .

يقول سيد : " ويقطع هذا النص بأنه ليس من شأن إنسان أن يكلمه الله مواجهة، وقد روي عن عائشة رضي الله عنها : " من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية"[٣]. إنما يتم كلام الله للبشر بواحدة من ثلاث ﴿ وَحْيًا ﴾ يلقى في النفس مباشرة فتعرف أنه من الله ، ﴿ أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ ﴾ كما كلم الله موسى - عليه السلام - وحين طلب الرؤية لم يجب إليها ، ولم يطق تجلي الله على الجبل ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ وهو الملك ﴿ فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ بالطرق التي وردت عن رسول الله ﷺ "[٤].

---

(١) في ظلال القرآن : ٣/ ١٣٦٨- ١٣٦٩ .

(٢) سورة الشورى : الآية ٥١ .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) في ظلال القرآن : ٥/ ٣١٦٩- ٣١٧٠ .

فمن هذه النصوص يتبين لنا أن سيد – رحمه الله – يقرر ما عليه أهل السُّنَّة والجماعة من أن الله تعالى لا يرى في الدنيا ، ويوضح أن السبب في ذلك هو أن البشر بتركيبتهم وخلقتهم لا يطيقون رؤية الله تعالى وأن هذه الرؤية لا تلزمهم في الدنيا.

أما رؤية النبي ﷺ لربه فقد قرر سيد – رحمه الله – أيضا ما عليه جمهور أهل السُّنَّة والجماعة من أنه ﷺ لم ير ربه ليلة المعراج وإنما رأى النور الذي هو حجاب الرحمن وقد أورد حديث عائشة رضي الله عنها : "من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية " وحديث أنه ﷺ سئل: " هل رأيت ربك ؟ فقال : نور إني أراه"[(١)]، [(٢)].

ثانيًا : إثبات رؤية الله في الآخرة :

قرر سيد – رحمه الله – أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة ، وأن الكفار محجوبون عن رؤيته ، ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[(٣)] .

يقول سيد : " لقد حجبت قلوبهم المعاصي والآثام ، حجبتها عن الإحساس بربها في الدنيا ، وطمستها حتى أظلمت وعميت في الحياة ، فالنهاية الطبيعية والجزاء الوفاق في الآخرة أن يحرموا النظر إلى وجه الله الكريم ، وأن يحال بينهم وبين هذه السعادة الكبرى ، التي لا تتاح إلا لمن شفت روحه ورقت وصفت واستحقت أن تكشف الحجب بينها وبين ربها ، ممن قال فيهم في سورة القيامة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وهذا الحجاب عن ربهم ، عذاب فوق كل عذاب ، وحرمان فوق كل حرمان ونهاية بائسة لإنسان يستمد إنسانيته من مصدر واحد هو اتصاله بروح ربه الكريم ، فإذا حجب عن هذا المصدر فقد خصائصه كإنسان كريم، وارتكس إلى درجة يستحق معها الجحيم "[(٤)] .

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[(٥)].

يقول سيد : " إن هذا النص ليشير إشارة سريعة إلى حالة تعجز الكلمات عن

---

(١) سبق تخريجه .
(٢) في ظلال القرآن : ٤/ ٢٥١٩، ٥/ ٣١٦٩ .
(٣)سورة المطففين : الآية ١٥ .
(٤) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٨٥٨ .
(٥)سورة القيامة : الآية ٢٢- ٢٣ .

تصويرها ، كما يعجز الإدراك عن تصورها بكل حقيقتها ، ذلك حين يعد الموعودين السعداء بحالة من السعادة لا تشبهها حالة حتى لتتضاءل إلى جوارها الجنة بكل ما فيها من ألوان النعيم! هذه الوجوه الناضرة ، نضرها أنها إلى ربها ناظرة .. إلى ربها..؟! فأي مستوى من الرفعة هذا ؟ أي مستوى من السعادة ؟.

إن روح الإنسان لتستمتع أحيانًا بلمحة من جمال الإبداع الإلهي في الكون أو النفس ، تراها في الليلة المقمرة ، أو الليل الساجي ، أو الفجر الوليد ، أو الظل المديد، أو البحر العباب ، أو الصحراء المنسابة أو الروض البهيج ، أو الطلعة البهية، أو القلب النبيل ، أو الإيمان الواثق ، أو الصبر الجميل أ..إلى آخر مطالع الجمال في هذا الوجود .. فتغمرها النشوة ، وتفيض بالسعادة ، وترف بأجنحة من نور في عوالم مجنحة طليقة ، وتتوارى عنها أشواك الحياة ، وما فيها من ألم وقبح ، وثقلة طين وعرامة لحم ودم ، وصراع شهوات وأهواء . . فكيف ؟ كيف بها وهي تنظر لا إلى جمال صنع الله ولكن إلى جمال ذات الله ؟ .

ألا إنه مقام يحتاج أولًا إلى مد من الله ، ويحتاج ثانيًا إلى تثبيت من الله ، ليملك الإنسان نفسه ، فيثبت ويستمتع بالسعادة ، التي لا يحيط بها وصف ، ولا يتصور حقيقتها إدراك ! .

﴿ وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ومالها لا تتنضر وهي إلى جمال ربها تنظر؟

إن الإنسان لينظر إلى شيء من صنع الله في الأرض، من طلعة بهية ، أو زهرة ندية ، أو جناح رفاف أو روح نبيل ، أو فعل جميل ، فإذا السعادة تفيض من قلبه على ملامحه ، فيبدو فيها الوضاءة والنضارة ، فكيف بها حين تنظر إلى جمال الكمال، مطلقًا من كل ما في الوجود من شواغل عن السعادة بالجمال ؟ فما تبلغ الكينونة الإنسانية ذلك المقام ، إلا وقد خلصت من كل شائبة تصدها عن بلوغ ذلك المرتقى الذي يعز على الخيال! كل شائبة لا فيما حولها فقط، ولكن فيها هي ذاتها من دواعي النقص والحاجة إلى شيء ما سوى النظر إلى الله . .

فأما كيف تنظر؟ بأي جارحة تنظر ؟ وبأي وسيلة تنظر ؟ فذلك حديث لا يخطر على قلب يمسه طائف من الفرح الذي يطلقه النص القرآني ، في القلب المؤمن ،

والسعادة التي يفيضها على الروح ، والتشوف والتطلع والانطلاق! فما بال أناس يحرمون أرواحهم أن تعانق هذا النور الفائض بالفرح والسعادة ؟ ويشغلونها بالجدل حول مطلق ، لا تدركه العقول المقيدة بمألوفات العقل ومقرراته؟!.

إن ارتقاء الكينونة الإنسانية وانطلاقها من قيود هذه الكينونة الأرضية المحدودة، هو فقط محط الرجاء في التقائها بالحقيقة الطليقة يومذاك ، وقبل هذا الانطلاق سيعز عليها أن تتصور مجرد تصور كيف يكون ذلك اللقاء .

وإذن فقد كان جدلًا ضائعًا ذلك الجدل الطويل المديد الذي شغل به المعتزلة أنفسهم ومعارضيهم من أهل السُّنَّة والمتكلمين حول حقيقة النظر والرؤية في مثل ذلك المقام .

لقد كانوا يقيسون بمقاييس الأرض، ويتحدثون عن الإنسان المثقل بمقررات العقل في الأرض، ويتصورون الأمر بالمدارك المحدودة المجال.

إن مدلول الكلمات ذاته مقيد بما تدركه عقولنا وتصوراتنا المحدودة ، فإذا انطلقت وتحررت من هذه التصورات فقد تتغير طبيعة الكلمات ، فالكلمات ليست سوى رموز يختلف ما ترمز إليه بحسب التصورات الكامنة في مدارك الإنسان ، فإذا تغيرت طاقته تغير معها رصيده من التصورات ، وتغيرت معها طبيعة مدلول الكلمات ، ونحن نتعامل في هذه الأرض بتلك الرموز على قدر حالنا ! فما لنا نخوض في أمر لا يثبت لنا منه حتى مدلول الكلمات؟! .

فلنتطلع إلى فيض السعادة الغامر الهادئ، وفيض الفرح المقدس الطهور، الذي ينطلق من مجرد تصورنا لحقيقة الموقف على قدر ما نملك، ولنشغل أرواحنا بالتطلع إلى هذا الفيض، فهذا التطلع ذاته نعمة، لا تفوقها إلا نعمة النظر إلى وجهه الكريم "[١].

وقفة مع دعوى إنكار سيد قطب لرؤية الله وتأويلها :

ذكر الدكتور / ربيع المدخلي فقرات مجتزئة من النص السابق تحت عنوان: "تشكيك سيد قطب في رؤية الله بل إنكاره لها" حيث ذكر بداية كلام سيد في النص

(١) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٧٧٠- ٣٧٧١ .

السابق وهو قوله " إن هذا النص يشير إشارة سريعة ... إلى قول سيد - رحمه الله-" بكل ما فيها من نعيم .

ثم تجاوز كلاما كثيرًا لسيد بعد هذا يتحدث فيه عن سبب نضارة وجوه المؤمنين وأنها بسبب نظرهم إلى الله تعالى ، ثم ذكر فقرة من كلام سيد - رحمه الله - وهي قوله " فأما كيف تنظر ؟ وبأي جارحة تنظر ؟ وبأي وسيلة تنظر ؟ فذلك حديث لا يخطر على قلب يمسه طائف الفرح الذي يطلقه النص ... إلى قوله : " وإذن فقد كان جدلًا ضائعًا ذلك الجدل الذي شغل المعتزلة أنفسهم ومعارضيه من أهل السُّنَّة والمتكلمين حول حقيقة النظر والرؤية .

ثم تجاوز بقية كلام سيد - رحمه الله - كله المذكور في النص السابق، وعقب بعد ذلك بقوله: " وهكذا !! بمثل هذه السفسطة والتهاويل يظن سيد قطب أنه قد حل مشكلة الخلاف بين أهل السُّنَّة والمعتزلة ! ولا يدري أنه قد انحاز إلى المعتزلة في إنكار رؤية الله تعالى فما هي تلك الحالة من السعادة التي لا يدري القارئ ما هي ؟ والقرآن قد حددها بالنظر إلى الله ، والسُّنَّة المتواترة أكدتها وآمن بها السلف الصالح ثم ذكر حديث النبي ﷺ : " إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته "[1]، وغيره من الأحاديث التي تثبت أن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم يوم القيامة ثم قال: " وسيد قطب يشكك في هذا الأمر العظيم الثابت بالكتاب والسُّنَّة المتواترة ، ويرى انه يعز تصوره مجرد تصور ، ولا يدري كيف ينظر وبأي جارحه وبأي وسيلة ينظر ... ثم ذكر أنه ليس وحده الذي أدان سيد قطب بإنكاره لرؤية الله في الدار الآخرة فقد سبقه صاحب كتاب " على مائدة القرآن "[2] حيث انتقد فيه كلام سيد - رحمه الله - في كتاب " مشاهد القيامة " والذي يقول فيه: " ونشهد الفجار محجوبين عن ربهم لا يرونه ، والله لن يراه إنسان .. "[3] .

وقد ذكر أيضًا سليم الهلالي في كتابه "الجماعات الإسلامية" كلامًا قريبًا من كلام

---

(١) رواه : مسلم في كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية ١/ ١٤٣ برقم ١٨٢ ، ١٨٣ .
(٢) هو الأستاذ/ احمد محمود جمال وكلامه في كتاب " على مائدة القرآن " ص ٥٣- ٥٤ .
(٣) أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب ، د/ ربيع المدخلي ص ١٣٥- ١٣٨ بتصرف .

الدكتور المدخلي[١]

ولنا هنا وقفة :

أولًا : أن فيما سبق بيانه من نفي سيد - رحمه الله - للرؤية في الدنيا وبيانه لسبب ذلك ، ومن إثباته للرؤية في الآخرة كما في النصوص السابقة، ما يرد على من يقول بأن سيد قطب ينكر الرؤية ويشكك فيها .

ثانيًا : لا أدري لماذا استبعد الدكتور المدخلي فقرات من كلام سيد - رحمه الله - وفيها إثبات النظر إلى ذات الله ووجه الكريم ، وإذا كان كلامه في هذا النص كلامًا موهمًا في بعض فقراته فلماذا لم ينظر إلى كلام سيد - رحمه الله - في ظلال الآيات التي تتحدث عن رؤية الله وحجب الكفار عن رؤيته ، وقد سبق عرض كلامه فيها، وكيف يقرر أن سيدًا - رحمه الله - قد انحاز للمعتزلة في إنكاره الرؤية من أين فهم ذلك ؟؟ .

إن سيدًا - رحمه الله - في النص نفسه ينتقد المعتزلة الذين شغلوا أنفسهم وغيرهم من أهل السُّنَّة بالجدل حول القضية بقوله: " وإذن فقد كان جدلًا ضائعًا ذلك الجدل الطويل المديد الذي شغل به المعتزلة أنفسهم ومعارضيهم من أهل السُّنَّة والمتكلمين حول حقيقة النظر والرؤية " فكلامه نقدا للمعتزلة الذين شغلوا أنفسهم ومعارضيهم .." ، وليس نقدًا لأهل السُّنَّة وانحيازًا للمعتزلة كما فهمه الدكتور المدخلي .

وأظن أن وقفة تأمل منصفة متجردة للنصوص السابقة توضح بجلاء حقيقة موقف سيد قطب من مسألة الرؤية ، وحقيقة ما أشيع حوله من نفي لها وتأويل .

---

(١)انظر : الجماعات الإسلامية ، سليم الهلالي .

الخاتمة



أحمد الله تعالى على ما أنعم به عليّ من تيسير الأسباب لإتمام كتابة هذا البحث ، الذي عرضت فيه منهج سيد قطب - رحمه الله- وآراءه في أبواب ومسائل العقيدة وقد توصلت إلى النتائج والتوصيات الآتية :

أولًا : **نتائج البحث** :

١- عاش سيد قطب - رحمه الله - في القرن الرابع عشر الهجري (٢٠ الميلادي)، وهو عصر شهد تحولات وتغيرات في كثير من ملامح الحياة في العالم عمومًا والعالم الإسلامي خصوصًا ، حيث تميز بنمو الروح القومية لدى الشعوب، وظهور الفكر الاشتراكي ، وسقوط الخلافة الإسلامية ووقوع العالم الإسلامي تحت الاحتلال الصليبي ، بالإضافة إلى سيادة الاتجاه العلمي وموجة الانحلال الخلقي وما نتج عنها .

٢- شهدت الحالة السياسية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية في مصر في هذه الفترة حراكًا واسعًا وتقلبات عدة في النظم القائمة، وكذا في الأوضاع العلمية والاجتماعية والثقافية ، حيث ساد الفساد السياسي في الوزارات المتعاقبة وزاد خط الانحراف العقدي والضعف والجمود العلمي ، وظهرت الطبقية في فئات المجتمع وبرزت حركات التنصير والتغريب والعلمنة ، وتحرير المرأة ، والصراع بين أصحاب التوجه الإسلامي والتوجهات غير الإسلامية عمومًا .

٣- ولد سيد قطب في أسرة متدينة وعاش حياته الأولى في القرية ، نشأ فيها وتلقى تعليمه الأولى ، ثم سافر إلى القاهرة وواصل حياته فيها حتى وفاته ، وقد مر سيد قطب في حياته بخمس مراحل لكل مرحلة منها ملامحها وخصائصها، وهي إجمالًا :

المرحلة الأولى : نشأته في القرية على تقاليد الإسلام السائدة في عصره ، وفيها أنهى دراسته الأولية وحفظ القرآن بجهد ذاتي ، مع اهتمامه بالقراءة والمطالعة .

المرحلة الثانية : انتقاله إلى القاهرة وانقطاع صلته بنشأته الأولى ، وتحوله نحو الأدب وتأثره بأستاذه العقاد ومكتبته ، وبالثقافة و الأوضاع السائدة.

المرحلة الثالثة : مرحلة الضياع والارتياب في الحقائق الدينية ، نتيجة لتأثره بالثقافة الغربية السائدة ، حيث عاش ضياعا فكريًا لا سلوكيًا ،عبرت عنه كتاباته في هذه المرحلة .

المرحلة الرابعة : مرحلة الإقبال على مطالعة القرآن لدواعٍ أدبية ونقدية ،حيث اكتشف الإسلام من خلال الأدب.

المرحلة الخامسة : مرحلة تأثره بالقرآن وتدرجه في الإيمان وهي مرحلة حياته الإسلامية ، والتي بدأت بتوجهه إلى الفكر الإسلامي قبل سفره إلى أمريكا وانتهت بإعدامه عام ١٩٦٦هـ وتشمل ثلاث محطات ولكل منها ملامحها وهي:

أ- مرحلة الإسلاميات الفنية: وتمثلت في دراسته للقرآن من منطلق الدراسة الأدبية النقدية البحتة، وفيها كتب التصوير الفني ومشاهد القيامة في القرآن .

ب- مرحلة الإسلاميات الفكرية : وفيها تحول إلى القضايا الفكرية التي لاحظها أثناء دراسته الأدبية للقرآن ، وفيها ألف كتاب العدالة الاجتماعية .

ج- مرحلة الإسلاميات الحركية : وتمثل مرحلة الانتماء الحقيقي للإسلام والعمل الدعوي والحركي ،وفيها ألف كتبه الإسلامية كلها ، وانشأ تنظيم ٦٥م .

٤- أتصف سيد قطب بمجموعة من الصفات تمثلت في الهمة العالية وقوة الشخصية والاستعلاء بالإيمان وسعة الثقافة والثبات وصدق التدين وغيرها .

٥- تولى سيد مجوعة من الأعمال تمثلت في التدريس والعمل في وزارة المعارف وخبيرًا للمناهج وعمله التربوي مع الإخوان بالإضافة إلى رحلاته إلى أمريكا ودمشق والقدس ثم انشغاله بالتأليف طوال سجنه وحتى وفاته .

٦- تعرض سيد قطب لمحنتين في حياته تمثلت في سجنه مرتين، الأولى مع قيادات الإخوان لمدة عشر سنوات من عام ٥٤ -١٩٦٤م ، حيث خرج بعفو صحي، والثانية من عام ٦٥-٦٦م وانتهت بإعدامه ، حيث صب عليه صنوفا من

العذاب في السجن ، بالإضافة إلى أمراضه المزمنة ، ومع ذلك فقد جعل من سجنه فرصة للتأمل والتأليف حيث بلغت مؤلفاته قرابة ٣٠ مؤلفًا طبع بعضها و فقد الأخر.

٧- لسيد مكانته العلمية والدعوية والفكرية في أوساط الصحوة المعاصرة، وتتمثل في كثرة مؤلفاته التي كان لها أثرها في مسيرة العمل الإسلامي والدعوة والحركة المعاصرة ، وما نتج عنها من اختلاف الناس حول فكره وآرائه بين غال وجاف ومنصف ، وكذلك في كثرة الاطروحات العلمية والمؤلفات حوله ، حيث بلغت عدد الأطروحات حوله أكثر من خمسة وعشرين رسالة علمية بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والمقالات.

٨- فيما يتعلق بمنهجه في تقرير العقيدة :

أ- كان سيد قطب موافقًا لما عليه أهل السُّنَّة في الاعتماد على مصادر تلقي تقرير العقيدة ، والمتمثلة في الكتاب والسُّنَّة والفطرة والعقل، ومخالفته لمنهج الفلاسفة وعلماء الكلام في تقرير العقيدة، حيث بين مخالفتهم لمنهج القرآن في هذا الباب ونقد ما عندهم من أخطاء في هذا الباب ، مع وقوعه في خطأ فيما يتعلق بالأخذ بحديث الآحاد في العقيدة ،

ب- فيما يتعلق بموقفه من العقل وفطرية المعرفة يقرر ما عليه أهل السُّنَّة وينتقد المخالفين ، وكذا فيما يتعلق بقضية تطور العقيدة ومقارنة الأديان ، حيث يرى سيد بطلان نظرية تطور العقيدة وبطلان منهج علماء مقارنة الأديان الغربيين ومن تأثر بهم في هذا الباب ومخالفتهم لنمهج القرآن الكريم .

٩- اهتم سيد قطب - رحمه الله - كثيرًا ببيان أهمية العقيدة الإسلامية وخصائصها ومميزاتها ، وتقرير منهج القرآن في عرضها والدعوة إليها ،كما حذر كثيرًا من وسائل الأعداء في محاربتها وصرف الناس عنها ،

١٠- فيما يتعلق بموقف سيد قطب - رحمه الله - من المخالفين عقديًا نجد أنه :

أ - يقرر ما جاء في القرآن والسُّنَّة حول الموقف من أهل الكتاب والمشركين والوثنيين والملاحدة عمومًا والمتمثل في اعتقاد كفرهم ووجوب بغضهم

والتميز عنهم ، كما عمل على فضح أهدافهم ومخططاتهم ضد الإسلام وحذر من المذاهب والنظريات الإلحادية والمادية كالشيوعية والوجودية والداروينية والعلمانية والقومية وغيرها ، وبين فسادها و ضلالها.

ب- المخالفين لمنهج السلف من المتكلمين والفلاسفة والصوفية وأهل الأهواء "العصرانيين" وغيرهم ،بيَّن سيد قطب المأخذ عليهم ، ونقد ما عندهم من أخطاء في باب العقيدة.

١١- فيما يتعلق بمنهجه في باب مسائل الإيمان :

أ - يقرر سيد قطب ما عليه أهل السُّنَّة والجماعة من تعريف الإيمان لغةً واصطلاحًا، وعلاقته بالعمل ، وكذا العلاقة بين الإيمان والإسلام ، وزيادة الإيمان ونقصانه، وكذا حكم مرتكب الكبيرة .

ب- فيما يتعلق بقضية التكفير وما ثار حولها من جدل تبيَّن لنا من خلال جمع النصوص المتعلقة بهذه القضية أن سيد قطب يفرق بين الحكم على الأنظمة والأوضاع وبين الحكم على الأفراد ، وأن الذين اعتمدوا على بعض النصوص دون بعضها الآخر ، أو على فقرات مجتزأة من سياقها، أو اغفلوا الضوابط التي ذكرت في سياق بعض النصوص فهموا كلامه على غير ما أراد.

١٢- فيما يتعلق بمنهجه في باب التوحيد:

أ - يوافق سيد قطب ما عليه أهل السُّنَّة والجماعة في حقيقة التوحيد وشموله للألوهية والربوبية والأسماء والصفات، وإن كان له رأي في بيان معنى الألوهية والربوبية غير ما عليه السلف لكنه خلاف لفظي .

ب-في باب توحيد الربوبية يقرر سيد منهج القرآن في الاستدلال على الربوبية وينتقد المناهج المخالفة في تقرير وجود الله ووحدانيته . كما انتقد نظرية قِدم العالم ، وكذا وحدة الوجود والحلول والإتحاد ، فيما يتعلق بالقدر يقرر ما عليه أهل السُّنَّة في مسائل القدر عمومًا ويخالف ما عند المتكلمين والفلاسفة.

ج- في باب توحيد الأسماء والصفات : يثبت الأسماء الحسنى بمعانيها التي دلت عليها .

ويثبت الصفات الإلهية إجمالًا ويرد على النفاة والمؤولين وإن وقع في بعض الأحيان في التأويل باعترافه نفسه وتراجعه عن التأويل . أما موقفه من الصفات تفصيلًا فقد كان في الغالب موافقًا لما عليه أهل السُّنَّة والجماعة إلا في قضايا قليلة محدده كما سبق .

د- في باب توحيد الألوهية اهتم سيد قطب كثيرًا ببيان منهج القرآن الكريم في تقرير توحيد الألوهية حيث بيَّن أن للألوهية ثلاثة مجالات :

* مجال الاعتقاد وهو : معنى لا إله إلا الله .

* مجال العبادة والشعائر .

* مجال الحاكمية والتشريع .

١٣- في باب نواقض التوحيد والإيمان ذكر سيد -رحمه الله- النواقض المتمثلة بالشرك وأنواعه ، والكفر وأنواعه ، والنفاق وهو في ذلك يقرر ما جاء في القرآن الكريم والسُّنَّة الشريفة ، مع اهتمامه كثيرًا ببيان شرك الحاكمية وما تفرع عنه باعتباره أبرز أنواع الكفر في هذا العصر ، وعنه ينتج ما سواه .

١٤- فيما يتعلق بمنهجه في باب الملائكة والجن والشياطين يقرر ما عليه السلف من وجودهم وصفاتهم وأعمالهم ويرد على المخالفين في هذا الباب .

١٥- فيما يتعلق بالأنبياء والرسل يقرر أيضًا ما عليه السلف في هذا الباب من حقيقة النبوة وصفات الأنبياء ووظائفهم وعصمتهم وغير ذلك ، ويرد على المخالفين في هذا الباب ، وما يتعلق بكلام سيد حول موسى u في بعض كتبه السابقة نجد أن له كلامًا مختلفًا في كتبه الإسلامية الأخيرة فيه تعظيم لموسى عليه السلام مما يدل على أن كلامه في التصوير الفني كان في مرحلة لها حكمها .

١٦- فيما يتعلق بنبوة محمد ﷺ يقرر سيد أهمية بعثته ﷺ وحاجة العالم إليها وأثرها على البشرية ، وكذا دلائل نبوته وصفاته وخصائصه ومعجزاته وبيناته ،

حيث يرى أن معجزة النبي ﷺ هي القرآن الكريم وما سواه من الخوارق فإنما كان إكرامًا أو تثبيتًا له، ولم يكن خارقة على سبيل التحدي بها .

١٧ - فيما يتعلق بالصحابة - رضوان الله عليهم - تحدث سيد قطب عن عظمة جيل الصحابة ، وبين مميزات هذا الجيل الفريد وخصائصه والواجب نحوهم ، أما كلامه حول بعض الصحابة فقد تبَيَّن لنا أنه كان قبل التزامه أو في بداية تحوله نحو الإسلام ، وأنه عدل ما جاء في كتابه" العدالة الاجتماعية" في الطبعة المنقحة قبل موته بسنتين، بالإضافة إلى أن في كتبه الأخيرة ما ينقضه .

١٨ - فيما يتعلق بالخلافة يقرر سيد قطب أهمية الخلافة الصالحة ويستعرض خصائص نظام الحكم في الإسلام ، وكذا مكانة الحاكم المسلم وحقوقه وواجباته ، ونظام الشورى وما يتعلق به ، ونظرته للأنظمة المعاصرة ووسائل التغيير ، حيث يقرر أهمية بناء القاعدة الإسلامية في المجتمع كأساس للتغيير.

١٩ - فيما يتعلق بالمعاد واليوم الآخر يبين سيد قطب - رحمه الله - أهمية اليوم الآخر وأثره في الحياة ، كما تناول مقدمات اليوم الآخر من التوبة والموت وحياة البرزخ وأشراط الساعة وكذا أحداث القيامة وما فيها حتى الاستقرار في الجنة أو النار ، وله بعض الآراء التي خالف فيها القول الراجح عند أهل السُّنَّة والجماعة في هذا الباب مثل: رأيه في خروج يأجوج ومأجوج ، والميزان.

والخلاصة : نستطيع القول بأن سيد قطب - رحمه الله - كان إجمالًا في باب العقيدة موافقًا لما عند أهل السُّنَّة والجماعة مخالفًا للفرق المخالفة لهم ، وأن الأخطاء التي وقع فيها سيد قطب في باب العقيدة تتمثل في الآتي :

أ- إما قضايا علمية خلافية كالموقف من حديث الآحاد،وقضية سحر النبي ﷺ.

ب- أخطاء في كتبه الأدبية السابقة لالتزامه ، أو في الكتب التي ألفها في بداية تحوله نحو الفكر الإسلامي وقبل تعمقه في الدراسات الإسلامية ، في الطبعات المنقحة منها وكذا كتبه المتأخرة ما يخالفها أو ينقضها .

ج- إما كلام موهم أدبي حول بعض القضايا استنتج بعضهم منه أن سيد قطب يقرر خلاف ما عليه أهل السُّنَّة والجماعة ، ولكن يوجد له كلام آخر أكثر

وضوحًا حول تلك القضايا، من أمثلة ذلك: القول بخلق القرآن، ووحدة الوجود، وتأويل الصفات ونحوها.

ثانيًا: توصيات:

١- بالرغم من كثرة البحوث التي دارت موضوعاتها حول سيد قطب - رحمه الله- من جوانب متعددة، إلا أنه لا زال هناك بعض الجوانب التي لم تدرس، أوصي الباحثين بالاهتمام ببحثها منها:

أ- منهج سيد قطب وآراءه واختياراته الفقهية.

ب- أحداث السيرة في ظلال القرآن (دروس وعبر).

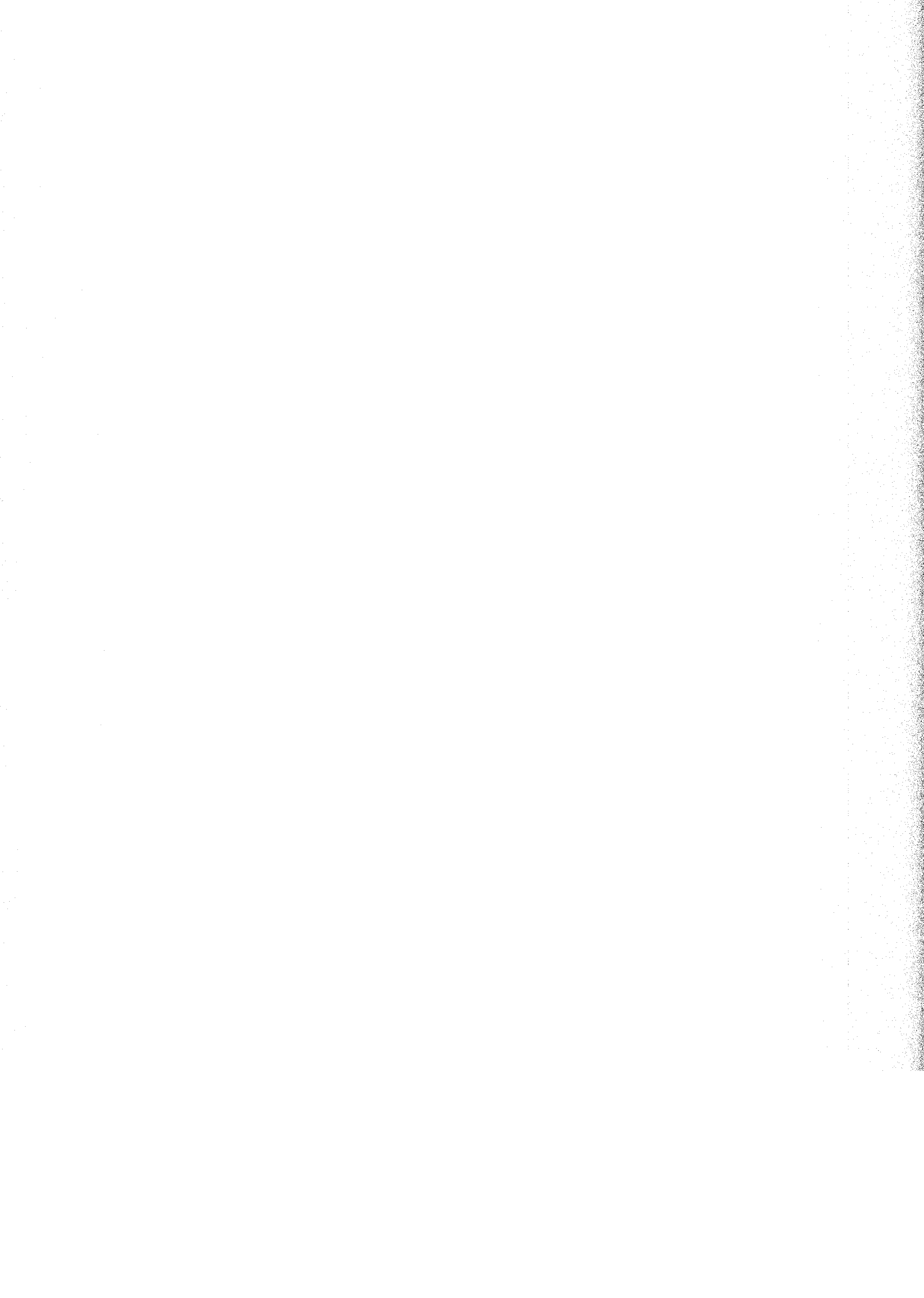
ج- المنظومة القِيَمِيَّة في فكر سيد قطب.

د- معالم الدعوة في ظلال القرآن.

٢- أوصي الباحثين أيضًا بالاهتمام بتقريب تراث سيد قطب، وإبراز الجوانب المضيئة في فكره وهي كثيرة جدًا، حتى يتسنى الاستفادة منها في العمل الإسلامي المعاصر.

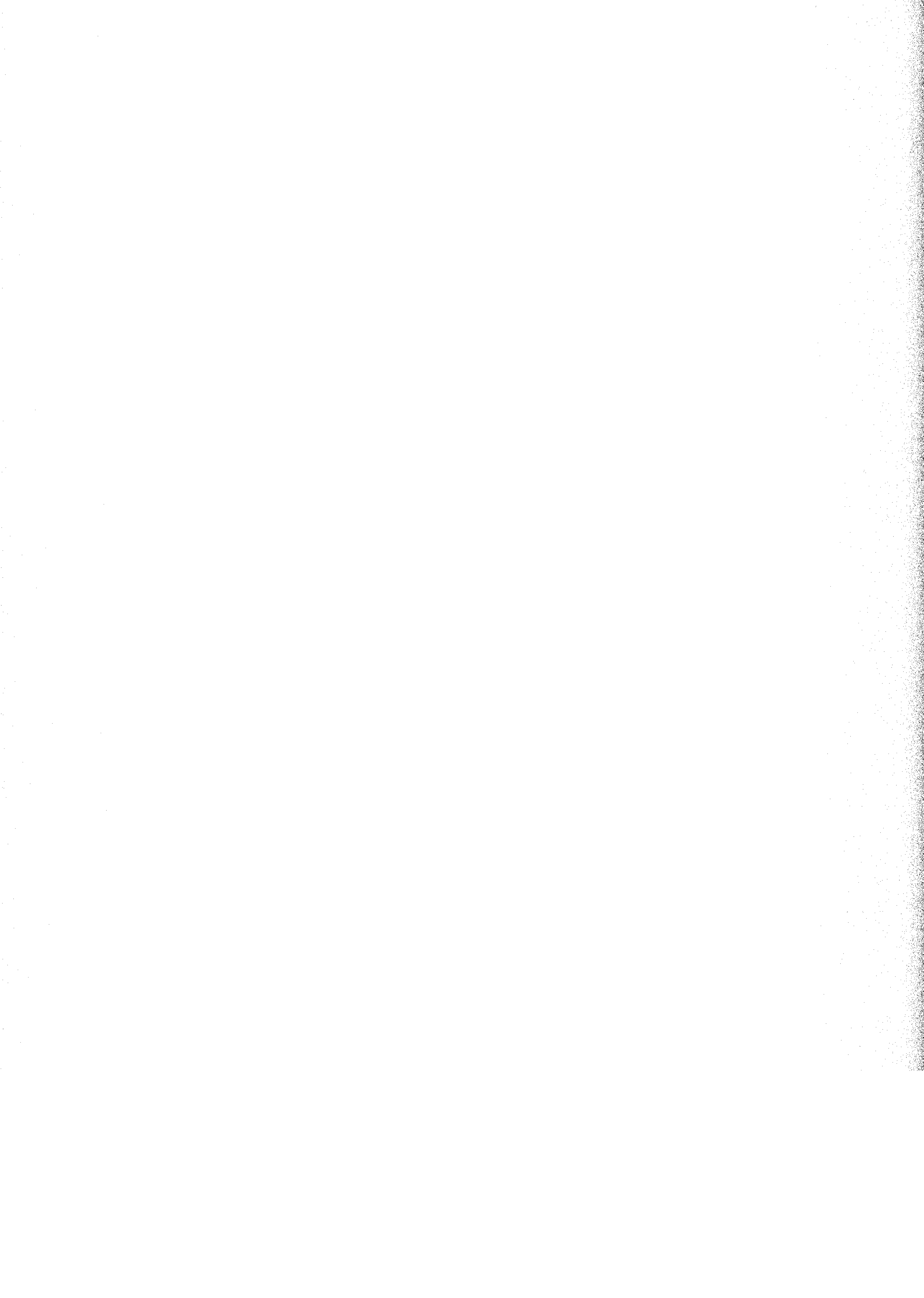
٣- أوصي القائمين على نشر تراث سيد قطب - رحمه الله- بإعادة طباعة كتب سيد مع تدوين الملاحظات التي أشار إليها كثير من أهل العلم والباحثين حول الأخطاء التي وقع فيها سيد في المواضع التي وردت فيها من كتبه، بيانًا للحق، وقطعًا للطريق على الذين يتخذون من هذه الأخطاء ذريعةً للطعن في سيد قطب والتحذير من فكره وكتبه بدعوى حماية الشباب - زعموا -.

وفي الختام أسأل الله العلي القدير أن يلهمنا رشدنا، وأن يبرم لهذه الأمة أمرًا رشدًا، يُعز فيه أهل الطاعة ويذل فيه أهل المعصية، وأن يرينا الحق حقًا ويرزقنا إتباعه، وأن يرينا الباطل باطلًا ويرزقنا اجتنابه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





المراجع



المراجع

١-الإحسان في تقريب صحيح ابن حيان للفارسي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، عام ١٩٩١م.

٢-إحياء علوم الدين ، لأبي حامد الغزالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط . ب.ت.

٣- إرشاد الفحول ، للإمام الشوكاني، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت ، ط٤ ، ١٤١٤هـ.

٤-أساس التقديس، لفخر الدين الرازي، مطبعة كردستان العلمية، عام ١٣٢٨ هـ.

٥-أساليب الغزو الفكري ، د/ علي جريشة ، دار الاعتصام ، القاهرة ، طبعة عام ١٩٩٨م.

٦-أُسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ، دار الفكر - بيروت ، طبعة عام ١٩٩٣ م.

٧- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ، مطبعة الاستقامة ،القاهرة ، ب.ت .

٨-أسرار حركة الضباط الأحرار ، حسين حمودة ، دار الزهراء ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٧م .

٩-إصلاح الوجوه والنظائر للدامغاني ، دار العلم ، بيروت ، ط١٩٨٥م .

١٠-أصول الفقه الإسلامي: محمد أبو زهرة - دار الفكر العربي- القاهرة-ب. ت.

١١-أصول الكافي للكليني تحقيق محمد جواد القصة ، دار الأضواء بيروت ط١ عام ١٩٩٦م.

١٢-أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره ، د / ربيع بن هادي المدخلي ،

مكتبة الفرقان، عجمان، ط٢، عام ٢٠٠١م.

١٣-أضواء البيان، للشنقيطي، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، ط١، عام ١٤١٧م.

١٤-أضواء على معالم في الطريق، سالم البهنساوي، دار البحوث الكويتية، طبعة عام ١٩٨٦م.

١٥-أفراح الروح، سيد قطب ،مركز الشرق العربي، ب، ت.

١٦-أقوال التابعين في مسائل الإيمان والتوحيد. عبد العزيز المبدل. دار التوحيد - الرياض. ط١ عام ١٤٢٤ هـ.

١٧-الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. د / محمد محمد حسين ،المطبعة النموذجية - القاهرة - ط ٣ - ١٤٠٠هـ.

١٨-الإتقان في علوم القران، لجلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، عام ١٤٠٧هـ.

١٩-الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم، دار الكتب العلمية - بيروت - ط١، عام ١٤٠٥هـ.

٢٠-الإحكام في أصول الأحكام للآمدي، المكتب الإسلامي، دمشق، ط٢ عام ١٤٠٢هـ.

٢١-الإخوان المسلمون، أحداث صنعت التأريخ، لمحمود عبد الحليم، دار الدعوة، الإسكندرية، ط عام ١٩٧٩م.

٢٢-الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية، زكريا سليمان بيومي، رسالة في كلية الآداب، جامعة عين شمس.

٢٣-الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة، لعبد القادر شيبة الحمد، مطبوعات الجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، ط١، ب. ت.

٢٤-الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، لإمام الحرمين الجويني - مطبعة

السعادة – مصر عام ١٩٥٠م.

٢٥-الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ، دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ ، عام ١٩٩٥م .

٢٦- الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية ، للسيد أبي الأعلى المودودي.

٢٧-الإسلام والخلافة في العصر الحديث : د/ محمد ضياء الدين الريس ب. ت.

٢٨-الاشتراكية العربية . أمين مصطفى وآخرون ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ، طبعة عام ١٩٦٠م .

٢٩-الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت ،طبعة ١٤٢١هـ.

٣٠-الاعتصام ، للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي ، دار الفكر – بيروت . ب. ت.

٣١-الإعلام بقواطع الإسلام ، ابن حجر ، دار المعرفة ، بيروت ، طبعة عام ١٤٠٢هـ.

٣٢-الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي.

٣٣-أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب ، د/ صلاح الخالدي ،دار القلم ، دمشق، ط٨ ،١٤٢٣هـ.

٣٤-أوراق من تاريخ الإخوان المسلمين ، جمعه أمين عبد العزيز ، دار التوزيع ، القاهرة ، ط١ ، عام ٢٠٠٣م .

٣٥-الإيمان لابن تيمية ، المكتب الإسلامي – بيروت – ط٣- ١٤٠٨هـ .

٣٦-إيثار الحق ، لابن الوزير ، دار الكتب العلمية ، بيروت – ط٢ ، عام ١٤٠٧هـ.

٣٧-الإنسان الكامل ، لعبد الكريم الجيلي، مطبعة الحلبي، مصر ، ط ٤ ، ب . ت.

٣٨-الأم للإمام الشافعي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، عام ١٤١٢هـ.

٣٩-أصول الحديث لمحمد عجاج الخطيب ، دار المنارة ، جده ، ط٦، ١٤١٤هـ.

٤٠-الأوائل للباقلاني ، مؤسسة الكتب الثقافية -بيروت- ط٣ ، عام ١٤١٤هـ .

٤١-أحكام القرآن للحصياص ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، طبعة عام ١٤١٥هـ.

٤٢-أعلام السُّنَّة المنشورة ، لحافظ الحكمي مكتبة الرشد الرياض ط٤ عام ١٤١٦هـ.

٤٣-أيام من حياتي لزينب الغزالي . دار التوزيع ، القاهرة ،ط١ ،١٤٢٠ هـ.

٤٤-الإسلام ومشكلات الحضارة ، سيد قطب ، دار الشروق ، ط١٢ ، عام ١٤٢٢هـ .

٤٥-الأعلام ، للزركلي ، دار العلم ، بيروت، ط ١٤ ،١٩٩٩م.

(ب)

٤٦-البداية والنهاية لابن كثير دار المؤيد – الرياض ، ط٢ ،عام ١٤١٧ هـ .

٤٧-البدر الطالع ،للإمام محمد بن علي الشوكاني ،مطبعة السعادة ، بيروت ،ط ١٩٨٤ م.

٤٨-البرهان في أصول الفقه لإمام الحرمين الجويني دار الوفاء المنصورة ط٣ عام ١٤٢٠هـ .

٤٩-البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ، لأبي الفضل السكسكي ، مكتبة المنار الأردن ، ط١ ، عام ١٤٠٨.

٥٠-البوابة السوداء ، لأحمد رائف ، دار الزهراء ، القاهرة ، ط١ ، عام ٨٨م

(ت)

٥١-التاريخ الإسلامي ، لمحمود شاكر ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ١، عام ١٤١١هـ.

٥٢-تأويل الدعائم للقاضي نعمان بن محمد الإسماعيلي ، تحقيق الأعظمي ، دار

المعارف مصر ، ب.ت.

٥٣-تاريخ الدعوة الإسلامية ، أنور الجندي ، دار القافلة ، السعودية ، طبعة عام ٩٧م .

٥٤-تاريخ النضال بين الاستقلال والاحتلال : أنور الجندي ، دار الطباعة ، القاهرة، طبعة عام ١٩٤٧م.

٥٥-تاريخ مصر الاقتصادي . أمين مصطفى عفيفي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط٣، عام ٥٤م.

٥٦-تاريخ مصر السياسي . أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ب.ت.

٥٧-تاريخ مصر السياسي : أمين سعيد ، دار إحياء الكتب العلمية ، القاهرة ، طبعة عام ١٩٦٧م .

٥٨-تحكيم القوانين للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ .

٥٩-تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت،طبعة عام ١٣٧٤هـ.

٦٠-تعظيم قدر الصلاة لمجد بن نصر المروزي ، مكتبة الدار - المدينة - ط١ ، عام ١٤٠٦هـ.

٦١-تفسير ابن كثير ، تحقيق د/ البناء ، دار بن حزم ، بيروت ، ط١ ، عام ١٤١٩م.

٦٢-تفسير الرازي (التفسير الكبير)(المسمى: مفاتيح الغيب)لفخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام ١٤١١هـ .

٦٣-تفسير الطبري المسمى جامع البيان ، للإمام محمد بن جرير الطبري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، عام ١٩٩٢.

٦٤-تفسير البغوي،المسمى بصالح التنزيل، دار الهيثم ، الرياض،ط٣ ،عام ١٩٩٥.

٦٥-تفسير المنار ، لرشيد رضا دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط١ عام

١٤٢٣هـ .

٦٦-تفسير بن كثير ، تحقيق : مصطفى السيد وآخرون ، مكتبة أولاد الشيخ – القاهرة ط١ عام ١٤٢١ هـ.

٦٧-تفسير جزء عم لمحمد عبده ، مطبعة مجلة المنار القاهرة – ط٢ ، عام ١٣٢٩هـ.

٦٨-تكملة معجم المؤلفين ، محمد خير رمضان ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط ١ ، عام ١٤١٨هـ.

٦٩-تهذيب اللغة للأزهري ، مطبعة البابي الحلبي – القاهرة – ط٢ ، عام ١٣٨٩هـ.

٧٠- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن السعدي دار الذخائر الرياض طبعة عام ١٩٩٤م.

٧١-التصوير الفني في القرآن – سيد قطب ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٩ ، ١٩٨٠م.

٧٢-تطهير الاعتقاد للإمام الصنعاني تحقيق / حلاق ، دار الهجرة ، صنعاء ، ط١ عام ١٤١١هـ.

٧٣-التعريفات للجرجاني ، دار الريان ، القاهرة ، ب. ت.

٧٤-التمهيد ، لابن عبد البر ، تحقيق أسامة إبراهيم ، دار الفاروق ، القاهرة ، ط١ عام ١٤٢٠ هـ.

٧٥-التمهيد لقواعد التوحيد ، لمحمود بن زيد اللامشي الماتريدي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م .

٧٦- التوحيد لابن خزيمة.تحقيق د / عبد العزيز الشهوان دار الرشد ، ط١ ، ١٤٠٨هـ.

٧٧- التوحيد لابن منده ، تحقيق د/ علي الفقيهي مكتبة العلوم والحكم – المدينة

ط١ عام ١٤٢٣هـ .

(ث)

٧٨-الثورة العرابية ، عبد الرحمن الرافعي ، بيروت ، دار نشر ، ط٣ ، عام ١٩٦٦م

٧٩-الثورة والتنظيم السياسي، جلال يحيى ، دار المعارف ، القاهرة ، طبعة عام ١٩٦٦م

(ج)

٨٠-الجامع لشعب الإيمان ، الحافظ أبي بكر أحمد بن حسين البيهقي ، الدار السلفية، الهند ، ط١ عام١٤٠٦هـ

٨١- الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسُّنَّة ، تأليف / سليم الهلالي ، دار البصيرة الإسكندرية ، ب . ت

٨٢-جامع العلوم والحكم لابن رجب ،تحقيق الارناؤوط ، مؤسسة الرسالة ،بيروت ،ط٧ ،عام ٢٠٠٢م

٨٣-جمع الجوامع ، للسبكي ، مطبعة الحلبي - القاهرة - ط٢ - ب . ت

٨٤- جمهرة اللغة لابن دريد ، دار العلم للملايين - بيروت- ط ٢، عام ١٩٨٧م.

٨٥-جهود علماء الحنفية في العقيدة، لشمس الدين الأفغاني، دار الصميعي، الرياض، ط١ ،١٤١٦ هـ

٨٦-جواهر المعاني في فيض أبي العباس التيجاني ، لعلي بن حرازم الفارسي ، دار الجيل ، بيروت ، طبعة عام ١٤٠٨هـ

(ح)

٨٧-الحاكمية في الفكر الإسلامي د. حسن لحساسنه ، كتاب الأمة ، قطر ، العدد ١٢٨ ، سنة ١٤٢٨هـ.

٨٨- الحد الفاصل د/ ربيع المدخلي مكتبة الفرقان عجمان ، ط٣ عام ١٤٢٢هـ .

٨٩-الحدود ، لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي ، مؤسسة الزغبي ، حمص ، ط١، عام ١٣٩٢هـ

٩٠-الحدود لابن سيناء ، تحقيق أميليه حواشن - منشورات المعهد الفرنسي -القاهرة ، ب . ت .

٩١-الحركة الإسلامية ، مجموعة من الباحثين ، تحرير د / عبد الله النفيسي ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ب.ت.

٩٢-حكم الجاهلية لأحمد شاكر ، مكتبة السُّنَّة - القاهرة ط١عام ١٤١٢ هـ.

٩٣-حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني ، دار الكتب العلمية - بيروت ط١ عام ١٤٠٨ هـ .

٩٤-حين غابت الشمس ، لعبد المنعم خفاجي ، دار الوفاء ، القاهرة ،ب .ت

(خ)

٩٥-خصائص التصور الإسلامي ، سيد قطب - دار الشروق - ط١٥ - ٢٠٠٢

٩٦-خلق أفعال العباد للبخاري الدار السلفية الكويت ط عام ١٤٠٥هـ

(د)

٩٧-الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد للشوكاني دار الكتب العلمية ب.ت.

٩٨-الدرر السنية في الأجوبة النجدية ، جمع عبد الرحمن النجدي ،ط٦ ، ب.ت ، عام ١٤١٩هـ.

٩٩-الدلالة العقلية في القرآن ومكانها في تقرير العقيدة . د/ عبد الكريم عبيدات، دار النفائس . الأردن.ط١، ١٤٢٠ هـ.

١٠٠-درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام بن تيمية ، تحقيق : محمد رشاد سالم ، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود - الرياض ،عام ١٣٩٩هـ .

١٠١-دراسات إسلامية ، سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، ط٨ ، عام

١٤١٢هـ.

١٠٢-دراسات في السيرة لمحمد سرور زين العابدين ، دار الأرقم ، بريطانيا ، ط٥، عام ١٤١٤هـ .

١٠٣-دراسات في الفرق والعقائد ، د / عرفان عبد الحميد، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، عام ١٤٠٤ هـ.

١٠٤-دراسات في حضارة الإسلام . هاملتون جب ، ترجمة د / إحسان عباس وآخرون ، دار العلم ، بيروت ، ب .ت.

١٠٥- دعاة لا قضاة، للهضيبي.

١٠٦-دعوة التقريب بين الأديان ، د / أحمد القاضي ، دار بن الجوزي ، الدمام ، ط١ ، عام ١٤٢٢هـ.

١٠٧-دعوة التوحيد لمحمد خليل هراس مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، عام ١٤٠٧هـ.

١٠٨-دلائل الإمامة لأبى جعفر الطبري الشيعي المطبعة الحيدرية النجف طبعة عام ١٣٦٩هـ .

١٠٩- دلائل التوحيد ، لمحمد جمال الدين القاسمي ، دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ١٤٠٥.

١١٠-دلائل النبوة ، البيهقي ، دار الكتب العلمية – بيروت – ط٢ عام ١٤٢٣هـ

١١١- ديوان المتنبي ، دار صادر بيروت ط٢١ عام ١٩٨٥م.

١١٢-ديوان سيد قطب: جمع عبد الباقي محمد حسن ، دار الوفاء ، ط٣ ، عام ١٤١٨هـ.

١١٣-الدين الخالص،لمحمد صديق خان،وزارة الأوقاف،قطر،ط١،عام ١٤٢٨هـ.

(ذ)

١١٤- ذكريات لا مذكرات ، عمر التلمساني ، دار الطباعة الإسلامية ، القاهرة ،

طبعة عام ١٩٨٥م.

(ر)

١١٥-الرد على الجهمية للدارمي الدار السلفية الكويت ط١ عام ١٤٠٥هـ .

١١٦-الرسالة ، للإمام محمد بن إدريس الشافعي ، تحقيق أحمد شاكر - المكتبة العلمية - بيروت - ب .ت.

١١٧-الرسالة الذهبية للشيخ / بكر أبو زيد .

١١٨- الرسالة القشيرية ، لأبى القاسم القشيري ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ب.ت.

١١٩-روضة المحبين لابن القيم،دار الكتاب العربي، بيروت ، ط١، عام ١٤١٤هـ.

١٢٠-رائد الفكر الإسلامي ، الشهيد سيد قطب ، ليوسف العظم ، دار القلم ، دمشق ، طبعة عام ١٩٨٠م.

١٢١-رد الدارمي على بشر المريسي، تحقيق :الفقي طبعة باكستان ،عام ١٤٠٢هـ.

١٢٢-رفع الملام عن الأئمة الأعلام ، لابن تيمية ، دار البصيرة - الإسكندرية - ط١ ، عام ١٤٢٩هـ

١٢٣-روضة التعريف بالحب الشريف ،للسان الدين الخطيب ، دار الفكر ص ٤٩٧، بيروت، د.ت .

١٢٤-روضة الناظر لابن قدامه المقدسي ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ط١ ، عام ١٤٠١هـ.

(ز)

١٢٥- زاد المعاد لابن القيم مؤسسة الرسالة بيروت ط٣٠ عام ١٤١٧هـ.

١٢٦-

(س)

١٢٧-السحر بين الحقيقة والخيال ، أحمد الحمد ، مكتبة التراث ، مكة ، ط١ ، عام

١٤٠٨هـ.

١٢٨-السلام العالمي في الإسلام،سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٢ ، عام ١٩٩٢م.

١٢٩- السُّنَّة لابن أبي عاصم، تحقيق الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت،ط٣ عام١٤١٣هـ.

١٣٠-السُّنَّة ومكانتها في التشريع، د/ مصطفى السباعي- المكتب الإسلامي - بيروت - ط٢ عام ١٣٩٨هـ.

١٣١- السيرة النبوية لابن هشام دار التراث العربي القاهرة ، ب.ت.

١٣٢-سلسلة أعلام المسلمين سيد قطب للخالدي ، دار القلم ، بيروت ، ط٢ ، عام٢٠٠٠م .

١٣٣-سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ، دار المعارف ،الرياض ،ط ١ ، عام ١٤١٥هـ.

١٣٤-سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني ، مكتبة المعارف - الرياض ط٥ ، ١٤٠٨ هـ.

١٣٥-سنن ابن ماجة للحافظ محمد بن يزيد القزويني ، دار المعرفة بيروت ط١ عام ١٤١٩ هـ.

١٣٦-سنن الترمذي ، تحقيق : أحمد شاكر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ب.ت

١٣٧-سنن النسائي ، دار المعرفة ، بيروت ، ب. ت.

١٣٨-سيد قطب . خلاصة حياته ومنهجه في الحركة . محمد توفيق بركات ، دار الدعوة ، بيروت ، ب . ت.

١٣٩-سيد قطب الأديب الناقد . د / عبد الله الخباص ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، ط١ عام ٨٣ .

١٤٠-سيد قطب أو ثورة الفكر الإسلامي) لمحمد علي قطب ، دار الحديث ،

بيروت ، ط٢ ، ب .ت.

١٤١-سيد قطب بين العاطفة والموضوعية ، لسالم البهنساوي.

١٤٢-سيد قطب حياته وأدبه ، لعبد الباقي محمد حسين ،دار الوفاء ، المنصورة ، ط٢ ، عام ١٩٩٣م.

١٤٣-سيد قطب من القرية إلى المشنقة . عادل حمودة ، دار سيناء للنشر ، القاهرة ، ط١ ، عام ١٩٨٧م.

١٤٤-سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد . د / صلاح الخالدي ، دار القلم ، دمشق ، ط٣ ، عام ١٤٢٠هـ.

١٤٥-سيد قطب ومنهجه في التفسير ، إسماعيل أمين الحاج ب.ت.

١٤٦-سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، عام ١٤٠٧م .

١٤٧-

(ش)

١٤٨-الشرك بالله تعالى ، أنواعه وأحكامه ، ماجد محمد شباله ، دار الإيمان ، الإسكندرية ، ط١، عام ٢٠٠٥م.

١٤٩-شريط بعنوان : (رأي معتدل في سيد قطب ، للشيخ الألباني في ١٨/ ٩/ ١٩٩٣م).

١٥٠-شريط بعنوان : (المنهج الصحيح لاستئناف الحياة الإسلامية ، لشيخ الألباني في ١٤/ ١١/ ١٩٩٢م) .

١٥١-شريط بعنوان : (مفاهيم يجب أن تصحح ،للشيخ الألباني).

١٥٢-الشفا في تعريف حقوق المصطفى ، للقاضي عياض اليحصبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ب .ت.

١٥٣-الشهيد سيد قطب، إعداد جماعة أصدقاء الشهيد ، بدون ناشر أو تاريخ .

١٥٤ - الشورى في ظل الحكم الإسلامي - عبد الرحمن عبد الخالق - الدار السلفية الكويت ط عام ١٩٧١م.

١٥٥ -الشوكاني وسيد قطب ، الأبعاد الحضارية ، د / حسن ناصر سرار ، إصدار وزارة الثقافة ، صنعاء ، ط١ عام ٢٠٠٤.

١٥٦ -شيخ العربية : محمود شاكر ،لإبراهيم الرضواني ، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط١٤١٥ هـ.

١٥٧ -شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ، دار الكتب العلمية بيروت ، ب. ت

١٥٨ -شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة لأبي القاسم اللالكائي دار طيبة - الرياض ، ط٦ عام ١٤٢٠ هـ .

١٥٩ -شرح الأسماء الحسنى ،لمحمد بن عمر الرازي ،مكتبة الكليات الأزهرية طبعة عام ١٩٧٦ .

١٦٠ -شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزلي ، تحقيق د / عبد الكريم عثمان ، مكتبة وهبة - القاهرة - ط١ عام ١٣٨٤هـ.

١٦١ -شرح التلويح للتفتازاني ، دار الكتب العربية - مصر - ب . ت.

١٦٢ -شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ب.ت.

١٦٣ -شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ، تحقيق / التركي والأرناؤوط مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٣هـ.

١٦٤ -شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين ، دار ابن الجوزي - الرياض - ط٤ عام ١٤٢٤ هـ .

١٦٥ -شرح ألفية السيوطي ، لأحمد شاكر ، دار المعرفة -بيروت - ب . ت.

١٦٦ -شرح الكبرى للسنوسي ، المكتبة المصرية ، ب.ت،ص ٥٠٢ .

١٦٧ -شرح الكوكب المنير، لابن النجار ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٨هـ.

١٦٨-شرح المسلم ، للملوي ، بهامش حاشية الصبان . مطبعة مصطفى الحلبي - مصر - ط٢ - عام ١٣٥٧هـ .

١٦٩-شرح المقاصد للتفتازاني ، عالم الكتب ، بيروت ، ط٢ ، عام ١٤١٩هـ.

١٧٠- شرح صحيح مسلم للإمام النووي دار المعرفة - بيروت ، ط٣ عام ١٤١٧ هـ .

١٧١-شرح نخبة الفكر لابن حجر العسقلاني مع حاشية بن قطلوبغا ، دار الوطن - الرياض - ط١ ، عام ١٤٢٠هـ.

١٧٢-شريط لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، درس في منزله عام ١٤١٣، تسجيلات منهاج السُّنَّة - الرياض.

١٧٣-شعراء الدعوة الإسلامية ،لأحمد الجدع وحسني جرار ،مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٩٧٨م.

١٧٤-شفاء العليل ، لابن القيم ، دار الكتاب العربي - بيروت - ط١ ، عام ١٤٢٤هـ.

(ص)

١٧٥-الصحاح ، لإسماعيل بن حماد الجوهري - تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين- بيروت - ط٢ ،عام ١٣٩٩هـ.

١٧٦-الصفات الإلهية، لمحمد أمان الجامي ، طبعة الجامعة الإسلامية - بالمدينة النبوية - ط١ ، عام ١٤٠٨ .

١٧٧-الصلة بين العقيدة الحاكمية عند سيد قطب . د/ عبد العزيز الوهيبي ، دار المسلم ، الرياض ، ط٢ ، عام ١٤٢٥هـ.

١٧٨-الصواعق المرسلة ، لابن القيم ، دار العاصمة ، الرياض ، ط٣، ١٤١٨هـ.

١٧٩- الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم، تحقيق، د.علي الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط٣ عام ١٤١٨هـ.

١٨٠-صحيح الإمام البخاري ،محمد بن اسماعيل البخاري ، دار ابن كثير – بيروت – ط٥ ، عام ١٤١٤هـ.

١٨١- صحيح السيرة النبوية للالباني- المكتبة الإسلامية عمان ط ١ عام ١٤٢١هـ.

١٨٢-صحيح سنن ابن ماجة ، الألباني ، مكتبة المعارف – الرياض ط١ عام ١٤١٧هـ.

١٨٣-صحيح سنن أبي داود للألباني ، مكتبة المعارف الرياض ، ط٢ ، ١٤٢١هـ

١٨٤-صحيح مسلم ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط١ ، عام ١٤١٦هـ .

١٨٥-صفحات من التاريخ ، لصلاح شادي، دار الشعاع، الكويت، ط ١ ،عام ١٩٨١م .

(ض)

١٨٦-ضعيف الترغيب والترهيب ، للألباني ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط١ عام ١٤٢١هـ.

١٨٧-ضوء المعاني في شرح بدء المعالي ، للملأ علي القاري ، دار السعادة ، تركيا ب.ت.

١٨٨- ضوابط التكفير ، راشد الراشد ، مكتبة الرشد ، الرياض ، طبعة عام ١٤٢٧هـ.

(ط)

١٨٩-الطبراني في الكبير ، مطبعة الزهراء العراق ط٢ عام ١٤٠٥ هـ.

١٩٠-الطريق نحو حكم إسلامي ، محمد علي ضناوي ، دار الإيمان ، طرابلس ، ب . ت.

١٩١-طبقات الحفاظ للسيوطي ، دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – عام ١٤٠٣هـ.

١٩٢- طريق الهجرتين، لابن القيم المطبعة السلفية القاهرة طبعة عام ١٣٧٥هـ.

١٩٣-طفل من القرية، سيد قطب، الدار السعودية للنشر، جدة، ب. ت .

١٩٤-

(ظ)

١٩٥-ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ، د/ سفر بن عبدالرحمن الحوالي ، دارالكلمة ، هولندا ، ط١ ، ١٤٢٠هـ .

١٩٦-الظلم وأثره السيء على الفرد والمجتمع ، لمحمد عبدالله الحكمي ، دار المجتمع جده ، ط٢ ، ١٤١٥هـ .

(ع)

١٩٧-العالم الرباني الشهيد سيد قطب ، لعشماوي أحمد سليمان ، ب. د ، طبعة عام ١٩٦٩م.

١٩٨- العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار الفضيلة، الرياض، ط١، عام ١٤٢٠هـ.

١٩٩-العدالة الاجتماعية - سيد قطب - دار الشروق ، بيروت ، طبعة عام ١٤١٥هـ .

٢٠٠-العدة في أصول الفقه، للقاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء ، تحقيق د / أحمد المباركي ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط١ عام ١٤٠٠هـ.

٢٠١-العقيدة بين السلف والمتكلمين ، أ .د / حسن شباله ، دار الإيمان ، الإسكندرية ، ط١ ، عام ، ٢٠٠٤م.

٢٠٢-العلمانية ،د / سفر الحوالي ، مكتبة الطيب ،القاهرة ،ط١ ،١٤١٨هـ.

٢٠٣-العلمانية وثمارها الخبيثة لمحمد شاكر الشريف ، دار الرياض للنشر ، ب. ت .

٢٠٤-العواصم ما في كتب سيد قطب من القواصم ، د/ ربيع المدخلي ، دار

الفرقان، عجمان، ط٢ ، عام١٤٢١هـ.

٢٠٥-عالم السحر والشعوذة ، د/ عمر الأشقر ، دار النفائس - الأردن ، ط٢ ، عام ١٤١٨هـ.

٢٠٦-عبد الناصر وعلاقاته الخفية ، أحمد عبد المجيد ، دار الزهراء ، القاهرة ، ط ١ ،١٤١٥هـ .

٢٠٧-عبقري الإسلام ، سيد قطب ، د . سيد بشير كشميري ، دار الفضيلة ، القاهرة ، ب . ت.

٢٠٨-عصر محمد علي باشا ، عبد الرحمن الرافعي ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ط٣، عام ١٩٥١م .

٢٠٩-عقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني تحقيق د/ الجديع دار العاصمة الرياض ط ٢عام ١٤١٩هـ .

٢١٠-العلم يدعو إلى الإيمان ، كريس موريسون ، ترجمة : محمود صالح ، مؤسسة فرانكلين ، القاهرة ، ط٥ ، عام ١٩٦٥م .

٢١١-علم الإعجاز القرآني : د/ خليل رجب الكبيسي ، مركز عبادي ، صنعاء ، ط ١ عام ١٤٢٢هـ.

٢١٢- علماء نجد خلال ستة قرون لعبد الرحمن البسام مكتبة مكة ط١ عام ١٣٩٨هـ.

٢١٣-علماء ومفكرون عرفتهم ، لمحمد المجذوب، دار الشواف ، الرياض ، ط ٤، عام ١٩٩٢م.

٢١٤-عملاق الفكر الإسلامي ، سيد قطب ، للشهيد عبد الله عزام - رحمه الله - مركز شهيد عزام ، بيشاور ، ط١ ، ب. ت.

٢١٥-عوامل تقهقر الأمة المسلمة ، د/ سليم القباطي ، مكتبة الجيل، صنعاء ، ط١، عام ١٩٩٧م.

(غ)

٢١٦-الغاية القصوى في ولاية الفتوى ، للعلامة البيضاوي ، تحقيق : قرة داغي ، دار الإصلاح ، الدمام ، ط١ ، ١٤٠١هـ .

٢١٧-غاية المنتهى في الجمع بين الإقناع والمنتهى ، لمرعى الكرمي ، المؤسسة السعيدية ، الرياض ، ط٢ ، ١٤٠١هـ .

٢١٨-الغنية لطالبي طريق الحق ، لعبدالقادر الجيلاني ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ، ط٣، ١٩٥٦م .

(ف)

٢١٩-فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالسعودية ، ترتيب أحمد الدويش ، دار العاصمة ، الرياض ، ط٣ ، ١٤١٩هـ .

٢٢٠-الفطرة ، حقيقتها ومذاهب الناس فيها ، علي بن عبد الله القرني ، دار المسلم الرياض ، ط١ عام ١٤١٤هـ.

٢٢١-فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم مطبعة الحكومة مكة المكرمة .ط١ عام ١٣٩٩ هـ.

٢٢٢-فتح الباري لابن حجر ، دار الفكر - بيروت طبعة عام ١٤١١هـ.

٢٢٣- فتح القدير للشوكاني المكتبة العلمية - بيروت - ط عام ١٤١٥هـ.

٢٢٤-فتح المغيث للسخاوي ، دار الكتب العلمية - بيروت - طبعة عام ١٤٢١هـ.

٢٢٥-الفروق لأبي هلال العسكري ، دار الآفاق ، بيروت ، ط٥ ، عام ١٤٠٣هـ

٢٢٦-فصوص الحكم لابن عربي ، تحقيق د / أبي العلا عفيفي ، دار الكتاب العربي، بيروت، ب ،ت .

٢٢٧-الفقه الميسر لأحمد عاشور ، دار ال.يوسف ، بيروت ، ب.ت.

٢٢٨-فكر سيد قطب ، لمحمد أبو صعيليك ، الدار الشامية ، عمان ، ط١ ، عام ١٤٢٠هـ.

٢٢٩-في أعقاب الثورة المصرية : عبد الرحمن الرافعي ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ط٢ ، عام ١٩٥٩م.

٢٣٠-في التاريخ فكرة ومنهاج – سيد قطب – دار الشروق ، القاهرة ، ط٨ ، عام ١٤٢٢هـ.

٢٣١-في ظلال القرآن – سيد قطب . دار الشروق ، القاهرة ، بيروت ، ط٣٠ ، عام ٢٠٠١م.

٢٣٢-في ظلال القرآن رؤية استشراقية فرنسية : تأليف أوليفيه كاريه ، ترجمة / محمد رضا حجاج ، دار الزهري ، القاهرة ، ط١ ، عام ١٤١٣هـ.

٢٣٣-في ظلال القرآن في الميزان ، د/ صلاح الخالدي ، دار عمار الأردن ، ط٢ عام ١٤٢١هـ.

(ق)

٢٣٤-القاموس المحيط ، للفيروز أبادي ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط٥ ، عام١٤١٦هـ .

٢٣٥- القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسُّنَّة ، د/ عبد الرحمن المحمود ، الدار الدولي – الرياض- ط١ ، ١٤١٤هـ.

٢٣٦-القواعد الفقهية ، لابن رجب الحنبلي . دار المعرفة ،بيروت ، ب. ت.

٢٣٧-الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي.

٢٣٨-قصة الأدب المصري ، عبد المنعم خفاجي ، المطبعة اللندنية ، ط١ ، عام ١٩٥٦م.

٢٣٩-قواعد التكفير ، عبد المنعم حليمه ، دار البشير ، الأردن ، ط١ ، عام ١٤١٥هـ.

٢٤٠-قوانين حكم الإشراق للشاذلي ، الكليات الأزهرية – القاهرة – ١٣٨٠هـ

٢٤١-القول السديد للسعدي ، طبعة الجامعة الإسلامية ، المدينة عام ، ١٤٠٤هـ

٢٤٢-

(ك)

٢٤٣-الكشاف للزمخشري دار إحياء التراث العربي بيروت ط١ عام ١٤١٧هـ .

(ل)

٢٤٤-الله ، لعباس العقاد ، دار الهلال ، القاهرة ، ب . ت .

٢٤٥-لسان العرب لابن منظور ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٣ ، عام ١٤١٣هـ.

٢٤٦-لسان الميزان لابن حجر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، عام١٩٩٦م.

٢٤٧-لماذا أعدموني - سيد قطب - بدون دار النشر ولا تاريخ.

٢٤٨-لوامع الأنوار البهية للسفاريني مؤسسة الخافقين، دمشق ط٢ عام ١٤٠٢هـ.

(م)

٢٤٩-المحصول للرازي، تحقيق د/ جابر العلواني،مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، عام ١٤١١هـ .

٢٥٠- المدخل لدراسة العقيدة، د. إبراهيم البريكان، دار ابن عفان، الرياض، ط٥، عام ١٤١٨هـ.

٢٥١-المستدرك على الصحيحين ، للحاكم النيسابوري ، دار الكتب العلمية، بيروت، ب. ت.

٢٥٢- المستصفى في علم الأصول لأبي حامد الغزالي دار الأرقم الكويت ط٣ عام ١٤٢٠هـ .

٢٥٣-المستقبل لهذا الدين - سيد قطب - دار الشروق ، القاهرة ، ط١٦ ، عام ١٤٢٥هـ.

٢٥٤-المسودة في أصول الفقه لآل تيمية ، تحقيق د / أحمد الدوري ، دار الفضيلة ،

الرياض، ط ١٤٢٢هـ.

٢٥٥- المصطلحات الأربعة لأبي الأعلى المودودي، دار الفكر، الكويت،ط١، عام ١٤٠١هـ.

٢٥٦- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقي - دار الحديث - القاهرة طبعة ١٤٢٢هـ .

٢٥٧-المعجم الوسيط ، د / إبراهيم أنيس وآخرون ، دار الفكر -بيروت ، ط٢ ، ب . ت.

٢٥٨- المعجم الوسيط، إعداد مجمع اللغة العربية ، طبعة المكتبة الإسلامية، تركيا، ب.ت.

٢٥٩-المفردات من غريب القرآن للراغب الأصفهاني، دار القلم ، بيروت ،ط٢ ١٩٩٧م .

٢٦٠-المفسرون بين التأويل والإثبات للشيخ / محمد بن عبد الرحمن المغراوي ، مؤسسة الرسالة - بيروت- ط١ -١٤٢٠هـ،.

٢٦١-الملل والنحل للشهرستاني، مكتبة الانجلومصرية، القاهرة ، ط٢ ،ب .ت.

٢٦٢-المنهج الحركي في ظلال القرآن ، د / صلاح الخالدي دار عمار الأردن ط٢، عام ١٤٢١هـ.

٢٦٣-ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبي الحسن الندوي،دار الكتاب العربي، بيروت ، ط٦ ، عام ١٩٦٥م.

٢٦٤-مباحث علوم القرآن، لمناع القطان ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ط ٨.

٢٦٥-متن الأوطار للإمام الشوكاني ، دار الجيل ، طبعة عام ١٩٧٣م .

٢٦٦-مجموع رسائل ومقالات الشيخ عبد الله بن قعود ،جمع : عبد الله آل مهنا ، دار طيبة الخضراء ، مكة ، ط٢، عام ١٤٢٧ هـ.

٢٦٧-مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع عبد الرحمن النجدي ، طبعة

عام ١٤١٨هـ.

٢٦٨-مجموع فتاوى ورسائل الشيخ : محمد بن إبراهيم ، مطبعة الحكومة ، مكة ، ط١ ، عام ١٣٩٩هـ .

٢٦٩-محمد حسين ،دار الوفاء ، المنصورة ، ط٢ ، عام ١٩٩٣م .

٢٧٠-مختار الصحاح لأبي بكر الرازي ، دار الفكر، بيروت، عام ١٤٠١هـ.

٢٧١-مختصر الصواعق المرسلة . للموصلي ، دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – عام ١٤٠٥هـ.

٢٧٢-مختصر العلو للعلي الغفار ، للشيخ الألباني ،المكتب الإسلامي ،بيروت ، ط١، عام ١٤٠١ .

٢٧٣-مدارج السالكين لابن القيم دار الكتاب العربي ط٣عام ١٤١٦هـ .

٢٧٤-مدخل إلى ظلال القرآن ، د / صلاح الخالدي ، دار عمار ،الأردن ،ط٢ ، عام١٤٢١هـ .

٢٧٥-مذابح الإخوان في سجون ناصر ، لجابر رزق ، دار الوفاء ، القاهرة ، ط١٩٨٦م .

٢٧٦-مذاهب فكرية معاصرة ، محمد قطب ، دار الشروق ، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.

٢٧٧-مذكرات سائح في الشرق الإسلامي، لأبي الحسن الندوي ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط٢ ، عام ١٩٧٥م.

٢٧٨-مذكرة في أصول الفقه للشيخ / محمد الأمين الشنقيطي ، دار القلم – بيروت – طبعة ١٣٩١هـ.

٢٧٩-مراتب الإجماع لابن حزم دار أبن حزم بيروت – ط١ عام ١٤١٩هـ .

٢٨٠-مسند الإمام أحمد ، للمصنف الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١، عام ١٤٢٠هـ.

٢٨١-مشاهد القيامة في القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، ط١٥، عام

٢٠٠٤م.

٢٨٢-مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي ، تحقيق الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٥هـ.

٢٨٣-مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ربيع ، الدكتور/ المدخلي.

٢٨٤-مع سيد قطب في فكره السياسي والديني ، د / مهدي فضل الله . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، عام ١٩٧٨م.

٢٨٥- معارج القبول للحكمي دار ابن القيم - الدمام ط٣ عام ١٤١٥هـ.

٢٨٦-معالم في الطريق - سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، ط١٥ ، عام ١٩٩٦م.

٢٨٧-معتقد أهل السُّنَّة والجماعة ، لمحمد بن خليفة التميمي ، دار الحريري - القاهرة ، ب.ت.

٢٨٨-معجم ألفاظ القران - مجمع اللغة العربية - القاهرة طبعة ١٤٠٩هـ.

٢٨٩-معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، دار إحياء التراث، بيروت، ب.ت .

٢٩٠-معجم مقاييس اللغة لابن فارس - دار الجيل - بيروت ب.ت.

٢٩١-معركة الإسلام والرأسمالية- سيد قطب - دار الشروق - القاهرة ، ط١٣، عام ١٤١٤هـ.

٢٩٢-معركة السفور والحجاب ، لمحمد أحمد إسماعيل المقدم ، دار طيبة الرياض، ط ٣ ، عام ١٩٠٨م.

٢٩٣-معركتنا مع اليهود سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ط١٤،٢٠٠١م.

٢٩٤-المغني لابن قدامة تحقيق د/ التركي ، دار هجر ، القاهرة ، ط٢ ، عام ١٤١٨هـ.

٢٩٥- مفتاح دار السعادة لابن القيم، دار ابن عفان، الرياض، ط١، عام ١٤١٦هـ.

٢٩٦-مقالات الاسلاميين ، لأبي الحسن الأشعري ، تحقيق / محمد محي الدين ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ط٢ ، عام ١٣٨٩هـ.

٢٩٧-مقدمة ابن خلدون ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ب.ت .

٢٩٨-مقدمة مجموع فتاوى ابن عثيمين.

٢٩٩-مقومات التصور الإسلامي ،سيد قطب ،دار الشروق ،بيروت ،ط ٥، ١٩٩٧م.

٣٠٠-من أعلام الحركة الإسلامية ،للمستشار عبد الله العقيل، دار التوزيع، القاهرة ، طبعة عام ٢٠٠٠م .

٣٠١-من أعلام المسلمين سيد قطب ، د / صلاح الخالدي ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، عام ٢٠٠٠م.

٣٠٢-منازل السائرين ، لأبي إسماعيل الهروي ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر -ط٢- ب.ت.

٣٠٣-مناهج الأدلة في عقائد الملة ، لابن رشد ، تحقيق د/ محمد قاسم . ط٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ب.ت.

٣٠٤-مناهل العرفان ، للزرقاني ، دار الفكر - بيروت ، ط عام ١٤٠٨هـ.

٣٠٥-منهاج السُّنَّة لابن تيمية، تحقيق/ محمد رشاد سالم، جامعة الإمام، الرياض، ط١، عام ١٤٠٦هـ.

٣٠٦-منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السُّنَّة، لعثمان بن علي حسن، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط٤ - ١٤١٨هـ .

٣٠٧- منهج الإمام الخطابي في العقيدة للحسن بن عبد الرحمن العلوي ، دار الوطن - الرياض - ط(١)- ١٤١٨هـ.

٣٠٨-منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل للدكتور / محمد السحيباني ، دار

الوطن ، الرياض ، ط١ ، عام ١٤١٧هـ.

٣٠٩-منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة ، لتامر محمد متولي ، دار ماجد عسيري ، جدة ،ط١ ، عام ١٤٢٥هـ.

٣١٠-منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات" للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، طبعة الجامعة الإسلامية عام ١٤٠١هـ.

٣١١-مهمة الشاعر في الحياة ، سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، ب . ت.

٣١٢- الموافقات للإمام الشاطبي دار الكتب العلمية بيروت ب.ت.

٣١٣- المواقف في علم الكلام ، عبد الرحمن الإيجي، دار عالم الكتب- بيروت، ب.ت.

٣١٤- الموتى يتكلمون ، سامي جوهر ، المكتب المصري الحديث ،القاهرة ، ط٢ ، عام ١٩٧٧م.

٣١٥-المورد العذب الزلال في التنبيه على أخطاء الظلال ، للشيخ / عبد الله بن محمد الدويش ، دار العليان ، بريده ، ط١ ، عام ١٤١١هـ.

٣١٦- موسوعة الإجماع لسعدي أبوجبيب.

٣١٧-موسوعة الأحاديث والآثار الضعيفة والموضوعة ، مجموع مؤلفين ، مكتبة المعارف – الرياض ،ط١ عام ١٤١٩ هـ.

٣١٨-موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، د/ أحمد شلبي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٥ ، عام ١٩٩٢م ،.

٣١٩-الموسوعة الميسرة في الأديان المعاصرة ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض ، ط٣ ، عام ١٤١٨هـ.

٣٢٠-الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض ، ط١ ، عام ١٤١٦هـ.

٣٢١-موسوعة تاريخ مصر . لأحمد حسين ، دار الشعب ، القاهرة ، ب .ت.

٣٢٢-موقع الإسلام الذهبي.

٣٢٣-موقع الإسلام اليوم .

٣٢٤-موقع ابن جبرين على الانترنت.

٣٢٥-موقف البشر تحت سلطان القدر ، لمصطفى صبري ، المطبعة السلفية - القاهرة - ط١ - ١٣٥٢هـ.

٣٢٦-موقف العقل والعلم من رب العالمين . لمصطفى صبري ، دار إحياء التراث - بيروت، ب.ت .

٣٢٧-ميلاد ثورة ،محمد عودة ،دار الجمهورية ، القاهرة ،طبعة عام ١٩٧١م.

(ن)

٣٢٨-النبوات لابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط عام ١٩٨٢م .

٣٢٩-النبوة و الأنبياء ، محمد بن علي مكتبة الغزالي ، طبعة عام ١٤٠٠هـ.

٣٣٠-النجوم الزاهرة ، لابن تغري بردي ، دار الكتب ،بيروت ،ب-ت.

٣٣١-النحو الوافي ، لعباس حسن : دار المعارف - مصر - ط ٤ ب.ت.

٣٣٢-نحو مجتمع إسلامي - سيد قطب - دار الشروق - بيروت طبعة عام ١٤١٥هـ.

(هـ)

٣٣٣-هدي الساري مقدمة فتح الباري ، لابن حجر، دار الفكر، بيروت، ط عام ١٤١١هـ.

٣٣٤-هذا الدين لسيد قطب ، دار الشروق ، بيروت، ط٧ ، عام ١٤٠٢هـ.

(و)

٣٣٥-واقعنا المعاصر . محمد قطب ، مؤسسة المدينة ، جدة ، ط٣ ، عام ١٩٩٠م .

٣٣٦-وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة للشيخ / محمد ناصر الدين الألباني ، المكتبة الإسلامية ، عمان ، ط٢ ، عام ١٤٢٢هـ.

٣٣٧- الوحي المحمدي ، لمحمد رشيد رضا ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ٩ عام ١٣٩٩.

٣٣٨-وفيات الأعيان لأبن خلكان ، دار صادر ، بيروت ، ب .ت.

٣٣٩-واقعنا المعاصر . محمد قطب ، مؤسسة المدينة ، جدة ، ط٣ ، عام ١٩٩٠م.

(ي)

٣٤٠-اليوم الأخر في القرآن والسُّنَّة د/ عبد المحسن المطيري- دار البشائر - لبنان - ط٢-عام ١٤٢٧هـ.

٣٤١- اليوم الأخر في ظلال القرآن - احمد فائز - مؤسسة الرسالة ، ط٢٨ عام ١٤١٨هـ.

ثالثاً: المجلات :

٣٤٢-مجلة (كلمة الحق) السُّنَّة الأولى - العدد الثاني - مايو ١٩٦٧م.

٣٤٣-مجلة الدعوة ، العدد ١٥٩١ ، بتاريخ ٩/ ١/ ١٤١٨هـ .

٣٤٤-مجلة الرسالة ، العدد ٣٩٤ لسنة ١٩٤١م.

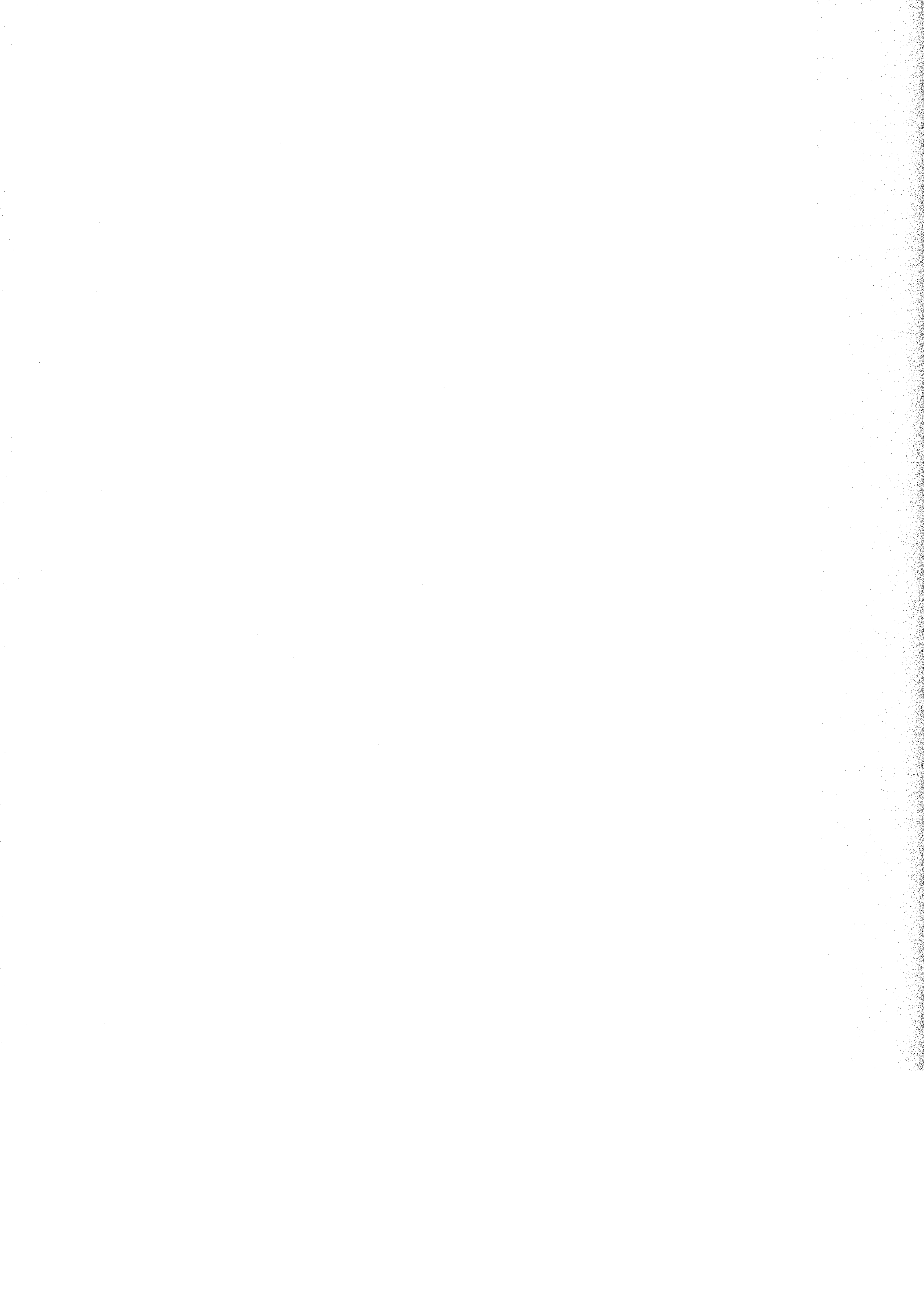
٣٤٥-مجلة الرسالة ، ج١ ، العدد ٦٥٣ ، سنة ١٩٤٦م.

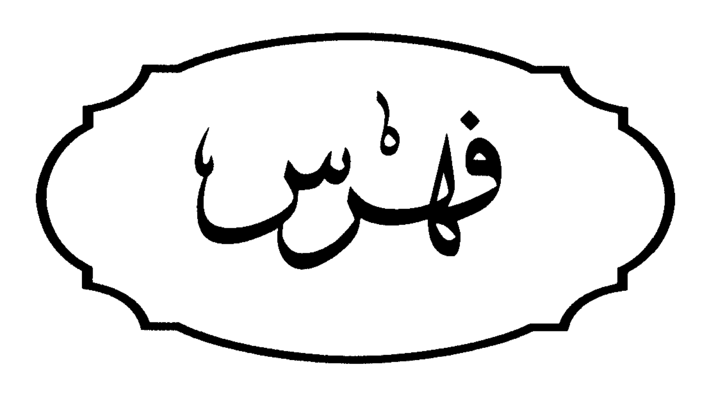
٣٤٦-مجلة الشهاب ، العدد ٣ سنة ١٣٩٣هـ.

٣٤٧-مجلة الشهاب اللبنانية ، عدد٢١ بتاريخ ١٦/ ٢ / ١٣٩٣هـ.

٣٤٨-مجلة الشهاب اللبنانية العدد ٢١ ، صفر عام ١٣٩٣هـ.

٣٤٩-مجلة المجتمع ، عدد ٨٣٢ بتاريخ ١/ ٩ / ١٩٨٧.




فهرس



فهرس

تم بحمد الله